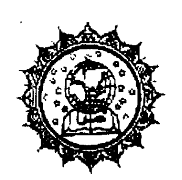
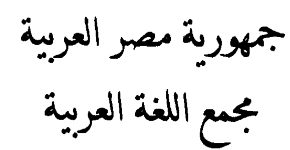




جمهورية مصر العربية

مجمع اللغة العربية

اللهجات العربية

الفصحى والعامية

(٢)

جمع وإعداد

ثروت عبد السميع

المحرر بالمجمع

إشراف

د. كمال بشر

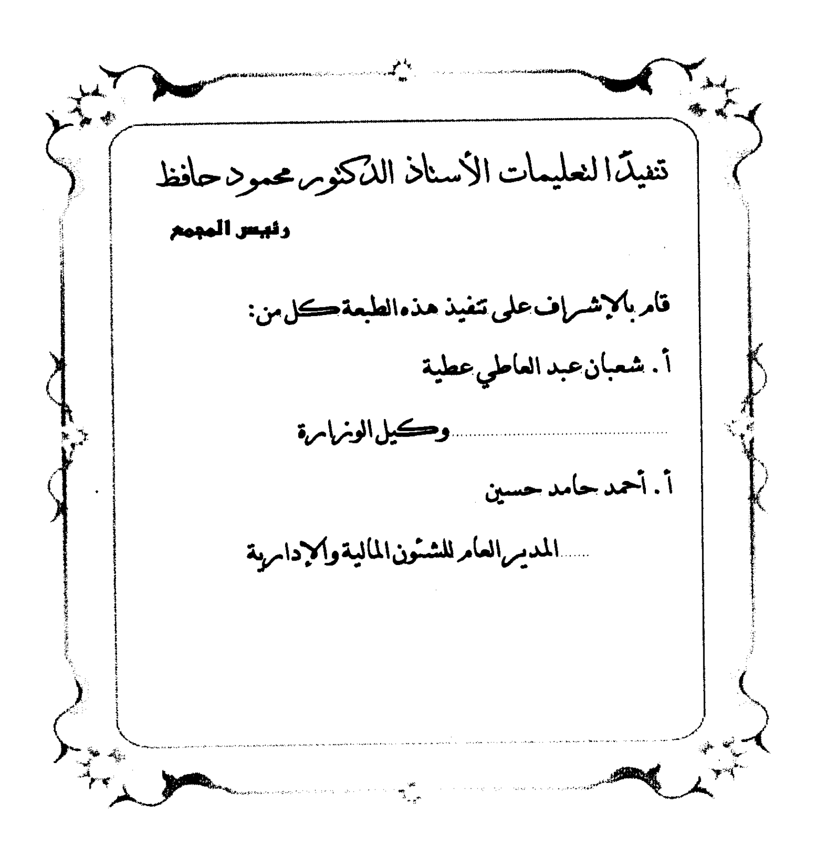
نائب رئيس المجمع

مقرر لجنة اللهجات

القاهرة

١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم



تنفيذاً لتعليمات الأستاذ الدكتور محمود حافظ

رئيس المجمع

قام بالإشراف على تنفيذ هذه الطبعة كل من:

أ. شعبان عبد العاطي عطية

.................وكيل الوزارة

أ. أحمد حامد حسين

.......المدير العام للشئون المالية والإدارية

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م

المحتويات

الموضـــــوع		الصفحة

أولاً– في الصراع بين الفصحى والعامية:

ثانيًا– في التقريب بين الفصحى والعامية:

ثالثًا– المجامع والتدوين ودورهما في المحافظة على اللغـــة وتقريـــب الشُّقّة بين الفصحى والعامية:

رابعًا - الفصحى والعامية في وسائل الإعلام:

أولاً:

في الصراع بين الفصحى والعامية

بين الفصحى ولهجاتها(*)

للأستاذ محمد رضا الشبيبي

(عضو المجمع)

اجتاز الشرق القريب في الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين، الأولى والثانية، مرحلة حافلة بالأحداث، اتسمت بنمو الحركة الفكرية. ويصح أن تُدعى فترة الوعي واليقظة.

امتازت هذه المرحلة بإثارة كثير من الموضوعات، حمي فيها الوطيس، وتعددت فيها المعارك، ومنها معركة القديم والجديد، في مختلف نواحي الحياة: من سياسية إلى اجتماعية واقتصادية، ثارت بين المجددين والمحافظين أينما وُجدوا. وفي مقدمتها معركة اللغة والكتابة العربية واللهجات؛ إذ ظهرت دعوة ترمي إلى اصطناع هذه اللهجات الإقليمية المحرفة عن الفصحى في بعض أقطار الشرق القريب، وحاول المحاولون أن يثيروا حربًا عوانًا على اللغة، ووضعوا في هذا الباب ما وضعوه، من كتب ورسائل ومقالات.

يهوّل بعض المعنيين في هذا الشأن بعنف الصراع القائم بين الفصحى واللهجات المحلية، ويشيرون إلى قيام ضرب من تنازع البقاء بين الجانبين، ويضربون الأمثال من اللغة اللاتينية ولهجاتها، بل من اللغة العربية وأخواتها الساميات، على اعتبار أنها لهجات تفرعت من أصل سامي بائد، ثم يسرفون في التكهنات والاحتمالات.

ظن فريق من هؤلاء الباحثين أنهم أول من طرق باب البحث عن اللهجات، وأنه لم يحم حول هذا الموضوع أحد من قبل، مع أن غير واحد من أعلام الأدب واللغة وأئمة القراءات، أشاروا إلى فساد اللسان، وإلى اضطراب اللهجات اللغوية المحلية، وشذوذها في عصورهم. ولهؤلاء اللغويين القدماء عناية فائقة بالبحث عن اللهجات، ومن هذا القبيل تلك الرسائل والكتب التي جردت فيما تلحن فيه العامة أو الخاصة.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثامنة من جلسات مؤتمر المجمع، في دورته الثامنة عشرة يوم الخميس ٢٤ من يناير سنة ١٩٥٢، وأحيل إلى لجنة الأصول، ورأت اللجنة الموافقة على ما جاء بالبحث، ونشر بمجلة المجمع، بالعدد التاسع، ص ٧٠.

وكم من معركة أثيرت بين اللغويين في هذا الباب، مرماها انتقاد اللهجات وإصلاح ما اعتراها من فساد، وهي كتب كثيرة، وجلها متداول معروف. ولما استفحل شأن اللهجات في العصور الأخيرة، وطغى على اللغة سيل جارف من الكلمات الدخيلة، وفطن المعنيون بذلك إلى الخطر الذي يتهدد العربية من هذه الناحية، بدر اللغويون المحدثون إلى العناية بالبحث عن أصول الكلمات العامية وردها إلى الفصحى، وأوجدوا أوضاعًا لغوية، ومصطلحات عربية تقابل الأوضاع والمصطلحات الدخيلة، واختاروا أسماء لمسميات هجمت بها علينا هذه الحضارة الحديثة، وقد وُضعت في ذلك معجمات ورسائل لغوية كثيرة.

من ذلك يتضح لنا أن البحث عن اللهجات قد اتخذ أطوارًا شتى يعرفها من أَلَمَّ بتاريخ آداب اللغة العربية في مختلف العصور. وهذا ابن خلدون عالج موضوع اللهجات المتفرعة عن لغة مضر على توجه يُفهم منه أنها كانت متميزة في عصره، وهو يسميها "لغة الجيل" ويقارن بينها وبين "اللغة المضرية". وقد أفرد في مقدمته المشهورة فصولاً للبحث في هذا الشأن، منها فصل عنوانه: "لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير"وآخر عنوانه: "لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر" إلى فصول أخرى، يشير ابن خلدون في بعضها إلى مميزات لهجة عصره أو لغة جيله كما يقول، ومن تلك المميزات: زوال الإعراب"، و"ظهور الوقف في آخر الكلمات".

من ذلك نعلم أن اللهجات -بمعنى من المعاني- قديمة قدم اللغة، ومن هذا القبيل لهجات القبائل اللغوية في الجاهلية وصدر الإسلام، وهي اللهجات التي استند إليها القراء في تخريج القراءات، وأشار إليها المؤلفون في هذا الفن، وتُعتبر هذه اللهجات كلها فصيحة مع أن بعضها شاذ مهجور، ثم تفرع عن الفصحى نوع آخر من هذه اللهجات المحلية فشا فيه التحريف وفسد النطق، فأصبح للكتابة لغتها، وللكلام لهجته، وذلك في الأقطار التي استقر بها العرب والمسلمون الفاتحون في أولى عصور الدول الإسلامية بعد عصر الراشدين.

ما من شك أن الشقة تباعدت - ولم تزل - بين اللغة الأصلية وفروعهـــا، وأن الجفاء والشذوذ تفاقم بمرور الأيام؛ حتى زعم من زعم أن بين هذه اللهجات المتعـــددة من جهة، وبين أمها الفصحى من جهة أخرى صراعًا مريرًا، وأن نتيجة هذا الـــصراع تغلب إحدى هذه اللهجات واندماج سائرها في لهجة بعينها، ثم تصبح لغـــة مـــستقلة نصطنعها في الكتابة والكلام سواء بسواء، ومن المحال في زعم هؤلاء الزاعمين أن تبقى الفصحى محتفظة بوحدتها الأولى زمنًا طويلاً مع هذه الفوارق، وهم يتوقعون أن تتحول هذه اللهجات يومًا ما إلى لغات مستقلة قائمة بنفسها، غير مفهومة أي للمتكلمين بها، كما أن الفصحى ستكون لغة غير مفهومة للمتكلمين بهذه اللهجات بالمرة. وهو فيمـــا ترى، إسراف في التكهن والرجم بالغيب، ويزيد بعضهم على ذلك قـــائلاً: إن لهجـــة القاهرة الشائعة هي لغة المصريين في المستقبل،ولماذا لا يقال في لغة المجتمع المصري هذه: إنها هي لغة الطبقة المثقفة المتعلمة بعينها، وهي هذه الفصحى السليمة الموحدة من حيث النطق، ومخارج الحروف، وإن كانت عارية من الإعراب، لا تلك اللهجات الشاذة!

يغالي أنصار اللهجات بآرائهم قائلين: **إن هناك صراعًا بين الأم وفروعهـــا، أو بين الفصحى ولهجاتها**. ونحن نقول لهم: لماذا لا يسفر هذا الصراع أو تنازع البقاء عن نتيجة حاسمة يصح فيها الـــصحيح، ويبقى الأصلح نـــزولاً على حكم مذهب النـــشوء والارتقاء؟

ويدوم صراع لغوى مدة تشارف الألف والثلاثمائة سنة؟ والحق أنه ليس هنـــاك صراع، بل هناك ازورار وانحراف في هذه اللهجات المحلية، من مصرية وعراقية وشامية ومغربية، فما هذه اللهجات سوى اللغة العربية محرفة عن أصلها: كانت الفصحى معربة فحل الوقف محل الإعراب، وكان التلفظ والنطق موحدًا، فطرأ ما طرأ عليهمـــا مـــن الاضطراب والفساد والتحريف والتشويه، بسبب هجرة المسلمين والعرب الفاتحين إلى شتى الأقطار البعيدة عن الجزيرة العربية.

ليس من الإنصاف، ولا من الصواب أن ندعو ما نحن بـــصدده صـــراعًا بـــين الأصول والفروع بل هو ضرب من الشذوذ والانحراف، لابد أن ينتـــهي إلى صـــلح

ووئام، ومن الخطأ قياس من يقيس ما حدث للفصحى بما حدث للاتينية، أو السامية البائدة، ثم يسرفون في التكهن والاحتمالات البعيدة، ويتوقعون أن تتخلى الفصحى عن مكانتها لتدخل في ذمة التاريخ، في بلد كالعراق ومصر والشام والمغرب، كما دخلت اللاتينية في ذمة التاريخ في الأقطار المأهولة بالشعوب اللاتينية، وقد تكفلت بحفظ الفصحى وحياطتها وخلودها معجزة القرآن؛ فلولا إعجاز القرآن لجاز أن يحدث لهذه اللغة ما حدث من قبل ذلك للغة اللاتينية.

تجتاز هذه الأقطار المأهولة بالناطقين بالضاد مرحلة عصيبة، وهذه الشعوب الآن أحوج ما تكون إلى التفاهم والتعاون ووحدة اللغة. ولو اصطنعنا هذه اللهجات الفاسدة لاستحال تحقيق الوحدة اللغوية، ولتعسر التفاهم أو التخاطب بين الشعوب المذكورة.

ما أكثر عيوب هذه اللهجات ومساوئها، وفي مقدمتها أنها عاجزة عن تكوين تلك الوحدة، فلكل قطر لهجته ومميزاتها التي تجعل منها أداة غير صالحة للتفاهم في أمة تسعى لتحقيق وحدتها اللغوية.

ولنا أن نقول في مساوئ اللهجات أكثر من ذلك، فإنها في القطر الواحد يسرع إليها الانحلال، فهي عرضة للاضطراب والفساد، فها نحن أولاء نجد لكل إقليم عندنا في العراق، بل لكثير من الحواضر أحيانًا لهجة خاصة، فأهل الموصل في الشمال لهم لهجتهم، وهي لهجة لا يستسيغها أهل بغداد وأواسط العراق؛ لاختلافها عن لهجتهم المألوفة وأهل البصرة في الجنوب يعرفون بلهجة تختلف بعض الاختلاف عن لهجة بغداد، وعلى كل فإن لهجة أهل الريف عندنا تختلف عن لهجة أهل الحواضر اختلافًا ظاهرًا، ومثل ذلك الاختلاف بين لهجات الريفيين القاطنين في البطائح والبحيرات ولهجات القبائل الرُّحَّل في العراق. وفي وسعك أن تعرف بلد المتكلم أو قطره من لهجته، وليس هذا الأمر فيما نرى خاصًّا بالعراق: فمصر وسورية وأقطار المغرب لا تختلف عن العراق من هذه الناحية، والمعروف هنا أن لأهل الصعيد لهجة خاصة، وتشبهها - فيما قيل لي - لهجة أهل الشرقية والبحيرة، ويبدو لي - على ما أكد لي غير واحد من أدباء مصر -

أن لهجة أهل الصعيد أقرب إلى لهجات أهل البادية في بعض أقطار الشرق العربي كالعراق والشام، فإن الحروف التي أصبحت أثرًا بعد عين في منطق أهل القاهرة والإسكندرية، وما إلى هذه الجهات، مثل: القاف، والثاء المثلثة، والجيم الفصيحة لا تزال باقية على حالها في منطق أهل الصعيد، وهي كذلك في لهجة أهل العراق.

فنحن بأمس الحاجة - والحالة هذه - إلى لهجة موحدة، ولا غنى لنا إذا أردنا التفاهم عن تكوين هذه الوحدة. وقد اعترف غير واحد من الأساتذة المصريين الذين زاولوا مهنة التدريس في مدارس العراق بأثر الفصحى في تكوين الوحدة اللغوية المنشودة.

لماذا يُعنى أبناء الشرق العربي، بل شعوب الشرق الإسلامي، باقتناء المؤلفات المصرية الحديثة، بل باقتناء المطبوعات المصرية مهما كانت؟ ولماذا هذا الإقبال العجيب على مؤلفات أعلام المصريين المعاصرين؟ ولماذا يعجب من يعجب بترسُّلهم؟ ولماذا يُؤخذ من يؤخذ بسحر بيانهم، في أقطار الشرق والغرب المأهولة بمن ينطق الضاد؟

قد تعجبون إذا قلت لكم: إن مرد ذلك لا إلى معالجة الأبحاث العلمية، أو الموضوعات الأدبية في حد ذاتها، وإنما لسبك تلك الموضوعات، وأدائها بأساليب لغوية أصيلة البيان مشرقة الديباجة، فهذه الطبقة من الكُتَّاب والمؤلفين المصريين طرست على آثار الطبقة الأولى من المترسلين في الفصحى، وحذت حذو الجاحظ وابن المقفع، وعبد الحميد الكاتب، والصابئ، وغيرهم من أئمة المترسلين، ونهجت منهجهم في البيان والبلاغة. فشعوب العرب والإسلام- وقد أصبحت شعوبًا واعية يقظة في عصرنا هذا- تُعنى العناية كلها ببعث الأساليب العربية الأصيلة، وتعتز بإقالة الفصحى من عثرتها بعد كبوة طويلة، فعصرنا هذا يمتاز بنمو العاطفة القومية والشعور الصادق، والاعتزاز بالأدب القيم، والتطلع إلى بعث تراثه القديم.

ولو أن هؤلاء الأعلام المصريين استجابوا لدعوة الدعاة إلى اصطناع اللهجات فيما يكتبون وينشئون لأعرض الناس في الشرق كله من عرب ومسلمين عن اقتناء ما

يصدر إليهم من مطبوعات هذه البلاد، ولا نبالغ إذا قلت لكم: إننا نعتبر هذه الدعوة خطرًا على اطراد الوعي ونمو الشعور. ونحن واثقون أنها دعوة ضعيفة لا تستطيع الصمود في طريق هذا الوعي المطرد، إلا كما يصمد الهشيم في سبيل السيول الجارفة، فهذا الوقوف في طريق اليقظة الراهنة مخالف لطبيعة الأشياء، وهو إذا جاء عن طريق التساهل في الوحدة اللغوية أدهي وأمر.

لا غنى لشعوب الشرق العربي، وفي طليعتها العراق والشام، ولا غنى لشعوب الغرب العربي، وفي طليعتها مصر وإفريقية، عن هذه الوحدة اللغوية، والرابطة المعنوية التي تتجلى في الفصحى دون غيرها من اللهجات.

نعم إن الصعوبة في الفصحى تأتي من ناحية الإعراب، وقد زال هذا الإعراب؛ لأنه لم يعد عمليًّا في عصرنا الحاضر على الأقل، فلنحافظ على سلامة لغتنا الفصحى وتوحيد لهجاتها، وتقويم النطق بها، ولو بالتخلي عن الإعراب إلى حين، إلا في التلاوة وما إليها، على أن يُنظر في حلّ مشكلة الإعراب، وأن يُعهد بذلك إلى المتخصصين المنقطعين لهذه الدراسات. ولا شبهة أن الكتاب المجيد تكفل بحفظ الإعراب. وقد يُعلل زوال الحركات أو الإعراب عن أواخر الكلمات أن العرب كانوا في الجاهلية وفي صدر الإسلام مطبوعين على الحركة واحتمال المشاقّ في حِلّهم وترحالهم وفي مغازيهم؛ فما كانوا يجدون جهدًا أو كلفة في تحريك أواخر الكلمات. فلما أخلدوا إلى الترف، وسكنوا إلى النعيم في المدن الزاخرة، مالوا إلى الوقف والسكون. ولا يخفى أن الإعراب أو تحريك أواخر الكلمات يقتضي جهدًا لا يقتضيه الوقف والإسكان.

وبمثل ذلك يعلل تسهيل بعض الحروف أو زوالها من النطق بتاتًا في هذه اللهجات، حيث يتطلب النطق بها بذل بعض الجهد والطاقة.

يجب أن تنتظم هذه الأقطار رابطة وثيقة من الوحدة اللغوية أو الوحدة الأدبية، ولا يمنع ذلك قطرًا من هذه الأقطار أن يستقل سياسيًّا عن سواه، وهكذا نحن نرى رابطة الشعوب البريطانية تعززها رابطة وثيقة من الوحدة اللغوية، وكم نوه قادة هذه

الشعوب، وكم أشادوا بذكر هذه الرابطة؛ لأن في تعزيز هذا النوع من الوحدة ضمانًا أكيدًا لكثير من مصالح الشعوب المذكورة معنوية ومادية، ومدعاة لتعاونها وتضافرها، واتحادها في الملمات.

يُروى فيما يُروى عن "بسمارك" بطل الوحدة الألمانية، أنه قال: "أهم حقيقة يمكن تسجيلها في القرن التاسع عشر هي الوحدة اللغوية بين بريطانيا وأمريكا" والظاهر أن هذا الداهية الألماني كان يحسب حساب هذه الوحدة وخطرها البالغ على الشعوب الألمانية. وقد قال "تشرشل" منذ أسبوع فقط- أي في اليوم السابع عشر من هذا الشهر وهو يخطب الأمريكيين بواشنطون- ما هذا نصه: "يجب أن نعمل في القرن العشرين على تحقيق ما قاله "بسمارك" في القرن التاسع عشر".

هذا ما قاله "تشرشل" وهو يعني تعزيز رابطة اللغة الإنجليزية في بريطانيا وأمريكا. وقد عملت الأمتان - والحق يقال - كل شيء في سبيل تعزيز هذه الرابطة؛ حتى قادهما ذلك إلى الظفر الحاسم في الحرب الأخيرة.

إذا أرادت مصر أن يدوي صوتها في المجامع الدولية، بل إذا أرادت أن تكون مرهوبة الجانب، فعليها أن تستند إلى تعزيز رابطتها معنويًّا وماديًّا بشعوب الشرق، غير عابئة بهذه النعرات الإقليمية الهدامة، واللهجات المضرة بتلك الجامعة اللغوية.

أدى تشعب اللهجات، واضطرابها من ناحية الاختلاف البعيد في النطق، وفي إخراج الحروف، وما يترتب على فساد النطق بها من الاستعجام إلى تكون مشكلة من المشكلات الاجتماعية؛ بيد أن حلها ليس بمتعذر، وهو يتوقف على إزالة هذه الفوارق بين لهجاتنا، وتوحيد النطق والتلفظ، وضبط الكتابة بموجب قواعد عامة تُوضع لهذا الغرض. وليس ذلك بمستحيل على العاملين المجتهدين، ولنأخذ مثلاً كلمة (يصفق) إذ نجدها في اللهجة المصرية: (يسأف) وهي كلمة مستحيلة اجتمع فيها القلب والإبدال، وما اجتمع الداءان إلا ليقتلا. وفي سوريا يقولون: (يسفأ) بقلب القاف همزة، وفي العراق يقولون: (يصفق) تُنطق القاف كافًا فارسية في العراق. ومثل ذلك في كلمة

(أول) التي تُلفظ بفتح الواو في العراق بينما يقال في اللهجة المصرية: (أول) بكسر الواو، وفي كلمة (اضرب) كما تُلفظ في العراق بكسر الراء، أما في اللهجة المصرية فيقولون: (اضرب) بفتح الراء مع قلب الضاد دالاً، إلى ضروب أخرى من اضطراب المنطق وفساده في هذه اللهجات المختلفة باختلاف الأقطار. وعلى هذا لا مناص لنا من إصلاح المنطق، وتقويم الألسنة، وهو الحل الوحيد لهذه المشكلة، وفيه المخرج من هذا المأزق.

إنا نقرهم على أن الإعراب في اللغة المحلية لم يعد عمليًّا، وليس من السهل الالتزام به. ولكن التخلي عن الإعراب في المنطق شيء، والتخلي عن سلامة المنطق وتقويم اللسان، وفتح الباب على مصراعيه للكلمات الدخيلة الفاسدة شئ آخر.

وفي وسع الدول التي تعتز الآن بالفصحى وتنصّ في دساتيرها الأساسية على ذلك - وهي الدول العربية - وفي وسع الجهات المعنية بشئون الثقافة في الدول المذكورة أن تعمل كثيرًا في هذا الشأن.

فما المانع الذي يمنعها من العناية بتوحيد المصطلحات في معاهد العلم، وفي غيرها من سائر مصالح الدولة؟ وما المانع الذي يمنعها من السعي إلى إصلاح المنطق وتوحيد اللفظ في اللهجات المختلفة على وجه يسهل التفاهم بها في المجتمع، وبين الطبقات؟ وما المانع الذي يمنعها من توحيد مناهجها في تعليم اللغة العربية؟

لا نبالغ إذا قلنا: إن المصري لا يفهم عن العراقي في لهجته الشائعة الآن إلا بمشقة، وكذلك العراقي لا يكاد يفهم من المصري في لهجته إلا بعناء. ولا يُعد تغاير الكلمات والتعابير المولدة خطرًا كبيرًا في حد ذاته على اللغة؛ فإن أكثر تلك الكلمات عربي الأصل والمادة. ولكن الخطر الذي يتهدد الفصحى كامن في اضطراب المنطق واختلاف النبرات وتباين اللفظ؛ فهذا الفساد هو الخطر الذي يوسع الشُّقة بين لهجاتنا حتى ليُخشى أن تصطنع اللهجة الفاسدة المولدة في بعض الأقطار مع الأيام، وتُنسى الأم

التي وُلدت منها، ولولا الثقافة الإسلامية التي تقوم على أساس متين من مدارسة الكتاب وتفسيره، ورواية الحديث وحفظه لوقع ما كنا نخشاه.

لقد آن للمجامع اللغوية - وفي طليعتها هذا المجمع المعني بشئون الفصحى، وجعلها وافية بمطالب الحياة والحضارة في هذا العصر - أن تُعنى بهذه الناحية، وبالبحث عن طريقة لضبط النطق واللفظ في الأقطار، وتخليص لهجاتها من هذا الاضطراب. ولا يستحيل ذلك في عصر تعددت فيه وسائل التفهيم والتلقين.

والمجمع بحكم وظيفته مطالب بالكف من غلواء دعاة اللهجات وتغليبها خصوصًا إذا علمنا بأن هذا الجفاء القديم بين الأم وبناتها الناشزات يسير إلى نهاية غير تلك النهاية التي انتهت إليها اللغة اللاتينية مع فروعها؛ إذ سينتهي الخلاف فيما نحن فيه إلى وئام؛ وهو وئام تمهد له الآن صحافتنا العاملة في سائر الأقطار العربية. ولهذه الصحافة الراقية، ولدور النشر أثرها المحمود في هذا الشأن؛ ولا يُنكَر أثر الصحافة المصرية في لهجة المجتمع أو الشعب؛ وفي ترقية الذوق اللغوي في مصر؛ فإن لهجة الشعب المصري الآن أدنى إلى الفصحى مما كانت عليه قبل جيل. ومرد ذلك إلى انتشار الصحافة المصرية الراقية، وتكاثر قرائها يومًا بعد آخر، وازدياد عدد المتعلمين. وكلما تقلصت الأمية، وكوفحت في مصر، وفي أقطار الشرق العربي، وهي تتقلص وتُكافح الآن في كل مكان، تضاءل خطر اللهجات على الوحدة اللغوية، ومرنت الألسن على المنطق السليم.

*　　*　　*

سلطان اللغة العربية(*)

للأستاذ محمود تيمور

(عضو المجمع)

المحتويات:

- نصيب اللغة العربية من عصر الانقلاب.
- أدعوة إلى إصلاح الفصحى، أم إلى انقلاب لغوي؟
- ماكنه الدعوة إلى اتخاذ العامية؟
- أسرار قومية وراء هذه الدعوة.
- اختلاف النقاد في تقدير العامية، هل هي تطور أو فساد؟
- مدلول الصراع بين العامية والفصحى ومصيره.
- أسباب قوية تمنع الفصحى أن تنقض.
- إمبراطورية اللغات تخلف إمبراطورية العناصر والأجناس والأوطان.
- إمبراطورية اللغة العربية بعد الإمبراطورية العربية السياسية.
- الإيمان بأن لغة الكتابة غير لغة الحديث.
- رجل الشارع يسمو إلى الفصحى.
- الكلمات الفصاح تزاحم الكلمات العامية والدخيلة.
- علينا أن نهيِّئ للفصيح فرصة التعرف.
- يجب أن نتريث في تسجيل العامي والدخيل.
- أيكون رجل الشارع أحرص على فصيح اللغة من رجل اللغة؟
- الرأي العربي العام يبغي تذليل عقبات الفصحى.
- في العامية ألوف من فصيح الكلمات يجب أن نتألفها.

(*) محاضر جلسات الدورة الحادية والعشرين، الجلسة الخامسة للمؤتمر، يوم الاثنين، الأول من نوفمبر ١٩٥٤م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الحادي عشر، ص ٦٣. (ويمكن ضمّ هذا البحث إلى بحوث الألفاظ، الواردة في الجزء الأول من كتاب "الفصحى والعامية").

- التخفيف من التباين اللغوي بين أمم الناطقين بالضاد.
- تسمية الأشياء التي تدور في الحياة اليومية.
- عرض **مائة من الكلمات** المنـــزلية والفنية والصناعية والتجارية والعامة.

- ١ -

اللغة العربية اليوم في محنة واختبار، عليها تدور الأحاديث، وفيها تتنازع الآراء، وحولها يتخالف أهلوها، فريق منهم يظنون بها الظنون، وفريق آخرون يجادلون عنـــها خشية أن يهون سلطانها في مجال الإبانة والتعبير.

ليست اللغة العربية وحدها هي التي تبوء بذلك اللون من الحيرة والاضطراب، فالكون كله في عهد مضطرب حائر، قواعده تتخسف، وقممه تتهاوى، كأن زلـــزالاً عنيفًا يدور بهذا العالم في أوضاعه وأنظمته جميعًا.

هذا عصر انقلاب لا ريب فيه.. ويد الانقلاب تتناول كل مقومـــات الحيـــاة بالتمحيص في غير هوادة ولا رفق، تنقض منها ما تنقض، وتستبدل بها ما تستبدل، لا تبالي من شيء، ولا يستعصم منها شيء.

وإن هذا الانقلاب ليمضي في قوة وصرامة، في يده معول هدام لا تكاد تلاحقه العيون، مخلفًا وراءه فراغًا يتطلب تعميره فسحة من الزمن، ومهلة من التدبير، وما هذه الفسحة والمهلة إلا فترة الحيرة والاضطراب التي هي طابع عصرنا المشهود.

إنها حرب، وإن كانت بغير سلاح، حرب أشد ضراوة من حـــروب الحديـــد والنار، هي حرب الأفكار التي يجيش بها الوعي الباطن فيتمخض عنها الوعي الظـــاهر، حرب توقظ الكمين من مشاعر النفوس، فإذا هي رغبات ومقاصد وأهداف.

في أتون هذه الحرب تنصهر مناهج حياتنا في دنيانا القائمة، وتتخلق منها دنيـــا جديدة لا ندرى أي دنيا تكون؟

ولئن دلت هذه الحرب على شيء، فإنما تدل على أننا بإزاء حيوية دافقة، ويقظة عارمة، ووعي جديد لكل ما في الحياة من قيم ومفاهيم، فالكائن البـــشري اليـــوم في مفترق الطرق يتلفت سائلاً:

أتراه في سيره على رشد؟

ألا من سبيل إلى غد أحفل بالخير للإنسانية وأدنى إلى رفاهية ورغد؟

- ٢ -

لابدع إذن أن تأخذ اللغة العربية حظها من ذلك التساؤل والاستخبار، وأن يجرد الكُتّاب أقلامهم دعاة إلى البحث في شأن هذه اللغة:

أوافية هي بحاجة أهليها؟ أمطواعة هي في أداء رسالتها؟ ألا نستبدل العامية بها؟ ومن هؤلاء الكُتّاب من يحاولون في دعوتهم أن يستصفوا نفوسهم مما يترسب فيها من سلطان الفصحى على النفوس، وأن يبعثوها دعوة جهيرة حرة تنشد انقلابًا لغويًّا، يساير مجرى الوعي العالمي الجديد.

ليست مصنوعة ولا متكلفة هذه الدعوة الشعواء، فهي وليدة الشعور الغالب بأن الفصحى صعبة المرتقى عصية المنال، وأنها ليست طيعة كل الطواعية، ولا مرنة كل المرونة، لملاءمة حاجات الحياة في تطورها الدءوب.

وإذن فهناك ثورة حبيسة تضطرم، وهذا وميضها يستبين في تلك الدعوة، فهل هي ثورة على اللغة؟ أو هي ثورة لها أثورة هي للقضاء على الفصحى وإحلال العامية محلها، أم هي انبعاث لطلب الإصلاح والتيسير، حتى تساير اللغة مطالب العيش والفكر في مرونة وطواعية؟

- ٣ -

أما الدعوة إلى استبدال العامية بالفصحى، فهي دعوة ترجع إلى عشرات من السنين، فقد نودي باتخاذ العامية أداة للتعبير الكتابي، كما هي أداة للتخاطب والحديث، ومازلنا نسمع النداء باتخاذها في الفينة بعد الفينة يتجدد ويتردد، وقد كتبت بالعامية الأزجال والأناشيد، وبعض المسرحيات والأقاصيص، ومافتئت تكتب بها حتى هذه الساعة.

وفي معتقدي أن أسرار الدعوة إلى اتخاذ العامية في التعبير الكتابي كانت ترجع أكثر ما ترجع إلى أعراق سياسية قومية، فإن هذه الدعوة بزغت مع فكرة تقويم

الشخصية المصرية المحدودة بحدود الوطن الجغرافي، ورافقت نماء الدولة المصرية المستقلة بكيانها في العالم السياسي، فكان من عناصر هذا الاستقلال أن تصبح اللغة القومية ذات سيادة وسلطان، وما برحت تلك الدعوة تراود أحلام جماعة من الكتاب والأدباء والعلماء وفق الملابسات والأحوال، حينًا تبدو وحينًا تخفى، فإذا ترددت اليوم أصداؤها فما ذلك إلا رجع طبعي من إيحاء العهد الوطني الجديد، ذلك العهد الذي يستعلي فيه الروح القومي إلى أبعد مدى، ويستكمل مشخصاته على أوسع نطاق.

- ٤ -

على أن علماء اللغة ونقادها يختلفون في تقدير اللغة العامية كبير اختلاف، فطائفة منهم يرون العامية فسادًا للغة الأصيلة وانحلالاً، وطائفة آخرون يرونها تطورًا واستحالة... وبهذين التقديرين يتميز خصماء العامية وأنصارها، ولكن خلاف النقاد والعلماء في التقدير لا ثمرة له في مصير اللغات واللهجات، فكأين من لغة أصيلة لم يكتب لها البقاء، ولكن بقيت لهجاتها تغالب عوامل الفناء، وكأين من لهجة مشتقة غلبت على أمرها أي غلبة، فلم تستطع في معترك اللغة الأصيلة أن تعيش.

شأن اللغات واللهجات في هذه الناحية شأن الأمم والشعوب، فرب أمة منفردة بما لها من طباع وخصائص، تغلبت على أمم أخرى أضعف منها شأنًا، فإذا الأمة الغالبة تمازج المغلوبة وتدامجها، فتنجم من بينها جميعًا سلالة ناشئة ذات خصائص تمليها بيئة جديدة، فيختلف في تقديرها المحافظون والمعتدلون من الأمة الغالبة، يقول المحافظون: هذا فساد وانحلال، ويقول المعتدلون: إنما هو تطور وتحول وامتداد.

ومهما يكن من الخلاف في تقدير العامية بين الأنصار والخصماء، فالصراع بينها وبين الفصحى واضح المصير. وليس النعي على الفصحى والإفاضة في مشكلاتها إلا برهانًا ساطعًا على أن العامية قد أفلست في محاولة امتلاكها ناصية التعبير الكتابي في مجال الثقافة والفكر، وأن الكأس في يد الفصحى: كأس الغلبة والانتصار، رضيناها لغة لحياتنا العلمية والأدبية والاجتماعية، على اختلاف المناحي والفروع. وما نعينا عليها

وإفاضتنا في تبيان مشكلاتها إلا نـــزوع عميق إلى تطويعها واستدامة حياتها؛ حتى تواتي مطالب العلوم والفنون والآداب، وتلائم حاجات الحياة في العصر الحاضر، وتستطيع أن تكون أداة طيعة مرنة، لا يستعصى اتخاذها على جمهرة الشعب لكي تؤدي لها رســـالة التعبير في سهولة ويسر.

-٥-

ما دلالة الهتاف بالعامية بين حين وحين؟ إن العامية تعيش بيننا في حياتنا العامة عيش الإمرة والسلطان، بها نتحدث بل نفكر، فإذا تناولنا الأقلام لنكتب، أو وقفنا على المنابر والمنصات لنخطب، ترجمنا أفكارنا وأحاديثنا في عبارات فصاح.

والهاتفون بالعامية لا يهتفون بشيء يتقاضانا أن نتعاطاه وأن نجهد في تعرفـــه، وأن نتخذ الوسيلة لإحساسه، وكان حريًّا أن نستجيب لهذا الهتاف لو أردنا لأنفـــسنا اليسر. فالفصحى تجشمنا كلفة التعلم، وتريدنا على معالجة التعـــبير بـــألوان التجربـــة والمراس، والعامية في متناول أفواهنا لا مشقة فيها ولا عسر، ونحن مستطيعون أن نجري بها أقلامنا دون تكلف أو معاناة.

وإذن فدلالة الهتاف بالعامية أن ثمة أسبابًا تعصم الفصحى من أن تقضي عليهـــا العامية، وأن الهاتفين بهذه العامية يناهضون تلك الأسباب، وينشدون ألا يقـــام لهـــا في التقدير ميزان.

كثيرة هي الأسباب التي تمنع الفصحى أن تنتقض، وتمنع العامية أن تكون لها في ميدان الكتابة دولة التعبير.

في طليعة الأسباب هذا القرآن العظيم، منار الفصحى الذي يهدي إليها كل من يؤمن بكتاب الله، بل كل من يؤمن بما فيه من بيان مكين، وهذا المنار هو الذي حفظ الفصحى في مواضي الحقب على توالي الغير، وهو الذي يحفظها على مر الزمان ما بقي في الناس إيمان.

على أن ثمة سببًا متينًا يرجع إلى ظاهرة اجتماعية واضحة، ذلك السبب المـــتين هو الرغبة في الترابط اللغوي بين الأمم المتشابهة والمتقاربة، وهو ما نسميه الإمبراطورية اللغوية في مجتمع الناس.

لقد زالت الإمبراطوريات السياسية بزوال الملابسات التي عملت على تكوينها بين جماعات الأمم، ولكن يبدو أن فكرة الإمبراطورية أصيلة في الطبع البشري، ومبعثها في الواعية الخفية للإنسان، هو النـــزوع إلى شكل من التآزر والاتحاد يفيد القوة والمنعة، فلا غنية للأمم عن ترابط في مرفق من مرافق العيش أو منحًى من مناحي الحياة، سواء في السياسة والاقتصاد والاجتماع، أم في مطالب العيش، والعقل والذوق والوجدان.

وفي عصرنا الراهن تتجلى لنا الإمبراطورية اللغوية أقوى ظواهر الترابط بين الأمم والشعوب، فهي تكتل للغات يخلف تكتل العناصر والأجناس والأوطان. فقد تقلص ظل الإمبراطورية الإنجليزية في الميدان السياسي، وقامت على أنقاضها إمبراطورية لغوية وارفة الظلال، ومن أطراف هذه الإمبراطورية يقوم تكتل ثقافي عماده اللغة الإنجليزية، علـــى تفاوت بين تلك الأطراف لا يعتدّ به في تقويم اللغات.

ومن أمثلة الإمبراطوريات اللغوية تلك الإمبراطورية التي تتألف مـــن شـــعوب تتكلم اللغة الألمانية في ألمانيا والنمسا والجانب الأكبر من سويسرا، فعلى الرغم من تعدد هذه الأوطان تترابط شعوبها بلغة واحدة.

ولك هنا الإمبراطورية اللغوية الفرنسية، إذ تتكون من فرنسا وبلجيكا وجانب من سويسرا إلى غيرها من رقاع الأرض. والإمبراطورية اللغوية الإسبانية التي تتمثل في إسبانيا والمكسيك وأمريكا الجنوبية. واللغة البرتغالية التي نراها مستعملة في البرازيل، إلى غير ذلك من أشتات الأمثلة والصور.

ولا مرية أن لوحدة اللغة أبلغ الأثر في تقريب الاتجاه الثقافي. وقد خبرت ذلك في أثناء تجوالي في المناطق السويسرية المختلفة العناصر واللغات، فكل منطقة منها تجنح في تفكيرها وثقافتها وأهوائها إلى الأم الكبرى التي أرضعتها بلبان اللغة، وإن كان طابع الأمة السويسرية على اختلاف مناطقها طابع وحدة واستقلال.

ولعل الأمم الشرقية والعربية أولى الجماعات البشرية بأن تأخذ نصيبها من فكرة ذلك الترابط اللغوي، وأن تتألف منها إمبراطورية اللغة العربية.

لقد تعاونت عوامل طبيعية على أن تتخلق الإمبراطورية العربية السياسية في عصور التاريخ، وضمت هذه الإمبراطورية أقطارًا شاسعة، وأطرافًا قاصية، وازدهرت ما شاءت لها تصاريف الأيام أن تزدهر. ثم تناصرت عوامل طبيعية أيضًا على أن تضمحل تلك الإمبراطورية السياسية الكبرى، مخلفة وراءها دولاً لغتها الفصحى.

فإذا كانت الإمبراطورية العربية قد أسدل ستارها على مسرح السياسة حينًا، فهي قائمة في مظهر لغوي يربط بين من ضمت من أمم وشعوب، ونحن نعمل بواعيتنا الظاهرة والخافية على استبقاء رباطنا الإمبراطوري في صورة اللغة العربية. وكأننا بهذا الرابط نحيي إمبراطوريتنا الزائلة على نحو يلائم ملابساتنا الحاضرة، فإيماننا بالفصحى مستمد من إيماننا بتلك الإمبراطورية التي تتجمع فيها أمجادنا التليدة، وإننا بذلك الإيمان نستمسك بمقومات شخصيتنا العزيزة علينا وعلى تاريخ الإنسانية جميعًا. وفي هذا الاستمساك تلتقي مشاعرنا الطبيعية لحماية أنفسنا في معترك تنازع البقاء.

عبث إذن أن تقاوم تلك الظاهرة الاجتماعية القوية، ظاهرة التكتل اللغوي بين أمم الشرق والعروبة. فمقاومة العوامل الواشجة في طوايا المجتمع، مقاومة مآلها إلى الخيبة والإخفاق.

-٦-

المثقف وغير المثقف كلاهما قد استقر في وليجة نفسه أن هناك لغتين: لغة كتابة وتدوين، ولغة تخاطب وحديث. فهو إذا تكلم ألقى كلامه على السجية عفو الخاطر، اللهجة العامية الدارجة، وإذا انبرى يكتب واصفًا أو معبرًا عن ذات نفسه تهيأ لاختيار ألفاظه وتكوين جمله، مراعيًا كل ما يقتضيه البيان العربي القويم، وكأنه بذلك يصقل قوله، وينسق تعبيره، لكي يسمو إلى ذلك المناط المرموق: مناط الفصحى، فتراه عزوفًا عن اصطناع ما يجري في الحديث الدارج من كلمات، محاولاً جهد إمكانه أن يتخذ الألفاظ الفصاح، وأن يستبدلها بما يدور في الحياة العامة من تعابير.

بل إن رجل الشارع، إذا تحدث إلى بعض المثقفين فيما يهمه، أخذ نفسه بالترفع بأسلوبه بقدر ما في طوقه أن يترفع، فتراه يعالج في حديثه أن يهذب عبارته، وأن يدنو بها من الفصيح ما استطاع إلى الدنو سبيلاً.

كتب إليّ بعض المتصلين بي في شأن مطالب منزلية، فإذا هو يستعمل كلمة: **متكأ** وكلمة: **مهفة**، ولم يشأ أن يكتب: كنبة، وريشة، على حين أنه يستعمل هاتين الكلمتين العاميتين إذا تحدث حديثه المألوف، وذلك لاعتقاده بأن للكتابة ألفاظًا وأساليب غير ما للغة الكلام من ألفاظ وأساليب.

وفي شارع كبير من شوارع القاهرة رأيت كلمة "**أرائك**" تزين جبين محل لتنجيد المقاعد والكراسي، مع أن هذه الصناعة يعبر عن صاحبها بكلمة "**منجد**" وهي كلمة عربية فصيحة، ولكن شيوعها في العامية وابتذالها في الاستعمال بعث هذا المنجد المتأنق على أن يتجنبها عنوانًا له، وأن يتخذ كلمة فصيحة جديدة تشعر الناس بأنه فنان غير مبتذل، فهو يخاطب هواة الفن الرفيع بلفظ رفيع.

لا سبيل ألبتة إلى إنكار ما يضطرم في البيئات العربية كلها من نزوع إلى الإفصاح، ومن رغبة في تسويد اللغة العربية، حتى تكون لها الكلمة العليا في مجال التعبير.

الجمهور العام يهفو إلى الفصيح من الألفاظ، ويعمل على إشاعته، طوعًا لذلك الوعي الذي يملك عليه أقطار نفسه. إنه يأنف من الكلمة الأجنبية أيما أنفة، ويضيق بالكلمة الأجنبية أيما أنفة، ويضيق بالكلمة العامية أيما ضيق، ويجد هواه مسوقًا إلى إيثار الكلمة الفصيحة، فهو يتلقفها ويتناقلها حتى يبلغ بلغته مستوى لغة الثقافة التي يتفاهم بها الخاصة من أهل الرأي والتفكير.

وردت علينا كلمات "**البسكليت**" و"**الأوتوموبيل**" و"**التلغراف**" وغيرها من الكلمات الدخيلة، فتصدت لها كلمات عربية أو أدنى إلى العربية تحاول إجلاءها لكلمة "البسكليت" زاحمتها "العجلة" و"الدراجة"، وكلمة "الأوتوموبيل" زاحمتها: "**العربة**"،

و"**السيارة**"؛ كلمة "التلغراف" زاحمتها "**البرقية**"، ولن يكون مصير هـذه الكلمـات الأجنبية الثلاث إلا الجلاء.

كانت تستعمل في مصر منذ عهد غير بعيد كلمة "**أدبخانات**"، وهي مركبة من لفظتين عربية وتركية، جاءت على أثرها الكلمة الأجنبية "**تواليت**" لتحل محلها، فـإذا كلمات فصيحة متعددة تنازعها السيادة، فقرأنا في أماكن مختلفة: محل الغسيل، **مغسل**، **مرحاض**، **دورة مياه**، **مرافق**، وفي متن اللغة كلمات غير أولئك ربما ظهرت في مجـال التزاحم والصراع منها كلمة "**المطهرة**"، فهذا الاضطراب في الاستعمال، والتعـدد في اختيار الكلمات برهان الرغبة العارمة في التخلص من الكلمـة العاميـة والأجنبيـة، والتمهيد لإحدى الكلمات الفصيحة أن تهيمن وأن تسود.

زرت في صيف هذا العام سورية ولبنان، فإذا كلمتان شاعتا لم يكن أحد يقدر لهما الشيوع يوم نادى بهما من نادى من الكتاب والنقاد، هاتـان الكلمتـان همـا: "الهاتف"، و"الحافلة". الأولى تستعمل مكان "**التليفون**" في كل مكان، والأخرى تكتب بالخط الجلي على السيارات العامة التي تسمى "**الأوتوبوس**".

-٧-

علينا إذن ألا نعطل ظهور اللفظة الفصيحة بحجة أنها غير معروفة، وأن مقابلها العامي أو الأجنبي شائع صقله الاستعمال.

فهذه حجة تدحضها الأمثلة البعيدة والقريبة في الماضي والحاضـر، إذ تـداول الجمهور كلمات كانت بادئ بدء موضع الاستغراب، بل هدف السخرية والاستهزاء، واستبدل الناس بما كانوا يألفون من الكلمات العامية والأجنبية كلمات جديدة طريفة أصبحت هي المألوفة المأنوسة التي لا يصطنعون غيرها حين يعبرون وحين يكتبون.

ليكن عملنا إذن إزاء الكلمة الفصيحة أن نهيئ لها فرصة التعرف، وأن نمهد لها طريق الشيوع، فالجمهور يجد في نفسه الحاجة إليها، ويضمر التعلق بها، ولـن يمـضي عليها طويل وقت، حتى تكون لها الغلبة على مقابلها العامي أو الدخيل.

إن الكلمة العامية الدارجة خليقة أن تخدعنا، فنميل إلى أن نتقبلها وأن نفسح لها ونسجلها؛ لأنها دارجة تستمد الحيوية بهذا الدروج، ولكن النظرة الفاحصة في المجتمع العربي واستظهار الروح السارية والوعي السائد في مستوياته العامة أو في مستوياته الخاصة، يكشف لنا أن هذا الدروج الخداع للكلمة العامية محدود بلغة التخاطب، موقوف على الاستعمال السوقي، موسوم بالابتذال، مهدد بالاضمحلال والزوال، فإن الكلمة المقابلة الفصيحة لا تكاد تبدو سائغة في الذوق حتى يتقبلها الناس، وإذا هي شائعة في البيت والمتجر والسوق.

وأكاد أجزم بأننا إذا قبلنا اللفظ العامي أو الأجنبي الدارج فسجلناه مسارعين، لم يقع هذا الصنيع من الرجل المثقف، بل من رجل الشارع، موقع الاستحسان.وسنرى هذا الرجل المثقف، بل نرى رجل الشارع حريصًا كل الحرص على أن يتصيد كلمة فصيحة تحل محل الكلمة العامية أو الأجنبية. ومتى عثر عليها أنس بها وعمل على إشاعتها بكل ما أوتى من جهد، مدفوعًا بذلك الوعي الدافق، وعي السمو إلى أن يكون لسانه مطبوعًا على الفصحى، وأن تكون هذه الفصحى لغة تعبيره في شتى مرافق الحياة.

كثيرًا ما يتأثر رجل اللغة بما يلوح له من ظواهر سيادة الكلمات العامية أو الدخيلة في عهدها الراهن، ويرى لزامًا عليه أن يذعن لتلك السيادة، وأن يتهيب اقتراح فصيح العربية المؤدي لما تؤديه تلك الكلمات العامية أو الدخيلة من المعاني والدلالات. وربما استشعر مجمعنا اللغوي كذلك أن ألفاظ الحياة العامة الدائرة في أفواه الجمهور العام حقيقة بالقبول والتسجيل، دون استحياء مواضعات جديدة ربما تعذرت إشاعتها بين الناس، أو انبهم الحكم على مستقبلها، أتسوغ على الألسن أم لا تسوغ؟

بيد أن تأثر رجل اللغة هذا التأثر واستشعار المجمع اللغوي على ذلك النحو، يجب أن يكون بأقل مقدار،وأن يجري في أضيق الحدود، وأخشى ما أخشى أن تتجلى لنا الحقيقة الكامنة، فإذا نحن نرى رجل الشارع أشد غيرة على اللغة من رجل اللغة،

وأن نجد الكاتب حين يعبر عن ذات نفسه ويحن يصف ما يهدف إلى وصفه من المرئيات أقوى حرصًا على الإفصاح من المجمع اللغوي. وأحجى برجال اللغة وبالمجمعيين أن يكونوا هم مناط الغيرة والحرص والحفاظ، وألا يدخروا وسعًا في إيثار الفصيح وفي تقريب مناله من الجمهور، فإن لم يستطيعوا تعيين درجة الاعتدال في هذا الإيثار والتقريب، فلا ضير عليهم أن يكونوا إلى الإفراط أميل منهم إلى التفريط، تاركين لمهلة الزمن ولطاقة الزمن، ولطاقة الوعي اللغوي، ولرهافة الذوق العربي العام، أن يكون إليها مردّ الحكم والتصفية، تأخذ من فصيح المواضعات ما تأخذ،وتستبقي من العامي والدخيل ما تراه أهلاً للاستبقاء.

-٨-

لا خشية على الفصحى إذن من النعاة عليها، ومن الدعاة إلى اتخاذ العامية مكانها، فالتفسير الصحيح لهذا النعي وتلك الدعوة أن الرأي العربي العام يبغي تيسير الفصحى، حتى تدنو من منال الجمهور في غير عناء، وأن تخف حدة التفاوت بين الفصحى: لغة التدوين، والعامية: لغة الحديث، فإن لم تكن لغة واحدة يتخذها الجمهور في خطابه وفي كتابته على السواء، فلا أقل من أن تتضايق الفروق بين اللغتين ما أمكن التضايق، وأن تتقارب الشقة بينهما ما أمكن التقارب.

وسبيل ذلك أن نواصل تذليل عقبات الفصحى، التي تتمثل في تعقيدات النحو والصرف، وفي مصاعب ضبط الأوزان والصيغ، وفي قيود وسائل الوضع والاشتقاق، وأن نتألف من الكلمات العامية ما يسوغ توجيهه أو "تفصيحه" إن صح هذا التعبير، ففي العامية ألوف من الكلمات نجحدها حقها ونتنكب عن استعمالها، لمجرد أنها عامية، ولو أردنا أن نرد إلى الفصحى نسبها، لبلغنا بها الغاية مثل: **شاف**، بمعنى **نظر**، و**الطراوة**،بمعنى **رخاوة النسيم**،و**النهمة**،بمعنى **بقية القوة**، إلى كثير من النظائر والأشباه.

كذلك يهفو الرأي العربي العام إلى التخفيف من غلواء التباين اللغوي بين أمم الناطقين بالضاد، سواء في لغة الكتابة أو في لهجات الحديث، ولا ريب أن عوامل

التواصل بين هذه الأمم بالتبادل الثقافي، وبالمؤتمرات، والرحلات، وبالصحافة، والمذياع، كان لها أثر واضح في تحقيق ذلك الغرض المنشود؛ وسيزداد هذا الأثر وضوحًا وشمولاً، كلما قويت عوامل التواصل التي يطرد نموها على الأيام.

وثمة حاجة عامة يشعر بها الكاتب العربي المتشوق إلى الإفصاح، تلك هي حاجته إلى الكلمات التي يعبر بها عن الأشياء والمعاني المستحدثة في حياته العامة، مما يقع لعينه أو سمعه، أو يشعر به في ذات نفسه.

والكاتبون يعالجون ذلك بكل سبيل، **طورًا يستعيرون كلمة أجنبية على كره، وطورًا ينقلون كلمة عامية**، وإن شاه وجهها في مساق التعبير الفصيح، **وحينًا يعالجون اشتقاق كلمة جديدة**، وإن كانت غريبة المفهوم للقارئ لا يتأدى إليه معناها المراد. فعلينا إذن أن نتجه بالكبير من الجهد والسعي إلى تسمية الأشياء والمعاني التي تعرض للكاتب في تعبيره وتصويره، وأن نبسط بهذه الأسماء أيدينا لجمهرة المثقفين في أوسع مجال، حتى يتعرفوها بمدلولاتها، فلا يجد الكاتب من حرج في استعمالها والتعبير بها عن تلك المعاني والأشياء.

- ٩ -

وقد كنت - في بحث أسلفت عرضه على المجمع - سردت طائفة من ألفاظ الحياة العامة، وأحب في هذه العجالة أن أعرض طائفة أخرى من كلمات أشتات، منها ما أقترحه للمعنى العصري الذي أبينه، ومنها ما وقع لي في بعض القراءات والمطالعات، وأرجو أن تكون هذه الكلمات موضع النظر، عسى أن تأخذ سبيلها إلى الشيوع.

وهي **كلمات منزلية، وكلمات فنية، وكلمات صناعية، وكلمات تجارية، وكلمات عامة** وإني سائقها فيما يلي:

(أ) الكلمات المنزلية

(١) **وصاوص النافذة**، أو **تفاريج النافذة**: الفتحات أو الثقوب التي تبدو في خشب النوافذ (الشيش).

(٢) **مسقط الدرج**، أو **مهوى الدرج**: بئر السلم.

(٣) **المهفة:** ريشة التنظيف.

(٤) **المطهرة:** دورة المياه.

(٥) **المغسلة:** المحل العام لغسيل الملابس (ليوندرى).

(٦)**الغسَّالة:** الآلة الكهربية للغسل.

(٧) **المواقد: الكانون:** لموقد الفحم أو الخشب أو غيره.

(٨) **موقد النفط:** لوابور الغاز.

(٩) **موقد الكحول:** لوابور السبرتو.

(١٠) **الموقد الكهربي:** لوابور الطبخ المدار بالكهرباء.

(١١) **الساهرة.** أو **الوامضة:** للمصباح الليلي الصغير "**السهارى**" (فيوز).

(١٢) **السارية:** للعمود الخشبي الخاص بالراديو (**الإريل**).

(١٣) **المزة.** أو **اللمجة:** للأطعمة المتنوعة، التي تقدم مع الشراب، وتعلل تسميتها بالمزة، بأنها في الغالب مزة المذاق.

(١٤) **الشراب:** لما يسمى (**الشربات**).

(١٥) **السداد،** أو **الصمامة:** لكل ما يسد به فم الزجاجة من (**فلة**) وغطاء.

(١٦) **البزال،** أو **المنزعة:** لكل ما ينزع به سداد الزجاجة. أو البزال: للبريمة. والمنزعة: للفتاحة.

(١٧) **إبريق القهوة:** (**الكنكة**).

(١٨) **الشافهة:** ما يسحب به اللبن من الثدي (**الشفاطة**).

(١٩) **ألبان مبسترة:** معقمة بطريقة (باستور).

(٢٠) **المقطع:** سكين أو نحوها، مما تفض به صحائف الكتاب.

(٢١) **اللبيس:** للثوب لبس غير الجديد (نصف عمر)-(**خرج بيت**)-(**سكند هاند**).

(٢٢)**الجمة:**" البيروك" وقد عربها بعضهم "**بروكة**".

(٢٣) **المنهدة:** السوتيان.

(٢٤) **اللمع**:- بضم اللام وفتح الميم - "الترتر".

(٢٥) **لون مسيح**- بفتح الميم وكسر السين - أو موحد: لما ليس عليه نقش وهو مـــا يسمى (**السادة**).

(٢٦) **الصبحة**: - بضم الصاد -"الترويقة" وهو عجالة الطعام في الصباح.

(ب)الكلمات الفنية

الأصوات الغنائية:

(١) **الجهير**: لما يسمى "الباس".

(٢) **الصادح**: لما يسمى (الباريتون).

(٣) **المصلصل**: لما يسمى (التنور).

(٤) **الصناجة**:لصاحبة الصوت المسمى (السبرانو) وهو خاص بالنساء.

(٥) **الصناع**، أو **الحريف**:للحاذق الماهر في حرفته (التكنسيان).

(٦) **المثال**: "النوتة" في الموسيقى.

(٧) **البطانة**: "**للكومبارس**".

(٨) **القيم**: لمدير المسرح "**الريجسير**".

(٩) **المناجاة**، أو **النجوى**: "**للمونولوج**".

(١٠) **الحوار**: "**للديالوج**".

(١١) **ضابط الإيقاع**: "**للمايسترو**".

(١٢) **الترويحة**: "**للانتراكت**".

(١٣) **دخائل المسرح**: "**للكواليس**".

(١٤) **المرسم**:"لأستوديو الرسم".

(١٥) **المحرف**: "لأستديو الصنعة".

(١٦) **الممثل**:"لأستديو النحات".

(١٧) **الترجيعة** في الغناء والشعر: لما يسمى "**الرفران**".

(١٨) **الوضعة**: لما يسمى "**البوز**" عند المصور والمثال.

(١٩) **المنصة**:لخشبة المسرح.

(٢٠) **الرقاش** أو **المرقم**:"لفرشة" الرسام.

(٢١) **المشهدية أو السينار**:"**للسيناريو**".

(٢٢) **العكسية**، أو **السلبية**، أو **العاكسة**، أو **السالبة**:"**للنيجاتف**".

(٢٣) **الرسم الساخر**:"**للكاريكاتير**".

(٢٤) **المشغفة**، أو **المهواة**: لما شاعت له كلمة "**الهواية**".

(٢٥) **المنمنمة**:"**للمنياتور**" صورة دقيقة تتخذ للحلية والزينة.

(٢٦) **الماشط**: "**للماكيير**" هو الذى يتولى تزيين الممثل.

(ج) الكلمات الصناعية

(١) **المعوقة**:"**للفرملة**".

(٢) **الموجه**، أو **عجلة القيادة**:"**للدركسيون**".

(٣) **المبخر**:"**للكاربيراتير**".

(٤) **المدور**:"**للمانيفلا**".

(٥) **الوهاج**:للمصباح القوي في السيارة (**الفار**).

(٦) **الناقلة**:"**للورى**".

(٧) **الدراجة**، أو **العجلة**:"**للبسكليت** ".

(٨) **الدراجة البخارية**:"**للموتوسيكل**".

(٩) **المرناة**:"**للتليفزيون**" والرنو في اللغة للنظر والاستماع.

(١٠) **المصوات**:"**للميكرفون**".

(١١) **المجهر**:"**للميكروسكوب**".

(١٢) **المثقاب**: لما يسمى "**برفوراتور**".

(١٣) **المكشاف**:للمصباح الشديد الضوء، وقد استعملت له كلمة "**الكشاف**".

(١٤) **الطائرة الأحادية**، أو **العمودية**، أو **أحادية الجناح**: وهي الطائرة التي تسمى "**هيليكبتير**".

(١٥) **حظيرة السيارات**:"**للجراج**".

(١٦) **الإصطبل**: لحظيرة الخيل.

(١٧) **الزريبة**: لحظيرة الدواب.

(د) الكلمات التجارية

(١) **تاجر التجزئة**: لتاجر القطاعي.

(٢) **تاجر الجملة**: وهي شائعة.

(٣) **سوق المزايدة**: محل "**المزاد**".

(٤) **وجهة الحانوت**: واجهة أو "**الفترينة**" تكون في مدخله.

(٥) **التسوق**: تحصيل السلع من الأسواق.

(٦) **التسويق**: توزيع السلع على الأسواق.

أنواع البيوع

(١) **البيع بالنقد**: وهو البيع الفوري.

(٢) **البيع بأجل**: أو نسيئة:"**شكك** "

(٣) **البيع بالتقسيط**: وهو دفع الثمن على أقساط.

(٤) **الوثيقة**:"**البوليصية**"، كوثيقة التأمين، ووثيقة الشحن.

(هـ) الكلمات العامة

(١) **الطراز**: "**للموديل**" وهو ما كان من الأشياء على مثال خاص، كما يقال في الأثاث: موديل لويس الخامس عشر.

(٢) **البدعة**: "**للمودة**".

(٣) **الدراسة الاعتسافية**: وهي الدراسة بلاخطة مرسومة.

(٤) **المشروع الاعتسافي**: الارتجالي غير المدروس.

(٥) **المشروع الفوري**: الناجز "**إيمينو**".

(٦) **الثلة**: "**الشلة**" أي الجماعة أو الرفقة.

(٧) **الإضمامة**: "**الدوسية**" أو **الملف**.

(٨) **التآلف**:"**الهارموني**".

(٩) **المدرج**: المسطح الذي تدرج عليه الطائرة، قبل أن ترتفع.

(١٠) **النفاخة**: "**البالون**".

(١١) **المغرقة**: القطعة من الرمل على الشاطئ يخشى منها الغرق (سابل موفانت).

(١٢) **الوسمة**: "**التأشيرة**" فى الجوازات "**فيزة**".

(١٣) **جواز موسوم**: "**مؤشر**" عليه.

(١٤) **المرسى**: "**إسكلا**".

(١٥) **رصيف البحر**، أو **سيف البحر**: "**الكورنيش**".

(١٦) **الآذن**: موظف "**التشريفات**".

(١٧) **البائنة**: "**الدوطة**".

(١٨) **الشكة**: الطريقة الموحدة في الأبنية.

(١٩) **التفايد**: تبادل المنفعة.

(٢٠) **المأثورات الشعبية**: "**الفولكلور**".

* * *

الفصحى والعامية من زاوية جديدة(*)

للأستاذ محمد عزيز أباظة

(عضو المجمع)

جاء في "الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي، أن الوزير أبا عبد الله العارض، قال له ليلة (هي الليلة الخامسة والعشرون): "أحب أن أسمع كلامًا في مراتب النظم والنثر، وعلى أي حد ينتهيان، وعلى أي شكل يتفقان، وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة؟ فكان الجواب: إن الكلام على الكلام صعب، قال: و لم؟ قلت: لأنه يدور على نفسه ويلتبس بعضه ببعض، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر". وعندي أن التوحيدي بإشارته هذه إلى صعوبة الكلام من الكلام، قد أصاب حقيقة عميقة الغور بعيدة المدى.

ولقد تقتضيني الحال هنا أن أشير إلى أن تيارًا فلسفيًّا معاصرًا لنا، قوي الأثر، مسموع الصوت، يعرفه أكثر مما أعرف الدكتور مدكور وزملاؤه، قد حدد أصحابه الفلسفة وعملها، بأن تكون كلامًا عن الكلام، بعد أن كانت كلامًا عن الأشياء، أو كلامًا عن الأفكار المجردة، فنقلوها بذلك من اليسر إلي العسر. وشرح ذلك - والعهدة عليهم- أن الناس وإن تكن حياهم تنقضي في عالم من الأشياء والأحياء، يتأثرون بها ويؤثرون فيها، إلا أنهم - على الأغلب الأعم، حين يديرون فيما بينهم الأحاديث والبحوث عن هذا العالم الذي يعيشون فيه، لا يلجؤون إلى تلك الأشياء نفسها، يدفع بها بعضهم لبعض، بل تراهم يحلون محلها رموزًا تشير إليها وتلك هي الكلام.

فإذا تحدث عالم إلى عالم، أو إذا تحدث إنسان من عامة الناس إلى إنسان، فألقى إليه بقول معين عن شيء معين فاتفقا، ذلك خير، أما إذا اختلفا، فالسبيل أمامهما واضحة، تلك هي أن يتجها إلى دنيا الأشياء، التي يتحدثان عنها، فيحتكما إليها لتفصل لهما بين صواب القول وخطئه.

(*) عرض في الدورة الثانية والثلاثين، الجلسة التاسعة للمؤتمر، في ٥ من مارس سنة ١٩٦٦م. وانظر بحوث ومحاضرات هذه الدورة، ص ٢٠٧، ودارت حول البحث تعقيبات مهمة،ص ٢١٥-٢٢٤.

على أن حديث المتحدث قد لا يساق أن الأشياء، بل قد يساق عن الكلام الذي قيل عن تلك الأشياء؛ فيكون عندئذ، "هو الكلام عن الكلام"، الذي أشار إليه أبو حيان، وبين صعوبته، لأنه - كما قال -:كلام يدور على نفسه،ويلتبس بعضه ببعض وإن شئت فقارن بين هاتين الحالتين:حالة أنبئك فيها بقولي "كان القمر مضيئًا ليلة أمس"، وحالة أخرى أعلق لك فيها على هذا القول نفسه فأقول: إنه صورة لفظية لحالة مضت و لم يعد لها وجود، وإذن فتحقيق صدقها مرهون بسلامة الذاكرة عند المتكلم.

ولما كان ضمان هذه السلامة لا يرتكز على سند متين، فهو أمر مشكوك فيه؛ ولهذا فتحقيق صدق هذه العبارة غير مكفول لنا، إلا إذا وجدنا بين الآثار الراهنة ما يدل على قيام تلك الحالة في لحظة ماضية ..." هذا كله تعليق على قول، أقدمه إليك، وربما وافقتني فيه أو عارضتني، لكنه على كل حال قد نقلنا من مستوى الكلام عن الظواهر الخارجية حديثًا مباشرًا، إلى مستوى الكلام عن الكلام بما يكتنفه من صعاب.

ومن أجل صعاب كهذه، تحوط أبو حيان التوحيدي عندما طلب إليه أن يوازن بين الشعر والنثر، فأدرك أنه بصدد كلام عن كلام، وأنه لذلك لا يملك بين يديه الأدلة المحسوسة الحاسمة، التي يملكها من يتحدث عن الأشياء بنبأ ينقله إلى السامع- والحديث عن الفصحى والعامية هو بدوره كلام عن كلام، فوجبت على الحيطة، أكثر مما وجبت على من أراد التحدث عن الشعر والنثر.

والحديث عن الفصحى والعامية، على وطيدة موضوعية محضة، حافز إلى أن نبدأه بتفرقة نميز فيها بين اللغة والكلام، وتلك تفرقة شغلت في السنوات الأخيرة قبائل من ذوي الرأي ورجال الفكر، منهم الفلاسفة ومنهم الأدباء والعلماء. ومرجعي في هذا الشأن بحث قيم عظيم رائد للمفكر الإنجليزي الكبير المعاصر: "Gilbert Ryle" عنوانه، "Use Usage. and meanings"، ويغلب أن تكون الترجمة هي استخدام اللغة وطريقة أدائها الجارية، ومعاني الألفاظ، وكل ذلك يجمعه "فقه اللغة"، نشر في منشورات الجمعية الأرسطية، في ندوة سنة (١٩٦١م). ويقول الكاتب: إنه استمد الفكرة من

Sir. Allan. H. Gardiner، عـن كتابـه المـسمى: "The Theory of speech and Language " ، أي: نظرية الكلام واللغة.

والتفرقة بين اللغة والكلام، تفرقة ليست مألوفة، هي زعم لو سلمنا بـسلامته وصدقه لقادنا ذلك إلى تسليمنا بالنتائج المنتزعة منه، ومدار هذه التفرقة هو أن اللغة من الكلام بمثابة المادة الغفل من الشيء المصنوع من تلك المادة، وواضح أنـه إذا تعـدد الصانعون، فوقفوا أمام قطعة معينة بذاتها من المادة الغفل، فقد يكون لكل صانع منـهم صورة "مبتكرة"، يصوغ فيها مادته: تمثال امرأة مثلاً، أو تمثال نمر.

اللغة هي ذخيرة من كلمات ومن قواعد، تسلك على أساسها تلك الكلمات في جمل، وأما أي الكلمات نختار، وأي الجمل نبني، فذلك متروك لكل متكلم على حدة. وإذا كان ذلك كذلك، وجب التسليم بنتيجة ذات خطر، قد تسترعي النظر والعنايـة للوهلة الأولى، بإمعانها في الغرابة، تلك هي أن مجموعة الجمل التي صيغت أو تصاغ من لغة ما ليست جزءًا من تلك اللغة، إنما هي وسائل تصطنع على صور مختلفـة وأنحـاء متباينة. ولنأخذ هذه الجملة، مثلاً: "كان القمر مضيئاً ليلة أمس"، فاللغة في هذه الجملة هي الكلمات "كان"، و"القمر"، و"مضيئًا"، و"ليلة أمس"، واللغة كذلك هي القواعـد المتمثلة في طريقة البناء، كأن يجيء اسم كان مرفوعًا، وخبرها منصوبًا،ثم هي بالإضافة إلى ذلك، تلك العناصر المضمرة في كلماتها،كأن يتضمن الفعل "كان" أن الحادثة المروية قد حدثت في لحظة مضت، هكذا. تلك هي جوانب اللغة من هذه الجملة. وأما الجملة في مجموعها، فليست جزءًا من اللغة، ولكنها جزء من الكلام؛ وذلك لأن هذه المـادة اللغوية نفسها قد كان يمكن لمتكلم آخر وآخر أن يستخدمها على وجوه أخرى.

واللغة ذخيرة مدخرة، والكلام حال تستقي معينها من تلك الـذخيرة. فـإذا أشرت إلى ديوان شوقي – مثلاً– لم يكن الصواب المطلق أن أقول عنه: إنه جـزء مـن اللغة العربية، بل الصواب هو أن نقول: إنه الصورة التي استخدم بها شوقي تلك اللغة، ولكل شاعر آخر ولكل كاتب –أعني لكل متكلم– أن يستخدم اللغة على الوجه الذي

يراه، وما أشبه هذا بالفراق بين مال مدخر وبين صفقات تجارية وغير تجارية يستخدم فيها ذلك المال.

واللغة شيء قائم نتعلمه، كما نتعلم الهندسة والحساب والنبات والفلك، دون أن يضمن لنا هذا التعلم وحده حسن استخدام ما تعلمناه، فكم من دارس للغة من حيث مفرداتها وقواعدها لا تسعفه القدرة على أن يصوغ ما تعلمه في جمل، تمتاز عند الناس بما فيها من حق أو من جمال أو منهما معًا. فلقد تضع صندوق الألوان أمام فنان قادر وفنان غير ذي قدرة، فيشكل منها الأول صورًا تخلد بجمالها، ويشكل منها الثاني شيئًا غير ذي قيمة، فلا يقال عندئذ: إن رداءة الرديء - غير ذي القدرة - إنما تنسب إلى الألوان في ذاتها، إذ هي نتيجة لضعف الموهبة عنده أو لانعدامها.

على أن هذه اللغة التي أتعلمها، تظل في حوزتي، بمقدار ما تعين الذاكرة على احتفاظي بما قد تعلمت، حتى إذا ما جاءت لحظة الصياغة - أعني لحظة الكلام - استخدمت من تلك الحصيلة ما عن لي أن أستخدمه، وبالطريقة التي تتفق وقدرتي، فاللغة على هذه الوجهة من النظر، هي إمكان قائم، وكل حالة جزئية من حالات الكلام، إنما هي اقتباس من هذا الإمكان، لا يضيف للغة جديدًا. ويستطاع القول: إن الكلمات المفردات هي الوحدات الأولية في اللغة، كما إن الجمل هي الوحدات الأولية في الكلام، وحين نتعلم اللغة يكون ما نتعلمه هو الكلمات، وطريقة بنائها وشكلها في تكوين جملي واحد، أما الجمل نفسها فلا نتعلمها - بل هي كائنات نخلقها ونبدعها، كلما أردنا أن نبادل أحدًا شيئًا من حديث، وللكلمات تواريخها، فتستطيع أن تتعقب الكلمة الواحدة إلى أصول وجودها في اللغة، مستندًا إلى وثائق من اللغة، أما الجمل فهي بنات ساعتها، هي لحظية لا تمتد بتاريخ إلى عهود سابقة، اللهم إلا أن الجملة مما أعيد قوله عصرًا بعد عصر، حتى أصبحت كالنقود المسكوكة، يستخدمها المتكلمون جميعًا على السواء، وعندئذ تتخذ صفة الكلمة الواحدة، ويبطل كونها جملة إلا منسوبة لمن أبدعها أول مرة. والكلام إنشاء أصيل، وليس هو بالحصيلة المكسوبة، وهو على نقيض

اللغة، فاللغة حصيلة مكسوبة بالتعلم، نملكها لنستخدمها كيفما نشاء، ما دمنا نستخدمها وفق قواعد بنائها، والجملة تجيء تأليفًا جديدًا من المتكلم كما قلنا، وأما اللغة فمادة معطاة ليتصرف المتكلم في صور استخدامها على النحو الذي يحقق له غايته.

وتمضي في نهجها التفرقة بين اللغة والكلام، فإذًا الخطأ في اللغة غير الخطأ في الكلام:

الأول: خروج على قواعد اللغة المعروفة، والثاني: خروج على قواعد المنطق، فقولك: "إن النقيضين يجتمعان" صحيح على قواعد اللغة، في تركيب الجمل، باطل في قواعد الكلام التي هي نفسها قواعد الفكر، كما إن قولك:"كان القمر مضيء" بضم خبر كان، خطأ على قواعد اللغة في تركيب الجمل، لكنه مقبول مفهوم في الكلام، على أن الكلام إلى جانب ذلك، ليوصف بصفات كثيرة لا تصلح أن توصف بها اللغة من حيث هي لغة، فتقول مثلاً في كلام قاله متكلم في ظرف معين: إنه كان نابيًا، أو كان متسقًا، أو كان واضحًا أو غامضًا، أو كان ينطوي على نزاهة في الرأي، أو على تعنت فيه، وهكذا وهكذا دون أن تلصق أية صفة من الصفات باللغة.

وإنه لجدير بالملاحظة دعمًا للفرق بين اللغة والكلام، أن نقول: إن أمثال هذه النعوت التي نصف بها الكلام- دون اللغة- كثيرًا ما تصلح أيضًا لوصف أنماط أخرى من السلوك، فيقال عن رجل: إنه سلك سلوكًا نابيًا، وهكذا مما قد يدل في تقديرهم على أن الكلام ضرب من السلوك، على حين أن اللغة ليست كذلك.

أيها الزملاء:

على ضوء هذا الذي قدمته بين أيديكم، هذا الذي أضنيتكم به كما أضنيت نفسي في استيعابه ووضعه- والملاءمة قدر المستطاع بين أجزائه، على ضوء ما أسلفنا من تفرقة بين اللغة من جهة، وطرائق استخدامها من جهة أخرى، في كلام يتبادل به الناس الفكر والشعور (والكتابة ضرب رئيسي من ضروب الكلام).

ننتقل إلى الحديث عن **الفصحى**، **والعامية** تطبيقًا لا أكثر ولا أقل:

إننا حين نعرض لهما- للفصحى والعامية- فنحن تجاه مجموعتين من الرموز، هما مجموعتان من مفردات، وقد تتشابه فيهما بعض هذه المفردات، وللمتكلم أن يستخدم المجموعة الأولى، أو المجموعة الثانية، كما لو كان صاحب لغتين بينهما بعض الشبه، ولكنهما وحدتان مستقلة إحداهما عن الأخرى، كالعربية والفارسية مثلاً، وللمتكلم أن يصطنع أيهما في تبادل الفكر والشعور على الوجه الذي يراه أصلح في كل ظرف على حدة. والسؤال الذي يفرض نفسه الآن، هو: أهاتان المجموعتان على مستوى واحد من الصلاحية، أم تفضل إحداهما الأخرى، أم أن لكل منهما مواقف خاصة، وظروفًا خاصة، تكون فيها أصلح من زميلتها وأبلغ أداء؟

وأول ما نلاحظه على ضوء التفرقة التي عرضنا لها، أن الفصحى لغة مدونة المفردات ومدونة قواعد التركيب، مما يكسبها الصفات الأساسية للغة بمعناها الذي حددناه، وتلك الصفات التي تجعلها بمثابة الذخيرة المعلومة القريبة، التي يستطيع صاحبها أن يتناولها على وجوه مختلفة كيفما شاء، على حين أن العامية لا هي مدونة المفردات، ولا هي ذات قواعد في تركيب جملها، ولهذا كانت الفصحى قابلة للتعلم بطريقة منهجية، في الوقت الذي تكتسب فيه العامية عن طريق السماع. ولهذا الفرق بينهما نتيجة أو نتائج ذوات خطر،منها:

إمكان التمييز بين الخطأ والصواب في الفصحى؛ لأن الصواب هو ما جرى على القواعد المدونة المدروسة، والخطأ هو ما خرج على تلك القواعد، على أن هذا التمييز بين الصواب والخطأ متعذر في العامية، بل لا يكاد يكون له معنى أو محل؛ لأن الخارج على مألوف الناس في العامية يتكلم العامية، كأولئك الناس سواء بسواء، فلا خطأ هناك ولا صواب، أما الخارج على مألوف الناس في الفصحى، فهو مخطئ كما يخطئ راوية التاريخ، إذا هو لم يرو الحوادث كما تثبتها الوثائق.

ثم تتولد عن ذلك أو تلزم عن ذلك نتيجة أخرى لها مكانتها البالغة، وهي أنه لا تفاوت بين الناس في ميدان العامية، أو هو يوشك ألا يكون، فلا فرق في التحصيل

والمعرفة بالعامية بين من هو في سن العاشرة، أو من هو في سن الستين، إلا في الخبرات، أما أدوات الكلام فتوشك أن تكون واحدة، وأما في الفصحى فلأنها ذخيرة مدونة كما قلنا، فالتفاوت لاشك فيه، وهو قائم بين من درس، ومن لم يدرس، أو بين المتعمق والمكتفي بالسطوح، فإذا قر لدينا أن دنيا الإنسان تحددها حصيلة اللغة التي يتكلمها، فهذه الدنيا إذن فسيحة الأرجاء أو هي ضيقة بمقدار ما يملك الإنسان من مفردات يركبها في صور جملية، وتؤدي هذه القاعدة- إذا ارتضيت- إلى نتيجة حتمية، هي أن دنيا أصحاب العامية محدودة بألفاظها لا منطلق فيها، فإذا ما اتسعت آفاق المعرفة عند واحد منهم، وجد نفسه مضطرًا إلى اللجوء إلى مفردات الفصحى، يقيم بها الصور التي يريد بناءها.

ولنا بعد هذه المقارنة العامة بين مجموعتي الرموز اللفظية اللتين نحن بصددهما، وأتعمد أن أقول: اللغتين، لأن العامية ينقصها التدوين وتحديد القواعد، اللذان هما أصل مميزات اللغة بمعناها المعروف. أقول: إننا بعد هذه المقارنة: إذا نحن تركنا جانبًا مجال الحديث الشفوي بين الناس، ونظرنا إلى مجال الكتابة (وهى محاريب اللغة ومتنفسها، ومجلاها) فهل نجد حقًّا أسبابًا أو شبه أسباب تدفع بنا إلى الحيرة عند الاختيار، أنكتب بالفصحى أم نكتب بالعامية؟ ولنا أن نسأل في أعقاب ذلك: لمن نكتب بالعامية؟ بدهي، إننا حين نكتبها نكتبها لمن يقرؤها، أي لمن تعلم القراءة. لكن تعلم القراءة لا يكون ابتداء إلا في مجال اللغة الفصحى، إذ الفصحى وحدها - كما أسلفنا - هي التي تعلم تعليمًا منهجيًّا، إن لم يكن ذلك لفضلها الواضح؛ فهو لأن التعليم المنهجي للعامية فيه ما يشبه الاستحالة، وإذن فكل قارئ بلا ريب وبغير استثناء، قد تعلم بعض أصول الفصحى؛ لأنه تعلم القراءة، فلماذا إذن لا نكتب له باللغة التي تعلم هو أن يكتب بها ويقرأ؟ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فلنا أن نسأل كذلك: في أي مجال من مجالات الكتابة تتولد هذه الحيرة في الاختيار؟ إنها لن تكون في العلوم على اختلاف أنواعها بما في ذلك – على القطع – الدراسات الاجتماعية والفلسفية والتاريخية، وغيرها من علوم إنسانية، ولن تكون على القطع كذلك في العلوم الطبيعية، التي تكاد تستقل

لنفسها بلغة خاصة بها لها مصطلحاتها وأرقامها. لم يبق أمامنا إلا مجال الأدب، وفي هذا المجال الواسع الممدود حين نمعن النظر فيه ونقلبه، فإننا واجدون أن نطاق الخلاف والمنازعة ضيق أبلغ الضيق، فالشعراء من أنصار الشعر الأصيل العمودي - ولا شعراء في تقديري غيرهم - وإلى جانبهم أولئك الذين يكتبون الشعر المنثور أو النثر المشعور، هؤلاء وأولئك جميعًا يختلفون في أشياء كثيرة، أجسم وأبعد اختلافٍ، إلا في اللغة التي يستخدمونها، فهم متفقون على الفصحى لغة كتابة على الأغلب الأعم. ونخرج من نطاق الحديث، الأزجال والمواويل وما إليها من صور كتابة الأغنيات الجيدة، فهي ضروب من الأدب الشعبي قائمة بذاتها لها آفاقها وأوساطها، ولا اعتراض لأحد عليها، بل على النقيض، فتلك فنون فيها جمال ساذج ترتاح إليه النفوس، ومن الخير تشجيع أصحابها على التجويد فيها، والارتفاع بها. وهنالك كتاب القصة وكتاب المسرح، يوشك كبارهم والرادة فيهم أن يتفقوا جميعًا على اصطناع الفصحى، وينجم الخلاف حين يكون الأمر أمر حوار محلي بين طبقات معينة، يفرض فيها أنها لم تسمع الفصحى.

أقول: يوشك كبارهم والرادة فيهم لنبذ الفريق الذي يلتجئ للعامية عن قصد خفي، أو عن عجز يستره، أو عن ترخص يؤثره. وليس هؤلاء قليلين مع بالغ الأسف.

فإذا ضاقت شقة الخلاف إلى هذا الحد الذي أوضحناه، بين المؤمنين بقضايا الأدب، الجادين في تناولها وعلاجها، ففيم إذن هذه الضجة الكبرى التي تثار دفاعًا عن استخدام العامية في الأدب.

تلك ضجة أغلبها مستورد، دخلت البلاد العربية كلها من منفذ من منافذ السوء. وكبرها تتولاه في الشرق العربي كله جماعات ليست كثيرة العدد، ولكنها كثيرة المدد. ودوافعها على أغلب الظن غير خافية على أحد. فلا محل إذن للخوض فيها والإفصاح عنها. على أنه استطرادًا لهذا الذي أكرمتموني بالاستماع إليه، أرجو أن أشير إلى حالات قليلة- أو هي نادرة- خلقت لها العامية ألفاظًا قد تكون فاتت الفصحى، أو غلب عندنا أنها فاتتها. فعندئذ لست أرى خيرًا من أن تضاف هذه الألفاظ إلى ذخيرة

الفصحى بعد صقلها وصبها في القوالب العربية، وذلك ما تقوم به وبغيره من التيسير الواعي العاقل للواجب مجامعنا اللغوية الموقرة، وعلماؤنا في البلاد الشقيقة.

أساتذتي وزملائي:

إلى هنا أقف بكلمتي التي أردت لها ألا تتعدى حدود نطاق معين، خيل إلى أنه لم يطرقه الباحثون في هذه المشكلة، على صورة مطردة تشيعه بين الناس وتذيعه. ومن أجل ذلك جرؤت فقلت: إنها زاوية جديدة، نظرت للموضوع من مرقبها، وما قصدت بطبيعة الحال إلا أنها زاوية جديدة عليّ أنا، وعلى القليل الذي أعلمه.

على أنني قبل أن أستأذنكم في إنهاء هذا الحديث، أحب أن أضع تحت نظركم هذا البيان الذي يجمع رؤوس موضوعات متصلة بالفصحى والعامية، محاولة مني أن يلم هذا الحديث بأكثر ما يمكن أن يلم به مفاهيم كما يقولون:

الفصحى	العامية
- لغة كتاب الله الكريم	- العامية لهجة وليست لغة
- الفصحى لغة محمد- صلى الله عليه وسلم- ولغة أحاديثه القائمة إلى جنب كتاب الله،ولغة أصحابه الذين رووا وفسروا واجتهدوا .	- العامية عاجزة بطبيعتها وتكوينها عن أن تكون وعاء أدب أو علم.
- الفصحى لغة المأثورات العربية، التي لم يعرف الدين والعلم والأدب أروع منها وأرفع وأجمع.	- العامية لا وحدة لها ولا صلة بين أنواعها المتعددة، حتى في الإقليم الواحد.
	- العامية يحارب بها بعض المذاهب لغة القرآن الكريم.
- الفصحى لغة العروبة ورباط العرب.	- العامية دعوة للشعوبية.
-الفصحى تنقي العامية وترتفع بها مصفاة.	- العامية دعوة للإقليمية.

هذه الموضوعات التي يجمعها هذا الثبت وغيرها مما لم أثبته، تجدونها موضحة المعالم، بينة الموالج والمخارج في البحوث القيمة الرائعة، التي طولع بها هذا المجمع الموقر في دوراته المتعاقبة، وحسبي أن أشير إلى بعضها:

١- بحث للأستاذ فريد أبو حديد، عنوانه "موقف العامية من الفصحى" نشر في الجزء السابع من مجلة المجمع.

٢- بحث "تقرير لجنة الفصحى والعامية"وهي لجنة مجمعية"نشر كذلك في الجزء السابع.

٣- بحث عنوانه "المجمع واللغة العامية"، للأستاذ الزيات، نشر بالجزء التاسع.

٤- بحث عنوانه "بين الفصحى ولهجاتها"، للأستاذ الشبيبي، نشر بالجزء التاسع.

٥- بحث عنوانه "سلطان العربية وصراع الفصحى والعامية"، للأستاذ محمود تيمور، نشر بالجزء الحادي عشر.

٦- بحث عنوانه "أغراض البحوث في الفصحى والعامية"، للأستاذ العقاد، نشر بالجزء الحادي عشر.

٧- بحث عنوانه "لغة المسرح" للأستاذ توفيق دياب، نشر بالجزء الثاني عشر.

٨- بحث عنوانه "العامية والفصحى" للأستاذ تيمور، نشر بالجزء الثالث عشر.

٩- دراسات كثيرة منوعة عن اللهجات، نشرت في أعداد كثيرة من مجلة المجمع وفي مجموعة بحوثه الدورية.

وبعد؛

فليس من حق هذه الكلمة المتواضعة أن يكون لها مسك ختام، ولكن مسك ختامها وعد كتبه الله على نفسه، أن يحفظ كتابه، والله إذ يحفظ كتابه، حافظ اللغة التى أودعها كتابه. ومفهوم هذا الحفظ من لدنه سبحانه وتعالى أنه يعمر به قلوب القادرين على الذود عنها، والحفاظ عليها، وأنتم أيها الخالدون من صفوة هؤلاء القادرين، كتب الله لكم التوفيق، وجزاكم جزاء المجاهدين.

* * *

بين العامية والفصحى(*)

للأستاذ عبد الرزاق البصير
(عضو المجمع المراسل)

حينما نبحث تطور اللغة العربية، نجد الشكوى من غزو اللهجة العامية قد برز في نصف القرن الأول للهجرة، على وجه التقريب، وهذا يعني أن هذا الغزو قد بدأ بعد ما امتزجت الأمة العربية بالفرس والروم واليونان وغيرهم من الأمم الأجنبية امتزاجًا قويًّا تمثل في مصاهرة العرب هذه الأمم، فاتخذوا منهم الزوجات والجواري فأنجبن لهم البنات والأولاد... ونحن نعلم أن للأمهات تأثيرًا كبيرًا على بناهن وأولادهن وأزواجهن بفضل التربية والمعاشرة، مما جعل اللكنة الأعجمية تشيع بين الناس حتى الشعراء والأمراء منهم.

فهذا عبيد الله بن زياد، وهو الذي أصبح أميرًا على خراسان ثم الكوفة والبصرة يحرف في كلامه فينطق بما يعاب عليه؛ لأن أمه فارسية اسمها مرجانة... فمن ذلك قوله:"افتحوا سيوفكم"، يريد: "سلوا سيوفكم"، مما فتح مجالاً لهجو يزيد بن المفرغ له حيث قال:

ويوم فتحت سيفك من بعيد   أضعت وكل أمرك للضياع

ولو لم يتأكد هذا الشاعر بأن استعمال عبيد الله بن زياد لهذه اللفظة مما يؤخذ عليه بها، لما أنكر عليه هذا الاستعمال، ولكنه زياد الأعجم، مشهورة، يتندر بها عليه أهل زمانه بالرغم من أن مؤرخي الأدب يقولون عنه بأنه شاعر جزل اللفظ فصيح الشعر، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يتخلص من لكنته الأعجمية، لأنه ولد ونشأ بأصفهان، ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات، وهو صاحب المرثية المشهورة التي نظمها بعد موت المغيرة بن المهلب، والتي جاء فيها:

(*) قدم هذا البحث إلى مؤتمر المجمع، في الدورة الرابعة والأربعين، في مارس سنة ١٩٧٨م، ونشر بمجلة المجمع، بالعدد الحادي والأربعين، ص٥٥١.

فإن مررت بقبره فاغفر له كرم المطي وكل طرف سابح

فقال له يزيد بن المهلب، بعد ما أنشده هذه القصيدة: أفعقرت أنت عنده؟ قال: "كنت على بنت الهمار" يريد "الحمار".

ودعا زياد غلامه فأرسله في حاجة، فأبطأ، فلم جاءه قال: منذ لدن دأوتك إلى أن قلت: لبى ما كنت تسنأ؟ يريد: منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لي: لبيك، ما كنت تصنع؟ ومن الواضح أن هذه ألفاظ في غاية اللكنة والقبح.

وأنت حين تنظر في شعر زياد تجده من المتمكنين في نظم الشعر. ويقال: إن عبد الملك بن مروان، كان يشبه اللحن بالجدري في الوجه الجميل، والشق في الثوب النفيس. ويقال: إن الحجاج كان يقرأ:"إنا من المجرمون منتقمون"، وقد رُوي في باب اللحن روايات فيها كثير من الطرافة.

فمن ذلك أن الحجاج سأل نخاسًا: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ فأجابه: شريكاننا في هوازها وشريكاننا في مداينها، وكما تجيء تكون.

ولم يفهم الحجاج ما يقول، فقال له: ويلك ما تعني؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك... يقول "شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذا الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها ".

ومن ذلك قول بعض الشعراء يهجو أم ولد له:

أول ما أسمع منها في السحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

ولو أردنا أن نتتبع تحريف المفردات العربية عند بعض الذين تأثروا بعجمة أمهاتهم، أو بتربيتهم ونشأتهم بين الأعاجم لطال بنا المقام.

وكل ما أردنا أن نخلص إليه هنا، هو أن هذا التحطيم لبعض المفردات العربية وهذا اللحن في النطق من بعض الناس أفزع نفوس بعض علماء اللغة ورواتها كالأصمعي وأبي عمرو بن العلاء، وابن الأعرابي وغيرهم من العلماء، إلى حد دفعهم إلى الخروج إلى البادية، والبقاء فيها مدة طويلة، ليسجلوا ما ينطق به أولئك الذين يحيون بعيدًا عن مخالطة الأعاجم، حتى جمعوا من ذلك مفردات لا تحصى.

ثم أخذوا يستمدون منها معاجم كانت في مبدأ الأمر تعنى بأسماء الإبل والخيل والظباء، والسيوف، والرماح، وما إلى ذلك من أسماء الأشياء والأماكن، من أودية ومياه وأشجار وأعشاب.

تطورت إلى معاجم اللغة مما لا يحتمل هذا المقام، كذلك دفع اللحن إلى وضع علم النحو، على يد أبي الأسود الدؤلي، على أن بعض العلماء يذهب إلى أن علم النحو ليس عربيًّا محضًا. لكني أعتقد أنه عربي خالص؛ لأن ما تبقى من الشعر الجاهلي يجري على قواعد متقنة من علم النحو، وقل مثل ذلك في علم العروض.. لأننا نجد ما تبقى من الشعر الجاهلي يجري كله على أوزان وقواعد، لا يكاد يشذ عنها إلا فى حالات نادرة.

ولا ننسى أننا قد فقدنا آثارًا كثيرة من تراثنا العربي.. وقد يكون فيما فقدناه تفسير لكثير من الأمور اللغوية والتاريخية التي يختلف فيها العلماء، مما يخلق كثيرًا من الحيرة لدى كثير من الباحثين.

ومهما يكن من أمر، فإن اللغة العربية الفصحى قد اجتازت كثيرًا من الأزمات وخرجت منها كأقوى ما يكون... فانفتحت على ما جاءها من سيل هائل، مما ترجم من اليونانية والفارسية والهندية، وفي تلك اللغات علوم كثيرة، كالهندسة والطب والفلك والحساب والفلسفة... وما إلى ذلك من العلوم النظرية والتطبيقية، وقد فصل ذلك مؤرخو الأدب تفصيلاً لا مزيد عليه.. فكانت اللغة العربية في نمو مستمر يوم أن كانت الأمة العربية تصنع الحضارة، وتخفق فوق رأسها رايات النصر في كل نواحي الحياة، فلما توقفت عن المشاركة في صنع الحضارة، وخيم عليها ظلام الانحطاط عدة قرون، ضعفت لغتها كما تضاءل تفكيرها؛ لأن اللغة- كما لا يخفى - وعاء للنشاط الفكري والحضاري للأمة. وبقيت الأمة العربية على هذا الحال المؤسف، حتى جاء مطلع هذا القرن وشاء الله لها أن تستيقظ.. وجدت نفسها أمام حضارة أجنبية انبهر منها بعض العرب إلى درجة جعلتهم يعتقدون أن اللغة العربية غير قادرة على تقبل ما

يجد في حياتنا العصرية. وقد أدرك الأجنبي هذا الانهزام في بعض النفوس، فأخذ يعززه بحجج صدقها بعض الناس.. لكن المخلصين الواعين تنبهوا إلى بطلانها، وأنها ليست إلا سهامًا تسدد إلى قلب هذه الأمة، فإذا ما آمنت الأمة بضعف لغتها، فإنه يصبح من اليسير على أعدائها تدميرها؛ لأن وجود الأمة يكمن بالإيمان بلغتها، وإذا بنا نرى من يدعو إلى اصطناع اللهجة العامية بكل صراحة أو وقاحة، على الأصح، بحجة أن هناك اختلافًا واسعًا بين لغة الحديث ولغة الكتابة، مما يخلق صعوبة شديدة في تعليم الناشئة في المرحلة الابتدائية والمتوسطة، فالطلاب يعانون عذابًا شديدًا في دراستهم الثانوية، فكيف يكون حال الطلاب في المرحلة الابتدائية والمتوسطة؟

ويعزى سبب ذلك إلى تعقيد الحروف الهجائية العربية. فكم يكون الأمر سهلاً لو أتيح للطالب أن يكتب بلغة، إن لم تكن هي لغة الحديث الشائعة، فهي على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة، بدلاً من أن يجبر على الكتابة بلغة هي من الغرابة مثل غرابة اللغة اللاتينية بالنسبة إلى الإيطاليين، أو مثل غرابة اللغة اليونانية القديمة بالنسبة إلى اليونانيين.

هذا بعض ما قاله أحد المغرضين وعلى رأسهم **(ولهلم سبيتا)** في كتابه: "**قواعد العربية العامية في مصر**" وقد أدرك هذا المخادع أن في دعوته هذه خطرًا حقيقيًّا على أقوى رابطة تربط بين العرب والمسلمين، ونعني بها الدين الإسلامي، مما يثير عليه ثائرة الأمة فاحتاط لذلك قائلاً: "وحتى ما يدعى بالوحدة بين الشعوب الإسلامية، لا يمكن أن يقلقها تبني لغة الحديث العامية؛ إذ إن لغة الصلاة والطقوس الدينية الأخرى ستظل كما هي في كل مكان".

ومن الواضح أننا لو سلكنا هذا المنهج في تنفيذ هذه الدعوة المسمومة لباعدنا بيننا وبين لغتنا الحقيقية وتراثنا العظيم، بحيث يجعلنا غير قادرين على تذوق ما في لغتنا، وتفهم ما في تراثنا من نظريات عميقة، وحلاوة وقوة وتعبير عن القيم والعواطف الإنسانية. فلولا محافظتنا على لغتنا العربية الفصحى وتقديرنا لتراثنا القديم، لحدث

انفصال تام عن أسلافنا من العلماء والشعراء والأدباء والمفكرين... فنصبح أمة ناشئة بدون تراث ولا تاريخ... فإن الفرد منا حين يعرف أن تاريخ أمته يضم علماء أمثال الحسن بن الهيثم، وجابر بن حيان، والكندي، وثابت بن قرة، والبيروني، وغيرهم من العلماء، وحين يعرف أن تراث أمته يحتوي على شعراء، أمثال: أبي الطيب المتنبي، وابن الرومي، وأبي العلاء المعري، وأبي تمام، وأمثالهم من الشعراء العظام، ويحتوي على علماء في التاريخ، أمثال الطبري، وابن الأثير، والبلاذري، وابن خلدون، وكثير من أمثالهم يزداد ارتباطه، ويقوى انتماؤه إلى هذه الأمة.

ومما لا يحتاج إلى توضيح أن معرفة الأسماء لا تكفي الفرد، وإنما يحتاج إلى أن يطلع على آثار أولئك العلماء والشعراء، ويتفهم آثارهم لتكون ثروته العقلية والفكرية مستمدة من تلك الآثار.

وليس من شك أن من يبعد عن اللغة العربية الفصحى، كما يتمنى أعداء هذه الأمة، فإنه لا يستطيع أن يغذي عقله من تلك الآثار العظيمة، مما يجعل عقله فارغًا يتقبل ما يغرس فيه من فكر أجنبي، وبذلك ينفصل عن أمته كل الانفصال.. وهذا أقصى ما يسعى إليه المستعمرون؛ لذلك، نجد المهندس الإنجليزي (ولـيم ولكوكس) ينفث سمومه قائلاً: إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع، هو أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى، وأنهم لو ألفوا وكتبوا بالعامية، لأعان ذلك على إيجاد ملكة الابتكار وتنميتها".

وليس من شك أن هذا الماكر المغرض لا يقصد المصريين في هذا القول، وإنما يقصد جميع العرب... ولكنه خاطب المصريين، لأنه يدرك بأن مصر لو استجابت إلى دعوته، فإن أضرارها ستعم جميع الأمة العربية، لما لمصر من مكانة عظيمة وتأثير قوي بين العرب والمسلمين. ولقد أراد هذا المهندس الإنجليزي أن يثبت أن اللهجة العامية قادرة على أن تكون ذات مستوى رفيع، فمضى يترجم بعض قطع من روايات شكسبير، ولكنه أخفق في ما أراد إثباته من أن اللهجة العامية يمكنها أن تستوعب ما

ينقل إليها من الأدب الرصين... فجاءت القطع التي ترجمها مشوهة ركيكة[١] كـذلك كان حظه حينما حاول ترجمة بعض آيات من الإنجيل إلى اللهجة العامية[٢].

وليس سبيتا، ووليم ولكوكس هما الأجنبيان الوحيدان اللـذان كـشفا قنـاع عداوهما للغة هذه الأمة وتراثها ودينها، وإنما كانا من أقوى الدعاة إلى المكر والتضليل.

ومن الغريب، حقًّا، أن هذه الدعوة الماكرة قد فتحت بابًا واسعًا دخـل فيـه ضعفاء الإيمان بتراث هذه الأمة ولغتها، فأيدوها بحجج واهية... هي تلك الحجج التي استند إليها "سبيتا" و"ولكوكس" و"القاضي مور" وغيرهم من دعاة الأجنبي المستعمر، كما دخله أقوياء الإيمان بتراث هذه الأمة ولغتها ودينها، فنبهوا الناس إلى ما في هـذه الدعوة المضللة من أضرار كبيرة.

والحق أن مؤلفة كتاب: "**تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**" قد ألمت بهذه القضية الخطيرة كل الإلمام، وفصّلتها تفصيلاً لا مزيد عليه، مما جعل كتابها هـذا مرجعًا لا يستغنى عنه في هذه القضية. فالواقف على هذا الكتاب يجد أن هذه القضية قد تفرّعت منها فروع كثيرة.. لعل في بعضها خير اللغة الفصحى... من ذلك، مثلاً مـا حدث من نشاط في تأليف كتب النحو، حاول فيه أولئك المؤلفون تيسير هذا العلـم وتقريبه إلى الناس، وكما كتب من بحوث في كثير من العلوم والفنون وسائر جوانـب الأدب، ابتعد فيها أولئك الكتّاب والمؤلفون عن التعقيد، بحيـث أصـبحت آثـارهم ميسورة يقرأها سائر الناس فيفهموها كل الفهم... وبذلك تنمى عقولهم وتتسع آفـاق تفكيرهم.. ويقال مثل هذا في بعض كتّاب القصة، الذين جربوا أن يكتبوا العامية، فرأوا أن هذه اللهجة لا تطاوعهم كما تطاوعهم الفصحى في التعبير الفني عما في نفوسـهم، فأعلنوا رجوعهم عن هذه التجربة، كما حدث للمرحوم محمود تيمور[٣].

---

(١) تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، للدكتور نفوسة (ص ٥٥ – ٥٦).

(٢) المصدر السابق،(ص ٥٨).

(٣) المصدر السابق، (ص ٤٠٤).

من هذا كله يتضح أن ليس كل من كتب باللهجة العاميـــة خـــصمًا للهجـــة الفصحى، فإن هناك أناسًا دخلوا هذه التجربة لاعتقادهم أن طريقها في تثقيف الجماهير أقصر من طريق الفصحى، ومازال بعض كتاب القصة يسلكون هذا النهج مستندين إلى هذا الرأي.

وفي اعتقادي أنهم غير مصيبين، فيما ذهبوا إليه؛ لأنه لا يجوز إشادة ركن علـــى حساب تحطيم ركن آخر... فلو افترضنا أن طريق العامية أقرب إلى نفوس الجماهير من طريق اللغة الفصحى، فإن علينا أن لا ننتهج هذا الطريق لعدة أسباب: أولها: أن لكـــل قطر عدة لهجات... ففي أي لهجة يكتب الكاتب.. بالإضافة إلى أن اللهجات العاميـــة تتغير بصورة مستمرة. فكلما انتشر التعليم، اقترب الناس من اللهجة الفصحى، مما يعني أن كل من يكتب باللهجة العامية، فإنه يكتب لقطر من الأقطار، إن لم نقل لمنطقة من المناطق، مما يجعل آثاره لا تصلح إلا لمدة يسيرة، ولقطر معين، ثم لا تلبث هذه الآثار أن تؤول إلى الاندثار.

وما نظن كاتبًا يقبل أن يكون عمر آثاره قصيرًا... فكل كاتب يسعى أن تبقى آثاره أطول مدة ممكنة يرجع إليها الناس، ثم إن هناك أمرًا أهم من كل مـــا ذكرنـــاه، وهو: أن اصطناع اللهجة العامية يعارض الوحدة العربية، وهو أمل يسعى إلى تحقيقـــه كل مخلص لهذه الأمة. ذلك أن اصطناع اللهجة العامية يعمق التجزئة ويقوي الـــدعوة الإقليمية، فنحن نعلم جميعًا أن اللهجة الفصحى مفهومة لدى كل عربي من المحـــيط إلى الخليج.. وأنت إذا وقفت على أي أثر باللهجة الفصحى أدبيًّا كان أو غير أدبي، فإنك لا تستطيع أن تعرف ما إذا كان كاتب ذلك الأثر سوريًّا أو عراقيًّـــا أو خليجيًّـــا أو مغربيًّا؛ لأن الفصحى لهجة واحدة، لا يوجد فيمن يكتب فيها أي تمايز أو اختلاف إلا في حالة نادرة لا تكاد تذكر.

ثم إن هناك تجربة قامت بها مؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك لدول الخليج العربي، وتتلخص هذه التجربة في: أنها أعدت برامج تلفزيونية للأطفال باللهجـــة الفـــصحى

وأرسلوا بعضها إلى تونس ومصر وسوريا والعراق والخليج؛ ليعرفوا مدى تقبل أطفال هذه الأقطار العربية، وفهمهم للهجة الفصحى... فجاءت النتائج مبشرة سارة بحسب ما يقوله المشرفون على هذه المؤسسة، فقد بلغت حوالي ثمانين في المائة، بما يؤكد أن اللهجة الفصحى هي اللهجة الصحيحة المقبولة في جميع البلاد العربية.

فالخير كل الخير أن نعوّد الجماهير على اللهجة الصحيحة، محتملين كل ما يقف أمامنا من عقبات، فإن في ذلك تعزيز لأهم ركن يستند إليه وجودنا ونعني به لغتنا، لغة القرآن.

ومن المؤلم، حقًّا، أن نجد بعض المدرسين يصطنعون اللهجة العامية المحلية في تعليمهم للطلاب، مما يجعل الطالب ضعيفًا أشد الضعف، إذا أرد أن يعبر باللهجة الفصحى، ولعل هذا النهج يفسر أسباب ضعف الطلاب في قواعد اللغة العربية. أما ما يقال عن وجوب العناية بـ"الأدب الشعبي" فولكلور والمحافظة عليه، ذلك الأدب الذي يرتكز على اللهجات العامية، لأنه مصدر هام لكل باحث في علم الاجتماع والتاريخ بمعناه الواسع.

فإن الجواب على ذلك هو أن هناك فرقًا كبيرًا بين العناية بالأدب الشعبي والمحافظة عليه وبين تنميته وتغذيته... فالمحافظة على ذلك الأدب تعني تسجيله في كتب تخصص لذلك، يكون مرجعًا للباحثين، على أن يكون تسجيل هذا الأدب مقصورًا على الشعر الذي صدر قبل نصف قرن من الزمن أو أقل بقليل؛ لأن الأمة العربية بدأت صحوتها في تلك المدة أو قبلها بقليل.

والمقصود من دراسة هذه الناحية من الأدب هو معرفة ما عليه حالة الأقطار العربية من الناحية الاجتماعية قبل أن تنفتح على الحضارة العصرية، ولكن الذي يجري في معظم البلاد العربية - إن لم أقل في جميعها - هو أننا ننمّي الأدب الشعبي ونُعني به بما يقرب من عنايتنا بأدبنا الذي يرتكز على اللهجة الفصحى. فالمطابع مازالت تنشر الدواوين التي ينظمها الشعراء بمختلف اللهجات العامية، والصحف تعلق عليها وتنوّه بها

مثلما تنوّه بالشعر، الذي يعتمد ناظموه على اللهجة الفصحى، بل إن معظم الأغـــاني العربية تعتمد على الشعر العامي.

ومن الواضح أن للموسيقى قدرة عجيبة على ترسيخ ما يُغَنّي به في النفـــوس... ولست أبعد عن الصواب إذا دعوت إلى دراسة هذه القضية الهامة دراسة دقيقة من قبل لجنة تخصص لهذا الغرض، لكي تتوصَّل إلى قرار مدروس فيه تعزيز للغة الفصحى... فإن في ذلك أجل خدمة لهذه الأمة العظيمة.

*　*　*

بين الفصحى والدارجة(*)

للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب
(عضو المجمع)

كان لأبناء العربية المتحمّسين لقوميتها الحديثة مطمع أن يجعلوا اللسان الفصيح هو المتداول في التواصل اليومي على وجه مشابه لما تم للمثقّفين ومقاربيهم في أوربا وامتداداتها في استعمال الصحيح من ألسنتهم في التداول والتواصل اليومي بالكلام. وقد كانت في البلاد العربية، وخاصة في مصر والشام نهضة طيبة وإنتاج علمي وتعليمي وأدبي نفيس.

ثمّ جعلت ترتفع أصوات تهمس بنوع انتكاس من الدعوة إلى استعمال الحرف اللاتيني، واللسان العامي. وحاربتها الأمة العربية بسلاحين، سلاح الدعوة إلى الوحدة الجامعة بين العرب، ولا يكون ذلك أبدًا بلهجات العرب المختلفة النطق والمعادن والأساليب، وإنما يكون باللغة الفصيحة والاقتراب كل الاقتراب من منهجها وأساليبها وبيانها نطقًا وكتابة. وسلاح الدين، واللغة العربية الفصيحة هي لغة الكتاب والسنة وحضارة الإسلام وعلومه.

ثم نشأ لسان مشترك بين العرب من طريق وسائل التواصل والإعلام الحديث ملفق من اللغة الفصيحة والأساليب الدارجة بين الطبقات المثقفة كرجال الدين والتعليم والصحافة والقادة والخطباء السياسيين والشعراء المنادين بالحرية المنددين بالاستعمار، وبرجال الأدب والنقد والقصة والمسرح.

وصحبت نشأة اللسان الفصيح المشترك التلفيقي على النحو الذي قدمناه حركة أخذ وتعريب ونزعة شبه شعوبية من بعض طالبي التشبه بالإفرنج واللحاق بهم في نوع من عجلة وتقليد أعمى.

وعادت مرة أخرى دعوة إلى العامية متمثلة في التزام المسلسلات المسرحية في سائر بلاد العربية لغة اللسان العامي، وتخالط ذلك روح منافسة بين الألسن العامية

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة السادسة، من مؤتمر الدورة الرابعة والستين، يوم الخميس، الموافق ١٢ من مارس سنة ١٩٩٨م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالعدد السابع والثمانين، ص ١٢٧.

كأنها تريد أن تضاهي سيرورة عامية القاهرة. وتوجد مسلسلات فصيحة اللسان إلا أن التكلف في التعبير الذي ينبغي أن يصدر بروح الطبيعة والفطرة هو الغالب عليها؛ مما يقوي أو يظن أنه يقوي أصحاب القول بأن اللغة الفصيحة لا تصلح كل الصلاحية للبيان العصري. ويلحق بهذا القول الشعوبي النزعة ما ينادي به المنادون من أمر الشعر الحر والقصيدة النثرية.

ويدعو بعض الفضلاء المربين إلى وضع خطّة تربوية حادة تهدف إلى إحلال اللغة الفصيحة محل العامية في المدى البعيد، معتمدين على قول بعض النظريات العصرية بأن لتعليم اللغات فترة فطرية المنهج كفترة الرضاعة التي تبدأ بطبع الطفل وفطرته بعد مولده. فيقال: إن هذه الفترة تنتهي بانتهاء السنة السادسة ويكون الدماغ بعدها معدًّا للتعليم فيتعلم اللغة كما يتعلم غيرها من المعارف، وفي هذا عناء من التلقي لا يبلغ في اليسر مبلغ الفطرية.

وعندي أن اللغة الفصيحة ينبغي أن تدرس بأسلوب يبلغنا المقصود الأول من درسها، وهو معرفة لغة القرآن والحديث والبيان الأصيل الذي جاء به نعت القرآن من لدن حكيم حميد. وذلك أن نبدأ بخط أحرف الهجاء لنقرب الناشئ من معرفة صورها في سن مبكِّرة كالرابعة مثلاً، ثم نأخذ بتعليمه القرآن بدءًا بالفاتحة للتبرك ثم إصعادًا من سورة الناس إلى سائر سور المفصل، ثم بعد ذلك تعليم اختيارات من الشعر تحفظ ويصاحبها النحو، ثم نعلمه بعد ذلك الحديث والفقه، فإذا بلغ الناشئ السابعة كان قد احتوي صدره علمًا وافيًا من آيات القرآن ومتون الشعر ونصوص الحديث.

ثم بعد السادسة وذلك في سن السابعة يسار بالناشئ والناشئة على درب التعليم الحديث على أجود طرقه مع الاستفادة من أساليب الإعلام والتواصل الحديثة.

ومع هذا كله لابد من الحفاظ على أصالة اللغة الدارجة في كل بلد عربي لما تتضمنه من روح الجزالة والبيان الأول. وقد فطن الأوائل إلى أن جزالة العربية قد داخلها لين الحضارة، فلم يستشهدوا بجيل بشار على قوة تعبيرهم، وتمكنهم من جوهر

فصاحة اللغة، وختموا باب الاستشهاد بابن هرمة، وبالغ أبو عمرو بن العلاء فكره الاستشهاد بابن قيس الرقيات على فضله ولم يتابعه في ذلك العلماء. وذكر ابن جني في "الخصائص" أن فصاحة العرب الأولى بقيت منها بقايا إلى زمانه، إذ مرّ بأعراب بالبادية قال أحدهم وهو يخاطبه: (يحير) فأصلحه له فقال: (يحار) وعلق ابن جني على ذلك بوصف المتنبي بالصدق فيما يقول.

والخبر الذي ساقه ابن جني عن أبي الطيب عظيم الأهمية لدلالته على لون مما نذهب إليه من أن فصاحة البداوة الأولى لن تزال إلى يومنا هذا باقية منها بقايا وعلينا أن نتفطن إلى ذلك.

وعلينا أن نتنبه إلى أن وسائل الإعلام والتواصل الحديثة ربما عصفت بهذه البقية النادرة الباقية، ومن أول أوجه التنبه أن نقف الحملة الجائرة عليها، فلا ينبغي أن نحسب أنها شيء معاد للسان الأول الفصيح بل شيء داعم على المحافظة عليه. ولعلنا كلما ابتعدنا عنه نبتعد من حيث لا نشعر عن أصول الفصاحة والجزالة. ولعلنا إن تأملنا بعض ما بأيدينا من كتب اللغة والنحو أن نفطن إلى أنها قد غفلت عن أشياء مازالت تحتفظ بها اللغة الدارجة مثلاً **شاف، يشوف**،في كتب اللغة معناها جلا ويستشهد ببيت عنترة:

ولقد شربت من المدامة بعدما　　ركد الهواجر بالمشوف المعلم

ونذكر بعد اشتقاقات وكلمات كلها يمكن أن نستنبط منها بيسر وبلا تكلف أن الاستعمال الدائر السائر في كل بلاد العربية الآن من أن شاف معناها: نظر، رأي صحيح – قالوا: "وذكر ذلك صاحب التاج عن ابن الأعرابي: بعث القوم **شيّفة** لهم أي طليعة، ومن الشواهد قول قيس بن العيزارة الهذلي:

وردنا الفضاض قبلنا **شيفاننا**　　بأرعن ينفي الطير عن كل موقع

وأن شيفان مشتقة من شاف لا يخفى، وكذلك شيفة، وفي القاموس: اشتاف الرجل: إذا تطاول ونظر، والبرق: شام، ولعمري إن قولنا: شام، كقولنا شاف في هذا المجال.ومثال آخر كلمات تدل على زمان كقولنا في دارجتنا: **دابه جا، توه جا**، وقول

أهل مصر: **زمانه جايي**. قال تعالي في سورة آل عمران (١٩٥): ﴿بلـــي إن تــصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ قال الطبري: أصل الفور ابتداء الأمر يوجد فيه ثم يوصل بآخر، وإلى نحو من هـــذا ذهـــب الزمخشري في "الكشاف"، واستشهد بقول أبي حنيفة في الأمر على الفـــور لا علـــى التراخي، وفسر يأتوكم من فورهم هذا: من ساعتهم هذه.

وفي سورة يوسف (٤٧) ﴿تزرعون سبع سنين دأبًا﴾ فسره الزمخـــشري بمعـــني دائبين في العمل، وحرف الزمخشري أبو عمرو: همزته ساكنة، والحرف: بفتح الهمـــزة وسكونها، والاختلاف بين البصريين والكوفيين في جواز فتح الساكن ليس موضع النظر الآن؛ إذ كلاهما قراءة صحيحة، والوجه ما ذهب إليه الطبري حين جعل الدأب هنـــا بمعنى العادة، وكان صاحب هامش طبعته الحلبية ظن أنه فسر على أن الهمزة ســـاكنة، وأحسبه لم يتنبه إلى أن الطبري كوفي المذهب في أمر السكون والفتح، والوجه الـــذي ذهب إليه في التفسير أقوى من وجه الزمخشري، ويدخل في باب الزمنيات التي قـــدمنا والعامة يقولون: **دابه جا، ويجي دابا**، أي: من الآن فصاعدًا، وهذا باب طويل فلا نريد أن نطيل فيه.

والذي يعنينا هو ما قدمناه من أن الدارجة الأصيلة فيها نفس من روح البيـــان الأصيل يخشى عليه من غزوة إعلاميات العصر، ودخول العجمة من طريق العبـــارات الصحفية والإعلامية المترجمة، فيفسد ذلك ذوق الناس في العربية ولله در الـــسباعي - رحمه الله - في كتابه عن الأدب الجاهلي؛ إذ ذكر أن من البيان ما يستطاع في أعمـــاق دارجة القاهرة بين النساء اللاتي لا يكتبن ولا يقرأن.

وقد فطن المأمور عبد القادر مختار- رحمه الله-، الذي كان مأمورًا مصريًّا بمدينة القطينة بالنيل الأبيض بالسودان في أوائل هذا القرن الميلادي، فصنع مـــسرحية سماهـــا المرشد السوداني، ضمنها عجائب من بلاغة العامة، طبعت بالخرطوم سنة (١٩٠٨م)، وقد نبهت بعض المشرفين على جوانب أدبية ثقافية في بلدنا إلى مكانها وآمل أن تعـــاد

طباعتها، ومؤلف آخر ضمن كتابه: "من فصاحة اللغة العامية وبيانها أمثلـــة نـــادرة"، صاحب كتاب "في شان الله ".

وقد حفظت الأشعار الدارجة عندنا في السودان ثروة عظيمة من علوم الدين في الفقه والسيرة والتصوف، وضمنت مدح النبي – صلي الله عليه وسلم – بحب عظـــيم ذي صدق وحرارة، وفي كثير من قصائد المدح النبوي يصف الشاعر الناقة التي يقصد بها القبر الشريف، من لدن بدء تربيتها إلى حين وصولها إلى باب السلام، ومن سمع مثل هذا الشعر لم يسارع بتهمة معلقة طرفة أنها مصنوعة.

ونسال الله التوفيق،

*　　*　　*

ثانيًا:

في التقريب بين الفصحى والعامية

موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى(*)

للأستاذ محمد فريد أبي حديد

(عضو المجمع)

ليست اللغة العامية في اللغة العربية بدعًا في تطور اللغات، بل هي مثل جديد يدل على أن اللغة ما هي سوى مظهر من مظاهر حياة الشعوب، والذي يتتبع تاريخ العربية الفصحى يستطيع أن يدرك أنها كانت تتغير وتتطور دائمًا في ألفاظها وأساليب تعبيرها، حتى بعد أن جاء الإسلام، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش، وخلع عليها نوعًا من الثبات جعل تطورها محدودًا.

وقد كان للاتصال بين اللغة العربية والقرآن الكريم أثران:

(الأول): أن اللغة العربية احتفظت بصورة كادت تكون مستقرة مدة تزيد على ثلاثة عشر قرنًا، وصار التراث الثقافي المختلف من تلك القرون ملكًا سهل التناول لكل من يقرأ الفصحى إلى يومنا هذا.

(والأثر الثاني): أن اللغة العربية منذ استقرت فقدت كثيرًا من المرونة الضرورية لتطور اللغات، ولاسيما فيما يتصل بالحياة اليومية والمعاملات، فنشأ من ذلك شيء من الانفصال بين لغة الثقافة والأدب والفكر، وبين لغة الأسواق والمعاملات اليومية وما إليها، ومازال هذا الانفصال يتزايد كلما جدَّت في الحياة ظروف تحتاج إلى التعبير والأداء فيما بين بعض الناس وبعض في زحمة الأعمال، حتى أصبح من الضروري لمن أراد الاتصال بالتراث الثقافي والفكري أن يتوفر على دراسة اللغة الفصحى وتخليصها من آثار عامية الأسواق والمعاملات. وهكذا أصبحت الفصحى دراسة بعد أن كانت أداة الحياة في كل ميادينها.

ومازال هذا الانفصال يزداد مع تغير الأحوال وتبدل ظروف الحياة؛ لأن اللغة الفصحى قنعت بأن تكون أداة التعبير الفكري والعلمي. وكانت القداسة التي خلعها

(*) عرض في الدورة الثالثة عشرة، الجلسة الخامسة والعشرين، في ١٩ من مايو سنة ١٩٤٧م. ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء السابع، ص ٢٠٥. (ويمكن ضم هذا البحث إلى بحوث الظواهر بين الفصحى والعامية، الواردة بالجزء الأول).

عليها القرآن الكريم من أقوى أسباب شدة اتصالها بالدراسة العقلية، وقلة قبولها للتطور الذي يبعدها عن صورتها الأولى - نقصد الصورة التي نـــزل القرآن الكريم بها.

وقد كان من أول ما هجم على العربية الفصحى من آثار تطور الحياة شـــيوع اللحن فيها، ولهذا الأمر دلالة كبرى فإنه ينم عما شعرت به الشعوب المتكلمة بالعربية من ثقل وطأة حركات الإعراب وصعوبتها على الناس إذا احتاجوا إلى التعبير في حياتهم اليومية.

وقد كان أصحاب اللغة العربية في موقف يضطرهم للاختيار بين خطتين:

إما أن يختاروا تطوير لغتهم والبعد بها عن صورتها الأولى وإسقاط الإعراب جملة واحدة، وفي هذه الحالة كان الذي ينتج هو أن تستمر اللغة العربية لغة التعامل وتندفع في تطورها إلى غايته. وكان هذا لابد أن يؤدي بها آخر الأمر إلى أن تصير لغة جديدة إلى مدى كبير.

وإما أن يختاروا تجميد لغتهم والمحافظة على صورتها والإقبـــال علـــى درســـها وضبطها والاحتفاظ بكل خصائصها، وبذلك يحتفظون بوحدتها واتصال ثقافتها علـــى مر العصور.

ولقد اختاروا الخطة الثانية في حماسة عجيبة يدل عليها كل ما تخلف من أخبار الرواة والعلماء والخلفاء والأدباء. وكانت حركة ضبط اللغة العربية ودراستها والحرص على بقاء صورتها، من أعجب الحركات وأقواها في تاريخ اللغات كافة. ومنذ اختـــار أصحاب اللغة العربية هذه الخطة، كان لا مفر من اتساع الفرق بين لغة أدبية فـــصحى ميدانها الفكر للخاصة، ولغة عامية ميدانها الحياة كلها للكافة، بدأ هذا الانفصال منـــذ أول التاريخ الإسلامي، ومازال يزداد حتى بلغ مداه اليوم بين لغة المثقفين القارئين وبين لغة التعامل الحر.

وذلك يشبه ما حدث في بلاد أوربا، إذ تطورت اللغة اللاتينية في الوطن اللاتيني وما يليه من البلاد التي كانت لغة الثقافة فيها هي اللاتينية، ونشأت من ذلـــك اللغـــة الإيطالية والفرنسية والإسبانية، وتباعدت الصلة بين اللاتينية وبين سلالاتها تباعدًا مختلفًا

يقل في بعضها ويزيد في بعضها تبعًا لما داخلها من آثار الأقوام الذين مزجوا لغاتهم الأجنبية باللغة اللاتينية الأصلية.

وقد حدث مثل هذا التطور إلى حد كبير في اللغة اليونانية، فإن يونانية اليوم ليست هي اليونانية القديمة، وإن كان المصدر لا يزال واحدًا.

غير أن البعد بين العربية الفصحى وبين العربية العامية لم يكن مثل ذلك البعد الذي نشير إليه بين لاتينية أمس وإيطالية اليوم، فإن الأمم العربية لم تحط بها الظروف التي أحاطت بأمم أوربا، فلم يغرقها طوفان من اللغات الأجنبية كما أغرق اللاتينية والإغريقية طوفان الأمم الجرمانية والسلافية.

ولكن مهما يكن الفرق بين موقف العامية من العربية الفصحى، وبين موقف اللغات الأوربية الحديثة من اللغات القديمة، فإنه من الواضح أن الاتجاه في نوعه في الحالين، وإذا استمر في سبيله كان من المحتوم أن تصير اللغة العربية الفصحى لغة الكتَّاب، على حين يزيد تطور العامية مع الحياة، وتزداد تبعًا لذلك شقة الخلاف بينها وبين الفصحى، التي تصبح بعد حين في حكم اللغات القديمة (الكلاسيكية)، ولو حدث مثل هذا التباعد لما كان للأمم العربية مفر – ولو بعد حين – من أن تقف مرة أخرى في موقف الاختيار بين أحد أمرين كل منهما ينطوي على أضرار كبيرة:

(الأول): أن تختار الاتصال بالتراث القديم الماثل في اللغة الفصحى، وتضحي في سبيل هذا الاتصال بأعز ما عند أمة حية تتطلع إلى حياة مليئة قوية – وهو اتصال اللغة بالفكر – اتصال الشعب الذي يتكلم بأصحاب الفكر الذي يكتبون. وعند ذلك يكون لا مناص لنا من أن نقنع بحركة فكرية منعزلة عن كتلة الأمة، وأن نرضى لأنفسنا بديمقراطية سطحية لا تتعدى المظاهر الكاذبة، على حين تبقى جماهير الأمة في حالة أمية وعقم عقلي ونفسي.

(والأمر الثاني): أن نختار الحياة الحاضرة والمستقبلة، مضحين بكنوز الثقافة القديمة وما فيها من أصول حضارتنا ومثلنا العليا، ونقطع ما بيننا وبين ماضينا الكريم

السامي. ويكون علينا في هذه الحالة أن نعود إلى حيث بدأت الأمم أولى خطواتها نحو الحضارة إلى أن نستطيع بعد أحقاب طويلة تحصيل ثروة فكرية جديدة تصلح لأن تكون غذاء لعقول أمة حديثة.

والأمران كما هو ظاهر ينطويان على أخطار جسيمة، ويوقعان بنا خسائر محققة. فإذا شئنا أن نتجنب الوقوف في مثل هذا الموقف الذي يضطرنا إلى الاختيار بينهما مرغمين – إذا شئنا ذلك – كان لا غنى لنا عن التفكير الجديّ الصريح منذ الآن في الموقف قبل أن يصل إلى مداه.

ونرى أن الخطوة الأولى في تفكيرنا هي أن نتأمل في حال هذه اللغة العامية، وأن نحاول تحديد خصائصها وما بلغته في تطورها. ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك في صراحة عما يجدر بنا أن نفعله للمحافظة على حياتنا الفكرية أولاً، ولتجنب كل ما يمكن تجنبه من الخسارة ثانيًا.

ولما كانت مثل هذه الكلمة المختصرة لا تتسع للاستقصاء، كان المقصود منها هو مجرد الإشارة إلى ما يجدر بالبحث أن يتجه إليه من المسائل:

المسألة الأولى

الألفاظ العامية:

لاشك أن الكثرة الكبرى من الألفاظ العامية إما عربية قرشية صحيحة، وإما محرفة عنها تحريفًا قليلاً، وإما عربية من لهجات قبائل أخرى غير قريش، أو محرفة عنها تحريفًا قليلاً. فمن المعروف أن القبائل العربية التي جاءت إلى مصر في العصور المختلفة كانت من أصول مختلفة، وكان مقامها في العواصم والريف وعلى حدود الصحراء سببًا في وجود لهجات متباينة في الأقاليم المختلفة، ولكن العامية المصرية – أي التي نشأت حول العاصمة مصر – هي الأكثر انتشارًا، وقد امتزج فيها أثر كثير من القبائل، وكان رائدها دائمًا التسهيل في النطق والتيسير في التداول.

ويستطيع كل منا أن يخلو إلى نفسه ويثبت ما يرد على خاطره من الألفاظ المعروفة المتداولة، ومنها يتبين أن الألفاظ العامية ليست سوى صور من ألفاظ عربية ليس من العسير أن تُصحَّح، بل إنه ليس من العسير أن يُردّ إليها اعتبارها وتُرفع عنها الوصمة التي لصقت بها على مر القرون.

فأمامي الآن على مكتبي: قلم - مجلة – كتاب - قزازة حبر (قارورة حبر) - علبة سجاير - حتة بنّور (حت الشيء) (البَلُّور، والبِلَّور) وقلب اللام إلى النون كثير في اللغة كما هو معروف في:عنوان، وعلوان، وقلة الجبل، وقنته، وإسماعيل، وإسماعين إلخ- ورق ... منفضة- كبريت- سفنجة- خرامة- تقالة ... إلخ، ولو شئت أن أذكر كل ما في الغرفة لم أجد سوى ألفاظ جوهرها عربي، وكثير منها لا يزال سليمًا. على أن اللغة العامية تحتوي على كثير من الألفاظ، التي أهملتها الفصحى، تعاليًا منها، أذكر منها:

طرقة- قُفَّة- سلَّة- دخَّان- مزراب- فلان (يطّوح) (أي يتطوح) ... إلخ.

ونرى أن بعد الألفاظ العامية عن العربية مبالغ فيه، فالفرق لا يزال ضئيلاً بينها وبين الفصحى، ومن اليسير تدارك الأمر إذا نحن عنينا بجمع كل المفردات العامية، وعنينا بإعادة الاعتبار إلى كل ما يمكن رد الاعتبار إليه، وصحَّحنا كل ما يمكن تصحيحه منها بغير إبعاد لها عن صورها كلما أمكن ذلك. والأمر في نظرنا يسير إذا عكفت عليه فئة قليلة من الباحثين، فاتخذت أحد القواميس العربية البسيطة (كالمنجد) أساسًا، واستطردت منه إلى ما هو قريب من ألفاظه في اللغة العامية، حتى تستوعب الألفاظ العامية ثم تقبل عليها بالتصحيح أو الإجازة.

والتحريف في العامية ناشئ في أغلب الأحوال من القصد إلى التخفيف في النطق، إذا لم يكن ناشئًا من تأثير لهجة بعض القبائل العربية.

ويحدث أكثر التحريف إما بزيادة حرف، كما هو الحال في (راجل) بدلاً من رجل، باط (بدلاً من إبط) ، صباع (بدلاً من إصبع) ، وإما بتخفيف الهمزة مثل فار (بدلاً من فأر) وبير (بدلاً من بئر) ... إلخ.

وقد يكون بإتباع حركة أول الكلمة للحرف اللين الذي في وسطها، مثـــل: بِيت بدل، بَيْت، وغِيط، بدل غَيط، وكُوكب: بدل كَوكب، ومُولد: بدل مَولد.

وقد يكون لمجرد تسهيل النطق، مثل قولنا: رُباط وفُخَّار وأزميل.

ونلاحظ هنا أن حركة الكسر شائعة في العامية، سواء في أوائل الكلمـــات أو أواسطها أو أواخرها، فنحن نقول: حقِّتنا نِعمل كل يوم شيء ونِستمر. إلخ.

وليس كسر أول المضارع بالشيء الغريب عن اللغة العربية، فهو في لهجة بهـــراء وأظنه في لهجة أسد.

وهناك تحريف شائع في العامية وهو **كسر آخر الاسم المضاف إلى ضمير المؤنثة المخاطبة**، مثل قولنا: وانتِ مالِك.

وضم آخر الاسم المضاف إلى هاء الغائب دائمًا، مثل قولنا: كتابُه.

وفتح آخر المضاف إلى المخاطب المفرد: كتابَك.

وإسكان آخر المضاف إلى هاء الغائبة أو الجمـــع الغائـــب، مثـــل:كتابْهـــا وكتابْهم...إلخ وفي لهجات العرب كثير من مثل هذا، نذكر منها: لهجة لخـــم، الـــتي تَكسر ما قبل كاف المخاطبة المؤنثة.

ومن التحريف الشائع: **إبدال بعض الحروف بأخرى أسهل في النطق**، مثـــل: بحتر: بدلاً من بعثر- تلاته: بدلاً من ثلاثة- اتاوب: بدلاً من تثاءب- اتمطع بدلاً: مـــن تمطى -ضل (ظل) سابت (ثابت) ... إلخ.

ويلاحظ هنا أن **العامية تضيف** في كثير من الحـــالات **ألفًـــا في أول بعـــض الكلمات تسهيلاً للنطق**، مثل: اتمتع،بدلاً من: تمتع- اتاكل، بدلاً من: تآكل ... إلخ.

وكذلك **تخفيف النطق بإبدال الحرف المضاعف ياء**، مثل قولنا: (مدّيت)، وحطيت، وفكيت، وبليت ... إلخ. وهذا شائع في بعض لهجات العرب.

وتحذف العامية جزءًا من حروف الجر، في مثل قولنا: ع الرف - ف البيت -م السوق... إلخ. وهذا شائع في بعض لهجات العرب أيضًا.

والخلاصة: **أن أكثر الألفاظ العامية إما صحيحة قرشية، وإما صحيحة في لهجة من لهجات العرب، وإما محرفة تحريفًا قريبًا يُقصد به التسهيل.**

وهذا يدعو إلى الاعتقاد أنه من اليسير رد الألفاظ العامية إلى الفصحى، إذا راعينا شرطين:

١- إجازة كل ما يمكن إجازته.

٢- رد اللفظ إلى أقرب صورة في الفصحى.

وليس مثل هذا الاتجاه مأمون العاقبة، إلا إذا أخذناه بالرفق والتدرج، وتوسلنا فيه بإقبال الأدباء عليه بغير تحرج منه.

المسألة الثانية

قواعد اللغة العامية:

تسير اللغة العامية على قواعد تكاد تكون مطردة، نضرب لها أمثلة فيما يلي:

١-فهي مثلاً **تتبع طريقة مطردة في تركيب العبارات المنفية:** ماجاش – ماراحش – مش حاييجى – ما اعرفش – مش حا اعرف – ماكتبتش – ما كتبناش... إلخ.

ويبدو عند النظرة الأولى في هذا صدى لما عُرف في لهجات العرب، ولكنا لسنا في موضع مناقشة أصل هذا التركيب، فلا نقصد سوى أن نشير إلى أن هذه قاعدة عامة مطردة تسير العامية عليها.

٢-**صيغ الماضي والمضارع والاستقبال محددة:**

كتب – بيكتب – كان بيكتب – حايكتب.

وللمضارع صيغة عادية أخرى، مثل قولنا: لما يكتب – بكره يطلع الصيف... إلخ.

٣-**يُستعمل الفعل المطاوع في محل المبني للمجهول:**

ينضرب – ينكتب – ينفرش... إلخ.

٤- **هناك قياس وسماع في جمع الأسماء**، وأكثر ذلك **مستمد** في الأصل **من اللغة العربية أو سائر على غرارها** – فنقول مثلاً:

مدرسة – مدارس- مكتب – مكاتب – رجل – رجاله- امرأة – نسوان- بيت – بيوت..إلخ.

ولكن هناك شبه قياس، في مثل: أودة – أود- شونة- شون. بدله –بدل- سكة – سكك..إلخ.

٥- **تُستعمل الياء والنون دائمًا في الجمع السالم:**

حدادين- نجارين- خبازين- مدرسين- فاكرين- ناسيين- رايحين . .. إلخ.

٦- **خفة النطق باللفظ هو أول ما يُعتبر في الكلمة**، سواء أكان ذلك في حركة الحروف أو في بناء الكلمة، فمثلاً نقول – في جمع بدلة –: بِدل، ولكنا نقول – في جمع يفطه –: يُفط، لا يِفط.

٧- **التشابه في شكل الكلمات أو التقارب في الأشكال له أثر في صيغة الجمع**: فمثلاً نقول: مصباح – مصابيح، مفتاح – مفاتيح، ونقول أيضًا: فدان –فدادين، شباك- شبابيك، كتكوت – كتاكيت.. إلخ.

ويلاحظ أن الخروج عن أحد الأوزان السماعية أو القياسية يكون له من الوقع ما للخطأ اللغوي في الفصحى، فإذا قال إفرنجي مثلاً، في جمع شباك: شباكات أو شبابك، أو لو قال في جمع قلم: أقلوم، بدل أقلام، لكان قوله غريبًا.

وهكذا يمكننا أن نقول: إن اللغة العامية قد كونت لنفسها قواعدها النحوية والصرفية، وأصبحت لها صورها وأصولها المعترف بها، فالخروج عنها يُعتبر خطأ.

٨- **هناك بعض فروق صغرى مثل ضغط حرف العلة في فعل الأمر**، مثل: قول- بيع..إلخ.

وهناك مميز عظيم يفرق بين العامية والعربية عند النظرة الأولى بغير فحص أسلوب أو حرفيات الكلام، فإن العامية تقف في أواخر الكلمات كلها بالسكون، ولا تعرف الإعراب على أنها مع ذلك تحرك أواخر بعض الكلمات، بقصد تخفيف النطق ووصل الكلمات بعضها ببعض. فمثلاً نقول: لما رحت له في البيت لقيته ركبِ العربية.

وهناك الحركات التي تلازم الضمائر، فمثلاً نقول في خطاب الرجل:

ده كتابَك – وللمؤنث: ده كتابك.

ونقول: ده كتابْهم – دى كتابتْهم – دى كتابتْكم – دى كتابتْنا.

ويلاحظ أن **هذه الحركات ثابتة تلازم كل منها الضمير الخاص بها في كل الأوضاع**، فنقول مثلاً: شفتُكم كلُّكم – انتو رحتو كلُّكم، دا بيت الناس كلُّهم. أكلت الفاكهة كلها– جت الناس كلها – كلام الناس كلَّها. فالعبرة بقولنا كلهم أو كلها، أي بالضمير اللاحق.

ونحن نقول: ربِّنا يفتح عليك. وربَّك كريم. وللأنثى: ربِّك كريم، ولهم ربهم. ويعرفوا ربُّهم: ولكو أجر عند ربُّكم. فالعبرة هنا بالضمير اللاحق للكلمة، ولا تتغير الحركة بتغير موضع الكلمة في الجملة.

المسألة الثالثة

أسلوب اللغة العامية:

ليس أسلوب اللغة العامية هو عين أسلوب العربية الفصحى، وإن كان قريبًا منه. فهناك فروق كثيرة نذكر منها البعض على سبيل التمثيل:

١–نقول في العربية عادة: جاء محمد، وكتب لي أخي كتابًا وهكذا. وذلك بتقديم الفعل على الفاعل، فإذا قدمنا الفاعل وابتدأنا به كان لنا في ذلك قصد. وأما في العامية، فالمعتاد أن نقول: محمد جه، وأخويا بعت لي جواب، وهكذا.

٢– إذا أردنا النفي في العربية قلنا: ما جاء فلان، أو لم يكتب لي أخي: وأما في العامية، فنبدأ دائمًا بالاسم فنقول: فلان ما جاش، وأخي ما كتبش لي جواب . .إلخ.

٣–في الاستفهام نستعمل في العربية أسماء الاستفهام، أو حروفها، فنقول: هل جاء محمد؟ ومن كتب هذا؟ وأما في العامية فلا نستعمل حروفًا، بل نكتفي بنغمة الصوت، فنقول: هو محمد، ونكتفي بأن نقول: محمد جه؟ بغير تفريق بين صيغة الإخبار وصيغة الاستفهام. وأما أسماء الاستفهام فنستعملها أحيانًا مقدمة في العامية كقولنا، مين قال كده؟ ونستعملها أحيانًا مؤخرة، مثل قولنا: أعمل إيه؟ بدلاً من قولنا: ماذا أعمل؟

٤-تكثر في العامية العبارات التي تدل على حركة النفس والإشارات واللفتات؛ وهذا لشدة امتزاجها بالحياة اليومية، فنحن نقول: " لأ يا شيخ " إذا سمعنا خبرًا غريبًا ونقول:" إيه "؟ مع إطالة الياء للدلالة على التحدي أو عدم المبالاة.. إلخ.

وسأورد عبارة عامية في وصف حالة، لبيان ما فيها من اللفتات والإشارات التي أقصدها:

" كنت مرة ماشي في الطريق رايح للوزارة. وبصيت لقيت الدنيا بردت والمطر نزل زى القرب ووحلت الأرض وبقت حاجة عيصة وكنت مستعجل، وعندي ميعاد مهم، فركبت تاكسي عشان أوصل في ميعادي، وحطيت إيدي في جيبي عشان أطلع فلوس أدفع أجرة التاكسي، مالقيتش المحفظة يا خبر! أعمل إيه في دي الوقعة؟ يا ترى أكتب للسواق سند ولا أنزل أدور على حد يدفع لي الأجرة ولا ولا، وفضلت طول الطريق محتار مش عارف أعمل إيه، لحد ما وقف التاكسي ونزلت والعرق نازل من جسمي ومش عارف أقول إيه للجدع اللي بص لي، وقال ٢٠قرش يابيه. وبصيت هنا وهنا أبحث عن واحد صاحبي فمالاقيتش إلا ... إلخ.

ومثل **هذا الأسلوب لا يتفق والأسلوب العربي المعتاد، فمن سايره من الكُتَّاب كان قصده تقريب أسلوبه من العامية.**

ومن الممكن استقصاء الخصائص التي تميز الأسلوب العامي باستعراض العبارات المختلفة، واستخلاص الأصول التي تسير وفقها.

ومهما يكن من الأمر، فإنما نريد أن نوجه النظر إلى أن اللغة العامية قد ابتكرت لنفسها نظامًا كاملاً في تعبيرها، وأصبح الخروج عنه خروجًا عن طريقة معترف بها.

ومن ثم يمكن أن نقول إن العامية قد كادت تصير لغة قائمة بنفسها في قواعدها وفي أسلوبها، فإذا أردنا أن نردها إلى الفصحى كان علينا أولاً أن نحصر تلك المميزات لكي نلتمس السبيل الطبيعية المؤدية إلى غايتنا، فقد نجد عند حصر هذه الأساليب أن

فيها ما يساعد على تطوير اللغة الفصحى نحو ما هو أسمى، مع الاحتفاظ بسلامتها، فنكسب بذلك مكسبًا مزدوجًا.

المسألة الرابعة

الأدب العامي:

١-العنصر الأول من المسألة:

عندما اضطرت الحياة الشعوب المتكلمة بالعربية إلى تطوير لغتها شعرت هذه الشعوب في الوقت عينه أنها مهددة بالحرمان من التعبير الأدبي، منذ بعدت الشقة بينها وبين اللغة الأدبية. والشعوب لا يمكن أن تحيا بغير تعبير عن خلجات نفسها في الأغاني والأناشيد والأمثال والعبر، فوجد الموهوبون من عامة الشعب وبعض الأدباء المتصلين بالشعب أن اللغة التي يتخاطبون بها ويتعاملون ويفكرون في حاجة إلى أن تؤدي ما يحتاج إليه الناس من التعبير، وأخذوا يحاولون مرة بعد مرة أن يجعلوها أداة أدبية فتحللوا من الأساليب الأدبية المعروفة في اللغة الفصحى؛ لأنها لا تلائم تلك اللغة الساذجة المبسطة التي تولدت منها فاخترعوا الموشحات والمواليا والدوبيت، والكان كان والقوما والزجل، وهي جميعًا أوزان تناسب مقاطع العامية وتحللها من الإعراب.

ومن المشاهد أن هذه الأساليب الأدبية العامية نشأت في كافة الأقطار العربية على اختلاف فيما بينها بحسب ما يناسب لهجات الأقوام المختلفة. وقد كان هذا الاتجاه نحو اتخاذ العامية وسيلة للتعبير الأدبي من أخطر ما ظهر في تطورها. فلو كانت العامية لا تزيد على أنها استُخدمت أداة للتعامل في الأسواق والحياة اليومية لكان أمرها هينًا. ولكنها منذ برهنت على صلاحها للتعبير الأدبي صار من الممكن أن تنطلق في سبيلها متباعدة عن الفصحى حتى ينتهي بها الأمر إلى الاستغناء عنها. بل إن جمال أساليب التعبير العامي إذا بلغ مداه كان أجدر أن يسترق القلوب؛ لأن تلك الأساليب أقرب إلى النفوس والأفهام من الفصحى، لشدة اتصالها بحياة الكافة.

ولقد كان من أكبر ما عمل على تقويض أركان اللاتينية ظهور كُتَّاب مبدعين في اللغات القومية الأوربية، وقد كانت تلك اللغات عامية في وقت من الأوقات بالنسبة للغة اللاتينية، فقد ظهر دانتي في إيطاليا وكتب روائعه بلغة قومه، وكذلك فعل تشوسر وشكسبير في إنجلترا، وسرڤانتيز في أسبانيا، وتغنى التروبادور بالعامية في فرنسا. وأمثال هؤلاء هم الذين أغنوا شعوب أوربا عن اللاتينية، وجعلوها لا تتردد في خلعها عن عرشها، ولئن بقيت اللاتينية في المدارس والمعاهد الثقافية قرونًا بعد ذلك، فقد كان محتومًا عليها أن تنقرض وتُدفن في بطون الكتب على رفوفها بعد حين. ولقد احتفظت اللاتينية بشيء كثير من الإجلال القديم لها بوصفها لغة الثقافة والعبادات ولكنها لم تلبث أن تعرضت لثورة كبرى من جماهير الشعوب والمفكرين والمصلحين؛ لأنهم رأوها تقيد حركة النهضة الفكرية. ولما زاد التراث الأدبي في لغات أوربا الحديثة (العامية) على توالي الزمن، قويت حجة الثائرين على اللاتينية؛ لأنهم وجدوا ما يغني الشعوب عن ثقافتها فلم يبق لها اليوم إلا أثر تاريخي، لا يكاد يمس جماهير الشعوب الأوربية في حياتهم.

ولكنا لا نخشى على العربية الفصحى أن يكون مآلها هو مآل اللاتينية، وذلك يرجع إلى عدة أسباب:

(١) أن العامية لم تستطع – إلى الآن– أن تتسامى إلى آفاق الفكر العليا، فإنها لم تزد بعد على أن تكون وسيلة للتعبير الساذج والأحاسيس البدائية، ولم يظهر بعد فيها أمثال النوابغ الذين أنتجوا روائعهم الخالدة بلغاتهم الأوربية الحديثة الدارجة.

(٢) أن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلغ شيئًا يقرب من الفارق بين اللغات الأوربية الدارجة وبين اللاتينية، فما زال التفاهم ممكنًا في سهولة بين المثقف وغير المثقف، بلغة سليمة بسيطة فصحى، وهنا موضع الأمل الكبير في الإصلاح.

غير أننا لا ينبغي لنا أن نتجاهل الخطر الماثل في لياقة اللغة العامية وصلاحيتها كأداة للتعبير الأدبي، فهو إن كان اليوم من ذلك محدودًا، فقد يكون غدًا أقوى، وقد

تصبح أقدر على الأداء الأدبي السامي من الفصحى، إذا فُتن الشباب المثقف بالإنتاج الفكري باللغة العامية، وعملت أجيال منهم على الارتفاع بها إلى المستوى الأدبي الذي يجعلها لغة فكر وتعبير صحيح. وليس يجدينا أن نقاوم عوامل الحياة بالعنف والقسر؛ لأن الطبيعة تأبى كل عنف، وهي أقوى من كل قوة. ولسنا نملك أن نقاومها إلا بأن نطيعها ونعرف أسرارها ثم نتجه بها ومعها إلى حيث نحتال أن نصل بها. والذي يجعلنا نحرص على اللغة الفصحى واضح لا يحتاج إلى بيان. فلو لم تكن العربية لغة القرآن الكريم، ولو لم تكن كنوزنا القديمة هي أكبر ما نملك من ثقافة إنسانية لكان من الهين علينا أن نقبل على هذه العامية بكل جهودنا، فنسمو بآدابها ونودعها ثمار كل ما في شعوبنا من عبقرية، فتصبح هي لغتنا، ولا ضرر علينا أن تكون لنا لغة ليست هي الفصحى.

ولكن الخسارة التي تقع علينا من وراء هذا التحلل أفدح من كل ما يمكن أن نجنيه في جهودنا لمدة قرون طويلة. فلسنا نرضى أن نبعد عن لغة القرآن الكريم ولا عن لغة سلسلة الأدباء والمفكرين الذين ندين لهم بأكثر ما عندنا من عناصر السمو. ولنا فوق هذا مندوحة عن هذا التحلل إذا نحن واجهنا المشكلة في أناة وحزم وتبصر، وحاولنا أن نجد منها مخرجًا.فهل ثمة أمل في أن نجد ذلك المخرج من المشكلة؟ لعل فيما نثيره هنا من المسائل ما يوضح لنا الطريق الذي يخرجنا منها.

٢-العنصر الثاني:

إذا نحن نظرنا إلى اللغة العامية وجدناها هي الأخرى على وشك أن تبلغ في تطورها إلى انفصال جديد بين لغة المتأدبين ولغة العامة.

فإذا نظرنا إلى الأزجال القديمة وجدناها لا تزال سهلة على أكثر العامة، يمكنهم فهمها والتمتع بها، ولكنها ليست اليوم من صميم لغتهم، فقد كانت قريبة إلى الفصحى لا يكاد ينقصها إلا حركات الإعراب، ولنضرب لك مثلاً، وهو مواليا قديم يُنسب إلى صفي الدين الحلي:

طرقتُ بابَ الخبا قالت: من الطارق؟ فقلتُ: مفتـــونٌ لا ناهبٌ ولا ســـارق
تبسمت لاح لى من ثغرها بـــــارق رجعتُ حيران في بحر أدمعي غـــــارق

* * *

وقال:

يا حادي العيس ازجر بالمطايا زجرْ وقف على منـــزل أحبابي قبيل الفجر
وقعت في حبهم يا من يريد الأجرْ ينهض يصلي على ميِّت قتيل الهـــجر

* * *

وقال آخر:

عيني اللي كنت أرعاكم بها باتت ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت
وأسهم البين صابتني ولا فـــاتت وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

ولآخر:

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر غزال يبلي الأسود الضارية بالفكر
غض إذا ما انثنى يسبي البنات البكر وإن هلل فما للبدر عندو ذكـــر

* * *

ومن قول القباري أبو عبد الله خلف بن محمد، وهو من علماء عصر قـــلاوون، قال في زجل طويل:

ومن أساء لك كن أنت محـــسن واستعمل الصبر فهـــو أنفـــع
وانظر لجذع النخيـــل في روضه يحمـــل ثمـــره أزهـــر وأينـــع
إذا رجمته بحجـــر يجـــود لـــك بالتمر حتى تأكـــل وتـــشبع
قمنـــا ضربنـــا مثـــل وقلنـــا كان ليه يتحمل دا الذل كلـــه
تجود بتمرك لمن أســـــاء لـــك قال كل من هو يعمل بأصـــله

* * *

ثم أخذت لغة الأزجال تنحدر تدريجيًّا، وتبعد عن الفصحى في لفظها وتركيبها فمن كلام ابن عروس – وهو من عصر نهضة الأدب، التي أعقبت أيام إبـــراهيم بـــك ورضوان بك، وعلي بك الكبير – قال من زجل طويل:

إن رعيـــت أرعـــى نوار والمـــر لا ترعـــى فيـــه

وإن ركبت أركب مهار أصـــيل بإيـــدك مربيـــه

* * *

الندل لـــه طعـــم مالـــح ولـــه خصايـــل ذميمـــه

القـــــرب منه فضايـــح والبعـــــد عنـــــه غنيمه

* * *

ولكن الأمر لم يخل من السمو، إذا كان القائل مـــن العلمـــاء، وعلـــى هـــذا فالأسلوب والألفاظ فيهما بعد واضح عن الفصحى، فمن كلام الشيخ الفحام – وهو من القرن الماضي– قال في زجل رائع:

في بحر حسنك والغرام والجمـــال كام في محاسن منهلك من هلك

وإن كان عذولى شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفـــك يجهلـــك

في بحر عشقك زاد شجوني شجن من مدمعي بحر الجوى قـــد وفى

وجه منادى الشـــوق على سأل بالوجد والبلبال وطال واكتفـــى

ونبت أشجاني لعب به هـــــواك وصرت غارق في لجاج الهلـــك

وإن كان عذولى شبهك بالهلال يا بدر من لا يعرفك يجهـــــلك

* * *

ولكن الأزجال المتأخرة تقرب إلى لغة العامة، وإن كانت تلك اللغـــة لا تـــزال تسبقها إلى تطور بعد تطور، وهي دائمًا مستمرة في الانفصال عن العربية الفصحى.

فمن كلام عبد الله نديم، من زجل انتقادي طويل:

اسمع حكاية تهدي الشوق لابن الذوق وتعجب الإنسي والجان
رأيت جدع في إيده مكبه زى القبه فقلت: أهلاً بالمنصان
مديت له إيدى أكشفها لجل أعرفها قال: ارتجع ياشيخ رسلان
فقلت له: بدي اتفرج حد محرج؟ قال لي: تعالى في البستان
طاوعت شورته ومشينا على رجلينا حتى رأينا غصن البان

* * *

ومن كلام الشيخ النجار، وهو من الجيل الماضي - أواخر القرن الماضي- قال في زجل طويل:

ياللي أنت في حسنك عديم المثل وأنا بجي فيك ضرب بي المثل
وفي غرامي شرح حالي طويل لو كنت أحكي لك على اللي حصل
ياللى الغزاله وهي شمس الضحى من نور ضيا خدك بقت في خجل
ياللي الغزل من لفتتك في التفات ومن سواد عينيك أعاره الكحل
ياللي الغزل في وصف حسنك غلا سعره وشعره فيه مداق العسل
أصبحت من وجدي عليل يا جميل أهوى الغزاله والغزال والغزل

إلى أن قال:

سحر الجفون طلسم على ناظري وما انفتح للوصل باب مطلبه
في القفر أستأنس بوحش الفلا والدمع زادي كل يوم وأشربه
ولذ لي ذلي وعذب العذاب ومُر صبري كام حلى مشربه
والجسم من جفنه السقيم صار عليل ورق من خصره النحيل وانتحل

وقد بدأت في العصر الحديث حركة نحو الارتفاع بلغة الزجل، ولكن هذا يبعدها من العامة، وكانت هذه الحركة ترمي إلى إغناء العامية بالأدب الصحيح، فللأستاذ حسين مظلوم ترجمة طريفة لرباعيات الخيام، يقول فيها:

نبـــه النـــايم على فرش الأمـــل   كم أمل في حلـــم تفسيره الأجل

فوز بكأس الصفو دي الأيام دول   والحياة يومين سرور يوم وارتحال

بعد كاس الأنس يوم كاس القدر

غـــرد الطـــاير بألحـــان النـــديم   في طلوع الشمس بالصوت الرخيم

املا كاسك واغتنم صافي النسيم   دي سنين العمر غايتهـــا الـــزوال

ما ارتفع طير في السما إلا انحدر

* * *

ومن هذا المثل يظهر أن اللغة العامية إذا أرادت أن تعالج موضوعًا أدبيًّا بعـــدت عن لغة العامة، فلا هي عربية سليمة، ولا هي عامية بحتة.

ومن هذه الأمثلة يمكن أن نرى كيف أن اللغة العامية نفسها تتعرض لمثل الخطر الذي تعرضت له اللغة الفصحى، فهي دائمًا في تطور وتجدد، تساير العصور المختلفـــة إسفافًا أو سموًّا، فإذا تخلف فيها نوع من الأدب الشعبي عن عصر من العصور، لم يلبث أن يبعد كثيرًا أو قليلاً عن لغة الكلام في العصور التي تليه.

ولعلنا نستطيع أن نستخلص مما سبق بعض أمور:

١- أن اللغة العامية ألفاظها عربية على الأكثر، مع شيء كثير من التحريف في النطق، بقصد التخفيف والتيسير.

٢- أن أسلوبها قد استقر على صورة اعتادها الناس، وفي ذلك الأسلوب خلاف كبير للأسلوب العربي الفصيح.

٣- أن اللغة العامية لا تزال تتطور عصرًا بعد عصر، وأن هذا التطور ناشئ من حياة الناس، فهي وليدة الحياة نفسها، وفيها من المرونة كل ما للكائن الحي.

٤- أنها أداة صالحة للتعبير الأدبي الساذج، فإذا أرادت التعبير عن المعاني الدقيقة السامية، كان لا مفر لها من الاقتراب من الفصحى.

٥- أن العامية ليست مجرد مسخ أو تشويه للعربية، بل قد أصبحت لغة قائمة بذاتها، ولها قواعدها وأصولها، وإذا شذ عنها شاذ عُدَّ ذلك خروجًا عن طريقة مقررة.

وهنا لابد أن يعرض لنا سؤال طبعي، فإذا كانت العامية قد تطورت حتى بلغت هذا المدى فهل من الممكن أن نقف هذا التطور؟ فهناك الألفاظ المحرفة والدخيلة. وهذه أهون المشاكل؛ لأنه لا يتعذر أن ترد الألفاظ إلى الصحة، وأن يقبل من الدخيل ما لا غنى عنه.

ولكنا نصطدم بعد ذلك بعقبات أكبر من هذه الألفاظ. فهناك قواعد العامية وأساليبها التي استحدثتها في تطورها، وهي لصيقة بحياتنا نفكر بها ونتحدث ويفضي بعضنا إلى بعض بخلجات نفسه بواسطتها. فالتغلب على ذلك يتطلب هدمًا ثم بناء وستبقى هذه الأساليب العامية المستقرة دائمًا ماثلة في الأذهان تسبب العثرات وتجذِب المتكلمين والكُتَّاب إليها، ولكن ليس معنى هذا أن الأمر قد استعصى على العلاج، فإننا إذا درسنا كل قواعد العامية وحصرنا كل خصائصها كان من الممكن القصد إلى كل واحدة من هذه الخصائص لعلاجها، ونرى أنه من الضروري في هذا الأمر أن نتوسل في العلاج بالرفق والتدرج، وأن نعمل على تيسير الأساليب الصحيحة بحيث تكون قريبة إلى التعبير الطبعي، ولاسيما فيما نكتبه للصغار الناشئين. فهذا التدرج وحده هو الذي يمهد السبيل إلى جعل لغة الكلام تقرب من اللغة الفصحى.

وهنا موضع بعض أسئلة لا نجد بدًّا من طرحها:

١- كيف يمكن التغلب على الصعوبة الكبرى، وهي أول صعوبة قابلت المتكلمين بالعربية - أعني صعوبة الإعراب، وخصوصًا حركات أواخر الكلمات؟

٢- ألا يمكن أن نقبَل في الفصحى غير ما يصح في لغة قريش؟

٣- هل نجعل الأصل هو منع ما لم يستعمل في الفصحى من قبل، أم نجعل الأصل إجازة كل ما يمكن إجازته، مادام قائمًا في لغة الحياة؟

٤- ألا يمكن أن نتجرد من التحيز إلى أساليب القدماء في الكتابة والتعبير، إذا كانت لا تعبر حقًّا عن إحساسنا وتفكيرنا؟

إن الأسلوب ما هو إلا القالب الذي نصوغ فيه أفكارنا، ونصور فيه مشاعرنا، فهو من إملاء الإحساس والنفس. ويمكنني شخصيًّا أن أقول إن كثيرًا من الأساليب العامية أصدق أداء للمشاعر من بعض الأساليب القديمة، فوضوح الصور وتتابع الأحاسيس لا تحتمل التقييد بأسلوب تقليدي.

ولو استطعنا أن نتجرد من قيود الأساليب المنقولة، لسهل علينا تطوير الفصحى بحيث تقترب من العامية خطوة جريئة في الطريق السوي، بغير أن يعود ذلك بضرر على الفصحى، بل يكسبها قوة وشبابًا.

هذه إشارات قليلة إلى موقف العامية من الفصحى، لم أقصد بها سوى أن أثير بعض مشاكل لتكون موضعًا لبحث أعمق وأجدى، وتفكير أدق وأحصف.

* * *

تقرير عن موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى(*)

*الأستاذ أحمد لطفي السيد (رئيس الجلسة): ألّف المجلس لجنة لبحث "موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى"، وقد عقدت اللجنة عدة اجتماعات ناقشت فيها الموضوع على ضوء البحث[1] الذي كان قد ألقاه زميلنا الأستاذ "فريد أبو حديد" في نهاية الدورة الماضية عن هذا الموضوع. وقد انتهت إلى تقرير سيتلوه على حضراتكم الأستاذ فريد أبو حديد.

فتلي التقرير، وهذا نصه:

موقف اللغة العامية من اللغة الفصحى

تقرير لجنة العامية والفصحى

قُرئ على هيئة المجلس في أواخر الدورة الماضية بحث في موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى، ورأى المجلس أن يجعل موضوع ذلك البحث من بين ما يُعرض على المؤتمر في مفتتح هذا العام.

وكان ذلك البحث عبارة عن تتبع تاريخي لنشأة اللغات العامية من أمهاتها الفصحى، والعوامل التي تؤدي إلى ذلك، وكيف نشأت اللغة العامية العربية من الفصحى، وما طرأ عليها من تغيير في ألفاظها وأساليبها.

ولا حاجة بنا إلى بيان ما قد ينتهي إليه الأمر من وجود لغتين في أمة، إحداهما للحديث والمعاملات اليومية، والأخرى للكتابة والتعبير عن الآراء والمشاعر الدقيقة. فإن الفرق الذي بين لغة الحياة اليومية ولغة الفكر إذا زاد واتسعت معه شقة الخلاف بين المتخاطبين باللغة العامية وبين الكاتبين باللغة الفصحى، لم تلبث الأمة أن تنقسم في ثقافتها إلى قسمين متباينين: قسم منهما يتمثل في القلة المثقفة التي أتيح لها تعلم

(*) عرض التقرير فى الجلسة السابعة، من مؤتمر الدورة الرابعة عشرة، في ٥من فبراير سنة ١٩٤٨، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء السابع، ص ٢١٩.

(١) نُشر بحث الأستاذ محمد فريد أبي حديد المشار إليه في مجموعة محاضر الدورة الثالثة عشرة.

الفصحى والإلمام بما فيها من آثار الفكر السامي والفن الرفيع، وقسم آخر يتمثل في عامة الأمة ممن لم يستطع أن يتعدى حدود اللغة العامية الشائعة في الحياة اليومية والمعاملات.

ونحن نعيش في عصر شعاره الديمقراطية والتضامن الاجتماعي، فلا يمكن أن تستقر حياتنا الحديثة على مثل هذا الانقسام في الأمة الواحدة، فإن المفكرين والأدباء ونوابغ الفن إنما هم رواد الحياة، ولا قيمة لهم إلا أن تكون أفكارهم وأن يكون أدبهم وفنهم هبة للكافة، يؤثر في عامة الناس وخاصتهم على السواء. ولا تستطيع أمة أن تشارك في الحياة السليمة في وقتنا هذا إلا إذا كانت تسايرها كتلة واحدة يشيع فيها روح واحد وتتأثر بتيارات فكرية وعاطفية واحدة.

من أجل هذا كان من واجب كل حريص على سلامة الحياة في مصر والبلاد المتكلمة بالعربية أن يعمل على رتق ذلك الفتق الذي أصاب الألسنة العربية، حتى تتمكن أفكار قادة الفكر أن تصل إلى صفوف الأمة جميعًا، وتتجاوب أصداء التفاعل بين المفكرين والأدباء وبين كتلة الأمة، ويزول ذلك الحجاب الذي - كان ولا يزال - يفصل بين القلة المفكرة الشاعرة وبين الكثرة العاملة المنتجة.

إن أكبر عيب نشكو منه في آدابنا وفنوننا وأفكارنا في الشرق العربي الحديث هو أن آدابنا وفنوننا وأفكارنا محصورة في دائرة ضيقة تقتصر على عالمها الضيق المحدود، فأدبنا لا يزال في برجه المغلق لم يستطع بعد أن يتصل بالحياة اتصالاً وثيقًا، مع أن ميدانه الطبعي الأكبر هو تلك الحياة دون غيرها. ولا يزال جمهور الأمم العربية يعيش بمعزل عن ميادين المفكرين والأدباء والفنانين، فإذا هو حاول أن يقترب منها قامت دونه موانع كثيرة، أهمها:

أن اللغة التي يعبر بها المفكر بعيدة عن إدراكه، فإذا هو أدرك منها طرفًا كان غامضًا لا يستأثر بوجدانه، فيرتد عنها خائبًا قانعًا بما يجده في لغته العامية من أدب ضئيل سطحي، ومن أفكار مختلفة من عصور الجمود والخمول واليأس الماضية.

وقد أشار البحث الذي أُلقي في أواخر العام المنصرم إلى الخطورة التي تنطوي عليها هذه الحال. فإن جمهور الأمة لا يستطيع أن يعيش بغير غذاء من الفكر والعاطفة؛ فالفراغ محال في الوجود، وإذا لم يمتلئ الفضاء بالهواء الصافي الذي يبعث الحياة، فلابد أن تملأه مادة أخرى لا تحتوي على ما يحتويه الهواء الصافي من عناصر الحياة. وتدل ظواهر الأحوال على أن اللغة العامية قد أخذت تستحدث لنفسها أدبًا مستقلاً وإن كان متصفًا بالسطحية والضآلة، وقد كانت العامية في أول الأمر قريبة من الفصحى، ثم زاد البعد واتسع الخلاف بينهما على مر العصور. فإذا لم يجد جمهور الأمة سبيلاً إلى الأدب الصحيح والفكر السليم والفن السامي لم يجد أمامه إلا أدبه الضحل. فإما أن يتاح له من المفكرين من يرتقي به في اللغة العامية فيزيد بذلك الشقة بين الفصحى والعامية، وإما أن يبقى الجمهور في سجن أدبه الضئيل السطحي. وكلا الأمرين شر لاشك فيه. ففي الحالة الأولى: إذا ما أتيح للعامية من المفكرين والأدباء من يرتقي بأدبها وفنونها انتهى الأمر إلى القطع بين حاضرنا وماضينا، ولم تلبث البلاد العربية أن يستحدث كل منها لغة تستقل فيقطع ما بينها من روابط لاشك أنه من الخير أن تستمر وتقوى. وأما في الحالة الثانية: إذا لم يتح للعامية من يرتقي بآدابها وفنونها بقيت جماهير البلاد العربية في حالة من الحرمان الفكري والعاطفي، فلا هي قادرة على إدراك الفصحى السابقة إدراكًا كاملاً ولا هي تجد ما يغنيها في لغتها العامية، وبذلك لا تستطيع أن تتضامن مع القلة المفكرة في بناء حياة حديثة سليمة.

فالطريق الواضح هو - بغير شك - أن تكون لغة الفكر ولغة الحياة واحدة، أو على الأقل أن تكون لغة الفكر قريبة سهلة التناول يستطيع الكافة أن يدركوا كل ما بها من ظلال المعاني.

وليس هذا الاتجاه جديدًا، فقد بدأ المفكرون يتجهون إليه من عهد بعيد، وبُذلت جهود كبيرة مشكورة في سبيله، ولكن الأمر ما زال محتاجًا إلى أن نستقر فيه على رأي قاطع، وأن نتجه إليه مستوضحين غرضنا ووسائلنا. ويُخيل إليَّ أن الطريقة المثلى هي أن

نعرف أولاً هذه اللغة العامية التي يتكلم الكافة بها، فنحن وإن كنا نستخدمها في حياتنا اليومية لا نعبأ إلا قليلاً بدارسة حقائقها وخصائصها، ولا أقل من أن نعدها بمثابة العليل الذي نحاول أن نجد له سبيل الشفاء، ولا يمكن أن يُوصف دواء لعليل حتى نعرف مواطن علته أولاً. ما هذه العامية؟ وما مقدار بعدها عن الفصحى في ألفاظها؟ وما مقدار بعدها عن الفصحى في أساليب تعبيرها؟

وإنه لمن دواعي الغبطة أن البلاد العربية تظهر أعظم الاهتمام بكل ما يتصل بلغتها. وقد بلغ من ذلك الاهتمام العظيم أن الناس يغضبون لكل ما يُشتمّ منه أن هناك محاولة للمساس باللغة العربية الفصحى من قريب أو من بعيد، حتى إنهم ليذهبون أحيانًا مع الوهم في تصور المساس باللغة العربية، مبالغة منهم في الحرص على سلامتها. وهذا بغير شك مما يغتبط به كل حريص على اللغة الفصحى، فإن احترام الشعب للغته وغيرته عليها هما أقوى ما يحفظها، وفيهما أكبر ضمان لحيويتها.

فالآراء كلها متفقة على أن الواجب حفظ اللغة الفصحى وتعميمها حتى تكون لغة الشعوب العربية جميعًا. كما أنه من المتفق عليه أن تكون هذه اللغة الشريفة سليمة بليغة تؤدي وظيفتها في ربط الأفكار والاتصال الوجداني بين كل طبقات الشعوب المتكلمة بها.

ولكن هناك نوعًا من الغموض حول ما يقصده الناس إذا هم تكلموا عن العربية الفصحى، وأغلب ظني أننا إذا اتفقنا على معنى الفصاحة زالت من سبيلنا عقبة من أكبر العقبات التي تعترض سبيل إصلاح لغتنا، وهان علينا التقريب بين العامية والفصحى.

لست في حاجة إلى البرهان على أن اللغة العربية الفصحى كانت في صورها الأولى من أوضح اللغات وأبسطها أسلوبًا.ولكن جاء وقت على كُتَّاب العربية كانوا يتعمدون فيه أن تكون كتابتهم بعيدة عن البساطة والسلاسة التي كان العرب الأوائل يتكلمون بها.

ولست أريد أن أطيل في تفصيل مالا ضرورة للإفاضة فيه من هذا المعنى، وحسبي أن أقتطف لحضراتكم بعض فقرات من كتاب لأحد أفاضل الكُتَّاب -عليه رحمة الله- وقد كان معتبرًا من فحول الكُتَّاب في عصره، ولا يزال بعض المتأدبين يحتذون حذوه ويعدونه لهم إمامًا.

جاء في أحد كتبه في مقال يتحدث فيه عن الفقر والفقراء:

"أظنهم- أي الأغنياء - يقولون: إن في الأرض شيئين بمعنى واحد: قبور الأموات في بطنها، وأكواخ الفقراء على ظهرها.وليس من فرق بينهما في النسيان؛ لأنه يشملهما جميعًا،وإنما الفرق بينهما في حاليهما المتناقضتين، هذا قبر ميت وهذا قبر حي، نعم صدقوا وبروا قالوا حقًّا: أليسوا جفاة القلوب غلاظ الأكباد؟ وإلا فما الفرق بين موت منسي كموت الغريب وحياة منسية كحياة الفقير، إلا على الفرق الذي لا يبالي به هؤلاء الأغنياء حين يكون لأحدهم ظاهر حي وضمير ميت".

وقال في موضع آخر:

"ففقر فلان التاجر الغني مثلاً ليس هو في الحقيقة أن لا يصيب القوت ولا يجد المأوى كغيره من الفقراء، وإنما هو المتاجرة في الآمال بعد الأموال، وقبض الريح بعد قبض الربح، واستقبال الأبواب والجدران بعد استقبال الأصحاب والجيران، وهلم من هذا الباب الذي يفتح من جهة الغنى على سائر الجهات الثلاث للحياة البائسة وهي الفقر والمذلة والألم. وإنما هو رجل ككل رجال المال متى خرج المال من يد أحدهم خرج اسمه من أفواه الناس وخرج حبه من قلوبهم ... إلخ ".

وقال في موضع آخر:

"هذا هو الفقر في أوهامهم. ولكن لا تنس أنه فقر فقط، فقر المال المترابط في مكانه أو الذاهب في حلوق الأرض وبين أضلاعها. أما سائر الناس فهم عند هؤلاء أهل دعوى يزنون بكل ريبة، ويقرفون بكل تهمة، إذ ينتحلون الفقر ويدعونه ليعادوا نعمة الغنى بالحسد، فالجوع فقر، والمرض فقر، والتعب فقر، والضجر فقر، واشتهاء ما ليس

لهم فقر، وقلة الأصحاب فقر، وحتى لو أن أحدهم أسخطته زوجه، لنسب ذلـــك إلى الفقر. وبالجملة فكونهم ليسوا كالأغنياء هو الفقر".

وقال في حديث له عن التوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع:

"غير أن هذه الوسائل - أي وسائل التوفيق بين قوة الفرد وقوة المجمـــوع - لم تكن ولا تزال إلى عهدنا - عهد الاشتراكية العلمية - إلا ثورات مهما كانت فإنها أشبه شيء بجموح الحيوان؛ إذ يحمي أنفه فيجمح ثم يسترسل في جماحه ثم يـــشتد ثم يعتـــز صاحبه على رأسه ويملك نفسه منه، ثم ماذا؟ ثم يسكن مكرها بعد أن جمح راضيًا. فإن لم يسكنه الألم من صاحبه أسكنه التعب من نفسه؛ لأن التخلص من شيء في فطـــرة الإنسان وانتزاعه من فورة في نفسه لا يكون بالتخلص من الإنسان بعينه".

لو شئت أن آتي بأمثلة كثيرة من هذا الصنف، لخرجت عن الحدود في مثل هذا البحث.

وحسبي أن أقول: إن العرب لم يكونوا في أول الأمر يتحـــدثون بمثـــل هـــذه الأساليب. لقد كانوا يتكلمون على أسلوبهم الطبعي الساذج ليعبروا عن المعـــاني الـــتي يحسونها ويسمعوا من أرادوا أن يبلغوه ما عندهم من تلك المعاني.

ولو أننا قرأنا ما ألفه الشعراء من الشعر في الجاهلية لما وجدنا في اللغة العربيـــة غموضًا، إلا أن يكون لفظ قد أهمل اليوم وكان من قبل معروفًا، فصار عنا غريبًا بعـــد أن كان عندهم مألوفًا.

لست في حاجة إلى ضرب الأمثال من ذلك فالأمر واضح لا يحتاج إلى برهان، قال امرؤ القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنـــزل ... بسقط اللِّوى بين الدخول فحوملِ

فتوضح فالمقـــراة لم يعـــفُ رسمهـــا ... لمـــا نسجتها من جنوبٍ وشمـــألِ

تـــرى بعـــر الآرام في عرصاتهـــــا ... وقيعـــانها كأنـــه حـــب فلفـــلِ

كأني غداة البين يـــوم تحملـــــــوا ... لدى سمـــرات الحي ناقف حنظلِ

وقوفًا بهـــا صحبي علـــى مطـــيّهم يقولون: لا تهلك أسى وتجمَّـــل

وإن شفائي عـــبرة إن سفحتهـــــا وهل عند رسم دارس من معـــولِ

وفاضت دموعُ العين مـــنى صـــبابة على النَّحر حتَّى بل دمعي محملي

... إلخ

فهذا الشعر على ما فيه من غرابة بعض الألفاظ، لاعوج في أسلوبه ولا تكلف، فإني أستطيع أن أترجمه إلى اللغة العربية الحديثة السهلة، بغير أن أبدل موقع كلمة مـــن جملة، اللهم إلا أن أضيف لفظًا هنا أو أحذف لفظًا هناك.

فإذا نحن تحدثنا عن اللغة الفصحى كان أجدر بنا أن نتحدث عن هذه الفصحى السلسة الصحيحة لا عن تلك الفصحى، المزيفة التي لجأ إليها الأعاجم متأثرين بأساليب لغاتهم الغربية، فانحرفوا بها عن مسالك العربية الأصلية.

وأستطيع أن أقول إن أساليب اللغة العربية الفصحى ما تزال حية بيننا في عاميتنا؛ لأننا ورثة الذين كانوا يتكلمون بالفصحى.حقًّا إن أساليب اللغة العامية قد دخلها كثير من التحريف والتبديل على توالي العصور، ولكنها في روحها وتكوينها عربية لاشك في عروبتها؟فإذا أمكن أن نشك في لغة بعض الكتاب، ونشك في نسبتها إلى العربية السهلة الفصحى، فإننا لا نستطيع أن نشك في الألسنة التي تتوارث التعبير جيلاً بعد جيل.

فاللغة العامية في الشعوب العربية جزء من تراث أجدادنا العرب الخُلَّـــص، وإن كان ذلك التراث قد دخل إليه التحريف والتبديل كما قدمنا.

والطريقة السليمة لإصلاح ما دخل عليه الفساد هو أن ننظر إلى هـــذه اللغـــة الموروثة في صفوف الأمة، ونعمل على درسها كما أشرنا إليه من قبل، حتى نتبين منها الصحيح والفاسد، وحتى نعرف مدى ما داخلها من ذلك التحريف والتبديل.

وقد سبقت نخبة من الفضلاء الغيورين على اللغة العربية فأقبلت علـــى اللغـــة العامية تدرسها، وتحاول أن ترد ألفاظها وعباراتها إلى السلامة. وقد سمعنا طرفًا من هذه السيرة في حديث العضو الأستاذ عبد القادر المغربي في مفتتح هذه الدورة، وقد نستطيع

أن نقول كما قال سيادته: إن أكثر جهود هؤلاء الفضلاء قد ضاعت سُدىً، فما هي العلة التي حالت دون وصولهم إلى القصد الذي كانوا يقصدونه؟

يلوح لنا أن السبب في ذلك أن بحوثهم كانت تتجه إلى أشياء مفردة تعرض لهم عفو الخاطر في مناسبة من المناسبات. فإذا خطر لهم خاطر في شأن لفظ من الألفاظ العامية عطفوا عليه وحاولوا أن يجدوا لفظًا آخر فصيحًا يحل في مكانه، والطريقة التي يلوح لنا أنها الطريقة المثلى هي أن ننظر إلى العامية في مجموعها وأن نمسحها مسحًا كما يمسح المهندس ميدانًا من الميادين ليعرف حدوده، وخصائص سطوحه، ومعادن أرضه، فإذا ما تبين للباحثين ما في العامية من خصائص وطبائع أمكنهم أن ينظروا في الحقائق التي تبدو لهم وتكون عند ذلك أحكامهم شاملة سليمة.

ويلوح لنا في هذا الموضوع بعض أصول نرجو أن نعرضها للمناقشة لعلها تكون جديرة بأن تتفرع عنها أحكامنا:

(ا) فالألفاظ والعبارات ما هي إلا مطايا للمعاني والمشاعر الإنسانية. فإذا أردنا أن نصل بها إلى حيث نريد، كان أول ما نقصده منها الوضوح والتحديد.

والألفاظ ليست تلك القطع الجامدة الميتة التي نجدها دفينة في القواميس، لكل منها معنى يعبر عنه لفظ آخر من نفس عالمه، بل هي كائنات حية، وإن كانت حياتها في عالم الصور، فإذا نحن أخرجنا الكلمة من عالمها ونزعناها من صورها، لم تلبث أن تصير جسدًا هامدًا كالحيوان المائي إذا أخرجناه من عنصره. والكلمة كذلك يعتريها ما يعتري كل كائن حي من التأثر بما يحيط بها في عالمها، وليس من الوهم أن نقول: إن لكل كلمة هالة تحيط بها في عالمها، تجعلها تحمل من ظلال المعاني الدقيقة ما لا يمكن أن تحيط به التعريفات في قواميس اللغة.

فإذا نحن نطقنا بالكلمة أو استعملناها في كتابتنا، حملت معها تلك الظلال الدقيقة، وأثارت في الأذهان صورًا تحيط بها ظلال من المشاعر التي تثير هالتها. واسمحوا لي أن أعرض مثالاً من اللغة الفصحى يوضح هذا المعنى، قال الشاعر يذكر أخاه بريدًا وقد هلك:

أحقًّا عباد الله أن لست لاقيًا   بريدًا طوال الدهر ما لألأ العُفر

وقولـــه:"طوال الدهر ما لألأ العفر" تحمل للسامع صورة العفر، وهي ترعى في الأودية المعشبة، وهي لا تدري أن بريدًا وأخاه ضدان لها، ويعدان الـــسهام لرميهـــا. فالشاعر إذ يذكر أخاه ويحزن لأنه لن يراه طوال الدهر يدخل في قوله ذكر هذه الظباء العفر التي كانت تلألئ بأذنابها إذ هما يمرحان معًا في الأيام الصافية في الصحراء الفسيحة ذات الهواء الصافي والشمس اللامعة، وذلك اللفظ يعبر عما أحسه الأخوان في حيـــاة بريد من نشوة الشباب والحياة، ويعبر عما أحسه الشاعر من اللوعة إذا ما تذكر أخـــاه الفقيد الذي كان يتمتع في صحبته بمثل هذه اللذة البارعة.

وهكذا كل لفظ يحمل حوله من الصور ما يتداعى في الأذهان، كلمـــا ورد في عبارة، ويحمل من المشاعر ما تثيره تلك الصور في القلوب. والاستعمال في الحياة هـــو الذي يحمل الألفاظ تلك الظلال الدقيقة من المعاني، فكلما كان اللفظ أكثر استعمالاً في الحياة، كانت الهالة المعنوية التي تحيط به أكثر اتساعًا وظهورًا.

ولهذا يمكن أن نقول: إن اللفظ المستعمل في الحياة هو الأداة القوية في التعـــبير الواضح الحي. ومن ثم كانت الألفاظ الشائعة بين الناس هي المفضَّلة عند من يريد الدقة ووضوح التعبير في البيان.

فإذا نحن سلمنا بهذا الأصل، أمكن أن نخلص منه إلى نتيجة هامة، وهي أن اللفظ المستعمل على ألسنة الناس إذا كان عربيًّا فصيحًا كان أولى الألفاظ بالاستعمال؛ لأنـــه اللفظ الواضح المحدد المعنى، ولابد أن نعيد إليه اعتباره، فلا نعده سوقيًّا ولا مبتذلاً كما يفعل بعض كُتّابنا.

وأما إذا كان اللفظ غير فصيح، كان أولى بنا أن نرده إلى صورته السليمة مـــع بقائه للدلالة على معناه، فهو أولى من أي لفظ غير معروف للناس نـــستخرجه مـــن القواميس ليحل في مكانه.

هذه هي النتيجة الأولى التي نبسطها، وهذا يتأتى لنا إذا نحن درسنا كل ألفـــاظ العامية شيئًا بعد شيء حسب نظام شامل نقصد به الاستيعاب والاستقصاء.

وهناك أصل آخر نبسطه لكي نرتب عليه نتيجة أخرى: فإن الحياة قد دعت إلى استعمال كثير من الألفاظ الجديدة بين أفعال وأسماء وحروف، وإذا **نحن مسحنا اللغة العامية ذلك المسح الشامل الذي أشرنا إليه، ودرسنا ما تستعمله الأقطار العربية في شرق العالم وغربه، أمكن أن نعرف الأنواع الآتية من الألفاظ:**

١ - الألفاظ التي تستعملها الشعوب العربية جميعًا أو تستعملها كثرة من تلك الشعوب، ولا ذكر لها في كتب اللغة. وهذه تدعو الضرورة إلى إدخالها في اللغة؛ لأن شيوعها في الأقطار العربية قرينة على أنها عربية الأصل، وإن أغفلتها كتب اللغة.

واسمحوا لي أن أعرب عن معنى كثيرًا ما يدور في نفسي، وهو أننا نعتمد على قواميس اللغة اعتمادًا كليًّا، فما ورد فيها آمنا به ولم نقف لحظة لنناقش فيه، مع أن الإنسان لم يوهب العصمة، وقد يفوت أصحاب القواميس جميعًا أن يحيطوا بما استعمله العرب في حياتهم، ويمكن أن نقطع بأن اللغات المستعملة في البلاد العربية تحتوي على كثير من الألفاظ التي لم يهتدِ أصحاب القواميس إليها؛ فاستعمال لفظة في كثير من الأقطار العربية قرينة على عروبتها أقوى من دلالة القواميس وما ورد فيها.

٢-الألفاظ التي لا تُستعمل إلا في قطر واحد من الأقطار العربية. وهذه إذا كانت تعبر عن معان لا يوجد في العربية ما يحل محلها نظر في إدخالها إلى اللغة؛ أما إذا وُجد عنها بديل في اللغة الفصحى أُحل في مكانها وأذيع على ألسنة المتكلمين وأقلام الكُتَّاب. وقد أخذت في سبيل دراسة يسيرة للغة العامية أقصد أن أبين نموذجًا لطريقة مسح اللغة العامية، وهي وإن كانت دراسة أولية ضحلة يمكن أن تشير إلى نوع من النهج الذي قد يوصلنا إلى غاية محدودة، فقد بدأت بالأفعال الثلاثية العامية وأثبت ما أعرفه منها في اللهجة القاهرية بحسب الطاقة في الإثبات، وبقدر ما وصل إليه علمي بتلك اللهجة القاهرية، واستخلصت من ذلك بعض نتائج سأعرض على حضراتكم طائفة منها. فإذا نحن فحصنا هذه الأفعال فحصًا تامًّا عرضناها على البلاد العربية الأخرى، وقرنا بها ما هو مستعمل في اللهجات الأخرى في غير القاهرة، لعلنا نصل من

هذه المقارنة إلى ما نبغي من النتائج التي تساعد على السمو بالعامية وتقريب اللهجات في شتى البلاد العربية. وسأعرض على حضراتكم بعض النتائج التي استخلصتها من بحث مجموعة الأفعال الثلاثية التي سبقت الإشارة إليها:

١- أحصيت مجموع الأفعال الثلاثية العامية التي وصل إليها جهدي في الإثبات فوجدتها (١٧٥٦) فعلاً، وقد وازنت بين هذا العدد، وبين عدد الأفعال الثلاثية في اللغة الفصحى، فوجدت الفرق عظيمًا، فإن عدد الأفعال الثلاثية في قاموس متوسط كالمحيط (بحسب طاقتي في الإحصاء) قد بلغ (٤١٨٠) فعلاً.

وقد وازنت بين عدد الأفعال الثلاثية العامية، وبين الأفعال الثلاثية في قاموس صغير، كالمصباح المنير، في البابين اللذين أولهما حرفا الهمزة والباء، فوجدت أن عدد الأفعال العامية المبدوءة بالهمزة (٢٣)، في حين أن عدد الفصحى في ذلك القاموس (٦٠)، وأن عدد المبدوءة بالباء في العامية (٧٥) في حين أن عدد الفصحى منها (٩٧).

فالأفعال الثلاثية في العامية أقل بكثير من الأفعال الفصحى، ومعنى هذا أنها تقصر عن أداء كثير من المعاني التي يمكن أن تُؤدى بالفصحى. وهذا نقص واضح يدل على أن الضرورة تقضي بأمرين:

الأول: تصحيح كل ما يمكن تصحيحه من الأفعال العامية وتداولها، ثم يعمل على إذاعة استعمال كثير من الأفعال الثلاثية الفصحى، التي لا نظائر لها في اللغة الشائعة، حتى تتداولها الألسنة في الحياة اليومية، وبذلك تُصحح اللغة المستعملة، وتزيد ثروتها وتكون أقدر على الأداء.

الثاني: وجدت أن العامية قد أدخلت مجموعة من الأفعال التي لا أصل لها في العربية. وبعض هذه الأفعال يمكن إرجاعه إلى أصول أجنبية، والبعض الآخر يحيط به إبهام لا يسهل استجلاؤه.

فإذا كان الفعل مستعملاً في كثير من الأقطار العربية، كما أشرت من قبل، كان من المستحسن أن نعده عربيًّا، وإن لم يكن مكتوبًا في كتب اللغة كما تقدم. وأما إذا لم

يكن مستعملاً إلا في قطر واحد، فإذا كان في الفصحى ما يغني عنه، ويمكن أن يسهل على الألسنة في الاستعمال عملنا على إحياء ذلك الفصيح وإماتة الدخيل، وأما إذا كان لا يوجد في الفصحى ما يغني عنه أدخلناه في اللغة، ما دام قد صقل في الاستعمال وأصبح في صورة عربية مستساغة.

ويمكن أن أعرض هذه الأمثلة من الأفعال، التي أولها حرف الباء:

بصم- بصّ- بطح- بطّط- بلص- بلف- بهط.

ويمكن النظر في مثل هذه الأفعال بعد المقارنة مع الأفعال المستعملة في الأقطار الأخرى، فلعلنا نجد فيها ما لا نستغني عن إدخاله في لغتنا.

٣- وجدت أن الفرق ضئيل بين الأفعال العامية والفصحى، فلا تزال العامية محتفظة في أفعالها بكثير من دلائل الفصاحة مع تحوير قليل، كما سنبين بعد هذا.

فأوزان الأفعال العامية هي الأوزان المعروفة في الفصحى، فالماضي في الغالب على وزن فعَل، والمضارع في الغالب على أوزان يفعَل ويفعُل ويفعِل. مع فارق واحد وهو كسر حرف المضارعة في لهجة القاهرة، وضمها في بعض اللهجات الأخرى، فنحن نقول: نصر يِنصر فتح يِفتح منع يمنع ... إلخ.

وقد أحصيت عدد الأفعال الصحيحة التي أولها حرف الباء فوجدها (٤٥) من جملة الأفعال وعددها (٧٥) وأما باقي الأفعال فمحرفة، ماعدا خمسة أفعال لا أصل لها في الفصحى.

٤- وأكثر الأفعال العامية على وزن فعَل يفعِل، عددها (٧٣٥) فعلاً، مثل:

كتَب يكتِب - جلَس يجلِس - حبَس يحبِس - ... إلخ.

ويليها ما كان على وزن فعَل يفعُل، مثل:

نصر ينصُر - قعَد يقعُد -فرَك يفرُك - ...إلخ، وعدد هذه الأفعال (٤٧١).

ويلي ذلك ما كان على وزن فعل يفعَل - مثل ضرَب يضرَب - فتَح يفتَح -منَع يمنَع إلخ. وعدد هذه الأفعال (٣٥٣) فعلاً. ومما يلاحظ أن أكثر هذه الأفعال حلقية

العين أو اللام كما هو الحال في باب فتح في الفصحى. فالشبه هنا عظيم، وهو ناشئ من أن فتح عين المضارع الحلقي العين واللام أمر تقتضيه الطبيعة، وليس مجرد اتفاق وسماع، ويلي ذلك في الكثرة الأبواب الآتية:

فعِل يفعَل، مثل: ركِب يركَب، كبِر يكبَر، فرِح يفرَح، وعدد أفعال هذا الباب (١٠٨).

فعُل يفعَل، مثل: قدُم يقدَم، وتمُر يتمَر، قصُر يقصَر.... إلخ. وعدد أفعال هذا الباب (٩٥).

ويلاحظ أن أكثر أفعال هذين البابين مما يدل على قيام الصفة لا إحداث القعل، وهذا هو الشأن في أكثر أفعال بابي: فرح يفرح، وكرم يكرم. وفي الفصحى فإن كثيرًا من الأفعال التي على وزن: فرح، وكرم، تدل على قيام الوصف في الفاعل مثل: هرم، وكبر، وصغُر. وقد يكون للفعل الواحد صيغة على وزن فعَل، وأخرى على وزن فعِل، ويكون معنى الصيغة الأولى - وهي فعَل - أن الفاعل أتى بالفعل، ومعنى الصيغة الثانية (فعُل وفعِل) أن الفاعل متصف بالوصف، فيقال مثلاً: حزن الشيء، ويقال: خزن اللحم إذا تغير، ويقال: ركن إليه إذا مال، وركِن الشيء إذا سكن، ويقال: صرم الشيء: قطعه، وصرم: صار قاطعًا، ويقال: ندَل الشيء: نقله، وندِلت يده، إذا اتسخت من أي شيء نقلته أو تناولته، وهكذا فالشبه عظيم هنا مع فارق في ضبط حركات الأفعال بين العامية والفصحى.

وهناك أفعال قليلة من أوزان أخرى، تكاد تكون في حكم الشاذة:

أولاً: فعِل يفعِل مثل كذِب يكذِب، ولبس يلبس، ومسك يمسك، ومشِي يمشي، وجرى يجري، وتكاد هذه الأفعال تكون "مثله الوحيدة ".

ثانيًا: فعَل يفعَل، وأظنها لهجة غير شائعة، فقد يقول البعض قدم يقدم، كبر يكبر. ولا يوجد في العامية فعِل يفعُل، كما أنه لا يوجد في الفصحى: فعِل يفعُل.

فالأوزان في العامية هي خمسة، وكلها من الأوزان المعروفة في الفصحى، وليس هناك من فارق إلا باب: كرم يكرم، فلا نظير له في العامية القاهرية.

٥- الفعل المضارع العامي الذي على وزن (يفعل) بكسر العين كثيرًا ما يُستعمل للتعدية؛ وذلك أنه في الأصل مضارع الفعل المتعدي بالهمزة، ولكن العامية كثيرًا ما تحذف الهمزة وتجعل الماضي ثلاثيًّا.

فالفعل: بعد يبعد في العاميّة هو اللازم، ولكن بعد الشيء يبعده، وكذلك، مثال: تلف الشيء يتلف، وتلف الصبي الشيء يتلفه. كثيرًا ما يحل المضعف في الماضي محل المهموز، فيقال: دخل ولا يقال: (أدخل) ، ويقال في المضارع: يدخل، ويقال: قعَّد فلان الناس، وخرّج ولبّس... إلخ.

٦- يوجد في العامية كثير من آثار اللهجات العربية غير القرشية. فكسر حرف المضارعة لغة الحجاز في بعض صيغ الأفعال، فيقال: أبي يأبى، وقد جعلتها العامية قاعدة مطردة، وفي لغة طيِّئ: بقا يِبقى، بدلاً من: بقى يبقى، وكذلك نسا يِنسى، وفنا يِفنى. والعامية تتبع هذه اللهجة.

٧- تتساهل العامية في أوزان المضارع، فتُجّوز استعمال صيغتي: يفعِل ويفعُل للفعل المضارع، فيقال مثلا برَك يبرِك وبرَك يبرُك، ويقال برَم يبرُم وبرَم يبرِم، ويقال: كتَب يكتُب، وكتَب يكتِب، وصقَل يصقِل، وصقَل يصقُل، وطَمَر يطمِر، وطمَر يطمُر. وهذا التساهل موجود في الفصحى، فالقاعدة المتبعة في العربية: أن كل فعل لم يرد له وزن سماعي على: فعل يفعَل، أو فعل يفعِل، يجوز في مضارعه الرفع والخفض.

٨- تميل العامية إلى التبسيط وجعل القواعد مطردة بغير استثناء كثير، فهي تثبت في المضارع فاء الفعل إذا كان معتلاً بالواو، مثل: وعدته أَوْعِده، ويقال: وضع يوْضَع، وضح يوْضَح... إلخ، مع أن العربية الفصحى تفرق بين أمثال وعد ووضع، فتسقط منها الفاء في المضارع، فيقال: يعد ويضع، في حين أنها تثبت الفاء المعتلة بالواو، في أفعال أخرى مثل: وحمت المرأة توحم، وولع يولع، ووهم يوهم...إلخ

هذا شيء مما تيسر لي بحثه في هذه الشهور الماضية، منذ ألقيت بحثي السابق على هيئة المجلس الموقر، لم أقصد به إلا أن أبين **أنّا إذا قصدنا إلى دراسة اللغة العامية،**

وتوفرنا على معرفة خصائصها أمكن أن نخرج من بحثنا بطائفة من النتائج لها دلالـــة وفائدة، في إصلاح لغتنا.

فإذا نحن بدأنا مثلاً بالأفعال الثلاثية حتى فرغنا منها، عمدنا إلى الأفعال الرباعية المجردة، ثم الأفعال المزيدة، ثم المشتقات ثم الأسماء والحروف، وكلما فرغ البحث مـــن طائفة، أخذنا في الإعداد للموازنة والمقارنة باللهجات الأخرى غير لهجة القاهرة.

وقد ينتهي بنا الأمر إلى إعداد قاموس للألفاظ العربية الصحيحة التي يحتاج إليها الناس في كل البلاد العربية ويستعملونها في حياتهم، فتكون هدية للمعلمين تساعدهم في تعليم الأجيال من النشء، كما أنه يكون هاديًا لمن أراد الكتابة لجماهير الأمة.

وقد نظرت اللجنة التي ألفها المجلس لإعداد هذا البحـــث في هـــذا الأمـــر في جلسات عدة، وانتهت في مناقشاتها إلى بعض مقترحات تعرضها على هيئة المؤتمر الموقر وهي:

١- ضرورة دراسة اللغة العامية دراسة شاملة تتدارك مـــا فـــات الجهـــود السابقة التي بُذلت في هذا السبيل، وذلك لمعرفة خصائصها، وهذه الدراسة تعـــين على تقريب الشُّقَّة بين العامية والفصحى.

٢- من عوامل التقريب بين العامية والفصحى، ومن عوامل ضبط الأداء أن يفضل اللفظ الشائع المستعمل على ألسنة الناس في الأقطار العربية على لفظ آخـــر من ألفاظ المعجمات غير شائع الاستعمال، بشرط ألا يكون اللفظ المستعمل نابيًا.

٣- وترى اللجنة ألا تقف الدراسة عند قطر واحد من الأقطار الشرقية، بل يجب أن تكون دراسة مقارنة مستوعبة للهجات العامية في مختلف الأقطار الشرقية، كي يمكن التقريب بينها جميعًا وبين اللغة الفصحى، وحتى يكشف عن كل ما يمكن الاستفادة منه في إنهاض اللغة العربية.

٤- وتوصي اللجنة بأن يبدأ في المجمع وتحت إشراف لجنة الألفاظ والأساليب بدراسة العامية القاهرية لتكون نموذجًا لما يُرجى من دراسات للهجات في الأقطار الأخرى.

٥- والعامية كالعربية لها مفرداتها وأساليبها، والدراسة يجب أن تستوعبهما معًا، ولكن اللجنة تبدأ بحث المفردات أولاً وإذا ما انتهت منها بحثت الأساليب.

وسبيل تنفيذ هذا، حصر الأفعال الثلاثية في اللهجة العامية القاهرية بطريقة ترتيب الحروف الأبجدية التي تجري عليها بعض معجماتنا العربية كالمصباح المنير.

٦- هذه الدراسة ممكنة، وينبغي أن تبدأ فيها بحصر **الألفاظ العامية في مختلف الأقاليم، وقد بُدئت فعلاً محاولة في بعض عامية القاهرة،** (*) أظهرت أمرين:

(أ) أن في الإمكان وضع قاموس لمفرداتها.

(ب) أن أبواب الفعل الثلاثي في العامية لا تكاد تخرج عنها في الفصحى من حيث الوزن والاستعمال.

٧- ولاشك أن كل هذه الأحكام مؤقتة وقابلة للتعديل، كلما اتسع نطاق البحث في الأقاليم المختلفة.

٨- وترى اللجنة أن يُرفق بقراراتها هذه عند تقديمها إلى المؤتمر ملخص لما درسه الأستاذ محمد فريد أبو حديد.

(*) نشرت في الكتاب الأول (اللهجات العربية، بحوث ودراسات)، ص٨.

مناقشة التقرير (*)

* **الشيخ عبد القادر المغربي**: ألف الأستاذ أنيس فريحة أستاذ اللغات السامية بالجامعة الأمريكية ببيروت معجمًا للغة العامية اللبنانية، وكُلِّفت أن أكتب عنه كلمة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. هذه الكلمة تصلح لأن تكون تعقيبًا على البحث الذي تلاه علينا الأستاذ محمد فريد أبو حديد، وهي في الوقت نفسه توضح رأيي في مثل هذه الأبحاث، فهل يسمح لي الأستاذ الرئيس بتلاوتها.

***الأستاذ الدكتور أحمد لطفي السيد**: تفضل يا أستاذ.

فقرأ حضرته ما كتبه في المجلة وهذا نصه:

هذا الموضوع موضوع البحث في الألفاظ العامية عالجه كثيرون من أدباء العرب في مصر والشام منذ حين، فألفوا فيه الرسائل، وكتبوا المقالات، كل فيما يخص قومه ويرجع إلى لهجة أهل بلده. ومن البدهي أن تكون فائدة ما كُتب وأُلف في هذا الشأن مقصورة في الغالب على أهل البلد الذين كتب الكُتَّاب بلهجتهم.

ويظهر أن الدكتور فريحة احتفل بمعجمه أشد مما احتفلوا، وجمع من شوارد ألفاظ العامة أكثر مما جمعوا، وفسر وحلل هذه الألفاظ وعمل على إرجاع بعضها إلى اللغات السامية (وهو أستاذها في الجامعة الأمريكية) بأشد مما فسروا وحللوا وأرجعوا. ولكن هل وُفِّق إلى الاكتفاء بمقدار الحاجة في هذا الموضوع كما وُفِّقوا؟

كأن المؤلف شعر بخطورة هذا الاستفهام؛ ولذا سمعناه يقول في مقدمة معجمه: (ونحن لا يخامرنا أدنى شك في أن كثيرًا من آرائنا وتعليلاتنا في رد الألفاظ إلى أصلها خاطئة) ثم عاد إلى هذا الاعتراف المتواضع في آخر المقدمة فقال: (ونحن متأكدون أننا أخطأنا في كثير من التعابير والملاحظات اللغوية) .

اعترافه هذا خفَّف عني عبء مناقشته في آرائه وتفاسيره في كثير من المواطن.

وهو بعد هذا كله يقول: إنه مزمع أن يؤلف قاموسًا عربيًّا يودعه هذه الألفاظ العامية التي عللها وفسرها وارتاب فيها، فقد قال: (وغايتنا من هذه المجموعة أن نضع

(*) نوقش التقرير فى الجلستين، السابعة والثامنة، من الدورة الرابعة عشرة، ٥، ٩ من فبراير سنة ١٩٤٨م).

أمام الناس نموذجًا لدراسات اللهجات العامية علّ في هذا حافزًا لهم، وعندما تكون لدينا مجموعات عدة نستطيع أن نجعل منها قاموسًا علميًّا، يجمع شتات اللغة العربية الحية.

فالغاية إذن من جميع الألفاظ اللبنانية ومن هذا القاموس وما وُضع على غراره إحياء اللهجة العامية اللبنانية وتسهيل أمرها، وتوسيع نطاق التكلم بها بين اللبنانيين، فتصبح لغتهم الحية العتيدة. وهذا بالطبع يؤدي على تمادي الأيام وتعاقب الأجيال إلى جعل اللبنانيين لا يفهمون اللغة التي يتكلم بها إخوانهم العرب في سائر الأقطار. ونحن على شك في أن يتم للمؤلف ما أراد، أو يصل إلى الغاية التي يرمي إليها ما دام في لبنان نفسه وفي سائر الأقطار العربية المحيطة به ألوف الألوف من المصنفات والمجلات والصحف والنشريات المختلفة والمكتوبة باللغة الفصحى، تترامى على أيدي اللبنانيين وتحت مواقع أبصارهم فيقرأونها بلهف وشوق. ولا جرم أن هذا ضمانة وثيقة على أن اللغة العربية الفصحى التي كُتبت بها تلك المصنفات والمجلات والصحف ستكون هي اللغة المشتركة بين اللبنانيين وسائر إخوانهم العرب في سائر الأقطار، كما تكون الآصرة المتينة، تجمع بينهم وتؤلف بين عقولهم وتفاكيرهم وسائر مقومات اجتماعهم.

وقد لاحظت (وأنا لبناني من طرابلس) أن في المائة نحو أربعين من الألفاظ التي جمعها المؤلف في معجمه إنما يعرفها أهل قريته (رأس المتن) وحدهم.

خذ مثلاً لذلك ما جاء في حرف الزاي ص ٧٣:

(**زف**) الرجل صاحبه: وبخه.

(**الزفة**): التوبيخ.

(**زقره**): نظره بغضب وتهديد.

(**تزاقر**) الرجلان: نظر أحدهما إلى الآخر بغضب وتهديد.

(**الزقرة**): تقطيب الحاجبين.

(**زقزق**) الأمتعة: نقلها من مكان إلى آخر.

(**زق**) الأمتعة: كذلك.

(**زقت**) الرجل: زلقت.

(**الزق**): الوقوع إلى الأرض بسبب الانـــزلاق.

(**الزق**): الظرف.

(**زقل**) الأمتعة: نقلها من مكان إلى آخر.

(**زقم**) الطائر فرخه: أطعمه.

(**زقّم**) كذلك.

(**لقمة الزقوم**): خبزة يُرقى عليها ويُطعمها المتهم فإذا غُصَّ بها ثبت إجرامه، وإلا كان بريئًا.

(**زقور**): نظر بغضب، وهي أبلغ من زقر.

(**زكت**): كلمة شتم.

(**زكرة**): جلد شاة إلخ.

(**زكرة الرجل**): سرّته.

هذا عمود من صفحات المعجم اشتمل على ١٧ لفظة ينطق بها لبنانيو (المـــتن) ولا يعرف منها لبنانيو طرابلس إلا أربع أو خمس كلمات.

ففائدة الكتاب مقصورة إذن على مقاطعة المتن وما حواليها. وقال المؤلف: إنـــه كما التقط ألفاظه من أهل بلده التقطها أيضًا من محـــيط المحـــيط ومعجـــم (دوزي) ومصنفات (الفغالي) . وقدم إلى قراء معجمه (الفغالي) هذا فقال ما نصه: هو المونسنيور ميشال الفغالي أستاذ اللغة العربية في معهد بوردو للمستعمرات الذي له في لهجة شمال لبنان المارونية دروس قيمة أكسبته شهرة بين المستشرقين. ومن كتبه (أي في موضـــوع اللهجة اللبنانية) ثلاثة كتب هي كذا وكذا وكذا.

فمن هنا يتضح أنه سيكون نصيب كبير من فائدة هذا الكتاب لرجال الاستعمار المشتغلين في السياسة الشرقية، من حيث إنه يؤدي إلى العمل على تكوين أمم جديدة في

الشرق العربي ولغات جديدة منبعثة من اللغة العربية الأم كما انبعثت لغـــات الأمـــم اللاتينية من اللغة اللاتينية الأم، فتولد من جراء ذلك بضع أمم أوربية.

وإن أبى القراء إلا أن نمثل لهم بشيء من التفاسير والتعاليل التي اعترف صاحب المعجم بأنه أخطأ فيها، فلنقتصر على ما يلي:

لا يخفى أن اللغة العربية الدارجة هي في أصلها اللغة العربية الفصحى، وقد تناول العامة ألفاظًا كثيرة منها بالتحريف والتغيير والتبديل، فقالوا مثلاً في: (جاء) (أجا) وفي (بودي) (بدي)... إلخ. هذه هي ألفاظهم الجديرة بنسبتها إليهم، أما مـــا جـــاء مـــن ألفاظهم على أصله وصيغته الفصيحة فلا معنى لتتبعه وحشره في ألفاظهم كمـــا فعـــل مؤلف المعجم، مثاله قوله في حرف الزاي (زكرة: جلد شاة أو عنـــزة يُدبغ ويُوضـــع فيه اللبن أو الزيت أو السمن) ، وكلمة (زكرة) عربية فصيحة فلا معنى لعدها في ألفاظ العامة، ولو صح أن نعدها لصح لنا أن نعد من ألفاظهم أيـــضًا (الأرض) و(الـــسماء) و(الخبز) و (الماء) وجاء في الشعر القديم:

ليت شعري متى تخب بي النـــــ ـــاقة بين العذيب فالصيون
محقبـــــًا زكرة وخبز رقـــــاق وحبـــاقًا وقطعة من نـــون

وأخطأ في تفسير (الزكرة) مإذ قال: جلد (عنـــزة) بالتأنيث إذ أن (العنـــز) هي الأنثى من المعز وهي التي يُتخذ من جلدها (الزكرة) فلا معنى لتأنيثهـــا بالتـــاء، أمـــا (العنـــزة) (بالتاء) فاسم لحيوانات أخرى. ومن هنا سبق الوهم لصاحب أقرب الموارد فقال: (والعنـــزة: العنـــز). وكلمة (زق) أو (ظرف) مشهورة المعنى وهـــي كلمـــة واحدة تغني عن قوله: (جلد شاة) أو (عنـــزة يدبغ ويوضع فيه اللبن) وقوله: (أو الزيت أو السمن) كان يُستغنى عنهما لو قال: (كاللبن ونحوه) على أن أهل طرابلس يقولون: (زكرة قريشة أو زكرة جبن) خلافًا لأهل المتن فلو قال المؤلف: (اللبن ونحوه) لكـــان أقوم. وإنما أطلنا الكلام في هذا تصديقًا لقول المؤلف الفاضل: إنه أخطأ في كثير مـــن تفاسيره وآرائه وملاحظاته اللغوية التي تضخم معجمه بها.

ومن أمثلة عدم الدقة في التفسير قول المؤلف: (التم الناس) أي اجتمعوا وتجمهروا، وهو حسن لكنه علق على هذا قائلاً: (ويجب أن تكون التأم من لأم لا من لم.. أ.هـ) يريد أن يقول أن (التمَّ) محرفة من فعل (التأم) لا من فعل (لمَّ) وهذا بعيد عن الصواب، إذ أن (التمَّ) مطاوع لفعل (لمَّ) بمعنى جمع يقال: لمَّهم فالتموا أي جمعهم فاجتمعوا. وهو من الفصيح الذي قلنا: إنه ما كان ينبغي ذكره في موضوع (ألفاظ العامة) ، وإنما يُذكر في موضوع عنوانه (الكلمات الفصيحة في ألفاظ العامة) فعل (التأم) القوم قليل الاستعمال في معنى اجتمعوا بخلاف فعل (التمَّ). ومن أمثلة التسامح وعدم الدقة قوله في تفسير: (حلش الحشيش) : (أنه بمعنى قطعه وجمعه، وحلش الشعر أمسك به وجره أ.هـ) ولعمري إن المؤلف لم يصب في تفسير المعنيين لا المعنى الحقيقي ولا المعنى المجازي. أما تفسير حلش بالمعنى الحقيقي فهو انتزاع الحشيش من منبته بعنف، ويكون هذا الحلش باليد، بدليل أن دوزي في معجمه ترجمه بقوله Arracher ومعناه القلع والنتش باليد. أما القطع (Couper) فيكون بنحو منجل ويسمى الحصاد.ولا أظن أن الحلش يكون بمعنى جمع الحشيش، فلعل هذا الاستعمال خاص بمقاطعة المتن.هذا تفسير الحلش بمعناه الحقيقي، أما الحلش بالمعنى المجازي فيكون بنتف شعر اللحية غالبًا لا نتف مطلق شعر، وقد أحسن العلامة (دوزي) مذ مثَّل للمعنى المجازي بقوله (بطرس حلش ذقن حنا) وكل لبناني يفهم من هذا القول أن بطرس نتف خصلاً من ذقن حنا لا أنه أمسك بها وجره منها فقط.

***الأستاذ أحمد أمين:** البحث الذي قرأه علينا الأستاذ فريد أبو حديد ينقسم قسمين:أولهما شكوى من وجود لغتين: عامية وفصحى، وما ترتب على ذلك من مضار كثيرة أهمها: أن جمهور الشعوب العربية ليس له غذاء أدبي، والواقع أن هذا صحيح – ولكن الأستاذ المقرر أراد في القسم الثاني من البحث أن يعالج هذا العيب بتقريب ألفاظ العامية من ألفاظ الفصحى. على أن هناك جانبًا آخر لم يتعرض له هو مسألة الإعراب؛ إذ مجرد العناية بالألفاظ العامية، بتصحيحها وتقريبها من الفصحى لا

يكفي، ولو تم لنا كل ذلك لبقي فرق كبير بين اللغتين: الفصحى المعربة والعامية غير المعربة. وأعتقد أن نشوء العامية سببه - في الأعم الأغلب -صعوبة الإعراب، وليس من طبيعة الأشياء أن يتكلم الرجل غير المثقف لغة معربة، فنحن نعلم التلميذ والطالب في المدرسة والجامعة قرابة اثني عشر عامًا ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يقوِّم لسانه، وهذه هي العقبة الكبرى التي تقف أمامنا الآن إذا أردنا أن نعمم التعليم بين طبقات الشعب من فلاحين وعمال. وقد فكرت في الأمر زمنًا ورأيت أنه لا معدى لنا عن لغتين إحداهما للعامة والأخرى للخاصة على أن نجتهد في التقريب بينهما فننقي العامية من الحرافيش- على حد تعبير ابن خلدون - وبهذه التنقية تصبح العامية لغة فصحى ينقصها الإعراب. وتبقى بجانب هذه اللغة غير المعربة لغة للمثقفين يحتفظ فيها بالإعراب - لا معدى لنا الآن عن ذلك - وقد يكون هذا العمل الخطوة الأولى نحو التوحيد بين اللغتين.

هذه هي الصعوبة التي أردت توجيه النظر إليها. وأما المقترحات التي وردت في البحث خاصة بدراسة الألفاظ والتقريب بينها فأرى أن تكون محل بحث بين المقترحات.

*‏**الدكتور فارس نمر**: أشكر للأستاذ المحاضر بحثه الكثير الفوائد، ويعجبني منه أمور كثيرة أخص بالذكر منها قوله: إن اللغة كائن حي يعيش وينطبق عليها نواميس الطبيعة التي تنطبق على الأحياء، فإذا كان الأمر كذلك وجب أن نتتبع هذه النواميس لنرى تأثيرها في حياة اللغة ويهدينا البحث إلى أن اللغات الحية جميعًا لها فصحى وعامية، ومصداق ذلك أنك إذا درست لغة أوربية في مصر على أصولها الفصيحة ثم ذهبت إلى ذلك البلد الأوربي وحاولت التخاطب مع أهل القرى الصغيرة فإنك لن تفهم أكثر ما يقولون، فليست مشكلة العامية والفصحى خاصة باللغة العربية.

وقد أوضح الأستاذ أحمد أمين أن من أكبر الصعوبات في رد العامية إلى الفصحى أو توحيد اللغتين وجود الإعراب في الفصحى وانعدامه في العامية. ولا ريب عندي في صحة هذا القول. ولكني أرى أن عدم الإعراب في العامية ليس هو الصعوبة

الكبرى والحقيقية، بل الصعوبة الكبرى هي كثرة العاميات واختلافها بعضها عن بعض وفقًا للنواميس الطبيعية التي أشرت إليها، وهذا الأمر ظاهر – على الأخص في لبنان – حيث تختلف العامية في كل قرية تقريبًا عنها في الأخرى، والدروز هناك أقرب إلى الفصحى من سائر أهل لبنان، فسكان قرية مجدل شمس – مثلاً – يقولون: ثلاثة أيام وثلاث ليال كما في العربية فإذا ذهبت إلى قرية "شبعة" التي لا تبعد عن "مجدل شمس" أكثر من ثلاثة كيلو مترات رأيت اختلافًا كبيرًا ووجدت لهجتهم قريبة من لهجة دمشق؛ وذلك لأن أهل "مجدل شمس" عاشوا منعزلين، فظلت لغتهم قريبة من أمها الفصحى على عكس غيرهم من سكان لبنان. فمن العبث – إذن – أن نجتهد في جمع الألفاظ العامية، لتحويلها إلى ألفاظ فصيحة، ولو حاولنا ذلك ما بلغنا منه شيئًا. ولكننا يجب أن نلتمس حل المشكلة التي تواجهنا في النواميس الطبيعية نفسها التي تسير على وفقها اللغات في نموها وتطورها. ومن هذه القوانين أن الدولة الغالبة تغلب لغتها على جميع الأمم المنضوية تحت لوائها، وقد بدأت عامية مصر منذ الآن تظهر آثارها في اللهجات العربية ألفاظها وتراكيبها. وربما كانت هذه الأخيرة أعسر على النقل وأدل على التأثير من الألفاظ، وحسبي أن أذكر مثلاً واحدًا على ذلك فأهل مصر يقولون: كاتب أول مصلحة كذا أو مدير أول دائرة كذا – أخذوا هذا التركيب عن الترك، وكان أهل الشام يقولون إلى وقت قريب: كاتب المديرية الأول ومدير الدائرة الأول جريًا على القاعدة العربية. ولكنهم أخذوا يتفاصحون الآن بعامية مصر، فيقولون: كاتب أول بيروت ومدير أول... إلخ مع بعد هذا التعبير عن الفصحى.

وبناء على ذلك أظن أن عامية مصر ستصبح مع مرور الزمن مفهومة عند أهل العراق والشام والمغرب. أما الآن فبعض هذه الجهات إذا ذهبت إليها فإنك لا تكاد تفهم ما يقال، وخلاصة القول: إننا إذا كنا نريد التقريب بين اللغتين فلنفعل ذلك على قدر الإمكان دون أن نحاول التصدي للنواميس الطبيعية في اللغة، وذلك بأن نجعل الخاصة يقبلون من الألفاظ العامية ما صحت صوره وتحققت الفائدة من إدخاله في

الفصحى، على ألا تُستمد من عامة مصر فقط بل من العاميــات الأخــرى في ســائر الأقطار العربية.

***الأستاذ علي الجارم:** نشكر جميعًا الأستاذ فريد على ما بذله من جهد في هذا البحث ولكني أرى كما قال الدكتور فارس: إن مسألة ابتعاد العامية عن الفصحى مسألة قديمة وموجودة في كل بلد وفي كل زمن ومهما نجتهد في التقريب بينهما فلن يجــدي هــذا الاجتهاد لصعوبة الموضوع ودقته. والعلاج لذلك هو أن ننــهض بالعامــة أنفــسهم ونرفعهم إلى مستوى أقرب من الخاصة، وذلك بأن ننشر في الصحف والمجلات والإذاعة عبارات باللغة العربية السهلة، وبذلك يقرب العامة منا ويتدرجون فيها على مر الزمان. ونحن نشاهد الآن فرقًا شاسعًا بين ما كنا نسمعه من العامة في سنة ١٩٠٠م وما نسمعه منهم الآن. أما أن ننــزل بلغتنا إلى مستوى الدهماء فهذا مالا أوافق عليه.هذا وأريد أن أسأل ما النتيجة العملية لهذا البحث؟ أنريد أن نستفيد من العامية أم نفيدها؟

فإذا كان المراد منه أن نستفيد من العامية فقد أثبت الباحث أن الفصحى أغــنى وأوسع من العامية، ونحن لا نأخذ من مال الفقير لنعطي الغني. لهذا أرى ألا نستمر في هذا البحث بل نجتهد في إحياء الفصحى والنهوض بالعوام حتى يقربوا من المثقفين.

***الأستاذ عباس محمود العقاد:** ما قيل في هذه الجلسة ينقسم أقسامًا ثلاثة:

الأول: ما أشار إليه الأستاذ المحاضر من الاستفادة من محصول اللغة العامية من المولــد والدخيل والمعرب وإدخاله في الفصحى إذا جرى مجراها، وأعتقد أن هذا الاقتــراح لا يجد معارضة شديدة أو إجماعية.

والثاني: قيام لغتين في الأمة الواحدة، وهذا كما قال الأستاذ الجارم أمر لا يمتنــع ولا أظن أنه امتنع في وقت ما، بل ما أظن أن "هوراس" أو "فرجيل" كانا ينظمان اللاتينية في عصر اللاتين باللهجة التي كان يتكلمها سوقة روما. وليس أمر هــذا الاخــتلاف براجع إلى المفردات والقواعد بل يرجع إلى اختلاف العقليات واختلاف الموضــوعات. مثال ذلك: أن جملة المفردات في كتب "أبي البركات" الفيلسوف لا تتجــاوز جملــة

مفردات الصحف العربية الآن: ولكن الذين يفهمون كتبه لا يبلغون معشار من يفهمون هذه الصحف.

ويقولون: إن معجم شكسبير في الإنجليزية يبلغ ستة عشر ألف كلمة، ومعجم "دافيدهيوم " يبلغ نحو ألفي كلمة فقط، وربما كان معجم "هويتهد" أكبر من ذلك، ولكن معاجم "دافيدهيوم" و"هويتهد" و"بركلى" و"هوبز" لا يتجاوز كل منها على أية حال ستة آلاف كلمة، غير أننا نجد عامة الإنجليز يقرأون "شكسبير" ولا يقرأون "دافيدهيوم" و"هويتهد" و"بركلى" وليس الفرق راجعًا إلى المفردات والقواعد بل إلى اختلاف الثقافة والأفكار، وسيظل هذا الفرق قائمًا في كل لغة ما اختلفت الأفكار والثقافات والمشاعر.

والقسم الثالث: حديث الإعراب، وأنا على خلاف ما يقول به الأستاذ أحمد أمين، والدكتور فارس نمر فأنا لا أجد في الإعراب صعوبة لا على العامة ولاعلى الخاصة لا في القراءة ولا في الكتابة. فأما القراءة فالإعراب فيها تيسير للخاصة وليس فيه تصعيب على العامة.فالعامي يقرأ المعرب وغيره فيفهمهما بدرجة واحدة، أما الكتابة فإذا وصل إليها العوام فليس الإعراب أصعب المعارف التي يجب أنه يتوفر عليها الكاتب، فإذا أريد تقريب الفهم – فهم الموضوعات لا فهم اللغة – إلى العامة فالسبيل هو الترقي بالعامة بإزالة الأمية ونشر التعليم ورفعه إلى درجة الخاصة لا النزول بالخاصة إلى درجة العامة، وإذن أقترح:

أولاً: إباحة الاستفادة بالمولد والدخيل إذا قبلته قواعد اللغة وأدى معنى يُحتاج إليه.

ثانيًا: تقرير أن قيام اللغتين ضرورة لابد منها وإن أمكن التقريب بينهما.

أما الإعراب فلا أرى داعيًا للنظر في أمره.

*__الدكتور طه حسين__: يخيل إليّ أن الأستاذ فريد مظلوم إلى درجة ما في كل هذه المناقشات التي أدرناها إلى الآن. فقد طلب إلينا فيما أعتقد شيئين نطالب نحن بهما كليهما:

الأول: أن نرد إلى كثير جدًّا من الألفاظ العربية اعتبارها - كما يقول رجال القانون- لأن هذه الألفاظ قد استعملت في العامية، فغض النظر عنها من أجل ذلك وأهملت وكأنها فقدت عروبتها، فهو يريد أن يرد العروبة إلى هذه الألفاظ العربية.

الثاني: أن نقبل كلمات جرى عليها الاستعمال، وأدت ما تؤديه الكلمات المستعملة، وليس لها أصل أو ذكر في معجمات اللغة العربية، وأظن أننا لا نستطيع المناقشة في هذا إذا كانت في هذه الألفاظ حياة و لم تكن مخالفة لأصول العربية، فالأستاذ أبو حديد لم يطلب منا بذلك شططًا بل شيئًا نجتمع دائمًا لتحقيقه، ثم هو يطالبنا بعد ذلك بأشياء خطيرة، نفكر فيها ولا نكاد نجرؤ على المطالبة بها، وهي أن نوسع تصورنا للمعجم العربي، فلا نقف عند القاعدة التي اتبعها أصحاب المعاجم من وقف الاستشهاد عند العصر الأموي بل نمد البحث إلى هذه العصور التي نعيش فيها، مادامت الكلمات ذات أصول عربية وما دام الاستعمال قد أجازها سواء أكان استعمال الكُتَّاب أم العامة.

هذه كلها أشياء نقولها ونفكر فيها وإن كنا لا نجرؤ على تقريرها رسميًّا، ولاشك أن كثيرًا جدًّا من هذه الكلمات يستعمل في النثر والشعر وفي الحياة اليومية، فإذا أردنا ردها إلى اللغة العربية وقفت أمامنا مشكلة عدم ورودها في المعاجم.أظننا نوافق على كل ذلك. ثم يطلب منا الأستاذ فريد شيئًا يكلفنا به المرسوم، وهو دراسة اللهجات دراسة علمية منظمة والمقارنة بين هذه اللهجات، لا لأنها هي نفسها يصح أن تكون موضوع درس فحسب، ولكن - على الأقل- لأن هذا الدرس هو الذي سيتيح لنا الاستفادة من هذه اللهجات؛ فنضم إلى المعجم العربي ألفاظًا ندت عنه- ونضيف ألفاظًا يحتاج إليها. ولا أظننا نجادل في أن من واجب المجمع أن يدرس هذه اللهجات العربية كلها دراسة علمية كالتي حاولها الأستاذ فريد بصورة متواضعة.

وإذن فهو لم يدعنا إلا إلى أشياء بعضها نؤمن به جميعًا ونخشى تقريره، وبعضها في المرسوم ولكننا تركناه حتى الآن. فأرجو إذا سمحتم لي أن نقرر شكر الأستاذ فريد على بحثه القيم.

وثانيًا: أن ننفذ المرسوم؛ وبخاصة لأن عندنا لجنة للهجات.

وثالثًا:أن يوافق المجمع على توسيع الإطار الذي سيوضع فيه المعجم اللغوي سواء كان وسيطًا أم مطولاً.

ولا أريد الكلام في مسألة الإعراب؛ إذ يُخيل إلى أن هذه المسألة وهم يوشك أن يكون خوفًا، ولست واثقًا أن العرب في العصر الجاهلي أو الأموي كانوا جميعًا يعربون، وإن كنت أري أن الشعراء والخطباء كانوا يعربون في شعرهم وخطبهم. ولا أظن أن الإعراب كان مصدر عسر في الفهم والتفاهم، ولا أظنه سيكون كذلك، وخاصة ونحن نعيش في عصر يجب فيه نشر التعليم بحكم القانون، وهذا يتطلب التعليم بالفصحى، وبذلك يتقارب ما بين الطبقات من ناحية الثقافة. والمجمع منذ أنشئ يخطو خطوات طيبة في تيسير الكتابة والنحو وأساليب التعبير، فكل هذا يدعونا إلى شيء من التفاؤل والثقة وانتظار الوقت الذي لا يجد فيه العامة صعوبة ذات خطر في سماع اللغة المعربة، ولا يجد فيه كُتَّاب العربية صعوبة ذات خطر في الحديث إلى العامة.

*__الأستاذ ل. ما سينيون:__ نريد أن نستفيد من هذه المناسبة، فنبدأ تنظيم جزازات للهجات العامية وعمل خرائط لبعض الكلمات الشائعة في اللهجات المختلفة تبين الفروق بين هذه اللهجات. وأرى أن يكون الأستاذ فريد أبو حديد مشرفًا ومهيمنًا على هذا العمل.

*__الأستاذ زكي المهندس:__ هذا العمل الذي أشار إليه الأستاذ ماسينيون تقوم به الآن كلية الآداب ودار العلوم في دراسة اللهجات على أني أشعر من البحث الذي ألقاه الأستاذ فريد أنه يجد في تعليم اللغة العربية الفصحى شيئًا من الصعوبة، وأود أن أطمئنه إلى أننا الآن نستأنس بالعبارات والأساليب الشائعة عند العامة في تعليم العربية، وهكذا نفعل في تدريس القواعد نفسها، ففي كثير من الدروس كالتعجب والاستفهام نبين أساليبها عند العامة ثم نأتي بأساليبها في العربية ونوازن بين النوعين، فنحن نستعين بالعامية لتقريب اللغة العربية من أفهام التلاميذ.

*‏**الأستاذ علي الجارم**: أرجو تأجيل المناقشة في هذا الموضوع إلى الجلسة القادمة.

فووفق على ذلك.

وانفض الاجتماع، والساعة الواحدة بعد الظهر.

٣–استئناف المناقشة في تقرير لجنة بحث العامية والفصحى

*‏**الأستاذ الرئيس**: قرأ عليكم في الجلسة الماضية زميلنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد ما انتهت إليه لجنة بحث العامية والفصحى من قرارات، وناقشتم البحث الذي أُلقي على حضراتكم، إلا أننا لم نتخذ فيه قرارًا لضيق الوقت، ولهذا نستأنف المناقشة في هذا البحث.

*‏**الأستاذ محمد فريد أبو حديد**: القرارات التي اتخذتها لجنة بحث العامية والفصحى ترمي إلى دراسة اللغة العامية؛ لأنها لغة قائمة في حياتنا العامة، لغة حية نتحدث بها ونتعامل بها، وهذا هو العمل الذي تقوم به لجنة اللهجات بالمجمع. أما إذا كانت هناك قرارات أخرى فأرجو أن تحال إلى لجنة الألفاظ والأساليب التي تدرس الألفاظ العامية وننظر فيما يمكن أن يجاز منها في اللغة الفصحى.

*‏**الأستاذ الرئيس**: هذا البحث أدخل في اختصاص لجنة اللهجات منه في اختصاص لجنة الألفاظ والأساليب؛ لأن الأولى تدرس اللهجات العربية على اختلاف بيئاتها وأقطارها، أما لجنة الألفاظ والأساليب فتدرس الألفاظ والأساليب لا اللهجات.

*‏**الأستاذ علي الجارم**: لجنة اللهجات تدرس اللهجات في الأقطار العربية بصورتها الحاضرة، وتتعرض لدراسة اللهجات القديمة بقدر ما تسمح لها وسائلها وطرقها.والغرض من هذه الدراسة الفنية معرفة تطور اللغات واللهجات، ولا يُقصد منها تعزيز الفصحى ببعض الكلمات العامية، ولجنة الألفاظ والأساليب هي التي تؤدي هذا الغرض الأخير.

*‏**الأستاذ الرئيس**: كنت أقول دائمًا: إن لجنة اللهجات تأخذ إلى حد بعيد ببحوث الـ "phonétique" أي دراسة الأصوات، وهذا من عمل كلية الآداب والمعاهد المتصلة بها،

غير أنني أرى ألا مندوحة لنا من الأخذ بهذه الدراسات الصوتية ما دمنا نتعرض لبحث اللهجات العربية.

***الأستاذ محمد كرد علي:** أقترح أن نطلب من الأعضاء الشرقيين من الأقطار العربية المختلفة أن يرسلوا إلى المجمع قوائم بالألفاظ المستعملة في لهجاتهم العامية وتتولى لجنة اللهجات وضع هذه الكلمات في جزازات.

***الأستاذ الرئيس:** أؤيد هذا الاقتراح، وأرجو أن يوافينا زملاؤنا الشرقيون بالقوائم التي أشار بها زميلنا الأستاذ محمد كرد علي.

***الأستاذ محمد فريد أبو حديد:** أرى أننا متفقون على المبدأ، وفي جلسات اللجان اعتدنا أن ننظر في بضع ألفاظ ندرسها، وهذا عمل يستغرق منا وقتًا طويلاً وجهودًا يحسن أن تُوجَّه إلى عمل منظم، وأقترح دراسة اللغة العامية دراسة شاملة ترمي إلى غاية، ومتى انتهينا من دراسة لهجة القاهرة نرسلها إلى الأعضاء في الأقطار العربية ليسيروا على نهج محدد واضح. وإذا لم ترسم خطة جلية واضحة لتسير عليها الأقطار العربية الأخرى فسيكون العمل غير منسق، وقد يأتينا رد عنها أولا يأتينا.

***الأستاذ الرئيس:** كيف تريد توجيه هذه الدراسة؟

***الأستاذ محمد فريد أبو حديد:** اقترحت اللجنة البدء بالألفاظ ثم بالأساليب، على أن تُدرس أولاً الأفعال الثلاثية ثم الرباعية والمجرد والمزيد ثم المشتقات وما إلى ذلك.

***الأستاذ الرئيس:** ما هي الطريقة التي نتبعها في حصر الأفعال الثلاثية في لهجة القاهرة مثلاً؟

***الأستاذ محمد فريد أبو حديد:** حصرت الأفعال الثلاثية بطريقة عرضتها على المجلس، غير أني أرى أن هذا الحصر يكون أكثر استيعابًا لو عُرض على اللجنة ثم يُعرض بعد ذلك على الأقطار العربية الآخرة لنتلقى ملاحظات فيما إذا كانت هذه الألفاظ مستعملة في لهجاتهم أو غير مستعملة، وبعد ذلك يُعرض العمل كاملاً على اللجنة وعلى المجلس ثم على المؤتمر.

***الدكتور طه حسين:** أرجو أن تُتلى علينا أسماء أعضاء لجنة اللهجات.

فتُليت أسماء أعضاء اللجنة وهم:

١- الدكتور منصور فهمي.

٢- الأستاذ زكي المهندس.

٣- الأستاذ محمد فريد أبو حديد.

٤- الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين.

٥- الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف.

٦- الأستاذ حايم ناحوم.

٧- الأستاذ عباس محمود العقاد.

***الدكتور طه حسين:** لدراسة اللهجات مناهج مقررة بين علماء اللغة يسيرون عليها، فهل للجنة اللهجات خبراء مختصون تستعين بهم في أعمالها؟ وإذا لم يكن لديها خبراء فأقترح أن تدعو اللجنة مختصًّا يشتغل في هذه الموضوع وفقًا للطرق الحديثة ويشترك مع اللجنة في وضع منهج للعمل يُعرض علينا وتُرتب بعد ذلك طريقة التنفيذ؛ لأن الجهد المشكور الذي بذله زميلنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد، وما يبذله إخواننا من أعضاء اللجنة يجب أن يقوم على المنهج المألوف للعلماء الدارسين لهذا الموضوع، ولذلك أقترح دعوة الأستاذ شارل كوينتز مدير المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة؛ لأنه قد جمع لهجات كثيرة من القرى المصرية ويعمل هو ومعاونوه في وضع " أطالس " لغوية للهجات العربية، كما أني أقترح إيجاد نظام للتعاون بيننا وبين المجامع العلمية في البلاد العربية، ففي دمشق مجمع علمي، وفي العراق مجمع علمي آخر يرأسه الأستاذ محمد رضا الشبيبي زميلنا الجديد على أن نرسل المنهج الذي نتفق عليه في دراسة اللهجات إلى هذين المجمعين ونطلب منهما القيام بمحاولة ما حاولنا في هذه الدراسة. وبهذا وحده نستطيع أن نصل إلى شيء محدود ونسير على خطة علمية واضحة.

*__الأستاذ زكي المهندس:__ أضيف إلى ما قيل أن كلية الآداب بجامعة القاهرة لها بحوث في هذه الناحية واستدعت كلية الآداب بجامعة الإسكندرية في العام الماضي خبيرًا إنجليزيًّا يُدعى على ما أذكر المستر فرث ووضع تقريرًا في هذا الشأن.

*__الدكتور طه حسين:__ لقد تناول هذا الخبير في تقريره القيم الناحية الخاصة بإنشاء معهد للـ " phonétique " وإذا تم إنشاء هذا المعهد في جامعة القاهرة أو جامعة الإسكندرية أمكن المجمع الاستفادة منه إلى أبعد حد، ويُخيل إليَّ أن أحسن طريقة للبحث في هذا الموضوع أن نأخذ الطرق المألوفة في البلاد الأخرى أي أن نلجأ إلى المتخصصين في هذه الدراسات، ومن حسن الحظ أن الأستاذ شارل كوينتز موجود بالقاهرة، كما أن الأستاذ عبد الحميد الدواخلي قد تخصص في دراسة الـ "phonétique" " علم الأصوات " تخصصًا عميقًا أثناء دراسته بجامعة باريس ومعهد الأصوات الملحق بالسربون، فأقترح أن يُضم إلى لجنة اللهجات الأستاذان شارل كوينتز وعبد الحميد الدواخلي كخبيرين لتخصصهما في هذه الدراسات، وعلى هذا يمكن أن تقدم لنا اللجنة تقريرًا يصلح أساسًا للعمل في مصر والبلاد العربية في هذه الدراسة.

*__الأستاذ علي الجارم:__ الأستاذ عبد الحميد الدواخلي موظف بالمجمع، وقد اتخذ المجلس قرارًا سابقًا بألا يُختار خبراء للجان من بين موظفي المجمع.

*__الدكتور طه حسين:__ إذا وافقتم على اختيار الأستاذ عبد الحميد الدواخلي خبيرًا للجنة اللهجات، فعمله إذن عمل غيره من الخبراء، فلا بد من أن يُعطى مكافأة الخبراء.

*__الدكتور إبراهيم بيومي مدكور:__ نترك للأستاذ الرئيس ومكتب المجمع وسائل التنفيذ مادمنا قد اتفقنا على المبدأ، وأقترح أن نعود إلى المناقشة في البحث.

*__الدكتور أحمد زكي:__ كنا قبل ذلك نرى أن نحيل البحث إلى لجنة الألفاظ والأساليب، وقد اقترح الآن إحالته إلى لجنة اللهجات، أفلا ترون أنه من الخير أن تجتمع اللجنتان بالخبراء لرسم الخطة المقترحة؛ لأن الموضوع جد خطير؟

*__الدكتور طه حسين:__ يحسن أن تقوم لجنة اللهجات أولاً بوضع الخطة مع الخبراء ثم تعرض علينا للنظر فيها.

*__الأستاذ الرئيس__: ماذا ترون في هذا الموضوع؟
*__الأستاذ علي الجارم__: نقر ما قاله زميلنا الدكتور طه حسين، فلجنة الألفاظ والأساليب تستمر في أعمالها، وأما لجنة اللهجات فيُضم إليها الخبيران اللذان اقترحهما زميلنا الدكتور طه حسين، وتضع اللجنة الخطة التي نسير عليها في دراسة اللهجات.
*__الدكتور أحمد زكي__: أخشى أن تكون هذه الدراسة أكاديمية لا تنتهي، ونحن نريد نتيجة عاجلة.
*__الدكتور طه حسين__: مسألة اللهجات موجودة في المرسوم، فعلى اللجنة أن تضع الخطط وأصول هذه الدراسة وتعرضها علينا ثم تسير بعد ذلك في عملها.
*__الأستاذ أحمد أمين__: أرى أننا قد بعدنا بعض الشيء عن اقتراح زميلنا الأستاذ فريد أبو حديد؛ لأنه يرمي إلى وضع معجم للألفاظ العامية في القطر المصري وفي الأقطار العربية الأخرى على أن يقوم بعمل إحصاء لما يلي: هل هذه الكلمات عربية الأصل أو غير عربية؟ وهل هي عربية محرفة؟ وهل نحن محتاجون إليها في لغتنا الفصحى؟ فالعمل على ما يبدو لي محدود، له علاقة كبيرة باللهجات على أن إرساله إلى لجنة اللهجات فيه بعثرة ما لم يراع في تكوينها استعداد للقيام بهذا العمل.
*__الدكتور طه حسين__: نفس الإحصاء الذي يقوم به الأستاذ فريد له طرق وأسس علمية تتبع في دراسة اللهجات واللغات العامية ويجب علينا الأخذ بها.
*__الدكتور فارس نمر__: أوافق على اقتراح الدكتور طه حسين، وأرى أن يُضم إلى اللجنة الأستاذ ليتمان، لأن له دراسة خاصة في اللهجات.
*__الأستاذ الرئيس__: تبينا الآن أن لجنة اللهجات تعمل في ناحية بينما تعمل لجنة الألفاظ والأساليب في ناحية أخرى، ولا تعارض بين العملين.
*__الأستاذ على الجارم__: إذا وجدنا في العامية كلمات صحيحة أو يمكن تصحيحها مما لحقها من تحريف أدخلناها في اللغة الفصحى، وهذا ما تقوم به الآن لجنة الألفاظ والأساليب.

***الدكتور إبراهيم بيومي مدكور:** أقترح أن نحيل الموضوع إلى اللجنتين معًا، وأن يتصل الخبيران بلجنة اللهجات.

***الدكتور منصور فهمي:** كُونت لجنة اللهجات منذ أنشئ المجمع بحكم المرسوم، ولكن لجنة الألفاظ والأساليب كُونت أخيرًا حين ورد المجمع من هيئات وأفراد مختلفين كثير من الاستفتاءات عن صحة بعض الألفاظ والأساليب.

***الأستاذ زكى المهندس:** ألقى زميلنا الأستاذ ليتمان محاضرة قيمة نشرت في مجلة المجمع ضمنها خطة دقيقة لدراسة اللهجات، فلماذا يكرر المجمع دائمًا ما بحثه من قبل ورسم له خطة واضحة؟

***الأستاذ أحمد أمين:** أقترح أن يُضم الدكتور إبراهيم أنيس المدرس بكلية دار العلوم والأستاذ خليل عساكر المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة - إلى لجنة اللهجات كخبراء علاوة على الخبيرين اللذين اقترحهما الدكتور طه حسين في هذه الجلسة.

***الأستاذ الرئيس:** هل توافقون على أن يُضم:

١- الأستاذ شارل كوينتز.

٢- الأستاذ عبد الحميد الدواخلي.

٣- الدكتور إبراهيم أنيس.

٤- الأستاذ خليل عساكر.

خبراء للجنة اللهجات؟

***السيد حسن القاياتي:** إذا حاولنا رد الكلمات العامية إلى أصولها العربية الصحيحة فإننا لا نكون قد أتينا بجديد.

ذلك أننا سنقول - على التمثيل - في مثل كلمة (يجعص) التي يقولها العرب البدو اليوم إنها محرفة عن (يسجع) والسجع الغناء، وهذا معروف مدون في المعاجم والقواميس لا جديد فيه، فأية فائدة في ذلك؟

***الأستاذ محمد فريد أبو حديد**: إذا كنا نفكر في أن اللغة العربية قائمة وموجودة وفيها كل المعاني التي نحتاجها فقد انتهى الأمر، ولكن إذا نظرنا إلى اللغة العامية باعتبارها لغة حية تعيش بجانب العربية وعدنا إلى هذه اللغة وأخذنا منها مفرداتها المحرفة ورددناها إلى أصلها العربي، كان هذا كسبًا كبيرًا للغة الفصحى؛ لأن هذه الكلمات عند شيوعها تصير محاطة بهالة تحدد معناها.

***الأستاذ أحمد أمين**: تستعمل اللغة العامية كلمات لها معان محددة لا نستطيع التعبير عنها في الفصحى تعبيرًا دقيقًا، فقد عرضت على المجمع من قبل كلمة "Echantillon" فترجمت بـ "نموذج" إلا أن هذه الترجمة ليست دقيقة في أداء المعنى، وأن كلمة "عينة " (العامية) تدل على هذا المعنى دلالة تامة. وقد رأى المجمع أن صياغتها عربية فوافق عليها. وإذا قال العامة: "بيت محندأ " أي ضيق في جمال و"بيت مبهوأ" أي واسع في غير نظام، فإن الدلالة العامية أدق من الدلالة العربية وهي "ضيق" و"واسع" فلو وجدنا أنفسنا في حاجة إلى مثل هذه الكلمات وليس في الفصحى ما يطابق معناها مطابقة دقيقة فلا مانع من إدخالها في اللغة العربية بعد ردها إلى الصيغ العربية.

***الدكتور طه حسين**: في العامية ألفاظ عربية فصيحة تغير النطق بها مثل "السيدة" و"الست" فالسيدة عربية والست عربية أيضًا، ولكننا حين نبحث في القاموس لا نجد لفظة "الست" مع أننا نعلم أن من بين نساء العرب من تسمت بـ "ست الكل" و"ست الملك ".

***الدكتور منصور فهمي**: لقد عثرت على كلمتي "جواني" و"براني" الدارجتين في اللغة العامية وأصبحت أستعملهما في الفلسفة.

***الدكتور إبراهيم بيومي مدكور**: يُخيل إليَّ أننا قد انتهينا من بحث هذا الموضوع في كثير من الإطناب، ولا حرج علينا من أن نحيل البحث الذي عُرض علينا إلى لجنتي اللهجات والألفاظ والأساليب، مع الاستعانة بالخبراء المختصين الذين وافق المؤتمر على اختيارهم.

* * *

أغراض البحوث في الفصحى والعامية (*)

للأستاذ عباس محمود العقاد

(عضو المجمع)

في كل موضوع مجال للبحث الخالص لوجه الحقيقة، يراد به تقرير الحقائق، ولا يلزم من ذلك أن تستخدم لغرض خاص، وإن جاز أن تكون للحقيقة فوائد كثيرة ينتفع بها بعد الوصول إليها.

وليس هذا النوع من البحث مما نتناوله في هذه الكلمة؛ لأنه موضوع مسلم بـه من جميع وجهات نظره فلا خلاف على طلب الجمعية ولا خلاف على الاستفادة منها حيث تفيد.

إنما نقصر القول في هذه الكلمة على البحوث التي يقصد أصحابها إلى غـرض يذكرونه، ويستطيع الناظرون فيه أن يتخذوا منه موقفًا عمليًّا إلى الموافقة أو إلى المخالفة، وهي فيما استقصيناه أربعة:

١- بحث يراد به التقريب بين اللغة الفصحى واللهجة العامية.

٢- وبحث يراد به الانتفاع من دراسة اللهجة العامية في توضيح بعض القواعد التي استقرت عليها اللغة الفصحى.

٣- وبحث يراد به تحقيق التاريخ وأحوال المجتمع، والاستدلال عليها بشواهد الألفاظ والتراكيب.

٤- وبحث يراد به تغليب الفصحى على العامية أو تغليب العامية على الفصحى.

وكل هذه الأغراض قد وُضع موضع التجربة، وأمكن الوصول فيه إلى موقف عملي في جانب من الجوانب.

فمما لاشك فيه **أن التقريب بين الفصحى والعامية ممكن، وأنه يزداد إمكانًا في العصر الحاضر**؛ لأن أسباب التشعب والتفريع كانت موفورة في العصور الماضية، ولم

(*) محاضر الجلسات _ المجلس والمؤتمر _ للدورة الحادية والعشرين، الجلسة السادسة للمؤتمر، في ٦ من يناير سنة ١٩٥٥م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الحادي عشر، ص ٧٥.

تكن إلى جانبها أسباب للتوحيد والتقريب، تضارعها في قوتها وأثرها، فتوافرت هذه الأسباب في العصر الحاضر بعد شيوع الصحافة والإذاعة والصور المتحركة، وقوالب الحاكي المشهورة باسم الأسطوانات.

ومما يُرجى من آثار هذا التقريب أن ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين، وأن يدخل في الفصحى مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة، يمكن إجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بغير تعديل أو ببعض التعديل.

أما الانتفاع من دراسة اللهجة العامية في توضيح قواعد الفصحى فمن الأغراض التي يقل فيها الخلاف بين الأطراف؛ لأن تصريفات اللهجة العامية واشتقاقاتها، وتركيب عباراتها تجري بين أيدينا وعلى مسمع منا، ومنها ما يتعلق بالإبدال، وتغيير الحركات، وخصائص الجملة الاسمية، ومعاني الأضداد، واختزال الحروف من الكلمات للدلالة على التنفيس أو على الحال إلى أشباه ذلك من مواضع المقارنة التي تفيد في الرجوع إلى عوامل التطور في اللغة الفصحى، قبل استقرار قواعدها، أو في سبيلها إلى الاستقرار.

ولا يزال البحث في بعض الألفاظ الشائعة شاهدًا من شواهد التاريخ النافعة، ولا سيما التاريخ الاجتماعي في الأزمنة الحديثة. ومنها ما يشير إلى دور كامل من أدوار النظام الاجتماعي، ومنها على سبيل المثل كلمة **الفردة** من "**الفرضة**" التي تُفرض مع الضريبة، وكلمة "**الوسية**" لمن يعيش بلا عمل، تشبيهًا له بالماشية التي كانت ترعى حيث تشاء بلا أجر ولا ثمن؛ لأنها ملك صاحب الالتزام على الأرض الزراعية، وكلمة "**القراري**" وصفًا للفلاح المقيم، وتمييزًا له من الفلاح المنتقل، وقد توسطوا في هذا المصطلح حتى أطلقوا على صاحب الفن: القراري، وعلى الحرامي: القراري، يريدون به الأصيل في الصناعة، المتفرغ لها دون غيرها من الصناعات.

وهذا عدا الكلمات المستعارة من لغات البحر الأبيض المتوسط، كالإيطالية والفرنسية، وعدا الكلمات التركية إلى أيام العثمانيين.

أما أهم هذه البحوث على حسب أغراضها، فهو البحث الذي يصرح أصحابه بتغليب العامية على الفصحى أو الاكتفاء بالعامية في الكلام والكتابة.

وقد وجد من هؤلاء من يسوغ غرضه بما يسميه "تعميم اللغة الشعبية"، ومنهم من يعتمد فيه على السوابق التاريخية كما يراها، ويستشهد على ذلك بمصير اللغة اللاتينية، وتفرع الإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومانية عليها. أو يستشهد عليه بتطور اللهجات في اللغات الأوربية الحديثة، ويحسب أنها تتمشى إلى إلغاء اللغة الخاصة، وتغليب اللغة العامة أو العامية في جميع الأغراض.

وقد اتسمت هذه البحوث بسمة الاختلاف البعيد بين أطرافها فبينما تتقارب الآراء في البحوث السابقة، يتباعد أصحاب الآراء والمواقف العملية تباعدًا واسعًا عند القول بتغليب إحدى اللهجتين على الأخرى، وبخاصة تغليب العامية على الفصحى.

وعندنا أن الأسباب التي يستند إليها طلاب الاكتفاء بالعامية في الكلام والكتابة أوهن جدًّا من أن تسند تلك الدعوى الخطيرة أو تلك الدعوى الكبيرة.

فإن ثقافة العلوم والآداب لا تستغني عن لغة خاصة يلاحظ فيها طول الزمن وامتداد المكان وتعاقب الأجيال، واللهجة الشعبية بطبيعتها لهجة موقوتة متفرقة موكلة بمطالب المعيشة اليومية، لا تيسر للعالم أن يكتب بها علومه ومعارفه، وليس معقولاً أن يتعلم الشعب كل شيء في المدرسة إلا أداة الفهم والتفاهم، فلا تستحق عنده كلفة التعلم والاطلاع، ويبدو لنا أن التجربة العملية خير محك لهذه الدعوة. فمن استطاع أن يوحد بين الأساليب في كتب العلم ولهجة السوق والمعيشة اليومية، واستطاع مع ذلك أن يوجد المصطلحات التي يفهمها غير المتعلم على البداهة — فقد استطاع أن يحل هذه المشكلة على وجه قويم.

ولا وجه للاستشهاد في هذا الصدد باللاتينية واللغات المتفرعة عليها، كالإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومانية، بل هو من الشواهد التي تنقض ما يدعون إليه إذ ليست لغات الطليان والفرنسيين والإسبان وأبناء رومانيا هي اللهجات العامية التي

تقابلها اللاتينية الفصحى عند طبقة خاصة، فقد كانت لأمة اللاتين لهجة عامية غير اللغة التي كان ينظم بها جوفينال وفرجيل، ويكتب بها شيشرون وسنيكا، وهـذه اللغـات الإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومانية، إنما هي لغات مستقلة قد أصبحت أو كادت أن تصبح في حكم اللغات المتفرقة التي تفرعت على الآرية الجرمانية الأولى، أو علـى السامية في أقدم عهودها، وما هي إلا أن استقلت كل لغة في وطنها حتى وجدت فيها اللهجة الخاصة بالثقافة والأدب والعلم، وإلى جانبها لغة السوق والبيت، فلـم يكـن راسين وموليير وفولتير ودى فاليري يكتبون الفرنسية كمـا يتكلمونها في الأسـواق والبيوت، و لم تتوحد لغة الأدب والثقافة ولغة المعيشة اليومية في أمة من تلك الأمـم، وإذا كانت اللاتينية قد بقيت لها بقية إلى اليوم، فإنما بقيـت لـصلاحها الخـاص في التعبيرات العلمية والفنية، و لم تبق لأنها كانت لغة العامة أو كانت كالعاميـة في هـذه الأغراض على حد سواء.

ونحن إذا أردنا أن نميز بين العامية والفصحى العربية، لم نميز بينهما بأن العاميـة لغة الوضعاء والفقراء، وأن الفصحى لغة العلية والنبلاء، وإنما التمييز بينهما تمييز بـين الجاهل، وإن كان ذا مال وجاه، وبين المتعلم وإن لم يكن له من المال والجاه نـصيب، وقد سمعنا أمراء لا يحسنون من العربية ما يحسنه السوقة، وسمعنا فقراء يخطبون بالفصحى ويثيرون بها شعور الدهماء، فهو داء علاجه نشر التعليم، وليس بعلاج لـه أن نلغـي الفصحى، ثم نعود إلى إلغاء كل لهجة نشأت لها قواعد وضوابط تحتاج إلى التعلم بعـد بضعة أجيال.

وقد عرفنا هؤلاء الذين يحلون المشكلة في رأيهم بإلغاء الفـصحى، ولكننـا لا نعرف في الجانب الآخر أحدًا يحل المشكلة بمحو العامية أو إنكار صلاحها لأغراضـها، وإن من أغراضها فيما نرى أن تُستخدم في بعض الفنون الموقوتة أو المحلية، وإنه لا حرج من التمثيل بها على المسرح واللوحة البيضاء، حيث تعبر عن بعض الأحوال التي لا تبقى مع الزمن ولا تعم سائر الأقطار، ومن قال بغير ذلك لزمه أن يقول بتعديـد اللغـات

الثقافية بين الأقطار العربية من العراق إلى مراكش، وتعديد اللغات الثقافية بين رشـيد والإسكندرية ودمياط في الشمال، وبين أسيوط وقنا وأسوان في الجنـوب، إذ كـان الصعيدي لا يتكلم في معيشته اليومية كما يتكلم الرشيدي والإسكندري وأبناء الشمال على الإجمال.

إن البحوث في الفصحى والعامية متعددة الأغراض كما تقدم، وما من غـرض منها عرضة للخلاف البعيد- بل الخلاف الشديد – كقول القائلين بتغليـب العاميـة والاكتفاء بها في لغة الكلام والكتابة ولغة الثقافة ولغة البيت والسوق، فإذا كان أنصار الفصحى لا يبطلون العامية ولا يمنعون استخدامها فيما تصلح له من الأغراض المحليـة والوقتية، فقد زال الإشكال لمن يحرص على مطالب الثقافة الباقية، ولا يهمل المطالـب اليومية إلا أن يكون الإشكال الحقيقي مضمرًا لا تُعلن له أسـباب ولا غايـات، ولا يجترئ على الظهور في ضوء النهار، فلنعتصم منه إذن بضوء النهار.

التعقيب على البحث

* **فضيلة الرئيس النائب**: جاء في محاضرة الأستاذ العقاد كلمة (وسية) ، وهي كلمـة عربية مشتقة من (الأوس) وهو الإعطاء، فقد كانت الأطيان في الماضي تمـنح عطايـا للخاصة المقربين من أمراء هذا العهد وحكامه وقواده؛ ولذلك أطلقت هذه الكلمة على الضياع التي تُعطى لهؤلاء.

* **الأستاذ عباس العقاد**: شيوع هذه الكلمة بين العامة يدل على تاريخ اجتماعي، هو بالذات تاريخ الإقطاع.

*__الدكتور منصور فهمي__: يخيل إلى أن نفوسنا متفقة مع وجهات نظر الباحث، فالمسألة مسألة إقرار لما جاء في البحث، وما يقره المؤتمر بهيئته الموجودة يعتبر قرارًا نافذًا؛ لأنـه صدر من أعلى هيئات المجمع.

*__الدكتور أحمد زكي__: البحث جيد ووافٍ، ونحمد لصاحبه هذا الجهد الذي بذله فيه، وأرجو أن نقره إجمالاً دون تعرض لتفاصيله، فقد يكون من التفاصيل مـا يـستدعي دراسة وبحثًا.

*<u>**الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف**</u>: الفكرة أن الحملة على الفصحى أو تأييد العامية ليست فكرة حقيقية قومية، ولكنها فكرة العجز والجهل باستعمال الفصحى، وأكثر الحاملين على الفصحى هم الذين لا يحسنون الكتابة أو النطق بها، وأرى أن تكون نتيجة هذا البحث أن ينبه المؤتمر رجال وزارة التربية والتعليم والأزهر والهيئات المشتغلة بتدريس اللغة العربية إلى أن تنظر نظرة حيوية في تحسين تعليم هذه اللغة.

*<u>**الدكتور منصور فهمي**</u>: أرى ألا يمر هذا البحث دون اتخاذ قرار فيه من المؤتمر؛ إذ المسألة ليست مجرد إلقاء بحوث لا يتخذ المؤتمر فيها أي قرارات، فموضوع إحلال العامية محل الفصحى أمر خطير يجب ألا يسكت المجمع عنه، وعلى المؤتمر أن يتخذ قرارًا بتأييد الفصحى ونشرها بين الناس بكافة الوسائل، حتى نضع الأمر في نصابه، ونقطع الطريق على الذين يقولون بإحلال العامية محل الفصحى؛ فالمسألة ليست مجرد وجهة نظر تُلقى علينا، بل الأمر يتطلب إقرارًا لمبدأ من المبادئ الهامة التي أنشئ المجمع من أجلها ألا وهو المحافظة على اللغة العربية وسلامتها.

*<u>**الأستاذ عباس العقاد**</u>: ما حفزني على كتابة هذا الرأي ما زعمه دعاة العامية من أن أنصار الفصحى يريدون إلغاء اللغة العامية والقضاء عليها قضاء مبرمًا، ولكن الحقيقة أن التمسك بالفصحى ليس معناه إنكار ما للعامية من مكانة كأداة يتخاطب بها عامة الشعب، ونحن هنا نقر الواقع ولا ننكره، نحن نخدم الفصحى ونتمسك بها، وفي الوقت نفسه نقرر مكانة العامية بين الذين لا يقرءون ولا يكتبون، وبهذا ندحض حجج من يتهموننا بالتحيز، فلتطمئن نفوس هؤلاء.

*<u>**الأستاذ الشيخ محمود شلتوت**</u>: لا شك أن كل واحد منا يشعر بمكانة اللغة العربية الفصحى وبأهميتها، وبحاجة الأمة العربية في مختلف الدول العربية للاحتفاظ بها، غير أن الذين يقولون بتغليب العامية سواء أقلنا كما قال بعض الناس في القديم: إنها من وضع إلهي أم لم نقل بذلك، يريدون أن تكون أداة للتفاهم بين الناس والجماعات، وإذا قلنا بنشر الفصحى والتزامها، كان ذلك غير ممكن لعدم تساوي الطرفين المتحدث

والمتحدث إليه في فهم ما يتحدثان به من أساليب ومفردات مما يستدعيه الكلام بينهما، ولو أمكن للناس جميعًا أن يتعلموا الفصحى على اختلاف طبقاهم من زُرَّاع وصُنَّاع وعُمَّال وأصحاب حرف، حتى يستطيع الزارع في حقله، والصانع في مصنعه، والعامل في معمله أن يقرأ للأدباء والعلماء ما يكتبونه وما يؤلفونه، لكان هذا من أسمي ما يتمناه أنصار المحافظة على الفصحى ولانمحت العامية من الوجود.

ولكن هذا غير ممكن؛ إذ من المستحيل أن يتكلم الزارع في حقله العربية التي يتحدث بها الأستاذ العقاد، أو يفهم كتابًا ألفه الدكتور أحمد زكي، وتعليم الناس الفصحى أمر عسير يحتاج إلى زمن طويل.

إذن لابد أن تبقى الفصحى لطائفة خاصة وأن تبقى العامية لطائفة من الشعب لا يمكنها التكلم بالفصحى؛ إذ الشعب متفاوت الثقافة والتعليم ولا تزال نسبة كبيرة منه لا تقرأ ولا تكتب.

وإن انحيازنا إلى الطائفة المثقفة معناه الابتعاد عن معظم الشعب وإيجاد هوة عميقة بين الطائفتين: طائفة المثقفين وطائفة غير المثقفين.

فإذا أمكن إيجاد وسيلة للتفاهم مع المحافظة على الفصحى وعلى العامية أمكن الوصول إلى ما نرجوه من خير ووحدة وتضامن بين أفراد أمة واحدة.

*<u>**الدكتور إبراهيم مدكور**</u>: عرف الأستاذ العقاد في بحثه هذا كيف يوضح لنا المشكلة ويبين لنا أغراض اللغة وموقف العامية من الفصحى، وكم يسعدنا نحن المشتغلين بالفصحى أن نقرأ الكلام الذي قاله محاضرنا اليوم على حقيقته، فمقال الأستاذ العقاد يصحح كثيرًا من الأخطاء التي يتردى فيها كثير من الناس، فقد عرض الموضوع عرضًا علميًّا بحيث فصل نقط الخلاف، وبيَّن مركز العامية من الفصحى، ولم يحاول أن ينكر العامية بل قرر أن لها وظيفة غير وظيفة الفصحى، وأن لكل لغة من اللغات الحية في العالم ما يمكن أن يُسمَّى لغة المتعلمين ولغة أنصاف المتعلمين أو الجهلاء.

وطالما أن هناك متعلمين وغير متعلمين فإننا سنجد هذا التفاوت اللغوي، وهذا التفاوت سيزول بطبيعته عندما تزول الأمية من الأمة، فالخصومة إذن غير موجودة، وإن وُجدت فهي في أذهان الذين يتصورون المسائل في غير وضعها الصحيح.

والصورة التي سمعناها اليوم من الأستاذ العقاد يجب أن تُنشر وتُذاع بين الناس.

*<u>**الدكتور محمد كامل حسين:**</u> أرى أن الدعوة إلى العامية دعوة غير جدية لا سند لها ولا دليل يؤيدها، وأقترح أن يقر المؤتمر هذا الرأي.

*<u>**الدكتور عبد الوهاب عزام:**</u> أريد أن أقول كلمة موجزة في الفرق بين العربية والعامية، فالفرق ليس كبيرًا، وكثير من الكلمات العامية متفقة مع الفصحى، كما أن كثيرًا من الكلمات الفصيحة يتفق مع العامية، وليس المتكلم العامي منقطعًا عن الفصحى، والعامة منذ زمن طويل يسمعون القرآن وخطب الجمعة بالفصحى ولا يجدون صعوبة في الفهم واليوم يقرءون الصحف ويسمعون أحاديث الإذاعة وهي بالفصحى، فلا يجدون صعوبة في فهمها، والتقارب بين العامية والفصحى يزيد يومًا بعد يوم على مر الزمان.

وعلى ذلك أرى أن الأمر لا يحتاج إلى دفاع، وأن كلمة الأستاذ العقاد صحيحة وقوية وكافية.

*<u>**الدكتور أحمد زكي:**</u> أكرر ما قلته في شأن اتخاذ قرار من المؤتمر في الموضوع، فأرى أن يكون القرار: شكر المحاضر على هذا البحث القيم، دون الدخول في التفاصيل التي جاءت فيه؛ لأننا قد نختلف في التفاصيل، كما أن التفاصيل قد تحتاج لدراسة، ويجدر بالمؤتمر أن يتريث في حكمه عليها.

*<u>**الدكتور عبد الوهاب عزام:**</u> الأستاذ العقاد عرض نظريات وآراء مختلفة، وفي موافقتنا على البحث إقرار لكل ما جاء فيه.

*<u>**الأستاذ الشيخ محمود شلتوت:**</u> هذه المسألة تعرض علينا منذ زمن بعيد، وسمعت من يؤيد العامية من بيننا، بل ويقوم بحملة في الخارج على الفصحى، وأذكر أن فصلاً

طويلاً كتبه بعض الناس يقول فيه: إن بعض أعضاء المجمع يؤيدون الكتابة بالعامية، فلو اتخذنا قرارًا بعدم عرض هذا الموضوع على بساط البحث لكان أجدر بنا وأوفق.

*__الأستاذ محمد فريد أبو حديد:__ اقتراح الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فيه إنكار لما جاء في بحث الأستاذ العقاد، فقد قال إن البحث في العامية له أغراض ودوافع شتى، وإن لها مكانتها بين قوم لا يستطيعون التفاهم إلا بها.

*__الدكتور أحمد زكي:__ كلام الأستاذ الشيخ محمود شلتوت في بعضه إبهام، فقد قال إن في المجمع مجندين للعامية، يريدون أن تأكل العامية الفصحى وهذا صحيح إلى حد ما، فالتحفظ على اللغة الفصحى قد يبلغ مائة في المائة من المحافظين عليها، بحيث لا يريدون أن يقبلوا أية كلمة من العامية لسبب واحد هو أن السوقة يقولونها، فكلمة (شبشب) لا يقبلونها؛ لأنها جرت على ألسنة السوقة والعامة، رغم أنه لا يوجد لها مقابل في الفصحى.

وأنا من أنصار إدخال كل الألفاظ العامية الشائعة التي لا مثيل لها في معاجم اللغة ضمن الفصحى، ولا أذهب مذهب المحافظين الذين يقولون بعامية كل كلمة لا توجد في القاموس.

*__فضيلة الرئيس النائب:__ المسألة سهلة، فمن الممكن أن نستعمل ألفاظًا خاصة إذا كان لابد من استعمالها، سواء أكانت عامية أم فصيحة، وأقترح الآن أن نشكر الأستاذ العقاد على ما قال، وأن نوافق على ما جاء في بحثه.

*__الدكتور أحمد زكي:__ أرى أن نقول إن البحث بحث موفق.

*__الأستاذ الشيخ محمود شلتوت:__ ما هي النتيجة العملية التي تعود علينا وعلى الأمة من هذا البحث الموفق؟

أرى أن نكون عمليين فنغلق باب العامية على مصراعيه، وألا نتعرض للبحث في التفاصيل بين الفصحى والعامية، أما المفردات فمن الممكن المقارنة بينها وبحثها.

*__فضيلة الرئيس النائب:__ بحث الأستاذ العقاد لا شك في قيمته وأفضليته فهو في المقام الأول، وإذا كان لأحد مقترح بشأنه فعليه أن يقدمه للمجمع والمجمع يبحثه.

*__الدكتور منصور فهمي:__ عندما أثير هذا البحث تذكرت أنه أثيرت مسائل وبحوث، وكان كل بحث وتفصيل مجرد لغو وإعادة، ولأضرب مثلاً على ما أقول:

عندما أثير موضوع الكتابة العربية بالحروف اللاتينية، فتحنا الباب على مصراعيه لتيسير الكتابة العربية، فورد المجمع ما يقرب من ستين ومائتي بحث، وكلها تلف وتدور حول الكتابة الحالية، واللجنة التي ألفت لبحث هذه المقترحات لم تر فيها ما يسهل الكتابة العربية، ورفضت كل البحوث.

وهكذا قضينا وقتًا طويلاً فيما لا فائدة منه، والآن ستنتهي أبحاثنا في المفاضلة بين الفصحى والعامية إلى الفصحى فهي أجمع اللغات وأفضلها.

والأستاذ العقاد ومن ينحون نحوه لن يغيروا من الواقع شيئًا، فعندنا مستويات: منها مستوى فصيح لابد من الصعود إليه، وذلك هو المستوى القدسي العظيم، وهو القرآن الكريم. وعندنا مستوى ينزل إلى مستوى الأدباء أكابرهم وأصاغرهم، ومستوى آخر هو مستوى عامة الشعب. والمبدأ الأساسي الذي نسير عليه في مجمعنا هذا هو المحافظة على مستوى اللغة العربية الفصيحة والعمل على رقيها.

والقول بالكتابة العامية ليس جديدًا، فقد كتبت صحف مقالات بالعامية لم يكن لها نصيب من الذيوع أو الانتشار، مما اضطر أصحابها إلى أن يعدلوا عن الكتابة بالعامية والرجوع إلى الفصحى.

وأرى ألا ننظر في مثل هذا الموضوع مرة أخرى، وأقترح الآن شكر السيد المحاضر على محاضرته القيمة الموفقة وإقرار ما جاء فيها (فووفق على ذلك).

*   *   *

بين الفصحى والعامية(*)

للأستاذ علي النجدي ناصف

(عضو المجمع)

العربية الفصحى هي هذه اللغة التي نـــزل بها القـــرآن، ورُوي بهـــا الحـــديث الشريف، ثم هي أيضًا اللغة التي تأخذ على نهجها، وتستوفي خصائصها من كلام الناس: منثوره والمنظوم.

أما العامية فهي الفصحى التي يصيبها الدخل والاختلال في أساليبها، ويعبـــث المسخ والتحريف في مفرداتها، يظاهرها في التعبير أخلاط من الدخيل، فإذا هي بها كما يقول حافظ إبراهيم - رحمه الله -:

سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى   لعاب الأفاعي في مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعـــة   مشكَّـــلة الألـــوان مختلفـــات

فالعامية شعبة شائعة من الفصحى، لا تعلم على التحقيق متى انشعبت منها ولا كيف سايرتها على تعاقب العصور. ومحاولة القول في هذا ضرب من التظنن والـــرجم بالغيب.

فلندعها جانبًا لوقتها المقدور، ومقتضياتها الباعثة على الخوض فيهـــا، ولنقـــصر حديثنا على مسيرتهما، وتقلب الأحوال بهما منذ عهد الاحتلال البريطاني، وما تلاه إلى اليوم، فهو منا غير بعيد، وما تزال أنباؤه بيننا موصولة الأسباب، وهو أحق أن يكون لنا منه عبرة، وأن يكون للفصحى منه خير.

لقد كان احتلال بريطانيا لمصر محنة شديدة، بُدلت فيها الحـــال غـــير الحـــال، فتجهمت الحياة، وران عليها الركود، وغشيتها غاشية من الذهول والاكتئاب، لكن الله تعالى لم يتخل عن كنانته، ولا أسلمها للمرزئة طويلاً، فأطلع من أبنائها هداة مصلحين، يبصرونها الطريق، ويدعونها إلى التي هي خير، فحيي الأمل، وانتعشت الحياة.

(*) محاضر جلسات مؤتمر الدورة الثالثة والأربعين، الجلسة الثالثة من المؤتمر، في ٢٣ من فبراير سنة ١٩٧٧م.

ولئن كان الاحتلال ــ كما قلت ــ شرًّا وبلاء،لقد كسبت الفصحى منه خيرًا. وقديمًا قالت العرب: رب ضارة نافعة. فقد ضاعف حب الناس لها، واستمساكهم بها، فلم يكن يغيب عنهم أن الاحتلال لن يسكت عنها، ويدعها تناهض سياسته، وتفسد عليه أمره؛ فهو يعلم أن الفصحى هي لغة العرب الأصيلة، وداعيتهم المطاعة إلى التفاهم والألفة، والآخذة بهم إلى وحدة تضم شتاتهم، وتشد أقطارهم بعضها إلى بعض، مهما بعدت الدار وشط المزار. فأجمعوا من حيث لا يعلمون على مناصرة الفصحى والحرص عليها، كما تجمع الجماعات عفوًا عندما ينوب من الشر، ويتهدد من الخطب، فكان مثل الفصحى فيما أفادت من الاحتلال، كمثل الشاعر فيما أفاد من عدوِّه، إذ يقول:

عداي لهم فضل علي ومنَّة　　فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

هم عرَّفوني زلتي فاجتنبتها　　وهم نافسوني فارتقيت المعاليا

ثم برح الخفاء، وأصبح واقعًا ما كان متوقعًا، فتقررت الإنجليزية لغة للتعليم سنة ١٨٨٩م واجترأ "ويلكوكس"، مهندس الري في مصر، فأخذ يدعو إلى العامية، ويصد عن الفصحى مرة في محاضرة عامة، وتباعًا في مجلة له، إذ كان يزين للعلماء المصريين أن يكتبوا بالعامية ما يشاءون من بحوث، ثم يرسلوها إليه لينشرها في المجلة، ويزعم لهم أن العامية لا الفصحى هي سبيلهم إلى التقدم في العلوم.

ولقد استجاب له بعضهم، وجعلوا يكتبون بحوثًا، ولكن بالفصحى، ثم يرسلونها إليه، وأنشأ بعضهم مجلة، وجعلوا ينشرون فيها بحوثهم بالفصحى أيضًا، فحبطت دعوة ويلكوكس، وكسدت مجلته، وأدركها البوار، ولم يبق منها إلا ذكرى بغيضة، وحديث ملعن بين الأحاديث[1].

ثم جاء "مصطفى كامل"، أحوج ما تكون مصر إليه، وأصلح ما يكون الوقت لاستقباله وتقبل دعوته. وكان - رحمه الله - فتى ألمعيًّا، ووطنيًّا مقدامًا، يتوهج حماسة ويتنزى حمية. وكان خطيبًا بليغًا، وكاتبًا مبينًا، استطاع بجده وبيانه أن يقوي الأمل

---

(١) لغتنا والحياة: ١٠١ – ١٠٧.

ويشحذ العزائم، خطابة في المحافل وكتابة في الصحف، واستنفارًا لأحـــرار العـــالم أن يظاهروا مصر على استنقاذ حقوقها من براثن الاحتلال.

ورأى الناس فيه زعيمهم الملهم، وقلبهم الخافق، ولسانهم الناطق، فـــآمنوا بـــه واتبعوه، وأصفوه حب الوفاء والرجاء. ولم تكن خطبه ولا كتاباته دروسًا في السياسة والوطنية فحسب، ولكنها كانت أيضًا دعوات إصلاح ونهوض، فقد دعا مع السياسة إلى العمل على نشر التعليم، والحفاظ على العربية[1]، فأنشئت بعض المدارس الأهليـــة، كما أنشئت الجامعة المصرية الأولى بالتبرع والهبات.

والحق أن حياة هذا البطل العظيم كانت على قصرها سلسلة من مواسم الوطنية والثقافية جميعًا، أصاب الناس منها في أنفسهم ولغتهم خيرًا كثيرًا.

وفي العشرة الثانية من هذا القرن، نشبت معركة أدبية حاميـــة بـــين المجـــددين والسلفيين من الأدباء والشعراء، كل يذود عن مذهبه ويحتج له، ويكر علـــى مـــذهب خصمه بالنقد والتفنيد، فحفلت الصحف والمجلات بألوان شتى من المقالات، وانتـــصر لهؤلاء وأولئك تلاميذ ومريدون فاشتدت المعركة، واتسع ميدانها، واستفاضت أنباؤها، حتى كانت مدار أحاديث، ومثار جدل بين جموع من الشبان والشيوخ، فأفادت الثقافة واللغة من هذه المعركة كثيرًا. ثم جاء خطيب العصر، وأمير البيان فيه غير مـــزاحم ولا مدفوع، جاء "سعد زغلول" فسحر الناس ببيانه، وملك قلوبهم بإخلاصه، وقوة تأثيره، وجهارة سمته، يظاهره صفوة من تلاميذه وحوارييه من أهل اللسن، وأصحاب المزيـــة فيه. وكان لكل براعته البادية، وخصائصه المتميزة في لحن القول والتبريز فيه، وكـــان للناس مما يُلقون من خطب، وينشرون من مقالات، مثل ما للطاعم من مائدة تحفل بما لذ وطاب من ألوان الطعام.

واستبق طلاب المدارس العليا، يجدون في ارتياد الفصحى والنهل مـــن مناهلـــها الأصيلة اقتداء بهم، وتساميًا إلى مثل منازلهم، فنبغت طائفة منهم نبوغًا مبكرًا حتى رأينا

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية: ١٣٩ — ١٥٦.

فيهم الخطيب المفوه، يتدفق في خطبته تدفق السيل في منحدره. لا يتوقف، ولا يداخل، كأنه يتلو من غيب محفوظ، أو يقرأ من كتاب مرقوم.

ثم كانت القضايا السياسية الكبرى التي خلفتها الثورة، يتولى إقامة دعواها والفصل فيها جمع من أساطين القانون، ويحامي عن متهميها جمع آخر من شيوخ المحامين، فيستبق الناس إليها ويتزاحمون على شهودها، والاستمتاع بما يدور فيها من حوار ويحتدم من جدال، إثباتًا ونفيًا، وتحليلاً وتفسيرًا، كل ذلك بلسان عربي مبين، ثم تنشره الصحف بلغته، ولا يفوتها أن تغير ما قد يسبق إليه اللسان من العامية بما يجعله فصيحًا نقيًّا، فيستمتع به قراءة من لم يتح له الاستمتاع به سماعًا.

ثم تعلن أسباب الحكم أو حيثياته، فإذا الحقيقة من خلالها ناصعة بينة، لا يتمالك الناس حيالها أن يتساءلوا: كيف استقام للقضاة أن يخلصوا هكذا إلى الحقيقة، وينفوا الشبه عنها، وقد ضرب بينهم وبينها بحجاب من الحجج المتدافعة، والتغيرات المتخالفة؟ ثم كيف تأتي لهم أن يجلوها على الصورة في موكب أخاذ، من روعة البيان، ورصانة الأسلوب، وإحكام الأداء واستقامة المنطق؟ لكنها البصيرة الثاقبة، والملكة المدربة، ثم التمكن من اللغة، والاقتدار على تطويعها، لتصوير الخواطر الدقيقة والأفكار العميقة.

ونشطت الأحزاب، واشتد بينها التنافس والخلاف. وكان لكلٍّ صحيفة أو أكثر تدعو إليه، وتدافع عن سياسته، واشتد إقبال الناس على الصحف والمجلات، يطلعون طِلْع الأحزاب فيها، ويتنسمون أنباءها عصبية أو فضولاً، أو التماسًا لخبايا الأسرار تفكهًا برواياتها، ومباهاة بعلم مالا يعلمه إلا العالمون ببواطن الأمور.

وما أكثر ما كانت تقام الحفلات القومية، أو الحفلات الشخصية للتكريم أو التأبين، فيستبق إليها الناس، وطلاب المدارس خاصة، يغريهم بها تذوقهم للأدب، ورغبتهم في الاستزادة منه. وهناك يستمتع الجمع الحاشد بخطب الخطباء وقصائد الشعراء، ثم ينصرفون على موعدة وبالعودة إليها من غد، منشورة في الصحف، ليستمتعوا بقراءتها في روية وأناة، حتى إذا قضوا منها وطرًا كان منها مدار أحاديث

وتعليقات، ومثار جدل وخلاف، وليس يسع المرء إذ يذكر هذه الحفلات إلا أن يتذكر أسواق العرب في الأيام الخالية.

وكان يواكب هذا النشاط الثقافي الأدبي روافد شتى من نشاط آخر، يضطلع به جمع من كفاة الكتاب وكبار القصاص، وفحول الشعراء. وهكذا كانت هذه الحقبة طالع يمن وازدهار للفصحى، وطالع نحس وذبول للعامية، فلم يكن يتعاطى أصحابها القول بها إلا قليلاً، وعلى استحياء.

على أن الفصحى لم تهنأ بهذه الحقبة صفوًا بلا كدر، فقد ابتليت بعدوٍّ لها من أهلها، لم يكفه نكاية لها، وحقدًا عليها أن يزري بها، ويحض على التخلص منها حتى جعلها تقتل وتجن، فعنده أن كلمات الدم والثأر والعرض — تقتل كل عام نحو ثلثمائة من أهل الصعيد، وتقتل أقل من ذلك من أهل الوجه البحري؛ لأنهم لا يستكثرون من ذكرها ما يستكثر أهل الصعيد. وكلمات اليأس، والضرة، والطلاق تجن نساء ما كن لولاها ليصيبهن الجنون[1].

ثم كان أن تتابعت على فترات دعوات إلى التيسير على المتعلمين، استجابة لداعية التطور، وأخذًا بأسباب التجديد، فكانت دعوة إلى تيسير النحو، ودعوة إلى تيسير الهجاء أو دعوة إلى تيسير النجاح في الامتحان، حتى خشيت أن تقوم دعوة أخيرة إلى تيسير التيسير.

و لم يقدَّر لهذه التيسيرات أو أكثرها أن تحقق ثمارها، وأن تظفر بالإجماع على غنائها فيما أريدت له، وما يزال مكان القول فيها ذا سعة للمريدين. وما بالدعوة إلى التجديد من مضرة، ولا أصحابها بمتكلفين منكرًا من القول، غير أنه كان يصحب كل دعوة من هذه الدعوات حملة مسرفة من التنديد والإنكار للأمر الذي يراد التيسير فيه، فكان من تواليها على هذا النحو أن وقر في نفوس المتعلمين وأوليائهم معهم أن العربية لغة عسيرة بعيدة المطلب، لا يطيقها ويصبر عليها إلا القليل.

---

(١) البلاغة العصرية واللغة العربية: ٢٧، ٣٦، ٣٧، نقلاً عن كتاب "لغتنا والحياة": ١١٥، ١١٦.

وهيهات مع هذا الفهم أن يرغب فيها، ويصل أسبابه إليها إلا من يكره عليها، ولا يجد حيلة للفكاك منها، وترددت أصداء لهذا الفهم في بعض الرسائل الجامعية ضيقًا بالنحو، وسخطًا على النحاة بلا تمييز، لا عن دراسة منصفة أو رأي رشيد، ولكن عن غفلة ومجاراة بغير وعي.

ثم وثبت مصر وثبتها الكبرى لنشر التعليم والمساواة فيه، ولكنها لم تكن قد أعدت لهذا الحدث الكبير عدته الكافية، أعجلتها الحماسة له والإيمان به، فمضت إليه لا تلوي على شيء، وأقبل التلاميذ على المدارس من كل صوب، حتى ضاقت بهم، فاضطرب الأمر وأطلت المشكلات من كل جانب، وتعذر على المعلمين أن يؤدوا واجبهم كما يجب أن يؤدوه، وزاد الأمر حرجًا أن أكثر المعلمين أو كثيرًا منهم لم يُعدّوا فنيًا لممارسة التعليم، فاضطلعوا به غرباء فيه أو كالغرباء.

وليس من همي هنا أن أوازن بين الكثير الفج، والقليل اليانع في سوق التعليم: أيهما أرفع قيمة وأكثر غناء؟ والذي لا خلاف عليه أن هذه المبادرة الخيرة لو أوتيت سؤلها من الوسائل والأسباب، لكانت أكثر نفعًا وأزكى ثمرًا.

وجاءت ثورة الثالث والعشرين من يوليو، فعملت على إصلاح أحوال العمال والفلاحين بما يعوضهم مما كانوا يعانون قبلاً من الغبن والهوان.

وترخص زعماؤها في بعض أحاديثهم إلى الشعب فجعلوها بالعامية، ويظهر أن هذا الترخص لم يفهم على وجهه، فظن أنصار العامية أنه انتصار لها، ورد لاعتبارها، فنشطوا يدعون لها، ويتواصون أن تكون هي لغة القصة والمسرحية؛ لأنها لغة الشعب، وبها يكون تثقيفه والنهوض به. ولا أدري كيف يكون التثقيف والنهوض بالعامية، وحظها منهما ليس بذاك. والاقتصار عليها يعد اقتصارًا على واقع لا غناء فيه، ولا تطور معه:

فيا له من عمل صالح　　　يرفعه الله إلى أسفل

وقد استجيب للعامية، وخلا لها وجه الطريق، فمضت ممثلة في الأدب الشعبي تفتح المعاقل، وتحتل فيها مواقع ما كان يخطر ببال أنصارها أن يكون لها فيها ذكر؛

فللأدب الشعبي اليوم كرسي في كلية الآداب، وله في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب لجنة ترعاه وتشجع عليه، وفي وزارة الثقافة إدارة تدبر أمره، وترصد الجوائز السنية للتسابق فيه. ودخل الإذاعة على الرحب والسعة، وجامله العاملون فيها، فسموا الزجل شعرًا، والزجالين شعراء.

وتشارك الصحف في نشر العامية، بعد ما لبثت حينًا ما تستنكف أن تنشر بها أحاديث أو خطبًا. والصحف بصنيعها هذا تشق على قرائها، من حيث تظن أنها تيسر لهم، وتسيءُ إلى نفسها من حيث لا تعلم؛ فقراءة العامية سهلة في الأمور اليسيرة؛ لأنها تنطوي على حقائق متداولة، فتسبق ألفاظها إلى القارئ استباقًا، أما الأمور الكبيرة فحقائقها كلها أو أكثرها مستمدة من خزائن أصحابها، فتحتاج في قراءتها إلى فضل إمعانٍ وأناة، ولا يؤمن حينئذ أن يضيق القارئ بها، ولا يستطيع صبرًا عليها.

إن مشكلة الفصحى ليست مشكلة خاصة ولكنها — فيما أعتقد — مشكلة العرب جميعًا، أعتقد أن ما قلته عنها هنا — يمكن إلى حد ما أن يقال عنها في البلاد العربية الأخرى. وقد يشهد لذلك ما نشر عن مؤتمر وزراء الثقافة الذي عقد في الأردن في ديسمبر الماضي، وحضره عشرون وزيرًا، واثنان وعشرون وفدًا ثقافيًّا. فقد نُشر أنه قال عن اللغة العربية: إنها بدأت في التدهور. نعم قال: التدهور، لا يتبدل لفظًا غيره، ولا يستثنى من حكمه هذا قطرًا. وهو يرجع ذلك إلى إعراض الشبان عن القراءة من جهة، وإلى حال التعليم من جهة أخرى.

إن المواقع التي يرجى أن يكون فيها للفصحى خير وصلاح، هي: معاهد التعليم، ووسائل الإعلام، والكتاب.

ومعاهد التعليم مدارس وكليات: فأما المدارس فحق الفصحى على أصحاب أمرها أن يجعلوا من العناية بها ميزانًا من موازين الحكم والتقدير. وحق الفصحى على المعلمين، مهما كان تخصصهم العلمي أن يجعلوها وحدها لغة التعليم، يلتزمونها ويعينون تلاميذهم على التعبير بها، ويشعرونهم بقدسيتها وجلال شأنها.

وأما الجامعات فحق الفصحى عليها أن يتوافق أساتيذها لمؤتمر جامع يكون مدار البحث فيه: كيف تصير الفصحى لغة العلم في يومها الحاضر، كما كانت لغته في أمسها الدابر؟ وكيف يمكن تذليل العقبات التي قد تعترض دون ذلك؟ إنها أمنية قومية غالية، والوسيلة إليها لا تمتنع على الجهد المخلص، والعزيمة الصادقة والتعاون الوثيق.

ووسائل الإعلام صحف، وإذاعة، ومسرح، وسينما: وحق الفصحى على الصحف أن تعود إلى سابق عهدها، فلا تنشر بالعامية شيئًا، ولا تدع للحن إلى لغتها سبيلاً.

أما الإذاعة فيلاحظ أن ليس للعربية فيها سياسة مقررة، وإنما أمرها للمذيعين والمذيعات، والمتحدثين فيها والمتحدثات، يتصرفون فيها على ما يشاءون، فمن عامية زرية، إلى أخرى بين بين، ومن قراءة تنقل المكتوب بالفصحى، إلى خليط منفر من الفصحى والعامية إلى أخرى تبقي لغة المكتوب على حالها، لكنها لا تقيم وزنًا لصحة الضبط، أو تهمل الضبط جملة.

فحق الفصحى على الإذاعة إذًا أن تضع لها سياسة ملتزمة تصونها من اللحن والعوج والتحريف، فلا يكون حديث إلا مقولاً بالفصحى، ولا تُوكل قراءة المكتوب أيًّاما كان نوعه إلا إلى الذين مرنوا على القراءة المجودة من المذيعين والمذيعات.

وأما المسرح والسينما فحق الفصحى على كتابهما، والعاملين فيهما أن يصطنعوا لهما عربية ميسرة، لا تعلو على العامية كثيرًا، إلا ما يعد للفكاهة والإضحاك، فالعامية أولى به، وأصلح له. وليطمئن الذين يشفقون على العامة، ويظنون أنهم لا يسيغون الفصحى ولا يرتضونها، وليكن لهم في التجار أسوة، فهم أفهم للجماهير وأحرص على مرضاتهم، ثم هم مع ذلك يجعلون إعلاناتهم بالفصحى قراءة، لا يعدلون عنها إلا نادرًا.

وللكتاب عمله المأثور في التثقيف، وإنارة العقول، فمن حق السواد أن تعد له طبعات شعبية لطائفة مختارة من كتب الأدب والثقافة العامة، وييسر له الحصول على ما يشاء منها واقتناؤه.

وبعد، فلست أخشى على العربية الضياع أو الاندثار، لا في حاضر ولا قابـــل؛ لأنها اللغة التي اصطفاها الله لكتابه ورسالة نبيه، فالقرآن موئلها الذي تلوذ به، وقطبها الذي تدور حوله، وتنجذب إليه. وقد كفل الله له الحفظ والخلود؛ إذ يقول:

﴿ إنا نحن نـــزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

صدق الله العظيم

* * *

تقريب العامية من الفصحى(*)

للدكتور حسين علي محفوظ
(عضو المجمع المراسل)

عناصر البحث:

* سعة اللغة العربية وغناها بالألفاظ والمصطلحات.
* دور اللغة العربية في تكوين اللغات الشرقية وإمداد اللغات الغربية.
* دور العربية في حفظ تراث الإنسان.
* الفصحى رابطة العرب.
* ضرورة نشر الفصحى، والمحافظة على العربية.
* تقريب العامية من الفصحى.
* نظرة في العامية العراقية.
* اللهجة العراقية عصارة تاريخ الإنسان في العراق.
* الألفاظ الجاهلية في العامية العراقية.
* أصول الألفاظ والتعابير العراقية في التراث.
* الألفاظ التركية في اللهجة العراقية.
* الألفاظ الفارسية في اللهجة العراقية.
* الألفاظ الإنكليزية في اللهجة العراقية.
* الخلاصة.
* اقتراح جمع الكلمات الأجنبية المستعملة في اللهجات العربية، وتوحيد ما يقابلها من الفصحى.
* اقتراح نشر الكلمات العربية، واستعمالها بدلاً من الدخيل.

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين، الجلسة الثالثة للمؤتمر، يوم الأربعاء١٥ من مارس سنة ١٩٧٨م، ونُشر بمجلة المجمع، ؛بالعدد الحادي والأربعين، ص ٩.

* تلخيص قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية.

* اقتراح الدعوة إلى تطبيق القانون في البلاد العربية.

تصـــــدير

العربية لغة قديمة واسعة غنية بالألفاظ والمصطلحات في كل أبــواب المعــارف والعلوم والفنون، وفي كل شؤون الحياة، وفي جميع آفاق التفكير والتعبير. وقد أعطــت الأمم الشرقية ما تحتاج إليه من الكلمات والمفردات وأساليب البيان في الدنيا والــدين، وأسهمت في تكوين اللغات الشرقية، ووهبت لها (الخط العربي)، وما زالــت تمــدها بالألفاظ كما أمدت اللغات الأوربية والإفريقية بالعديد من كلمات الحضارة والعلم.

ولقد حفظ هذا اللسان المبين تراث العرب في العلم والأدب والفلسفة والصناعة والفن، وحفظ مواريث الإنسان وما خلف من نتاج وحضارة وفكر في كتب وأسفار ودفاتر بلغت الملايين تعتز بها دور الكتب والخزائن العامة والخاصة في المشرق والمغرب.

هذا وليس لنا – إذا فرقتنا اللهجات – إلا "الفصحى" رابطة قوية محكمة متينة أمينــة. فلابد من لزومها، والمحافظة عليها، وتوريثها، والسعي لتقريب العامية منها.

ثم لابد لنا من اجتناب اللحن، وتقويم اللسان والقلم، ورعاية الفصاحة، وتوخي السلاسة والسلامة والسهولة والوضوح في الكلام والبيان، والتأليف والتدوين، والترجمة والنقل والتعريب، والكتابة والإنشاء والتعبير، والتزام القواعد وأساليبها البيانية الأصيلة، وطرائقها البليغة، وسننها المأثورة.

نظرة في العامية العراقية

للإنسان تاريخ طويل في هذا الجزء من الأرض. وقد مرت به من طبقات الأمــم، وأجناس الشعوب، وضروب الناس ألفاف. وإذا كانت جنة عدن في العراق، فقد أهــبط منه الإنسان الأول. وإذا آمنا بأساطير التوراة فهنالك تبلبلت الألسن، وافترقت اللغــات، واختلفت اللهجات.

كان العراق - على كل حال - عش السومريين، ووطن الأكديين، ومولد البابليين، ومنشأ الآشوريين، وقد خيم به الفرس، واليونانيون، وقطنه العرب، وتبوأته قبائل الجزيرة، ومازال عقبها يجزع واديه، ويرتبع فيه، ويمتاز منه، ويزدار أقطار مفازته.

وبلغته تجارة الصين في المشرق، وأناخ به رواد الأندلس في المغرب. وجاءته الوفود من الروم. وزارته الرسل من الهند. فالتقى فيه المشرقان والمغربان، وربط الشمال بالجنوب ومشى أهله في مناكب الأرض فبلغوا الجروم، ووصلوا إلى الصرود. وقد أوجفوا خيلهم على الصين. وأقبلوا يزفّون إلى بلاد الإفرنج ومدوا أعينهم إلى ما وراء المحيط وخضع هذا البلد الطيب لسلطان الترك. وقد كان أديمه معترك فوارسهم ومحط ركابهم حقبًا ورثتها أوربا بضع سنين ... دول وأمم، وأيام وأقوام، وملل ونحل، ومذاهب وآراء، وعادات ولغات، وديانات ولهجات.

التقت في العراق الأمم، وتعارفت في صعيده الشعوب، وتشابكت في وشائجه الدماء، ومُزجت في مربعه الطبائع، وتزاوجت في رحبه العقول، واتصلت في ساحاته الآراء، وتواصلت في مدائنه الألسنة، وترك كل أولئك آثارًا مازالت ملامحها في الأخلاق والعادات، واللهجات، والحياة، والطعام، واللباس، والفراش، والرقص، والغناء، وأسلوب المحاورة، والكلام، ولحن القول، والسنن.

تلك - إذن - قصة الفلولكلور العراقي، وخلاصة تاريخ اللهجة العراقية، وقصة الأدب العامي. وهي زبدة حقب طوال، ونتيجة عصور مديدة، وعصارة دهور متوغلة في الزمان. فهي من مواريث تداول الحضارات، واختلاط العالم الآدمي.

وقد طورها تأثير العصر العباسي، وصبغها اتصال العراق المستمر بالجزيرة، وصلته الدائمة بجاراته في الشمال والمشرق، وتحككه المتواصل بأوربا والغرب.

هذا - وقد جاءت التجارة بالكثير من الأشياء والأسماء. ودخل مع الحضارة العديد من الآلات والأدوات. فاللهجة في العراق موصولة الحديث بالقديم، متصلة الحاضر بالغابر. فكل قول ذكرى عهد، وكل تعبير سمة فترة، وكل كلمة صورة زمان.

ففي كلامنا ألفاظ استعملها في الجاهلية أبو دواد الإيادي، وأبو المثلم الخناعي، والأعشى، والأعلم الهذلي، وامرؤ القيس، وأوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم، وتميم ابن أبي بن مقبل، والحارث بن حلزة اليشكري، والحطيئة، ودريد بن الصمة، وزهير بن أبي سلمى، وضمرة بن ضمرة النهشلي، وطرفة بن العبد، وطفيل الغنوي، وعبيد بن الأبرص، وعدي بن زيد، ولبيد، والمثقب، والنابغة.. فقد جاءت (**بتك**) في شعر زهير، و(**تمطق**) في شعر الأعشى، و(**الجلال**) في شعر أبي دؤاد، و(**حدرة بدرة**) في شعر امرئ القيس، و(**خيم**) في شعر لبيد، و(**الدحداح**) في شعر تميم، و(**الشريعة**) في شعر عدى بن زيد، و(**العكة**) في شعر أبي المثلم، و(**الكلة**) في شعر أوس، و(**الملة**) في شعر الحطيئة، و(**النية**) في شعر بشر، و(**الهميان**) في شعر الحارث بن حلزة.

واستعمل آباؤنا (**الأسباب**) بمعنى المتاع، و(**التسقيم**) في **الأعمال**، و(**الخشل**) بمعنى **الحلي**، و (**الخط**) بمعنى **الرسالة**، و (**الدعوة**) بمعنى **الطعام**، و (**الرجل**) بمعنى **الزوج**، و(**الشدة**) بمعنى **الحزمة**، و (**الشربة**) بمعنى **الجرة**، و (**الصانع**) بمعنى **التلميذ والمتعلم والخادم**، و(**طيب**) بمعنى **معافًى وحيّ**، و(**العالم**) بمعنى **الناس**، و(**نفر**) بمعنى **الفرد والجندي**، و(**الهور**) بمعنى **البحيرة في** أيام العباسيين، و(**المغول**) كما نستعملها نحن الآن.

وإذا قال العراقي - اليوم -: (**شوية**) أي **قليل**. فقد قال العامري من قبل:

معاهد لم يبق صرف الزما ... ن منها ومنى إلا شويا

وإذا قال: (**بيَّض الله وجهك**)، فقد قالت الريباس – أم كلثوم – للشريف أبي طالب الأنصاري: "أصلحه – بيَّض الله وجهك –".

وإذا قال: (**على عيني وراسي**)، فقد جاءت في شعر تميم بن معدّ:

قالت: إذا كنت من حبى بكيت دمًا ... فسقنيها على العينين والراس

وإذا استعمل (**الظروف**) بمعنى **الزقاق**، فقد وردت في شعر أحمد بن غانم:

أرى خمـرًا تشاكلها دموعي ... كأن ظروفها كانت شؤوني

وإذا قال: (**شبح بيده**)، فقد استعملها محمد بن عصام الأعمى الربعي، قال:

وقل لابن كيسان وقل لابن مطرف: خليكما بين الحنايا مشبّح

وإذا استعمل **(مرّ)** بمعنى **حدث، ووقع، وجرى**، فقد ورد في كلمة الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في قصة أبي زبيد الطائي، في وصف الأسد، إذ قال له: "هات ما مرَّ على رأسك منه".

وإذا استعمل **(مقموع)** ، فقد ورد في نهج البلاغة، من كلام الإمام عليٍّ - عليه السلام -: "خائف مقموع".

وإذا جمع حديد على **(حدايد)**، فقد سبقه أبو الطيب:

تهاب سيوف الهند وهي حدايد فكيف إذا كانت نـزارية عربا

وإذا قال: **(عين التي تصيبك تعمى)**، فقد جرت على لسان المتنبي:

خوفًا من العين أن تصاب بها أصاب عينًا بها تصاب عمى

وإذا قال: **(صار قفة)**، فقد قالت العرب: (كبر حتى صار كأنه قفة) .

وإذا قال - عند التوديع -: **(في داعة الله)**، و **(في أمان الله وحفظه)** ، فقد قال الشاعر القديم:

لم أقل للشباب في دعة الله وفى حفظه غداة تولّى

زائر زارني أقام قليلاً سوَّد الصحف بالذنوب وولّى

وإذا قال: **(حلف بالطلاق)**، ففي ديوان المتنبي:

لو تنكرت في المكرّ لقومٍ حلفوا – أنك ابنه – بالطلاق

وإذا قال: **(قوَّلتني ما لم أقل)**، أي نسبته إليّ، ففي شعر المتنبي أيضًا:

فما العائدون وما أثلوا وما الحاسدون وما قوّلوا

وإذا قال: **(شفت عيب)**، أي: **رأيت عيبًا**، فقد كتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر: "فرأيت عيبًا أن أفديك بنفسٍ لابد لها من فناء".

وإذا قال: **(حسب حسابه)**، ففي المقامة الأسدية:

فاحسب حسابك والتمس كيما تنال الملتمس

وإذا قال: (**فرد عين**)، فقد قال إبراهيم الحربي:"لي عشرون سنة أبصر بفرد عين" وفي تذكرة الحفاظ:"كان الصورى يكتب بفرد عين"، ولأبي الحسن علي بن يوسف القفطي، المعروف بالقاضي الأكرم:

شيخ لنا يعزى إلى منذر مستقبح الأخلاق والعي

من عجب البحر فحدث به بفرد عين ولسانين

وإذا قال: (**يتعلم براسي**)، فقد قال بديع الزمان الهمذاني: "أعلى رأسي يتعلم الحلق".

وإذا قال: (**من حلاوة روحي**)، فقد قال الغزولي:"فمن حلاوة الروح دفعته".

وإذا سمى نجوم الفكة (**جدح اليتيمة**) أي قدح اليتيمة، فقد كانت الصبيان تسميها (قصعة المساكين) .

وإذا قال: (**لسانها طويل**) ، فقد قالت ليلى بنت الخطيم بن عدي:"أنا امرأة طويلة اللسان، لا صبر لي على الضرائر".

وإذا قال: "**عينة الشيء** "أي **خياره**، ففي ألفاظ الكتاب: "عينة الشيء"، وعين الشيء.

وإذا قال: (**دقَّ على صدره**)، أي **عبّر عن استعداده**، ففي المحاضرات: إذا سألته؛ دقَّ صدره ويقول: أفعل، وإذا عاودته وتقاضيته، دقَّ جبهته، ويقول:"لا قوة إلا بالله، نسيت".

وإذا قال: (**عن طيب خاطر**)، ففي خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم -: "عن طيب نفس".

ومن أمثلة الألفاظ التركية:

آجغ (آچيق) - ناصل.

آيري - إضافي.

إسكي - معرق، قديم.

أغر (آغر) - ثقيل.

امزكَـ (امزك) أنبوبة.

أوده (أوطة) غرفة.

أورطة (أورته) زلية كبيرة.

برغي (بورغو) مسمار لولبي.

برنجي - أول، جيّد.

بودله (بودالا) بليد.

بوش - فارغ.

ترس - كلمة شتم.

چاملغ (چامورلق) - الواقي من الطين.

چاووش (چاوش) - عريف.

خاشوكه (قاشيق) ملعقة.

داطلي (طاتلي) - حلوى.

دمبركه (تومبلك) - من أنواع الطبول.

سركَي (سوركَي) - مغلاق من "سوركَمولمك" أي الإغلاق.

شيش - سفود.

صغلم (صاغلام) صحيح - سالم.

صوچ (صوچ) - ذنب - جرم، إثم - صوى - أصل.

طابور - فوج، ١٠٠٠ جنديّ.

قاجي قبوجي (بوّاب) .

قاورمه - اللحم المقلي.

قبه (قابا) - غير مناسب، ضخم، غليظ، كبير.

قرباچ (قرباج) - مقرعة، سوط.

قرصاغ (قورساق) حوصلة، كناية عن الصبر والاحتمال.

كسكين (كسكَين) حاد.

كنداغ (قونداق) مؤخر البندقية.

كوپري - جسر.

گزلك (كوزلك) منظرة.

گبلباخ -تعال انظر، من گل تعال.

و"باق" من "باقدير مق" أي الإدارة.

ياغدان - المدهنة.

يشماغ (ياشمق) نوع من الكوفية.

يقلمه (يوقلامه) - تفتيش.

يواش (ياواش) - رويدًا، تمهّل.

ومن الألفاظ الفارسية:

بابوج (پاپوش) - نوع من الأحذية.

بادگير - جار الهواء، وهو البادا هنج، وقد كان يُستعمل في المباني والبيوت، للتبريـــد:

بازبند (بازوبند) - معضد.

بازي (بازو) قائمة الشيء.

بخشيش (بخشش) - عطية.

بربار (برابر) مساوٍ، سواء.

پشت - كلمة شتم.

بنج (بنكَك) - مخدّر.

پاچه - كراع.

پايه - رجل.

پخته — نضيج.

جنبش - حركة، اضطراب.

جارك (چهايك) - ربع.

چنكَال - شوكة.

خانه - بيت.

خرده - متفرقة.

خوش - جيّد.

دانه - قنبلة.

دوش - كتف.

دهل - طبل؛ فارغ، أبله.

زنانة - نسائي.

ساخته - حيلة.

سادة - بسيط.

سركال (سركار) - رأس العمل.

شوباش (شادباش) تعبير عن المسرة.

عافرم (آفرين) - أحسنت.

كَردانه - قلادة.

لشه (لاشه) - بدن.

مرده شور - غسّال.

ومن الألفاظ الإنكليزية:

أسيد (acid) - الحامض.

براكيت (bracket) - المشيلة.

بمبر (bumper) - المصدة.

بول بيرن (ball bearing) الحاملة الكروية.

بويلر (boiler) – المرجل.

بستم (piston) – الواجنة.

بلك (plate) - الصفيحة.

بمب (pump) – المضخَّة.

پيم (pin) – الدبوس.

تانكي (tank) – الجابية.

تاير (tyre) – الإطار.

تنر (thinner) – المرقق.

تورنه (turner) – المخرطة.

جاين (joint) الميصلة.

چوك (choke) - الخانق.

دشبول (dash board)– لوح المقاييس.

دينمو (dynamo) - المولّد.

راديتر (radiator) - البرّادة.

ربل (rubber) – المطاط.

روط (rod) -القضيب.

ريل (rail) – القطار.

سايد (side) – الجانب.

سبانه (spanner) – المفك، الناقضة.

سبرنكَك (spring) – المنبض.

ستيرن (steering) – السكان.

ستيل (steel) – الحديد الصلب.

سلف (self starter) — المثير.

سكن لايت (second light) – الضوء الفاتر.

سلندر (cylinder) – الأسطوانة:

شكل زوبع (shoch absorber) – راشفة الرجّ.

شنط (shunt) – التسريب.

شوته (shoot) – المنقاة.

شوز (brake shoes) – مداس الكابحة.

صالنصه ((silencer – المخفّتة.

صديم (steam) - النجار.

طابكَير (top gear) – المسنّن الأعلى.

فلاوين (fly wheel) – الدولاب الطيار.

فلتر (flter) – المرشحة.

فمبل (fan belt) – حزام المروحة.

فول لايت (full light) – الضياء الوهاج.

فيته (foot) – شريط الذرع.

فيوز (fuse) - الصهور.

كابريته (carburater) – الحصبية.

كاسكيت (gasket) – الغطاء.

كب تشحيم (cup) – غمرة التشحيم.

كليج (clutch) – الناشبة.

كويل (coil) – اللفيفة.

كيس (crank case) – المدهن.

كبح (gauge) – المقياس.

كَير (gear) – صندوق المسننات.

ماطور (motor) – المحرك.

نذل (needle) – الإبرة.

لينيه (line) – السطير.

هندل (handle) - اليد.

هورن (horn) – النفير، البوق.

هولدر (holder) – الماسكة.

واشر (washer) – الوساد.

واير (wire) – السلك.

وتربمب (water pump) – مضخة الماء.

ويل (wheel) – الدولاب.

الخلاصة:

١- تعتبر العامية العراقية الصورة الباقية من آثار لغات سكان العراق من أقوام وأمم وشعوب منصهرة في بوتقة العرب واللغة العربية، مصوغة في قالب المأثور من لغات قبائلها.

٢- تعتبر العامية العراقية سجلاًّ لما ذاع وانتشر وحُفظ وبقي واستُعمل من ألفاظ لغات الأمم، التي أقامت بالعراق أو حكمته، أو مرت به.،وهي كلمات معدودات.

٣- العراقي قادر على الإفصاح بكل الحروف العربية، كما يستطيع التلفظ بسائر الحروف.

٤- العامية العراقية أقرب إلى الفصحى، وهي قادمة إلى الخلاص من الدخيل. وقد تخلصت من أكثر الألفاظ الأجنبية، ودخلها العديد من الكلمات الفصيحة، واستعمل أهلها عددًا كبيرًا من المصطلحات الأجنبية وأقترح:

١- جمع الكلمات الأجنبية المستعملة في اللهجات المنتشرة في البلاد العربية، وتدوين ما يقابلها من الألفاظ العربية في معجمات خاصة بكل بلد.

٢- جمع الكلمات التي تلحن فيها العامة من الألفاظ العربية كذلك.

٣- تأليف معجم موحّد للألفاظ الأجنبية المستعملة في اللهجات العربية جميعًا، مع ما يقابلها من الألفاظ العربية.

٤- توحيد الكلمات العربية التي تقترح فيما يقابل الألفاظ الأجنبية.

٥- نشر الكلمات العربية بدلاً من الألفاظ الأجنبية، واستعمالها في الجرائد، والصحف، والمجلات، والراديو، والتليفزيون، والسينما، والمسرح.

هذا - وقد اقترح المجمع العلمي العراقي خطة للنهوض باللغة العربية، والمحافظة على سلامتها، فأصدرت الدولة (القانون ٦٤) لسنة ١٩٧٧م وهو (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) وقد نُشر في الجريدة الرسمية - في العدد - (٢٥٨٧) - في ١٩٧٧/٥/١٦ م، واعتُبر نافذًا بعد ثلاثة أشهر.

وقد أوجب هذا القانون:

١- اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم في مراحل الدراسة كافة.

٢- التزام العربية في مطبوعات مؤسسات النشر والإعلام، ومناهجها.

٣- استعمال العربية في تحرير:

(أ) الوثائق.

(ب) المذكرات.

(ج) المكاتبات.

(د) المحررات.

(هـ) السجلات.

(و) المحاضر.

(ز) العقود.

(ح) الإيصالات.

(ط) اللافتات.

(ي) العلامات.

(ك) البيانات التجارية.

(ل) البراءات.

(م) النماذج.

٤- اعتماد العربية في التعبير.

٥- تجنب استعمال المصطلحات الأجنبية، إلا عند الضرورة.

٦- إنشاء أجهزة تُعنى بسلامة اللغة العربية في الوثائق والمعاملات.

٧- تقريب العامية من الفصحى.

٨- اعتماد المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد.

وأنا أقترح أن تسعى المجامع العلمية العربية، والمؤسسات العلميـــة والثقافيـــة في البلاد العربية كلها لتحقيق مثل هذا الإقدام، وأرجو أن تصدر الدول العربية جميعًا مثل هذا القانون.

* * *

الفصحَى المعَاصِرَة (*)

للدكتور شوقي ضيف
(عضوا المجمع)

- ١ -

يرجع تاريخ الفصحى إلى بضعة عشر قرنًا، وقد اجتازت في هذا التاريخ الطويل مراحل وأطوارًا متباعدة، ولعل أول مرحلة هي مرحلة الدين الحنيف، الذي تطور بالفصحى من لغة وثنية مادية إلى ذات دين سماوي، يحمل مالا عهد للفصحى به من قيم روحية وعقلية — واجتماعية وإنسانية.

وطبعي أن يُحدث هذا الدين في الفصحى تطورًا هائلاً في معانيها وألفاظها. وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأ دلالاتها ابتداء؛ مثل: الإسلام، والإيمان، والكفر، والإشراك، والصوم، والزكاة، والصلاة، إلى غير ذلك من كلمات الدين الحنيف. وهي تكثر جدًا؛ إذ تشمل كل ما اختاره للشعائر الدينية وللعقود والمعاملات من ألفاظ متنوعة الدلالات. ومما لاريب فيه أن القرآن الكريم يُعَدّ بكل سوره ابتداء لشريعة سماوية، ولغة دينية باهرة، وأسلوب بياني معجز، يأخذ بمجامع القلوب.

وسرعان ما بدأ عصر الفتوح الإسلامية، واستقر العرب في الأمصار، وأخذوا يتناولون الحياة تناولاً جديدًا، فقد تحضروا وسكنوا القصور ونعموا بالفرش والملابس والمطاعم والمشارب، وأقبلوا على التزود بما كان لدى الشعوب المفتوحة من معارف وثقافات.

وفي أثناء ذلك كانت الفصحى تتطور وتتحور ألفاظها وتتسع للتعبير عن دلالات حضارية وعلمية جديدة. وكم نُحت واشتُق من مئات الألفاظ للحضارة المادية وأدواتها الكثيرة، وبالمثل كم نُحت واشتق من مئات الألفاظ للعلوم والمعارف، وفتَحت الفصحى أبوابها لألفاظ أعجمية كثيرة عرَّبتها، تارة تحوِّر فيها: في الحروف والحركات، وتارة لا تحور، وقد عقدوا لها كتبًا مفردة مثل كتاب "المعرَّب" للجواليقي، وخصُّوا

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين، الجلسة الرابعة، في١٦ من مارس ١٩٧٨م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والأربعين، ص١٩.

المصطلحات العلمية بمعاجم متعددة، على ما هو معروف عن كتاب "مفاتيح العلـــوم" للخوارزمي. وقد تكامل للفصحى هذا التطور العلمي والحضاري في العصر العباســـي، وأدته أداء رائعًا وهي لم تؤده من الوجهتين: العلمية والحضارية فحسب، بل أدته أيضًا أداء رائعًا من الوجهة الأدبية، فقد ازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والنثر، وظهرت فيه فنون مستحدثة مثل الشعر التعليمي، والرسائل السياسية، والمناظرات، والمقامات، والنثر التهذيبي والصوفي.

واستطاع الأدباء في أثناء ذلك أن ينفذوا إلى أسلوب جديد، غَـــذَّوْه بعقـــولهم الخصبة، وما أثاروه من المعاني المبتكرة، مع احتفاظهم فيه للفصحى بكـــل مقوماتهـــا وأوضاعها النحوية والصرفية، وهو أسلوب نهض على أساسين لفظيين: هما نبذ الألفاظ الحوشية الجافية، ونبذ الألفاظ العامية المسفة المبتذلة. أســـلوب وســـط بـــين الغرابـــة والابتذال، يقوم على الألفاظ المتخيرة، التي لا تنبو عن ذوق العباسيين المصفى ولا عن حسهم المرهف.

وتتحدد في كتابات النقاد العباسيين تسمية هذا الأسلوب الجديد باسم "أسلوب المولّدين" وعادة يصفون به أسلوب الأدباء العباسيين، وخاصة الشعراء، حين يقـــابلون بين أسلوبهم وأساليب الإسلاميين والجاهليين، غير أنهم لا يمـــضون في الحـــديث عـــن بواعث ظهوره ولا عن السبب في أنه أصبح الأسلوب العام. وفي رأينا أنه ليس من وراء ذلك كله إلا الرغبة الحقيقية لدى أدباء العصر العباسي في تيسير الفـــصحى لعـــصرهم وتذليلها للناس بحيث لا تخفى ألفاظهم على جماهيرهم، ولا يجدون فيها إســـفافًا يخـــلّ ببيانها الفصيح.

-٢-

وكل ما حدث للفصحى من ألوان تطور في العصر العباسي أخذ يحدث لها مـــا يماثله منذ أواسط القرن الماضي، فقد أخذت تنشأ فيها مصطلحات علميـــة وألفـــاظ حضارية لا عداد لها ولا حصر، وأخذت تظهر فيها، وتزدهر فنون مستحدثة ليس لهـــا

سابقة، وأخذ الأدباء يسعون بألفاظهم وتراكيبها نحو التبسيط والتيسير. وقد أخذ علماؤنا الأبرار يمرِّنونها — مبكرين — على أداء العلوم الغربية. وكان في طليعة ما نقلوه إليها علم الطب بفروعه المختلفة، تجرَّدت له أولاً طائفة من غير الأطباء، ثم تجرَّد له أطباء مشهورون ونُقلت كتب في العلوم الرياضية. ونقل رفاعة الطهطاوي وتلاميذه سنة ١٨٦٦م القوانين الفرنسية المعروفة باسم "الكود" في ثلاثة مجلدات.

ووُضعت كتب قانونية وقوانين مختلفة مثل قانون المحاكم الأهلية. ومضت صفوة تعنى بنقل علم الاقتصاد الغربي ومباحثه منذ نهاية العقد الثامن في القرن الماضي، وكان يسميه العرب علم المعاش. ومضت صفوة أخرى تعنى بعلم الاجتماع، وجهود فتحي زغلول في نقله إلى الفصحى معروفة.

وجعل الإنجليز في سنة ١٨٩٥م لغتهم الإنجليزية لغة التعليم في مدرستي الطب والهندسة، فتوقف تيار النقل في علومهما إلا قليلاً غير أنه ظل قويًّا مطردًا في سواهما من العلوم، وخاصة في الاقتصاد والاجتماع والقانون، وأيضًا في الفلسفة. ونجاهد الإنجليز جهادًا عنيفًا ونحصل على استقلال مقيد ببعض الشروط، وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية، هي جامعة القاهرة الآن، وتضم بجانب كلية الآداب كليات الطب والعلوم والحقوق، ثم كليات الهندسة والزراعة والتجارة والطب البَيْطري وبأخرة تضم كلية الاقتصاد.

ويتكاثر لمصر علماؤها الأفذاذ المتخصصون في جميع فروع العلم وتحدث نهضة علمية عظيمة، ويسود شعور عام بوجوب وضع المصطلحات العلمية جميعها في الفصحى، ويخرج الدكتور محمد شرف سنة ١٩٢٨م معجمه النفيس في العلوم الطبية والطبيعية، **ويتأسس المجمع اللغوي، ويجعل من أغراضه الأساسية وضع المصطلحات العلمية**، وينهض بهذا الجهد منذ دورته الأولى، وكلما أمضى شوطًا من الزمن اتسع جهده في هذا المجال، وتكاثرت لجانه العلمية، وإنه ليبلغ الآن مجموعُ ما وضعه من تلك المصطلحات أكثر من خمسين ألف مصطلح في مختلف العلوم. وليس ذلك كل ما نهض

به في هذا الاتجاه، فقد أرسى **لصوغ المصطلحات العلمية وتعريبها قواعد سديدة ترسم ضوابط التعريب من جهة، وتعين علماءنا على صياغتها من جهة ثانية**، مثل: **جواز تكملة المادة اللغوية بمشتقات غير معجمية، وجواز الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر، وقياسية المصدر الصناعي**، إلى غير ذلك من قواعد تيسر وضع المصطلح العلمي وتُذلِّله تذليلاً. وقد استطاعت هيئات وأعلام من العلماء في مصر والبلاد العربية أن يسهموا في هذا العمل العلمي الجليل، بوضع معاجم علمية متنوعة. وليس من ريب في أن هذه الجهود العلمية الخصبة توشك أن تتحول بالفصحى العلمية المعاصرة إلى لغة علمية عالمية.

و لم تكسب الفصحى المعاصرة ألفاظ المصطلحات وحدها، فقد كسبت أيضًا آلاف الألفاظ المعبرة عن أدوات الحضارة وشئون الحياة العامة، وكثير منها كانت قد عنيت به المجامع اللغوية الأهلية التي تكونت بمصر، في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، ووضعت لطائفة منة ألفاظًا مستحدثة وارتضتْ بعض ما شاع منه على ألسنة الجمهور وأقلام الكتاب.

وعني مجمعنا في دوراته الأولى بهذه الألفاظ وتوقفت عنايته بها فترة، ثم عاد إليها وألف لها لجنة، تزخر بنشاطها مجلته ومحاضره، وبهما حصيلة كبيرة من هذا الألفاظ الحضارية المتصلة بجوانب الحياة العصرية.

وبجانب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم تحمل الفصحى المعاصرة مصطلحات سياسية كثيرة، ويتضح ذلك في المقالات الصحفية التي يقرؤها الجمهور كل يوم، فإن القارئ العادي لها يشعر بحاجته حاجة ملحة إلى معجم يشرح له كثيرًا من الألفاظ السياسية المحدثة التي لا تتضح له مدلولاتها اتضاحًا كافيًا. ولنترك السياسة إلى لغة النقد الأدبي المعاصرة، فإنها تفترق مفارقة بينة عن لغة النقد الأدبي القديم، ففي الشعر مثلاً يتداول النقاد المعاصرون مثل هذه الألفاظ أو المصطلحات: الشعر الغنائي والملحمي والتمثيلي والمدرسة الكلاسيكية والرومانسية والرمزية والواقعية، والتجربة

الشعرية والوحدة العضوية والصورة والمضمون والمأساة والملهاة، ونظرية الوحدات الثلاث: وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة الموضوع، والسببية والحدث المتوتر الحاد.

ويتداول المعاصرون من النقاد في القصة ألفاظًا ومصطلحات من نفس هذا الطراز المحدث مثل: المذهب الواقعي، والطبعي، والنفسي، والوحدة السلوكية، والشخصية النامية، والبعد الاجتماعي، والنفسي، والإنساني، والصراع الفكري، والصراع الطبقي، والتكوين العام للأحداث والمواقف، ورسم الشخوص رسمًا بينًا.

وقل ذلك نفسه في النقد المسرحي ونقد الفنون، وكأننا نتعامل في كل ذلك بلغة محدثة، أو قل هي الفصحى المعاصرة تتشكل أشكالاً وأنماطًا جديدة في ميادين العلم والحضارة والسياسة ونقد الآداب والفنون.

- ٣ -

وإذا كانت الفصحى المعاصرة قد تطورت في هذه الميادين جميعًا، واستوعبت مالا يكاد يحصى من الألفاظ والمعاني، فإن تطورها في مجال الأدب بفرعيه من الشعر والنثر قد يكون أوفر نموًّا وحيوية، أما الشعر فقد كثر ناظموه المعاصرون في البلدان العربية، وكثرت دواوينهم كثرة مفرطة، وحدثت فيه ضروب شتى من التحول والتطور، مما أعد لظهور أنماط جديدة فيه سياسية وقومية واجتماعية. وليس ذلك فحسب، فقد مضى الشعراء يغذون أشعارهم باتجاهات الشعر الغربي من رومانسية ورمزية وواقعية، وأخذت مضامين شعرهم تتنوع تنوعًا واسعًا، كما تنوعت أشكاله الموسيقية، وظهرت وازدهرت فيه المسرحية الشعرية، وتكتب في هذه التحولات، في الشعر المعاصر وأعلامه، بحوث مطولة.

وبالمثل حملت الفصحى المعاصرة فنونًا نثرية مستحدثة أهمها المقالة والقصة والمسرحية، وقد نشأ قالب المقالة عند الغربيين بتأثير الضرورات الصحفية، وحاكاهم فيها كتابنا منذ نشأت عندنا الصحف في القرن الماضي. ولم تكن الفصحى تعنى بالقصِّ إلا قليلاً، في المقامة وبعض نماذج هنا وهناك، وقد تركت القصة الطويلة للأدب العامي،

وكُتبت فيه قصص شعبية كثيرة، حتى إذا اطلع أدباؤنا في القرن الماضي على قصص الغربيين الطويلة أخذوا في تمصير بعض نماذجها، ثم عنوا – فيما بعد – بنقل كثير منها نقلاً دقيقًا. ولم يلبثوا في هذا القرن العشرين أن نشطوا – وخاصة منذ العشرينيات – في كتابة القصة والأقصوصة، وإنه ليصعب حصر القُصاص اليوم في مصر والبلاد العربية فضلاً عن حصر قصصهم الطويلة وأقاصيصهم القصيرة.

ولم تكن الفصحى تعرف فن المسرحية، وعلى شاكلة القصة عني أدباؤنا أولاً بتمصير بعض المسرحيات الغربية، ثم عنوا بترجمالها الدقيقة، ولم يلبث أن ظهر للفصحى مسرحيون عديدون، وإنهم ليعدون الآن بالعشرات في مصر والأقطار العربية. وفي كل هؤلاء الأدباء من المسرحين والقصاص وأصحاب المقالات وآثارهم تكتب بحوث طوال.

وإذا كان العباسيون – من قبل – شعروا بأنهم في حاجة إلى أسلوب مولد يرتفع عن الابتذال، ويهبط عن الإغراب الشديد، أسلوب وسط يقترب من أفهام عامة المثقفين دون ركاكة أو إسفاف، فإن الأدباء النابهين شعروا في عمق منذ أواسط القرن الماضي بأن ما انتهى إليه أسلوب الفصحى حينئذ من الجمود والضيق والتقيد بأغلال السجع والبديع، يحول بينهم وبين ما يريدون أداءه. وكانوا قد عرفوا للفصحى أسلوبًا متحررًا من هذه القيود عند ابن المقفع وأضرابه، فعمدوا إلى محاكاته، ولم يكتفوا بذلك، بل أخذوا يحاولون النفوذ إلى أسلوب أكثر سهولة ويسرًا، وتضافرت عوامل مختلفة على شيوع هذا الأسلوب الجديد بسبب انتشار التعليم واستخدام المطابع وذيوع الصحف، فكثر القراء، وكثر التبسيط والتيسير في أسلوب الفصحى بين المترجمين والكتاب المختلفين. وكلما أمضت الفصحى شوطًا من الزمن اتسع فيها هذا التيسير والتبسيط.

ودَوْر الصحافة في هذه الفصحى المعاصرة أوسع وأكبر شأنًا من دور الكتب المترجمة والمؤلفة، ومعروف أن الصحافة أخذت تنشط منذ عصر الخديوي إسماعيل، ولم تكن تتجه مثل أصحاب الكتب إلى الجماهير المثقفة فحسب، بل كانت تتجه إلى جميع الطبقات في الأمة، وكانت عنايتها شديدة بالطبقات الشعبية الدنيا، إذ كانت تريد أن

تحظى بأكبر جمهور قارئ وأن تقدم له ما يغريه على الإقبال عليها والمتاع بها، ولـــذلك كان الكاتب في أي صحيفة يحاول جاهدًا أن يبسط لغته، حتى يدنو من العامة، وحتى لا يكون بينه وبينها أي حجاب في الخطاب، لا في الأفكار ولا في الألفاظ، فالأفكـــار مهما كانت عميقة أو دقيقة تبسط تبسيطًا شديدًا، حتى لا تجد الجماهير أي عـــسر أو مشقة في فهمها، والألفاظ تختار سهلة، حتى يفهمها الشخص العادي في الأمة دون أية صعوبة.

ونْمضى في القرن الحاضر إلى حقبة العِشرينيات التي نشأت فيها الأحزاب، فنجد كل حزب يؤسس لنفسه صحيفة ينشر فيها آراءه في الحكم والسياسة، وأخذت كـــل صحيفة تجتذب إليها علمًا من أعلام الأدب حينذاك. واختصم هؤلاء الأعلام في شئون السياسة والحكم خصومات عنيفة، وأثاروا خصومات لا تقل عنفًا في شـــئون الأدب قديمة وحديثة، وأخذوا يعرضون على القراء — استمالة لهم وجذبًا — فصولاً من أدبنـــا العربي القديم ومن الأدب الغربي الحديث. وبذلك التحمت صحافتنا بالحركة الأدبيـــة، وأفادت منها غزارة في معانيها ودقة في أفكارها، إذ تغذت من أدب هـــؤلاء الأعـــلام وأضْفَوْا على لغتها المعاصرة مسحة من الجمال الفني مع محاولاتهم الخـــصبة لتبـــسيط الفصحى وتيسير أسلوبها المعاصر حتى تسيغها الجماهير وتجد فيها متاعًا هنيئًا.

وجانبان يلاحظان بوضوح في هذا الأسلوب الميسر المبسط لفصحانا المعاصرة، أما الجانب الأول، فاستخدام طائفة من أدبائنا في مقالاتهم وقصـــصهم لكـــثير مـــن الكلمات الشائعة في العامية التي يظن أنها غير فصيحة، بينما هي عربية فـــصيحة، وإن دارت على ألسنة العامة. ولا شك في أنهم يقصدون قصدًا إلى استخدامها في كتاباتهم، حتى يدنوا من الجماهير أكثر فأكثر، وحتى تدرك وتتمثل ما يعرضون عليها من خواطر وأفكار، ونضرب مثلاً فذًا من هؤلاء الأدباء: إبراهيم عبد القادر المازني، إذ كان يمتـــاز بحاسة لغوية مرهفة أعانته على التقاط كثير من الكلمات الشائعة في العامية وردهـــا إلى الفصحى؛ لأنها في واقع الأمر فصيحة، وإن لاكتها العامة. وبذلك كان يحدث تبسيطًا

— يشغف به — في تعبيراته، مع الاحتفاظ في دقة بمقومات العربية وأوضاعها في الإعراب وتصريف الكلمات، ومع استخدام لغة بيانية ناصعة رصينة.

وهذا الجانب في الأسلوب المبسط الحديث لفصحانا ينبغي أن تتضاعف العناية به، بحيث يعنى كل بلد عربي بوضع معجم تستقصى فيه الألفاظ العامية العربية الأصل التي تشيع في ألسنة أبنائه مع النص على المشترك من هذه الألفاظ بين البلاد العربية، ليستغلّ ذلك كله الأدباء المعاصرون في كتاباتهم القصصية والصحفية. وحَـرِي بي أن أذكر أن المعجم الوسيط صحح كثيرًا من الألفاظ العامية وسلكها في الألفاظ الفصيحة وهو عمل جدير بالشكر والثناء.

والجانب الثاني الذي يلاحظ في الأسلوب الجديد المبسط لفصحانا المعاصرة: أنه نشأت فيه بحكم التطور اللغوي صيغ وعبارات يظن- لأول وهلة- أنها غير فصيحة، حتى إذا عرضها العالمون باللغة على قواعدها وتصاريفها وَجَدُوا لها وجوهًا من التخريج تجعلها عربية فصيحة. وتعنى بذلك لجنة الألفاظ والأساليب في المجمع، وقد أخرجت في هذا العام كتابها الأول، وهو يسوغ كثيرًا من هذه العبارات والصيغ.

والفصحى المعاصرة في هذا الصنيع تجري على سنن اللغات، فتراكيبها وصيغها جميعًا لا تستعصي على التطور، ولا هي أشياء ثابتة راسخة كالصخر الأصم، بل هي كائنات حية مثل أصحابها، فهم في تطور وتغير مستمرين من يوم هبوطهم في مهودهم إلى يوم استقرارهم في لحودهم، وكذلك التراكيب والصيغ في اللغة، فهي ما تني تتحرك وتتطور وتتغير. وهو جانب واسع جدًّا في الأسلوب المبسط الجديد لفصحانا المعاصرة، وينبغي أن لا نغلق أبوابها من دونه، بل نفتحها على مصاريعها للعبارات والتراكيب المستحدثة ما دمنا نجد لها تخريجًا يسوِّغها ويسبغ عليها صفة الفصاحة.

-٤-

ولعل في كل ما قدمت ما يصور كيف أن الفصحى المعاصرة تعيش مرحلة خصبة من جميع الوجوه، إذ وسعت مضامين شتى من العلوم والآداب، ونفذت إلى

أسلوب ميسر مبسط، من شأنه أن يساعدها على انتشارها في جميع الألسنة، وقد ظفرت بفنون كانت خاصة بالعامية، مثل فن القصة الطويلة، فقد كانت العامية تنفرد بها قبل العصر الحديث، كما أسلفنا، وما إن شركتها الفصحى المعاصرة حتى أصبح لها القدح المعلى في لغة القَصِّ. ويلاحظ أن القُصاص الذين لا يزالون يتخذون العامية أداة لقصصهم في عصرنا لا يَنون يحوِّرون في تراكيبهم وعباراتهم تحويرات متنوعة محاولين اللحاق بركب الفصحى. ولا أراني أغلو إذا قلت: إن اللهجة العامية المستخدمة في كثير من القصص والمسرحيات المعاصرة ليست هي نفس اللهجة العامية اليومية المتداولة كما قد يظن كثير من الناس، بل هي لهجة وسطى بين العامية والفصحى. وهذا نفسه يلاحظ في الأزجال الشعبية المعاصرة، فلغتها تقترض كثيرًا من الكلمات الفصحى المعاصرة وتراكيبها. ومعنى ذلك أن الفنون الأدبية في العامية تندفع في عصرنا إلى الاقتراب من الفصحى اندفاعًا يبشر بأنها ستصبح يومًا لغتها السائدة. ومن هنا كنت أخالف من يبالغون في تقدير خطر العامية على الفصحى المعاصرة، والحقيقة عكس ذلك، فإن الفصحى المعاصرة ما تزال تقهر العامية في كل ميدان تلتقي معها فيه.

وكلنا نعرف أن الفصحى المعاصرة استولت منذ القرن الماضي على أكبر ساحة لغوية شعبية في العصر، وأقصد ساحة الصحف، ومر بنا آنفًا أثرها في أسلوبها المبسط المعاصر، ولم نعرض لأثرها في أدبها، وهو أثر واسع، إذ جعلته يحمل ما يعزّ حصره من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية، جعلته يحمل صورًا أدبية جديدة. ولست أريد أن أتحدث الآن عن هذه الجوانب إنما أريد أن ألفت النظر إلى أن الصحف لم تقف عند مخاطبة بيئة مثقفة بعينها، كما كان شأن أدبائنا المتخاطبين بالفصحى قبل هذا العصر، فقد تخطت لعصرنا الحواجز الطبقية في الشعب وخاطبت جميع طبقاته وجماهيره. وهاهي ذي الملايين في بلادنا العربية تغدو وتروح كل يوم وفي أيديها الصحف تقرأ فيها صباح مساء. وهو غزو كبير للفصحى غزت به العامية منذ أواسط القرن الماضي، إذ سلبتها جمهورها القارئ، وجعلته يحس بقوة أن مثله اللغوي الأعلى إنما هو في الفصحى المعْرَبَة.

ولم تستول الفصحى المعاصرة من العامية على ساحة الصحف وكلماتها المطبوعة فحسب، فقد أخذت أيضًا تستولي منها على ساحة الإذاعة وكلماتها المسموعة والمرئية، وحقًا تكثر في هذه الكلمات الأخطاء النحوية والصرفية ولكن هذه الأخطاء ستزول في رأينا حتمًا بتأثير الرأي الأدبي العام وما يتطلبه في المسموعات والمقروءات من الصحة اللغوية. ولا ريب في أنه يوجد بين المتحدثين في الإذاعات من يعنون بلغتهم وصياغتهم وخاصة الأدباء المعاصرين.

والإذاعات تعد - بحق - وسيلة مهمة من وسائل نشر الفصحى في عصرنا، لكثرة الملايين المستمعة لها يوميًّا كثرة تفوق كل حد، إذ تستطيع أن تحمل الكلام طرًّا إلى جميع أرجاء العالم في الشرق والغرب: إلى من يسكنون القصور والأكواخ ومن ينزلون على سفوح الجبال وفي بطون الأودية ومن يعيشون في المصانع والمدن وفي المزارع والقرى وفي البوادي والنجوع. والمستمع إليها ليس من الضروري أن يكون قارئًا، فهي تخاطب القارئين والأميين على السواء. ولهذا ينبغي أن تتضاعف الجهود في مختلف الإذاعات لتبلغ بالفصحى المعاصرة الغاية المأمولة لها من الذيوع على جميع الألسنة في بلداننا العربية.

وواضح مما ذكرت أن الفصحى تحيا في عصرنا حياة مزدهرة إلى أبعد حدود الازدهار، وهو ازدهار أتاح لها لغة علمية حديثة وفنونًا أدبية متنوعة وأسلوبًا مبسطًا ميسرًا، مع استيلائها على ساحة الصحف، ومع محاولاتها الجادة في الاستيلاء على ساحة الإذاعة. وإني أومن بأنها ستظل تزداد ازدهارًا وانتشارًا من يوم إلى يوم حتى تحل نهائيًّا في الألسنة مكان العامية، لا فيما بقي لها من الفنون الأدبية الشعبية فحسب، بل أيضًا في لهجات التخاطب اليومية.

* * *

بين الفصحى والعامية المصرية(*)

للدكتور شوقي ضيف
(نائب رئيس المجمع)

الزملاء الأجلاء:السيدات والسادة:

اللغة هي المرآة التي تحمل شخصية الأمة وهويتها على مر التاريخ، إذ تستوعب جميع جوانب حياتها العلمية والدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وهي تتطور من الزمن صورًا مختلفة من التطور على نحو ما تطورت العربية في الجاهلية، وتفرعت منها لهجات، كانت أسماها لدى العرب لهجة قريش حامية دينهم الوثني، وتآزرت مع الدين عوامل اقتصادية وسياسية جعلتها تسود في الجاهلية جميع لهجات العرب القبلية كما تسود ألسنتهم فى الشعر والخطابة، وما هذه اللهجة القرشية إلا الفصحى التي ننطقها اليوم، وقد نزل بها القرآن الكريم، فزادها تمكينًا في ألسنة العرب وأضفى عليها بيانًا رائعًا ببلاغته المعجزة. وأخذت منذ الفتوح الإسلامية تكتسح لغات البلدان التي افتتحها المسلمون شرقًا وغربًا ببلاغتها الآخذة بمجامع القلوب، واكتسحت الفارسية في إيران، والنبطية والآرامية في العراق، والسريانية واليونانية في الشام والقبطية واليونانية في مصر، والبربرية واللاتينية في المغرب، واللاتينية وفرعها من الرومانية في الأندلس. وكل هذه اللغات قهرتها الفصحى في جميع تلك الأقطار، وحلت مكانها في ألسنه سكانها، فهم يتكلمون بها ويتخذونها للتعبير بها عن مشاعرهم وعواطفهم وعقولهم وأفكارهم.

وأكبَّ العرب – ومعهم الشعوب الإسلامية المستعربة – على وضع العلوم؛ تلبية لدعوة القرآن والحديث النبوي إلى العلم والتعلم، وأخذت توضع العلوم الإسلامية

(١) ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة التاسعة لمؤتمر المجمع، في الدورة الحادية والستين، بتاريخ ٣من أبريل سنة ١٩٩٥م، ونشرت بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والثمانين، ص٧٥.

من تفسير للقرآن وفقه وغير فقه، وبالمثل العلوم اللغوية من نحو وغير نحو. ونقلـــوا إلى الفصحى كل ما لدى الأمم الأجنبية من علوم الكيمياء والفلك والطبيعة والرياضـــيات والفلسفة. وتزدهر للفصحى نهضة علمية وفلسفية عظيمة منذ القرن الثاني الهجري حتى الثامن الهجري، وطوال هذه القرون الستة كانت الفصحى اللغة العالمية الأولى التي تقود العالم في ميادين العلوم والفلسفة.

ونـــزلت الفصحى مصر مع جيش "عمرو بن العاص"، وأخذ سكانها يتعربون بعاملين: كثره من اعتنقوا الإسلام من أهلها، كما يلاحظ ذلك "بتلر" في كتابه:"فـــتح العرب لمصر"، وكثرة القبائل العربية التي هاجرت إليها من الجزيرة واتخذتها موطنًا لها.

وتشارك مصر- منذ القرن الثاني الهجري- بأئمة في علوم الـــشريعة والعلـــوم اللغوية،كما تشارك في علوم الأوائل من فلك وطب، وغير فلك وطب، بما كان بها من تراث علمي قديم، ويلتحم هذا التراث بما ترجمته بغداد من التراث اليونـــاني وغـــيره، وتنشأ فيها نهضة علمية كبيرة في العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية.

وأصاب نهضة الفصحى في مصر- منذ القرن الثامن الهجري- ركود غير قليـــل بما جثم على صدرها في نثرها الأدبي من أثقال السجع، وفيه وفي شعرها، من أثقـــال البديع، وتأخذ مصر في تنحية هذه الأثقال عن نثرها وشعرها في الفصحى، منذ أواسط القرن الماضي.

أما في النثر فقد أخذت تتمسك فيه بأسلوب مرسل حُرٌّ، يخلو من كـــل ثقـــلٍ وقَيْد، وبه نقلت العلوم الغربية، وألف فيها علماء المدارس العليا الذين أتموا دراساتهم في الغرب وخريجو قلم الترجمة بمدرسة الألسن، وتكونت لمصر بذلك فصحى علمية حديثة ظلت مزدهرة بها إلى أن وقف الإنجليز – بخبثهم – تعليم العلوم بها في مصر بأخرة من القرن الماضي، ولو أنه استمر ما احتجنا اليوم- بعد مائة عام- إلى تعريب العلـــوم في الجامعات المصرية.

ووطد هذا الأسلوب المرسل في فصحانا الحديثة، ومكن له بقوة اقترانه بنشوء الصحف بمصر فى القرن الماضي، وكان عملها فى تيسيره وتبسيطه واسعًا بحكم أنها تريد مخاطبة كل الطبقات فى الأمة، وأن يفهم ما تكتبه عامة القراء. وأخذ ينشأ فيها فن المقالة التي تتحدث عن كل ما يهم الشعب من شئون سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية، ونشطت الصحافة نشاطًا عظيمًا حين تألفت الأحزاب في العشرينيات من القرن الحاضر، وعنيت من حينئذٍ بشئون الأدب والثقافة، وأفردت للأدب مجلات أسبوعية وشهرية، وعنيت "مجلة المقتطف" منذ ظهورها بالعلوم الغربية. وقد استطاعت الصحف أن تبسط فصحانا الحديثة إلى أقصى حد، وأن تقترب بها قربًا شديدًا من لغتنا اليومية.

وازدهرت للفصحى الحديثة الخطابة السياسية وما تناولته من مبادئ في الحريات وحقوق الشعب السياسية، على لسان زعمائنا وخطباء الأحزاب النابهين.

ونشأ في مصر نظام القضاء الحديث، ومعه نظام المحامين والمدعين العامين، ونشأت معهما للفصحى الحديثة الخطابة القضائية، واشتهر فيها كثير من الخطباء القانونيين، ونشأت الخطابة الاجتماعية في النوادي والحفلات العامة.

ولم يكن بمصر في العصور الوسطى قصص بالفصحى سوى قصص الأنبياء والمقامات، وهي قصص قصيرة مسجوعة، فلما اطلع المصريون – في العصر الحديث – على ما في الآداب الغربية من قصص طويلة أخذوا ينقلون بعضها إلى الفصحى مع محاولة تمصيره، وأمضوا في ذلك فترة، ثم أخذوا – في القرن الحاضر – يضعون قصصًا طويلة على غرارها. ونشط وضع هذه القصص مع نهضتنا الأدبية، فتكاثر كتاب القصة الاجتماعية والنفسية والتاريخية. وتكثر بجانبها مجموعات الأقاصيص الفصيحة القصيرة، ويبرز فيها وفى القصة الطويلة أسماء كثيرين من القصاص النابهين.

وبدأنا – منذ أواسط القرن الماضي- بإقامة مسارح على شاكلة المسارح الأوربية وظللنا طويلاً نمثل عليه مسرحيات غربية مختصرة، ثم أخذ كتابنا – في القرن الحاضر – يؤلفون بالفصحى مسرحيات تراعي أصول الفن المسرحي، وازدهر هذا الفن منذ الثلاثينيات في هذا القرن – وكثرت الأعمال المسرحية القيمة التي تُعَدُّ بالعشرات، وكثر معها الكتاب المسرحيون البارعون.

وعلى نحو ما حدث لنثر الفصحى في العصر الحديث من نهضة أدبية كبرى، كذلك حدثت لشعرها نهضة مماثلة، كان رائدها "محمود سامي البارودي" الذي رد للشعر المصري حيويته، وخلصه من أثقال البديع وقيوده، وخلفه "حافظ"و"شوقي" وشعرهما يفيض بالعواطف الوطنية والدينية والقومية.

وتحدث في الشعر المصري موجة متأثرة بالمنزع الروماني الغربي، وتعقبها موجة ثانية هي موجة شعر التفعيلة المتحررة من الإيقاع المتكامل للشعر العربي. والفصحى فى هاتين النهضتين الكبيرتين لشعر مصر ونثرها حققت لها أعمالاً أدبية عظيمة.

واقترنت بالفصحى في البلدان العربية المختلفة عاميات تفرَّعت منها، متخذة طوابع خاصة في كل بلد، نشأت من التقاء الفصحى بلغات تلك البلدان المحلية وأوضاعها في نطق الكلام، مما أدخل على ألفاظ الفصحى صورًا مختلفة من التحريف، وأيضًا فإن تلك العاميات لم تكن تعرف الإعراب الذى تتميز به الفصحى، فأهملته فيها؛ وبذلك أصبحت لكل بلد عربي عامية متميزة، بها بعض ألفاظ استبقتها من لغاتها المحلية الأصلية، وخاصة أسماء البلدان وبعض المواضع. ولا نعرف بالضبط التاريخ الذى شاعت فيه عامية كل قطر عربي على لسان أهله وشعبه، ومن المؤكد أنها بدأت في مصر، منذ القرن الثالث الهجري، غير أن أول نصوص وصلتنا منها إنما وصلتنا من

القرن السادس الهجري، إذ نجد "ابن سناء الملك" شاعر "صلاح الدين" يودِع كثيرًا من نهايات موشحاته- أو أقفالها الأخيرة- بعض ألفاظٍ عامية مصرية، ويكتب "أسعد بن مماتي" الشاعر الموظف فى دواوين صلاح الدين وخلفائه من أبنائه كتاب "الفاشوش فى حكم قراقوش" محافظ القاهرة لعهد صلاح الدين، وفيه كتب باللغة الدارجة المصرية مجموعة نوادر ساخرة مضحكة من أحكام "قراقوش" الدالة على حمقه وغفلته المفرطة.

ونلتقي في مصر – منذ القرن السابع الهجري – بسير للبطولة العربية، منها: سيرة الهلالية، ورحيل بنى هلال، وبعض القبائل القيسية، إلى المغرب في القرن الخامس، ونشوب حروب بينهم وبين المغاربة، ويستولون على بعض مدنهم، ويقودهم في تلك الحروب بطلان عربيان: "أبو زيد الهلالي" و"دياب بن غانم"، والأحداث في السيرة غائمة، وهي مكتوبة باللغة اليومية شعرًا ونثرًا، وتعلق بها الشعب المصري في حَضَره وريفه، وعادة يلقيها منشد على ربابة، وتسميه العامة "الشاعر".

ومما كتبته مصر بالعامية "سيرة سيف بن ذي يزن" وبطولته في حروبه مع الأحباش، في أواخر العصر الجاهلي، وسيرة عنترة، وهى ملحمة كبرى للبطولة العربية، وفيها يحارب عنتر - كما يسمَّى في السيرة – بجميع الميادين التي حارب فيها العرب منذ الفتوح الإسلامية، وتمتد بطولاته وحروبه إلى عصر الحروب الصليبية وميادينها، وإلى "إسبانيا" وبعض المدن الأوربية. وتكتب بالعامية "سيرة الظاهر بيبرس"، سلطان مصر المملوكي، ساحق التتار والصليبيين، مصورة بطولاته العظيمة.

وكتبت في عصر المماليك بالعامية المصرية "ألف ليلة وليلة"، مع إضافة طائفة كبيرة من القصص المصرية إليها، مثل:" قصة علاء الدين"، و"على الزيبق" و"المصباح العجيب"، و"حكاية الصعيدي وزوجته الإفرنجية"، وهي تصور الصراع بين المسلمين والصليبيين. وكل من أضافوا القصص المصرية الكثيرة إلى ألف ليلة وليلة، وكذلك كل من كتبوا سير البطولة والقصص الشعبية السالفة لا تعرف أسماؤهم؛ لأنهم من أبناء

الشعب المصري الذين يقدمون أعمالهم للشعب، ولا يهمهم أن تعرف أسماؤهم؛ إذ لا يبتغون بها شهرة ولا ما يشبه الشهرة.

وكانت تمثل بالعامية بعض مسرحيات هزلية على مسرح خيال الظل، وهو مسرح دمى متحركة متحاورة، ومن أطرفها مسرحية "طيف الخيال" التي كانت تمثل في عصر السلطان "الظاهر بيبرس"، وهي مسرحية شعرية نثرية تعرض مشكلة الخاطبة – حينئذ – وما كان ينشأ عنها من أغلاط ومفارقات في حقائق الزوجين، وتكتظ بالهزل والفكاهة والدعابة.

وتكثر الأزجال بمصر منذ القرن الثامن الهجري، ويشتهر فيها غير زجّال. ونلتقي في القرن التاسع الهجري بإمام واعظ في أحد المساجد بالقاهرة، وكتابه "نزهة النفوس ومضحك العبوس"، وهو يموج بأزجال وأقاصيص ونوادر عامية فكهة.

ويكتب في العصر العثماني شيخ واعظ كتابًا عاميًّا، يسميه "هز القحوف" يصور فيه ظلم العثمانيين للمصريين، في نوادر لاذعة لذعًا شديدًا.

ونمضي إلى العصر الحديث ويخرج "يعقوب صنوع" صحيفته العامية "أبو نضارة" ويصبها نارًا كاوية مملوءة بالسخرية المرة على "الخديوي إسماعيل" وسياسته الحمقاء، وعلى "الخديوي توفيق "والامتيازات الأجنبية والإنجليز. ويخرج "عبد الله نديم" في عهد توفيق صحيفته "التنكيت والتبكيت"، ثم "الأستاذ"، ويفرد فيهما صحفا عامية لمحاورات وأزجال، تعرض عيوبنا الاجتماعية والسلوكية، والانسياق الشديد نحو الحضارة الأوربية بصور ساخرة متهكمة تهكمًا شديدًا.

وتكثر المجلات العامية الهزلية منذ أوائل القرن الحاضر، وتكتظ بالأزجال والنوادر والنكت والقفش، مثل: الأرغول، والسيف، والمسامير، وخيال الظل، ثم الكشكول، ومجلة الفكاهة، وكان يرأس تحريرها "حسين شفيق المصري" مبتدع

شخصية "الشاويش شعلان عبد الموجود"، وابتدع أبوابًا كثيرة فكهة. ويتكاثر الزجالون من مثل "محمود رمزي نظيم"، و"بديع خيري"، وله تمثيليات عامية فكهة مثَّلها "نجيب الريحانيط. ومن أبدع الزجالين – منذ العشرينيات في القرن الحاضر –: "بيرم التونسي، ولا يزال زجالون بارعون يطرفوننا – اليوم – بأزجالهم.

وفي القرن الحاضر – وخاصة منذ منتصفه – يكثر الكتاب الذين يؤثرون العامية في كتابة قصصهم وأقاصيصهم، وكأهم يعيدون لنا ذوق أسلافهم في الحقب الماضية، حين اختاروا العامية لكتابة السير والقصص الشعبية. وينشئ "يعقوب صنوع" – لعهد الخديوي إسماعيل- مسرحًا بالقاهرة على شاكلة المسارح الأوربية، وألَّف له فرقة مثلت عليه بالعامية، ما زوّدَها به من مسرحيات غربية ممصرة. و لم تلبث الفرق المسرحية السورية واللبنانية أن وفدت على مصر، ومثلت مسرحيات فرنسية ممصرة كثيرة.

ويعنى المصريون منذ أوائل القرن الحاضر بتأليف الفرق المسرحية، ويأخذون في تأليف مسرحيات كثيرة، ويزدهر التأليف للمسرح منذ منتصف القرن الحاضر، ويرى كثيرون من المؤلفين له أن تكون العامية أداة التعبير في مسرحياهم على ألسنة شخوصها المختلفين.

ومن حين إلى حين- منذ أواخر القرن الماضي إلى اليوم -يدعو بعض أصحاب العامية إلى استبدالها بالفصحى فى الكتابة الأدبية، محتجين بأها لغة التخاطب والحديث فى الحياة اليومية، وأها ألصق بالنفوس وأصدق فى التعبير عن الخواطر، وفاقم أن ذلك إنما يشعر به من لا يُتقن الفصحى ولا يستطيع الإبانة بها عن خوالجه، ومن المؤكد أن العامية على الرغم من طواعيتها لنا فى الحديث كل الطواعية لا تحمل لنا علمًا ولا فكرًا عميقًا، ولا نظريات سياسية أو اقتصادية، ولا تشريعات وقوانين، ولا دراسات سيكولوجية أو اجتماعية ولا دينًا وأعمالاً روحية، إنها لهجة قلما تحمل لنا أعمالاً وراء

مطالب الحياة والفكر اليومي، وفيم إذن هذه الخصومة التي يثيرها في الحين بعد الحين ضد الفصحى بعض كتاب العامية؟ وفيم هذا النضال؟. وأنا موقن أن هذه الخصومة لم تحدث في العصور والحقب السالفة قبل العصر الحديث، فلم يحدث أن أحدًا ممن كان يكتب الأزجال أو يكتب السير والقصص الشعبية في العصور الوسطى لهج ضد الفصحى مطالبًا بأن تحل العامية في أدب أسلافنا محلها، وبالمثل لم يدع أحد من أصحاب الفصحى ضد العامية وأعمالها، بل كانت دائمًا الطائفتان من الكتَّاب بالفصحى والكتَّاب بالعامية يتعايشان في وئام وسلام.

وظل أهل الفصحى إلى عصرنا يرتضون من الكتَّاب بالعامية ما يكتبونه أزجالاً أو أشعارًا عامية أو قصصًا وأقاصيص أو مسرحيات، فلهم حريتهم كاملة فيما يكتبون ولا يتعرضون لهم أيَّ تعرض، وكان ينبغي أن يجاريهم مَنْ يدعون للكتابة بالعامية فلا يثيرون ضد الفصحى أي خصومة؛ لأنها هي الأم، وهي الأقوى بكنوزها الأدبية والعلمية، وهي التي تملك من أفراد الشعب المصري – ومن أفراد دعاة العامية أنفسهم في رأينا – أفئدتهم وعقولهم وقلوبهم، بدليل نراه تحت أبصارنا ولا يغيب عنا، وهو أن الصحف التي تخاطب الشعب المصري – منذ أواسط القرن الماضي إلى اليوم – تتخذ الفصحى أداة في مخاطبته، ويقرؤها يوميًّا في مصر صباح مساء أعداد وفيرة تعد بالملايين.

ويزعم دعاة العامية أن الفصحى وافدة غريبة على مصر، وهي لغة المصريين منذ ألف وأربعمائة عام، وليس في العام كله لغة حية اليوم أطول حقبًا تاريخية من تاريخ الفصحى في مصر، وهم في ذلك الزعم كأنهم لا يعرفون أن العامية التي يطالبون بأن تحل محل الفصحى هي بنتها، نشأت من التقائها بالشعب المصري الذي لم يكن يعرف الإعراب في لغته الديموتيقية الشعبية القديمة، ودخلتها تحريفات في قواعدها ونطق بعض حروفها بسبب سليقة المصريين الموروثة، وبسبب لهجات بعض القبائل النجدية التي

استوطنت مصر، وهي بذلك لهجة عربية أحدث من الفصحى تداولاً على ألسنة المصريين.

ويقول أصحاب الدعوى إلى العامية: إن التمسك بالفصحى يؤول بنا إلى أن تكون لنا دائمًا ازدواجية أو ثنائية في اللغة التي نستخدمها، وينبغي أن نكتفي باللغة اليسيرة السلسة، وهي العامية الخالية من الإعراب ومشكلاته، والتي لا نحتاج معها إلى تعلم، والتي يجيدها أفراد الشعب سليقة وطبعًا، والتي نستطيع أن نصور بها كل ما يجري في نفوسنا وخواطرنا دون أي مشقة، والتي يستعملها أفراد الشعب ويتفاعلون معها مباشرة.

والقول بأن وجود العامية مع الفصحى عندنا يحدث ازدواجية لغوية أو ثنائية قول من لا يعرفون أن اللغات العالمية قديمًا وحديثًا كانت فيها ولا تزال هذه الثنائية، فقديمًا كان للغة اللاتينية فى إيطاليا التي كتب بها فرجيل وسنيكا وشيشرون لهجة عامية يتخاطب بها أفراد الشعب فى روما، وحديثًا كان راسين وكورني وموليير وفيكتور هيجو يكتبون أعمالهم بالفرنسية الأدبية لا باللهجات الفرنسية السوقية، تمامًا مثل أدبائنا حين يرتفعون عن العامية ويكتبون بالفصحى.

وأما ما يقولونه من أن العامية لا تحتاج إلى تعلم مثل الفصحى، وأنها تعيش في الأفواه والأسماع دون الفصحى التي تحتاج معها إلى الدرس والتعلم، فهو قول غير دقيق؛ لأن كل اللغات الحية يدرسها أبناؤها ويتعلمونها تعلمًا صحيحًا،ويتذوقون أدبها.

وأيضًا فالهم أن الفصحى تمرنت طوال أربعة عشر قرنًا على أداء الأفكار، وأنها لم تستعص يومًا على أداء فكرة علمية أو فلسفية، وقد اتسع مجالها واتسعت ليونة ألفاظها وأساليبها على أيدي كبار كتابنا وشعرائنا طوال العصر الحديث، سوى ما أحدثته الصحف فيها منذ أواسط القرن الماضي، حتى جعلتها اليوم تقترب قربًا شديدًا من لغتنا الدارجة اليومية.

ويقول دعاة العامية: إن الفن يقوم على محاكاة الواقع، ومحاكاته في الأزجال

والقصص وحوار المسرحيات إنما يتم – بدقة – عن طريق التعبير بالعامية التي تحـاكي الواقع في المجتمع المصري محاكاة تامة في أحاديث أهله.

والقول بأن المحاكاة في الأدب تستلزم أن ينقل الواقع فيه بلغته العامية قول غير صحيح؛ لأن المحاكاة في الأدب والفن لا تقتضي دقة النقل فيهما عن الواقع بحيث يكون العمل الفني أو الأدبي مطابقًا له تمام المطابقة، بل إن اكتمال الدقة في المطابقة فيهما قد يفسدهما،إذ قد يتحولان إلى ما يشبه النقل في التصوير الفوتوغراف،ي إذ هذا النقـل الآلي لا يعد فنًّا، فالفن دائمًا تحرير في الواقع على نحو ما يعرف في لوحات الرسـامين وألحان الموسيقيين؛ لأن الفنان دائمًا – ومثله الأديب – لا ينقل الواقع نقلاً أصم وإنمـا يستوعبه ويتمثل روحه ويضفي عليهِ من خياله وذهنه ما نتمثله به ونجد فيه متاعًا فنيًّا أو أدبيًّا، وكأنما يرفع عنه حجابًا كان يغلقه ويستره عن أبصار الناس العاديين، والفنـان بذلك – ومثله الأديب – كأنما يصنع الواقع من جديد.

ليس عمل الأديب – إذن – نقل الواقع وإنما صناعته صناعة جديدة، تحاكيـه بصورة أقوى، وما قوتها إلا ما يضيفه إليها الأديب من مخيلته وفكره وأدواته الأدبيـة، فالزجال – مثلاً – حين يحاول نقل واقع شعوري أو حدث اجتماعي يبرزه في عبارات سائغة موقعه بنغم يؤثر به في قارئه بحيث يصبح عملاً فنيًّا تامًّا، ومثله الوشّاح صـانع الموشحات، غير أنه يتفوق عليه من حيث الفن الخالص؛ لأنه ينظم موشحه بالفصحى، التي طالما بث فيها الوشاحون والشعراء على مدى أربعة عشر قرنًـا مـن السمات والصفات الجمالية ما يعوز الزجل إلى حد كبير.

وما يقال في الزجل والموشحة يقال مثله في القصة الفصيحة والعامية، وقد يُظنُّ أن العامية تستحب في القصة بأكثر من الفصحى؛ لأنها تتناول جوانب الحياة في المجتمع وهي في متناول الأفواه والشفاه ولا مشقة فيها ولا عُسْرَ، ومن يقولون ذلك يتناسون ما

في القصة الفصيحة من البيان العربي القويم الذي تُصْغي إليه القلوب: قلوب المثقفين والعامة جميعًا، وأيضًا فليس الأساس في روعة القصة قائمًا على اللغة وحدها، فأهمُّ منها بناء القصة بناءً فنيًّا محكمًا بحيث تترابط جزئياته ووحداته ترابطًا عضويًّا بما تعتمد عليه من أحداث مثيرة وحبكة قصصية متقنة، وهى تختلف من قَصَّاص إلى قصاص بما يُضْفِي عليها من ومضات شعوره وفكره.

وقد يُظَنُّ أن لغة المسرحية تناسبها العامية لا الفصحى؛ لأنها شفوية مثلها، أما الفصحى فهي فلسفة التعبير الكتابي، والعامية لذلك أكثر مواءمة للمسرحية، غير أن من ينعم النظر في فن المسرحية يراها تلتزم قواعد فنية كثيرة ينبغي توفرها فيها، كما ينبغي أن تتوفر فيها الألفاظ الموحية، والفصحى تتفوق على العامية فيما تحمل من هذه الألفاظ، وأيضًا فإن العامية لا نظام لها في التعبير يجعلها سهلة الانقياد للممثل، بينما الفصحى مذللة لما يحتاجه الممثل من أوضاع مختلفة في الصياغة.

فقول دعاة العامية بأن الحوار المسرحي والقصصي ينبغي أن يكتب بالعامية طلبًا لدقة المحاكاة يجانب حقائقهما الأدبية وقد نقل إلى الفصحى كبار المترجمين من المصريين مسرحيات شكسبير وراسين الشعرية وأعمال القصاص الفرنسيين والإنجليز وغيرهم من أدباء الغرب، وأدوا معانيها وأفكار الشخوص المختلفين فيها بفصحى سديدة أدتها أداء دقيقًا – وبذلك تسقط دعوى دقة المحاكاة في العامية بالقياس إليها في الفصحى كما سقطت الدعاوى السابقة.

ويقول دعاة العامية: إنها لغة الشعب بينما الفصحى لغة فئة مثقفة محدودة، والعكس هو الصحيح؛ إذ العامية لا تطرد بصورة واحدة لا في الشعب المصري ولا في غيره من الشعوب العربية، وفي مصر عاميتان كبيرتان: عامية صعيدية لأهل الصعيد، وعامية بحرية لأهل الدلتا، وللمدن المصرية عامية تختلف كثيرًا أو قليلاً عن عامية أهل الريف، وللقاهرة عامية تختلف عن عامية أهل الإسكندرية، بينما كل أهل العاميات في

مصر تتخذ الفصحى لغة لها لا فى التعليم والثقافة فحسب، بل في جميع شئونها الدينية، وفيما تقرأ من الصحف اليومية، فهي اللغة الجديرة بأن تسمى لغة الشعب المصري لا العامية المحصورة في فئة محدودة تستخدمها أزجالاً أو قصصًا وأقاصيص أو تمثيليات مسرحية.

ومن المؤكد أن كل ما ينتجه أدباؤنا في العامية أدب محلي لا يعدو انتشاره أسوار مصر، إذ لكل بلد عربي عاميته بحيث لا يفهم الشامي ولا العراقي ولا المغربي فهمًا واضحًا ما يكتب بالعامية المصرية، بينما كل ما ينتجه أدباؤنا بالفصحى أدب عربي يخترق هذه الأسوار إلى البلدان العربية منتشرًا فيها من الخليج إلى المحيط ببيان واضح تمام الوضوح، ولو كان أدباؤنا الكبار اصطنعوا العامية فيما كتبوا من آثار لأعرض الناس من الشرق الأوسط جميعه عن قراءهم، ولما أقبلوا هذا الإقبال العظيم على اقتناء أعمالهم نثرًا وشعرًا، ولما حظيت مصر بزعامتها الأدبية بين البلاد العربية، كما تحظى بها اليوم، وهى زعامة تتبوؤها طوال العصر الحديث، ولن تتنحى عنها في أدبها؛ لأن أدباء العامية لا تعنيهم هذه الزعامة وتهمهم في شيء، بل ستظل – بكل ما تستطيع – تحافظ عليها بفضل الفصحى وما ينتجه أدباؤنا الأفذاذ فيها من أعمال أدبية قيمة.

وإن في تمسك أدبائنا الكبار وصحافتنا بالفصحى التي تجمع بيننا وبين البلاد العربية في لسان عربي واحد لشعورًا قويًا بأننا جميعًا أسرة واحدة، وهي أسرة في حاجة إلى التعاون في مضمار المصالح والمنافع، وما قد يلم بنا من أحداث وخطوب. وإن شعب مصر والشعوب العربية اليوم لفي حاجة قصوى لتوثيق هذه الرابطة اللغوية حتى تحسب الدول الغربية فى عصرنا حسابهم، وقد أصبح واضحًا أن الدول الغربية لا تعيش اليوم منعزلة بعضها عن بعض، إذ تجمع شملها في تكتلات على فكر اقتصادي أو سياسي واحد، على نحو ما نرى من تكتل الدول الأوربية في السوق الأوربية المشتركة،

وفي اتحاد التعاون الأوربي، وتكتلها مع أمريكا فى حلف الأطلنطي.

ومن المؤكد أن تكتل مصر والدول العربية فى لسان عربي واحد من شـأنه أن يجعلهم قوه متحدة كبرى في مضمار السياسة العالمية، ولنا عبرة بالوحدة اللغوية بـين إنجلترا والولايات المتحدة، فإن الرابطة اللسانية بينهما هي التي جعلت الولايات المتحدة في القرن الحاضر تدخل في الحربين العالميتين اللتين اشتعلتا فيه ضد ألمانيا لحماية إنجلتـرا شقيقتها الناطقة بلغتها. وفي ذلك ما يصور بقوه حاجة مصر وشـقيقاتها العربيـة إلى التمسك بالفصحى حتى تحميها في معارك السياسة وتنازع البقاء.

أيها السادة:

إن الفصحى أوثق الروابط التي تربط أبناء الأمة العربية مصريين وغير مصريين في جميع بقاع الأرض شرقًا وغربًا، وإنها لتجمعهم في وحدة روحية إلهية لا تنفصم عراها، استقرت في ضمائرهم وضمائر أسلافهم على تعاقب العصور، وحـدة لهـا قداسـة تستمدها من القرآن الكريم الذي أكرم الفصحى باتخاذها لغته، وأضفى عليها من جلاله ما جعلها خالدة بخلوده، وإنها لعنوان حضارتنا، ولسان علومنا وآدابنا،وستظل الأمـة العربية – في مصر وغير مصر – تضمها – كما ضمتها طوال أربعة عشر قرنًا أو تزيد – إلى قلوبها وأفئدتها، وستظل تعتزُّ بها في المستقبل كما اعتزت بها في الماضـي؛ لأنهـا جوهر كياننا القومي العربي الإسلامي، جوهر ثابت إلى أبد الآبدين.

وإن العامية المصرية لترمقها في تجلة، وتتطلع – منذ أوائل القـرن الحاضـر – للحاق بها مستعيرة منها كثرة من ألفاظها، وهي كثرة ازدادت كلما قطعنا شوطًا مـن السنين، ومن المؤكد أن عاميتنا – الآن في جيلنا – أقرب إلى الفصحى مما كانت عليه في الجيل الماضي،وستظل تقترب منها جيلاً بعد جيل متخطية إليها الفوارق والفواصـل حتى تذوب فيها نهائيًّا. وإن واجب وزارات الإعلام في الديار العربية: مصر وغير مصر

أن تتسع في استخدام الفصحى بجميع وسائلها الإعلاميـــة، وخاصـــة في مسلـــسلاتها الإذاعية والتليفزيونية، وبذلك تستجيب تلك الوزارات لرغبـــات عميقـــة في نفـــوس الشعب المصري والشعوب العربية.

*   *   *

ازدهار الفصحى في القرن العشرين(*)

للدكتور شوقي ضيف
(رئيس المجمع)

الزملاء المجمعيون، سيداتي وسادتي:

الفصحى لغة عريقة تتعمق في التاريخ؛ إذ نشأت منذ نحو ستة عشر قرنًا، وهي - بذلك- أقدم اللغات الحية زمنًا وأطولها حياة، تولدت من لهجة قريش وارتفعت إلى منـزلة لغة أدبية لعرب الجزيرة العربية في الجاهلية، وإنما اختارت قبائل الجزيرة لهجة مكة القرشية لتكون لغة أدبية عامةً لها؛ لأن مكة كانت مهوى أفئدهم بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي، فكانت حارسة الكعبة بيت عبادهم، وكانت قوافلها التجارية تجوب الجزيرة شمالاً وجنوبًا وشرقًا، وكان العرب يجتمعون بها في أعيادهم الدينية وفي الأسواق المحيطة بمكة، وبخاصة في عُكاظ ينشدون فيها أشعارهم، ويحتكمون إلى النقاد لإعلان أسماء المتفوقين فيهم.

وكانت القبائل العربية ترى الحبشة تسيطر على اليمن ثم الفرس، ويسيطر الروم على القبائل في الشمال الغربي للجزيرة، والفرس على القبائل في الحيرة والشمال الشرقي، فتجمعت قلوهم حول مكة التي لم تدِن يومًا لسلطان أجنبي، فكانت رمز استقلالهم وعاصمة ديانتهم الوثنية، وكان طبيعيًّا أن يشعروا بسمو لهجتها، وأن يتخذوها لغتهم الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأشعارهم.

ونوَّه أسلافنا بجمال اللهجة القرشية الفصحى وتفوقها على اللهجات العربية، من مثل قول أحمد بن فارس:"إن قريشًا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة "، ويقول

(*) ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة الثانية، من مؤتمر الدورة الرابعة والستين، في ٩ من مارس سنة ١٩٩٨م، ونشرت بمجلة المجمع، بالعدد السابع والثمانين، ص ٢٣.

أبو نصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا وأبينها إبانة عما في النفس".

وحظيت هذه الفصحى القرشية بنــزول القرآن الكريم فيها وما صبّ بها مــن إشعاعات بلاغية وربانية بحيث لم يتح لأمة من الأمم كتاب يماثله في روعة البيان، وظن الأسلاف أن هذه الروعة وحدها مدار إعجازه، ووقفوا عندها يصورونها في مباحــث قيمة، وفاتهم من وجوه إعجازه أنه ينقل من يتلوه ومن سمعه إلى حضور رباني يملــك عليه لبه وقلبه، ويستولي على كيانه، فيستسلم للرسول ويعلن إليه إسلامه على نحو مــا كان يحدث للمسلمين القرشيين الأولين وما حدث لعمر بن الخطاب، فقد كان كافرًا وملأه خاله أبو جهل أكبر أعداء الرسول حَنقًا عليه وغضبًا لتفريقه الجماعة في مكــة، وأقسم لخاله ليقتلنه وتقلد سيفه، وسار في شوارع مكة، وفيها علم أن أختــه فاطمــة وزوجها سعيد بن زيد أسلما و لم يكن يعلم، وسمعهما يتلوان القرآن قبل دخوله البيت فدخل غاضبًا في عنف، وضرب أخته، فقالت له: قد أسلمنا فاصنع ما بدا لك. يقــول عمر: - كما في عيون الأثر -: فرأيت كتابًا في ناحية من البيت، فقلت لأختي: أعطنيه، و لم أزل بها حتى أعطته لي، فإذا فيه سورة الحديد، وقرأت في أولها (بسم الله الــرحمن الرحيم) فذُعرت ورميت الصحيفة من يدي، ثم رجعتْ إليَّ نفسي فإذا فيها: ﴿سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فكلما مررت باسم من أسماء الله ذُعرت ثم ترجع إلي نفسي حتى بلغت الآية: ﴿آمنوا بالله ورســوله وأنفقــوا ممــا جعلكــم مستخلفين فيه﴾ وبلغتُ إلى قوله: ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ووضع عمر سيفه في غِمده وذهب مهرولاً إلى رسول الله وأعلن إليه إسلامه. وفي هذا الخبر ما يصور بدقة ما أقوله من أن القرآن الكريم يمسك بزمــام[1] تاليه وسامعه، بحيث يستسلم لله ورسوله، وهو إعجاز عبر عنه عمر بقوله: إنه كــان يذعر كلما تلا اسمًا من أسماء الله.

وسمع الوليد بن المغيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم- وهو يتلو بعض آيـــات من القرآن وكان من ألد أعدائه، فتوجَّه إلى نفر من قريش قائلاً:"والله لقد سمعت مـــن محمد كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنِّ وإن له لحـــلاوة، وإن عليـــه لطلاوة ". وقد شعر بوضوح أن آيات القرآن تباين كلام الإنس من شعرائهم الفصحاء كما تُباين كلام الجن الذي كان يزعم كُهانهم أنهم ينطقونهم به، فهو ليس شعرًا موزونًا مما كان ينطق به شعراؤهم، ولا سجعًا مقفًّى مما كان ينطق به كهانهم. إنه نمط جديـــد باهر يؤثر في النفوس والقلوب.

وقد عملت هذه الفصحى القرآنية على تقريب ما بينها وبين اللهجات القبلية؛ إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، وتغلغلت هذه الفـــصحى بـــاليَمَن في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم اللغة الحميرية.

ولما فُتِحت البلاد الإسلامية أخذت هذه الفصحى تسود شرقًا وغربًا؛ إذ كانت تلاوةُ القرآن فرضًا مكتوبًا على كل مسلم، ويقول الله تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكًا ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى. قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسى﴾ وبذلك تحول المسلمون في جميع أقطار البلاد الإسلامية إلى حفظةٍ للقرآن، يتلوه كبيرهم وصغيرهم، حـــتى مـــن سكنوا منهم في رءوس الجبال وفي الصحارى النائية، مما جعل المسلمين في كل بقـــاع الأرض ينطبعون بطوابع الفصحى القرآنية.

وتتميز فصحى القرآن بأسلوبها الرصين مع الجزالة والعذوبة وقربها من الأفهـــام حتى تلمس شغاف القلوب، أسلوب واضح يلذ الآذان حين تستمع إليه والأفواه حـــين تنطق به والأفئدة حين تصغي له، وقد استطاع أن يفتح قلوب الشعوب حـــين فـــتح العرب الأمصار من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطي، فإذا جميعها تَهْجُر لغاتِها وتزايـــل

ألسنتها، وتحل فيها جميعًا لغته الصافية الشفافة بألفاظها الناصعة المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه.

وهذا الأسلوب الرائع هو الذي أقام عمود العربية وحافظ على مقوماتها وأوضاعها في العالم العربي الكبير إلى اليوم، وكان المظنون حين حملت العربية في العصر العباسي علوم الأوائل السابقين لها جميعًا والفلسفة اليونانية أن تحدث تغيُّراتٌ وانحرافات في أوضاع العربية، و لم تحدث؛ إذ وسعتها العربية باشتقاقاتها وصيغها الكثيرة، وتمثّلت كل ما نقل إليها من الحضارات السابقة: الهندية والفارسية واليونانية من علم وفكر وفلسفة، وأضافت في جميع المجالات الفلسفية والعلمية إضافاتٍ باهرةً جعلتها تنفرد بقيادة العالم علميًّا وفلسفيًّا وحضاريًّا، وأخذت تذيع علومها وفلسفتها في أوربا وأقطار العالم لمدة ستة قرون من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ملأت فيها الأرض علمًا وأدبًا وفلسفة.

وحدثت خطوب وأحداث كثيرة أماتت لغات كانت ناطقة ومنتشرة مثل اللغتين اليونانية العتيقة واللاتينية، وبَلِيَتْ منها فصحى العربية بلاء كثيرًا جعل حضارة الأمة العربية وما يُطْوَى فيها من العلوم والفلسفة تكاد تتوقف ويصيبها عُطلٌ شديد، غيرَ أنها لم تمت وظل لواؤها مرفوعًا طوال عدة قرون خمدت فيها وركدت، إلى أن وصلت إلى القرن التاسع عشر الميلادي بعد كل ما أصابها من الكوارث والخطوب سليمةً دون أن يعتريها شيء من الفساد أو الاختلال.

وكانت مصر قد بدأت نهضة علمية، فضمتها إلى صدرها وأخذت تنقل إليها العلوم الحديث للغرب، وأدتها أداء دقيقًا، وسرعان ما كوَّنت مصر منها لغة علمية في القرن الماضي انتفعت بها جاراتها العربية، وعرَّبت - مع العلوم الغَرْبيَّة - القانون الفرنسي وعلم الاقتصاد، ويسميه العرب عِلْمَ المعاش. و لم تلبث مصر في العقود الأخيرة من

القرن الماضي أن بدأت ترجمة الآداب الأوربية وما ينطوي فيها من الأعمال القصصية والمسرحية.

وكانت فصحى الشعر في هذه العقود قد تخلَّصت - على يد البارودي - من أغلال البديع الثقيلة ومن أساليبه الركيكة الغثة، وأصبح الشعر يصور حياة الشاعر ومشاعره وحياة أمته مع استعارته من أسلافه إطارهم الشعري، غير أنه يملؤه بروحه وبشخصيته وبأمته وأحداثها السياسية مما اختلف عليه من أيام نعيم وأيام بؤس ونفي في سرنديب.

ونمضي إلى القرن العشرين فيخلف حافظ وشوقي البارودي، أما حافظ فشدَّ إلى قيثارة الفصحى وترًا وطنيًا ثائرًا ملأ به قلوب الشعب المصري حماسة وصلابة، لمنازلة الإنجليز المحتلين لدياره، وهو فيه يعد سابقًا لشعراء مصر والبلاد العربية، وشدَّ مع هذا الوتر وترًّا عربيًّا، وكان أول ما وقع فيه من نغم نداء قويًّا للمصريين والعرب لإغاثة الفصحى ضد أعدائها المستعمرين؛ إذ هاجمها قاض إنجليزي بمحكمة الاستئناف الأهلية يسمى "ويلمور" ألف كتابًا عن لغة أهل القاهرة سنة ١٩٠٢م، دعا فيه لاتخاذ العامية لغة للآداب والعلم في مصر، وأحدث الكتاب هِزَّةً حادَّة في مصر والبلاد العربية. وردَّ عليه ردًا عنيفًا حماة الفصحى، وفي مقدمتهم: حافظ إبراهيم؛ إذ نشر ضد دعوته قصيدته: "اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها" مصوبًا أبياتها - كالسهام - إلى دعوته فقضت عليها قضاء مبرمًا، وفيها يقول على لسان الفصحى:

وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية وما ضقت عن آيٍ به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات؟

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟

وحافظ يرد في هذه الأبيات على ما كان يردده أعداء الفصحى من أنها لا تحمل مصطلحات العلوم الغربية ومخترعات الغرب، ويقول: إن هذا ليس من قصور ذاتي فيها إنما هو قصور في أهلها، ويقول حافظ: إنه يكفيها فخرًا أنها وسعت كتاب الله وآياته المحكمة مشيرًا بذلك إلى أن دعوة "ويلمور" باستخدام العامية تحمل في طياتها دعوة إلى القطيعة بيننا وبين القرآن الذي يضمه المصريون إلى صدورهم وقلوبهم، وهدمت القصيدة دعوة "ويلمور" من أساسها، واضطر إلى مغادرة مصر في غير رجعة.

ويقف حافظ مع سورية ولبنان ضد الاستعمار، مسلطًا عليه نارًا حامية من أشعاره، ويستشعر بقوة ما بين مصر والبلاد العربية الشقيقة من أخوة، وينتصر دائمًا للشيخ محمد عبده فيما كان يأخذ به نفسه من الإصلاح الديني، ويشدُّ إلى قيثارة الفصحى وترًا جديدًا سبق به معاصريه من شعراء العربية غير منازع، أقصد وتر الشعر الاجتماعي الذي يصور فيه عِلَلنا الاجتماعية والأخلاقية، مع الدعوة إلى البر بالفقراء والبؤساء، وحثّ الأثرياء على بذل أموالهم للملاجئ والجمعيات الخيرية.

وشدَّ شوقي إلى قيثارة الفصحى وترًا اجتماعيًّا بديعًا كما شدَّ إليها وترًا وطنيًّا رائعًا اشترك فيهما الوطني والاجتماعي مع حافظ، وله فيهما أبيات نادرة مثل قوله:

وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي

فحتى لو كان ينعم في أعطاف الخلد وجنبات الجنان لن ينساه ولن يغرب عن خياله، فمصر معبودته بتراثها العبق. وشد في قيثارة الفصحى وترًا عربيًّا في غاية الروعة، وقصائده في دمشق قلما تجد دمشقيًّا لا يحفظها ولا يتغنى بأبياتها، من ذلك قصيدته القافية التي نظمها حين صوَّب الفرنسيون عليها مدافعهم، وفيها يدعو السوريين إلى استمرار الثورة على الفرنسيين وبذل دمائهم وأرواحهم في سبيل ما يريدون من الحرية والاستقلال، يقول:

وللحرية الحمراء بابٌ   بكل يدٍ مضرَّجةٍ يُدَقُّ

وشد إلى قيثارة الفصحى وترًا تاريخيًّا تغنى فيه بتاريخ مصر وأمجادها الفرعونية غناء حارًّا، وله في هذا التاريخ قصائد فريدة مثل قصيدته في أبي الهول، وقصيدته في اكتشاف قبر توت عنخ آمون، وقصيدته "النيل" وفيها صور تاريخ الفراعنة وأمجادهم الحضارية العريقة، وذكر تابوت موسى وقصة يوسف وإخوته ومريم وعيسى ونزول الإسلام في مصر واستضاءها بأنواره مجسمًا في ذلك كله شخصية النيل المعنوية بجانب شخصيته الحسية. وشدَّ إلى قيثارة الفصحى وترًا دينيًّا بمدائح للرسول- صلى الله عليه وسلم- يتفوق فيها على جميع معاصريه، ومن أروعها يتيمته الفريدة التي سمَّاها "البردة" والتي نظمها على غرار مَدْحة نبوية للبوصيري تحدث فيها عن سيرة الرسول وشمائله العطرة، وردَّ فيها على أعداء الإسلام الذين يزعمون أنه إنما انتشر بالسيف وسفك الدماء قائلاً:

قالوا: غزوتَ ورُسْلُ الله ما بُعِثُوا   لقتل نَفْسٍ ولا جاءوا لسفك دَمِ

جَهْلٌ وتضليل أحلامٍ وسَفْسَطَةٌ   فَتَحْتَ بالسَّيْفِ بَعْدَ الفَتْحِ بالقَلَمِ

ولو أن هؤلاء الأعداء قرءوا القرآن وما فيه من قوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" لعرفوا أن حروب الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم تكن عدوانية إنما كانت دفاعية. ولشوقي أبيات كثيرة نادرة في مديح الرسول -صلى الله عليه وسلم- كقوله في افتتاح قصيدة في ذكرى المولد النبوي:

وُلد الهدى فالكائنات ضياءُ   وفَمُ الزَّمَانِ تبسُّمٌ وثناءُ

ويتحدث في فواتحها عن مولده، وما حدث فيه من خوارق متعددة. وشوقي عبقري الشعر العربي الحديث، وقد احتذى الشعراء في مصر والبلدان العربية نماذجه ونماذج حافظ في الشعر الوطني والاجتماعي، وبذلك أظلت مدرستهما: مدرسة الإحياء في العالم العربي من الخليج إلى المحيط.

ونشأ جيل جديد يمثله عبد الرحمن شكري، وإبراهيم المازني، وعباس العقاد اتجه بفصحى الشعر وِجهةً لم تُعْرَف لها قديمًا، إذ جعلوا قصائدها تعبر عن معانٍ إنسانية عامة وعن الطبيعة والكون وعن النفس ودخائلها ومطامحها وآلامها وأحلامها، واستغرق هذا الجيل منـــزع الرومانسية في الغرب، ولكل منهم دواوين متعددة. وخلفت هذا الجيـــل مدرسة أبولو، ويتألق فيها إبراهيم ناجي، وعلى محمود طه. أما إبراهيم ناجي فغرق في المنـــزع الرومانسي الأوربي إلى أذنيه، فجعل شعره ذاتيًّا وجدانيًّا يتغنى فيه بحب شـــقي عاثر غناء كله ألم وشجن، وقلق ممض، وكأنه يتجرع الحياة من كوب ماء مرير، وكان على محمود طه مثل ناجي يتأثر بالمنـــزع الرومانسي الوجداني، وعُني في شعره برصف الألفاظ الخلابة التي تؤثر في قارئه برنينها وألحانها المتلاحقة. وله ولصاحبه - مثل شعراء المدرستين السابقتين - تجديدات في الأوزان والقوافي.

ويشيع - منذ أواسط القرن العشرين- نمط جديد من الشعر يتخفف من أثقـــال العروض، فيلغي القافية المطردة إلغاء تامًّا، ويلغي معها فكرة الشطر والبيت، فالقصيدة من هذا النمط الجديد لا تتكون من أبيات بل تتكون من سطور متلاحقة، ولا تستبقي من العروض الموروث للشعر العربي سوى التفعيلة؛ إذ يعتمد عليها في سطوره، ولذلك سموا هذا النمط شعر التفعيلة، ومن شعرائه الممتازين نازك الملائكة بالعراق، وصـــلاح عبد الصبور بمصر، ومنذ ظهر كثُر شعراؤه كثرة مفرطة في العالم العربي.

ومما يذكر لشوقي أنه أدخل في فصحى الشعر العربي فنًّا شعريًّا جديدًا هو فـــن الشعر التمثيلي الغربي، وقد أراد به أن يقاوم تيار اللغة العامية الذي طغى على المـــسرح المصري، ونجح في ذلك نجاحًا منقطع النظير، وفتن الشباب بأعماله التمثيلية؛ لإرضـــاء عواطفهم الوطنية والعربية، ولتمصيره هذا الفن الأوربي؛ إذ جعله فنًّا مصريًّا عربيًّا لأول مرة في تاريخنا الحديث، وقد ألف فيه ثلاث مسرحيات ترضي العواطف الوطنية وهـــي

"مصرع كليوباترا" و"قمبيز" و"علي بك الكبير"، ومسرحيتين ترضيان العواطف العربية الإسلامية، وهما "مجنون ليلى" و"عنترة"، وألحق بهما مسرحية نثرية هي "أميرة الأندلس". وخلفه عزيز أباظة واتخذ منه إمامًا يتبع خطاه، فينظم على قيثارة الفصحى مسرحية وطنية هي "شجرة الدر" ومسرحيات عربية، هي "قيس ولبنى" و"العباسة" و"الناصر" و"غروب الأندلس" سوى مسرحياته "شهريار" و"قافلة النور" و"أوراق الخريف".

وعلى هذا النحو ازدهر الشعر العربي في القرن العشرين وازدهرت معه فصحاه؛ إذ وقع الشعراء على قيثارتها مالا يكاد يحصى من الدواوين ذات الاتجاهات الجديدة لا في مصر وحدها بل في جميع أقطار العالم العربي، سوى ما صاغ لها شوقي وعزيز أباظة من الشعر التمثيلي المسرحي.

وإذا انتقلنا من فصحى الشعر إلى فصحى النثر في القرن العشرين لاحظنا - منذ فواتحه - أن الكتَّاب تخلصوا من أسلوب السجع وما كان يثقله من أغلال البديع، وتحولوا إلى أسلوب مرسل خال من العوائق، وأخذوا يُمَرِّنونه في موضوعات سياسية واجتماعية وفي أداء ما يترجمونه من الموضوعات والمعاني الغربية، وظهر حينئذ خطباءُ وكتابٌ كبارٌ مثل مصطفي كامل، ومصطفي لطفي المنفلوطي، وأحمد لطفي السيد، أما مصطفي كامل فكان خطيب الأمة السياسي، الذي ينازل الاحتلال الإنجليزي منازلة حادة، ويعد مؤسس الخطابة السياسية في مصر والبلاد العربية، ونماها بعده سعد زغلول وخطباء الأحزاب السياسية، واقترنت بها الخطابة القضائية، إذ نقلنا نظام القضاء الغربي وما يتصل به من المحامين المدافعين عن المُدَّعِين والمتهمين، ونبغت في الخطابة القضائية طائفة كبيرة من المحامين. ونهضت مصر بهذين اللونين من الخطابة في الأدب العربي الحديث، فهي التي أتيح لها من بين البلاد العربية أن تنشط فيهما، إذ كانت الحريات

مكبوتة في تلك البلاد بسبب خضوعها للترك أو لفرنسا، و لم ينقل إليها مبكرًا النظـام القضائي الغربي كما نقل إلى مصر.

وأما مصطفى لطفي المنفلوطي فكان محررًا في صحيفة المؤيد، و لم يكن يكتب في السياسة إنما كان يكتب في بعض جوانب حياتنا الاجتماعية مقالات نشرها في تلـك الصحيفة بعنوان " نظرات " تحول فيها إلى ما يشبه مصلحًا اجتماعيًّا، إذ يتحدث فيها عن عيوب المجتمع وما يتصل بها من مساوئ الأخلاق، ويدعو إلى البر بالفقراء مصورًا حياتهم وما فيها من هوان، كما يدعو إلى التمسك بالفضائل. وهو يعني - في نظراته - بفصحى سلسة عذبة يتيح لها جرسًا حسن الوقع في النفوس، وظل الشباب في عـصره وبعده يعجبون به إعجابًا شديدًا.

وكان أحمد لطفي السيد محرر صحيفة الجريدة، وكان في مقالاته بها يعنى بتلقين الشعب المصري حقوقه وواجباته السياسية، وما ينبغي أن يسود فيه من مبادئ الحرية: حرية الفرد وحرية الأمة، وكان لا يزال يحاول تربية الشعب وتعريفه بما ينبغي له مـن النظم السياسية والاجتماعية السديدة ومن الاستقلال الذي ينـزل من الأمة منـزلة الخبز والماء، وكل ذلك يؤدي بفصحى جزلة رصينة.

ونمضي بعد الحرب العالمية الأولى في هذا القرن فتنشأ عندنا الأحزاب ويؤسـس كل حزب لنفسه صحيفة ينشر فيها آراءه في السياسة والحكم.

وأخذت صحف الأحزاب وما عاصرها من مجلات أدبية كـالهلال والمقتطـف تنقل إلى القراء بحوثًا في الأدب والفكر الغربيين، وألحقت بصحف الأحزاب مجـلات أدبية مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي، ونشطت الكتابات الأدبية، ويحمـل لواءها العقاد والمازني في الكتابات النقدية، وطه حسين ومحمد حسين هيكل في المثـل العليا في الأدب ونقده - ولعباس العقاد وطه حسين حوار واسع في منـزعهما للتجديد

مع مصطفي صادق الرافعي الذي كان يحمل راية القديم ويدافع عنه دفاعًا حارًّا، وكان سلامة موسى ثائرًا على القديم ثورة عنيفة، ويدعو بقوة إلى نبذ كل ما يتصل به من علم وأدب ونظم سياسية، ولا بأس عنده أن نجعل لغتنا أقرب إلى العامية.

وكان سلامة موسى يقف وحده، فإن أدباء مصر المجددين من أمثال طه حسين وهيكل وعباس العقاد والمازني كانوا يجمعون على أن يظلوا - ويظل معهم الكتاب في مصر وغير مصر - مع الفصحى الرصينة الناصعة البديعة، فهم يحرصون على الإعراب وعلى ألفاظ الفصحى السائغة التي تقررها المعاجم، وهم في هذا الإطار يجددون تجديدًا لا يخرجون به عن أصول الفصحى، وإنما يثريها وينميها بفكر جديد.

ومما لا ريب فيه أن هؤلاء المجددين العظام من أدبائنا أحدثوا في الفصحى العربية مرونة واسعة، وقد أخذت جماعتهم تتكاثر وتتسع لعناصر من الشباب الذين حذقوا اللغات الأجنبية وفقهوا بدقة الآداب الغربية مثل توفيق الحكيم الروائي، ومحمود تيمور القصصي، بحيث أصبحنا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية في هذا القرن نملك أدبًا مصريًّا عربيًّا جديدًا نبت في وطن مصري على أيدي طائفة من المصريين.

وتتطور حياة المصريين العلمية والأدبية بعد الحرب العالمية الثانية تطورًا واسعًا لسبب مهم، وهو أن الجامعات المصرية أنشأت أجيالاً متخصصة في كل فرع من فروع العلم والأدب الغربيين، ونتج عن ذلك أن أصبحت الفصحى لسانًا لكثير من ألوان الأدب والعلم، ونشأت بيننا طبقة من العلماء تحسن التعبير العلمي والأدبي.

واتسعت ترجمة الفكر الغربي، وحقًّا كان قد سبق إلى ذلك كبار الأدباء السابقين مثل: المازني وطه حسين ومحمد حسين هيكل، وقد تلاهم الشباب الذين تخرجوا في الجامعات، وأقبلوا على ترجمة الفكر من جميع اللغات الأوربية التي ثقفوها، كما أقبلوا على بسط المذاهب الأدبية الغربية، من كلاسيكية وورمانسية وواقعية ورمزية

وسريالية، واشترك معهم في هذه الجهود الخصبة أدباء البلاد العربية من الشباب وغير الشباب.

ونشأ عن ذلك أن أخذت حياة الأدب العربي المعاصر تتصل بحياة الآداب الغربية، إذ أخذ الشباب في مصر وغير مصر يحاول إحداث نماذج من المسرحيات والقصص تطابق نماذج الغربيين في هذين الفنين على نحو ما هو معروف عن توفيق الحكيم ومحمود تيمور ويحيى حقي ونجيب محفوظ وغيرهم كثيرون ممن يجيدون الفن المسرحي والفن القصصي.

وأخذت مسرحيات توفيق الحكيم تترجم إلى اللغات الأجنبية، وتمثل على بعض مسارح الغرب في فرنسا والنمسا وإيطاليا. وترجم إلى اللغات الأجنبية قصص كثيرة لمحمود تيمور ويحيى حقي ونجيب محفوظ ولقصاصين آخرين في مصر والبلاد العربية، وظفرت بعض قصص نجيب محفوظ بجائزة نوبل العالمية، وهو اعتراف بأن أدبه عالمي إنساني، وأن أدبنا العربي يرقى إلى مرتبة الآداب العالمية الحية الكبرى.

وحتى الآن لم أتكلم عن الصحافة وتأثيرها الكبير في الفصحى، وقد نشأت عندنا الصحافة في الثلث الأخير من القرن الماضي، وأخذت تعنى بالشعب وتصوير ميوله وأهوائه السياسية، وكان ذلك تحولاً كبيرًا بالفصحى، إذ كان طال بها العهد في مخاطبة الحكام والأمراء والطبقة المثقفة في الأمة، وكانت تخاطبهم بلغة مسجوعة تراكمت عليها أعشاب البديع، وهي الآن تخاطب الشعب، فكان طبعيًّا أن تنفي السجع وأعشاب البديع عن لغتها وتخاطبه بلغة سهلة واضحة يستطيع أن يفهمها توًّا.

وتصادف أن المطبعة أظهرت محرري الصحف على أعمال أدبية للأسلاف من أمثال ابن المقفع كتبت بأسلوب مرسل ليس فيه سجع ولا بديع، فتحولوا إلى الكتابة بهذا الأسلوب، حتى يفهم الشعب ما يريدون أن يقولوه، وحتى لا يجد مشقة في هذا الفهم.

ويتولى الصحافة والصحف في القرن العشرين محررون نابهون كثيرون أخذوا يبسطون أساليبهم الصحفية تبسيطًا لا ينزل بها إلى مستوى العامة والابتذال، وفي نفس الوقت لا تعلو عليهم ولا ترتفع بحيث يشعرون بشيء من العسر في قراءتها وفهمها، أساليب سهلة وواضحة حتى لا يعز فهمها على الطبقات الدنيا في الشعب؛ إذ تريد الصحف أن تذيع وتنتشر في جماهيره. ومن أجل ذلك يحتاج الصحفي دائمًا إلى التبسيط في تفكيره وأسلوبه. وإذا كانت الفكرة التي يريد أن يبلغها إلى الجماهير الشعبية مرتفعة في نفسها حاول بكل ما يستطيع أن يبسطها إلى أقصى حد، حتى تكون واضحة للجماهير، وحتى لا تجد أي مشقة في فهمها، ولابد أن يختار لها فصحى سهلة مبسطة غاية التبسيط. ومع تعاقب العقود في القرن الحاضر بلغت الصحافة المصرية من تبسيط الفصحى أقصى حد ممكن.

والصحافة - بذلك - أنشأت لنا فصحى جديدة بين العربية الموروثة والعامية التي نتداولها في حياتنا اليومية، ففيها فصاحة الأولى، وفيها سهولة الثانية وقربها من الأفهام. وأتاحت الصحافة المصرية لهذه الفصحى المصرية الجديدة أن تنتشر لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه، إذ تقبل عليها الجماهير القارئة في البلاد العربية في لبنان وسوريا والأردن والعراق والحجاز والسودان وبلدان المغرب، وأصبحت الفصحى الصحفية المصرية هي الفصحى الشائعة في البلاد العربية. وتكثر الصحف في مصر والعالم العربي منذ منتصف القرن الحاضر، حتى ليصدر منها يوميًّا مئات وتكثر معها المجلات الأدبية، ويبلغ قراء بعض الصحف في مصر مليونًا وأكثر، وأعجب أن يقول بعض الكتاب: إننا في حاجة إلى لغة وسطى بين اللغة الموروثة والعامية، والصحافة قد أوجدت له هذه اللغة، وهو والجماهير يحملونها ويقرءونها صباح مساء، ولو جمعت في أي بلد عربي لتكونت منها تلال.

ولم تتفرع من الفصحى في القرن العشرين فصحى الصحافة وحدها، وقد تفرعت منها فصحى أدبية متنوعة تنوعًا واسعًا بتنوع الفنون التي استحدثتها مصر في القرن الحاضر، وفي مقدمتها فن المقالة وقد أُفْرِدَت لها مجلات أسبوعية، مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والرسالة والثقافة ومجلات شهرية مثل الهلال، وكانت تعنى المقتطف بعرض الحركة العلمية عند الغربيين وتصوير نظرياتها المختلفة بخلاف المجلات التي سبقتها، فقد عنيت بالأدب ومباحث الغربيين العميقة في الفكر والأخلاق والفلسفة والاجتماع والاقتصاد. ومنذ أواسط القرن تتكاثر المقالات في الصحف وتتكاثر المجلات، ويصبح لكل كلية علمية مجلة.

ولم يكن للفصحى في الماضي سوى المقامات التي تصور مغامرات أديب متسول يخلب سامعيه ببلاغة عباراته، وكنا قد أخذنا نتأثر بالأدب الغربي. ولم يلبث هيكل في العقد الثاني من القرن الحاضر أن كتب قصة اجتماعية طويلة مستضيئًا فيها بالقصص الغربي وتقاليده، ويكثر بعد الحرب الأولى في هذا القرن الشباب الذين يكتبون الأقصوصة كتابة فنية. ويُكثر محمود تيمور من الأقاصيص والقصص الاجتماعية الطويلة، ويبلغ الذروة في فن القصة، ويشاركه في القصة الطويلة طه حسين واصفًا الحياة المصرية والمازني متجهًا في قصصه إلى التحليل النفسي، ويتكاثر معهم القصاص من الشباب، ونمضي بعد ثورتنا المصرية فيحدث انفجار في كتابة القصة عندنا سواء من حيث كثرة القصاص أو من حيث كثرة ما ينتجون من القصص بالفصحى، مما يُصَوِّرُ نشاطًا هائلاً بفن القصة في القرن العشرين، ونال الأستاذ نجيب محفوظ في هذا الفن - كما أسلفنا - جائزة نوبل الأدبية.

ولم تعرف الفصحى فن المسرحية قبل القرن العشرين، وما نتقدم إلى العقد الثاني من هذا القرن حتى يلمع اسم كاتبين مسرحيين هما: فرح أنطون وإبراهيم رمزي، دَرَسَا

أصول هذا الفن الغربي وألَّفَا فيه مسرحيات تاريخية واجتماعية،وتضع الحرب العالمية أوزارها، وينشط التمثيل المسرحي وتؤلَّف له مسرحيات اجتماعية مختلفة، وتنشئ الدولة في سنة ١٩٣٤م الفرقة القومية كما تنشئ المعهد العالي للتمثيل، ويظهر توفيق الحكيم، ويثب بالتأليف المسرحي وثبة كبرى، ويُرْسِي قواعده في النثر كما أرساها شوقي في الشعر، ويتابع نشر مسرحياته البديعة. وكما حدث بعد الثورة انفجار في فن القصة، وتكاثر مؤلفوها في مصر وغير مصر حدث انفجار مقابل في فن المسرحية وتكاثر مؤلفوها وتكاثرت المسرحيات.

وواضح من كل ما أسلفت أن الفصحى ازدهرت في القرن العشرين ازدهارًا عظيمًا، فقد تفرع منها فصحى صحفية مبسطة يحملها الملايين من الجماهير المصرية والعربية يوميًّا، وبث في فصحى النثر كبار الأدباء نضرة ورونقًا رائعين. وليس ذلك ما حققته فحسب، فإنها أدت أداء بديعًا ما استحدثناه من فنون المقالة والقصة والمسرحية، وبذلك عاشت - طوال القرن العشرين - في النثر والشعر جميعًا حياة مزدهرة أعظم ما يكون الازدهار وأروعه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

* * *

بين الفصحى والعامية(*)

(محاضرة)

للدكتور شوقي ضيف
(رئيس المجمع)

بسم الله الرحمن الرحيم، الزملاء المجمعيون،

سيداتي – سادتي:

الفصحى لهجة قريش في الجاهلية، ومن الصعب تحديد الزمن الذي اتخذت فيه شكلها النهائي الكامل من الإعراب والتصريف والاشتقاق. ومن المؤكد أنها لم تصل إلى صورتها النهائية في العصر الجاهلي الذي يمتد نحو قرن ونصف قبل الإسلام إلا بعد مراحل زمنية طويلة من النمو والتطور. وكان يعاصرها لهجات عربية جاهلية كثيرة في شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها، وفي نجد والحجاز غربًا وحتى عمان والخليج العربي والفرات شرقًا – وكان سكان كل هذه المناطق يتكلمون لهجات مختلفة، وشعروا في عمق بأن الدول الكبرى المحيطة بهم في الجاهلية تحاول فرض سيادتها على أجزاء كبيرة من ديارهم، ففي الجنوب الغربي فرض الأحباش سيادتهم على اليمن، وفرض الروم سيادتهم على القبائل في الشمال الغربي، بينما فرض الفرس سيادتهم على الحيرة والقبائل في الشرق.

وكان لمكة مكانة كبرى في نفوس عرب الجاهلية؛ بسبب أنها كانت حارسة الكعبة بيت أصنامهم وعبادتهم الوثنية، وبسبب اقتصادي؛ إذ كانت قوافلها التجارية تجوب أنحاء الجزيرة العربية جنوبًا إلى اليمن، وشمالاً إلى الشام، وشرقًا إلى العراق

(*) ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة الثانية، من مؤتمر الدورة الخامسة والستين، يوم الاثنين، الموافق ٨ من مارس سنة ١٩٩٩م. ونشرت بمجلة المجمع، بالجزء التاسع والثمانين، ص ٣٥.

والخليج العربي. وبسبب سياسي: أنها لم تدن بالولاء والسيادة لدولة أجنبية. وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الوثنية وفي أسواقها، اشتهرت سوق عكاظ باجتماع خطباء العرب وشعرائهم فيها. ومن أجل ذلك كله تجمعت قلوب القبائل في الجزيرة العربية حولها واتخذوها رمز استقلالهم عن الدول الكبرى من حولهم، وشعروا لها بولاء كبير، جعلهم يتخذون لهجتها لغة أدبية لهم، يخطب بها خطباؤهم في المواسم الكبرى، وينظم بها شعراؤهم في الجاهلية أشعارهم. وما هذه اللهجة القرشية التي سادت بين الشعراء والخطباء العرب في الجاهلية إلا ما سمي بعدُ باسم الفصحى، وبها نزل القرآن الكريم على الرسول- صلى الله عليه وسلم-، وأخذ حِفْظُه كما أخذت تلاوته على ألسنة المسلمين يُعمِّمان لغته الفصحى في جميع أقطار الأرض شرقًا حتى أسوار الهند والصين، وغربًا حتى إسبانيا والمحيط الأطلنطي.

وقبل الفتوح الإسلامية كانت بيزنطة تسيطر على الشام ومصر وتونس، وظلت لغتها اليونانية لغة للحكام وإدارة تلك البلاد وثقافتها الرسمية، ولم تتغلغل إلى قلوب سكان هذه الأنحاء، فظل سكانها يتكلمون لغاتهم الخاصة على نحو ما كانت مصر تتكلم القبطية.

وحكمت روما الشمال الإفريقي، وظلت لغتها اللاتينية لغة للحكام وإدارة البلاد وثقافتها الرسمية، ولم تتغلغل إلى قلوب سكانها، وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية الخاصة.

أما الفرس فقد بارحت الفارسية ألسنة أهلها، وحلت محلها الفصحى في جميع ديارها، على نحو ما حدث في ديار الشام ومصر والشمال الإفريقي جميعه، فقد أصبحت شعوب كل تلك البلاد من الهند والصين إلى المحيط الأطلنطي شعوبًا عربية تنطق بالفصحى، وتعبر بها عن ذات نفوسها ووجداناتها أدبًا، وذات عقولها علومًا وفلسفة، فضلاً عن اعتناق الكثرة من السكان لدين الإسلام وتعاليمه الروحية.

وانضم إلى تلك الشعوب الإفريقية والآسيوية شطر من إسبانيا في الجنوب الغربي لأوربا، وهو المعروف باسم "الأندلس".

وكل ذلك حدث لانتشار الفصحى في الألسنة بين سكان تلك البلدان جميعًا، دون أن تفرضها الدولة العربية أو الحاكم العربي على أي بلد حكمه. وهو نفسه ما حدث لانتشار الإسلام في كل تلك الأنحاء؛ إذ انتشر سريعًا فيها دون أي محاولة من الدولة أو من حاكم لفرضه على السكان، إذ كان المسلمون وحكامهم يتمسكون بحرية العقيدة الدينية عملاً بقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ فلم يُجْبَرْ وثني على الدخول في الإسلام فضلاً عن شخص من أهل الكتاب، إذ كانوا يدخلون فيه طواعية لحسن تعاليمه، كما دخلوا في الفصحى لروعتها البيانية التي شغفوا بها، ويصور شغف الإيرانيين وسكان كل البلاد العربية التي هجرت لغاتها واتخذت الفصحى لسانًا لها قول البيروني، معبرًا عن مدى شغفه بها، لأن أُهْجَى بالعربية خير لي وأَمْتَعُ من أن أُمدح بالفارسية.

ولم يسبق في التاريخ الإنساني للغة قديمة كبرى أن اتخذتها مجموعة شعوب كبيرة في قارات آسيا وإفريقيا وأوربا لغة لها: تنطق بها وتعبر عن ذات نفوسها وقلوبها وعقولها كما حدث للفصحى في ديارها وبولاياتها التي استوطنتها، وهى – بذلك – أصبحت لغة عالمية ذات قوة عظيمة، قهرت بها كل ما لقيته من اللغات.

ومنذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي تتمثل الفصحى كل ما كان لدى الهنود والفرس واليونان من ثقافة، ويصبح لها في القرن الثاني الهجري عالم عالمي في الكيمياء هو: جابر بن حيان، ويصبح لها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري عالم عالمي في الرياضيات هو: الخوارزمي، مبتكر علم الجبر، وكان يعاصره الكندي الفيلسوف، الذي ابتكر هو وخلفاؤه من فلاسفة العرب الفلسفة الإسلامية التي يمزجون

فيها بين أفكار فلاسفة اليونان وروحانية الإسلام مزجًا بديعًا. وينهض الطب عند محمد بن زكريا الرازي بكشف الفروق بين مرض الجدري والحصبة، ووضع الأسس للطب النفسي.

وتظل الفصحى قائدة وحاملة للعلوم والفلسفة وحدها من القرن الثاني الهجري- الثامن الميلادي إلى القرن الثامن الهجري- الخامس عشر الميلادي، وهو ما جعل أوربا حين أرادت أن تنهض علميًّا تبث في أبنائها حماسة قوية لتعلم الفصحى لغة الحضارة والعلم، وتعلموها ومضوا ينقلون ما تحمل من كنوز العلم والمعرفة والحضارة إلى اللغة اللاتينية لغة العلم في ديارهم حينئذ، وقعدوا من علمائها في قرطبة ومدن الأندلس وصقلية مقعد التلاميذ من أساتذهم العظام، حتى في علم اللاهوت، وكان لكتابات فيلسوف قرطبة ابن رشد فيه أثر عميق في قيام حركة التحرير والإصلاح الديني في النهضة الأوربية.

ويقول المستشرق الإيطالي ألدومييلي: " تُرْجمت كل كتب علماء العرب الكبار إلى اللاتينية في القرنين الحادي عشر، والثاني عشر للميلاد". وقد استوعبها الأوربيون وتمثلوها وأسسوا عليها نهضتهم العلمية الحديثة. وشاهد واضح يقوم في عصرنا على تمثل أوربا للعلوم العربية، هو الأرقام الحسابية العربية التي اقترضتها أوربا من البلدان المغربية وتداولها سكان البلاد الأوربية، ولا يزالون يتداولونها إلى اليوم في البنوك وغير البنوك. ومعنى ذلك كله أن الفصحى أثرت بعلومها وحضارتها تأثيرًا عميقًا في العالم المسيحي بأوربا، كما أثرت في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا.

وأخذت تعايش الفصحى في جميع الأقطار العربية عاميات كان السبب في تكونها فقدانها للإعراب الذي تتميز به الفصحى، إذ كان سكان الأقطار العربية وراء الجزيرة العربية لا يعرفونه في لغاتهم القديمة، وأيضًا فإن كل قطر احتفظ ببعض ألفاظ

كانت تدور في لسانه بلغته القديمة، كما احتفظ ببعض نغمات في النطق، وهى تختلف من قطر إلى قطر، وبمرور الزمن أخذت العاميات العربية تتكون على ألسنة السكان في جميع البلدان التي فتحها العرب من إيران شرقًا إلى المحيط الأطلنطي غربًا، وكانت تَرْمُقُ شعر الفصحى بإعجاب، وتتمنى لو استطاعت محاكاته.

وبمرور القرون استطاعت أن تنتج لها شعرًا عاميًّا يُسمَّى الأزجال، واشتهر في نظمه ابن قزمان الأندلسي، وحاكته فيه الأقطار العربية جميعًا. وبمرور القرون أيضًا أخذت العامية تسهم في كتب النوادر، وهى أقاصيص قصيرة تروِّح عن النفس، بالسخرية من قاص مشوَّش الفكر يخطئ في أحكامه، أو حاكم ظالم يجور في أحكامه جورًا شديدًا. ومن أطرف ما ساهمت فيه العامية من تلك الكتب كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش" التركي أحد قواد صلاح الدين الأيوبي، وكان أنابه عنه فترة بمصر وفوَّض أمورها في الحكم إليه لغيبته عنها في حروبه بالشام ضد الصليبيين، وهو الذي بنى السور الذي كان محيطًا بالقاهرة، كما بنى القلعة التي لا تزال قائمة إلى اليوم. ويبدو أنه قسا قسوة شديدة في تسخير المصريين في بنائهما، فانتقم منه أحد كتاب الدواوين المصرية المسمَّى "ابن مماتي" فألف كتابًا عاميًّا وضع عليه فيه طائفة من النوادر في أحكامه مصورًا فيها ما ادَّعاه عليه من غفلته وحُمْقه، وهو مطبوع ومنشور.

و نلتقي في مطلع عصر المماليك بمصر بكاتب مبدع من كتاب العامية هو ابن دانيال، وكان شاعرًا، وكان كحالاً، ولا ندري هل كان طبيب عيون أو كان تاجر كحل يبيعه فقط، وسأله سائل عن حرفته التي يكتسب منها معاشه، وأغلب الظن أنه كان طبيب عيون، فقال:

ما حالُ مَنْ درهمُ إنفاقهِ   يأخذه من أعين الناس

والتورية في الشطر الثاني واضحة، وهى صيغة تدور على ألسنة العامة بمصر، إذ يقولون

عن الشخص الذي يأخذ حقه من شخص آخر: "**إنه أخذه من عينه**" أي: **رغم أنفه،** وهو لا يريد ذلك، إنما يريد الإشارة إلى صنعته. وقد ألف بالعامية ثلاث مسرحيات نثرية شعرية كانت تمثل في عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ) على مسرح خيال الظل، وهو مسرح دمى متحركة متحاورة، واسم أولاها "**طيف الخيال**" واسم الثانية "**عجيب وغريب**"، وهي تصور سوقًا مصرية ومن فيها من أخلاط الشعوب، وقد جمدت ألسنتهم عند لهجات شعوبهم الوطنية، بكلام يثير الضحك في النظارة. واسم التمثيلية الثالثة " **متيم**" وهي تعرض طائفة من حِيَل العُشَّاق في صور مضحكة.

والتمثيليات الثلاث عند ابن دانيال مؤلفة بنثر عامي مسجوع محاكاة للنثر في رسائل الفصحى الديوانية منذ عصر ابن العميد، إذ أخذ يعمُّ فيه السجع، وعمَّ في العصر الأيوبي عند العماد الأصبهاني في كتاباته التاريخية، كما في كتابه" الفيح القسّي في الفتح القدسي" الذي يصف فيه انتصار صلاح الدين على حملة الصليب، وأخذ بيت المقدس من أيديهم بعد تمزيقهم تمزيقًا شديدًا، وحقَّق ابن دانيال للعامية محاكاتها في تمثيلياته لأدب الفصحى، الذى شاع فيه السجع شيوعًا كبيرًا.

ونقف قليلاً عند تمثيلية ابن دانيال المسماة "طيف الخيال" وهي تدور حول مشكلة الخاطبة في العصور السابقة، وما كان ينشأ عن وصفها للعروسين من أغلاط في تبيين حقائقهما، إذ تُقَدِّم العريس على أنه من أمراء الموصل، ومعه كاتبه وحاسبه المزيفان، وحقيقته أنه أحدب فقير لا يملك شَرْوَى نقير، وتقدم العروس على أنها فتاة جميلة، وحقيقتها أنها عجوز قبيحة، ويُزَفَّان، وتكشف عن وجهها في الزفاف، ويصيبه الذهول، وينادي على الخاطبة وتأتيه، ويشكو منها، كما يشكو شكوى مرة من زوجته التي يُزَفُّ إليها. والتمثيلية مليئة بالمواقف المتناقضة المضحكة، مع تصويرها لجوانب من الحياة المصرية الاجتماعية والسياسية في عهد الظاهر بيبرس.

وتأخذ مصر في تأليف سير شعبية للبطولة العربية بلغتها العامية تحميسًا للشعب المصري في حروبه البطولية ضد الصليبيين والمغول أو التتار، وربما كان أول هذه السير البطولية: "سيرة عنترة"، بطل قبيلة عبس في الجاهلية، ويقال: إن أول كتابتها كـــان في عهد الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) كما يقال: إن ريبة حدثت في قصره، وشاع الحديث عنها بين أهل القاهرة، فأراد أن يصرفهم بسيرة تشغلهم عـــن الكـــلام فيها، فكلف بذلك أديبًا يسمى يوسف بن إسماعيل، فألف سيرة عنترة وشغل بها سكان القاهرة. وهذا الخبر- إن صح - إنما يشير إلى أول ما كان من وضع هذه الـــسيرة، إذ أخذت الأجيال تزيد فيها، حتى القرن السادس الهجري وحروب الصليبيين وحتى بلغت اثنين وثلاثين جزءًا، وهى منشورة في أربعة مجلدات، وألفت تأليفًا قصصيًّا جذابًا بحيث يقتطع الكلام في كل جزء عند حادث مهم، ويشغف القارئ والسامع بمعرفـــة الجـــزء الذي يليه. وساحات بطولات عنترة لا تقف عند العصر الجاهلي بل تمتد في الزمان حتى نهاية القرن الخامس الهجري، كما تمتد في المكان فتشمل الحبشة والـــسودان وإيـــران والشام وشمال إفريقيا ومصر وجنوب أوربا، وهى ملحمة بديعة مثَّل فيها عنترة البطولة العربية على مر التاريخ، حتى نهاية القرن الخامس الهجري، ومثل معها فـــضائلها الـــتي أعجب بها الصليبيون ونقلوها إلى ديارهم، وهى مكتظة بأحلام وأســـاطير وخـــوارق كثيرة.

ومن سير البطولة التي أُلِّفت بمصر في العصور الماضية، والتي لا يزال يشغف بهـــا المصريون وخاصة قُراهم سيرة الهلالية، وكانت قبائل قيسية متعددة من نجد منها: بنـــو هلال، وبنو زغبة نـــزلت بصحراء مصر الشرقية، وحدث أن خـــرج علـــى الخليفـــة الفاطمي المستنصر (٤٢٧- ٤٨٦هـ) المعز بن باديس الـــصنهاجي، حـــاكم تـــونس والقيروان سنة (٤٤٣) للهجرة،وغضب لـــــذلك غضبًا شديدًا، فأشار عليه وزيـــره

اليازورى أن يسلط على المعز القبائل القيسية النازلة بالصحراء الشرقية، فاتصل بهم وحبَّب إليهم الهجرة إلى البلاد المغربية، ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ما تحت يد المعز إقطاعًا لهم، وبالمثل كل ما يستولون عليه من البلاد المغربية، ولبَّته جموعهم، وأخذت تنازل حكام تلك البلاد ومَن معهم من الجنود. واستولوا على برقة في سنة (٤٤٣) للهجرة، واستولى بنو زغبة على طرابلس، واتجه بنو هلال مع بطلهم أبى زيد إلى تونس، وناصرتهم بنو زغبة وبطلها دياب بن غانم، ونازلهم المعز بن باديس وهزموه، فترك لهم تونس والقيروان، واكتفى بالمهدية، وتحولت إمارة تونس إلى إقطاعات صغيرة يحكمها عرب من بني هلال وغيرهم، وبالمثل توزعوا الجزائر، وجعل القصاص الذين وضعوها أبا زيد الهلالى، ودياب بن غانم بطلين عربيين، وجعلوا خصمهما في قبيلة زناتة المغربية الزناتي خليفة. وهذه الهجرة العربية الكبيرة إلى البلاد المغربية إن كانت ملأتها حروبًا، فإنها أتمت تعريبها بحيث أصبحت أمة أو أممًا عربية كبيرة. وكانت السيرة-إلى عهد قريب – ينشدها شعراء على الربابة في مقاهي المدن وفي أعراس القرى المصرية. وتبدو الوقائع في هذه السيرة وأسماء أبطالها، كأنها أضغاث أحلام لبعد القاص المصري عن ساحات أحداثها.

ومن سير البطولة سيرة السلطان المملوكي "الظاهر بيبرس" هازم التتار فى موقعة عين جالوت، ومتعقبهم حتى شمال العراق. وأيامه تُعَدّ أزهى أيام مصر زمن المماليك، فكان طبيعيًّا أن توضع لبطولاته قصة تصورها. ولغتها عامية مثل الهلالية، والنثر يغلب فيها بينما يغلب الشعر في الهلالية، وتَمُدُّ السيرة ساحات بطولاته إلى أوربا، وتعرض أعماله وإخضاعه في سوريا الفدائيين الحشاشين المعروفين بكثرة اغتيالاتهم منذ زعيمهم الحسن الصباح.

ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية وإبراهيم الحوراني وتصف رحلته إلى روما. ويبدو أن السيرة لم تكتب فى زمن قريب من زمن الظاهر؛ لأن

الأحداث التاريخية فيها وأسماء الأبطال يشوبها غير قليل من الخيال، وتكثر فيها الأعمال الخارقة.

وحري بي أن أذكر أن كتاب "ألف ليلة وليلة" صاغته مصر بلغتها العامية وانتشر منذ القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي في العالمين العربي والغربي، ووضع فيه القصاص المصريون أقاصيص كثيرة بعاميتهم مثل أقصوصة: علاء الدين والمصباح العجيب، وحكاية الصعيدي وزوجته الإفرنجية، ودليلة المحتالة، وعلى الزيبق، وزينب النصابة، ومعروف الإسكافي.

وإنما ذكرت كل هذه الأعمال لأدل على ضخامة تراث الأدب العامي في العصور الوسطى، وكل سير البطولة لم تدرس، ووراء ما ذكرت منها سير مثلها لم تدرس مثل "سيرة سيف بن ذي يزن" التي تصور الصراع بين العرب والحبش فى أواخر العصر الجاهلي. وعلى رفوف دار الكتب المصرية مالا يكاد يحصى من قصص عامية شعبية كتبت فى العصور الوسطى، وهى في حاجة إلى أن تحقق وتنشر.

وأخذ الأدب في الفصحى يتطور في القرن التاسع عشر من لغة رفاعة الطهطاوي التي تعتمد على السجع ومحسنات البديع إلى لغة متحررة منهما، تعتمد على التعبير المرسل الحر الطليق.

ولا نتقدم بعد منتصف القرن الماضي طويلاً حتى تتكاثر عندنا الصحف، وحتى تنشأ معها لغة ثالثة وسطى بين الفصحى والعامية، لغة فصيحة مبسطة، لا تنزل إلى مستوى الابتذال العامي، ولا تعلو على العامة بحيث يفهمونها دون أي عُسْرٍ أو مشقة، لغة بسيطة سهلة يخاطبون بها طبقات الأمة، ولا تميز بين طبقة وطبقة، بل ربما كان اهتمامها بالطبقات الدنيا يزيد على اهتمامها بالطبقات العليا فى الشعب، إذ تريد أن تنتشر بين جماهيره. وقد هجرت موضوعات أدبنا القديمة من تهنئة وتعزية إلى غير ذلك، فإنها لا تكتب للأفراد، وإنما تكتب للأمة، وتعرض ما يهمها من شؤونها السياسية،

وتنادي بالإصلاح فى الأداة الحكومية، وتتناول كل ما تريد الأمة مـــن موضـــوعات سياسية ودينية واجتماعية.

وبينما الأدب فى الفصحى في القرن الماضي يتطور في موضوعاته وفي لغته عن طريق الصحافة إذا بجماعة من الإنجليز والمستشرقين في أواخر القرن الماضي تثور علـــى الفصحى ثورة عنيفة منادية في محاضرات وكتابات بأن واجب المصريين أن يتحـــرروا ويتخلصوا في أدبهم من الفصحى ويتمسكوا فيه باللغة العاميـــة. وكانـــت هـــذه أول خصومة عنيفة تحدث في مصر بين الفصحى والعامية.

وشعر الشعب المصري وأدباؤه بما في هذه الدعوة من خطر يريده الإنجليز، حتى تنْسى الأمة المصرية ماضيها العربي والإسلامي، وحتى تنسى عروبتها المقدسة وارتباطها بالفصحى لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، وحتى تنسى صلاتها بـــشعوب الأمـــة العربية، وحتى تنسى هويتها وشخصيتها العربية الإسلامية والتاريخية؛ ولهذه الأســـباب مجتمعة أخفقت في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر هذه الدعوة المغرضة، ولم يهتم بها أي اهتمام أصحاب الأدب العامي عندنا، ومضوا ينشطون في نظم الأزجـــال ونشر الصحف الفكاهية، ثم فيما بعد في تأليف القصص العامي.

ومضى أدبنا المصري في الفصحى يتطور في القرن العشرين تطورًا خصبًا، محاولاً أن يستوعب ثلاثة فنون كانت شائعة في الأدب الغربي، وهى المقالة والقصة الطويلـــة والمسرحية - والمقالة فن نثري صحفي قلما يتجاوز نهرًا أو نهرين في الصحيفة، وقـــد أنشأها عند الغربيين - كما أنشأها عندنا - ضرورات الحياة الصحفية، ومـــا يريـــد الصحفيون أن يتحدثوا فيه إلى جماهير الأمة من شؤون المجتمع والسياسة.

وينبغ في هذا الفن بالربع الأول من القرن الحاضر غير كاتب، ويتقـــدم كتابهـــا "مصطفى لطفي المنفلوطي" الذي اشتهر بمقالاته الاجتماعية، وما بثَّ فيها من معـــاني

الرحمة والفضيلة والعطف على البؤساء.

وتنشط المقالة السياسية عند "مصطفى كامل" وما يريد للأمة المصرية من انتزاع حقوقها المسلوبة من أيدي الإنجليز الغاصبين.

وتزدهر المقالة السياسية بعد نشوء الأحزاب في العقد الثالث من القرن. وتصطفى الأحزاب لصحفها اليومية كُتَّابًا ممتازين، وتلحق بصحفها مجلات أدبية أسبوعية، وتتألق أسماء أربعة من الكتاب هم: "محمد حسين هيكل"، و"عباس محمود العقاد"، و"طه حسين"، و"إبراهيم عبد القادر المازني"، ويكتبون مقالات طريفة عن الآداب الغربية في المجلات الأسبوعية والشهرية، وتظل للأربعة زعامة نهضتنا الأدبية، حتى قيام ثورتنا الحاضرة.

ولا يزال أدباؤنا الصحفيون والناشئون يردِّدون أسماءهم وأعمالهم الأدبية — مع التجلّة - إلى اليوم.

وفي أدب الفصحى الماضي قصص كثير عن أيام العرب وحروبهم، وعن الأنبياء ومن أرسلوا إليهم، وعن الحب والمحبين. ودخل الفصحى في العصر العباسي لونان من القصص، وهما القصص عن الحيوان والطير كما في كتاب "كليلة ودمنة"، والقصص عن الإنسان كما في كتاب "ألف ليلة وليلة"، غير أن كل ذلك يختلف عن القصة الغربية الطويلة المعروفة عند الغربيين بشخوصها وتقاليدها الأدبية.

وحاول الأدباء المصريون في القرن الماضي ترجمة بعض فرائدها وآثروا تمصيرها حتى تقترب من ذوق القراء، وظل هذا التمصير حتى زمن المنفلوطى، وشارك فيه كما نعرف عن القصتين: "ماجدولين" و"الفضيلة". وأخذ شباب المصريين — من حينئذ — يعنى بتأليف القصة الطويلة على النمط الأوربي، على نحو ما ألف محمد حسين هيكل قصته الطويلة: "زينب".

ويتعدد بعد الحرب الأولى في القرن من يكتبون القصة الطويلة على النمط

الأوربي، وفي مقدمتهم إبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وطه حسين. ويُعْنَى المازني بالجانب النفسي في شخصيات قصصه، مع تحليل واسع لما يضطربون فيه من مشاعر وأحاسيس. وللعقاد قصة طويلة سماها "سارة" وهو فيها يعنى بالتحليل النفسي مثل المازني ويضيف إليه تحليلاً عقليًّا واسعًا. أما طه حسين فقصصه احتماعية، ويعنى في أكثرها بتصوير الحياة في المجتمع المصري.

وانضمَّ إلى هذه الكوكبة "محمود تيمور"، وكان يكتب قصصًا بالعامية، فرأى أن يعيد كتابتها بالفصحى، وفي ذلك دليل ساطع على أن الفصحى ظل لها التفوق والسيطرة على الحياة الأدبية المصرية حتى القرن العشرين، وكان يعنى في قصصه الاجتماعي بتصوير عيوب المجتمع المصري.

ونمضي في النصف الثاني من القرن مع ثورتنا المصرية، وينضم إلى هذه الكوكبة المبدعة يحيى حقي بقصصه الفصيح الرائع، ويتكاثر مَنْ يكتبون القصة الطويلة بالعامية؛ لأنها أكثر طواعية لهم. ومن حين إلى حين يندد بالفصحى بعض من لا يحبونها ويقولون: دعونا نتخذ العامية لغة لأدبنا، وكأنهم لا يعرفون شيئًا عن تاريخ الفصحى المجيد وكيف أنها ظلت لغة عالمية منتشرة قرونًا طويلة من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطي، وكيف أنها انتصرت بقرآنها وبيانه الرائع على كل ما صادفها من لغات، فقد ظفرت بالفارسية في عقر دارها وبالسريانية واليونانية واللاتينية والديموتيقية والبربرية والرومانية والإسبانية، وأكبت عليها شعوب قارات ثلاث تتعلمها، وأضاءت لأوربا مسالكها إلى حضارتها الحديثة، وأنها لا تزال في هذا العصر تضم الفم إلى الفم في الديار العربية، والروح إلى الروح، والفكر إلى الفكر جاعلة من عرب مصر والعرب في كل مكان أمة واحدة مترابطة، لا تنفصم عروة الترابط بينها وبين شعب من شعوبها أبدًا.

وإذا كانت القصة الطويلة حظيت في النصف الأول من القرن الحاضر بخمسة

من كتاب مصر الكبار هم: المازني، والعقاد، ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، ومحمود تيمور، فإنها حظيت في النصف الثاني من القرن بيحيى حقي وبكاتب مصري كبير هو نجيب محفوظ، الذي خطا بالقصة الطويلة خطوات كبرى جعلتها تضارع مثيلتها الأوربية، ولا أبالغ إذا قلت: إنه كتب بالفصحى أروع قصص طويلة نشرت بمصر في القرن العشرين، وإنَّ ظفرَ الفصحى عنده بجائزة نوبل كان حريًّا أن يلفت دعاة العامية إلى خطئهم في تقدير بيانها وقيمها الجمالية الخالدة.

ومنذ أنشأ الخديوي إسماعيل في القرن الماضي دار الأوبرا أخذت مصر تعرف فكرة المسرح والمسارح، وخاصة أن يعقوب صنوع أنشأ في القاهرة مسرحًا كانت تمثل عليه بالعامية مسرحيات فرنسية مترجمة ممصرة.

وأقبلت على مصر فرق تمثيلية سورية ولبنانية كانت تمثل في الإسكندرية والقاهرة مسرحيات فرنسية أيضًا باللغة العامية مترجمة وممصرة، وتكونت في التمثيل مع هذه الفرق فرق مصرية، وكوَّن بعض الهواة المصريين في العقد الثاني من القرن الحاضر جمعية لتأليف الروايات المسرحية، واشتهر من بين أعضائها: إبراهيم رمزي، وفرح أنطون، بما ألَّفا من مسرحيات فصيحة، وينشط في العقد الثالث من القرن التمثيل الهزلي والغنائي.

وفي أوائل الثلاثينيات من القرن الحاضر ينهض التأليف المسرحي في الشعر عند شوقي بمسرحياته السبع المشهورة، وكانت العامية تطغى على المسرح المصري، فمُثِّلت عليه مسرحيات شوقي الشعرية الفصيحة ولقيت نجاحًا منقطع النظير، وتبعه عزيز أباظة بمسرحياته الشعرية المكتوبة بالفصحى، وبذلك توطَّد المسرح الشعري الفصيح، وإن كان لم يخلفهما في النصف الثاني من القرن شاعر فصيح من نفس الطراز.

وفي الثلاثينيات من القرن أيضًا أهدت الفصحى إلى مصر كاتبًا مسرحيًّا مبدعًا، هو توفيق الحكيم الذي تعرَّف في فرنسا - بدقة - على أصول التمثيل وتقاليده عند

الإغريق والفرنسيي، وفجأ المصريين بمسرحيته "أهل الكهف" وهم سبعة ماتوا في كهف، وظلوا فيه نحو ثلاثمئة سنة وبعثوا، وجعل لهم الحكيم مغامرات بناها على صراع عنيف بين الإنسان والزمان. ولم يلبث أن تلاها بمسرحيته "شهرزاد" ومثَّل في بطلها "شهريار" الصراع بين الإنسان والمكان. وتتوالى مسرحياته مستمدة من الأساطير الإغريقية تارة، ومصورة مشاكلنا الاجتماعية والسياسية تارة ثانية، وله في مسرحياته فلسفة يستمدها من الشرق وروحه، وسيطرة القضاء والقوى الغيبية. وبمسرحياته وفلسفته فيها أوجد لمصر مسرحًا مصريًّا متميزًّا بالقياس إلى المسارح الغربية القديمة والحديثة .وبذلك وظَّف توفيق الحكيم فن التمثيل في الفصحى، وجعله فنًّا مصريًّا كما وظَّف نجيب محفوظ فيها فن القصة الطويلة وجعله فنًّا مصريًّا.

ولابد أن نعرف أن الفصحى لغة أدبنا الرفيع على مر العصور،وأن العامية بأزجالها وقصصها إنما هي في جمهور ألفاظها فصحى محرفة.

والعامية– لذلك– في حاجة إلى أن تعنى المجامع اللغوية في البلاد العربية بدراسة ما داخل ألفاظها من تحريفات وردها إلى أصولها الفصيحة، على نحو ما يصنع المجمع اللغوي القاهري. **وبذلك تقترب العامية من الفصحى تدريجيًّا في جميع ديارنا العربية.**

وكلنا نعرف أن الفصحى لغة العلم الذي تتعلمه الناشئة والشباب في المدارس وفي الكليات الجامعية، ولغة كل ما نقلناه عن الغرب من الآداب والفكر، والعلوم الإنسانية، والعلوم العلمية الخالصة والقانون والفلسفة، ولغة الصحف التي تقرؤها الملايين منا يوميًّا، وللفصحى عباقرة من الأدباء والعلماء على مر تاريخها الطويل يفوقون العدَّ والحصر، ولها شعراء وكتَّاب مصريون عظام في القرن العشرين أتاحوا لمصر الزعامة الأدبية بين الشعوب العربية. والفصحى لغة القرآن الكريم الخالدة بخلوده، وهى اللغة القومية التي تربط بين مصر والبلاد العربية بحيث يمكن أن يحدث تكتل عربي سياسي أمام تكتلات الأمم الأوربية السياسية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

* * *

العاميّ الفصيح
وحاجته إلى معجم يردّه إلى أصوله(*)

للدكتور محمّد نايـــل
(عضو المجمع)

قد يظن بعض المثقفين من أبنائنا، حين يروننا نهتم بالعامية، وندرس أُصولها أننا نزاحم بها الفصحى، وهي لغة القرآن الكريم والتراث القديم، وهذا الظن بعيـــد عـــن الحقيقة والواقع، لعدة أُمور:

أولها: أن لغتنا الفصحى مصرنة، محفوظة، لا يضيرها مـــزاحم كيفمـــا كـــان مصدره، لأن الله الذي حفظ كتابه قد حفظ هذه اللغة، إذ كانت وعاء له.

وثانيها: أن التاريخ خير شاهد على هذا الحفظ، فقد زاحمها على مر القـــرون سيل متواصل من الأعجميِ والدخيل، كما التوت بها ألسنة العامة منا، وألسنة الغـــزاة الأعاجم، الذين حكموا شعوبنا قروناً، ومع هذا وذاك ظلت الفصحى نقيـــة الجـــوهر صحيحة الأعراق، يتغنى بها حفاظ القرآن الكريم، ويسير وفق أُصولها الكتاب والشعراءُ والأُدباءُ جيلاً بعد جيل، ما يكاد أَحدهم يضل في كلمة منها إلا رجع إلى منابعها، في معاجمها الجامعة، وشواهدها الموثقة، فهل حظيت لغة في العالم كله قديمة أو حديثة بهذا الصون، وهذا التسامي على كل دخيل..؟

وثالثها: أننا حين نهتم بهذه العامية الفصيحة إنما نرد المغتـــرب إلى موطنـــه، إلى قبيلته ونسبه، لنردّ إليه اعتباره، ونحقق له انتماءَه، ما نزيد على ذلك قط. علـــى أننـــا نهدف من وراءِ ذلك أهدافًا لها قيمتها وأثرها:

أَولاً: رفع الوهم القائم بين الناس أن ما ينطقه العامة في شعوبنا خطأ كله،ترفضه الفصحى،وينأى عنه الأُدباءُ والكتاب والمثقفون.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الحادية عشرة من جلسات مؤتمر الدورة السادسة والخمسين، المنعقدة يوم الأحد الموافق ١١ من مارس سنة ١٩٩٠م، ونشر بمجلة المجمع بالجزء السادس والستين، ص ١٩٧.

ثانياً: ما يؤدى إليه رفع هذا الوهم، من بعث الشعور في نفوس العامة بـأنهم لم يبعدوا في لغتهم كثيراً عن اللغة التي كان عليها آباؤهم، وفي هذا ما فيه من رفع معنوياتهم وإيقاظ فضيلة الانتماء في أعماقهم.

ثالثًا: أن هذا الشعور بالانتماء قد يولد فيهم نزعة الطموح والتطلع إلى تقويم ألسنتهم، ومعالجة النطق بالكلمات كما ينطقها المتعلمون.. ولدينا مؤشرات تجعل هذا الأمل غير بعيد، فقد دخلت وسائل الإعلام الآن كل بيت - وهي على ضعف مستواها - أفاد العامة منها كثيراً من الوعي والتفتح، فأصبحنا الآن نسمع بعضهم في بعض المواقف الداعية إلى الاستشهاد بالجملة القرآنية، ينطقها صحيحة، بحروفها من غير تغيير، فعندما يدور الحديث بينهم في تقسيم ميراث ترى أحدهم يقول: " لِلذَّكَرِ مِثْلُ حظِّ الأُنْثَيَيْنِ "وحينما يهامس بعضهم بعضاً في موقف عزاء تراهم يقولون: " كُلُّ نَفس ذائِقَةُ الْمَوْت "وتعجب لهم، وهم لا يعرفون القراءَة، ولا الكتابة، إذ ينطقون بحروف الكلمات من غير تغيير، كالذال والظاء والقاف، بينما هم ينطقونها في الدارج - وربما في نفس الموقف- محرفة مبدلة، ينطقون الذال دالاً، والظاءَ ضاداً، والقاف بين الجيم والكاف.

أَو ليس في هذا التصرف المختلف، وأنهم يصححون في حال، ويحرفون في حال ما يشير إلى أن الملكة فيهم ما تزال باقية، و أنها في حاجة إلى شيء من التوجيه.

على أنني لا أتوقع تحولاً سريعاً في ألسنتهم، ولكنى أطمع أن تتحول مع طول الممارسة والتوجيه، حين يرون عوناً جادًّا صادقاً.

وإني لأرى العون الجاد في أن ننهض جميعاً بجمع هذه الكلمات التي حرفت، نجمعها من كل أقطارنا، ونحقق أُصولها ثم ننسقها في معجم كبير، نضعها فيه وهذه هي مهمة المجمع والمجمعيين، فإذا تمت كان علينا نشر هذا المعجم بكل سبيل،وفى كل موقع، في المدارس والمعاهد و الجامعات ونقيم حوله الندوات والمسابقات، ونحاول أن نجعل وسائل الإعلام تقوم بدورها، وما أخطره في بث هذه الكلمات المحققة في كل ما تذيع.

وعندئذ نستطيع أن نقول — وبحق -: **إن المجمع قد وفــق أعظــم توفيــق في تقريب لغة العامة من الفصحى**، وفي توحيد لغة التفاهم بين شعوبنا كافة، وهذه أجَلُّ خدمة وطنية ولغوية يذكرها لكم التاريخ.

على أن ممَّا يدني هذا الأَمل من التحقيق، ويشجعنا على المضي فيه، وبذل الجهد للوصول إليه، وإلى أهدافه الكبيرة، أن التحريف الذي أصاب الأَلفاظ في اللغة الدارجة هو حد يسير، لا يتجاوز في أبعاده تغيير حركة بحركة، أَو حرف بحرف، وقل أَن يخرج عن ذلك بزيادة حرف أو حذف حرف ممَّا أَلجأَهم إليه طلب التخفيف ... كأَن يقولوا مثلاً في كلمة "**الثأْر**": "**تار**" لخفة التاء عن الثاء ولخفة الأَلف عن الهمزة، وكأن يقولوا في "**ذكر**"، "**دكر**" وفي "**ذهب**": "**دهب**"، وعذرهم في ذلك أَن التاء والثاء متقاربتان، وكذلك الذال والدال، فإن بعض اللهجات العربية لجأت إلى هذا التصرف قــديماً و لم تضق به قواعد التصريف فيما بعد.

لقد وجدوا العرب يقولون في **إسماعيل**، و **إسرائيل**: **إسماعين**، و**إسرائين**، بالنون بدل اللام (الأَمالي،ج٢،ص٤٤)، ويقولون: **الطجع**، بدل **اضطجع**، بــاللام مكــان الضاد، ويقولون: **التقط**، النوى **واشتقطه** (الخصائص، ج١، ص٢٦٢، ٢٦٣).

بل لقد وجدوا القرآن الكريم يقول: **ميكائيل، وميكال** في سورة البقرة، فيهــا حرفين من الكلمة، ثم يقول: ﴿فَمَا اسطَاعُوا أَن يَظْهروهُ وَما اسْتَطَاعُوا لَه نَقباً﴾ عنــد سدّ يأْجوج ومأْجوج، في آخر سورة الكهف.

إن هذه اللغة الرفيعة قد ذهبت في الناس الخفة كل مذهب، وذلك للتيــسير، وتطوير الكلمة للتسهيل، وهذه إحدى مزاياها العظيمة، وما أَعظم الأَبواب التي فتحتها في هذا المجال،"**كالإعلال**" ومجالاته، "**والإبدال**" وآفاقه، و"**تعويض**" حرف عن آخر قد حذف، وتبادل الحرفين من الكلمة موافق في (القلب المكاني)، وفوق هذا وذاك هناك تصرّف آخر سماه الأَقدمون "**التعاقب**" وهو فنّ واسع المدى، لا يقف عنــد قواعــد الإبدال والإعلال، والقلب، وقد خصَّه ابن جني بكتاب مستقل سماه " كتاب التعاقب"،

كما نوه بذلك في الخصائص، أثناء عرضه لبعض الأمثلة التي تشير إلى منهجه في هـذا الكتاب (ج١، ص ٢٦٢-٢٦٦)، فإن كان كتاب ابن جني قد ضاع فـإن صـاحب الأمالي قد عقد الجزء الثاني من كتابه حول هذا التعاقب، أو عرض له في أكثـر مـن ثلاثين موضعاً، شملت الجزء كله تقريباً، على أن الخلاف كثير بين اللغويين و النحـاة حول الفرق بين هذا " التعاقب" وبين "الإبدال"، ممَّا يحتاج تحقيقه إلى بحـث خـاص، نرجو أن نتوفر له يوماً ما إن شاءَ الله.

لكن الذي لا شك فيه أن التعاقب أوسع وأعم من الإبـدال النحـويّ، فـإن حروف الإبدال محدودة معدودة، أما التعاقب فيكاد يستوعب أكثر الحروف الهجائية، فالسين تعاقب بصاد، والزاي والثاء والتاء، ممَّا ورد بعضه في كلمة " **الصراط**"، كمـا تتعاقب الضاد و الظاء في: **الظهر**، مثلاً، وكالضاد واللام، كما سـبق في **اضـطجع، والطجع**... وهكذا.

وقد يقول بعض العلماء: إن هذا التعاقب لا تغير منه اللغة إلاَّ كثرة المترادف في الألفاظ، إذ إن الصراط هي السراط مثلاً... لكنني وقفت على بعض الكلمات الـتي يختلف معناها باختلاف حرف التعاقب، فقد روى القالي عن الفراء في تعاقب الثـاء و الفاء في: "**اللثام**" و "**اللفام**" أن اللثام على الفم، و اللفام على الأرنبـة (ج٢ ص٣٤)، ونحن نعرف في فقه اللغة كيف تختلف المعاني بين "قطف"، و"قطم"، و"قطر"، و"قطع" وهكذا ممَّا يتعاقب فيه الحروف على مقطع واحد.

كما نعرف أن العلماء لا يتوسعون كثيراً في متابعة اختلاف المعاني بـاختلاف الحروف، فابن جنى – على دقته في هذا المجال، يقول فيما ساقه من أمثلـة التعاقـب: "**التقط النوى واشتقطه بمعنى واحد**" - (ج١ ص ٢٦٢)، بينما نحن نستعمل "**لقطـه، والتقط**" فيما نتناولـه من الأَرض، ونستعمل "**شَقَط، واشْتقط**" فيما نتناوله من الهواء، وطبيعة الحرفين: اللام والشين تؤيد هذا الفرق، فاللام تستقر في سقف الحلـق، بينمـا الشين هائمة في تجويفه.

إن فنّ "التعاقب" يمكن أن يثري اللغة لفظًا ومعنى، ممَّا قد يغير منـــه المجمـــع في حاجته إلى ألفاظ جديدة لبعض المصطلحات. إنه موضوع يستحق البحث والدراسة.

على أني لست مبتدعًا فى الدعوة إلى عمل "معجم" عـــام للكلمـــات العاميـــة الفصيحة، الدائرة على الألسنة فى شعوب أُمتنا شرقًا وغربًا، فلقد سبقنا إلى هذا العمل علماء فضلاءُ من قديم، وسار على نهجهم علماءُ معاصرون، لعل آخرهم ما جاءنا منذ شهر، وهو كتاب "**معجم ألفاظ اللهجة الكويتية**" تأليف: ليلى خلف الـــسَّبْعان، وفى مكتبة المجمع عدد من الكتب فى هذا الباب تعالج اللهجة السعودية والسورية وغيرهمـــا؛ ولعل أقدم مُؤلَّف عرض للموضوع في قطر، واحد منفرد، هو كتاب "**رفع الإصر عن كلام أهل مصر**" لأبى يوسف المغربي، من علماء القرن العاشر الهجري، وهو كتـــاب قيّم، لكن صاحبه استوعب الكلمات الدائرة كلها، ما أصله فصيح وما هو دخيل، ممَّا دفع "أبا السرور البكري" في القرن الحادي عشر، إلى أن يفرد الكلمات التي لها أصل في الفصحى بكتاب مستقل سماه: "**القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغـــات العرب**" وهو كتاب مطبوع معروف. وقد أشرت إلى هذين الكتابين مع تعليق مـــوجز عليهما في كلمة ستلحق بهذه الكلمات إن شاء الله.

ثم إن هذا المؤلفات – قديمها وحديثها – تبعث في نفوسنا كثيرًا من الارتيـــاح والاطمئنان إلى أن لغة العامة لا تزال قريبة من الفصحى، وأن التغيير اليسير الذي أصاب بعض ألفاظها من الممكن تداركه، حين نعقد العزم، ويقينا ربنا شر المعوقات والمثبطات.

* * *

حَوْلَ رَدِّ العَامِّيِّ إلى الأصْل (*)

للدكتور محمد هيثم الخياط
(عضو المجمع المراسل)

كان في مقدِّمة مَنَاسِكِ "جنيف"، التي أنسُكُ إليها في العَقْدَيْن الماضيين، أن أزور الدكتور زكي علي، وهو كما وصفه - بحق - الأستاذ عجاج نـويهض، في رسـالةٍ عندي، بخطّه: "خيرةُ المؤمنين، وصفوة المجاهدين المهاجرين"، فقد كـان - رحمـه الله وأحسن إليه– على ثغر من ثغور الإسلام في جنيف، التي مكث فيها خمـسةً وسـتين عامًا، منافحًا بلسانه وقلمه، إلى أن اختاره الله إلى جواره في الشهر الماضي، وكان قـد وَفَدَ إليها تلبيةً لدعوة من الأمير شكيب أرسلان - رحمه الله - سنة أربع وثلاثـين، ثم توثَّقت بينهما صلات المودّة الخالصة، والجهاد المشترك لخير الإسلام والعرب في مشارق الأرض ومغاربها، وهو أمرٌ كان معروفًا، فمن عرفهما حقَّ المعرفة،كالأستاذ نـويهض، الذي يخاطب الدكتور زكي على في الرسالة التي أسلفتُ ذكرها، بقوله: " وإني أعلـم جيدًا ما بينكم وبين الأمير شكيب - رحمه الله - من رفقة وصحبة، وأخوَّة ومـودّة، وشركة مباركة في هذه القافلة، فقد كان -جزاه الله خيرًا -- يذكركم الذكر الجميل في كتبه ورسائله ومقالاته، وهو يَعدُّكم من عُدَّته، وأنتم ممّن كان بهم يعتـضد وإلـيهم يستند".

وفي زيارة إليه قبل خمس عشرة سنة، ذَكَرلي أن عقيلة الأمير شكيب أهدت إليه بعد وفاة الأمير، خمس كراريس بخطّه، عنوانُها: "**القول الفـصل في ردِّ العـامّي إلى الأصل**".

وقد تكرّم الدكتور زكي فأهدانيها، وتمَنَّى عليَّ أن أنشرها معلِّقًا عليها بما تدعو إليه الحاجة.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة السادسة، من الدورة الخامسة والستين، يوم الخميس الموافق ١١ مـن مـارس سـنة ١٩٩٩م. ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء التاسع والثمانين، ص ١٢٧.

وقد وجدت أن هذه المجموعة تنقصها الكرَّاسة الأولى، والتي يُفْتَرَضُ أن يكـــون المؤلف قد أعرب فيها عن مقصده، وفصَّل القول في مذهبه، في مقدِّمةٍ لا يمكن أن يقوم فيها أحد.

ومن أجل ذلك أرجأتُ نشر هذا الكتاب، ريثما أعثر علـــى الكرَّاســـة الأولى، وكتبت إلى كلٍّ من توسَّمتُ فيه معرفة ذلك، دون طائل.

ثم رجوتُ الأخ الدكتور وليد عمار، وهو صديق مشترك لي، وللأستاذ وليـــد جنبلاط، حفيد الأمير شكيب، أن يسأله عنها فتكرم وأرسل إليَّ بكتاب منشور، عنوانه كعنوان الكراريس، ولكن مقدّمة محققهِ الأستاذ محمد خليل الباشا، تحمل على بعـــض الشك فيه، فهي تتحدث عن دفتر كبير بخط الأمير شكيب، وتذكر أن " في هذا الدفتر مئة وسبعًا وتسعين صفحة غير مرقَّمة، فُقِدت الصفحة الأولى منه، التي تحمـــل اســـم الكتاب ومؤلِّفَه وموضوعَه، لكن هذا سهل تداركه. فالخطُّ يدلُّ على صاحبه،والبحث يـــدل على موضوعه، أما الاسم فنجده عند من ذكروا أسماء مؤلفات الأمـــير غـــير المطبوعة، وبينها كتاب: "**القول الفصل في ردّ العامّي إلى الأصل**"، وسمّـــاه غيرهـــم "**إصلاح العامّية**" ولا ريب في أن هذا هو المقصود، فاخترنا أن نتَّخذ له التسمية الأولى.

وقد قدّم المحقّق للكتاب بمقدِّمة نافعة، وجعل الكتاب في ثلاثة أقسام: أولُهـــا- "ردّ العاميّ إلى الأصل"، وثانيها- "شذرات لغوية "، وثالثها" - من كلام البُلَغاء" ونشر صورًا زنكوغرافية لبعض الصفحات يتبيَّن منها أن القسم الأول يؤلف الجزء الأخير من الدفتر، ويتقدّمه القسمان الآخران. وهذا القسم الذي يهمّنا، فيه كثيرٌ مـــن الفِقـــرات والعبارات المشتركة مع الكراريس التي بين يديّ، ولكن كثيرًا منها يوجد في أحـــدهما فحسب، من أجل ذلك أميلُ إلى أنَّ الكتاب المنشور، إن لم يكن ما أطلق عليه بعضهم "إصلاح العاميّة" فإنه جـــزء آخر من "القول الفصل" كُتِبَ في حِقبة أخرى غير تلـــك التي كُتِبت فيها الكراريس التي بين يديّ.

والحديث عن العاميّة والفُصحى حديثٌ قديم، نشأ مع الكتب الأولى التي ألّفها عددٌ من العلماء الغُيَّر على لغة التنـــزيل العزيز، مِمَّن أفزعهم أن يتطرَّق إليها اللحـــن، وهو كما يقول أحمد بن فارس: "إمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية" وهو في رأيه "مُحْدَثٌ، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة" أما أبو الطيب اللُّغوي، فذكر أن "اللحن ظَهَرَ في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد النبي ﷺ، فقد رُوي أن رجلاً لَحَنَ بحضرته، فقال: أرشدوا أخاكم".

ثم تَوَاصَلَ التأليف في لحن العوامّ على اختلاف الأزمنة والأمكنة، ممـــا لا مجـــال للحديث عنه في هذه العُجالـــة، اللهم إلا أن نذكر أن المجمعي الجليل المرحوم الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف نَشَرَ في مجلة هذا المجمع الموقر- قبل لواذ ستين عامًا- جريـــدةً مطوّلة بأسماء هذه المؤلفات في القديم والحديث، يمكن الرجوع إليها لمن شاء التوسُّع في هذا الموضوع.

وإنَّك لَوَاجدٌ في ما يصحِّح هؤلاء وأولئك مما يعتبرونه مـــن أغـــلاط العامّـــة والخاصّة، تباينًا كبيرًا يختلف باختلاف المستوى الصوابي الذي يتَّخذونه ويلتزمون بـــه، أي المعيار اللغوي الذي يرضى عن الصواب، ويرفض الخطأ في الاستعمال. بل إنـــك لتجد بعضهم يَرُدُّ على بعضٍ في تصويب بعضِ ما خطَّأه أو تَخْطئَةِ بعض ما صـــوَّبه، فابن هشام اللَّخمي مثلاً في كتابه: "**المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان**"، يَرُدُّ على تخطئة أبي بكرٍ الزُّبَيْدي في" **لحن العامة**" قول العامّة "**سكرانة**"، فيقول له: "فإذا قالهـــا قوم من بني أسد، فكيف تلحن بها العامة، وإن كانت لغة ضعيفة، وهم قد نطقوها كما نطقت بعض قبائل العرب؟ "، وابن السِّيد البَطَلْيوسي في "الاقتضاب" يَرُدُّ ما ذكره ابن قتيبة في " أدب الكاتب " أنَّ قول الناس: " **فلانٌ يتصدّق**، أي يسأل..غَلَط، فيقـــول: "وقد حكى أبو زيد الأنصاري، وذكر قاسم بن أصبغ عنه، أنه يُقال: تصدَّق إذا سأل، وحكى نحوَ ذلك أبو الفتح بنُ جني، وابنُ الأنباري، وصاحبُ كتاب العَيْن".

فمقياس الصواب عند المتشدِّدين المعسِّرين هو الأفصح، وما عداه لحن. وهو عند المتساهلين الميسِّرين: كلٌّ ما تكلمت به العرب، وما قيس على كلام العـــرب، فهـــو صواب. ويلخّص هذا الموقف الأخير قول ابن هشام اللَّخمي في "المدخل": "روى الفرّاء أن الكسائي، قال: على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن إلا القليل.وقـــال الأخفش عبد الحميد بن عبد المجيد: أنحى الناس مَنْ لم يلحِّن أحدًا؛ وقال الخليل:" لغـــة العرب أكثر من أن يلحن متكلم"، ومثلُ ذلك قولُ ابن جني في " الخصائص":"فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غيرُ مخطئ، وإن كان غيرُ ما جاء به خيرًا منه". وقول ابن السِّيد في " الاقتضاب": "وقد أنكر الأصمعي أشياء كثيرة كلُّها صحيح، فلا وجه لإدخالها في لحن العامّة من أجل إنكار الأصمعي لها ".

وبعد، فأنت مستطيعٌ أن تَسْلُك الذين كتبوا في لحن العامة، وتقـــويم اللـــسان، وإصلاح الفاسد في القديم والحديث، في إحدى فئتَيْن اثنتَين: فئةٌ تُقَرِّع الذين ينحدرون عن مستواها الصوابي تقريعًا، وتخاطب الذين هم مخطئون في نظرها بلهجة كلُّها تَعَـــالٍ وأفعالُ أمرٍ وزَجْر: قُلْ ولا تَقُلْ! فتُشْعِر المخاطَبين من العامة بالخزي والتقصير، وتكـــاد تقضي على كل أمل لهم في أن يُحسنوا التحدُّث باللسان الفصيح يومًا ما، وفئةٌ تخاطب العامة بالتي هي أحسن، وتَتَخيرُ من كلامهم ما يَمُتُّ إلى الفصاح بسبب فتسلّط الضوء عليه وتلفت النظر إليه، وتقول لهم - بلسان الحال-: إن عامّيتكم وليدةُ الفصحى بدليل هذه الكلمة التي تنطقونها كذا، وأصلها كذا وهو قريب: فتبعث في نفوسهم الأمل بأنهم من اللغة الفصيحة قاب قوسين أو أدنى، وترغِّبهم في اقتحام العقبة ترغيبًا، وشتَّان ما بين الفئتين.

والمؤسف أن جُلَّ من كتبوا في الماضي والحاضر ينتمون إلى فئة الذين ينهون عن المنكر بغير المعروف، حتى يكاد ينطبق عليهم قول النبيّ ﷺ:"إن منكم منفـــرين"؛ وأن قُلَّهم يندرجون في فئة الذين يلتزمون الهدي النبوي الكـــريم:" يـــسِّروا ولا تعـــسِّروا، وبشِّروا ولا تنفّروا". ومن هؤلاء أستطيع أن أعدّ محمد بن أبي السرور الصدّيقي مـــن

أهل القرن الحادي عشر للهجرة، في كتابه: "**القول المقتضب في ما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب**" وابن الحنبليّ في كتابه: "**بحر العوّام في ما أصاب فيه العوامّ** "؛ وفي عصرنا هذا "بقايا الفصاح" وهي سلسلة مقالات كان يفتتح بها الأستاذ شفيق جبري - رحمه الله - أعداد مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، وكتاب: "**رد العامّى إلى الفصيح**" للشيخ أحمد رضا العامليّ، وكتابنا **هذا**: "**القول الفصل في ردّ العامي إلى الأصل**"، وأختم بمختارات منه:

ويقولون للجواد الذي يسبق غيره في السباق: إنه "**فضح الخيل**"، أي بذّها في العَدْو وكشف عيبها، وهو استعمال صحيح فصيح.

ويقولون: "**بَطَحَه**" بمعنى: صَرَعَه، أو ألقاه على وجهه، وهو فصيح صحيح ومستعمل في أكثر البلاد العربية.

ويقولون عندنا: "**تَحَلْحَلَ**" بمعنى: انصرف وذهب، وهو صحيح فصيح؛ ففي اللغة: "حلحلَ القوم: أزالهم عن موضعهم"، وتحلحل هو مطاوع حلحل، ويقال في اللغة: "فلانٌ ما يتحلحل من مكانه"، وقالت ليلى الأخيلية:

مقيمٌ طوال الدهر لن يتحلحلا

ويقولون عندنا "**قح**" بمعنى: سَعَل، والذين يبدلون القاف همزة يقولون:"أح"، وقد جاء في اللغة "أح" بمعنى سَعَل، أو بمعنى تنحنح؛ راجع لسان العرب وغيره.

إذًا تكون "أح" هي الصحيحة. ويقول الشيخ محمد علي الدسوقي المصري صاحب "**تهذيب الألفاظ العامية**": إن أهل الدقهلية بمصر يقولون: "أح" بمعنى سَعَل ولكن أكثر سكان القطر المصري يقولونها بالكاف أي "**كح**"؛ قال: و لم أره في كتب اللغة بهذا المعنى. قلت: قوله هذا صحيح، والأظهر أن أصل اللفظة بالهمزة أي "أحّ" فجعلها العامة بالقاف، وقالوا: "قحّ"؛ لأنه كما يوجد من العامة من يقلب القاف همزة،

يوجد منهم من يقلب الهمزة قافًا أحيانًا. ثم بعد أن صارت "قح" تلفَّظ بها البدو بالقاف المعقودة، وهي بين القاف والكاف، ثم صارت هذه بالتدريج كافًا، فقالوا: "كَحّ" وهي كذلك في مصر والمغرب وأكثر البلاد.

ويقولون في لبنان: "**استاهل الشيء**" أي كان له أهلاً، ويسهلون همزة استأهل، وهذا يقولونه في كل الشام ومصر والمغرب، وأظنه مستعملاً في جميع البلدان العربية وهو فصيح عن الأزهري: سمعت أعرابيًّا فصيحًا من بني أسد يقول لرجل شكر عنده يدًا أَوْلاها: تستاهل يا أبا حازم ما أوليت، وأنشد حمّاد عن أبيه:

جفانا أبو صالح بعدما   أقام زمانًا لنا واصلا

فلما ترأَّس في نفسه   وليس لذلك مستاهلا

وأنكر آخرون هذا الاستعمال ...

ويقولون في لبنان: "أفّ" وهو اسمُ فعل، بمعنى: أتضجّر، وهو مستعمل في مصر والشام والمغرب وجميع البلاد العربية، وهو من أفصح الفصيح؛ قال الله في كتابه العزيز: ﴿ولا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما﴾ .

ويستعملون في لبنان "**الحركشة**" بمعنى التحريك والتأريث، وأصلها بالثاء لا بالشين، كما تقولها العامّة. والحركثة في اللغة: الزعزعة. نعم! قد أهمل هذه اللفظة الجوهري،و لم ترد في لسان العرب،لكن ذكرها الصاغاني، ونقلها صاحب تاج العروس.

ويقولون عندنا – لحوض الماء الذي يُحفر في الأرض:"**برْكَة**" بكسر أولها ويجمعونها على "برَك"، وهذا فصيح صحيح وارد في كتب اللغة.قال الأزهري: ورأيت العرب يسمّون الصهاريج التي سُوِّيَتْ بالآجر وصُرِّجتْ بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركًا، واحدها بركة، ورُبَّ بركةٍ تكون ألف ذراع أو أقل أو أكثر، وفي بلادنا أيضًا يقولون بركة: للصهريج ويقولون للصهريج: بركة. وقد يقولون بركة: للبحيرة، مثل قولهم: بركة الحولة، وبركة الهيجاني. وفي مصر يقولونها حتى للبحيرة الملحة، كما ذكر الدسوقي، صاحب "**تهذيب الألفاظ العامية**". وأظن هذه اللفظة– أي البركة– مستعملة

في جميع البلدان العربية، ومثلها الصهريج، إلا أنهم في طرابلس الغرب حرّفوا الصهريج إلى الشهريز. والبركة هي من الألفاظ العربية التي دخلت في اللغة الإسبانيولية وهي كثيرة جدًّا، ولما كنت في الأندلس صادفت في قرمونة من نواحي إشبيلية امرأة تغسل ثيابًا في مستنقع صغير من الماء، فقلت لها: الجُبّ؟ قالت no (أي لا) ثم قالت: البركة، أي إن هذا لا يقال له الجب بل البركة.

ويقولون "المَطَرة" بالتحريك للقربة أو لوعاء من جلد يحفظ به الماء، وهو فصيح مسموع عن العرب.

وكنت في سفر، وكانت معنا رفقة عراقيون، فقال أحدهم: لنشرب من هذه الثَّميلة، يريد ماء باقيًا من المطر في مطمئن من الأرض، وهذا فصيح، فالثَّميلة بفتح أولها على وزن حَليلة هي البقية من الماء.

وتقول العامّة عندنا: "**طريق نافذ**" و"**طريق سالك**"، وهو من الفصيح كما جاء في مخصص ابن سيده.

وفي حوان يقولون للأجانب: "**أجناب**" وهو صحيح.

وتقول العامة في لبنان للماء"**مُوَيّ**" وأحيانًا "**مُوَيّه**" وصواب الأول "مُوَيْه" بالهاء، وهو تصغير "ماء" - فأصل الماء "مَوَه" بفتحتين، قلبت الواو ألفًا لتحركها بعد الفتحة، ثم أبدلت الهاء همزة، فلهذا لما جاءوا إلى التصغير، قالو:"مُوَيْه" بضم ففتح فسكون. وقد ورد عن العرب "الماه" بمعنى الماء، وورد أيضًا " **الماءة** " بمعنى الماء، وأصلها "الماهة" وتصغيرها " المويهة"، وقال سيبويه في " مُوَيْه ": إنهم ردّوا إليه الهاء، كما ردّوها حين قالوا في الجمع: مياه وأمواه، " فأنت ترى أن عاميتنا لا تخطئ في هذه اللفظة، إلا أنه يجب تحقيق الهاء فيها، حتى تتم صحتها، فيقال: مُوَيّة ومُوَيْهَة.

وبعد فهذه بضعة أمثله تمثّل لهذا الكتاب النفيس، ويكفيك من القلادة ما أحاط بالعُنُق.

* * *

جهود بعض المُحْدَثين في العاميّ الفصيح(*)

للدكتور ناصر الدين الأسد

(عضو المجمع)

لا يدخل في نطاق هذا العنوان تلك الكلمات الفصيحة السليمة التي يستعملها العامة في لهجتهم الدارجة، مثل ألفاظ: البحر، والنهر، والأرض، والشمس، والكرسي، والباب، والرغيف، وسواها من الكلمات التي يلفظها العامة على الصورة التي يكتبها بها الخاصة، فهي أوضح من أن يُدار عليها بحث.

ولكن الذي يندرج في ثنايا هذا العنوان، نوعان من الألفاظ:

الأول: ما اعتراه في نطق العامّة شيء من التحريف والتغيير أخرجه عن الصورة الفصيحة، فابتعد قليلاً أو كثيرًا عن أصله الفصيح، أو عن "اللغة العالية"، وإن كانت بعض كتب اللغة قد احتفظت بصيغته التي تجري على ألسنة العوام، وأشارت إلى أنها لغة، وربما ذكرت اسم القبيلة التي كانت تلك الكلمة من لغتها.

ويكون هذا التحريف أو التغيير في الأصوات وحركات الحروف، كقولهم: **عَنْدَك**، بفتح العين، فقد جرت الخاصّة على كسرها، وظنّوا أن فتحها من خطأ العامة. على حين قال الجوهري: فيها ثلاث لغات: فتح العين وضمّها وكسرها. وإن كان ابن هشام قد قال: وكَسْرُ فائها أكثر من ضمّها وفتحها. وهذا يعني أنَّ كلاًّ من الضمّ والفتح كثير أيضًا[1]. كما يكون هذا التحريف أو التغيير بوضع حرف مكان حرف كقولهم[2]: شكَيْتُ وحَشَيْتُ، بدل: شكوت وحشوت. أو باستعمال الثلاثي

(*) نشر هذا البحث بمجلة المجمع، بالجزء السادس والستين، ص ٢٠٢، ثم ألقي في الجلسة الثالثة من مؤتمر المجمع في الدورة السادسة والستين في ٤ م أبريل سنة ٢٠٠٠م.ونشر مرة أخرى بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والتسعين، ص ٤٧. (ويمكن ضمّ هذا البحث إلى بحوث الألفاظ، بالجزء الأول).

(١) بحر العوّام: ٢٧.

(٢) ابن الحنبلي، بحر العوّام فيما أصاب فيه العوام: ٣١.

مكان الرباعي كقولهم[١]: **نَصَتَ**، بدل أنْصَتَ، **وعَتَقَه**، في موضع أعتَقَهُ[٢]، **وصابه**[٣] السهم، بدل أصابه. أو باستعمال بعض الصيغ الصرفية التي تخالف القياس، كقولهم[٤]: فلان **أشَرُّ** من فلان، بدلاً من شرٌّ منه، وهذا **أبيض**[٥] من ذاك، بدل أنصع بياضًا منــه. أو بحذف بعض الحروف للتخفيف، كقولهم[٦]: **وَنا**، في مكان وأنا، **ومَرَة**، في مكــان امرأة[٧]. إلى غير ذلك من صور التحريف والتغيير، التي يصعب تصنيفها. وأكثرها مما له وجه من الصحّة أو نسبة إلى لغة لإحدى القبائل، ولكنَّ الخاصة يتجنّبون اســتعماله، ويؤثرون عليه الفصيح العالي، الذي جرى عليه الاستعمال واستقرّ.

ومن التحريف والتغيير ما يكون على مراحل، فتبتعد اللفظة عن أصلها، ولا يكاد يُستبان وجه الشبه بينهما، فمن ذلك ما نقله ابن منظور عن التهذيب[٨] قال: "وأمــا **القَرْطَبانُ**، الذي تقوله العامة للذي لا غيرة له، فهو مُغَيَّر عن وجهه، قال الأصــمعي: **الكَلْتَبانُ**، مأخوذ من الكَلَب، وهو: القيادة، والتاء والنون زائدتان. قال: وهذه اللفظة هي القديمة عن العرب، وغيَّرتها العامة الأولى، فقالت: **القَلْطبانُ**، قال: وجاءت عامّــةٌ سُفْلَى، فغيّرت على الأولى، فقالت: القَرْطَبانُ". ولا تعنينا هذه الكلمة لذاتها، فنحن لا نعرف مدى انتشارها في العامية، ولكن الذي يعنينا ما ورد في الــنص مــن وجــود مرحلتين من مراحل التحريف مرّت بهما الكلمة، ومن وجود طبقتين للعامــة تعملان على التغيير والتحريف، حتى تبتعد الكلمة عن أصلها الفصيح.

---

(١) بحر العوام: ١٩.

(٢) المصدر السابق : ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ٥٠ .

(٤) المصدر السابق : ٦١ .

(٥) المصدر السابق : ٤١ .

(٦) المصدر السابق : ٣٩ .

(٧) المصدر السابق : ٣١ .

(٨) اللسان: (قرطب) . وانظر كذلك الدكتور أحمد عيسى : المحكم في أصول الكلمات العامية.

من ذلك أيضًا قولهم: **أُمَّال.** ذكر ابن منظور في اللسان أنّ[١]:" في حديث بيع الثَّمَر: إمالا فلا تَبَايَعوا حتى يبدو صلاح الثمر. قال ابن الأثير: هذه كلمة ترد في المحاورات كثيرًا... وأصلها: إنْ وما ولا.. . قال الجوهري: قولهم إما لا فافعل كذا، بالإمالة.. . قال: ومعناه إلا يكن ذلك الأمر فافعل كذا. قال: وقد أمالت العرب "لا" إمالة خفيفة، والعوام يشبعون إمالتها، فتصير ألفها ياءً، وهو خطأ، ومعناها إن لم تفعل هذا فليكن هذا.. . وروى أبو الزبير عن جابر: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رأى جملاً نادًّا، فقال: لمن هذا الجمل؟ فإذا فتية من الأنصار، قالوا: استقينا عليه عشرين سنة وبه سَخِيمة، فأردنا أن ننحره، فانفلت منّا، فقال: أتبيعونه؟ قالوا: لا بل هو لك. فقال: إما لا فأحسنوا إليه حتى يأتي أجَلُه. قال أبو منصور: أراد إلا تبيعوه فأحسِنوا إليه ... قال أبو حاتم: ... والعامة تقول أيضًا: أُمّا لي، فيضمّون الهمزة، وهو خطأ أيضًا، قال: والصواب إما لا، غير مُمال؛لأن الأدوات لا تمال ..." وقال عزّ الدين التنوخي[٢]: "ولا يزال ضمّ الهمزة من (إمّا) مع إمالة ألف (لا) لغة العامة في مصر، إذ تقول (أُمّالي)".

ولست أدري أهذه هي لفظة "أُمَّال" التي لا تزال جارية على ألسنة العامة في مصر، أم أنها لفظة أخرى؟ فإن كانت هي إياها، فقد تغيّر نطقها، وأصبحت الآن تلفظ بحذف الألف الأخيرة، وبسكون اللام، مثلما تغيّر معناها، فأصبحت تدلّ على عدد من المعاني المتقاربة، تختلف عمّا ذكره ابن منظور التنوخيّ.

والنوع الثاني: ما يجري على ألسنة العامة، ولا تجري به ألسنة الخاصة ولا أقلامهم، مع أنه من الفصيح الذي انقطع استعماله عند الخاصة في الكتابة، وبقي دارجًا على ألسنة العامة، حتى نُسيت نسبته إلى الفصيح، وظُنّ أنه من العامي الذي يربأ

---

(١) اللسان : (لا – إما لا).

(٢) بحر العوّام : ١٦ في الحاشية، والمحكم في أصول الكلمات العامية: ١٦ .

الخاصة عن استعماله في شعرهم ونثرهم. وربما كان من أمثلة هذا النوع الثاني لفظة "**قُرنة**" المستعملة في بلاد الشام، وبعض بلاد مصر، بمعنى: الزاوية، أو الركن، أو ملتقى جدارَيْن في الحجرة، أو ملتقى شارعين. وهي كلمة فصيحة ذكرها المعاجم، وليست أجنبية معرّبة كما يظنّ من ذهب هذا المذهب [١]." فالقُرْنة بالضمّ: الطَّرَف الشاخص من كل شيء، وقُرْنة السيف والسنان: حَدُّهما، وقُرْنة النصل: طرفه، وقيل: قُرْنتاه: ناحيتاه من عن يمينه وشماله، والقُرْنتان: رأس الرحم، وقيل: زاويتاه " [٢].

ومثل ثانٍ: لفظة "**زنَأ**" و"**زنَّأ عليه**" وهما لفظتان فصيحتان في البناء والاستعمال، فقد ورد في المعاجم: "زنَّأ عليه: إذا ضيَّق عليه، مثقّلة مهموزة.. وفي الحديث: أنه كان لا يحبّ من الدنيا إلا أزنأها، أي أضيقَها. وفي حديث سعد بن ضَمُرَة: فزنَّأوا عليه بالحجارة، أي ضيَّقوا".

ومما وقعت عليه مصادفة من الفصيح الذي يجري على ألسنة العامة ويتجنّبه الخاصة في كتاباتهم - غير: القرنة وزنأ - ألفاظ منها:

- **قَمَص**، وهي في عامية أهلنا في مصر بالهمزة: **أمَص**، وتطلق على الدابّة حين تنفر أو تتراجع، وكذلك تطلق على الإنسان إذا أسرع به الغضب وأعرض. وهي لفظة مُعْجمية فصيحة [٣].

- **نقز**، مثل "قَمَص" معنىً ووزنًا[٤]، وهي مما يستعمله العامة من أهلنا في الأردن. ويقلب أهل المدن القاف همزةً، أما في البادية فيلفظونها كما تُلْفَظ الجيم المصرية.

---

(١) ظنًّا منهم أنها محرفة من كلمة corner.

(٢) اللسان: (قرن). وانظر كذلك شفيق جبري، بقايا الفصاح، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج٢٦، ج٢، نيسان سنة ١٩٥١م.

(٣) اللسان : (قمص).

(٤) اللسان: (نقز).

- **ملزَّز، ومُلزَّز الخَلْق**: مُجْتمِعُه، منضم بعضه إلى بعض[1] وهو مما يستعمله العامة في مصر، يطلقونه على الشخص المكتنز اللحم الممتلئ. ولكنهم يلفظونه: **مُلَزلز**، بتكرار اللام، ويفخّمون الزايين.

- **طِعْمة**، وقد رأيت في تفسير الطبري[2]: "وكانت امرأته راعيل امرأة حسناء ناعمة طاعمة، في مُلْكٍ ودُنيا". والعامة غالبًا يختصرون اللفظ فيحذفون الألف، فيقولون: طَعْمة بدلاً من طاعمة، كما يقولون: "فَطْمة" بدلاً من فاطمة. وفي عامية أهل مصر "طِعْمة" بكسر الطاء في وصف الفتاة، للدلالة على رقّتها وعذوبتها. وقد سمَّى العرب طِعْمَة [3].

- ليس له طَعْم، وهو مما يكثر في استعمال العامّة، ويتجنّبه الخاصة في كتاباقم، على حين أنه فصيح. " قال أبو بكر: قولهم ليس لما يفعل فلان طَعْم، معناه ليس له لذّة ولا منزلة من القلب.. . وأنشد:

ألا ما لنفسٍ لا تموت فينقضي شَقَاها، ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ

معناه: لها حلاوة ومنزلة من القلب.. . يقال: ليس له طَعْم، إذا كان غَثًّا. وفي حديث بدر: ما قتلنا أحدًا به طَعْم، ما قتلنا إلا عجائز صُلْعًا. هذه استعارة، أي قتلنا من لا اعتداد به ولا معرفة له ولا قَدْر.. . " [4].

وقد أكثر القدماء والمُحْدَثون من الكتابة في موضوع هذا العنوان، فأشار إليه بعضهم إشارات عابرة في ثنايا مؤلّفاقم، أو ذكروه في فصول فرعية في كتبهم، وأفرده بعضهم بتآليف مستقلة.

---

(١) اللسان: (لزز).

(٢) ١٦ : ١٩.

(٣) اللسان: (طعم).

(٤) اللسان : (طعم) .

وربما كان أقدمَ من نعرف ممن أفرد له كتابًا جعل عنوانه خاصًّا به، ودالاً عليـــه، هو ابـــن الحنبلي الحلبي[١] في كتابه "**بحر العوَّام فيما أصاب فيه العوام**". وأما الـــذين أشاروا إليه إشارات عابرة، أو عقدوا له فصولاً فرعية في ثنايا مؤلفاتهم، فهم الذين ألفوا كتبًا في " **لحن العامة**"[٢] و"**تثقيف اللسان**" [٣] و"**تقويمه**" [٤] و"**إصلاح المنطــق**" [٥] و"**أوهام الخواص**"[٦]، وما يشبهها. وهي كتب وُضِعَت في أصلها لنقيض ما وضع لـــه الكتاب الأول، فقد حرصت هذه الكتب على تخطئة ما نطقت به العامة، وبيان بُعْـــدِه عن الفصيح، وذكر الصحيح فيه. على حين نحا ابن الحنبلي نحوًا مغايرًا؛ إذ ألَّف كتابه في تلمّس وجه الصواب في لغة العوام، وقُرْبها من اللغة الفصيحة.

ومع ذلك فإن كتاب ابن الحنبلي، والكتب الأخرى، تتفق وتتداخل في مواضـــع متعددة. ومن أمثلة ذلك أن صاحب كتاب "تثقيف اللسان وتلقيح الجَنـــان" عقـــد في كتابه ثلاثة فصول، هي أدخل في كتاب "**بحر العوَّام**"، وعناوينها: "باب مـــا تنكـــره الخاصة على العامة وليس بمنكر[٧]"وباب"ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما[٨]"

---

(١) محمد بن إبراهيم، توفي في حلب سنة ٩٧١هـ.

(٢) كتاب "لحن العوام" لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي (ت ٣٧٩م) تحقيق رمضان عبد التواب. والكتاب في لحن العامّة من الأندلس. وكذلك كتاب "ما تلحن فيه العامّة" للكسائي ت ١٨٩هـ).

(٣)كتاب "تثقيف اللسان وتلقيح الجَنان" لابن مكّي الصقلّي (ت ٥٠١هـ) والكتاب في لحن عامة صقلية في عصر المؤلف .

(٤)كتاب "تقويم اللسان" لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) والكتاب في لحن عامة بغداد في عصر المؤلف.

(٥)كتاب "إصلاح المنطق" لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (ت ٢٤٤هـ).

(٦)كتاب "درّة الغوّاص في أوهام الخواص" للحريري (ت ٥١٦هـ).

(٧) ص : ٢٢٧ - ٢٣٧ .

(٨) ص: ٢٤١.

و"باب ما العامة فيه على الصواب، والخاصة على الخطأ[١]". فكتاب ابن الحنبلي شبيه بهذه الفصول التي تصوّب بعض ما يقوله العامة، وتنسبه إلى الفصيح، وإن تفاوتت درجاته في " الفصاحة ".

وقد انقسم المُحْدَثون كذلك فريقين: ألّف الفريق الأول، وأصحابه هم الأكثر، في بيان الخطأ فيما جرت به أقلام الكتّاب وألسنة الناس، وألّف آخرون- وهم القلّة- في بيان وجوه القربى، وصلاتها بين لغة العامة واللغة الفصيحة. والفريق الثاني هو الذي يعنينا في موضوعنا عن " العامي الفصيح ". وسنقتصر على ذكر أربعة من رجاله، لتقدمهم في هذا الباب، وتتبعهم لمفرداته، وتوالي جهودهم فيه. وأوّل هؤلاء الأربعة: **أحمد رضا العاملي**[٢] الذي بدأ بسلسلة مقالات عنوانها "**الغريب الفصيح في العامي**" نشرها في مجلة "المجمع العلمي العربي"، جاءت ثلاث منها بالعنوان السابق[٣]، ثم غيّر العنوان إلى "**العامي والفصيح**"، ونشر فيه عشر مقالات [٤]. وقد بدأ نشر هذه السلسلة سنة ١٩٢٦م وختمها سنة ١٩٤٨م. ثم جمع ما نشره في كتاب، جعل عنوانه "**ردّ العاميّ إلى الفصيح**"، فيه ألف وأربعمئة وستون كلمة عامية. وربما كان من المفيد أن نورد بعض عباراته، لنستدلّ بها على هدفه وأسلوبه، قال في مقدمة المقالات الثلاث الأولى التي جعل عنوانها "**الغريب الفصيح في العامي**": "لم تخرج العامية، مع تحريفها وعدم ضبط قواعدها عن كونها لغة عربية. والتحريف كان معروفًا باختلاف لغات العرب". ثم قال: إن العامية على ضروب، ذكر منها عددًا لا يعنينا منه في هذا المجال إلا

(١) ص: ٢٤٢ - ٢٤٦.

(٢) عضو المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية) توفي سنة ١٩٥٣م.

(٣) مجلد : ٦، ج: ١٠ -١١ -١٢، سنة ١٩٢٦م.

(٤) مجلد : ١٩، ج: ١-٦ ، سنة ١٩٤٤م، ثم مجلد: ٢٠، ج: ٥-٦ و ٩ -١٠، سنة ١٩٤٥م، ثم مجلد: ٢٢، ج: ٥ - ٦ و ١١ - ١٢، سنة ١٩٤٧م، ثم مجلد: ٢٣، ج : ١ و ٢و ٤ ، سنة ١٩٤٨م.

اثنان، هما: الضرب الثالث: "ألفاظ استعملها العرب وعرفتها العامة وقلّ استعمال الخاصة لها فلم تَشعْ بينها"، وهو ما نُعنَى بالبحث فيه الآن. والضرب الرابع: "ألفاظ للعرب فيها لغتان أو أكثر أخذت العامة ببعضها والخاصة ببعض آخر". ثم قال: "وقد رأيت في مراجعاتي كلمات في اللغة من الضربين الثالث والرابع، قلّ استعمال الخاصة لها، حتى كادت تُعدّ غريبة عندهم، ولكنها كثيرة الورود في كلام العامة، فعُنيت بذكرها وشرحها تذكرة للباحثين وبُلْغةً للمتأدبين "[1].

وقال في مقدّمة مقالاته السبع التي جعل عنوانها "**العامي الفصيح**" [2]: "كنت وأنا أعمل في تأليف كتابي متن اللغة، واسمه يدلّ عليه، يعرض لذهني كلمات عامية لها معنى الفصيح الذي أدوّنه، فأعلّق الكلمة العامية على هامش الصفحة. وربما كان اللفظ العامي هو لفظ الفصيح، ولكن الفصيح غريب والعامي مشهور، فأَعُدُّه من الغريب الفصيح في العامي، أو يكون في العامي تحريف قليل أو كثير من قلب أو إبدال فأدلّ عليه، ولم أُعْنَ بالتحريف في الحركات، لأنها فيما أرى أكثر من أن تحصى بين العامي والفصيح، وربما كانت العامية دخيلة أو مولّدة لم يعرفها الأولون بل عرفت في عصر العباسيين ومَنْ بعدهم، فأذكر ما وصل إليه بحثي فيها القاصر[3] على الكتب العربية التي بيدي. وربما تراءى لي في بعض ما نسبه الباحثون في الألفاظ المعربة إلى غير العربية وعدّه دخيلاً فيها، أنه عربي أو يمكن تخريجه على أنه عربي، فأذكر ما تراءى لي فيه، لأنني رأيت أن بعضهم أسرف في إلحاق كثير من الكلمات العربية بالسريانية أو غيرها من اللغات، مع أن إرجاعها إلى أصل عربي واضح أو ممكن على الأقل، فلا ينبغي

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج: ٦، ج: ١٠، تشرين أول ١٩٢٦م ، ص : ٤٣٧ – ٤٣٩.

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج: ١٩، ج: ١ و٢، كانون الثاني وشباط ١٩٤٤م، ص : ٥٩. وقد أعاد هذه المقدمة بتغيير يسير في بعض ألفاظها في كتابه " ردّ العامي إلى الفصيح ".

(٣) صحّحها في كتابه " ردّ العامي إلى الفصيح" فجعلها " المقصور" ، ص: ١ .

والحال هذه جعله دخيلاً ما دام لعروبته وجه.. . وإنه لغني عن البيان أن أكثر ما ذكرته من العامي إنما هو من اللهجة التي أسمعها كل يوم بل كل ساعة، وهي لهجة جبل عاملة وساحل دمشق وما يليه من سفوح لبنان". وختم كتابه بقوله[١]: "هذا آخر ما أردنا بحثه من الكلمات العامية وتخريجها على الفصيح وهو باب من البحث لم أعهد أحدًا عاناه قبلي على هذه الطريقة، وفيه من المشقة والعناء ما لا يخفى على الناظر المتأمل، ولذلك أعتذر للقراء الكرام عما يمكن أن يكون في البحث من السقطات أو التعليل الذي لا يروق لهم أو لبعضهم".

وأما ثاني الأربعة الذين ألّفوا في العامي الفصيح، فهو **الدكتور أحمد عيسى**[٢]، الذي تداخل عمله في الزمن وعمَلَ الأستاذ أحمد رضا العاملي. ذلك أن الدكتور أحمد عيسى أصدر كتابًا عنوانه" **المحكم في أصول الكلمات العامية**" سنة ١٩٣٩م بعد نشر المقالات الثلاث الأولى للأستاذ أحمد رضا بثلاث عشرة سنة، وقبل صدور كتابه "ردّ العامي إلى الفصيح" بثلاث عشرة سنة أيضًا. وربما تبادلا الاستفادة والتأثر، فمن المستبعد ألا يكون الدكتور أحمد عيسى قد اطّلع على المقالات الثلاث الأولى التي نشرها الأستاذ أحمد رضا في مجلة "المجمع العلمي العربي" بدمشق، وكلاهما عضو فيه، وكذلك من المستبعد ألا يكون الأستاذ أحمد رضا قد اطّلع على كتاب الدكتور أحمد عيسى قبل استمراره في نشر مقالاته السبع الأخرى في مجلة المجمع سنة ١٩٤٤م، وصدور كتابه سنة ١٩٥٢م. وربما كان مما يرجّح ذلك أن الأستاذ شفيق جبري نشر في مجلة المجمع[٣] مقالة عرَّف فيها بكتاب "المحكم في أصول الكلمات العامية". ومن هنا ذهبنا إلى تداخل العملين في الزمن وتبادلهما الاستفادة.

---

(١) ص : ٤١٩.

(٢) عضو المجمع العلمي المصري، والأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجلس الأعلى لدار الكتب المصرية، توفي سنة ١٩٤٦م.

(٣) مج: ١٨، ج: ٥ و ٦ ، أيار وحزيران ١٩٤٣م ، ص : ٢٦٠ – ٢٦٢ .

ومما يزيد أمر كتاب "المحكم في أصول الكلمات العامية" وضوحًا أن نذكر عبارات من مقدّمته تكشف عن هدفه وأسلوبه، قال[١]: "اللغة العربية العامية التي نتكلمها الآن في مصر ليست بعيدة كل البعد عن العربية الفصحى، وهي تبتعد عن الفصحى في شيئين: الإعراب وتركيب الحروف.. . على أن أكثر الكلمات العامية التي ينفر منها الآن الذوق، ويستنكرها الحس، إنما كانت من أفصح الألفاظ العربية وأدقها تعبيرًا عما في النفس، ومطابقة لمقتضى الحال، وأنّ كثيرًا منها قد استعملت فيه المجازات اللطيفة، والاستعارات المستملحة التي تعدّ من أرقى أساليب الفصاحة في الكلام والكتابة، ولقد تكفي نظرة فيما جمعناه وشرحناه للتحقق مما ذكرت. وقد يستغرب المتأمل في بعض الكلمات العامية بُعْدَها هذا البعد عن أصلها الفصيح، ويستبعد أن تكون بين الكلمتين صلة قرابة سابقة، وإن هذا الاستغراب ليزول، وهذا الاستبعاد لينمحي متى علم أن التغيير في الكلمات الفصيحة لم يحدث مرة واحدة، بل إن هذه الألفاظ قد تعاورها أدوار من التغيير تناوبتها مرة بعد أخرى، وأنه كان هناك عامّةٌ عليا وعامة سفلى أتت بعد الأولى، وزادت عليها في تغيير ألفاظ اللغة. قال ابن منظور (المتوفى سنة ٧١١هـ) في مادة قرطب، وأما " القَرْطَبان " الذي تقوله [العامّة][٢] للذي لا غيرة له فهو مُغَيّرٌ عن وجهه. قال الأصمعي: " الكَلْتَبانُ " مأخوذٌ من الكَلَب، وهو[٣] القيادة والتاء والنون زائدتان. قال: وهذه اللفظة هي القديمة عن العرب وغيَّرتها العامّةُ الأولى، فقالت: "القَلْطَبان"[٤] قال: وجاءت عامةٌ سُفْلَى، فغيرت على الأولى، فقالت: "القَرْطَبان". فيرى من ذلك أن اللفظ العامي قد تغير مرتين في دورين غير

(١) المقدّمة: ص — ف.

(٢) سقطت من الأصل وأثبتها من اللسان.

(٣) في الأصل "من الكَلتبة وهي" والتصحيح من اللسان

(٤) في الأصل " قَلْطَبان " دون أل التعريف، وأثبت ما في اللسان.

متباعدين كثيرًا من أدوار حياة اللغة. ولقد تيسّر لي جمع الكثير من مفـــردات العامـــة، وعملت على تحقيق أصولها وردّها إليهـــا، ورتبتها في هـــذا السِّفْر بحسب حـــروف الهجاء، فذكرت اللفظ العامي أولاً وبجانبه تفسيره عند العـــوام، ثم أتيـــت بالأصـــل الفصيح، وذكرت تفسيره في معجمات اللغة، كاللسان والتاج، وبينت الحقيقة فيهـــا والمجاز.

ولكن المؤلّف لم يقتصر في عمله على الألفاظ العامية التي لها أصول فصيحة، بـــل جمع كثيرًا من الألفاظ الدخيلة المعرَّبة، وردَّها إلى أصـــولها اليونانيـــة أو الإيطاليـــة أو الفرنسية أو التركية أو الفارسية أو السريانية، وكل ذلك لا صلة له بموضـــوعنا عـــن "العامي الفصيح" ولا بما ذكره في مقدمته مما اقتبسناه قبل قليل، وإن كان لا يتناقض مع عنوان الكتاب الذي جاء عامًّا في " أصول الكلمات العامية " دون تقييدها بالأصـــول الفصيحة.

والكتابان على غزير نفعهما، وكثرة ما بُذل فيهما من جهد، وطول ما استغرقاه من وقت لا يخلوان من السهو في إرجاع بعض الألفاظ إلى غير أصولها، وفي التكلـــف الواضح في محاولة ردّ بعض الكلمات إلى أصول لا صلة لها بها. فمن ذلك ما انتقـــده الأستاذ شفيق جبري في عرضه لكتاب "المحكم في أصول الكلمات العامية" قال[1]: "في بعض هذه الكلمات، اجتهد الدكتور في ردّها إلى أصولها اجتهادًا لم يظهر عليـــه أثـــر الكلفة، وفي بعضها كان اجتهاده عرضة لكثير من الكلفة، من قولـــه مثلاً في مـــادة: (بَظرَمَت)، تقول العامة في مصر: **بظرمت المسألة،** أي فشلت، فقد ردّ الدكتور هـــذه المادة إلى: (برم) الفصيحة، فقال: برم بالأمر سئمه، فأقحمت العامـــة فيهـــا الظـــاء فصارت، بظرم: فهذا اجتهاد على ما أعتقد لا يخلو من شيء من التعسف. من هـــذا الشكل: قوله في مادة: **فَزَّ**، العامة تقول للرجل الذي تريد طرده: **فِزْ من هنا،** فالدكتور

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج: ١٨، ج: ٥ و ٦، أيار وحزيران ١٩٤٣م، ص: ٢٦١ – ٢٦٢.

ردَّ هذه اللفظة إلى مادة: فاز يفوز فوزًا، وقال: كأنك تقول للرجل: فُــزْ، أي انْــجُ بنفسك،على أنه لو رجع في القاموس المحيط إلى المادة التي جاءت قبل الفــوز بــثلاث لفظات لوجد: (فزَّ) بعينها، فمن معانيها: فزَّ فلانًا عن موضعه فزًّا: أزعجــه، فــالمعنى العامي مطابق للمعنى الفصيح لا تباعد بينهما، إلا أن العامة استعملت: فــزّ لازمــة، وجاءت في اللغة في هذا المقام متعدية، فلم يبق وجه بعد هذا التوضيح لردّ هذه اللفظة العامية إلى: فاز يفوز فوزًا.. .

ومن هذه الاجتهادات ردُّه مادة: **بعزأ فلوسه**، إلى: بعثق، أي: خرج المــاء مــن غائل حوض أو جابية، وقد ردها أيضًا إلى مادة أخرى وهي: تزعبق الشيء من يدي، أي تبرّز وتفرّق. والدكتور في غنى عن هذا كله، ففي اللغة يقال: بعزق الشيء،:فرّقــه وبدّده، مثل: زعبقه، فقول العامة: بعزأ فلوسه أصله: بعزق، أبدلوا القــاف همــزةً لا غير!".

وثالث هؤلاء الأربعة المتقدِّمين في هذا الموضوع، المتتبعين لفرائــده، المنقبين عن غرائبه، هو الأستاذ **شفيق جبري**[1] وحقّه التقديم وأن يكون أولهــم لــشدة تحرّيــه وتمحيصه، ولعمق استنباطه وجودة ربطه العامي بأصله، وكثرة غوصه علــى أمهــات كتب التراث، واستخراج النصوص منها، مستشهدًا بها على صحّة تعبيرات العامة، غير مقتصر في ذلك على المعاجم وما فيها من دلالات لغوية. وإنما أخرناه وجعلناه ثالثًــا؛ لأنه بدأ مقالاته في سنة ١٩٤٢م، بعد المقالات الثلاث الأولى للأســتاذ أحمــد رضــا العاملي بستّ عشرة سنة، وبعد صدور الطبعة الأولى من كتاب " المحكــم في أصــول الكلمات العامية" للدكتور أحمد عيسى، بثلاث سنوات.

وقد نشر تسع عشرة مقالة على امتداد سبع وثلاثين سنة، كان آخرها في سنة ١٩٧٩م. بدأ مقالته الأولى سنة ١٩٤٢م بمقدّمة يوضّح فيها مقصده ويــصف طبيعــة

---

(١) عضو المجمع العلمي العربي بدمشق،وعميد كلية الآداب فيها، شاعر معروف له ديوان مطبوع، توفي سنة ١٩٨٠م.

عنوانـــه الـــذي اختاره لمقالاته وهو "**بقايا الفصاح**". قال[١]:" أعني ببقايا الفـــصاح طائفةً من الألفاظ التي استفاضت في العامة وأصلها فصيح، إلا أنها مع تعاقب الـــسنين عليها تباعَدَ عنها فريق من الكتَّاب، فذهب وهْمُنا إلى أنها عامية. ولهذه الألفاظ على ما أعتقد قوة غريبة في حياتها، فقد خلَّفها الماضي وتداولتها العامة، فلم تفقد شـــيئًا مـــن حياتها، على الرغم من اختلاطها بألفاظ أعجمية، انحدرت إليها من الأمم التي انبـــسط سلطانها على هذه البلاد أو على بلاد العرب عامة، ففي كل بلد مـــن بـــلاد العـــرب طوائف من هذه الألفاظ، ولكل طائفة منها حياة قوية. ولقد عُنيت بها مـــن ســـنين، فاجتمع لي مقدار منها أرجع إليه، من حين إلى آخر، فتنطوي لي أحقاب بعيدة، فأرى في تضاعيف هذه الألفاظ حياة بلد بأجمعه، إذ إنها تفصح لي عن ناحية مـــن نـــواحي الاجتماع أو الاقتصـــاد أو عن معنى من المعانـــي النفسية أو المادية أو غير هذا كلـــه، وقد حافظ قسم من هذه الألفاظ على معناه الأول، فلم ينـــشأ تفـــاوت في المعنـــيين: اللغوي والعامي، وقسم منها عدّل بعض التعديل ولكن النسبة بين المعنيين مـــستحكمة على الرغم من هذا التعديل".

ومن أطرف تحقيقات الأستاذ "شفيق جبري" وأدقّها وأدلّها على سعة اطلاعـــه: تتبعه لبعض التعبيرات التي تجري على ألسنة العامة وإرجاعها إلى الفـــصيح المـــدوّن في كتب تراثنا، وعدم اقتصاره على الألفاظ والكلمات المفردة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره من أن العامة في دمشق تقول[٢]: "**ما شبعت منه**"، أي: من النظر إليه، إمّا لفرط جماله أو لطفه، وإمّا لحسن هيأته أو غير ذلك، وقد جاء في ذيل الأمالي ما يلي: قال الحجاج لثابت بن قيس الأنصاري: ارث ابني أبَان، فقال له: إني لا أجِـــد به ما كنت أجِـــده بحسن (ابن ثابت) قال: وما كنتَ تجد به، قال: ما رأيته قط فشبعت من رؤيته.. .".

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج : ١٧، ج: ٣، آذار ١٩٤٢م، ص: ١١٤، ١١٥.

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج : ٢١، ج:١، كانون الثاني ١٩٤٦م، ص: ١٢.

وكذلك ما ذكره[١] "من قول العامة في دمشق: **ركّبوها عليه**، وهم يريدون بذلك أنهم نسبوا إليه كلمة أو مسألة إما من باب الافتراء، وإما من باب الظرف، فإذا قالوا: ركّبوا عليه كذا أو كذا.. . أرادوا مرة الافتراء المطوي على شيء من الأذى، ومرةً السخرية المطوية على شيء من الظرف، جاء في "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة في كلامٍ على خروج عليّ من المدينة أن أخاه عَقِيلاً، كتب إليه كتابًا جاء فيه: وإني خرجت معتمرًا فلقيت عائشة، معها طلحة والزبير وذووهما وهم متوجهون إلى البصرة، قد أظهروا الخلاف ونكثوا البيعة، وركّبوا عليك قتل عثمان.. .".

وكذلك ما ذكره[٢] من أنّ "من تراكيب العامة في دمشق: لا تدخل بيني وبينه، وهو مفهوم. وقد جاء هذا التركيب في الأغاني في أخبار إسحاق بن إبراهيم، فقد نقل عون بن محمد حديثًا عن إسحاق، قال إسحاق: لاعبت الفضل بن الربيع بالنَّرْد، فوقع بيننا خلاف، فحلف وحلفت، فغضب عليَّ وهجرني، فكتبت إليه أبياتًا وعرضت الأبيات عليه، فلما قرأها ضحك، وقال: أشدُّ من ذنبك أنك لا ترى لنفسك بذلك الفعل ذنبًا، والله لولا أنني أدَّبتك أدَبَ الرجل ولدَه، وأنَّ حَسَنَك وقبيحك مضافان إليّ لأنكرتني، فأصلح الآن قلب عَوْنٍ، وكان يَحْجبه فخاطبتُه في ذلك، فكلمني بما كرهت، فقلت: أتدخل بيني وبين الأمير، أعزه الله... ".

ومن ذلك ما ذكره من أن[٣] "من التراكيب الفصيحة التي تستعملها العامة قولهم: **عليه موعد**. وقد جاء في الأغاني في أخبار ابن مِسْجَح، ونسبه، في خلال قصة طريفة تتعلق بقبض عامل الحجاز لمال ابن مِسْجَح ونفيه، ما يلي: ثم قال: يا فتيان! هل فيكم من يضيف رجلاً غريبًا من أهل الحجاز، فنظر بعضهم إلى بعض، وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قينة يقال لها: برق الأفق!".

---

(١) المصدر السابق: ١٢ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج: ٢١، ج: ١ ، ص : ١٤.

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج: ٢١، ج: ١، ص: ١٤ – ١٥ .

وكذلك ما ذكره(*) من تعبير: " **كبسوا بيته**...وهو مفهوم، تريد العامة بـــذلك أهم دخلوا بيته وفتشوه. وقد جاء في الأغاني في أخبار إبـــراهيم الموصـــلي حـــديث لحمَّاد بن إسحاق عن جدّه إبراهيم، قال: فلما ولي موسى الهادي الخلافة استتر جدي منه ولم يظهر له، بسبب الأيْمان التي حلّفه بها المهدي، فكانت منازلنا تُكْبَس في كـــل وقت.. .".

والأمثلة التي جمعها الأستاذ شفيق جبري من تعبيرات العامة، واســـتخرجها مـــن كتب التراث، فأثبت بذلك فصاحتها، أمثلة كثيرة، حسبنا منها مـــا قـــدّمنا. وجميـــع مراجعاته وتحقيقاته، في التعبيرات وفي الألفاظ معًا، بعيدة عن التكلّـــف، والتزيـــد في التأويل، بريئة من افتعال صلات غير قائمـــة بيـــن اللفظ العامـــي والأصـــل الفصيح. ويحسّ كل من يقرؤها بصحة مأتاها، وسهولة مداخلها، ودقة تخريجاتها. وهي بـــذلك تختلف عن بعض ما ورد في الكتابين السابقين، على ما فيهما من جهد دؤوب ومـــن إصابة في أكثر التعليلات والتخريجات.

وآخر مَنْ نذكرهم في هذه المقالة الدكتور "**عبد الملك مرتاض**"، الـــذي ألّـــف كتابًا عن "**العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى**" ذهب فيه إلى: " أن البحث في لهجـــة من اللهجات العامية لا يُعَدّ بالضرورة دعوة إليها، ولا إغراء بإحياء ما اندثر منها، ولا دفعًا إلى استعمالها في الكتابة، **وإن كنا نؤثر أن لا يربأ الكتّاب عن استخدام الألفاظ الفصيحة المستعملة في العامية للتقريب بينها وبين الفصحى**، فإن معظـــم الألفـــاظ العامية الجزائرية فصيحة، وإنما أفسدها العامة بألسنتها، فأخذت تبتعد عن الفصحى من وجهة أو من أخرى - وإنما يعَدّ بحثًا علميًّا قائمًا على التطلع إلى المعرفة المجردة إن شئت، وإلى المعرفة الهادفة إن شئت ذلك أيضًا"[1].وهو يرى "وجوب أن يقوم المثقفون بحملة

(*) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج: ٢١، ج١ صـــ:١٥.

(١) العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، المقدمة: ٦ .

تفصيحية، ولا أقول تعريبية، لأن عامة الجزائريين متعربون من حيث لهجتهم كما سنرى من خلال الأمثلة التي نسوقها، ونشرح أصولها، ونؤول مدلولاتها"[١]. وبعد أن يقطع شوطًا في دراسته، يقول[٢]: "ومن الأمثلة والشواهد التي جئنا بها، يمكن لنا أن نستخلص نتيجة هامة، تتمثل في كون عاميتنا راقية جدًّا، بحيث يستطيع الباحث المحايد النـزيه أن يضعها في صدر العاميات العربية الراقية، فعلى الرغم من الغزوات المتتالية، والاحتلالات المتعاقبة لأرضنا، فإن اللغة العامية الجزائرية ظلت أقرب ما تكون إلى العربية الأصيلة، وأبعد ما تكون عن لغات المحتلين القدامى كالرومان والوندال، والمحدثين كالفرنسيين والإسبان". ويؤكد هذا المعنى أيضًا قوله[٣]: "والذي يتأمل هذه الأشعار يجدها ذات أصول فصيحة، وهي لا تغترف من اللغات الأجنبية قطعًا، بل تستعمل لغة عامية عربية أقرب ما تكون إلى الفصحى. وهي ظاهرة لغوية رائعة، تدل على أصالة عروبة هذا الشعب، وعلى قوة شخصيته، وعلى متانة كيانه الحضاري".

ويعود إلى تأكيد مذهبه في انتماء عامية الجزائر إلى الفصيحة، بقوله[٤]:"ولعل في هذا القدر من هذه الطائفة من الأمثال، ما يدل على أن الأمثال الشعبية الجزائرية تستعمل العربية السليمة في كثير من تراكيبها، وتستمد من أصولها الصحيحة. وكل ذلك يزيدنا اقتناعًا بنقاوة عاميتنا، واقترابها اقترابًا شديدًا من الفصحى".

ونختم عرضنا لهذا الكتاب بالتوقف عند كلمة فيه استنكرها المؤلّف واستقبحها، وهي كلمة " **بزّاف** " فقد كتبها على هذه الصورة، وقال[٥] إن معناها: "كثير"، وقال:

---

(١) المصدر السابق، المقدمة: ١١.

(٢) المصدر السابق: ٦٨ - ٦٩ .

(٣) العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى: ٩٣.

(٤) المصدر السابق : ١٣٣ - ١٣٤ .

(٥) العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى: ١٧ .

"وهي لهجة أهل الغرب الجزائري، وهي قبيحة. وأفضل منها لهجة المصريين، لأنهم يقولون: **كتير**، بالتاء لا بالثاء، و: **بزّاف**، لهجة أهل المغرب الأقصى أيضًا". ثم قال[١]: "... اللهجات الجزائرية نفسها تختلف من إقليم إلى إقليم، فنجد فيها ما هو عالٍ فصيح أو قريب من الفصيح، وفيها ما هو ركيك ضعيف أو منبوذ سخيف. أرأيت أن: **ياسر**، المستعملة في الشرق الجزائري، وفي تونس، بمعنى: كثير، أفضل بالضرورة من لفظ: بزّاف، المستعمل في الغرب الجزائري". فهو لا يتردد في وصف هذه الكلمة بأنها "قبيحة" وفي إدخالها فيما هو "ركيك ضعيف، أو منبوذ سخيف" من الكلمات، كما أنه لا يتردد في كتابتها، في كل مرّة تتكرر فيها، على الصورة التي نقلناها عنه. ولو أنه كتبها " بالزَّاف "، بالألف واللام، إذ إن اللام لا تلفظ؛ لأن الزاي حرف شمسي، لربما ربطها حينئذ بكلمة " بالجُزاف " المعجمية، التي قال الفيروزابادي[٢]: إنها مثلثة الجيم مثلها مثل: الجُزافة. وفي اللسان: " والجَزْف: الأخذ بالكثرة، وجزف له بالكيل: أكثر. والجُزاف والجِزاف والجُزافة والجِزافة: بيعك الشيء واشتراؤكه بلا وزن ولا كيل.. . وهو دخيل، تقول: بعته بالجُزاف والجُزافة.. . وقول صخر الغَيّ[٣]:

فأَقْبَلَ منه طِوال الذُّرى كأنَّ عليهنَّ بيعًا جَزيفا

أراد طعامًا بيعَ جُزافًا بغير كيل، يصف سحابًا. أبو عمرو: اجتزفت الشيءَ اجْتِزَافًا إذا شَرَيْته جزَافًا..."[٤]، ولا أدري بعد كل هذا كيف يصفها بأنها من الدخيل!!

ونطق الجيم والزاي صعب على العامة، فأسقطوا الجيم، وهكذا بقيت صيغة "بالزَّاف" التي كتبها المؤلف "بزَّاف" فانْبَهم أصلها. وإذا كانت الكلمة في المعاجم

---

(١) المصدر السابق: ٢٩.

(٢) القاموس المحيط: (جزف).

(٣) شاعر إسلامي، كان في العصر الأموي.

(٤) اللسان (جزف).

"**بالجزاف** " مثلثة الجيم، وإذا كان من صيغها "بالجزافة" و"بالجزيف" فهل يجوز أن نذهب إلى أن استعمال العامة في مصر لكلمة "**بالزّوفة**" - وهي بالمعنى نفسه - هو مثل استعمال المغرب الأقصى والغرب الجزائري لكلمة "بالزاف"، وهما ينتسبان إلى كلمة "بالجزاف"؟

وبعد، فقد شارك كثيرون آخرون من المُحْدَثين - غير هؤلاء الأربعة - في دراسة هذا الموضوع، والكتابة عنه، وتتبّع كلماته، وبذلوا الجهد في تلمّس نسبتها إلى أصولها الفصيحة، فيما نشروا من كتب أو مقالات، ولا يزالون يكتبون. وإنما اخترنا هؤلاء الأربعة، واقتصرنا عليهم؛ لأهم من بلاد عربية مختلفة، هي: لبنان، ومصر، وسورية، والجزائر، ولم نختر من القطر الواحد سوى عالم واحد، ثم لأنّ أوّلهم كان أقدم من بدأ الكتابة في هذا الموضوع من المُحْدَثين، وتسلسل بعده الثلاثة الآخرون، ولكنّ اثنين منهم تداخلا مع الأول في مرحلة من مراحل كتاباهم، فهما بهذا يندرجان معه في السَّبْق والقُدْمة، أما الرابع فقد تأخّر عنهم حقًّا، ولكن كتابه له قيمة خاصة؛ لأنه يمثل الجناح الغربي للوطن العربي، ويعرض عامية أهله. ولم نقصد إلى الاستيفاء والاستقصاء، وإنما قصدنا إلى التمثيل والاستشهاد، وقد يقوم القليل أحيانًا مقام الكثير، وقد يغني ضرب المَثَل عن التفصيل، وعسى أن يكون فيما قدّمت مَقْنع، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

المصادر والمراجع

١- أحمد رضا العاملي

ردّ العامّي إلى الفصيح، دار العرفان: صيدا - لبنان ١٩٥٢م.

٢- أحمد عيسى

المحكم في أصول الكلمات العامية، ط. الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م.

٣- ابن الجوزي

تقويم اللسان، تحقيق عبد العزيز مطر- دار المعرفة: القاهرة ١٩٦٦م.

٤- الحريري

درّة الغوّاص في أوهام الخواص، مطبعة الجوائب:قسطنطينية ١٢٩٩هـ.

٥- ابن الحنبلي الحلبي

بحر العوّام فيما أصاب فيه العوام، تحقيق عزّ الدين التنوخي، المجمع العلمي العربي: دمشق ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م.

٦- الزبيدي، أبو بكر

لحن العوام، تحقيق رمضان عبد التواب- دار العروبة: القاهرة ١٩٦٤م.

٧- ابن السكيت

إصلاح المنطق، ط. الأولى، دار المعارف بمصر ١٩٥٦م.

٨- الطبري

التفسير، جامع البيان، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

٩- عبد الملك مرتاض

العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر ١٩٨١م.

١٠- الكسائي

ما تلحن فيه العامة، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي: القاهرة ودار الرفاعي الرياض ١٩٨٢م.

١١- ابن مكّي الصقلّي

تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تحقيق عبد العزيز مطر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: القاهرة ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م.

* * *

ازدواجية اللغة

وضرورة رسم سياسة لغوية(*)

للدكتور البدراوي زهران
(خبير بلجنة اللهجات)

ازدواجية اللغة مشكلة تؤرق بال المشتغلين باللغة و القائمين على أمرها، وفي الصفحات القادمة نشخص المشكلة، ونقدم ما نراه من علاج ملائم لها.

ونقصد بازدواجية اللغة: ازدواجية العامية والفصحى في ألسنة الناطقين بالعربية. فإن ذلك على حد عبارة للجاحظ "يجعل كل واحدة منهما تدخل الضيم على أختها"(١).

والضيم الذي يصيب الفصحى من جراء العاميات هو المشكلة التي تؤرق البال...

فلا يقف خطر العاميات على مجتمع عربي واحد، وإنما يشمل الناطقين بالعربية في أنحاء الوطن العربي كله، حيث تتشبث كل جماعة بما لديها من لهجة وما عندها من لغة(٢).

أما مصطلح (Diaglossia) الذي يطلق على ازدواجية اللغة في الدرس اللغوي الحديث، فقد عرفه فرجسون (C.A.Fargson) بأنه الحالة اللغوية الموجودة في جماعة المتكلمين التي يستخدم فيها بعض المتحدثين نوعين أو أكثر من اللغة الواحدة في ظروف مختلفة "(٣).

والمشكلة بالنسبة للدرس اللغوي الحديث أمرها هام، فإن اتساع رقعة الناطقين باللغة الواحدة، واختلاف طبقاهم وثقافتهم، ودخول أجانب على اللغة من غير أبنائها

(*) نشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الخامس والستين، ص ٨٩.

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) يطلق في التراث مصطلح لغة ويراد به اللهجة، واللغات معناها اللهجات ... وهكذا ... إلى آخره.

(٣) انظر بحث مس آن رويال. كتاب دراسات في اللهجات من ص ١٧١ إلى ص ١٨١.

ينطقون بها فاقم الأمر، وجعل المتخصصين يبحثون عن علاج، ويرسمون السياسيات، ويضعون الخطط للوصول إلى لغة نموذجية مشتركة، تترفع عن العاميات، وتحافظ على سمات عامة في ألسنة جميع الناطقين، هي سمات اللغة الأدبية أو سمات الفصحى عندنا.

والمقصود بالسياسة اللغوية لمجتمع ما (في الدرس اللغوي المحدث): وضع خطط تقرها الجهات السياسية العليا إزاء مستوى لغوى معين بهدف الوصول إليه، مع الاستفادة في ذلك من الطرق والإمكانيات العلمية الحديثة، بناء على دراسات يقوم بها اللغويون المتخصصون في مجالات متعددة، يكون عمادها في الدرجة الأولى التجارب الميدانية في المجالات اللغوية، ما بين نظرية وتطبيقية، يجريها الباحثون في العلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية من خلال الواقع اللغوي.

وذلك لأن المشكلة في واقعها عميقة تفرضها طبيعة اللغة وتحتمها الملابسات القائمة بين اللغة و المستعملين لها[1].

وهي نتاج تفاعل اللغة داخل طبقات المجتمع، فاللغة مطلب ضروري للمجتمع يتحقق بها التعاون بين أبنائه ويتم عن طريقها الاتصال الروحي والترابط الوجداني، وهي أساس إحساس الناس بانتماء بعضهم إلى بعض واشتراكهم فيما يؤلف بينهم من روابط ثقافية ووجدانية وتاريخية وسياسية.

ومن خلال دورها في تنظيم التفاهم والتعبير عن الخواطر بين أفراد الجماعة الواحدة تتم وحدة الآمال والأماني،ويتحقق الانسجام، وتتحدد الأعراف وتنهض الجماعة.

---

(١)انظر بحث مس آن رويال السابق، وعنوانه "علم اللغة والسياسة اللغوية في مصر"١٧١-١٨٣،في كتاب: "دراسات في اللهجات العربية"، المؤتمر العلمي عن دور الجامعات في دراسة اللهجات و العمل على تقريبها من الفصحى.

واقرأ "دور الإذاعة كوسيلة إعلام في تقريب اللهجات إلى الفصحى" بحث من إعداد الدكتور/ يوسف مرزوق، من ص ١٣١/١٤٤ .

واقرأ الأطلس اللغوي المصري، وملاحظات حول لهجات مصر، بقلم:ما فويدش وبيزينيشتيت من ص١٤٩-١٧٠.

واقرأ بحث: "كلام الناس" بقلم الأستاذ الكبير محمد شوقي أمين، عضو مجمع اللغة العربية، من ص ٩-١٦ .

واقرأ "ثلاث مصطلحات في علم اللهجات"، بقلم د . أحمد علم الدين الجندي، من ص ٥٩-٧٥ .

وعلى الرغم من أن أعراف الجماعة تنشأ باللغة وتتحدد بها إلا إنها بعد ذلك تحكم اللغة. فطبيعة اللغة لها أثرها على المجتمع، والمجتمع له أثره على اللغة، والظواهر الاجتماعية تحكم حياة اللغة، وإن انشعاب لغة المحادثة في المجتمع الواحد إلى لهجات ضرورة اجتماعية، تنشأ بسبب اختلاف طبقات المجتمع، وبسبب تفاوت الثقافة ومناحي التفكير، واختلاف حياة الناس داخل أسرهم وتنوع طبقاتهم وما يترتب على ذلك من عادات وتقاليد تنشأ عنها أنماط من السلوك تستجيب لها اللغة.

وقد دلت بحوث اللغويين على أن هناك تيارين متعارضين يوجهان لغات البشر في اتجاهين متباينين، اتجاه نحو التفتيت اللغوي، وآخر نحو التوحيد[1].

ومن المعلوم أن عوامل التفتيت قد تكون هي عوامل التوحيد، فالتفتيت بالنسبة للغة الأم يتبعه توحيد تحت مظلة اللغة المستقلة.

وعلى سبيل التمثيل فإن بعض العوامل الاجتماعية التي قد يكون مبعثها نزعات سياسية، تتعلق باستقلال بعض المناطق التي تحتلها لغة الجماعة الكبرى تجعل سكان هذه المناطق ينزعون نحو استقلال لغوي، يعضده ما بينهم من روابط وعلاقات، فهو نزعة توحيد لمنطقة ما، لكنه تفتيت للسلطان المركزي للغة الجماعة الكبرى، تنمو بسببه ظواهر لغوية تباعد بين اللغة المستقلة، ولغة الجماعة الكبرى.

ومثلها عوامل الجنس أو العرق التي تتمثل فيما بين سكان بعض المناطق من وحدة في الجنس أو اللون أو التكوين الطبعي.

---

(١) اقرأ: كتاب اللغة ج فندريس : تعريب أ : عبد الحميد الدواخلي ؛ و د . محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، من ص ٣٧٠ .

واقرأ مبحثنا "اللغة النموذجية في كتاب عبد الواحد وافي" دار مصر للطبع والنشر "اللغة بين الفرد و المجتمع" أوتو يسبرسن، ترجمة د . عبد الرحمن أيوب، مكتبة الأنجلو المصرية .

وكتاب قضايا لغوية : د : كمال بشر و"اللغة في المجتمع" تأليف م.م لويس، ترجمة د . تمام حسان، مراجعة د . إبراهيم أنيس : عيسى البابي الحلبي ١٩٥٩م.

و"اللغة و المجتمع رأي و منهج" .د. محمود السعران، ط٢ — دار المعارف ١٩٦٣م.

مما يتردد صداه نــزعة تفريق في اللغة من جانب، وتوحيد لبعض المناطق مــن جانب آخر، تنمو في ضوئه ظواهر لغوية تباعد بين اللغة المستقلة واللغة الكبرى.

وكذلك العوامل الجغرافية التي قد تتمثل في الفواصل الطبيعية من بحار أو صحار واسعة أو جبال أو وديان أو سهول أو غيرها من حواجز طبيعية يعززها الموقع ... أو فروق البيئة أو الجو أو غيره مما يقوى في ضوئه عوامل التفتيت اللغوي فتقــوى لغــة الجماعة المستقلة، وتضعف لغة الجماعة الكبرى.

والعوامل النفسية والأدبية على غرار ما سبق، فإنها قد تأخذ شكل ظاهرة تتمثل فيما بين سكان بعض المناطق في النظم ومناحي التفكير والوجدان والعادات و التقاليد و درجة الثقافة ... وغير ذلك مما قد تنشأ بسببه فروق تباعد بين لغة الجماعة المــستقلة ولغة الجماعة الكبرى.

وهكذا تتمكن عوامل متعددة من أن تعمق مساراها في استقلال عــن اللغــة المشتركة، و تتعزز العزلة اللغوية للهجات المستقلة، وتعينها مظلة الاستقلال السياسي أو التمييز الاقتصادي، أو غير ذلك. ثم تأخذ كل لهجة في العمل علــى تقويــة كيانهــا والاحتفاظ بشخصيتها، ومقاومة ما يحاول أن ينال منها. ثم تسلك منهجًا في التطــور والاستقلال، ومن ثم تتسع مسافة الخلاف بين اللهجات وبين الناطقين بها، وقد تــصير كل واحدة غير مفهومة لأبناء اللهجات الأخرى.

ونتيجة لطبيعة كل إقليم وعادات وصفات الناطقين فيه تأخذ كــل لهجــة في التفرغ داخل نفسها إلى لهجات، وينشأ عن الانقسام انقسام... وهكذا.

ومما أثبتته بحوث اللغويين أن الخلافات المتفرعة بين اللهجات، تأخــذ اتجــاهين أساسيين:

أحدهما: يتعلق بالجانب الصوتي.

والآخر: يتعلق بالجانب الدلالي.

ومعناه أن عناصر الخلاف تشمل الشكل والمضمون معًا.

وهذا ما حدث للغة العربية في عصرنا هذا الذي نعيشه، وحدث للغة العربية من قبل في عصور التاريخ المختلفة ... غير أن عوامل مضادة كانت تنبعث من وجدان هذه الأمة فتذكي في تيار التوحيد اللغوي القوة وتعيد للفصحى مكانتها، ويتقبل أبناء كل جماعة لغوية ما يصدر عن الفصحى من نماذج في طواعية، ويتخلون عما يتصل بلهجاتهم عن اقتناع مبعثه كتاب الله الكريم ولغته[١].

غير أن ما حدث في عصرنا هذا واكبته ملابسات لم يحدث لها نظير من قبل، حيث تعرضت العربية لغزوات الاستعمار الأوربي التي تروج للغتها وثقافتها وفق تخطيط مدروس مستفيدة مما خلفته عصور الجمود ولذا فإن تيار ازدواجية اللغة يقوى في ظل اعتبارين:

- اعتبار التيار اللهجي، وما يصاحبه من تفرق لغوي.
- واعتبار تيار الثقافة الوافدة، وما يصاحبه من ترسيخ قيم، مخطط لها على الرغم مما تحمله من مبادئ منافية لما ترسخه الثقافة الإسلامية وتحمله اللغة العربية.

فإن ما تحمله اللغات الوافدة وثقافتها من تقدم علمي ومعارف حضارية تتلاشى أمامه القيم.

وانعكس ذلك كله واضحًا في ضعف مستوى اللغة العربية، حتى بين طبقات مثقفي الأمة ... فإن المثقفين في أنحاء الوطن العربي لا يملكون زمام التحدث بالعربية الميسرة دون أخطاء ذلك شأن المثقفين أما العامة فلا سبيل لهم إلا لهجاتهم المحلية.

وتتضح هذه الحقيقة في الإذاعة المرئية و المسموعة...فما أكثر المحادثات التي يبدأ فيها اللقاء متميزًا بلغة مثقفة من حيث حسن صياغة التعابير وجدية الأفكار، والمحافظة

---

(١) سوف نحاول الاستفادة من عوامل التوحيد اللغوي في تاريخ اللغة العربية، ونحن بصدد رسم السياسة اللغوية.

اقرأ: عوامل انتصار اللغة العربية في عصر الحروب الصليبية في كتابنا: في علم اللغة التاريخي دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى- ط دار المعارف ١٩٨١م والطبعة الثالثة ١٩٨٨م .

على سمات الفصحى، ولكننا ما نلبث أن نجدهم ينـــزلون إلى شكل ما مـــن أشـــكال العامية أو صورة من صورها، ثم نبحث فنجدهم يسيرون على أساس أو ســـنن نحـــو عامي[١].

فسلطان اللهجات المحلية له السيطرة على الناطقين بالفصحى حتى المتخصـــصين منهم، وهذا من الناحية العلمية له مبرراته من وجهة نظر الدرس اللغوي الحـــديث[٢]؛ فإن العادات اللغوية المخزونة تخرج بطريقة لا واعية على غير إرادة من صاحبها.

يتضح ذلك فيما يتصل بالجانب الصوتي مما هو خـــاص بمخـــارج الحـــروف وخصائص نطقها من حيث الشدة و الرخاوة، والترقيق و التفخيم، والجهر والهمـــس، وغيره، ومما يتصل بتشكيل الأصوات داخل الكلمات والجمل، مما ينشأ عنه خلاف في الصيغ و الأبنية تحت تأثير النظام المقطعي الذي تختطه كل لهجـــة لنفـــسها في ظـــل خصائص نطق تتصل بنظام التراكيب من حيث مواضع الارتكاز والنبر وطرق التنغـــيم داخل سلسلة الكلام، مما ينتج عنه خصائص تباعد بين كل لهجـــة و أختـــها وبـــين الفصحى ولهجاتها. ويتضح كذلك فيما يتعلق بالدلالة، وجانب متن اللغة ومفرداتهـــا حيث تختلف دلالة بعض المفردات، أو دلالة بعض العبارات والجمل بسبب ما تتقبلـــه بعض اللهجات من مفردات تضيفها إلى معجمها سواء عن طريق الاقتراض أو النحت أو القياس الإبداعي أو غيره، أو عن طريق تطوير بعض الجوانب الدلالية لبعض المفردات أو غير ذلك من وسائل الإثراء اللغوي، مما يؤثر على المعجم المستخدم لكل لهجة تأثيرًا

---

(١) هناك دراسات للغة إذاعات القاهرة قام بها ر.س. هاريل وبين سماتها العامة وقد سجلت مس آن رويـــال هـــذه الحقيقة . اقرأ بحث: علم اللغة والسياسة اللغوية في مصر كتاب دراسات في اللهجات العربية السابق من ص ١٧٧، و من العلوم أن للعاميات نظمها المختلفة الخاصة بها، وكذلك أنحاءها التي تسير على أنظمة دقيقة مخالفة للفصحى.

(٢) اقرأ روبرت لادو في كتابه : اللغة عبر الثقافات.

R.Lado Linguistics Across Cultures

وانظر كتابنا في علم اللغة التقابلي. نشر دار المعارف.

واقرأ س ــ بيت كوردر . في كتابه : تقديم لعلم اللغة التطبيقي.

S. Pitcor der introducing Applied Linguistices .

يباعد بين الفصحى وبينها. أضف إلى ذلك ما ينشأ عن التطور اللغوي بقوانينه وعلله من امتداد ينزع نحو الحوشية، ويباعد بين الفصحى ولهجاتها؛ لهذا وغيره يسري الشعور القوي بين المهتمين إزاء ضعف مستوى اللغة العربية العام.

فنحن أمام ظاهرة يجب أن تعالج في ضوء التقدم العلمي، وفي ضوء إمكانيات العصر، ولا يكون ذلك إلا بناء على تخطيط دقيق، منبثق عن سياسة لغوية هدفها الوصول إلى لغة نموذجية تقرب اللهجات في الوطن العربي من الفصحى لغة القرآن الكريم.

ومن المعلوم لدى اللغويين أن في اللهجات ظواهر أصيلة تحتفظ بها رغم مرور القرون، فوجب أن يستفاد منها في ضوء دراسة ميدانية شاملة[١].

كذلك من الثابت علميًّا أن العاميات تقوم في لحمتها وسداها على العربية الصحيحة، وهي متفرعة عنها غير أن تطورًا ما أصابها في الجانب الصوتي وجانب المتن[٢].

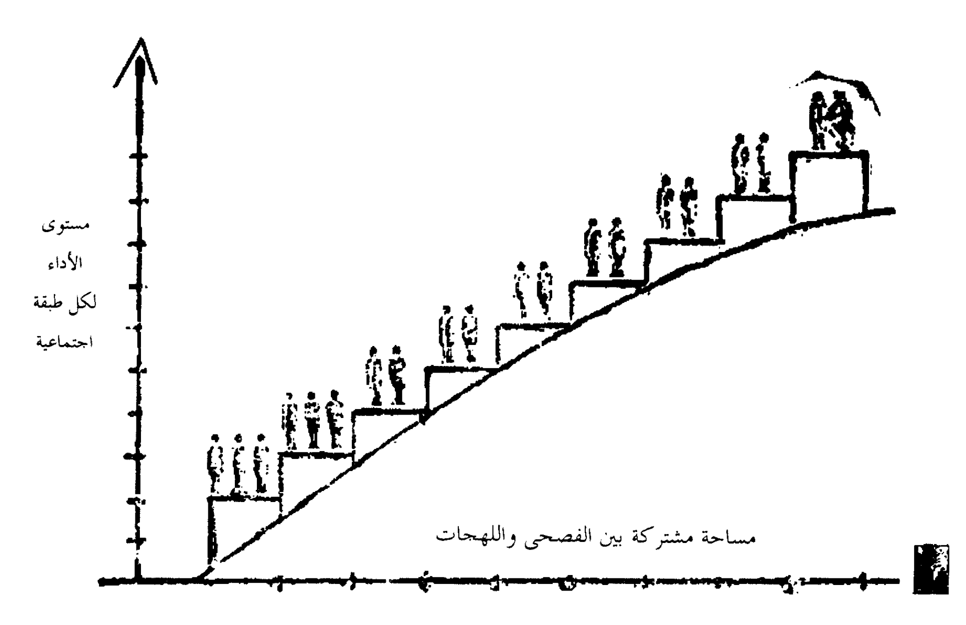
فالمساحة المشتركة بين الفصحى والعاميات المنبثقة عنها مساحة ضخمة على نحو ما يتضح ذلك من الرسم البياني الآتي:

---

(١) يهتم مجمع اللغة العربية بدراسة هذه الظواهر الأصيلة في اللهجات المحلية ويصدر بها قرارات وتقدم للمتخصصين ليستفيدوا منها في تأليف بعض النصوص والكتب الخاصة بالتعليم العام فى مراحله المختلفة .

اقرأ على سبيل التمثيل مبحث الأستاذ محمد شوقي أمين عضو مجمع اللغة العربية تحت عنوان "كلام الناس" في كتاب دراسات فى اللهجات العربية (السابق) من ص٩ إلى ص ١٦ وانظر كتاب "الألفاظ و الأساليب" الذي أصدره المجمع فى أعداده المختلفة واقرأ أبحاث متفرقة فى مجلة المجمع فى أعدادها المختلفة، واقرأ كذلك قرارات المجمع.

(٢) في حوار مع الأستاذ شوقي أمين عضو مجمع اللغة العربية ومقرر لجنة اللهجات بمجمع اللغة العربية قال لي: في بادىء الأمر كنت أبحث عن العربية الصحيحة في العاميات و اليوم صرت أبحث عن غير الفصيح في العاميات ومن الأمثلة السريعة على ذلك التى تؤكد ما يراه ما يقوله العامة من كلمات نحو: إعزن – أصلها أعزوان _ عزوت كذا إلى كذا وكلمة شفط العامية لو بحثت فى القواميس ما وجدتها، ولكن سرعان ما تجد سفط وتسفطه يعنى تشربه واستفط الشيء: اشتفه. والإسفنط: ضرب من الأشربة فارسي معرب. قال الأصمعي : هو بالرومية .. إلخ.



فإذا كان التطور الذي أصاب كل لهجة يمثل ما هو خارج خط المنحنى، فإن ما هو داخل خط المنحنى هو المشترك وهو المساحة الكبرى.

وهنا يجيء دور التخطيط، **ورسم السياسة اللغوية لرفع مستوى العاميات من خلال عمل دراسات وصفية تقابلية بين اللهجات الدارجة و الفصحى.**

يمكن أن يستضاء بها في الارتقاء بالعامية وتقريبها من الفصحى، على أن يسخر في ذلك التعليم العام[١] وكذلك وسائل الإعلام[٢].

أما الجامعات، فإن دورها من خلال رسم السياسة اللغوية، فهو حمل راية النقاء اللغوى داخل المجتمع بأسره وليس المجتمع الجامعي فحسب[٣]، فعن طريق هذه الجهات مجتمعة وفقًا لسياسة لغوية مخطط لها نسير في طريق علاج الازدواجية اللغوية.

وذلك من خلال دراسة ميدانية شاملة، تمد اللغة النموذجية بما يجعلها تفرض نفسها على الألسنة وهي تتداولها في حياتها اليومية.

---

(١) على نحو ما سيتضح.

(٢) سيأتي ذلك مفصلاً.

(٣) انظر: اللغة النموذجية وواجب الجامعات إزاء العمل على تثبيت هيكلها وتحديد خصائصها، دراسات في اللهجات من ص ١٠٩ - ١٣٠ كتابنا ظواهر قرآنية في ضوء الدرسات اللغوية بين القدماء والمحدثين.

فمن الثابت لدى اللغويين أن اللغة النموذجية لديها قوة فرض نفسها، ومما يقوله "فندريس" في هذا الشأن عن اللغة النموذجية:

" هي الصورة المثالية التي تفرض نفسها على جميع الأفراد في مجموعة واحدة(١)"

وذلك بسبب ترفعها عن خصائص اللهجات، حيث إن سامعها لا يعرف المنطقة الأصلية التي ينتمي إليها المتكلم بها(٢)".

وإن السياسة اللغوية، كما هو ثابت، هي وضع خطة للوصول إلى مستوى لغوي معين، وهي في تفصيلاتها الدقيقة، وفي هيكلها العام تجيء بناء على دراسات يقوم بها المتخصصون في المجالات اللغوية العامة النظرية والتطبيقية، ويسهم فيها رجال العلوم اللغوية الاجتماعية و النفسية، و تمر بدراسات واختبارات يتأكد بها الباحثون والمتخصصون من سلامة احتمالاتها وتضطلع بها جهات متعددة.

وقد أوضح س. بيت كوردر(S. Pit Corder) الهيكل العام للسياسة اللغوية، و أسماء العملية الشاملة. ودور الجهات المختلفة في السياسة اللغوية.

وجعله مستويات على النحو الآتي(٣):

---

(١) انظر: كتاب اللغة : لفندريس.

(٢) انظر: أصوات الإنجليزية لهزى سويت.

H . Sueet ; Sound of L anguage

وانظر : اللغة بين الفرد و المجتمع : ترجمة د. عبد الرحمن أيوب، ص ٩٤ .

ومستقبل اللغة المشتركة للدكتور إبراهيم أنيس — ط ١٩٦٠ من ص٥-٩. وانظر مقدمة لدراسة فقة اللغة د. محمد أحمد أبو الفرج، ص ٩٢ وهذا ما كانت عليه الفصحى قبل نزول القرآن، فقد ترفعت عن الخصائص البارزة للغات القبائل، مثل عنعنة تميم، وعجعجة قضاعة، وتلتلة بهراء، وكشكشة سعد، وطمطمة حمير، وعجرفية ضبة، وتضجع قيس وشنشنة تغلب، إلى آخره وانظر التفصيلات الخاصة بهذه الظواهر في كتاب: لهجات العرب — لأحمد تيمور باشا — سلسلة المكتبة الثقافية العدد ٢٩٠. وانظر المزهر في علوم اللغة وفروعها، لجلال الدين السيوطي.

(٣) انظر كتابه: مدخل إلى علم اللغة التطبيقي، واقرأ مقدمته و أبوابه المختلفة، وانظر ص : ١٣.

S. pit Corder ; introducing Applied lingusticics p.13 .

١- المستوى الأول: سياسي	تضطلع به الدولة بناء على ما يقدمه اللغويون المتخصصون	وهو تحديد المستوى اللغوي المطلوب الوصول إليه. ولمن يقدم

وهذا المستوى عندنا واضح، وهو العربية الفصحى، فهي اللغة الرسمية، وهو متفق عليه بالنسبة للغويين النظريين أو التطبيقيين، وكذلك الاجتماعيين والنفسيين، فهو أمر متفق عليه، سواء على مستوى مصر، أو على مستوى الدول العربية مجتمعة، أو كل دولة على حدة.

٢-المستوى الثاني: لغوي و لغوي اجتماعي	يضطلع به رجال علم اللغة العام، وعلم اللغة التطبيقي	ويتحدد في ضوئه: نوع المادة التي تقدم، والكم المطلوب، وعند أي مستوى تقدم
٣- المستوى الثالث: لغوي نفسي تعليمي	وتضطلع به التربية والتعليم: التربويون ــ والمدرسون	ويحدد في ضوئية المادة المطلوبة، وكيفية التقديم

ويستعان عند وضع الخطط بعلماء اللغة في المجالات المختلفة، ما بين اجتماعية ونفسية، فمن المسلم به أن علم اللغة جزء من طائفة العلوم الاجتماعية تلك التي تمتاز بالصلة الشديدة فيما بينها، والتي ترتبط فروعها بعضها ببعض...

وفروع علم اللغة التطبيقى، بأنواعها المختلفة لا يستغنى عنها، عند التخطيط أو التنفيذ[1] سواء عند رسم السياسة أو في مراحل التنفيذ.

وتوضع خطط السياسة اللغوية على محورين كبيرين:

أولهما: الاستفادة من النظريات اللغوية الحديثة، على اختلاف أنواعها ومعطياتها وفي مقدمتها "نظرية الطيف"، أو نظرية الموجة.

---

١ (١) اقرأ : كوردر(السابق) - في أبوابه المختلفة، وكذلك المقدمة.
S .pit corde introdcing Applied lingustics

والاستفادة من الدراسات التحليلية التقابلية، بما قامت عليه من نظريات لغوية سواء في المجال التحليلي التقابلي بين اللغات.

Contrastativ Analysis Linguistics.

أو المجال التقابلي في تحليل الأخطاء (E rrors).

وثانيهما: الاستعانة بكل ما قدم للغة العربية الفصحى من جهود، على امتداد تاريخها الطويل، جهود أفراد أو جماعات في عصر واحد أو في عصور مجتمعة، و بكل ما قدمته المؤسسات المتخصصة في هذا الصدد من عون...

ويراعى عند التخطيط: الدور التي تضطلع به كل جهة من الجهات الثلاث[1] صاحبة التأثير على المستعملين للغة، من حيث الكم والكيف، والتخطيط لطريقة التأثير.

توضيح ذلك:

بالنسبة للمحور الأول:

الفكرة الخاصة بنظرية الطيف اللغوي (linguistic Spectrum) أو نظرية الموجة، تعد النظرية القادرة على أن تقدم تصورًا كاملاً مبنيًا على أسس علمية من خلال نظرية متكاملة، في ضوئها يمكن أن تفسر النظاميات (R gularities) التي توجد في الصور المختلفة للاستعمالات المتنوعة داخل الازدواجية اللغوية، والتي تحدها من جهة لغة عامية خالصة، ومن جهة أخرى: اللغة العربية الفصحى الخالصة، عندما تتم من خلال مهارات الاستعمالات الفعلية.

وفي ضوء هذا التصور يوضع التخطيط العملي، للارتقاء التدريجي بالمستوى الفعلي للاستعمال اللغوي إزاء الازدواجية من أدنى مراحلها إلى المستوى المنشود.

---

(١) المشار إليها بمحاور النفوذ اللغوي القادرة على تحقيق النقاء اللغوي، وحمل رايته داخل طبقات المجتمع، والنفوذ بين فئاته وأولها: التعليم العام بمراحله المختلفة ــ وثانيها : أجهزة الإعلام بكل مستحدثاتها وإمكانياتها ــ وثالثها : الجامعات ببعدها الفعال داخل المجتمع.

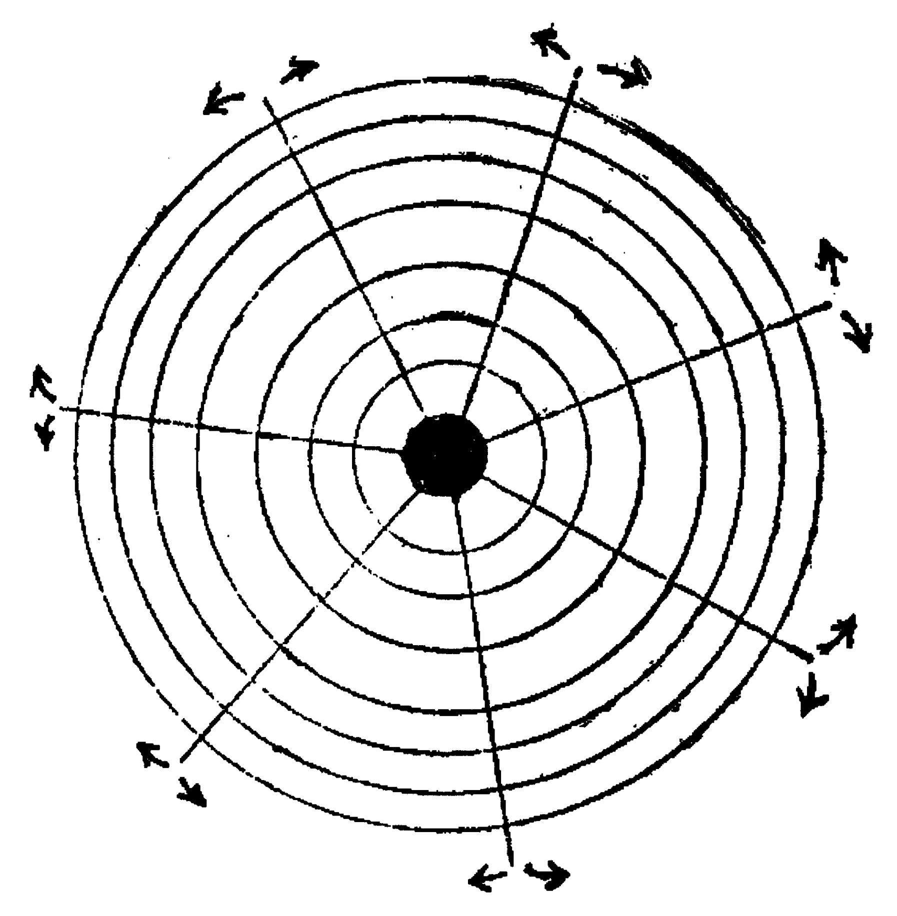
وتتضح أبعاد نظرية الطيف، على النحو الآتي:

مثلما يعطينا شعاع من الشمس من خلال منشور زجاجي حزمة كاملة من ألوان الطيف السبعة، تتدرج في تسلسل وتداخل، من البنفسجي إلى الأحمر، مرورًا بالنيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي، وانتهاء بالأحمر ... كذلك تداخل اللهجات بين طبقات المجتمع، هو تداخل تدريجي، فإذا حللنا حزمة من الاستعمال اللغوي داخل مجتمع ما فإننا نجد أن لهجات طبقات المجتمع الواحد تتدرج في تداخل، ويظهر تدرج ألوان الطيف من خلال المنشوركما يظهر تدرج اللهجات من خلال التحليل، ولكن إذا أدرنا قرص الطيف مسرعين عادت الألوان لونًا واحدًا،وهو الأبيض، كما بدأت فهي لهجة واحدة، وإلى لهجات الإقليم ككل، فهي لغة واحدة. ومن خلال الاستعمال اللغوي للهجة محلية من اللهجات داخل طبقات مجتمع واحد نحصل على حزمة مكونة من لهجات متعددة تتدرج في الاستعمال اللغوي داخل طيف، ينتقل في تدرج من نقطة إلى أخرى بأنظمة لغوية مميزة،سواء من حيث الصيغ أو خصائص النطق أو القواعد أو المعجم إلى آخره يحدها من جهة عامية حوشية،ومن جهة أخرى مستوي لغوي أعلى داخل هذه الحزمة، وقد يقترب في عمومه من العربية الميسرة أو الفصحى.

ولو حولنا ذلك الافتراض إلى تطبيق عملي اقتطعنا - على سبيل التوضيح والتمثيل - جزءًا من المجتمع المصري. .. وليكن (حي السيدة زينب) مثلاً، فإننا نجد داخل هذا الحي طبقات لغوية متنوعة في تداخل، تتميز فيه كل لهجة أو طبقة تميزًا اجتماعيًّا وثقافيًّا، تستجيب له اللغة في صورة طبقات لغوية أيضًا تحددها المهنة والوظيفة الاجتماعية، ولكن في تداخل من خلال دائرة لا يدرى أين طرفاها.

فالمتحدث أيًّا كانت طبقته — هو مصري - قاهري — من حي السيدة زينب مثلاً، ولكن المستمع يميز لهجة المثقف من لهجة العامل من لهجة الطالب والمحامي والمدرس من لهجة البائعين الجائلين، من لهجات طبقات أخرى، ولكن في تدرج داخل

طيف. ولو افترضنا أن الذي اقتطعناه دائرة، فهي دائرة داخل دائرة داخل دائرة... إلخ.

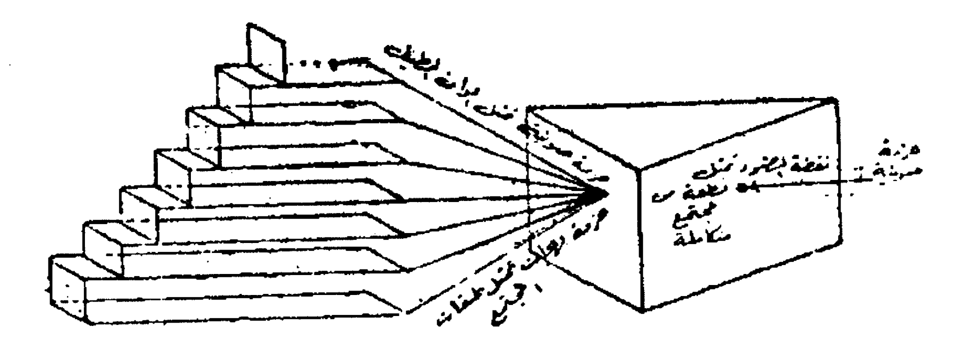


طبقات لغوية متنوعة داخل جزء مكتمل من المجتمع

ولكن المتكلم لا ينتقل من دائرة العامية الحوشية إلى دائرة المثقفين بقدر ما يكون انتقاله تدريجيًّا إلى الدائرة التي تليه. وهكذا إلى أن يصل إلى النقطة التي يريـــدها، ولـــو أردنا أن نستوضح ذلك عمليًّا، فإننا نلاحظ بالنسبة للشخص الواحد، فنجده لا ينتقل من لهجته إلى لهجة أعلى من لهجته، وإنما ينتقل إلى لهجة أقرب منها، فهو لا يقفز مـــن قاع إلى قمة، وإنما يتحرك داخل طيف.

وإن كان بوسع المتحدثين الذين يسيطرون على حيز واسع من الطيف تحديـــد مواقفهم بوسائل من التعبير تختلف فيما بينها باختلاف المستويات التي يتقنونها أي أنـــه

بالإمكان افتراض سلسلة متصلة من التحويلات (Transformational) تربط الـصور اللغوية من طبقة إلى طبقة، أي من الأقل فصاحة إلى الأكثر فصاحة، و هكذا.



فإذا ما وضعنا صورة المنشور وحزمة الضوء الداخلة، فإننا نجدها لونًا واحدًا هو الأبيض أي حزمة واحدة ولكن المنشور حللها إلى ألوانها المتعددة (سبعة)[1].

وكذلك حزمة اللهجات المقتطفة منه حي هي حزمة واحدة أصحابها يتكلمون لغة واحدة (عربية) ولهجة واحدة (قاهرية) ولكن في التحليل اللغوي بينها لهجات متعددة، وعلى نحو ما هو هنا تدرج في تداخل هناك تدرج في تداخل.

وقد أجريت دراسات على مواقف اجتماعية خاصة بهذه الظاهرة فلم يحدث أن

---

(١) وتحليل الطيف من خلال المنشورين يبين أنها ألوان متداخلة في تدرج:

بنفسجي: ٣٩٠ - ٤٣٠
نيلـــي: ٤٣٠-٤٦٠
أزرق: ٤٦٠ - ٥٠٠
أخضر: ٥٠٠ - ٥٧٠
أصفر: ٥٧٠ - ٥٩٠
برتقالي: ٥٩٠ - ٦٥٠
أحمـــر: ٦٥٠-٧٧٠

وكما لا يمكن أن تكون عند البنفسجي مثلاً، و تقفز إلى الأحمر إلا مرورًا ببقية الدرجات، كذلك لا تكون عند قاع الموجة، وتتحدث بالحوشية، ثم تجده يقفز إلى لغة المثقفين في طلاقة، لكن قد تساعده قواعده التحويلية أن يتدرج إلى لهجة الطبقة التي تليه، وقد يسيطر على حيز واسع من الطيف، فينتقل إلى مستويين أو أكثر، ولكن في تدرج من خلال مهارات استعمال فعلية، يحددها تفاعله داخل المجتمع.

انتقل المتكلم من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر،بقدر ما أنه يتحرك داخل منطقة طيف من نقطة إلى أخرى، في أي من الاتجاهين، ولكن بوسع المتحدث الذي يتقن مستويات متعددة أن يسيطر على حيز واسع من الطيف. فمثلاً من بين طبقات المثقفين من يقدر على التحرك من نقطة، إلى أخرى، في أي من الاتجاهين العامية أو العربية العصرية.

وهذا هو الذي يعلل سبب ارتداد المتحدث بالفصحى إلى لهجته فهو يتحرك في تدرج بين منطقتين من الطيف.

والفكرة الخاصة بنظرية الطيف Linguistic Spicrtum أو نظرية الموجة تعد حتى الآن النظرية التي تفسر النظاميات (R gularitics) التي توجد في صور الاستعمال، أو المهارات اللغوية التي تحد من جهة بالمستوى الحوشي، ومن جهة أخرى بالفصيح.

وهي التي عللت الصعوبات التي يعاني منها المبتدئون في تعلم العربية،بسبب تمكن عاداتهم اللهجية من عادات اللغة التي يكتسبونها، ولبعد المسافة بين القاع والقمة أو بين بداية أول ألوان الطيف ونهايتها – بالنسبة للمبتدئين وما يتمناه المعلمون ... ومن هنا جاءت أهمية التدرج في المحتوى الذي يقدم لهؤلاء، وأن يكون على أيدي متخصصين.

وهي التي فسرت عدم استقامة ألسنة المثقفين بالفصحى، على الرغم من أن بعضهم قد يكون نال قسطًا كبيرًا من الدراسة التقليدية الخاصة بالفصحى[1].

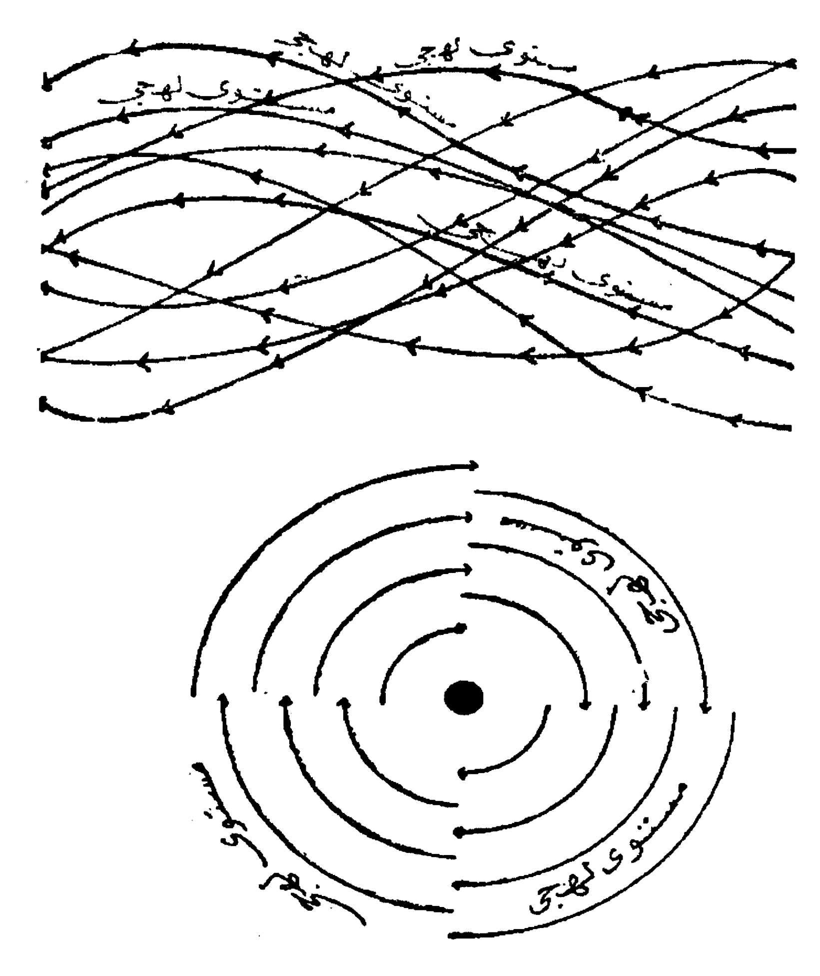
وهي أيضًا التي فسرت عدم إقبال الجماهير من المشاهدين أو المستمعين على الأعمال الفنية المختلفة في ثوبها الأدبي الرفيع الذي يفهم بالفصحى في عروض مسرحية أو تمثيليات أو حتى مسلسلات حيث ينفض عامة الجمهور؛ على حين يقدمون على أعمال اللهجات المحلية، ولا سيما اللهجة المصرية[1].

---

(١) قدمت إلى جامعة الأزهر كلية الدراسات الإنسانية رسالة دكتوراة من الباحثة: سهير على عزت البدويهي، تناولت بحث مشكلة الترجمة للمسرح، من خلال ترجمة مسرحيات "موليير"، وتوصلت الباحثة إلى ضرورة نقل مسرح موليير باللغة العامية بدلا من الفصحى، والإبقاء على المضمون الكوميدي، بمعنى أن تتم باقتباس وليست بالترجمة، وتكونت لجنة المناقشة من "أندريه تيسبيه" أستاذ المسرح الفرنسي بجامعة السوربون، ود. رجاء ياقوت، رئيسة قسم اللغات والترجمة وآدابها بجامعة الأزهر ود. زينب منيب الأستاذ بكلية الألسن.

ومن هنا تذهب صيحات الذين ينادون بالإصلاح - دون أن يبنوه على دراسة علمية تخصصية مخطط - لها أدراج الرياح .

وتوضح صورة الموجة التي أمامنا الفكرة. فالذى أمامنا صورة موجة ذات قــاع وقمة، وبين القمة والقاع طبقات في تداخل، وليست في تراصّ، وكـــذلك الموجـــات تتتابع في تداخل وليس في تراصّ.



ونشرت هذا الخبر جريدة"أخبار اليوم" القاهرة في ١٩٨٧/٣/٢٨ عدد ٣٢١٣ — الصفحة السادسة. انظر جامعة الأزهرحصن اللغة (نقل المسرح، أي الترجمة بالعامية لا بالفصحى) المسألة مسألة رسم سياسة لغوية، ومراعاة نظريـــة الطيف.

عند أي مستوى داخل الموجة اللغوية: نجد جماعة تتحدث فيما بينها في داخـــل هذا المستوى.

وبين أن يوسع المتحدث التحرك إلى أعلى، أو إلى أســـفل داخـــل المجـــال أي الانتقال في تدرج من نقطة إلى نقطة، وفكرة الموجة هي التي أوضحت بصورة مؤكدة أن القواعد قواعد تداخل (interferance)، أي أن اللغة متداخلة، وليست متراكبة.

فلا تنتقل من مستوى نقطة، وليكن القاع دون أن تمر ببقية المـــستويات، عـــن طريق التحول، أي أن القواعد قواعد تحويل (Transformational) استمع على ســـبيل التمثيل إلى أي متحدث بالفصحى، وليكن في مؤتمر علمي عام، تحكم مباشرة على أن المتحدث من مصر أو من العراق أو السعودية أو الكويت أو المغرب. . إلخ

وقد تحكم على أن المتحدث مصري من إقليم كذا، أو كذا، على الرغم من أن كل واحد من المؤتمرين يصطنع الفصحى لغة حديثة، ولكنها قواعد التـــداخل طبقًـــا لنظرية الطيف أو الموجة.

وهذا يؤكد أن الخلافات بين العربية الفصحى واللهجات المتفرعة منها كـــبيرة، وذلك لأن الخلافات مبعثها الأنظمة (Systemes) اللغوية، وهي متعددة ما بين نظـــام صوتي ونظام صيغ ونظام نحوي ونظام معجمي ونظام دلالي. .. إلخ، هذا مـــا أثبتتـــه الدراسات اللغوية المتعددة[١].

---

(١) من بينها على سبيل التمثيل:

دراسة: ج. ستيتكيفتش (J stetkevych) للغة النثر العربي الحديث.

ودراسة: ر . س.هاريل. (R.S.Harrel) – للغة إذاعات راديو القاهرة، والسمات العامة للاختلافات بينها وبين اللغة العربية الكلاسيكية.

وتحليل: .هـــ . بلانك (H. Blanc) للغة العربية المستخدمة من جانب متحدثين متعلمين، من مناطق لهجات مختلفة عندما يتحدثون معًا.

وأبحاث: س. كلين (C. Killean) ود . شولز D.schulz عن لغات اللقاءات التليفزيونية مع المتعلمين المصريين.

وانظر بحث مس آن رويال علم اللغة و السياسة اللغوية في مصر (السابق (من ص ١٧١/١٧٤ واقرأ قائمـــة مراجعـــه ص ١٨٢/١٨٣ .

- فتعدد الأنظمة واختلافها.

- ودبلجة هذه الأنظمة في اللاوعي والمخزون العقلي.

- وسيطرة اللاوعي على المتكلم أثناء تحدثه.

كل هذا يفسر ارتداد المستعمل للغة إلى نقطة مستواه اللهجي، والعودة إليه من خلال انفعاله في الحديث، وغفلته عن قواعد التحويل (Transforational) التي تنقله من مستوى إلى مستوى داخل الطيف أو الموجة.

ويعد عمل ر. شميدت (R.Schimidt)، وبحث: ديفيد شولز (D.Schulz) دراستين وصفيتين لتلك اللهجات المتوسطة للغة المصرية تميلان إلى تأييد هذا التصور النظري للغة[1].

وعلى الرغم من وجود نقاط خلاف كثيرة بين العاميات والفصحى على نحو ما سبق أن أوضحنا ذلك وبينا أسبابه إلا أن نقاط الالتقاء في ضوء الدرس التحليلي التقابلي تمثل مساحة فسيحة، على نحو ما تبين من منحنى ظاهرة الموجة السابق حيث اتضحت المساحة المشتركة و هي مساحة كبيرة.

ويتضح من الرسم البياني الآتي:

كيف نستفيد من الدرس اللغوي التقابلي التحليلي في تقريب العامية من الفصحى. حيث يتضح من خلاله كيف يحدث التداخل اللهجي بين العامية والفصحى على نحو ما يحدث التداخل بين أجزاء الموجة داخل حركتها.

أي أن الدراسات التحليلة التقابلية اللغوية بين الفصحى والعاميات هي العمل العلمي الذي يعتمد عليه المخطط للسياسة اللغوية إزاء ظاهرة الازدواجية.

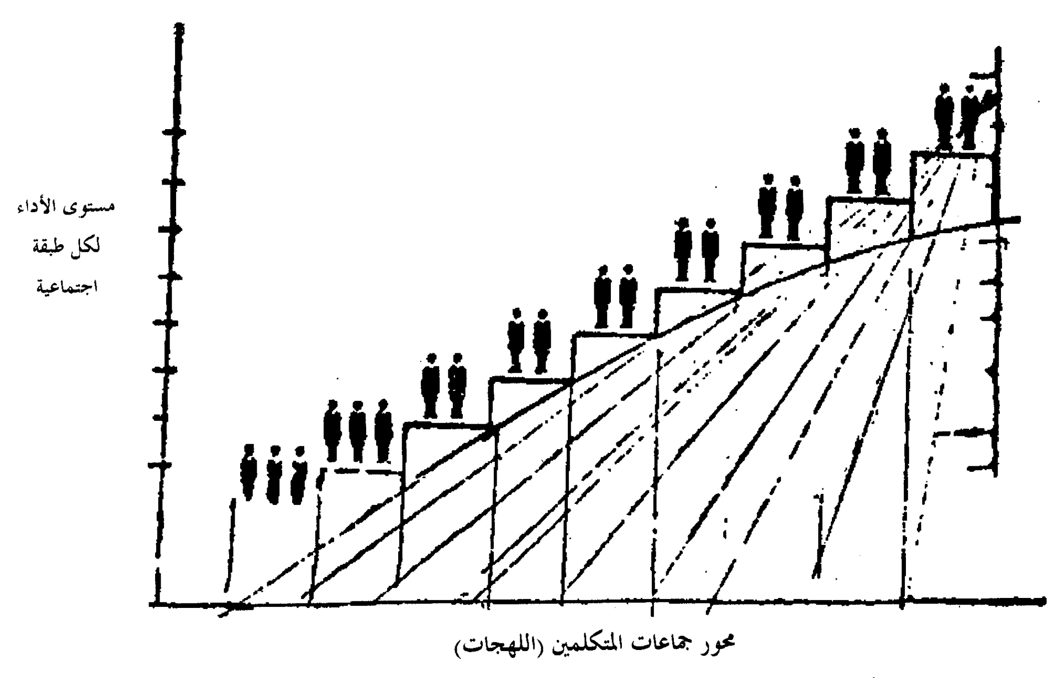
والرسم البياني الآتي يوضح دور الدراسة التقابلية في تحليل عناصر الاتفاق والاختلاف.

---

(٢) انظر: علم اللغة و السياسة اللغوية في مصر: مس آن رويال (السابق) من ص ١٧١-١٨١.

محور المستويات اللغوية

محور يمثل المستوى اللغوى للهجات داخل طبقاقما الاجتماعية



المساحة الكبيرة المشتركة من الداخل هي الحلقة التي تعـــزز نفـــسها بنفـــسها وتفرض سلطانها، ولا تسمح بامتلاك الحديث لغيرها، إذا اعتبرنا أن كل نقطة على محور جماعات المتكلمين لهجة.

فإنه يمكن الاستفادة من خلال الدراسة التقابلية لتحليل المستويات اللغوية لكل لهجة على حدة؛ لأن لكل لهجة مستواها وخصائصها، ولأنه كما توجد بـــين كـــل اللهجات ظواهر مخالفة، كذلك بينها ظواهر مشتركة، أي أن هناك ظواهر لغوية واحدة في جميع اللهجات، وهي التي تمثلها المساحة الواسعة داخل الرسم، من خلال التحليـــل البياني، وتلك هي الظواهر المشتركة، التي تفرزها الدراسة التقابلية التحليلية.

والتي من عندها تبدأ نقطة الانطلاق في وضع مناهج مشتركة، صالحة للتطبيـــق على مستوى الناطقين بالعربية في أنحاء الوطن العربي.

وقد أثبتت البحوث الميدانية والدراسة التحليلية لواقع الاستعمال اللغوي أننا أمام حلقة داخل الطيف، تعزز نفسها بنفسها وتفرض سلطانها، ولا تسمح بامتلاك الحديث لغيرها فلا تسمح أبدًا للعربية الفصحى.

على حين أنها تسمح وتشجع على امتلاك العامية، أو عامية مشوبة بالفصحى، غير أن ميزة لغة هذه الحلقة أنها تتسم بالمرونة والحيوية.

وهذه الحلقة هي التي تستخدم في المدارس في مراحل التعليم المختلفة، يستخدمها الطلاب والمدرسون ابتداء بأولى مراحله وانتهاء بأعلاها، وهي تستخدم في الجامعات، وتدور على ألسنة المثقفين...

يعزز ذلك ويقويه أنها المستخدمة في أجهزة الإعلام[1] ووسائل الاتصال اللغوي الحديثة، ما بين إذاعة مسموعة ومرئية[2] وصحف ومجلات ودوريات. . إلخ، وهي مستويات تتدرج في تداخل تدرج ألوان الطيف...

وتعتبر هذه الحلقة بين مستويات الأداء اللغوي (Linguistics Leveles)قمة المهارات اللغوية الموجودة في العربية على مستوى الاستعمال بين طبقات المثقفين؛ لأن التخطيط القائم لا يوصل إلى أفضل منها، و لم تجئ عفوًا، وإنما جاءت لعوامل[3] وإن أردنا الوصول إلى ما هو أفضل لابد من رسم سياسة لغوية جديدة، ووضع خطط

(١) على الرغم مما يوجه إلى هذه اللغة من انتقاد على أعلى المستويات، وعلى الرغم من مهاجمة مستعمليها، إلا أنهم لا يستطيعون التخلي عنها.

على سبيل التمثيل في حوار مع الدكتور إبراهيم مدكور، رئيس مجمع اللغة العربية، في صحيفة الأهرام القاهرية، بتاريخ ١٩٨٧/٣/١٢ في الصفحة الحادية عشرة :

قرر: أن وسائل الإعلام ونظام التعليم وراء هبوط مستوى اللغة العربية، وأوضح في حواره مدى إساءة العامية، إلى العربية الفصحى، وأشار على الأدباء أن ألا يشجعوا العامية فيما يكتبون، ونصحهم بالارتقاء نحو الفصحى لا النزول إلى العامية، كما أخذ على وسائل الإعلام أنها تفسح المجال في ندواتها الأدبية لهؤلاء الشبان الذين يولدون على العامية وأن هذا يسيء ، وطالب بالنهوض بالعربية الحديثة، وأن نسير في هذا الطريق.

(٢) مما يضفي على هذه اللغة المرونة والحيوية المتصفة بها ما تتضمنه تلك البرامج من مواد شيقة من بينها الأغاني بألحانها الشجية بأعذب الأصوات.

(٣) تفصيل هذه العوامل و الحديث عنها موضح في الصفحات القادمة.

كاملة، مبنية على أسس علمية، وتتخذ في تحقيق أهدافها المحورين اللذين ألمحنا إليهما مع تسخير العوامل المعينة التي ذكرناها من قبل بكل طاقاتها وإمكانياتها.

في حديثنا السابق أشرنا إلى المحور الأول من المحاور التي توضع على أساسها خطط السياسة اللغوية ... وهو محور النظريات اللغوية الحديثة، وتسخيرها في خدمة السياسة اللغوية والتخطيط لها، وفي مقدمتها نظرية الطيف، أو الموجة والنظرية اللغوية العامة، وتسخير الدراسات اللغوية التحليلية بمناهجها المختلفة ما بين وصفى وتاريخي ومقارن وتقابلي في خدمة هذه السياسة، وتنفيذها بأن نبدأ بدراسة وصفية تحليلية على الممارسات اللغوية بين أصحاب الثقافات، ولا سيما في المستويات الرسمية وداخل شئون الحياة بين طبقات الناس، حيث نجد نوعًا من الدارجة المطعمة ببعض سمات الفصحى غير أنها بين الحين والحين تنحدر إلى حوشية العامية.

في مراحل التعليم العام بين طوائف المدرسين على مختلف مستوياته، وكذلك في الجامعات حيث تستخدم في قاعات الدرس عربية عصرية قوامها العامية.

وكذلك بين بقية طبقات المثقفين حيث تتم ممارسات لغوية بعامية مطعمة ببعض الفصحى بين أصحاب المكانة المرموقة داخل طبقات المجتمع بين الصحفيين والإعلاميين بعامة، والأطباء والمحامين ورجال الأعمال والمهندسين بل حتى بين الأدباء... بل وبين المتخصصين أنفسهم.

تتم معظم الممارسات اللغوية من خلال هذه المستويات كلها بعامية مطعمة بفصحى تتدرج داخل مناطق الطيف، كل منطقة حسب إمكانيات طبقتها على أساس نحو عامي تحدده مستويات التحليل اللغوي المختلفة ما بين الجانب الصوتي وجانب المشتقات والصيغ والتراكيب وجانب الدلالة والمعجم.

فتجري على الأوضاع اللغوية القائمة دراسات وصفية تحدد خصائص كل مستوى من خلال الممارسات الفعلية، على أن يوضع في المقابل الجانب اللغوي الفصيح عن طريق المنهج التحليلي التقابلي ويخطط للكيفية التي يمكن أن يتم في ضوئها طريقة

الممارسات التي تحقق للفصحى ما نرجوه في ضوء الاستفادة من قوانين التطـور مـن خلال المنهج التاريخي.

وفي ضوء دراسة المواقف الاجتماعية الخاصة بهذه الظاهرة نجد التحـرك في أي من الاتجاهين داخل منطقة الطيف من منطقة إلى أخرى، حسب ما يملك المتحدث من قواعد التحويل (Trans Formatinal) التي يستطيع أن يسيطر بها على حيز من أحيـاز الطيف.

ومن المعلوم أنه عند التخطيط للسياسة اللغوية يجب أن يوضع التصور الكامـل للحركة اللغوية للغة المنشودة داخل المجتمع بفئاته المتنوعة، والمراحل التي تحتاجها كـل فئة، ... وكيفية اجتيازها ... والمادة اللغوية التي تقدم لها ووسائل تقديمها.

ويعرض التخطيط كذلك التصور لمهارات الاتصال الضرورية، التي يتحقـق في ضوئها الصالح العام للعمل من حيث الممارسات اليومية بحيث يتحقق التقـدم داخـل الطيف بطريقة لاوعية، ويخطط للاستفادة من مهارات الاستماع والاسـتجابة، مـن خلال مجالات الاستعمال المتنوعة داخل طبقات المجتمع وفئاته.

- المجالات التجارية.
- والمجالات الصناعية.
- ومجالات المهن المختلفة.

مع عرض التصور الكامل للغة داخل المجتمع في تفاعلها بين طبقاتـه في نطـاق الاستعمال الواسع، ونطاق الاستعمال الضيق، في الأدوار المتعددة، وفي مختلف الأدوار بين الفئات المختلفة، بحيث يقدم التخطيط"العربية المتخصصة لكل مهنة.

- عربية الأطباء.
- عربية المهندسين.
- عربية المحامين، ورجال القضاء والقانون.
- عربية البنوك والمعاملات الاقتصادية.

- ومثلها العربية الخاصة بالمؤسسات والشركات، مثـــل شـــركات البتـــرول، وشركات الطيران، وغير ذلك من المؤسسات والشركات التي تتطلب لغة خاصة بهـــا، ولها دورها، للتفاعل المتأثر داخل طبقات المجتمع[1].

على أن يخطط كذلك لتعليم غير الناطقين باللغة العربية، من أبناء الأمم الأخرى مادة. . و. . و مستوى.

ولأبناء المغتربين العائدين..

أي يكون التخطيط واسعًا، والهدف واضحًا، بحيث يتم إتقان مهارات اللغة من خلال السيطرة على قواعدها وأنظمتها، وفقـــًا لبرامج دقيقة، يحدث نتيجة لها التـــأثير المطلوب المستعمل بطريقة لا واعية.

وقد صارت اليوم اللغة المكتوبة منافسة للغة المنطوقة، فقد صارت مـــن لـــوازم العصر، وساعد على ذلك:

- انتشار التعليم وتعميمه[2].
- وانتشار الصحف والمجلات، وتداولها على أوسع نطاق.
- وانتشار المكتبات.
- وكثرة الكتب وتنوعها؛ نتيجة لكثرة النتاج الفكري الذي تفيض به العقليات المتخصصة.

وبسبب تقدم الطباعة، وتنوع وسائل النشر، وتعدد جهاتها، وغير ذلك كثير.

لذلك وجب أن يوضع في السياسة اللغوية.

محور اللغة المقروءة، والمستوى المنشود الوصول إليه، وأن يخطط لنـــشرها بـــين الأجيال المتعاقبة على أن يوضع في الاعتبار الأجهزة المنفذة.

---

(١) في مجمع اللغة لجان تصدر معاجم خاصة بالتخصصات المتنوعة.

(٢) بل هناك محاولة جادة للقضاء على الأمية، وهناك برامج لتعليم الكبار.

فمحو اللغة المقروءة يوازي محور اللغة المنطوقة. أي أن اللغة المنشود الوصـــول إليها لغة مقروءة ومنطوقة على مستوى معين من المهارة في الحالتين .

من خلال سياسة لغوية يصاغ في ضوئها الأهداف العامة والخاصة.

وتوضع لها الخطوط المساعدة على التحديد والتنفيذ.

على أن يجيء التخطيط شاملاً، واضعًا في حسبانه الزمان والمكان على أوســعٍ نطاق، وأن تكون الاستفادة في حالة تجدد واستمرار تقع مدى الحياة، أي يكون تعليمًا مدى الحياة بطريق غير مباشر.

أما المحور الثاني الذي يقام عليه السياسة اللغوية.

فهو محور الاستفادة من أعمال المتخصصين وجهود السابقين، ومعطيات العصر وملابساته، وما أحرزه العلم من تقدم، وأول ما يجب أن يوضع في الاعتبـــار: جهـــود مجمع اللغة العربية، وبقية المجامع.

ويجب أن يوضع في السياسة اللغوية: مساهمات مجمع اللغة العربيـــة، بجهـــوده الهادفة في مجالات نشاطه المتنوعة، في كل ما يقوم به لا سيما ما يتصل بـــ:

- بقوائم المصطلحات التي أعدها وأقرها..

- وقوائم المفردات التي تدخل في مقررات الدراسة في مراحل التعليم المختلفة، من أول المراحل إلى أعلى مستوياتها، بما في ذلك القواميس العلمية المتخصصة، وكذلك ما قدم من قواميس تخدم مجالات متعددة الأغراض، مثل الوجيز، والوسيط، والكـــبير، ومعاجم التخصصات المختلفة ومصطلحاتها، مثل: الحشرات، والكيمياء، والفيزيـــاء. وعلم النفس والفلسفة ... إلخ، وأعماله خاصة الألفاظ والأساليب .

وكذلك جهوده الخاصة بتيسير النحو، وتبسيط قواعده، ومصطلحاته، وكل ما أخرج من قرارات وتوصيات.

على أن يوضع ضمن التخطيط الاستفادة مما تنتجه المجامع اللغوية الأخرى، في ضوء تنسيق يفيد من منجزاتها في تعاون فيما بينها.

على أن يوضع في الاعتبار المصادر اللغوية الموجودة التي يمكن توفيرها في الحاضر والمستقبل، والتي تمد الخطط بالمادة المطلوبة[١].

وينبغي الاستفادة مما وضعه الإسلام الحنيف من نظم دقيقة ضمنت للعربية حيوتها، ومنحتها التجدد عبر العصور، وتلك واحدة من معجزات كتابه الكريم...

فتتضافر مظاهر النشاط العقلي والثقافي والوجداني، التي تحافظ على كتاب الله، وتنشر ثقافيته وترفع لواءه.

مع ما بذله المتخصصون عبر العصور من معارف وعلوم، من أجل المحافظة على سلامة كتاب الله نطقًا وترتيلاً وحسن أداء .

وما تقدمه معاهد العلم ومؤسساته التي تعمل في وعي، محافظةً على قواعد لغته ومتنها.

وما ينظمه الناظمون على ضوء بيانه، متلمسين الفصحى في أعلى مستويات أدائها.

وما تقدمه قرائح الناطقين بالعربية من مصنفات في مجالات الآداب والعلوم، بأسلوب عربي مبين، كل أولئك يدخل ضمن خطط السياسة اللغوية.

فالواقع أن الجهود تتعاون في نشاط عقلي حول غاية، هي الحفاظ على لغة كتاب الله، فوجب أن يستفاد من هذه الجهود، من خلال سياسة لغوية يخطط لها فتحسن الاستفادة من الجهود الحاضرة ، ومما بذل من جهد عبر العصور.

وقد استطاع علماء العربية – في عصورها الأولى – على الرغم من إمكانياتهم المتواضعة – فرادى وجماعات – أن يحفظوا للعربية سلامتها، وأن يعبروا بها الأزمان على نحو ما وصلتنا.

---

(١) من المفيد في هذا: الاطلاع على أعمال المركز القومي للبحوث التربوية، بوزارة التربية والتعليم، ما يتصل بالمناهج المطورة للغة العربية فى التعليم العام. وغيرها:

- المناهج المطورة الخاصة بالإدارة العامة لدور المعلمين والمعلمات.
- اللوائح الخاصة بأقسام اللغة العربية بالجامعات.
- لائحة كلية دار العلوم، واللوائح الخاصة بأقسام اللغة العربية في كليات الآداب، والجامعات المختلفة.

وقد استطاع ديوان الإنشاء أن يضع، فيما يشبه في عرف اليوم، سياسة لغوية استثارت فى الأمة العوامل التى ترسخ مبادئ الإسلام وقيمه، وتنشر ثقافته، وتحمى لغته، وتنمي علاقات الأخوة بين أبنائه في أقطار الأمة الواحدة[١].

فلا أقل من أنه يجب علينا ونحن نعيش في عصر يملك إمكانيات علمية متقدمة...

ولدينا مؤسسات متخصصة أن نستفيد منها وأن نقدم للغتنا مثل ما يقدم أبناء اللغات الأخرى للغاتهم، وأن نضع سياسة لغوية مستفيدة من كل ما تقدم ومن النظريات اللغوية.

* * *

(١) اقرأ: صبح الأعشى للقلقشندي.

واقرأ ما جاء على لسان القاضي الفاضل عندما قدم للالتحاق بديوان الإنشاء .

واقرأ كتابنا: في علم اللغة التاريخي، دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى.

- ومن المفيد فى هذا قراءة:

- مستقبل اللغة العربية المشتركة، للدكتور إبراهيم أنيس القاهرة ١٩٦٠م.

- اكتساب اللغة، لمارك ريشل: ترجمة د . كمال بكداش.

- منهجية الترجمة التطبيقية . د . جوزيف ميشال شرايم.

- كتاب "العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية": تحقيقنا، ونشر دار المعارف بمصر.

- كتاب "العمدة في التصريف" لعبد القاهر الجرجاني، تحقيقنا، ونشر دار المعارف بمصر.

ثالثًا:

المجامع والتدوين ودورهما في المحافظة على اللغة

تقريب الشُّقَّة بين الفصحى والعامية

المجمع واللغة العامة(*)

للأستاذ أحمد حسن الزيات

(عضو المجمع)

منذ أربعة عشر عاماً كتبت إلى المغفور له رئيس المجمع السابق كتاب دعابة، قلت فيه: "حضر الأصمعي يوماً مجلس الفضل بن الربيع وقبالته فرس مطهم، فتذاكر الجلوس كتاب أبي عبيدة في الخيل، فأراد الوزير أن يعلم ما عند الأصمعي من ذلك، فقال له: "قم يا أصمعي وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمه، فإذا سميتها فخذه"، فقام وأمسك بناصية الفرس، وجعل يسميه عضواً عضواً، وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه، فأعطاه إياه.

فهب يا سيدي الرئيس أن الجود والرزق لم يرفعا من الأرض، وأني دخلت يومًا على أمير من الأمراء البهاليل وبين يديه جارية من الغيد الحسان، ترفل في حرير شيكوريل وسمعان، وقال لي هذا الأمير الأريب: إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس، ووصفت ما في هذه الدار من الرياش والأثاث، نزلت لك عن الجارية والدار، وزدتك عليهما ألف دينار. فماذا تراني يا رئيس المجمع اللغوي قائلاً، وأنا من الذين أفنوا أعمارهم في تحصيل مادة اللغة، واكتساب ملكة الكتابة؟ ماذا أسمي هذا الماثل على الفود الأيمن، أو هذا الماثل على الجبين الزاهر؟ وماذا أقول في هذا المزرر على الصدر المشرق، وهذا المدار تحت الثدي الناتئ، وهذا المرسل على الكشح الهضيم، وهذا المفصل على القدم اللطيفة؟

أنا لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار، ولا من كساء الجسم إلا الملاءة والإزار، ولا من وقاء الرجل غير الحذاء والنعل. فهل تنطبق هذه الأسماء على هذه الأشياء، أم هل تكون دلالتها عليها كدلالة الرياش والأثاث على كل (موبيليات)

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثامنة من جلسات مؤتمر المجمع، في الدورة التاسعة عشرة، في ١٧ من يناير سنة ١٩٥٣م، وتقرر إحالته إلى لجنة ألفاظ الحضارة، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء التاسع، ص ٣٢.

البيت، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة، والجهل والعجمة على كل أدوات السيارة؟ لا جرم أني سأعجز على كل حال، وسأطالب رفعت (باشا) بالجارية والدار والمال".

كان ذلك منذ أربعة عشر عاماً، كما قلت، ولا تزال الحال هي الحال، والمشكلة هي المشكلة، فلو أنني حضرت اليوم معرضاً من معارض التجارة أو الصناعة أو الزراعة فيه ما أبدعت العلوم، ونوعت الحضارة من مختلف الآلات والأدوات والسلع والزهور، ثم طلب إلي أن أسمي كل معروض فيه لما صنعت أكثر مما صنع ذلك البدوي الذي حضر وليمة عرس في بغداد، فوصف لقومه ألوالها وصحافها بصفاتها لا بأسمائها، وبأثرها في حلقه لا بعينها في يده. وليس معنى ذلك أن المجمع لم يعمل طول هذه المدة؛ إنه عمل بإخلاص وسعى بجد وأنتج بوفرة. وإنما معناه أن المجمع قضى ثماني عشرة دورة في خدمة اللغة الخاصة، وهي لغة الفلاسفة والعلماء والرياضيين والأطباء والفقهاء والفنانين وغيرهم من رجال الثقافة العليا. وهؤلاء جديرون إذا ما أبطأ المجمع عن إسعافهم أن يضعوا مصطلحاهم بأنفسهم، بحكم عملهم في التعليم والتأليف. وهم إذا وضعوها أو نقلوها قاربوا الكمال؛فلا يكون عمل المجمع معهم إلا التسجيل أو التعديل.

أما اللغة العامة - وهي لغة البيت والشارع والسوق والمصنع والورشة والحقل - فلم يولها المجمع عنايته بعد. والكتاب والمترجمون والصحفيون، وسائر من يتصلون بحياة الناس، لا يعنيهم كثيراً تلك اللغة العلمية، والناس متى رأوا الشيء سموه. والمسمون في الغالب من سواد الأمة الذين لا يبالون أن ينطقوا على أي صورة ما داموا يقضون حاجتهم من الفهم والإفهام، ويجيء بعد ذلك الكتاب والصحفيون، فيجدون اللفظ قد شاع: فإما أن يستعملوه على علته فيكون الفساد، وإما أن يضع كل كاتب لمعناه لفظاً فتكون البلبلة. والصحافة والعامة متنافسان في الوضع والنقل والتعريب، لا تهادن إحداهما الأخرى، فأيتهما سبقت إلى الشيء الجديد يوم وروده الميناء سمته، وفرضت تسميتها على الألسنة ف "التنكس" مثلاً أدركها الصحفيون، وهي لا تزال في الميادين

الأوربية فوضعوا لها لفظ الدبابة، وأذاعوه في البرقيات والأخبار حتى عرفه كل قـارئ ورردده كل سامع. فلما رآها الناس بعد ذلك في مصر لم ينكروا الاسم ولا المسمى.

وأما الأوتوموبيل، فقد ورد مصر قبل أن يسمع الناس له اسماً عربيًّا من قبـل، فنطقوا لفظه الأعجمي بلغات عشر، كما كان ينطق العرب لفظ (إصـبع). ووضـع الكتاب له بعد ذلك لفظ السيارة، وحاولوا أن يعمموه فما استطاعوا، وظلت الكلمتان دائرتين في لغة الناس، العربية للكتابة والأعجمية للكلام، وهيهات أن تسلم إحـداهما للأخرى. وهناك نوع من الألفاظ تخلى عنه الكتاب للعامة، فاسـتأثروا بـه كلفـظ (أباجور) مثلاً، فالناس لا بد أن يسموا هذا الشيء، لأنه من أثاث بيـوتهم، فـسموه (أباجورة). وأما الكتاب فلم يجدوا ضرورة لتسميته؛ لقلة دورانه على الألسن في خارج المترل، فعمت الأباجورة كما عمت الدبابة في الكلام والكتابة. فلو أن الكتاب عـادوا اليوم فأطلقوا عليها (لامّة أو ضامّة)؛ لأنها تلم الضوء المتفرق وتضمه، لما فهم الناس ما عبروا عنه، ولا اتبعوهم فيما عبروا به.

فالمسألة إذن مسألة سباق بين الفصحى والعامية، من تسبق منـهما إلى الـوارد والجديد سمته وفرضته على الأخرى كما قلت. وإن ثماني عشرة دورة أو سنة قـضاها المجمع محايداً في هذه المعركة جعلت الأمل في تغلب الفصحى أبعد مما نظن، فلم يبق إلا أن نصلح بين اللغتين على وجه من التساهل المتبادل. ولقد عنيت منذ تشرفت بعضوية المجمع أن أسعى مع الساعين لعقد هذا الصلح، وتحديد هذا التساهل، فقدمت إلى المجمع اقتراحين: أحدهما قبول الوضع من المحدثين، والآخر: قبول الـسماع منـهم أسـوة بالمتقدمين. وتفضل المجمع فقبل الاقتراحين، ولكنهما ظلا معطلين، لانصرافه إلى وضع المصطلحات المختلفة للغة الخاصة. وتقدمت منذ طويل إلى مجلس المجمع بطائفـة مـن الكلمات التي جرى للمحدثين فيها سماع يخالف المسموع من العـرب الأقـدمين، في

المدلول أو في الصيغة فأقرها المجلس، ثم اعتمدها المؤتمر[1]، ولعلها تأخذ السبيل إلى المعجمين الكبير والوسيط.

والحق الذي لا أرتاب فيه أن المجمع بقبوله الوضع والسماع من المحدثين، قد وضع الأساس القوي الثابت لتهيئة اللغة لقبول التجدد المستمر في أسماء الذوات والمعاني، **فبالوضع نصل ما بين اللغة والحياة، وبالسماع نقرب ما بين العامية والفصحى**. والفائدة من قبول السماع منا لا تقف عند حد التجديد والتكميل والتقريب، وإنما تتعدى ذلك إلى تسجيل مدلولات جديدة قد نسخت مدلولات قديمة لبعض الألفاظ.

مثال ذلك لفظ **الغداء** ولفظ **الفطور**، فقد أجمع اللغويون على أن الغداء أكلة الغدوة، وهي ما بين طلوع الفجر إلى بزوغ الشمس، وهو خلاف العشاء، وبه فسر قوله تعالى: آتنا غداءنا. وأن الفطور أكل الصائم حين تغرب الشمس. وكان هذان المدلولان صادقين أيام كان الناس يكتفون بأكلتين: أكلة الغدوة، وأكلة العشية، فلما اقتضى حال العيش ونظام العمل أن يأكلوا ثلاث أكلات نقلوا الغداء من الغدوة إلى الظهر، واستعاروا الفطور من وجبة الصائم إذا أمسى إلى وجبة المفطر إذا أصبح، ووجه الشبه بين الأكلتين أنهما تجبان بعد إمساك يوم للصائم وإمساك ليل للمفطر. وقد فعل الفرنسيون كما فعلنا، أو نحن فعلنا كما فعلوا، فإن فعل (Diner) في لغتهم لا تيني الأصل، وكان معناه في اللاتينية الإفطار أو قطع الصوم بالأكل، ولا يكون ذلك إلا صباحًا، فلما جعلوا طعامهم في اليوم ثلاث وجبات نقلوا (Diner) من أول النهار إلى نصفه، ثم وضعوا لوجبة الصبح لفظاً آخراً بمعناه وهو (Déjeuner). ثم اضطرهم المدنية إلى أن يأكلوا أربع أكلات، فوضعوا الفطور الصغير للصبح، والفطور للظهر، والغداء للعشاء، والعشاء لنصف الليل.

---

(١) انظر صفحة ١٢٨ من الجزء التاسع، من مجلة المجمع.

فهل يجوز أن تبقى كلمتا الفطور والغداء وأمثالهما في المعجمين الكبير والوسيط على هذا الوضع، والناس في جميع الأقطار العربية يستعملونهما اليوم في غير ما كان يستعملهما العرب؟ وبأي سند نضعهما في المعجم إذا لم يكن المجمع قد قرر حجية السماع المولد أسوة بالسماع القديم؟

من أجل ذلك نطمع في أن يوجه المجمع الموقر عنايته الكريمة إلى الانتفاع بقراريه في الوضع والسماع على صورة أشمل وأكمل وأسرع، ليعوض اللغة العامة مما نالها من طول انصرافه عنها إلى اللغة الخاصة، وذلك بقبوله هذه المقترحات الثلاثة:

المقترح الأوّل: أن يعبئ قواه أو أكثرها لجمع ألفاظ الحضارة الموضوعة والمسموعة والمنقولة من البيئات المصرية والأقطار العربية، فيكلف محرريه ما كان يصنعه رواة اللغة الأوّلون من الخروج إلى البوادي ومشافهة للأعراب، والنقل عنهم، فيخرج المحررون كل يوم إلى المتاجر والمصانع والمزارع، فيسألون كل ذي سلعة وكل ذي صنعة وكل ذي آلة عن اسمها العام واسم كل جزء من أجزائها، وكل نوع من أنواعها، ثم يدونون كل ذلك بأوصافه وصوره. ويصنع مثل ذلك في الأقطار العربية فيوفد المحررين إلى الشام والعراق وتونس فيعملون فيها ما عملوا في مصر تحت إشراف عضو المجمع هناك وتوجيهه، حتى إذا عادوا ضموا ما جمعوا إلى ما جمع غيرهم ثم قدم كل أولئك إلى اللجان المختصة فتصنفه وتغربله وتعرفه ثم تعرضه على مجلس المجمع.

والمقترح الثاني: أن يخصص المجمع دورتين أو ثلاثاً لهذا العمل لا يكاد يشتغل في غيره.

والمقترح الثالث: أن ترتب هذه الألفاظ بعد أن يقرها المجلس، ويعتمدها المؤتمر، ثم تفرغ بتعاريفها وصورها في معجم خاص يسمى "معجم ألفاظ الحضارة" مثلاً، ينشر مستقلاً أول الأمر، ثم يدمج بعد ذلك في الطبعة الأولى للمعجم الكبير، ثم في الطبعة الثانية للمعجم الوسيط.

هذه أيها السادة أقرب السبل في رأيي إلى اتصال المجمع بالحياة، وتعريف المجمعيين للناس، وإعانة الكتاب على مكاره الكتابة، ورفع القصور عن اللغة، ودحض التهم عن المجمع.

ولعل أقوى ما أستند إليه في تأييد هذه المقترحات بعد الحاجة الماسة والضرورة القاضية أن المعجم الوسيط سيجيء على غير ما ينتظر، فإن جمهور المثقفين ينتظرون من معجم ينشره المجمع بعد ثماني عشرة سنة قضاها في الوضع والتعريب، أن يكون فيه لكل معنى اسم، ولكل مصطلح لفظ، ولكنهم سيجدونه أقرب إلى المعاجم المنشورة في الاقتصار على المواد القديمة والنفور من الألفاظ الجديدة، وإذا نشر معه أو عقبه المعجم المقترح انفسحت التهم عن مجمعنا الخالد، وانحسرت الشكوك عن عمله العظيم.

ولحضراتكم بعد ذلك النظر الأعلى، والرأي الموفق.

* * *

اللغة العربية المعاصرة(*)

للدكتور عبد الله الطيب

(عضو المجمع)

حسنًا صنع المجمع؛ إذ طلب من أعضائه أن يجعلوا ما يتقدمون به من كلمات وبحوث لمؤتمر هذا العام في إطار اللغة العربية المعاصرة، إذ في ذلك حث لهم على مواجهة واقع بياننا في الوقت الحاضر، فنقصد - إن شاء الله - بجدٍّ إلى حل مشاكله.

قولنا: اللغة العربية المعاصرة، كأنه مأخوذ من الإنجليزية Modern English، ومن الفرنسية Le FranÇais courant وهي عبارة قوية الدلالة على معنى الدوران في الاستعمال والسيرورة. والعبارة الإنجليزية Modern English فيها معنى تضمن الإشارة إلى تطور قد سبق حتى صارت اللغة إلى ما هي عليه الآن. ولا يخفي أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت تغيرًا جوهريًّا - وقريبًا من ذلك فعلت أكثر لغات أوربا المعاصرة — منذ نشأتها الأولى في الإنجليزيتين القديمة والمتوسطة (Old English Middle English,)لا بل منذ طور نضجها الحديث، في القرن السادس عشر، وهو قرن شكسبير. مثلاً أهمل ضمير المخاطب المفرد Thine – Thee – Thy - Thou وحلت مكانه You – Yours –Your، وأهمل من الأفعال أمثال dost goeth، وحتى في طريقة التهجي قد حدثت أنواع تغيير — مثلاً الحرف Z كان يرمز به للياء Y، والحرف Uكان يرمز به للفاء المعطشة V، وهلم جرًّا.

والعربية لم يحدث فيها تغيير جوهري منذ العهد الجاهلي، الذي وصلتنا رواية أشعاره وخطبه وأمثاله. فكأن قولنا:"العربية المعاصرة" عبارة غير دقيقة إن أردنا بها الدلالة على معنى الصلاحية، للتعبير عن الأفكار والمعارف العصرية. ولا أحسب أنه تصح في العربية قسمتها إلى قديمة ومتوسطة، وحديثة أولى وحديثة ومعاصرة؛ كما يقال

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثالثة من مؤتمر الدورة الثالثة والأربعين، في ٢٣ من فبراير سنة ١٩٧٧م.

في الإنجليزية بغرض تبيين أطوار نشأتها ونموها: old English, Middle English, Elizabeth an English, Modern English. والصواب في قسمة العربية إن أردنا محض تبيين أطوار نشأتها وتغيرها من حيث السِّنْخ والجوهر،أن نقول: هي بابان لاغير، العربية الفصيحة، والعربية الدارجة. وقولنا: جاهلي، مخضرم، إسلامي،مولد أو محدث، إنما يراد به تبيين ما يصح به الاستشهاد في معرض التأكد من صحة نسبة الألفاظ إلى العربية.

هذا واللغات الدارجة أحق أن توصف، بقولنا:"المعاصرة". وأقول:"اللغات الدارجة"؛ لأنها ليست بلغة واحدة دارجة، ولكنهن لغات كثيرات، كل منهن مستقلة – على ما فيها من مشابهة غيرها – في كثير من الألفاظ والتراكيب. وما أشك أنه لو كانت كل منهن قد تركت وحدها تتطور لكن منفصلات متباينات، يقع فيهن من التشابه ما يقع بين اللغات المتباينات، اللاتي ربما أمكن ردهن في المنشأ الأول إلى أصل واحد.

وتأمل أصناف آدابنا الشعبية الدارجة تجد بينها من حاق التباين قريبًا مما نزعم، ولابد لقارئها أو سامعها من غير المنتمين إلى صُقْعها من شرح لها، أو ترجمة حتى يستطيع أن يفهمها.

والتشابه في كلامنا الذي يسهل علينا التفاهم به مع غيرنا من أبناء العروبة حين نلتقي ليس أصله من اللغة الدارجة- أو من لغة دارجة مشتركة الأصول بيننا- ولكنه فيما أرجح مرده إلى اللغة الفصيحة. وذلك أننا جميعًا قد تلقينا مبادئ تعليمنا بالفصيحة- القرآن والمطالعة والأناشيد – فما حصلناه من ذلك هو الذى نستند على التفاهم والتخاطب به حين نلتقي. ومن أجل ذلك فإن التفاهم بين المثقفين العرب أيسر منه بين سواهم؛ لأن حظ هؤلاء من الأساس الفصيح أوفر.

هذا ومن خواص اللغات العربية الدارجة- بحكم قوة التصاقها بأفراد المجتمع- أنها ذات قابلية عظيمة للتغير السريع حتى في البلد الواحد، وحتى بالنسبة إلى نفسها في الزمن الوجيز تحت تأثير العوامل الاجتماعية والسياسية المختلفة، ما يطرأ منها وما يستمر، كغلبة حياة المدينة ذات التجدد على حياة الريف وحياة الصحراء ذواتي

المحافظة، وكتغلغل روح القومية وروح طلب النهضة العصرية في النفوس. حتى الألفاظ اليومية قد يصيبها التغير من جراء أثر هذه العوامل. مثلاً عندنا في السودان قلَّ من يقول الآن:"سَمِح"؛:لأن لفظ المدينة "كويس" "كويس جدًّا" قد غلب. وقل من يقول: "مو" في النفي فقد غلبت عليها "ما"و"مش". ويروى أن أبًا قرويًّا قال لابنه وهو يتعجب إليه من سرعة تغير كلام الناس عما كان يعهده:"ياولدى سمعت لي كليماتَنْ جداد موجعاتني بالحيل" فقال له ابنه:"إزاي يابه" فقال الأب:"والله ياولدى دي واحدة منهن".

هذا وقد جعلت اللغة العربية الفصيحة تغزو اللغة الدارجة العامية وتضغط عليها، وتنتقصها من أطرافها ويعينها جدًّا هذا الجانب ذو قبول التأثر السريع من الدارجة في ما تصنع . وهذا اللسان المتشابه الذى يقدر به المثقفون العرب على التفاهم والتخاطب كلما التقوا، هو في الحقيقة لسان فصيح، آخذ - إن شاء الله - بطريق التهذيب عن عمد وعن غير عمد. وبقدر ازدياد هذا اللسان من الأخذ من اللغة الفصيحة يزداد اكتسابه القدرة على البيان.

قد مرت باللغة العربية مرحلتان من مراحل هذه النهضة:

الأولى: كانت على أيدي الرواد الأولين مثل: عبد الله باشا فكري، والطهطاوي، والشدياق، والبارودي، واليازجي الكبير، ومن سبقوهم أو تلوهم ممن تأثروا بهم. وإن بعض النقاد ليخطئون حين يصفون البارودي بضيق مجال القول وشدة اقتراء طريق القدماء لايعدو ذلك إلى نوع توسع فكرة أو تجديد. والذى صنع البارودى لو أنصف النقاد جدُّ عظيم؛ إذ هو قد صاغ من رجعته إلى جزالة أساليب القدماء مادة بيان مرنة عبر بها عن واقع حياته وأحداث عصره وتجاربه، ففتح بذلك لغيره مجال التعبير في غير نطاق موضوعات تعدو هذين البابين بحال — الأول: تفصح فيه عن الوجدان الروحي العميق، والثاني: تجعله نوعًا من تسلية الخاصة والعلماء.

وقد بلغ تأثير نهضة البارودي أوجه في أمثال المويلحي، والبكري، وشوقي، ونظرائهما من الشعراء المفلقين والكتاب المبدعين في سائر أقطار العربية؛

ممن رأوا إيجاد عصر ذهبي جديد للبيان العربي، يعيدون به مجد الجاحظ وأبي الطيب؛ ويضاهون به روائع الإفرنج من فرنسيين، وإنجليز وألمان؛ وروائع سواهم من الأدب الأوربي الحديث.

أما المرحلة الثانية فبدأت أول أمرها ثورة على رجالات المرحلة الأولى؛ ثم صارت من بعد فرعًا متفرعًا مما سبقوا إليه، واستمرارًا لما بدأوه من جعل اللغة العربية الفصيحة لغة الحياة، ولو على النطاق المثقف الرفيع المحدود الكم، بعد أن كانت لغة العاطفة الدينية والفكر والزخرف اللفظي لطائفة علماء الدين ليس غير.

كانت الثورة أول الأمر على فرط جزالة البارودي وحظ شوقي من ذلك ونظرائه ومعاصريهم، فعيبوا بتقليد القصيدة العباسية وأخذ عليهم البعد عن الشعبية. وكان الجانب الإيجابي وهو ما زعمنا أنه تفريع واستمرار لما كان من عمل البارودي وتلاميذه والمتأثرين به في القصد إلى تقريب اللغة العربية الفصيحة من أكبر مجموعة من القارئين، حتى يقدروا أن يشاركوا في فهمها والتجاوب معها، كمثل مشاركة الشعب القارئ الأوربي في فهم كتابه وشعرائه. كما أراد شوقي ونظراؤه صنع أدب عربي عصري يضاهون به أدب أوروبا الذي استحسنوه وغبطوا نماذجه، أراد رجال مرحلة النهضة الثانية صنع جمهور قراء متجاوبين، يشبه جمهور قراء أوربا الناقد المتجاوب. فعمدوا إلى محاولة الارتفاع بمستوى كل من عني أن يقرأ من الدارجة البحتة إلى الفصيحة المبسطة. وساهمت برامج المدارس في هذا المنحى من التبسيط، كما ساهم الأدباء وخصوصًا الذين ترجموا القصص الإفرنجية، مثل روايات الجيب. ومن باب الإنصاف لهؤلاء أن يعد أوائلهم من رواد حركة التعريب. هذا وقد كان مايرام من توسع نطاق اللغة الفصيحة من طريق التبسيط يلزم معه بالضرورة هبوط في مستويات البيان بها. ومع هذا ينبغي أن نذكر لرواد ترجمة الروايات أنهم قد ظل بيانهم في جملته محتفظًا بروح عربي سلس؛ وأحسب أنهم قد انتفعوا كثيرًا من محاكاة أسلوب الدكتور طه حسين رحمه الله تعالى.

هذا والذي قدمته من أن اللغة العربية الفصيحة الآن بسبيلها لأن تكون لـسان الأمة العربية المشترك؛ وأنها قد جعلت تغزو الدارجة غزوًا وتنتقصها من أطرافها هـو بداية لما يصح أن نسميه المرحلة الثالثة — التي نأمل- إن حرصنا عليها وتابعناها بجـد- أن تصل بنا إلى الذورة التي نأملها...وهي درجتان: الدرجة الأولى: فرض الفصيحة على العامية فرضًا كاملاً،وحيوية العربية الفصيحة الكامنة فينا على مر الأجيال،مع مرونتها الخارقة وما أتيح لها في عصرنا هذا الحاضر من وسائل النشر والتثبيت الفعال في التعليم الأوَّلى النظامي، والصحافة، والإذاعة، والسينما، والتلفزيون والأجهزة الرسميـة الـتي تتغلغل في صميم حياة الشعب من أجهزة الإدارة والكسب والدفاع، وكل ذلك كفيل بأن يمكننا من تنسم الدرجة الأولى من الدرجتين اللتين ذكرنا في يـسر؛ وفي وقـت قريب، وحسبنا شاهدًا – على ما نزعم في هذا الصدد – أن دول أوروبـا كفرنـسا وإنجلترا مثلاً قد قضت بهذه الوسائل نفسها على اللهجات المحلية فيها؛ ما كان في كثير من أقاليمها مختلفًا كل الاختلاف عن اللغة الرسمية الوسطى الرصينة قضاء كاملاً. على أن تسنم الدرجة الثانية من الدرجتين اللتين ذكرتا وهي القمة الـشاهقة ذات ظـاهر الاستعصاء، هو الذي سيمكننا حقًا – إن شاء الله – مما نرومه مـن النهـضة بلغتنـا الفصيحة إلى مستوى عصري حي، يقوى على التجدد والابتكار والمبـاراة والمجـاراة والتفوق في شتى أبواب البيان. وسبيل تنسم هذه الدرجة الثانية أن نبدأ منذ الآن في أمر رفع مستوى التعبير باللغة الفصيحة بعد الذي أصبناه من ملك أعنة نشرها على نطـاق واسع. ولعل من أعداء العربية من يتربص بها الدوائر؛ ويبغي – باسم طلب المعاصرة – أن يجعل من هذا الذي عمَّ من هبوط مستوى الأساليب، وتعثر طرق الجزالة والبيـان، ذريعة إلى التخريب.

وما فتئت العربية ذات أعداء منذ قديم الزمان، منهم الشعوبيون ومنـهم أولـو التعصب الديني البغيض والمذهبي المنحرف ومنهم المستعمرون، علانية أو يَدِبُّون الضَّرَّاء، والجهلاء ممن أصابوا نصف تعليم، فطلبوا به قمم الطموح، فلنحذرهم جميعًـا. وقـد

قال الله - تعالى جلَّ من قائل:"فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

لقد حملت العربية الفصيحة رسالة القرآن في عهد لم يكن شيء على العرب أجدّ منها. وحافظت في ذلك مع اليسر على أعلى ما كان يبلغ من ذروة الجزالة وشدة الأسر. وأقبل الناس على درس القرآن وأدب الجاهلية؛ الذي خاطب القرآن الناس بمعايير بلاغته. وأدب الإسلام الذي ازدهر بعده، فحفظ ذلك الدرس على العربية نقاءها وبهاءها الحقب الطوال، ولعمري كما حفظ القرآن بقداسته ورونقه اللغة العربية، فقد حفظت هي بحيويتها وسر الله الذي أودعه فيها نصه الخالد ذا المدى الذي لا يحد، والكنوز التي لا تعد.

وقول الله تعالى:"إنا نحن نزّلنا الذكّر وإنا له لحافظون" وعد أكيد نأمل به أقوى الأمل أن يردَّ على هذه اللغة أسرها وبهاءها وارتفاع مستويات أساليبها؛ حتى تستمر تحفظ رسالة حضارة العرب والإسلام والكتاب العزيز؛ إلى أن يتأذن الله سبحانه وتعالى برفع ذلك جميعًا، ولله غيب السموات والأرض؛ وإليه يرجع الأمر كله.

وعلينا بعد أن ننظر إلى الطرق التي تبتعناها حتى الآن في تعليم اللغة العربية؛ وتعميمها وتبسيطها بعين النقد وأن نعمل على إصلاحها، أولاً: في باب اختيار المدرسين بحيث يمكن تشجيع التخصص فيها تشجيعًا يجعله لا من أخريات ما يقبل عليه الطلبة؛ ولكن من أولياته كما هي الحال في دول أوربا ذوات اللغات التي تحمد الآن بأنها حية ومعاصرة؛ وثانيًا: في باب إعداد البرامج والكتب وشتى مواد الدرس.

ولعلنا ألا نعود إلى حفظ ألفية ابن مالك، ولكن لابد من درس النحو والصرف وعلوم اللسان، ولا بد من المحافظة على درس القرآن.

هذه هي اللغة العربية التي نريدها معاصرة، ونريد بها أن تعبر عن نهضتنا وتطلعنا إلى المستقبل المجيد، بإذن الله تعالى وتوفيقه.

*   *   *

اللغة العربية المعاصرة(*)

للأستاذ أحمد علي عقبات

(عضو المجمع)

الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام علي رسوله الأمين المنزل عليه:﴿اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ وعلي آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين.

وبعد، فها أنذا ألقي بدلوي بين الدلاء في هذا البحث القصير الموجز، وهو ليس بالموجز المخل ولا بالطويل الممل. وقد حاولت جهدي أن أضعه في إطار ما قلَّ ودلَّ، مع قصور الباع وقلة المتاع.

* * *

اللغة: الكلام المصطلح عليه بين كل قوم. واللغة العربية عندما نزل بها القرآن سميت بلغة القرآن، وسميت بلغة التنزيل، وسميت فيما بعد بلغة الدين والدولة أو لغة دين ودولة. ثم استقر بها الحال والوضع ما استقر بالأمة العربية الحال والوضع، عظمة وقوة ونشاطًا وحيوية، وانتشارًا واتساعًا لكل جديد.

فلما تغير حال الأمة العربية ووضعها، تغير كذلك حال ووضع اللغة العربية، فلجأ السلف الصالح إلي وضع قواعد لها ولمادها وعلامات لضبط حروفها، ورسم لأشكالها، مستعينين في ذلك كله بالقرآن العظيم. و لم يخرج السلف الصالح عن نطاقه توقفًا والتزامًا بقوله تعالي:﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فوضعوا أصولاً وأوزانًا وصيغًا لمادها وأشكالها وحروفها، معتمدين في كل ذلك بعد القرآن علي السماع.

فحفظوا لها عظمتها، وصاغوا قواعدها، وجملوا جدها، وأبقوا عليها وطوعوا طواعيتها. ملتزمين في ذلك علي طبيعتها في سعة صدرها، وقبولها لكل جديد، عملاً

---

(١) قدم هذا البحث إلي مؤتمر الدورة الثالثة والأربعين، الجلسة الخامسة، في ٢٦ من فبراير سنة١٩٧٧م.

بقواعدها من الاشتقاق والقياس، والتعريب والترجمة، إلى جانب المجاز والكناية والاستعارة، والعموم والخصوص، والمجمل والمبين والمشترك، وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب اللغة والنحو والصرف. كل هذه القواعد والأصول، بل الخصائص التي امتازت بها اللغة العربية عن سواها، جعلت منها لغة حية معاصرة لكل زمان ومكان، ووسعت كل شيء مع الاحتفاظ بمقامها الأعلى، وموقفها العلمي الرفيع.

وسعت كل شئ من العلم تعليمًا وتأليفًا وتعريبًا وترجمة، وتوحيدًا للمصطلحات العلمية واستخدامًا للأجهزة الحديثة والمخترعات العجيبة والمستحضرات الطبية والمبتكرات الحديثة.

فلا يضيق صدرها بمصطلح علمي، ولا تنفر من اسم عجمي لآلة حديثة أو لمخترع جديد، بل تقبله وتطوعه وتكسوه حلة عربية قشيبة وتصهره في اللغة العربية.

وكما قبلت فلسفة اليونان وحكمة الهند وطب فارس والإغريق في الماضي، هي نفسها اليوم لغة العلم تقبل كل جديد وتحتضن كل حديث؛ لأنها لغة العلم والأدب، والفن والفلسفة، والاجتماع والاقتصاد، والحضارة، وعلم النفس والطب، اتسع صدرها في الماضي كل دخيل، وهاهي اليوم يتسع صدرها وتقبل قواعدها كل جديد معاصر. في صفوف المدارس وفي مدرجات الجامعات. ترقى بالدارسين والمعلمين والباحثين عنها وعن أصولها وموادها إلى فلك عال منيف، وتشد الشباب إلي هذا الفلك العلمي الرفيع، وتسمو به إلى مصاف الكمال والإكمال إن أراد الشباب ذلك المكان.

أيها السادة :

ونحن في رحاب لغة العلم والمعرفة التي غيرت مجرى التاريخ العلمي والحضاري والاجتماعي، هذه اللغة التي اتسعت لكل جديد ووسعت كل حديث من المبتكرات العجيبة والمخترعات الغربية، هذه اللغة التي عطاؤها غير محدود فهي اللغة المعاصرة لكل زمان ومكان.

وإن من حفظة هذه اللغة وسدنتها من يحرصون أشد الحرص علي الالتزام بقواعدها، فالخروج عن قواعدها غير وارد، وغير مقبول، وغير مسموع وشاذ؛ مع أن

مجمع اللغة العربية من أنصارها إلي الأبد يحرص كل الحرص علي سلامتها ومكانتها العلمية العليا، ومقامها الرفيع الأشم، وليس إلى حد الجمود والقعود عند مرحلة معينة، فاللغة العربية لاتقف عند غاية ولا تقصر عن مطلب، فرحابها أوسع رحاب.

فالمتمسكون بعدم الخروج عن قواعدها يلصقون بها الجمود، وهي أبعد وأسمى من أن تجمد، فقواعدها التي منها الاشتقاق والقياس والتعريب هي أصول لتطويرها وأبواب لتوسيعها، فتحت للمجتهد الآفاق البعيدة لتطويرها وتطويعها والسير بها قدمًا في ركب الحضارة في كل زمان ومكان.

فما علينا إلا السير في الطريق التي مهدته لنفسها، فكما اشتق السلف الصالح يجب أن نشتق، وكما قاس السلف الصالح يجب أن نقيس. وكما عرَّب السلف الصالح يجب أن نعرّب، نشتق ونقيس ونعرّب منها وإليها ما يحتاج كل زمان ومكان وما يحتاجه كل علم وفن وفلسفة، والكلٌّ مستمد من أصولها ومأخوذ من طبيعتها ومتمشٍّ مع طواعيتها، وذلك في حدود لا تخل بقاعدة من القواعد اللغة العربية، هذه الحدود لا تتعدى المعيار والقياس الذي سمحت به أصول اللغة العربية.

أما موقف اللغة المعاصرة من العلم تعليمًا وتأليفًا وترجمة واستخدامًا في الأجهزة الحديثة، فقد أشار إلي موقفها العلمي المعاصر رئيس أنصار الفصحى الدكتور إبراهيم مدكور - حفظه الله - في كلمته الخالدة التي ألقاها في افتتاح المؤتمر عام (١٩٧٦م).

وبعد أن أفاض بموقفها العلمي المعاصر، قال حفظه الله: هذه هي العربية في العالم الخارجي، فأين نحن منها في عالمنا العربي؟ وإعادتي لنص كلمة الدكتور مدكور هنا من باب تحصيل الحاصل، فليرجع إليها من أراد المزيد من الاستفادة منها.

أما قضية الفصحى والعامية فقد كتب عنها الكثير، وكم أوصى المؤتمر إلى الهيئات العلمية والدولية ودور النشر والصحافة والترجمة والتأليف بأن تكون الفصحى عمادهم! ومازال المجمع يجأر بهذا النداء ويحث، ويلزم. وبالرغم من كل هذه القرارات والتوصيات فإننا نجد — كما قال رئيس أنصار الفصحى في مؤتمر العام الماضي عام

(١٩٧٦م) - الصحافة لا تتمسك بقرارات المجمع ولا توصياته ولا إلزاماته، ولا تـــري غضاضة في الخروج عن الجادة باسم التجديد، وهم أبعد ما يكونون من التجديد، فهي كلمة حق يراد بها الباطل، وقال رئيس أنصار الفصحى: إنه لا يـــستحي ولا يتـــورع بعض شباب الكتاب من أن يعدوا عليها. وقد تستهين بها الإذاعة المسموعة والمرئية ولا تحزص علي سلامتها، مع أن في وسع الإذاعة أن تكون أداة صالحة لنشرها والترغيـــب فيها. وكثيرًا ما لوحظ أن القسم العربي في بعض الإذاعات الأجنبية يسمو علي إذاعاتنا المحلية.

فالهابطون بالفصحى من مستواها العليِّ الرفيع إلي مستوى غير لائـــق بهـــا ولا بجلالها، هم بين مجتهد وصل به اجتهاده أن تعليم وتأديب وتثقيف الجيـــل الـــصاعد لا يكون إلا بهذه اللغة السهلة، وهم يقيدونها بقولهم: لغة القصة، لغة الـــصورة، وبـــين متجاوز لحقوق اللغة العربية وآدابها، مترخص يسير وراء الأيسر لا الأمثـــل، والأدنى لا الأعلى، هم دعاة العامية الذين لاقدرة لهم على الوصول إلى درجات الفصحى. ولـــو أدركهم الصاحب بن عباد، فقال فيهم قولته، كما قال في عبد الرحمن بـــن عيـــسى الهمذاني، مصنف كتاب الألفاظ الكتابية:" لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني لأمرت بقطع يده " ، فسئل عن السبب، فقال: جمع شذور العربيـــة الجزلـــة في أوراق يسيرة، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدبين تعب الـــدرس والحفـــظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة، هكذا يقول الصاحب بن عباد في مؤلف ألف كتابـــه بالفصحى.فماذا عساه أن يقول، أو يأمر أو يحكم لو أدرك الهابطون بالفصحي دعـــاة العامية. كما أذكر هنا كلمة المغفور له عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين لبعض الكتاب: " أنت لو كتبت بالعامية لم يفهمك إلا القليل، لكنك لو كتبت بالفـــصحى فهمك العالم العربى كله "، أو كما قال رحمه الله.

أما اللهجات وتوحيدها والتخلص منها:

فاللهجة: لغة الإنسان التي جبل عليها واعتادها، واللهجات هي موحدة في المعنى وإن اختلف اللفظ والتركيب.

مثلاً: "ماعلش" في اللهجة المصرية، يقابلها "ولو" في السورية، "وما يخالف" في الخليج، و"زى" في العراق، ويقابل الجميع في اليمن "شهل".

كما أن كلمة "شوبدك" يقابلها في اللهجة المصرية: "عايز إيه"، و"ما تبغي" في الخليج، و"شوبتريد" في الشام، ويقابل الجميع في اليمن: "ماتشتي". فهـي موحـدة في المعنى، وتوحيدها في البلاد العربية، تضييق على اللغة في رأيي الخاص، حتى لو اسـتقر رأي المجمع على توحيدها، واختيار لهجة من لهجات البلاد العربية القريبة إلى الفصحى، حتى لو صدر بها قرار، سيكون كل ذلك في الإيقاع لا الوقوع.

فاللهجات في البلاد العربية لهجات محلية وإقليمية يعتز بها كل عربي في بلـده، وكلنا ملزم تلقائيًا إذا استقر بنا الحال في أي قطر في البلاد العربية أن يلهج بلهجته، وإذا استطعنا بما أوتينا من قوة علمية ونفوذ أدبي أن نوحّدها في قطـر عـربي واحـد، إذا استطعنا ذلك في زمن قريب أو بعيد. فإنها- أي اللهجات — لا تزال ظـاهرة حيويـة ملازمة لحياتهم اليومية والمعيشية وتقاليدهم المحلية وعاداتهم الإقليمية، كلهجـة فخـر واعتزاز وامتياز.

وما دامت هذه اللهجات لا تحل حرامًا ولا تحرم حـلالاً، فنتـرك توحيـدها للأساتذة الأكفاء والمدرسين القادرين علي خلق جيل جديد موحدة لهجتـه وأفكـاره وأهدافه وللزمن أيضًا فهو كفيل بتوحيدها، ولوسائل الإعلام دور فعال في تحقيق ذلك.

وها أنذا في الختام أضم صوتي إلي صوت رئيس أنصار الفصحى الدكتور إبراهيم مدكور، عن اقتناع تام ودراسة كاملة، أضم صوتي إلى ندائه، وهو نداء صادق يـدعو فيه إلي رسم خطة تعليمية مستقرة، ترسم فيها خطوط واضحة، لتعليم اللغات بعامـة واللغة الوطنية بخاصة.

هذا وأرجو أن أكون قد وفقت بعض الشيء إلى ما أريد، وفوق كل ذي علـم عليم، وسبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله العظيم.

* * *

إحياء التراث العربي وأثره في لغتنا المعاصرة(*)

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

(الأمين العام للمجمع)

هذه اللغة المعاصرة التي نقرؤها ونكتبها خضعت منذ حين لمؤثرات شتى، وعوامل مختلفة، نهضت بها وأقالتها من عثارها بعد الكبوة الفادحة التي منيت بها في ظلام التيارات السياسية، والغزوات العارمة، والمحاولات المغرضة التي أرادت إحلال العامية محل الفصحى، وألفت فيها الكتب التي وضعت للعامية قواعدها، ومنها كتاب "قواعد اللهجة العربية بمصر لشبيتا" spitta الألماني سنة ١٨٨٠م، كما ألف زميله الألماني شتوم stumm "قواعد اللهجة العربية المستعملة في تونس" سنة ١٨٩٤م. ووضع المستشرق الإنجليزي سترلنج: stereng كتاب "قواعد العربية العامية" في ٣٧٥ صفحة ونشره في لندن سنة ١٩٢٥م، ولست أزعم أن هؤلاء العلماء قد وضعوا هذه الكتب في محاولة منهم لوأد اللغة الفصيحة، ولكنه باب ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب.

هو باب من أبواب الدراسات اللغوية العامية التي تحاول أن تقنن هذه الظواهر وتضعها في أطر معينة. لكن لو كان قدر لهذه الكتب رواج معين في ذلك بين أنصار العامية، وأصحاب الوطنية العصبية الضيقة، لكانت النكبة مضاعفة، والطّامّة شاملة.

ومبلغ الظن أن لغة لم تصب بمثل ما منيت به العربية في مصر والشام والعراق وسائر البلاد الناطقة بالضاد، من تطفل العناصر الغربية عليها. فنجد اللفظ التركي إلى المصري واليوناني إلى الإيطالي والفرنسي والإنجليزي، والفارسي والإسباني والفينيقي إلى بعض اللهجات العربية الوضيعة. بل قد بلغ الأمر من سيطرة الغزو الاستعماري، أو بالأصح التخريبي أن يقضي على لغة التعليم العام قضاءً مبرمًا في بعض بلادنا العربية، ويصبغها باللون التركي، أو الفرنسي، أو الإنجليزي، لولا أن ولّى ذلك العهد لغير رجعة، واسترد العرب كرامتهم وحريتهم، ومحوا هذا الليل الدامس إلا شيئًا من الغبش نأمل أن ينقشع انقشاعًا كاملاً بفضل الأمناء الأوفياء.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثامنة من جلسات مؤتمر الدورة الثالثة والأربعين، في ٢ من مارس سنة ١٩٧٧م.

ولقد كان داء العجمة مستفحلاً فيما مضى، إذ لم تكن هناك وسائل جدية لمقاومته، فلم يكن له بدٌّ من أن يستطير وينشر ظله الثقيل في كل مكان يحل به. وأضف إلى ذلك ما طُبع العربي عليه من كرم وتسامح ولين جانب، أطمع فيه ضيفه فألقى بأحمال لغته في تلك الساحة الكريمة، ثم أبى في الظلام أن يرحل عنها.

أما اليوم فقد ظهرت وسائل قاهرة، تعاونت جميعها في مقاومة هذا الغزو اللغوي متمثلة في المدارس العامة والجامعات المنتشرة في ربوع بلادنا، تحاول ما أمكنها الجهد أن تدعم الفصحى وتنقيها من أوشاب الدخيل الذي لا ضرورة في وجوده، والأجنبي الذي يمكن اطراحه والاستغناء عنه، تعاونها في ذلك المجامع اللغوية المباركة في القاهرة ودمشق وبغداد وسائر الهيئات اللغوية في العواصم العربية.

وكان للصحف والمجلات مجالها وسلطانها على المتكلمين بالعربية، وتوجيههم نحو الفصحى بنشاطها الدائب وقدوتها الصالحة إلى حد ما. وتظهر فيها بين الفينة والأخرى دراسات ونقود لغوية تعاون في رفع المستوى اللغوي والأسلوبي إلى ما تستطيع رفعه في حدودها المعينة.

وإلى جانب هذا يتكاتف الإنتاج الأدبي والفني، ووفرة المؤلفات ووسائل الإعلام، والمجالس العلمية والسياسية أيضًا في تغذية اللغة المعاصرة، وإمدادها بالكثير وبالجديد من صور الألفاظ والأساليب المنتقاة.

ولكننا نجد مع ذلك أن هذا التحول السريع من لغة الجبرتي وأضرابه إلى لغة المنفلوطي والرافعي وطه حسين والعقاد، إنما يرجع الفضل الأكبر فيه إلى المَوْجة العاتية والهزة الكبرى التي نجمت عن حركة إحياء التراث العربي، ونشر عيون بيانه الأصيل....

وحركة الإحياء هذه جاءت وليدة الحاجة، إثر نشاط حركة الترجمة التي بدأها محمد علي، بعد عودة المبعوثين من البلاد الأوربية. فكانت مهمة الترجمة شاقة غاية المشقة، وسوق الكتب مقفرة معتمدة على المخطوطات التي يعز الوصول إليها، ويصعب استعمالها على نطاق واسع.

وقامت المطبعة الأميرية ببولاق بنشر كثير من أمهات اللغة والأدب والتاريخ والحديث، كلسان العرب، وصحاح الجوهري، والقاموس المحيط، والأغاني، وخزانة الأدب، وشرح الحماسة للتبريزي، وشرح المقامات للشريشى، وأمالي القالي، وصحيح مسلم سنة (١٢٩٠م)، والبخاري سنة (١٣١٣). وهي كتب أصيلة لها قدرها وأثرها الفعال، ولا سيما كتب اللغة التي هي المرجع الأول في الاستفتاء اللغوي، والحارس المتصدي لمن يريدها فوضى بغير نظام.

ولست أدري ماذا كان يحدث من الأوضاع لو لم تبكر هذه المطبعة بنشر تلك الكتب وإذاعتها في ذلك الحين؟ ! إذن لتغير وجه الثقافة العربية التي لا تزال مهتزة إزاء لطمات الاستعمار الثقافي المتوالية، وإزاء الدرس الثقافي الذي لا يزال طائفة من أبناء أمتنا العربية في دوار مريب من بريقه الكاذب.

ولعل نشاط الجانب الأوربي، ودأبه علي نبش الكنوز العربية والشرقية، كان من الحوافز التي زادت من يقظة إخواننا العرب، وتحمسهم لهذا الإحياء، إذ كانوا يرون أنهم أحق به وأجدر.

وقد ألفينا هؤلاء المستشرقين ينشرون عيونًا ثمينة من عيون التراث العربي، قبل أن تظهر هنا في الشرق العربي بعشرات السنين، في أمانة علمية دقيقة اقتبسوها من أسلافنا، مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية، وهذا كان شأن جمهور أسلافنا أيضًا. فكُتب الرجال عندنا تنال ترتيبًا فهرسيًّا ممتازًا مقرونًا بالإحالات الذكية. كما أن مقابلة المخطوطات ومقارنتها ميزة عربية سابقة، عرفها آباؤنا الأولون.

عرفوا منا كل شيء ثم عدنا نحن إليهم لنعرف ونتعلم ما عرَّفناهم من قبل. والفضل لا ينكر. و﴿ ما نبغي، هذه بضاعتنا ردّت إلينا ﴾.

وإذا أحببت أن أنوِّه بالقمة العليا من نوابغ هؤلاء المستشرقين فلن أستطيع إغفال كل من: وستنفلد الألماني (٩١سنة) ferdinand wustenfeld ١٨٠٨-١٨٩٩ الذي ألف وحقق نحو مائتي كتاب، بين صغير وكبير، منها: كتاب سيرة ابن هشام، ومعجم

ما استعجم، الذي نشره مكتوبًا بخط يده مطبوعًا بمطبعة الحجر (ليتوجراف) وبيفان الهولندي (٧٥سنة) Bevan ١٨٥٩-١٩٣٤، ناشر نقائض جرير والفرزدق مذيَّلة بالفهارس المبتكرة والتعليقات، ومنها تفسيره وفهرسه للألفاظ التي لم تذكر في المعاجم المتداولة. وهو مما يذكر له بالتقدير.

وكذلك تشارلس لايل الإنجليزي (٧٥سنة) charles Lyall ١٨٤٥-١٩٢٠ محقق شرح المفضليات لابن الأنباري، مع ترجمة شعرية لها باللغة الإنجليزية. ومن عجب أنه استطاع أن ينظم هذه الأساليب والمعاني الجاهلية في ثوب شعري إنجليزي قشيب.

ولا نستطيع أن نغفل فضل المستشرق الألماني المقعد رودلف جاير (٦٨سنة) Rudplf Geyer ١٨٦١-١٩٢٩ محقق ديوان الأعْشين (٢٢شاعرًا) الذي أسماه "الصبح المنير في شعر أبي بصير". وتظهر عنايته الفائقة في تخريج هذه الأشعار من ٥٦٩ مرجعًا مع مقابلات كاملة لرواية النصوص بيتًا بيتًا وكلمة كلمة.

ويتولى وليم رايت الإنجليزي W.Wright تلميذ دوزي ١٨٣٠-١٨٨٩ يتولى نشر كامل المبرد لأول مرة في حذق وإتقان، في أجزاء ثلاثة مع حواش وفهارس وافية تمام الوفاء، وهو في سن الرابعة والثلاثين. وذلك قبل أن تظهر الطبعة المصرية بنحو ربع قرن.

وأعجوبة الأعاجيب أن يقوم على إحياء كتاب سيبويه مستشرق فرنسي شاب هو هَرْتويغ دِرَنبرغ Hartwig Dercnbourg ١٨٤٤-١٩٠٨ وقد نشر الكتاب في سنة ١٨٨١م أي قبل أن تظهر طبعة بولاق بعشرين سنة. ثم يتولى عبقري آخر هو المستشرق الألماني جوستاف يان Gustavc Jahn ١٨٣٧-١٩١٧. ترجمة نص الكتاب كاملاً إلى اللغة الألمانية، مع إضافات وتعليقات بالعربية مقتبسة من شروح السيرافي والشنتمري ومن خزانة الأدب، وغيرها... وظهرت تلك الترجمة في خمسة مجلدات، من سنة ١٨٩٥م إلى سنة ١٩٠٠م.

ولقد حاولت أن أختبر صحة هذه الترجمة فناولت النص الألماني لأحد تلاميذي ممن يتقنون الألمانية، وهو الآن أستاذ بالجامعة. وتناولت أنا النص العربي، فكان تلميذي

يترجم النص الألماني ويقرؤه عليّ، فأجد أمام عيني في النص العربي ما يطابق الترجمة الألمانية تمامًا، وكأنما يقرأ هو ما أراه أنا أمام ناظري.

و"جوستاف يان" هذا هو الذي أخرج شرح المفصل لابن يعيش، مقابلاً بمخطوطات ليبزج وأكسفورد والآستانة في سنة ١٨٨٢، وذلك قبل أن تظهر الطبعة المصرية لمحمد منير الدمشقي بنحو ٥٠ سنة، أي نصف قرن. هذه صورة مشرفة لإخواننا الأعاجم الذين منحوا لغتنا العزيزة من الوفاء والإعزاز والصون، ومن الخدمة الصادقة الشريفة ما يجب أن تخجل له بعض الزعانف العربية الذليلة، التي تحاول في إصرار مزر أن تهدم أصولاً لا تعرفها، وأن تشوه جمالاً عز على الدهر أن يستباح:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

أقولها بسماحة، هؤلاء الذين يحاولون هدم الأهرام: حاولوا ما استطعتم، واجتهدوا ما وسعكم الجهد، وأعملوا معاولكم المتوالية المتتالية في بنائها المتين الشامخ.. فستظل الأهرام هي الأهرام شامخة ساخرة ممن تخيلوا ثم خالوا.

وأعود فأقول: إنه قد بلغ مقدار هذه الكتب المحياة وتلك البحوث التي أديرت حولها ما يُربي على ٨٠٠٠ كتاب وبحث. ويظهر ذلك جليًّا لمن تتبع كتاب " المستشرقون"، للعالم الفاضل: نجيب العقيقي. وإذا عدنا إلي الجانب العربي وجدنا جهودًا شعبية تساعد الجهود الرسمية في كشف الغطاء عن كنوز الأسلاف. ووجدنا هيئات علمية تقوم هنا وهناك، تجعل همها وكدها نشر التراث علي أوسع نطاق... وتبدو إلى الوجود "جمعية المعارف" التي أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر سنة ١٨٦٨م. وكانت هذه الجمعية مساهمًا فيها، ومكونة من ثلاثين ألف سهم، وقيمة السهم ثلاثون قرشًا - لا خمسة جنيهات كما ذكر جورجي زيدان- وقد لقيت هذه الجمعية إقبالاً كبيرًا واستجابة سريعة من المثقفين وغيرهم، وكان لأعضائها ميزة في أن يحصلوا علي الكتب بثمن أقل مما يطلب من غيرهم. وقد نشرت الجمعية طائفة من الكتب القيمة في اللغة والتاريخ والأدب، منها تاج العروس للزبيدي،

وكتاب ألف باء للبلوي، وهو كتاب في علوم العربية صنعه مؤلفه ليكون مرجعًا لولده، يتثقف به. وهو كتاب عزيز الفائدة، يقول في مقدمته:

هذا كتاب ألــف بــا   صنعتــه يا ألبــا

من أجل نجلي المرجــى   إذا شدا أن يلبــّا

ومنها كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، لابن الأثير، و"الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي" وهو من أعجب كتب التاريخ، إذ هو شرح لكتاب تاريخي ألفه أبو نصر العتبي، ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمــود بــن ســبكتكين(٣٦٠-٤٢١) بأسلوب أدبي فني،وسماه "اليميني" نسبة إلي يمين الدولة هذا. وقد تتابع عليــه شــراح كثيرون كان أبرزهم وأشهرهم هذا المؤلف، وهو أحمد بن علــي المنــيني (١٠٨٩-١١٧٢)، الذي سمي شرحه بــ"الفتح الوهبي".

ومنها "تاريخ ابن الوردي"، مذيلاً بالحوادث التي جرت بعد وفاته، أي من سنة (٥٧٠) إلي سنة طبعه، وهي سنة (١٢٨٥). وقد كتب في آخره ثَبَت بأسماء أعــضاء هذه الجمعية وعدد أسهمها. وقد وهم جورجي زيدان هنا وهمًا آخر حــين ذكــر في كتابه أن أسماء هؤلاء الأعضاء مذكورة في ذيل الفتح الوهبي، والحق أنها مــذكورة في تاريخ الوردي، وكم ذا له-كان الله له-من أوهام.

ومن الجمعيات التي قامت على إحياء التراث في ذلك العهد: شركة طبع الكتب العربية، وقد ظهرت بعد تأسيس جمعية المعارف بثلاثين سنة أي سنة ١٨٩٨م. وقــد طبعت طائفة صالحة من كتب الفقه والتاريخ منها: "الموجز في فقه الشافعي"، و"فتوح البلدان" للبلاذري، و"الإحاطة في أخبار غرناطة "، و"تاريخ دولة آل سلجوق".

كما ألفت جمعية خيرية من فضلاء المصريين وسراقم، ذوي الهمم العلية لنشر كتاب "المخصص" لابن سيده سنة ١٩٠٢م. وكان من أعضائها الشيخ محمد عبــده، وحسن عاصم، وعبد الخالق ثروت، ومحمد البخاري، ووكلوا تــصحيح الكتــاب إلي الإمام الشنقيطي بمعاونة الشيخ عبد الغني محمود أحد علماء الأزهر... وفي ختام طبعــه

يقول رئيس التصحيح بالمطبعة الأميرية، وهو طه بن محمود:"فوربّ الأرباب، ومن علم الكتاب، لو لم يكن لابن سيده إلا هذا الكتاب لكان فيه كل ما يـــزين وتبـــيض بـــه الوجوه، وترجح الموازين، فستعلم يمين ضمته ما تضمنته من اليسار، الذي يــصغر في جنبه قدر الدرهم والدينار".

ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون فكـــرة علمية، فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركي وضغطه كاد أن يأخذ بمخنق العرب في بلادهم، فأرادوا أن يخرجوا إلي متنفّس يحسون فيه بكيالهم المـــستمد مـــن كيـــان أسلافهم، في الوقت الذي ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبـــشون كنـــوز الثقافة العربية فانطلقوا... واهتم كثير من الكتاب والأدباء الـــذين لمعـــت أسمـــاؤهم بالإسهام في ذلك الإحياء فنجد الإمام محمد عبده يرأس جمعية تسمى "جمعيـــة إحيـــاء العلوم العربية" ويشرف على إحياء "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، كما يشرف علي نشر"أسرار البلاغة" للجرجاني أيضًا مع تلميذه، الكاتب الديني المعروف الـــشيخ محمد رشيد رضا. ويقوم الشيخ الإمام بتدريس الكتابين في الأزهر الـــشريف للطلبـــة والعلماء أيضًا ببراعته المعروفة، حتى ليقول بعض من سمع دروسه من الأســـاتذة بعـــد حضوره للدرس الأول من أسرار البلاغة:"إنا اكتشفنا في هذه الليلة معنى علم البيان".

ووجدنا الأمام يهتم أيضًا بشرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، ويطبـــع هـــذا الشرح بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعين في وقت مبكر هو سنة ١٨٨٩م.

ونري الشيخ إبراهيم اليازجي ينشر"رسالة الغفران" لأبي العلاء في سنة ١٩٠٣م.

ويهتم طه حسين بإذاعة أدب أبي العلاء وشعره، ويشرع في شرح "لزوم مـــا لا يلزم"، ويقوم بجهد كبير في إحياء آثار أبي العلاء بعامة، فيسهم مع لجنـــة أبي العـــلاء - وكنت أحد أفرادها - في إخراج ستة مجلدات من الآثار المتعلقة بكيانه الأدبي.

ونجد أمثال العقاد في عبقرياته، ومحمد حسين هيكل في "حياة محمد". وفي كتابه "في مترل الوحي" يعالجون نصوص التراث في بحوثهم ومقالاتهم.

وإني لأعتقد اعتقادًا جازمًا، أن ليس إحياء التراث مقصورًا علي إشاعته التقليدية بنشر كتبه وتحقيقها، ولكنه يشمل مع ذلك إذاعة نصوصه واستخدامها في غضون البحوث والتعليقات والدراسات، فهذا نشر يأخذ الصفة العامة كما أن ذلك نشر تناله الصفة العامة أيضًا، كلاهما يرى النور ويراه النور.

لقد كان لتيسير الحصول علي كتب التراث أثر ظاهر في تطوير الأساليب الراكدة في مناقع السجع والصنعة الركيكة، وفي تطور لغة الكتَّاب؛ وذلك بإلحاح الأساليب الممتازة وقوة دفعها للزُّيوف وبالكلمات المنتقاة التي تمتلئ بها كتب التراث، كما كان لاتساع نشر المصحف الشريف وكتب الحديث النبوي ومعاجم اللغة العربية صغيرها وكبيرها، قديمها وحديثها فضل كبير في إسباغ القوة والشباب على أساليب الأدباء بعامة، من خطيب أو كاتب أو شاعر أو ناثر، وكان من خطباء العهد القريب رجل تخطى حدود التقليد المذهبي، فكان المصحف حليفه في البيت وفي المكتب يستلهم الفصاحة والاقتدار علي القول، هو الخطيب المفوه وليم مكرم عبيد...وسمعت من أحد أقاربي، وهو المرحوم الأستاذ إبراهيم الجزيري، أن الزعيم الخالد سعد زغلول كان يضع إلى جانب سريره معجم أقرب الموارد.

وأقول: إن نشر آثار كتّاب العرب أصحاب الأقلام أمثال الجاحظ وابن المقفع وأبي الفرج الأصبهاني وابن جرير الطبري والحريري والهمذاني وابن عبد ربه، وكذا نشر الدواوين العربية الأصيلة، أمثال ديوان حسان بن ثابت، وجرير والفرزدق والأخطل، والحسن بن هانئ، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، والشريف الرضي، وابن هانئ، وابن خفاجة وابن زيدون الأندلسيين، وغيرهم من شعراء الشرق والغرب كان ربحًا عظيمًا لمن أراد أن يقوِّم أسلوبه الكتابي ويحذو حذو الإبانة العربية الأصيلة.

ونلمح هذا جليًّا في كتابات المنفلوطي والرافعي والزيات وطه حسين الذين تأثروا تأثرًا ظاهرًا بأدب الجاحظ، كما يبدو تأثر طه حسين بأسلوب ابن هشام في كتابه " على هامش السيرة ".

ولو ذهبنا نبحث في تأثر جمهرة كتابنا وشعرائنا الأصلاء بأثر من قبلهم لاستطعنا بعد الدراسة المبصرة أن نعين الأصل الأول من مواردهم ومستقياهم في كتاب قديم أو عدة كتب، وفي شاعر قديم أو عدة شعراء. وأنا أعني هنا التأثر اللغوي، وأدع التأثر الفكري إلي مزيج الثقافات القديمة والمعاصرة؛ إذ تختلف موازينهم في ذلك بمقدار ما يأخذون وما يذرون.

وأمامنا الآن مثل حيّ لقوة تأثير التراث بالوساطة، نلمسه في تراث المنفلوطي نفسه، من "النظرات" و"العبرات" و"الفضيلة" و"ماجدولين" و"الشاعر". فلا تكاد تجد بيتًا أهله ذوو فضل يخلو من كتاب أو أكثر من كتب هذا الرجل ذات التأثير الفعال، ولا أظن أن أحدًا منا ونحن الشيوخ لم يقرأ له أو يفد منه.

وهكذا نجد أن المنفلوطي قد أدى إلينا عصارة من التراث عن طريق قلمه، كما نؤديه نحن إلى أبنائنا وهكذا دواليك.

ومثل آخر لتأثير التراث، يتمثل في "مقدمة ابن خلدون" التي ظلت ردحًا طويلاً من الزمان تتلى في دار العلوم وتدرس دراسة دقيقة، وتحقق ألفاظها وأساليبها ومعانيها، فكانت بذلك موردًا وريًّا للدارسين، ينطلقون من بعد ذلك لتغذية الطلاب بألفاظها وأساليبها، وكان لتلك المقدمة فضلها في رفع مستوى اللغة التي نعاصرها. وغير هذه الأمثلة الفعالة من كتب التراث، كثير حقًّا.

وإني لأدعو إلي مزيد من الدفع لتيار النشر والإحياء. والأمة العربية الآن تزخر بهيئات كبيرة كثيرة العدد، تحتضن نشر هذا التراث وتدعمه، كما أن أسرة التحقيق العلمي يزداد عدد أعضائها تزايدًا مطردًا في ربوع المعمورة العربية وغير العربية. وفقنا الله جميعًا لحمل أمانة اللغة، ووقانا شر العقوق بها، والعبث بفروعها، والتنكر لأصولها وجذورها.

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

* * *

بين اللغات العَاميّة

واللسان المدَوَّن(*)

للأستاذ الشاذلي القليبي

(عضو المجمع)

قال أحمد أمين في كتابه "زعماء الإصلاح في العصر الحديث" ما يلي:

"ولعل من أهم المشاكل التي تواجه العالم العربي الآن استخدامه لغتين: عامية وفصيحة، والفرق بينهما كبير، يستعمل إحداهما في البيت وفي الشارع وفي المجالس، ويستعمل الأخرى في الكتابة والقراءة. ولم تنجح أية محاولة في التقريب بينهما. وهذا أضعف من اللغة الفصحى؛ لأنها لم تكتسب الحيوية التي تأتي من طريق الاستعمال اليومي، وأضعف اللغة العامية؛ لأنها لم تستفد مما ينتجه الأدباء والشعراء، ولا تزال المشكلة عويصة تتطلب الحل من المصلحين".

في هذه الفقرة، على اقتضابها، وضع للمشكلة اللغوية التي يواجهها العالم العربي اليوم، ولعل من المفيد أن ننطلق من هذا النص لوضع القضية الرئيسة، وتفريع المشاكل الناجمة، عنها:

فأول ما ينبغي أن يلاحظ: استعمال أحمد أمين لفظ "عامية" بالإفراد، وهو يتكلم عن العالم العربي بأسره. والواقع أن لكل بلد عربي عامية خاصة به. فنحن أمام ثنائية لغوية، في كل بلد؛ ولكننا في مستوى العالم العربي، نواجه ثنائيات متعددة؛ لأن الفرق بين اللهجات العامية كبير، ولربما تعذر معه التفاهم لأول وهلة.

ثم إن الثنائية بين العامية والفصحى، في كل بلد، بحسب وجوه الاستعمال: فالعامية للحياة اليومية، والفصحى للثقافة. والحياة اليومية خاصة بكل قطر، بينما الثقافة العربية مشتركة بين سائر البلاد العربية. وبذلك نجد في طيّ التقسيم الذي ذهب إليه

(*)عرض في الدورة الرابعة والأربعين الجلسة التاسعة، يوم السبت ٢٥ من مارس سنة ١٩٧٨م انظر التعقيبات على البحث في محاضر الجلسات ونشر بمجلة المجمع ــ العدد الحادي والأربعين ص١٣٣.

أحمد أمين، التمييز بين ما اصطلح علماء اللغة المحدثون على تسمية بـاللفظ اليوناني، dialektos، أي لغة التخاطب، ,Koinedialexis أو Koine فقط، اختصاراً ـــ أي اللغة المشتركة التي تستعمل في أغراض معينة، ثقافية كانت أو غيرها.

ويشير- بعد ذلك - أحمد أمين- في إيجاز بليغ- إلى عواقب هذه الازدواجية اللغوية القائمة في العالم العربي: فالفصحى انتقصت حيوية، والعامية بقيت بمعزل عن شؤون الثقافة.

أما أن هذه الازدواجية هي من أهم المشاكل التي يواجهها العرب في هذا العصر، كما جاء في كلام أحمد أمين، فلا بدّ من التذكير بأن هذه المشكلة قديمة قدم العالم العربي ـــ وإن هي أصبحت، في عصرنا هذا المشكل الرئيس الذي تتوقف على حله نهضتنا الثقافية والاجتماعية. ففي كثير من النصوص القديمة إشارة إلى هذه الظاهرة، وأهمها ما كتبه ابن خلدون في المقدمة[1].

وقد يكون من المفيد استعراض آراء ابن خلدون في هذا الكتاب، حتى ننطلق منها في علاج ما بين العامية والفصحى من علاقات.

فاللغة العربية كان يتناقلها العرب من جيل إلى جيل، بفضل ما يسميه ابن خلدون: " الملكة "، وهي شبيهة بالطبع، تحصل بالتلقين المباشر، عن طريق السماع والتعود منذ الصغر.

على أنه يؤخذ من بعض أبواب المقدمة نظرية خاصة بدرجة فصاحة اللسان العربي، منذ العهد الجاهلي، فكانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل، وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد، وبني تميم. وأما من بَعُدَ عنهم من ربيعة، ولخم وغسان، وإياد، وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة، بمخالطة الأعاجم[1]".

---

(١) ابتداء من ص ١٠٤٠ ـــ الطبعة اللبنانية.

ثم إن هذه الملكة فسدت بعد الإسلام باختلاط العرب بالأعاجم، حين استولى الغرب على العراق والشام ومصر وإفريقية والمغرب.

ولما كان القرآن والحديث بلغة مضر، وهما أصلا الدين والملة، " خشى انغلاق الإفهام عنهما، بفقدان اللسان الذي تنزلا به ... فاحتيج إلى تدوين أحكامه، ووضع مقاييسه، واستنباط قوانينه ".

ويميز ابن خلدون بين لسان الجيل العربي العائش بعيداً عن المدن الكبيرة، وإن اختلط بالأعاجم بعض الشيء، ولغة الأمصار التي اشتد فيها تأثير العجمة، بسبب تكاثر الاختلاط.

أما لغة الجيل العربي الذي يعيش بعيداً ـــ بعداً متفاوتاً ـــ عن الاختلاط بالعجم، فإنها – في نظر ابن خلدون – لا تختلف اختلافاً جوهريًّا عن لغة مضر.

ويحدثنا صاحب المقدمة عما يسميه "لغة أهل الجيل العربي الذي بعهدنا"، فيحلل العلاقة بينها وبين لسان مضر على النحو التالي:

فاللغات كلها ملكات، والملكة ليست "بالنظر إلى المفردات، وإنما هي بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع: وهذا هو البلاغة[٢]".

ورغم أن هذا النص يؤخذ منه حصر الملكة في التراكيب، فإن سياق الكلام عند ابن خلدون يدل على أن مردّ البلاغة والبيان – ومعناهما عنده واحد – إلى الألفاظ، في دلالتها على معان بأعيانها، وإلى التراكيب، في أحوالها وكيفية تأليفها.

وعلى هذا التحليل يبني الكاتب مقولة هامة، كان ينبغي أن يكون له شيء غير قليل من الجرأة ليصدع بها في عصره:

---

(١) ص ١٠٤١ – ١٠٤٢.

(٢) المقدمة ـــ الطبعة اللبنانية ـــ ص ١٠٤٠.

"وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد، ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة ... حيث يزعمون ... أن اللسان العربي فسد، اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب[(١)]".

فالملكة التي كانت لأهل قريش تغيرت، في نظر ابن خلدون، ولكنها لم تفسد. والذي فسد إنما هو الإعراب، وهو"بعض من أحكام اللسان[(٢)] " ودليله على ما ذهب إليه أن "الكثير من الألفاظ لم تزل في موضوعاتها الأولى". ثم إن طرائق التعبير وسنن التبليغ موجودة، بدليل وجود الخطيب المصقع والشاعر المفلق، في الجيل العربي المتأخر.

أما لغة الحضر في المدن، فيقول عنها صاحب المقدمة:"إن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل - يقصد الجيل العربي الباقي على بداوته - بل هي لغة أخرى، قائمة بنفسها، بعيدة عن لغة مضر، وعن لغة هذا الجيل العربي ... وهى عن لغة مضر أبعد[(٣)]"

ويحلل خصائص هذه اللغة الحضرية، فيراها قائمة على " ملكة ممتزجة "، أى هي مزيج من ملكة اللسان العربي ومن ملكة اللسان العجمي. وابتعاد لغة الحضر عن لغة مضر القديمة بحسب اختلاطهم بالأعاجم: "فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد[(١)]".

وينظر ابن خلدون في اللغات الحضرية نظرة علمية مجردة، شبيهة بما يذهب إليه علماء اللغة في هذا العصر، فيلاحظ:

أولاً: أنها تختلف باختلاف الأمصار: فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذلك للغة أهل الأندلس.

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٤٣.

(٢)كأن ابن خلدون يميل إلى استعمال كلمة " لسان " كلما قصد الحديث عن " لغة مضر " أو ما نسميه اليوم بالفصحى.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٤٧.

ثانياً: أنها لغات قائمة بنفسها، قادرة على"تأدية المقصود والإبانة". وهذا معنى اللسان واللغة، وفقدان الإعراب ليس بضائر لها[٢]"وفي هذا الباب أيضاً، سبق صاحب المقدمة عصره بقرون، فنظر إلى اللغات نظرة علمية، ترتكز على مفاهيم واضحة دقيقة تُرجع الأمور إلى إطار النسبية الاجتماعية، وتقسيمها بحسب ما لها من وظائف في حياة البشر.

وإن كان علماء اللغة المحدثون يرون أن نظرة ابن خلدون إلى اللغة نظرية تطورية، وتبحث خصائص اللغة حسب تطورها التاريخي، وهم لا يرتاحون إلى هذه الطريقة، ويفضلون عليها النظرة "التزامنية" - على حد تعبيرهم - أي نظرة وصفية تحلل نظام اللغة وهياكلها في فترة محددة.

ولئن أعجبنا بتفلسف ابن خلدون في تحليل أحوال اللغة وأطوارها، وخاصة بنظريته المتعلقة بما يسميه "لغة التخاطب في الأمصار وبين الحضر" فإن لنا، في عصرنا هذا، شواغل لم تكن في عصر ابن خلدون: وهي تخص بناء المجتمعات العربية على أسس أصيلة وعصرية معاً. ونعتقد أن للثقافة - بأوسع معانيها - في هذا العمل دوراً أساسيًّا، في تطوير الأوضاع الذهنية والاجتماعية. والثقافة أداتها الأولى إنما هي اللغة.

وقضية اللغة، في نظرنا، قضية رئيسة، وبحسب طريقة مواجهتنا لها، تتكيف مواقفنا الثقافية والحضارية ونود، في هذا الصدد، أن نقدم بعض الملاحظات:

فعلى فرض أن اللغات المحلية قادرة على البلاغة والبيان، كما يقول ابن خلدون، فإنا نعتقد أن لا خيار اليوم أمام الشعوب العربية غير الفصحى. فهذا اختيار مبدئي لا مناص منه لكل الشعوب الناطقة بالعربية، وذلك لأسباب جوهرية، كثيراً ما وقع التعرض لها منذ قيام الخصومة بين أنصار الفصحى والمتعصبين للعامية، منها أن الفصحى صلتنا المباشرة بالدين والملة، وأن الفصحى هي التي تربطنا بالتراث الثقافي العربي، وبما لنا من تاريخ منذ أربعة عشر قرناً.

---

(١) المصدر السابق ص١٠٤٧. وكأن ابن خلدون يميل هنا إلى استعمال كلمة " لغة".

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤٧.

أما السبب الذي أريد أن أؤكد أهميته فيتمثل في الدور السياسي الذي تضطلع به الفصحى اليوم؛ إذ هي اللحمة التي تشد الشعوب العربية، بعضها إلى بعض، بدونها تتضاءل وشائج القربى بينهما، وبفضلها – إن هي أحسنت استعمالها، وأحكمت أيضاً تصريف سائر شؤونها – يمكن أن تؤلف مجموعة ذات بال في المجال الدولي، على الصعيدين الثقافي والسياسي.

فالعاميات تفرق، بينما الفصحى تجمع، بل إنه يمكن القول: إن الجامع المشترك بين العرب اليوم، مشرقاً ومغرباً، إنما هو هذه اللغة الفصحى، التي يسميها ابن خلدون اللسان المدون[1]، والتي بقيت قائمة الذات عبر العصور وتقلبات التاريخ، أربعة عشر قرناً، دون فساد ولا تغير، وإن هي تطورت تطوراً بلا انقطاع.

وتلك من معجزات هذا " اللسان المدون " أن استطاع أن يثبت في أحكامه ومقاييسه، مع التطور في أحواله والتجدد في كيفياته، بحسب ما تقتضيه شؤون الفكر والعلم والمجتمع. ولئن كان أسلافنا، في صدر الإسلام، حرصوا على تدوين هذا اللسان ليكون دوماً "سلماً إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله[2]" فإن لنا،في هذا العصر، إضافة إلى الاعتبار الديني، اعتبارات ثقافية وحضارية وسياسية، لا تحدو بنا فحسب إلى جعل هذا اللسان المدون فنًّا محفوظاً وعلماً مكتوباً "[1]، فلا يعدو أن يكون بذلك وقفاً على الخاصة، لا شأن فيه للعامة،وإنما هي تحدو بنا كذلك إلى إحيائه،حتى يصبح وسيلة اتصال بين العرب كافة، إضافة إلى كونه أداة إبلاغ لشؤونهم الفكرية والعلمية والاجتماعية جميعاً،ولا يكون ذلك إلا عن طريق الاستعمال اليومي،بحسب رأي أحمد أمين.

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٤٤.

(٢) ص ١٠٤٤.

(٣) ص ١٠٤٤.

ولابد، لبلوغ هذه الغاية، من إجماع العرب على خطة تجعل الجهود متضافرة، والأهداف متناسقة.

وبلوغ الغاية المنشودة أمر من الصعوبة بحيث لا يتطلب فقط الاتفاق في التصريحات الرسمية، بل يقتضي أيضاً، وفي الدرجة الأولى كامل الإخلاص في العمل، من أجل تحقيق هذه الغاية.

وليس ذلك على العرب بعزيز، ومجموعات غيرنا في أوربا استطاعت أن تتجاوز لغاتها المحلية إلى لسان مشترك بينها، استعملته في مختلف الأغراض الإدارية والتعليمية والثقافية، حتى انتشر إشعاعه تدريجيًّا، وكاد يعم سائر مجالات الحياة. وإنما على هذا النحو كان ارتقاء الفرنسية والإنكليزية والألمانية إلى وظيفة اللسان المشترك، في أصقاعها الأصلية بأوربا.

والمنهج الذي نعتقد ضرورة اتباعه في مستوى العالم العربي كافة، ينطلق من العناية باللسان المدون وباللغات العامية معاً، باعتبار ما لهذه وذاك من تأثير، وما ينبغي أن يكون لكل منها من دور.

أما اللسان المدون فهو اليوم، كما لاحظه أحمد أمين، مقصور - أو يكاد - على شؤون الأدب والثقافة العامة. وهو لا يزال، هنا أو هناك، يواجه عقبتين لا بد من تذليلهما: فمنا من لا يزال يتردد في اتخاذ العربية لغة لكل الشؤون الإدارية والاقتصادية، لتغلب المصادر الأعجمية التي عنها نأخذ الفنون الإدارية والاقتصادية، ومنا أيضاً من لا يعتقد أنه في إمكاننا أن نعلم كل العلوم الصحيحة باللسان العربي. وهذا وذاك من رواسب ما أشار إليه ابن خلدون من ولع المغلوب بالاقتداء بالغالب، حتى في اقتباس لسانه، اعتقاداً منه أن لغته قاصرة عن الإبلاغ.

وهذه النظرة إلى العربية ناشئة عن الوضع الحالي لثقافتنا، وكذلك عن جهل أكثر المثقفين العرب بما كان للعربية من باع في العلوم العقلية والرياضية والطبيعية، حين كان العرب في طليعة الحركة الحضارية في العالم.

فلئن غلب على ثقافتنا، منذ عصر النهضة، العناية بالأدب، إضافة إلى علوم الدين، فإن كتب العلوم القديمة تشهد بما بلغته لغتنا من مران في أداء دقائق المعاني في كل باب. وليس من السهل أن نرجع إليها الآن قدرتها كاملة على القيام بهذا الدور، بعد الكبوة التي أصابت الحضارة العربية قروناً متوالية.

ولكن لا مناص للمجتمعات العربية من بلوغ هذا الهدف، وإلا بقيت في درجة من القصور والتبعية مهينة.

فإن أردنا بلوغ هذا الهدف في أقرب الآجال، فلا بد من شرطين متلازمين:

لابد من تكوين العلماء العرب القادرين، لا على مجرد الاحتذاء، بل على البحث والابتكار؛ ولابد، في الآن نفسه، من تلقينهم اللغة الفصحى منذ نعومة أظفارهم، حتى نربّي فيهم ملكتها، فتقارب فيهم الطبع والسليقة، وتكون لهم القدرة على استنباط الاصطلاحات الجديدة، واستشفاف ما ينبغي استشفافه من الأصول القديمة.

ولا نتوصل إلى تصيير الفصحى سليقة حقًّا في الأجيال الناشئة، إلا بتقريب الشقة بين اللسان المدوّن ولغة التخاطب، في كل قطر من الأقطار العربية.

فكيف نقرب اللغات المحلية من اللسان المدوّن ؟

جوابنا الذي لا نتردد فيه هو أن نتخذ من لغة الكلام سلماً إلى اللسان المدون، لاستعماله، بما ينبغي من مرونة وتدرج.

ينبغي أن نلاحظ أن لغة الحضر في تغلب مطرد على لغة البدو، في أكثر البلدان العربية. ثم إن الأمصار، هذه، تختلف، من قطر إلى قطر، اختلافاً كبيراً، أحياناً، كما لاحظ ذلك ابن خلدون.

ولكن الذي يسترعي اهتمامنا اليوم هو أن وسائل الاتصال العصرية بين الشعوب قد ساهمت في التعريف بالكثير من اللغات المحلية.

ولا بد من الإشارة إلى المكانة التي أصبحت تحتلها لغة القاهرة، من بين سائر لغات الأمصار العربية. وهنا أودّ التوقف لحظة عند هذه الظاهرة لتحليل أسبابها:

فلا شك أن لمصر– منذ قيام النهضة العربية والإسلامية– مترلة خاصة، تعززت بما كان للقاهرة في الثقافة والفنون، من دور مرموق مما جعل القاهرة كعبة القصاد، سواء للرحلة السياحية في طريق الحج، أو للرحلة الدراسية في طلب العلم، أو للرحلة السياسية، بالنسبة إلى عدد من رجال الكفاح التحرري أو النضال السياسي، ولا أستبعد أن يكون كل ذلك قد أوقع في الأذهان أن لغة القاهرة هي اللغة المثلى فراموا تقليدها.

ثم إن الوسائل السمعية البصرية الجديدة أكدت دور مصر، وإشعاع لغة القاهرة، وذلك ابتداء من الأسطوانة التي نشرت الأغنية المصرية، ثم تلتها السينما، فالإذاعة فالتلفزة، فأصبحت كل الآذان، في مستوى النخبة، وفي مستوى الجماهير على السواء، تتلقى مختلف " الإبلاغات " الثقافية والفنية والسياسية، عن طريق لغة القاهرة.

ثم إن الدور السياسي الذي اضطلعت به مصر منذ عشرين سنة، وما استتبع من توافد الطلبة من كل الأصقاع، للدراسة بالجامعات المصرية، ثم وجود مركز الجامعة العربية، وانعقاد أغلب الندوات والمؤتمرات العربية بها، لا شك أن كل ذلك جعل العاصمة المصرية مركز الدائرة العربية، وعزز إشعاع اللغة القاهرية، حتى أصبحت، بصورة ضمنية – شعورية أولا شعورية – لغة الاتصال بين مختلف الوفود العربية، إذا هي اجتمعت فخشي بعضهم أن لا يُفهم عنه جيداً، إن هو استعمل لغته المحلية.

والحق يقال: إن هذه الأسباب كلها ما كانت لتكفي لإحلال لغة القاهرة هذه المنـزلة، لولا جمال متأصل فيها، ولطف في النغم، وظرف في تأليف الكلمات وتركيب الجمل، وميل واضح إلى تحريك الساكن والتزام مالا يلزم من الضم أو الكسر، يكسب اللسان المصري راحة في النّفس، لا نظير لها في سائر الألسن العربية.

ومما يلاحظ في لغة القاهرة تأثرها المتزايد باللسان المدون وهي ظاهرة لا تخلو منها بقية لغات الأمصار العربية، ويمكن إرجاعها إلى مستويين:

مستوى الألفاظ: فعدد متزايد من ألفاظ الفصحى، تنتقل إلى اللغات المحلية، وخاصة منها مفردات الحضارة، وذات المعاني المجردة.

ثم مستوى الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية: وجملة من الأنماط والهياكل، للتعبير عن صيغ في التفكير جديدة، وإن كان هذا أوضح في لغة الطبقات المتعلمة.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن المثقفين كثيراً ما يعدلون عن الصيغ المألوفة في اللغة العامية، إلى صيغ مقتبسة من اللغة الفصحى، وأحيانًا من اللغات الأجنبية؛ ومنهم تنتشر هذه القوالب في الأوساط المجاورة.

وهذه الملاحظة تجرنا إلى توسيع النظرة إلى بقية العوامل التي يمكن أن نركز عليها العناية في تهذيب اللغات الشعبية، وتقريب الشقة بينها وبين اللسان المدون ـــ رغم ما قد يخشى عليها من تناقص مصادر الطلاوة والتلقائية فيها.

فللتعليم الدور الأساسي في تهذيب العامية. وبقدر ما تنتشر المدارس الابتدائية والثانوية تتسع رقعة اللسان المدون، وتتقارب الصلة بينه وبين اللغة المحلية، وبالتالي بين مختلف اللغات المحلية فيما بينها، في العالم العربي.

ثم إن تأثير الصحافة والإذاعة والتلفزة في تقريب الفصحى من كل فرد عربي يعزّز دور المدرسة، في كل الأوساط الاجتماعية. وهذا معروف لا يحتاج إلى زيادة شرح.

ولكني أودّ أن أوكد عاملاً آخر، لعله لم يحظ بما هو به جدير من الاهتمام: فالاجتماعات العمومية، سواء في نطاق النقابات، أو الأحزاب، أو غيرها من المنظمات ذات الصبغة الشعبية، كثيراً ما نلاحظ أنها تساهم في إبراز لغة جديدة، شعبية من حيث أنها مفهومة لدى الخاص والعام، ولكنها قد تناولها العمل والتهذيب، ودخلتها مفردات وصيغ وقوالب، فأكسبها ذلك مراناً وقدرة على الأداء، دون أن يضعف من حيويتها

التي بها نفاذها إلى النفوس. وهي لغة عربية سقط منها الإعراب، ولكنـها في أغلـب أحوالها، لا تعتريها العجمة التي يتعذر معها الفهم لمن ليس من مصرها.

ولئن كان تهذيب اللغات المحلية وسيلة مهمة من وسائل تقريب الشقّة بين العامية واللسان المدون،فإن لكيفية استعمال اللسان المدون تأثيراً في انتشاره، وسهولة استعماله.

فالذي استقيناه من تجاربنا، سواء داخل الهياكل التعليمية، أو في نطاق أجهـزة الثقافة والإعلام، أو أثناء الاجتماعات العامة، هو أنه يمكن تكييف الفـصحى علـى مستويين:

- **فصحى للكتابة**، وهو ما يسميه ابن خلدون اللسان المدون.

- **وفصحى للتخاطب**، وهي كيفية خاصة لاستعمال اللسان المـدون، تنفـي عنه ما قد يبدو متكلّفاً أو غريبـاً، في أغلـب أحـوال الحيـاة الخاصـة والمواقـف الاجتماعية.

ووجود مستويات مختلفة في استعمال اللسان المدون ليس بأمر جديد ولا هـو بدعة، وإنما هو واقع مألوف، في عصرنا هذا على أقل تقدير، فمن الواضح - مثلاً - أن "الفصحى" تختلف اليوم باختلاف الأجيال: فللشيوخ لغة، وللشبان لغة، ولا شـك أن الزيتوني والأزهري والقروي يستعملون لغة، هي من نواح متعددة متميزة عـن لغـة خريجي الجامعات العصرية.

ثم إن المتأمل فيما ينشر بالبلاد العربية من كتب ومجلات وصحف، يلاحـظ في استعمال الفصحى، بمختلف الأقطار، فروقاً جزئية، لكنها واضحة، تكفي أحياناً لمعرفة القطر الذي ينتسب إليه المطبوع، اعتماداً على استعمال مفردات معينة، أو تراكيـب وقوالب، لا تُعهد في غيره.

يمكن أن نحدد ملامح لسان التخاطب هذا- المنبثق من الفصحى- في مـستوى المفردات، ومن حيث الإعراب والإلقاء.

أما من حيث الألفاظ، فالذي لاحظناه في لغة أهل تونس — وقد أشار إلى مثله زميلنا الكبير الأستاذ عبد الله كنون، بالنسبة إلى لغة الحديث في المغرب الأقصى — أن جانباً كبيراً من ألفاظ اللغة العامية هو من اللسان المدون؛ لا أن المثقفين في عزوف متزايد عن كل لفظ مألوف في العامية، إما للجهل بمصدره، أو من باب الاستهجان لكل ما يمت إلى العامية بسبب.

ونعتقد أن ذلك مما يزيد في انغلاق الفصحى عن سواد الشعب، فينبغي، على العكس من ذلك، تخير الألفاظ العربية المستعملة في اللغات العامية، واجتناب ما سواها عند الإمكان، مع مراعاة قواعد الذوق والبلاغة.

ثم إنه يحسن، في لسان التخاطب، أن لا نحجم عن الألفاظ الأعجمية التي فرضتها الحضارة الجديدة؛ وهو عين ما سلكه أسلافنا في القرون الأولى، عند اختلاطهم بالأعاجم ليأخذوا عنهم أصول العلوم القديمة، وأنواع المرافق الحضارية.

وبقدر ما نرى عدم الإحجام عن اقتباس المفردات الأجنبية الضرورية، فإنا نعتقد أنه من واجبنا أن نكيِّفها وننحتها نحتاً يجعل اللسان العربي يتقبّلها عن طواعية.

والأمثلة على ذلك كثيرة، وليس هذا موضع الخوض فيها. ولكن ليتّضح "بساط الحال "، كما يقول ابن خلدون - نشير، في الحالة الأولى إلى حرص بعض أنصار الأصالة على استعمال عبارة "الإذاعة المرئية"، مثلاً، بينما جمهور الناس في البلاد العربية يستعملون اللفظ الأجنبي، ونشير في الحالة الثانية إلى إدخال كلمة تليفزيون بوزنها الأجنبي دون تغيير، مع استثقال اللسان العربي لكلمة في مثل هذا الطول.

وقد شاع في تونس استعمال لفظ "**التلفزة**" الذي يبدو أرشق وأقرب إلى طبيعة اللسان العربي. وفي خصوص الاقتباس من اللغات الأجنبية، نعتقد أنه بقدر ما يتأكد اقتباس كلمات الحضارة ذات المدلول المادي، فإنه يحسن في أغلب الأحوال ترجمة المفردات الدالة على معان مجردة، ومن أمثلة ذلك ما شاع في المشرق من استعمال كلمة

"**كوادر**" التي تعني فئة المسيرين في الصنائع أو الإدارة، بينما كان من الأفضل اتخاذ كلمة "**إطار**" (ج) إطارات، للدلالة على نفس المعنى.

ثم إنه لا مناص - أحياناً - من استعمال كلمات من اللغة العامية، وإن كانت نسبتها إلى الفصحى غير واضحة. ونحن نفضّل ذلك عند الاقتضاء، على الركون إلى ألفاظ غريبة يصعب اعتيادها وتداولها.

أما ثانية ملامح الفصحى المبسطة، فعدم التزام حركات الإعراب، تخفيفاً للنطق واستبعاداً لكل ما يؤكد مغايرة اللسان المدون للغة الكلام، في أذهان الجمهور، وكذلك تسهيلاً على أغلب الناس أن يستعملوها دون خوف من اللحن، قد يؤول إلى الحصر والكبت.

أما الميزة الثالثة التي ينبغي أن تتوفر في الفصحى الدارجة، فتخص الإلقاء وكيفية الأداء. فإنه يتعين فيها الحرص على لهجة الكلام المعتاد، في بساطة نطقه، وحيوية تراكيبه، مع التمسك بالذوق الصحيح والطبع السليم اللّذين يجعلهما صاحب المقدمة من شروط البلاغة والبيان.

ونرى استعمال "**فصحى التخاطب**" في مواطن اجتماعية معينة، في مقدمتها معاهد التعليم. فلقد لاحظنا أن لغة المعلم في الابتدائي بل في الثانوي - وحتى في العالي أحياناً - لا تبعد عن العامية بكثير، خاصة إذا كانت المادة متصلة بالعلوم الرياضية أو الطبيعية. لذلكَ نعتقد أنه كلما تعذر على المعلم استعمال اللسان المدون، فإنه ينبغي أن يجتهد في استعمال "الفصحى الدارجة" حتى ترسخ في نفوس الناشئة ملكة اللسان الفصيح، على مرّ الأعوام.

ثم إن من أهم المواطن التي يجب فيها استخدام فصحى التخاطب برامج الإذاعة والتلفزة، التي كثيراً ما تتأرجح بين عامية مطبقة وفصحى مغلقة، مما قد يفقدها مسحة الحيوية أو لطف العبارة.

وقد نلاحظ- مثلاً- أن نشرات الأنباء تلقى في تزمت التلاوة، مع ما تستوجبه من أحوال في التركيب وهيئة في النطق، بينما كان من الممكن إلقاؤها في مثـــل لهجـــة الكلام، دون كلفة.

وقد يكون إحكام هذا اللسان، على النحو الذي فصلنا، من العسر بمثابة السهل الممتنع، لأنه يتطلب ممن يرومونه أن يكونوا قد عكفوا على ممارسته "حتى استولوا على غايته[(١)]"، للتوصل إلى تمام الإبلاغ والإبانة. ولكنه شرط لإرجاع الحيوية إلى اللـــسان المدون.

أما الموطن الثالث الذي يحسن فيه احتذاء خصائص الفصحى المبـــسطة فهـــو المسرح لما لهذا الفن من تأثير في مختلف الأوساط الاجتماعية.

ورغم أن رجال المسرح اتفقوا، في ندوة دمشق[(١)]. على توصية تتعلق بتفـــضيل استعمال الفصحى في الحوار المسرحي، فإن القضية بالنسبة إلى الكثير من رجال المسرح تدعو إلى مزيد التأمل فيما قد ينجم في نظرهم عن هذا الاختيار من عواقب.

فأنصار العامية في الحوار المسرحي على شيء من الحق، حين يقولون: إن شؤون الثقافة والفن لا يكون لها من قيمة، حتى تتأصل في بيئة معينة، وإنها لا تبلغ القمم العالية إلا بالانغماس في التربة المحلية.

وهذا رأي مصيب، بشرط تلافي ما يعوق الإنتاج الثقافي من الإشعاع، بـــسبب ورود الحوار المسرحي بلغة محلية، لا يفهمها إلا قلة من العرب.

لذلك يمكن الاتجاه، في لغة المسرح، إلى خصائص " لسان التخاطب ". كمـــا بيناها آنفاً، وذلك بتخيّر الألفاظ بحسب فصاحتها ومحليتها، معاً، وبتكييف للتراكيـــب والصيغ، يجعل اللغة المحلية أبعد ما تكون عن الانغـــلاق، مـــع احتفاظهـــا بـــالطلاوة

---

(١)المصدر السابق ص ١٠٥٧.

(١)انعقدت الندوة في نطاق مهرجان المسرح، من ١٢ إلى ١٤ مايو، سنة ١٩٧٧م بدمشق، وكان عنوانها ": مشاكل النص المسرحي في البلدان لعربية ".

والحركية، واجتناب المفردات التي تختلف معانيها باختلاف الأمصار - ولربما اختلفت اختلافاً منكراً -.

ونعتقد أن ذلك ممكن في الإنتاج المسرحي؛ إذ من مقتضيات المسرح أن يكون، في نفس الوقت، مطابقاً للواقع، ونتيجة جهد فنيّ لا يصير المسرح رائقاً بدونه.

وبقدر ما يحسن ذلك ويتأكد في الحوار المسرحي، فهو متعذر، إلى حدّ مـــا، في الحوار السينمائي؛ ذلك أن السينما فن ألصق بالواقع اليـــومي، في ابتذالـــه وصـــنوف أحواله، والمسرح بينه وبين الواقع فجوة، هي فرصة لتدخل الجهد الفني. والمفروض أن السينما تقتطع مناظرها من صميم الواقع، بينما يخضع المسرح لجملة من الاصطلاحات الفنية تجعله ينجرد عن الواقع بعض الشيء؛ ليتسنى له النفاذ إلى لب الحياة.

تلك هي - في اعتقادنا - الطريق المؤدية إلى إحلال لغتنا الفصحى المكانة الـــتي تضمن لها قوة الحيوية والإشعاع.

فلا بد، في آجال قصيرة، في نطاق العالم العربي من الارتقاء باللسان المدون إلى أداء جميع العلوم والتقنيات العصرية، ولا ينبغي أن يكون في ذلك ضير على مـــستوى العلم، ولا انغلاق في المجال الثقافي. ثم من المفيد تعميم الفصحى المبسطة عن طريق مـــا أسميناه ب "لسان التخاطب"، حتى لا تكون الفصحى لغة طبقة في المجتمع العربي، ولـــو طبقة المثقفين؛ إذ من أهدافنا جميعاً تجاوز الفروق الطبقية، وتقريب الشقة بين الفئـــات الاجتماعية، وذلك ليس فقط بالعدالة الاقتصادية، بل - أيضاً - بالمساواة في التخاطب بلغة مشتركة، لا هي عامية سوقية، ولا هي معزولة الأصول محدودة الفـــروع، بلغـــة أصيلة حيّة، تجمع بين كافة الشعوب العربية وتربط الحاضر بجذوره العريقة.

*   *   *

تعميم الفصحى بتفصيح العامية(*)

للأستاذ على رجب المدني
(عضو المجمع)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

حضرات الزملاء الأجلاء:

إن ما احتوته هذه الورقات المكتوبة لا يعدو أن يكون خلاصة لبحثي الذي أرجو أن أتمكن من الإضافة إليه شفويًّا أثناء أو فور إلقائه بما لا يتجاوز ما يسمح به الوقت المحدد، كما أرجو أن يكون في المقترح الذي تضمنه ما يؤهله لشرف استماعكم وتقبلكم ومناقشتكم.

حضرات السادة:

إن من أبرز منجزات مجمعنا العظيم باللغة العربية: ما قرره من اتخاذ موضوع العامي الفصيح الموضوع الأهم في كل من دورتي مؤتمره السادسة والخمسين، والسابعة والخمسين:

وكان من أهم ما تضمنته توصياته في الدورة السادسة والخمسين، تلك التوصية التي نادت بضرورة استكمال بحث هذا الموضوع في مؤتمرنا هذا السابع والخمسين.

ولقد كان لي شرف التقدم في الدورة السابقة باقتراح: **تشكيل لجنة أرى أن تكون على مستوى البلاد العربية وغيرها من البلاد التي تستعمل فيها اللغة العربية مثل مالطة وبعض الدول الإفريقية والآسيوية تضم نخبة مختارة من ذوي الخبرة المهتمين بأمر الربط بين المفردات العامية المتداولة وأصلها العربي الفصيح.**

ويسعدني اليوم أن أعود للحديث في موضوع هذه اللجنة وطريقة تشكيلها ومنهج عملها والأهداف المرجوة منها.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثامنة من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والخمسين، المنعقدة يوم الإثنين، الموافق ١٨ من فبراير سنة ١٩٩١م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء السبعين، ص ١٥٣.

إن من الضروري لربط الصلة بالمتخصصين في هذا المجال بكل من البلاد التي أشرت إليها، أن يستعين مجمعنا بالمجامع الشقيقة في البلاد التي تحقق لها تأسيس مجامع. أما غيرها من البلاد التي لم يتسن لها بعد تأسيس مجامع، فأرى من الأيسر الاتصال بوزارات التعليم والثقافة فيها، وبما يتيسر التعرف عليه من جمعيات تعنى بشؤون اللغة والفكر، وذلك بغية الحصول على قوائم بمرشحين أكفاء يتم ضمهم للجنة العامة المقترحة التي يقتصر عملها- في بادئ الأمر- على صياغة برنامج عمل تسير على هديه، ثم يتم تقسيمها إلي عدد من اللجان الفرعية التي يناط بها حصر المفردات العامية التي تتكون منها اللهجات المختلفة في البلاد المعنية، على أن تعقب عملية الحصر هذه عملية تحرٍّ عن منشأ تلك المفردات، ومدى صلتها بالعربية الفصحى، ومدى التحريف الذي لحق بها، وطبيعته من جراء الاستعمال الدارج، ثم يلي ذلك إفراغها في جداول تتضمن تلك المفردات بنصها العربي الأصلي، مقابلاً للنص الدارج، ثم بالنص الذي يمثل حدًّا أدنى لما يقتضيه تداولها المشترك كنص فصيح.

أما المرحلة الأخيرة فإنها تقتضي عودة اللجان الفرعية إلي انعقادها كلجنة عامة واستعراضها لما أنجزته اللجان الفرعية، ثم اعتمادها النهائي للنصوص المختارة، وتوصيتها بإصدارها في قاموس مبسط يسهل تداوله لدى مختلف طبقات المجتمع العربي ومستوياته الفكرية والتعليمية، تداولاً من شأنه أن يمكّن كل جزء من عالمنا العربي من التعرف على حقيقة الصلة بين ما هو متداول لديه من مفردات، وبين اللغة العربية الفصحى، ويكون من شأنه أن يمكن كل جزء من التعرف على ما هو متداول في الأجزاء الأخرى من مفردات ذات منشأ فصيح، امتدت إليه يد التحريف عن طريق أساليب النطق المختلفة والمنعزلة ذهنيًّا عن اللغة الفصحى، وبذلك يتاح لكل جزء من عالمنا العربي أن يكتشف بسهولة اتحاد مضامين المفردات المتداولة في كل بلد، بعد أن يكتشف اتحاد نصوص تلك المفردات التي لم يحل دون إدراك حقيقة اتحادها غير اختلاف أسلوب النطق بها.

ومن شأن ذلك كله أن يمهد لإخضاع تلك المفردات (على نحو تدريجي تمارس فيه مختلف وسائل التوعية والتوجيه) لضوابط الإعراب في أبسط صورها، وبأقصى ما يمكن من التيسير للقواعد المقررة.

وعلى هذا النحو يمكننا أن نبدأ رحلة الألف ميل لتحقيق حلم أجيال الدعاة والمصلحين في أمتنا العربية الكبرى، في أن تستعيد مجد تخاطبها بلغتها الفصحى المشتركة، وترتبط بتراثها المشترك ارتباطًا تبدد به أوهام من حلموا بتمزيقها وإضعافها من خلال غزو لغتها وطمس معالم فصحاها في أوساط عامتها، وإيقاعها في مجاهل العامية والتغريب، والانفصال عن ماضيها، وتناكر أبنائها بدلاً من تعارفهم.

وأرى أن أشير إلي أن منهج عمل اللجان المقترحة يقتضي بالضرورة أن تضم في عضويتها أناسًا ليسوا متمكنين في الفصحى، ولكنهم متمكنون في الأدب الشعبي في مختلف أجزاء الوطن العربي تمكّنًا يؤهلهم لأن يساعدوا على التعريف بمضامين المفردات التي تتداول في محيطهم، سواء في الأدب الشعبي، أو في مجالات التخاطب العامي، إذ إن هذه الفئة سيكون لها دور التعريف بالمفردات المتداولة، التي سيؤدي التعرف على مضامينها المستهدفة ممن ينطقونها إلي سهولة التعرف على ارتباطها بالأصل العربي، وإعادة صلتها به على النحو الذي ذكرت. لقد أكد الاستقراء والاستماع والتحري في كافة أجزاء الوطن العربي وأوساطه الشعبية التي تنطق بلهجات عامية، تتفاوت تقاربًا وتباعداً، أن نسبة لا تقل في المتوسط عن ثمانين في المئة من المفردات المتداولة هي ذات صلة بأصولها الفصحى، ولئن كانت أساليب النطق تلعب دورها في تحديد درجات الصلة والوضوح، فإنها بكل تأكيد مستمدة من تلك الأصول الفصحى، وبقليل من نفض الغبار المتراكم يمكن أن تزداد صلتها بالفصحى وضوحًا، وتتهيأ لتفصيحها وإدماجها في دورة التخاطب السليم الذي يهيئ للتمازج والتفاهم المرجوين بين تلك الأجزاء، التي ما برح ذوو النيات السيئة يحرصون على استمرار انفصالها وتباعدها.

أما فيما يخص المفردات التي يتسنى اكتشاف أصل عربي لها، فإن على اللجنة أن تبحث مدى قابلية اللغة الفصحى لاستيعاب ما يمكن استيعابه منها كمولد، ونبذ ما لا تسمح طبيعته أو تفاهة مضمونه أو تعارضه مع النصوص الفصحى المتداولة نبذًا صريحًا يتمثل في التحريض على إهماله بمختلف وسائل التحريض، مما سيؤدي إلى تنقية الفصحى من الشوائب التي من شأنها أن تشوه جلالها.

وختامًا أكرر رجائي أن يكون بين عناصر هذا المقترح ما يستحق أن يطرح للمناقشة، وسماع مختلف الآراء بشأنه على نحو يمكن من إنضاج تلك العناصر وجعلها جديرة بالاعتماد والتنفيذ.والله ولي التوفيق.

*   *   *

تعليم اللغة العربية للناطقين بلهجة من لهجاتها في مراحل التعليم الهولندي(*)

للدكتور فريد ليمهاوس
(عضو المجمع المراسل)

الحقيقة أنّ سبب هجرة العرب إلى هولندا مجهول إلى حدٍّ ما.ولعل السبب قلة عدد المهاجرين نسبيًّا فربما لا يزيد عددهم عن ربع المليون. وإن كان عدد المنتسبين إلى الشرق الأوسط غير ضئيل فأغلبيتهم من ريف المغرب العربي أصلاً.

ابتدأت موجة الهجرة في أواخر الخمسينيات، وبلغت أوجها في الستينيات وأوائل السبعينيات. وقد اكتسبت الدفعات الأولى من العمال الأميين البسطاء – الذين وقعوا في الفخ كمعظم المهاجرين إلى أوربا وقتذاك – قوتًا بسيطًا وادّخرت مبالغَ زهيدة؛ لتحويلها إلى الوطن؛ لتيسير معيشة أسرهم هناك،ولكن لم يتمكن أولئك المهاجرون من كسب الثروة المطلوبة للعودة إلى الوطن، ولبدء صفحة جديدة في حياتهم مع قومهم. والنتيجة معروفة، فبدل العودة إلى أسرهم مكثوا بالبلاد الواطئة إليها كما مكث غيرُ العرب من العمال الأجانب في هولندا وسائر بلاد أوربا.

وبدأ الفصل الثاني من تاريخ هذه الهجرة بجمع شمل الأسر في هولندا، واندماجهم في المجتمع الهولندي. وربما لا ييئس أكثرُهم من العودة إلى الوطن يومًا ما، وبحكم العادة يتعلّم أولاد العرب القاطنون هولندا في المدارس الهولندية، التي كانت تقوم على تدريس المناهج الهولندية؛ فلم يدرسوا اللغة العربية رغم أن أغلبيتهم يتكلم لهجة من لهجاتها. وبطبيعة الحال افتقر شباب العرب المقيمون في هولندا إلى دراسة اللغة الأصلية.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الخامسة عشرة من مؤتمر الدورة الثالثة والستين يوم الثلاثاء، الموافق ٢٥ من مارس سنة ١٩٩٧م. ونشر بمجلة المجمع بالجزء الخامس والثمانين ص٥.

واعترفت السلطـــات التربـــوية بحق تدريس اللغة الأصلية الخصوصية. وكـــان هـــذا الاعتراف وفقًا للمبدأ الذي مُنح للفريزيين الأصليين المقيمين في محافظة فريزيا، حق تعلُّم لغتهم الخاصة المختلفة عن اللغة الهولندية، على الأقل في السنوات الثلاث الأولى مـــن مرحلة التعليم الابتدائي. وطُبِّق هذا الحق على أولاد الأتراك والمغاربة المقيمين في هولندا بتقديم البرنامج المعروف بعنوان Onderwijs in Eigen Taal en Cultuur (OETC) أي (تعليم اللغة والثقافة الخاصة الأصلية).

ابتدأ البرنامج سنة ١٩٧٤م، وكان يُدَّرس في أول الأمر بالإضافة إلى الدروس الهولندية المقررة في مرحلة التعليم الابتدائي. ورغم وجود مصاعبَ شتّى - مثل: قلة المدرسين، ونقص المناهج التعليمية، وانخفاض عدد الحصص التي كانت تقل في معظم الأحيان عن ثلاث ساعات في الأسبوع - ازداد عدد التلاميذ المشتركين في هـــذا البرنـــامج، لأول مرة، فقد بلغ عدد التلاميذ الذين اشتركوا في برنامج تعليم اللغة والثقافة العربية في سنة ١٩٨٢م - على سبيل المثال - عشرة آلاف تلميذ تقريبًـــا، أي ٦٠٪ مـــن التلاميـــذ المستهدفين. وبفضل ملاحظات النقد من جانب الوالدين، وتصحيح المناهج التعليميـــة المتوافقة مع موقع التلاميذ في البيئة الهولندية غير العربية، التي كانوا يعيشونها ويتعايشون معها تحسّنت نتائج هذا النوع من تعليم اللغة العربية للتلاميذ النـــاطقين بلهجـــة مـــن لهجاتها، ومع ذلك تُعتبر هذه النتائج محدودة بطبيعة الحال فكانت هناك مشكلة.

وللمشكلة ناحيتان: أولاً: لم تكن لغة أولئك التلاميذ الناطقين باللغة العربية وأهلـــيهم هي اللغة الفصحى بل اللغة الدارجة - وفي الأغلب الغالب كانت لهجة من لهجـــات المغرب - وثانيًا: بيئتهم المدرسية هي البيئة الهولندية وجميع المقررات الأخرى كانـــت تُدرس باللغة الهولنديـــة.

ولا عجب أن النتائج محدودة فعلاً إذا قورنت بالمستوى المحقّق في البلاد العربية بعـــد اختتام التعليم الابتدائي. ومع ذلك فالمهم أن نسبة كبيرة من أولاد العرب المقـــيمين في هولندا آنذاك كانت تجيد إلى حدٍّ ما اللغة العربيـــة.

ومن عهد قريب أُدرِجت مادة اللغة العربية ضمن المنـــاهج الدراســـية في المــــدارس الإعدادية الهولندية ونتيجةً لذلك أصبحت اللغة العربية - لأول مرة - مادة رسميـــة في الجدول الرسمي القومي للتعليم الإعدادي الهولندي عـــام ١٩٩٥م وتم التقـــدير الأول لمستوى النتائج في شهر سبتمبر من العام الماضي في مؤتمر صغير أُقـــيم في دار المعهـــد المركزي لوضع الامتحانات وتطويرها Centraal Instituut voor Toets Ontwikkeling (CITO) وليس هذا خاتمة المطاف حيث بدأت المناقشات لإدخال اللغة العربية كمادة رسمية في جدول الامتحانات الرسمي حتى في التعليم الثانوي.

وعلى الرغم من كل هذه التطوّرات الإيجابية، فأغلبية الطلبة الذين ينتمـــون إلى الجالية العربية والذين يدخلون الجامعات الهولندية ومعاهد الفنون التطبيقية، هم ناطقون بلهجة من اللهجات العربية وليسوا قادرين على قراءة اللغة الفصحى أو كتابتـــها، أو حتى النطق بها بمستوى مُرضٍ؛ والسبب كما أوضحتُ فيما سبق أن اللغـــة العربيـــة لم تدخل في بعض المدارس الإعدادية إلا منذ عهد قريب و لم تدخل المدارس الثانوية حـــتى الآن.

ومع ذلك نلاحظ في الجامعات الهولندية أن أغلبية الطلبة العرب المندمجين في المجتمـــع الهولندي راغبون في استخدام اللغة العربية الفصحى؛ قراءةً وكتابةً وحديثًا.ولذلك يختار البعض منهم اللغة العربية التي تُدرس في أقسام اللغة العربية كمادة فرعيـــة ويحـــضرون الدروس والمحاضرات في هذه الأقسام،غير أن هذه الدروس مخصصة للطلبة الهولنـــديين الذين لا يعرفون اللغة العربية على الإطلاق.

ويمكن أن نلخّص المشكلـــة فيما يلي: تعليم مادة اللغة العربية الفصحى في الجامعات الهولندية يسير وفق قواعد اللغة الهولندية ومفهومها، وليس من منطلق اللهجات. وكان من نتيجة ذلك تناقص دوافع الطلاب وتركهم الدروس، مـــع أن الرغبـــة مازالـــت موجودة، وليس السبب الوحيد أن إجادقم للغة العربية تدعم هويتهم العربيـــة علـــى مستوى لغوي يتناسب مع مستوى ثقافتهم الهولندية، بل لأن إجادة اللغة العربية كانت تزيد من فُرص الحصول على وظيفة في سوق العمل. فتزداد أهمية اللغة العربية كتابـــةً وحديثاً في المنشآت والهيئات الهولندية والأوربية في الميادين الثقافية والدينية والاقتصادية التي تُجري اتصالات مع العالم العربي مثل: البنوك، ومؤسسات التـــصدير، وجمعيـــات المساجد، ووزارات الخارجية، والسفارات العربية... إلخ.

إنّ انتماءهم للحضارتين الأوربية والعربية مع خبرهم الخاصّة في ميدان دراستهم، يزيد كفاءهم للقيام بالوساطة المتمرسة بين الحضارتين في مجالات شـــتى.

بناءً على ذلك قمنا في الشعبة العربية من قسم لغات الشرق الأوسط وحـــضاراته في جامعة خرونينغن بتهيئة مشروع لتطوير برنامج جامعي خاصّ لتعليم اللغة العربية للطلبة الناطقين بلهجة من لهجاها، وطلبنا التمويل المادي من المركز المتخصص بشؤون التعليم العالي للطلبة من أصل أجنبي Expertise Centrum Hoge Onderwijs Allochtonen. ولقد حصلنا على موافقة المركز في تمويل المشروع في بداية هذا الشهر.

وسيشاركني في وضع المنهج الزميلان المدرّسان في القسم السيدة فريدة جواد، والسيد نصر الملاح. وسنستند في تطوير هذا البرنامج المذكور إلى المنهج المشهور الـــذي قـــام بإعداده جماعة من الخبراء العرب تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـــوم وهو " الكتاب الأساسي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها " (٣أجزاء) للأساتذة: السعيد محمد بدوي، وفتحي علي يونس، ومحمد حماسة عبد اللطيف، ومحمود الربيعي،

ومحمود البطـــل. وهـــدف مشروعنا هو إعداد كتاب مرافق لهذا المنـــهج المفيـــد يشرح الاختلافات البارزة بين اللهجات واللغة الفصحى للطلبة الناطقين بلهجـــة مـــن اللهجات العربية. ونريد أن نعرفهم هذه الاختلافات في جميع دروس الكتاب الأساسي وعلى مستوى الصوت أو اللفظ، وعلى مستوى الصرف والنحـــو، وكـــذلك علـــى مستوى القاموس. وهدفنا الأساسي هو إتاحة الفرصة للطلبة لتقوية إلمامهم باللغة العربية الفصحى بطريقة سليمة بعد إتمام كل دروس الكتاب الأساسي. وبالتالي نأمل باعتبارنا قسمًا متخصصًا في لغات الشرق الأوسط تابعًا لجامعة خرونينغن أن نساهم في تطـــوير المجتمع الهولندي المتعدّد الثقافات بإذن الله. ونأمل كذلك أن نفيد من الخبرة العريـــضة العميقة في هذا المجال الموجود لديكم أيها الزملاء الأعزاء ولدى سائر الخبراء في العـــالم العربي إن شاء الله.

*　*　*

العربية الفصحى بين لهجاها وعامياها المختلفة(*)

للدكتور عبد الكريم خليفة
(عضو المجمع)

أيها العلماء الأجلاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فقد تلقيت، في بداية الشهر المنصرم شباط (فبراير)، دعوة كريمة من الرئيس الجليل الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع، للمشاركة في مؤتمر مجمعنا القاهري، الذي نعتزُّ بالانتساب إليه. وأحمل في نفسي عظيم الاحترام والتقدير لرئيسه العلامة، الذي أغنى الخزانة العربية بمصنفاته المشهورة، فى خدمة العربية وتراثها الأدبي والعربي. وقد أعلمني أن الموضوع الرئيس لمؤتمر هذا العام هو: (الفصحى والعامية) وحددت الدعوة إعداد بحث في هذا الموضوع المقترح - يتناول العامية في بلدكم وعلاقتها بالفصحى من حيث التأثير والتأثر.

وقد توقفت مليًّا عند هذا الموضوع المقترح في محوره العام " الفصحى والعامية"، ووجدت أن النهج العلمي، يقتضي أن تحدد المفاهيم التي يدورحولها البحث والحوار، فإنَّ عدم وضوح المفاهيم يؤدي إلى الفرقة والاختلاف ... ونحن عندما نتحدث عن"الفصحى" إنما نتحدث عن العربية، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، اللغة الجامعة لتراث أمتنا العربية على امتدادها الجغرافي، من أقصى المغرب العربي إلى أقصى مشرقه، وفي عمقها التاريخي عبر القرون، منذ العصر الجاهلي ونزول القرآن الكريم وحيًا على قلب الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم-، بلسان عربي مبين، حتى

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين، يوم الخميس الموافق ١١ من مارس سنة ١٩٩٩م، ونشر البحث بمجلة المجمع بالجزء التاسع والثمانين، ص ١١٩.

وقتنا الحاضر، بل وحتى تزول الأرض ومن عليها. فقد حفظ القرآن الكريم اللغة العربية، وجعلها لغة خالدة بخلود النص القرآني؛ فالعربية الفصحى ثابتة من حيث نحوها وصرفها، ومن حيث قواعد نظمها، ومن حيث قواعد لفظها، وهى لغة نامية ومتطورة من حيث ألفاظها ودلالاتها، وأساليبها ... ومصطلحاتها لاستيعاب كل ما هو جديد .

أما اللهجات، فهي ألوان من النطق في مختلف الأقطار العربية، بين مدنها وقبائلها، وتذهب جذورها بعيدة في أعماق التاريخ. وهي لا تتعدى في معظمها، اللهجات العربية القديمة التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، في إطار العربية الفصحى، وفى ما كان يسمى"لغة"، و"لغيّة"... وإن اختلاف هذه اللهجات لا يتناقض مطلقًا مع وحدة اللغة وسلامتها وفصاحتها... فالإمالة مثلاً، ونطق الكاف قافًا أو همزة... إلخ، ولفظ الجيم جيمًا جامدة، أو معطشة، أو شامية ... كل هذا ومثله يضفي على لغة التخاطب- أي اللغة المحكية- رونقًا محببًا للنفس، ولا يتناقض مع وحدة اللغة التي تتجسد في هذه العربية السليمة أو الفصحى في الكتابة والخطابة والحوار والمناظرة والمسرحيات والروايات والأحاديث، في وسائل الاتصالات السمعية والمرئية ...ولا أعتقد أن هناك عاقلاً يقول بأن الوحدة اللغوية تقضي بفرض لهجة معينة على جميع الأقطار، وإزالة اللهجات الأخرى.

أما العامية، أيها العلماء الأجلاء، فقد انحرفت عن العربية الفصحى،واتخذت طوابع الأقطار المختلفة، ويبتعد مسارها عن ثوابت الفصحى كلما غاصت الأمة العربية في الجهل والتخلف ... فنشأت لغات عامية في جميع الأقطار العربية، وأصبح لكل منطقة أو مدينة عاميتها... ومن الواجب أن نفرق عندما نتحدث عن العامية، بين المفردات والألفاظ التي يعبر بها عامة الناس عما يستخدمونه من أدوات حياتهم اليومية

وآلاتها ومستلزماتها، مهما كانت أصولها، وبين العامية في تراكيبها بنحوها وصـــرفها ومفاهيمها الجلفة وفكرها الضيق، وتعابيرها البدائية.

وإن إنشاء المجامع اللغوية العربية، قد جاء منذ بداية القرن العشرين، للمحافظـــة على سلامة اللغة العربية، وليس لنا لغة عربية سوى اللغـــة الفـــصحى لغـــة العروبـــة والإسلام، بثوابتها الأصيلة، في قواعد نظمها ولفظها.

وربما كان من المفيد فى هذه الكلمة أن نستعرض قضية الحرص على سلامة اللغة التي رعتها المجامع اللغوية العربية، ونصت عليها جميع قوانينها.

فقد أصدر رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق منشورًا في شهر أيلول (سبتمبر) ســـنة ١٩١٩م باللغـــتين العربية والفرنسية، وأرسله للمجلات والمجـــامع في الـــشرق والغرب... وقد حدَّد أغراض المجمع، وكان الغرض الأول:

١-النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية، ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتهـــا، وتعريب ما ينفعها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوربية، وتـــأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع على نمط جديد(*).

وقد تبنى المجمع العلمي العربي، منذ إنشائه نشر اللغة الفصحى، كتابة وإنشاءً ونطقًـــا ومحاورةً.

وفي عام ١٩٢٨م، وعلى الرغم من الاحتلال الأجنبي، صدر القرار رقـــم ١٣٥ بتاريخ ٨أيار، وقد جاء في المادة الأولى: "المجمع العلمي العربي جمعية علمـــاء غايتـــها ومهمتها حفظ اللغة العربية وترقيتها ...".

وفي المرسوم التشريعي رقم (٩٠)، الصادر في دمشق بتاريخ ٢١من شعبان سنة ١٣٦٦هـــ، و٣٠ من حزيران سنة ١٩٤٧م، نصت المادة الثانيـــة على "غاية المجمـــع

(*) انظر: تاريخ المجمع العلمي، أحمد الشيخ، ص٩- دمشق- ١٣٧٥ هـــ - ١٩٥٦م.

العلمي العربي" ... على الوجه الآتي: "ب: البحث في علوم اللغة العربية، والحرص على سلامتها وجعلها تتسع للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة ".

وجاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي أنشئ سنة ١٩٣٢م، وفي جميع التعديلات التي حدثت، ليؤكد الأهداف الأساسية التي أنشئ من أجلها هذا المجمع، مثال ذلك: ما نصت عليه المادة الثانية من قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة رقم (١١٤٤) سنة ١٩٦٠م، تحت عنوان: أغراض المجمع ووسائله:

أولاً – الأغراض:

أ-المحافظة على سلامة اللغة العربية، والحرص على وفائها بمطالب العلوم والفنون في تقدمها وملاءمتها لحاجات الحياة في العصر الحديث.

ب-توحيد المصطلحات في اللغة العربية.

وعندما تحدث هذا القرار عن الوسائل، ذكر ما نصه:

– الدراسة العلمية للهجات العربية الحديثة في الأقطار المختلفة، وللكلمات والأعلام العربية في اللغات الأجنبية، وذلك لخدمة الفصحى والبحث العلمي.

وإنه لمن الواضح أن هناك فرقًا بعيدًا بين مفهوم اللهجات العربية الحديثة وبين مفهوم العاميات في الأقطار العربية في العصر الحديث.

وجاء – في قانون رقم ١٤ سنة ١٩٨٢م، الذي صدر برئاسة الجمهورية في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٤٠٢هـ (٩ مارس سنة ١٩٨٢م) في المادة (٢) – ما نصه:

مادة (٢) – أغراض المجمع هي:

أ – المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب العلوم والآداب والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة.

د-دراسة اللهجات العربية قديمها وحديثها دراسة علمية لخدمة الفصحى والبحث العلمي.

ز- توصية الجهات المختصة باتخاذ ما يكفل الانتفاع بما ينتهي إليه المجمع لخدمة سلامة اللغة، وتيسير تعميمها وانتشارها وتوحيد ما فيها من مصطلحات. وكان الحفاظ على سلامة اللغة العربية، ومازال، محور قوانين المجامع اللغوية العربية؛ ففي قانون المجمع العلمي العراقي رقم (٦٤) سنة ١٩٧٧م، جاءت المواد الأولى على الوجه التالي:

المادة الأولى: — تلتزم الوزارات وما يتبعها من الدوائر الرسمية وشبه الرسمية والمؤسسات والمصالح والشركات العامة وكذلك الجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية، واعتمادها في وثائقها ومعاملاتها؛ وذلك بجعل اللغة العربية وافية بأغراضها القومية والحضارية.

المادة الثانية: — على المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم، وعليها أن تحرص على سلامتها، لفظًا وكتابة، وتنشئة الطلاب على حسن التعبير والتفكير بها، وإدراك مزاياها والاعتزاز بها.

وجاءت المادة الثالثة – لتؤكد الاتجاه نفسه، وهي تنصُّ صراحة على عدم جواز استعمال العامية.

ومما يستحق الوقوف عنده ما جاء من الأسباب الموجبة لوضع هذا القانون. وهذا نصُّه: "ولما كانت غلبة العامية على العربية الفصيحة أثرًا من آثار التخلف والجهل، وسمة من سمات الأمية، وعاملاً من عوامل الفرقة والتجزئة، ومعوقًا من معوقات انتشار التعليم، ويقظة الوعي القومي والجهود المنظمة نحو ثقافة الجماهير... (*) ".

وحذا مجمع اللغة العربية الأردني حذو المجامع الشقيقة منذ تأسيسه سنة ١٩٧٦م، فقد جاءت المادة (٤) من قانون مجمع اللغة العربية الأردني على النحو الآتي:

(*) انظر: قانون رقم (٦٤) سنة ١٩٧٧م، قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية.

يعمل المجمع على تحقيق الأهداف التالية:

أ- الحفاظ على سلامة اللغة العربية وجعلها تواكب متطلبات الآداب والعلوم والفنون الحديثة.

ب- توحيد مصطلحات العلوم والآداب والفنون، ووضع المعاجم والمشاركة في ذلك بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم والمؤسسات العلمية والثقافية داخل المملكة وخارجها.

جـ- إحياء التراث العربي والإسلامي في اللغة والعلوم والآداب والفنون.

ونحن نرى في هذه الكلمة العجلى كيف أن جميع المجامع اللغوية العربية تجمع على المحافظة على سلامة اللغة العربية ... وعندما نتحدث عن سلامة اللغة العربية، لا نتحدث عن تيار المجابهة بين العامية، بل العاميات أمام اللغة العربية الفصحى. وإنه لما يثير في نفوسنا الحزن والأسى، أن نجد تشجيع العاميات يستشري في جميع الأقطار العربية، لاسيما في معظم برامج التلفاز والإذاعة المسموعة، من خلال التمثيليات والمسلسلات والروايات والأحاديث، وإن الدَّارس للسياسات غير المعلنة، في دعم العاميات والنَّيل من اللغة الفصحى في الأقطار العربية يهوله الأمر ويرى- دون أن نظلم أحدًا - أنها سياسات تصب في اتجاه الفرقة والتمزق، بل وباتجاه التأخر والتبعية الأجنبية. وقد بلغ الحدُّ إلى إصدار المجلات والنشرات باللغة العامية في بعض الأقطار العربية.

وإنني في هذه الكلمة، لا أقصد الحظر على دراسة أي موضوع من الموضوعات اللغوية أو غيرها، فالدراسات العلمية يرحب بها في كل مجال، وحرية الفكر والرأي ركيزة تقدم الأمم ونهضتها ...ولكني أردت أن أبين وجوب تحديد مفاهيم قضايا تمس أمتنا العربية في هويتها وفي جوهر وجودها، فمن الواجب أن نفرق في

أحاديثنا بين اللغة الفصحى والفصيحة أو السليمة، وبين اللهجات، والعاميات ... وأن نفرق بين اللغة المكتوبة، واللغة المحكية أو لغة التخاطب ... فاللغة المحكيـة لا تعـني بالضرورة اللغة العامية... وهي تختلف عن اللغة المكتوبة في جميع اللغات ولا أستثني لغة من اللغات.

وخلاصة القول، فالعاميات العربية أثر من آثار التخلف والجهل، وسمـة مـن سمات الأمية وعامل من عوامل الفرقة والتجزئة، ومعوق من معوقات انتشـار التعـليم ويقـظة الوعي الوطني والقومي. وأن هذه العاميات تحمل فكرًا محـدودًا ومفاهـيم جلـفة، لا يتذوقها إلا جماعة محدودة من الناس. ولا أعدو الـصواب إذا قلـت: إن السبيل الوحيد لمعالجة هذه القضية اللغوية الخطيرة، يتمثل بانتشار التعليم الذي يقـوم على سياسة لغوية سليمة، تجعل من معلّم كل مادة، معلم لغة، يقدمها سليمة لطلابـه، بأسلوب يحبِّب لغتهم إليهم، ويثير في نفوسهم الحب والاعتزاز بهذه اللغة الخالدة، وأن يشمل التعليم جميع شرائح المجتمع في كل قطر عربي... وأن تكون العربية الفصيحة لغة جميع مؤسسات الدولة ولغة المؤسسات التجارية والصناعية وجميع مرافق الحياة.

والسلام عليكم ورحمة الله،

* * *

الفصحى والعامية في رحاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٤٣م – ١٩٦٠م) أزمة مزمنة (*)

للدكتور محمد رشاد الحمزاوي
(عضو المجمع المراسل)

١-١- مدخل:

لقد آثرت أن أسهم في القضية المطروحة في هذه الدورة [١] بالعودة إلى ما قيل فيها في رحاب المجمع، قبل ٦٥سنة مضت،إن اعتبرنا أن المجمع قد عالجها لمدة سنة تقريبًا، حسبما سجلناه من مداولاته وأعماله بمؤلفنا " أعمال مجمع اللغة العربية: مناهج ترقية اللغة تنظيرًا ومصطلحًا ومعجمًا[٢]" فلعلنا سنكتشف أننا نتحدث في قضية قد بت في أمرها ولا داعي إلى أن تعود حليمة [٣] إلى عادتها القديمة. ولعلنا سنلاحظ أننا أمام قضية طبيعية مزمنة لم تنزل حق منزلتها من الدرس والتعمق في نطاق اللهجات البحت، طبقًا لما تستوجبه الدراسات اللسانية الحديثة التي زودتنا بمفاهيم وآليات تستحق العناية. ولعلنا كذلك سنستخلص منها أننا نظرنا إلى قضية اللهجات نظرة مُقَنَّعَة تنكر هذه الظاهرة الكونية التي واجهتها وستظل تواجهها كل اللغات لا سيما الكبرى والحضارية منها مثل العربية، ولعلنا ما زلنا نطرحُ القضية مثلما طرحها المتقدمون من المجمعيين، وحتى من القدماء... ولعل... ولعل... إن هذه الاحتمالات واردة بالمقارنة بين مواقف الأمس وما عسى أن يظهر منها اليوم، لاسيما ونحن مدعوون إلى محاسبة المجمع – وبالأحرى أنفسنا على الالتزام بأهداف دستوره التي تفترض أن يوفق بين عنصرين يبدوان متناقضين، وكأننا باللغة تعكس معادلاتنا

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الرابعة عشرة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين، يوم الأحد الموافق ٢١ من مارس سنة ١٩٩٩م، ونشر بمجلة المجمع، بالعدد التسعين، ص ٢٣٧.

(١) وموضوعها "الفصحى والعامية".

(٢) محمد رشاد الحمزاوى: أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة – دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٩٨م، ص ٦٧٣.

(٣) وفي المشرق العربي "ريمة".

الصعبة في ميادين أخرى وعجزنا عن الخروج منها.. ويتمثلان في المحافظة على سلامة اللغة مع جعلها وافية بمتطلبات العلوم، وبمواكبة العصر بكل مظاهره البارزة ومنها اللهجات.

ولقد استعنا في محاولتنا هذه بكل ما وفره المجمع من وثائق رسمية وعلمية ومجمعية: دساتيره ولوائحها ومحاضره ومجلاته المختلفة، وترجمات أعضائه وتدوينات تاريخه. وهي تفيدنا بأن المجمع قد عالج القضية في محاور أربعة استخلصناها من مقارنات متداخلة ومتناثرة أحيانًا، وعلى نقاط تستحق النظر وتدور حول:

(١) القضية: أهدافها ووسائلها.

(٢) معركة المفاهيم والمصطلحات.

(٣) فتح باب السماع من المحدثين.

(٤) معجم العامية وأصواتها ونحوها.

١-٢: الأهداف والوسائل: الملاحظ أن هذه القضية قد نزلت سنة ١٩٣٤م منزلة القضايا اللغوية الجوهرية الأساسية[١] مثل إصلاح الكتابة وتيسير النحو ومساواتها بها. ويعد ذلك نقلة نوعية في تاريخ الدراسات اللغوية العربية وبالأحرى في الجدل اللغوي وما أشده وما أكثره في هذا الحقل المتفجر منه؛ لأن المجمع كان أول مؤسسة عربية رسمية يسبح دستورها بهذا النوع من الجدل الذي يرى فيه بعضهم خرقًا لتقاليد راسخة تكاد تكون مقدسة.

وخلافًا لعنوان دورتنا الحاضرة " الفصحى والعامية " المطروح سنة ١٩٩٩م، فإن الموضوع قد طرح تحت عنوان آخر يفيد مفهومًا مغايرًا وهو "دراسة اللهجات دراسة علمية".ولا شك في أن مصطلح " العامية " يعبر من خلال المقارنة بين العنوانين عن حكم يكاد يكون مسبقًا- إن لم نقل عن مواقف فيها دونية بقدر ما جاء سابقه وصفيًّا حياديًّا يطلب دراسة موضوعية علمية يمكن أن يحكم بمقتضاها للهجات أو عليها.

---

(١) ومنها كذلك المصطلحات العلمية، والمعاجم بأنواعها.

جاءت مسألتنا مذكورة في دستور المجمع، وفي لائحته المطبقة له، وعرض أمرها مبكرًا في الدورة الأولى بالجلستين الثانية والرابعة، بتاريخي ٢ ، ٤ فبراير ١٩٢٤م، وتكونت لجنة اللهجات وما وراءها من خلفيات، وطرحت أهدافها وما كان لها من قراءات. ويكفينا هنا أن نشير إلى أن تسميتها وتركيبتها كانتا محل أخذ ورد ودقة وحيطة فلقد ألحقت بلجنة المعجم التاريخي، ثم بلجنتي الآداب والعلوم الاجتماعية والفلسفية، دون أن يفكر بتاتًا في ربطها بلجنة الأصول مثلاً، ومالها من حالات وثيقة بها. وتجاذبتها تيارات لغوية وذهنية أولها تراثي محافظ منه الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ إبراهيم حمروش، والأب أنستاس مارى الكرملي، وثانيها استشراقي متعاطف، منه: إينوليتمان، وهملتون جب، وأوغيست فيشر، وثالثها وسطي معتدل، منه: حسن حسني عبد الوهاب تعويضًا لعلي الجارم وتمثيلاً للمغرب العربي، وعيسى إسكندر المعلوف.وكان لأغلبهم صلة وثيقة بالموضوع مما تشهد به أعمالهم السابقة واللاحقة[1](٥).

ولقد طرأ على تركيبة اللجنة وأهدافها ومدولاتها تغييرات وأحداث، منها أنه لم يبق فيها من الشيوخ إلا الشيخ حسين والى، عندما تسلم رئاستها فارس نمر، ومرت بمجادلات كادت تعصف بها، ولا سيما في الدورة الرابعة التي بلغ فيها الخلاف أشده، مما دعا المجمع إلى عدم نشر محاضر جلسات تلك الدورة حفاظًا على سمعة المجمعيين الذين طرحوا القضية على البرلمان. ولقد حافظ المجمع حتى في العهد الجمهوري على دراسة اللهجات العربية التي أصبحت لجنتها تدعى: لجنة " اللهجات والنصوص القديمة". وقدمت في مختلف حقبها مشاريع متنوعة دون أن ينفذ منها الكثير. فمنها ما دعا إلى دراسة اللهجات العربية كلها صوتًا وصرفًا ونحوًا ومعجمًا بالاعتماد على

(١) ونذكر على سبيل المثال:

(أ) عيسى إسكندر المعلوف: اللغة العربية العامية، مجلة المجمع ١/٣٥٠ - ٣٦٠.

(ب) حسن حسني عبد الوهاب: تحقيق "الجمانة في إزالة الرطانة" لمجهول عن اللهجات في تونس والأندلس.

وقد خصص نلينو دراسة للهجة المصرية سنة ١٨٩٤. واكتشف نلينو نصوصًا صفائية وثمودية حل ألغازها لأول مرة.

مبادئ القراءات القرآنية، ووضع أطالس ومعاجم لها واستقراء خصائصها مع تزويد الدارسين بكل الوسائل المطلوبة، ومنها ما قصرها على اللهجة المصرية والاستفادة منها.

و لم يمنع هذان المنهجان المجمعيين من غير أعضاء اللجنة من الإسهام في الموضوع بطرح مبادرات جريئة، تجاوزت اللجنة، و لم يكن لها كذلك أثر عميق في معالجة الأزمة القائمة، مما تدل عليه عودتنا إليها اليوم.

فكيف طرحت القضية قانونيًّا ولغويًّا؟ بادر الشيخان محمد الخضر حسين، وأحمد عيسى الإسكندري[١] إلى تخريج البندين القانونيين المتعلقين باللهجات تخريجًا مفاده أن المراد منها: إرجاع الألفاظ العامية إلى أصولها العربية الفصيحة الصحيحة، أسوة بعمل أحمد تيمور باشا في مؤلفه "معجم الألفاظ العامية" مما يفترض وجوبًا أن تقتصر العملية على التهذيب والتصويب وأن تستبعد "العامية" التي عوضت مصطلح "اللهجات" من أداء أية وظيفة لغوية أو تربوية أو أدبية جمالية وحتى علمية مصطلحية. وخالف هذا الرأي كل من فارس نمر، وعيسى إسكندر المعلوف، ونلينو الذين أكدوا على أهمية اللهجات وأدبيَّاتها وآدابها، مثل: ألف ليلة وليلة والموشحات ...إلخ، وعلى جدوى أصواتها وصرفها ونحوها في إدراك مفهوم الفصاحة التي غبتها المعاجم الكبرى[٢]. وقد نحا منحاهم تقريبًا الشيخ عبد القادر المغربي الذي أكد على أن هذه الدراسة كفيلة بأن تساعد على وضع أسس "لغة وسط" بين الفصحى والعامية. ودعا محمد كرد[٣] على بتأييد من الشيخ أحمد عيسى "العدو الأزرق" للتعريب[٤] ومن لفَّ لفّه – إلى رفض العامية، والتفكير في فصحى بدون إعراب[٥].

---

(١) محاضر الجلسات ١/٢٧وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه١/٢٨٧.

(٤) نفسه ص ٢٩٢ – ٢٩٣.

(٥) وقد وسمه بذلك الوصف الأمير مصطفى الشهابي في كتابه" المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث" القاهرة ١٩٦٥م.

إن هذه الآراء تبدو جريئة إلى حد ما؛ لأنها لم تلتزم بالرفض المطلق، ودعت إلى حلول وسطى ظهرت في رحاب المجمع، الذي كان في غالب الأحيان وفى بداية طرح القضية برلمان لغويًّا مفتوحًا يتقابل فيه الرأي والرأي المخالف في نطاق آداب حوارية أكد عليها بوجه خاص في أدبياته، لاسيما المتعلقة منها بمواصفات المجمعيِّ وهى تدور حول مفاهيم وأخلاقيات مثل: " البحث والتنقيب، وتحرى الحقيقة والصواب، والجهد الطويل والعشق والصدق، وطمأنينة العلماء[1]" وهى شبيهة بما ورد منها تقريبًا بدستور المجمع الفرنسي الذي يطلب من المجمعي أن يحتج للقضايا جهرًا وبعمق دون مقاطعة ولا غيرة، ودون التعليق على رأى الغير بحماس وسخرية[2]" كان ذلك في البداية ...!!

١-٣ معركة المصطلحات: تركزت القضية لغويًّا في أول أمرها حول معركة المصطلحات ومفاهيمها وما وراءها من خلفيات وذهنيات معرفية وثقافية سيكون لها آثار في استجلاء الرؤى، وضبط مواطن الاتفاق والاختلاف، ومنها تحقيق المقاصد والأهداف، فلقد دارت المجادلة أولاً حول الفصيح والفصاحة والعامي والعامية تغلب عليها التخريج التراثي في تعريف الفصيح، ومفاده حسب رأى الشيخ أحمد عيسى الإسكندري "فهو كلام العرب الذين يعتد بعربيتهم "[3]، زمانهم ومكانهم محددان بالقرن الثاني في المدن والثالث في البوادي، وقيل: الثالث والرابع، يبدأ بعدها المولد، وقد عرفه الشيخ حسين والي" وسمى المولد من الكلام مولدًا إذا استخدموه و لم يكن من كلامهم فيما مضى[4]" ولقد عزز رأيه برأي السيوطى الذي أدخل في الحلبة مفهومًا عرفيًّا جديدًا وهو المصنوع، فقال: "والمولد هو ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم. والفرق بينه وبين المصنوع أن المصنوع يورده صاحبه على أنه عربي فصيح[5]".

---

(١) محاضر الجلسات ٣٩٣/١.

(٢) مجلة المجمع ٣/٤، ١٧٣، ٤/٥، ٨٣، ١٨٧.

(٣) بليسون ودولفي ــ تاريخ المجمع الفرنسي، باريس ١٨٥٨ جزء ٤٩١/١

(٤) محاضر الجلسات ٣٠٣/١.

(٥) محمد رشاد الحمزاوى: أعمال مجمع القاهرة ص ٢٦٧.

وزودنا الشيخ عبد القادر المغربي بمفاجأة طريفة كعادته عندما عرض على أهل الذكر والمجمعيين مسألة استفتائية رائدة في مبدئها، مُعتمدة اليوم في الدراسات اللغوية[١] الميدانية وسماها الكلمات القاموسية، صنفها إلى سبعة منها خمسة فصيحة يمتد زمانها حتى زمن الشيخ محمد عبده، يلحق بها صنف سادس يتعلق بما سماه "تعريب الأساليب[٢]" أما السابع فهو يشمل الكلمات التي يستعملها العوام، وهو عنده فصيح؛ لأنه مطرد الاستعمال، والاطراد حجة في هذا المجال اعتمادًا على القدماء[٣].

واصطدم مفهوم العامي بمفهوم المتروك، اعتمادًا على اقتراح من علي الجارم يهدف منه إلى تعويض المتروك المهجور المعاش بالعامي المطرد. ومثال ذلك تعويض "**الصُّنْبُور**" وهو النخلة النابتة في جذع نخلة أم بـ "**حنفية الماء**" و "**المُشير**" بـ"**عقرب الساعة**" و"**الحلاَّق**" بـ "**المُزَين**" ... إلخ، وإن كانت هذه الأمثلة تنسب إلى المولد الحديث أكثر منها إلى العامي الصريح صوتًا وصرفًا ونحوًا.

ورد على هذه المقاربات كثير من المجمعيين، ومنهم منصور فهمي[٤] نيابة عنهم باعتبار أن هذه التعريفات وما وراءها من حدود زمانية ومكانية مصطنعة حتى في حدود الفصاحة ذاتها، فلقد خرقها الجرجاني وابن هشام بالاحتجاج بشعر المتنبي [٥] في كتابيهما الوساطة ومغني اللبيب، كما خرقها الرضي الاستراباذي في المفصل، وفي تعليقه على كافية ابن الحاجب. وتمخضت هذه المجادلة عن قرار للمجمع يعد خطوة إلى الأمام يؤسس للمولد ويدعمه نسبيًّا معتبرًا أن المولد نوعان: أولهما: ما استنبطوه لاعتماد طرق الكلام العربي، ومنها المجاز والاشتقاق، وهو عربي يعتد به. وثانيهما: ما

(١) السيوطي، المزهر ١/٣٣٤.

(٢) محاضر الجلسات١/٢٩٤، ٣٢١، ٣٣٠.

(٣) وهو يعني بها نقل أساليب تعبيرية أعجمية بلغة عربية مستقيمة مثل:"لا جديد تحت الشمس" و"أعطاه فرمانًا أبيض".

(٤) محاضر الجلسات ١/١٨٥، ٢٥٧. ولقد سبق لأبي عمرو بن العلاء أن قال في الفصيح:"هو ما يحمل على الكثير".

(٥) نفسه ٧/٣١٣.

اعتمدوه سواء باستعمال لفظ أعجمي لم يعرب أو لفظ قد تغير صوتًا ودلالة لا يصوب أو لفظ مرتجل[١]. وذلك ما أكد عليه الشيخ أحمد الإسكندري، عند احتجاجه لقرارات المجمع معتبرًا أن إدارج العامية في المسرح والرواية والصحافة خرق لقواعد اللغة وموازينها وسلامتها. والحجة هنا تبدو لغوية بقدر ما هي دستورية تعتمد على عنصر من عناصر المعادلة المذكورة سابقًا، وهو المحافظة على سلامة اللغة — دون اعتبار للواقع اللغوي الغالب السائد في المجتمعات العربية المعاصرة.

والملاحظ في هذا الشأن أن هذا القرار قد خطا خطوة بالقضية إلى الأمام؛ لأنه تجاوز موقف السيوطي السابق الرافض للاحتجاج بالمولد الذي نزل منزلة فصيح حديث من درجة ثانية، ليست له درجة الامتياز التي يتتبع بها الفصيح الشعري الجاهلي العرقي وما لف لفه على سبيل المقاربة والنمذجة[٢]. فكأننا في حرب مواقع يتخلى عنها أصحابها بمرارة تحت ضغط كبير تفرضه نسبية المصطلحات السابقة حتى في حدود الفصاحة التراثية وفي مواجهة الواقع اللغوي المواكب سواء المولد منه أو العامي. ولقد سعى المجمع إلى أن يتجاوز هذه المرحلة من الفصيح الأفصح والفصيح المولد إلى العربي المعياري المقيس دون اعتبار للزمان والمكان، ومفاده: أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب دون سواه. وهو مبدأ سبق للمازني أن عبر عنه من زمان وأورده ابن جني في خصائصه، وطبق له المجمع فيما بعد في معجمه الوسيط بإدراج مفاهيم مثل: المعرب والدخيل والمحدث والمجمعي التي أشرنا إلى إشكالاتها في غير هذا المكان[٣].

وبهذا القرار يبدو أن الجدل قد اكتمل على الأقل في مستوى التراشق بالمصطلحات، وانتهى بطرد العامية من الحلبة، وذلك من خلال مقاربتين إحداهما بينت أن المعركة كانت تستلزم تصفية الحسابات بين أنصار الفصاحة، وذلك بتجاوز متناقضاتها الداخلية وبالوصول إلى مفهوم المقيس بدون زمان ولا مكان، وهو ما يعتبر

---

(١) نفسه ١/٣٣٠.

(٢) محمد رشاد الحمزاوي: أعمال مجمع القاهرة ص ١٨٣.

(٣) محمد رشاد الحمزاوي: المعربات والدخيلات في المعجم الوسيط– حرف الباء عينة – مجلة المجمع ١٩٩٧.

كسبًا لغويًّا ومنهجيًّا مفيدًا. أما المقاربة الثانية، وهى فرع من الأولى فهي تقول على كل حال بلغة مثالية صافية مكتوبة نخبية تدعى الفصحى، وبعضهم يسميها الفصيحة لتجابه لغة ملوثة منطوقة جماهيرية تدعى اللهجة، وبعضهم يصر على تسميتها بالعامية. ويبدو أن الكفة كانت لصالح "الصفاء المعدل على حساب "التلوث" وإن كانت معدلة[١] كما نبهنا إلى ذلك فيما سبق...

١-٤ السماع من المحدثين: تجسمت العودة إلى الجدل إثر حدث لغوى مهم طرحه أديب كاتب وصحافي مشهور بدا له أن الحلول السابقة لا تفي بالغرض ولا تشفى الغليل، وهو يعيش ثلاثية لغوية في جميع مستويات سلوكه اللغوي: لغات الأدب والصحافة والشارع. ونعني به أحمد حسن الزيات الذي فجر القضية " من جديد في بحث مشهور عنوانه: "الوضع اللغوي وحق المحدثين في[٢]" طرح فيه منزلة المحدثين من التصرف في السيادة اللغوية في جميع وجوهها فصحى وعامية ومن حق تقرير مصيرها على ضوء ماضيها وتجاربها وباعتبار مواكبة العصر ومستلزماته، وصلة اللغة بالواقع المعيش فضلاً عن التناقض القائم الذي يقر للأموات التشريع في اللغة باسم الأحياء مؤكدًا على أن مفهوم الفصاحة مفهوم نُخبي لأن ٩٠٪ من أمة العرب في عهدها المجيد كانوا يتكلمون العامية، وليس لهم صلة بمفهوم الفصاحة القديمة، وذلك شأنهم اليوم مما يحتم فتح الوضع من جديد وتمكين المحدثين منه سواء بسواء مع القدامى وأكثر منهم. ولقد أيد هذه النزعة محمود تيمور في بحث عنوانه "لغة المجتمع في ميدان الفن والإبداع[٣]"، وآزرهما مصطفى الشهابي فيما يتعلق بلغة المصطلحات العلمية والفنية في بحثه "المولد والعامي في علوم الزراعة والمواليد[٤]" وكان مفاد مقاربة الزيات وحججها

---

(١) محمد رشاد الحمزاوي: العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات - بيت الحكمة ـــ بيروت ١٩٨٦م حيث أسسنا لمفهوم الفصاحة فصاحات منذ زمان، وقد أخذ عنا كثير من الناس بهذا المفهوم دون الإشارة إلينا انظر مثلاً مقدمة معجم "الفصيح العام" لأحمد موسى في لبنان.

(٢) أحمد حسن الزيات: الوضع اللغوي وهل للمحدثين حق فيه؟- مجلة المجمع ١٨/١١٠، ١١٦.

(٣) محمود تيمور: لغة المجتمع - مجلة المجمع ١٩/٩-٣١.

(٤) مصطفى الشهابي: المولد والعامي في علوم الزراعة والمواليد، مجلة المجمع ١٣/٩١-٩٤.

النافذة تجاوز معركة المصطلحات ومفاهيمها وقياساتها، وفتح باب السماع من جديد على مصراعيه للصيغ المقيسة وغير المقيسة، وتحرير ذلك السماع من الحدود الزمانية والمكانية، والأخذ من المحدثين من جميع أصنافهم لا سيما أهل الذكر وأصحاب الحرف والمهن والعلوم والفنون المعاصرين. فلقد دعا إلى وصف اللغة من جديد في جميع مستوياتها لبنائها على أسس حديثة ملتصقةٍ بالواقع متفاعلة معه، موفقة بنسبة كبيرة بين نخبتها وعامتها كما هو الشأن في اللغات الرائدة التي وعت هذا الصنف من الأزمات اللغوية الفكرية والخطرية في إبانها، ووجدت لها الحلول الصعبة المناسبة.

وراء هذه المقاربة ما وراءها لو طبقت لكان وقفًا شديدًا، إذ إنها تقر لأول مرة استقراء اللغة ووصفها بعد سيبويه منذ ما يقرب من اثني عشر قرنًا، ولعلها تفتح لكتابة التراث بلغة جديدة على غرار اللغة اللاتينية التي كتب تراثها بلغات مختلفة منها الفرنسية والإنجليزية اللتان كتبتا أيضًا من جديد مسرح موليير وشكسبير؛ لأنهما تراجعان بعد كل نصف قرن، ويدخل عليهما ما يقره المطرد الشائع مع وصف المتروك في المعاجم التأصيلية التاريخية، فكيف سنقرأ الجاحظ إن طبقنا ذلك على العربية؟ وما كان موقف المجمع منها؟أصدر المجمع قرارين[1] يؤسسان للأخذ من العامية مبدئيًّا، ويؤكد أن دراسة الألفاظ الشائعة وقبول السماع من المحدثين شريطة أن تدرس كل كلمة على حدة وألا يكون لها مقابل عربي وأن تكون مستساغة.

وتلك سنة المجمع إلى عهد قريب فيما يبدو، يفتح الأبواب للمهج والآمال ويعدل الأقوال من خلال المواقف والأعمال. ولا شك في أن هذين القرارين يمثلان خطوة إن لم نقل التزامًا بالدور الذي تحتله اللهجات في حياة الناس اليومية السياسية والثقافية في فترة من تاريخ مصر والعالم العربي قد حظيت فيه الجماهير وتعلمها وتربيتها وثقافتها وحقوقها الدستورية والاجتماعية [2]بمكانة مهمة، تبوئ لغاتها وآدابها الشعبية وحكَمَها منزلة متقدمة كان لها ولا شك صداها النسبي في هذه المقاربات التي طوعها المجمع

(١) مجمع اللغة العربية: مجموعة القرارات، القاهرة ١٩٦٣ ص ١٣.

(٢) التمذهب الوحدوي الاشتراكي الذي أسست له الناصرية كان له لا محالة أثر كبير على هذه المواقف.

إلى فصاحة مفتوحة، وإن على حذر، مما يشهد بالجهود المتواضعة من أجل التوفيق بين التراث والحداثة. ولا شك في أن هذه المواقف وما وراءها من خلفيات قد ساعدت على تطور الذهنيات ووجهتها إلى طرح مشاريع عملية.

١-٥ اللهجات: رصيدها وأطالسها ونظامها:

الطريف في هذا المستوى أن هذه الفكرة قد مهدت لها مواقف رسمية وأخرى مجمعية كانت من قبل مشددة، منها أن محمد كرد على نبه إلى "عجائب اللهجات [١]" وما يمكن أن يستفاد منها ومن رصيدها اللغوي على غرار المعاجم الأوربية في هذا الميدان الذي ولجه عباس محمود العقاد بمقاربة عنوانها "أمالٍ من اللهجات العامية آمال[٢]" فضلاً عما دعا إليه باستمرار الشيخ عبد القادر المغربي والأمير مصطفى الشهابي لسد ثغرات معاجمنا الأمهات في الميادين المهنية والحرفية. ونبه مجمعيون آخرون إلى العناية بمظهر من اللهجات ومستوى من مستوياتها يتعلق بالمغرب الشعبي ودخيله اللذين كثيرًا ما دخلا العربية عن سبيل لهجاتها. ولقد احتج لذلك عبد الوهاب عزام في بحثه عن "الألفاظ الفارسية والتركية[٣]" والشيخ محمد الفارسي في بحثه[٤] عن "الأمثال المغربية والأستاذ أ. أمين في بحثه "كلمات من اللهجات السودانية[٥]" وغيرهم كثير من المجمعيين الخالدين، مما يشهد بعروبية القضية وأهميتها وشدة الأزمة والطمع في رؤية منصفة منقذة.

والغريب في الأمر أن هذه المقترحات قد تجسمت في مشاريع من خارج المجمع دفعت بها إليه وزارة التربية المصرية، منها مشروعان يتعلقان بالنظر في معجميْن:

أ- معجم الألفاظ العامية لأحمد تيمور باشا، وهو حسب رأى نلينو معجم مفتاح يشتمل على الألفاظ العامية وتفسيرها التاريخي والاجتماعي، ولم يصدر إلا سنة ١٩٦٠م.

---

(١) محمد كرد على:عجائب اللهجات، مجلة المجمع ١٣٧/٧.

(٢) محمود عباس العقاد: من اللهجات العامية آمال، مجلة المجمع ١٠٧/١٠- ١٠٩.

(٣) عبد الوهاب عزام: الألفاظ الفارسية، مجلة المجمع ٣٦٢/٨-٣٦٥.

(٤) محمد الفاسي: الأمثال المغربية، بحوث ومحاضرات ١٩٦٠-١٩٦١ ص ٢٠٤ -٢١٦.

(٥) أ.أمين: كلمات من اللهجات السودانية: مجلة المجمع ١٢٢/٩-١٢٤.

ب - معجم أصول الكلمات العامية في اللغة العربية لأحمد عيسى وزير التربية سـابقًا والذي كانت له أياد بيضاء على تأسيس المجمع ودعم مشاريعه.

وتعد عناية المجمع بهذين المعجمين غنيمة للطرفين المتنازعين، فلقد دخلت العامية المجمع من بابه الرسمي، وإن كان بإيعاز من الوزارة المشرفة شريطة أن تقاس بمقـاييس الفصحى، وأن ترجع إلى أصولها حتى وإن اشتد الخلاف في شأن تلـك الأصـول وفي جدوى هذه المنهجية، من ذلك الخلاف حول أصل "برتع" و" يتدحدح"، إذ نـسبت الأولى إلى"بركع" والثانية إلى "دح الشيء" أخفاه. وكان في ذلك النقاش شجون وفنون وهموم [١]سيكون لها أثرها في المعجم الوسيط الذي ترخص استعمال العامي المفـصح المصري تحت راية المولد مثل "زعل من الشيء" غضب منه، و"مُزَيِّن" بمعنى حلاّق.

إن هذه المعاجم وما وراءها من مبادرات رسمية تعكس نظرية الفصيح والمولـد التي تقر أن العامية لن تدرس لذاتها ولحد ذاتها مهما كانت المحاولات الرامية إلى ذلك، ومنها محاولة المجمعي محمد فريد أبو حديد في بحث كانت له أصداء في المجمع وخارجه وعنوانه " موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى[٢]" ولم يسلم صاحبه من اتهامات كثيرة منها تعويض لغة القرآن باللغة العامية[٣]. ومفاد مقاربته أنه نـزل اللهجة منـزلة اللغة واعتبرها مستقلة قواعد ومقاييسَ ومعجمًا وآدابًا عن الفصحى، فضلاً عن أن ظاهرها ليست بدعة وأنها لغة الحياة، والفصحى لغة الدراسات، مما يستدعي البحث عن مواطن تفاعلهما ولو أدى ذلك إلى القطيعة تجنبًا لحياة فكرية معزولة عـن الحيـاة الجماعية والاجتماعية فهل من حل؟

ركزت الجهود على وضع أطالس اللهجات ونظامها النحوي.ولقد بدت الفكرة معقولة؛ لأنها تقتصر على خرائط لغوية جغرافية ليس لها أثر تربوي أو أدبي أو علمـي فضلاً عن أنها تحقق مشاريع عملية مفيدة. فاقترح نلينو وضع أطالس شاملة للـهجات

(١) محاضر الجلسات:٤/١٣٧؛ ٣٨٤.

(٢) محمد فريد أبو حديد: موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى - مجلة المجمع٧/٢٠٥-٢١٨.

(٣) محيي الدين الخطيب: لغة القرآن والتطور، مجلة الفتـح عدد ٨٥٠، ١٣٦٦ ص ١-١٤.

تساعد على وضع نظام صوتي يضبط أسماء الأعلام والأماكن خدمة لمشروع أوسع وأشمل لغاية وضع نظام مجمعي صوتي عربي دولي[١] على غرار نظام كوبنهاجن العالمي لنقل الأعلام والأماكن والدخيلات المعربات من العربية وإليها نقلاً علميًّا. وعرضت مناهج كثيرة لتحقيق ذلك منها منهجية Griller الفرنسية ومنهجية Wenker الألمانية.

وتبع ذلك مشروع ثان للويس ماسينيون يدعو إلى أطلس مصري للحرف والمهن على غرار قاموس الصناعات الشامية للقاسمي. وأيد ذلك بتطبيقات وفقًا لمقاييس وضعها في هذا الشأن MAGET MAREEL سنة ١٩٤٩م. ودرس المجمع مشروعا ثالثًا قدمه خبيره في اللهجات شارل كوينز لأطلس مصري في إحدى عشرة لوحة صوتية وست عشرة لوحة صرفية وثلاث لوحات دلالية. ولم يطبق حسب علمنا لتلك المشاريع داخل المجمع إلا إذا أدرجنا في هذا السياق قرار المجمع بإجازة استعمال أسماء الشهور حسب الرزنامات الهجرية والرومية والسريانية والقبطية [٢] التي للعامية فيها نصيب مع تفضيل النطق الإنجليزي بها، وإن سبق لمصطفى الشهابي أن دعا إلى تفضيل النطق الفرنسي المعتمد في أغلب بلاد المغرب العربي.

وفي مستوى الأصوات عُرِض على المجمع مقترح قدمه المجمعي حسن حسني عبد الوهاب سعيًا إلى إقرار نطق عربي مشترك بها، وفضل الشيخ المغربي أن يعتمد على نظام العامية المصرية الصوتي. وفى هذا السياق زَكَّى المجمع مبدئيًّا مشروع خبيره خليل عساكر، وهو يتعلق بنظام لرسم أصوات العامية عالج فيه عِقْدَها الحَرَكي وجزءًا من أصواتها الساكنة.

وكان النَّحْو العنصر المغبون من القضية رغم ما قدمته لجنة اللهجات من اقتراحات تهدف إلى دراسة اللهجات صرفًا ونحوًا وأسلوبًا دون أن تقدم في ذلك مشروعًا واضحًا. فاقتصرت المبادرات على مجموعة من الرؤى والأفكار التي شملتها دراسة محمد فريد أبو حديد التي قبرت بدون رجعة.

---

(١) محمد رشاد الحمزاوى: أعمال مجمع اللغة العربية ص ٢٠٠-٢٢٠.

(٢) وقد استثنيت سورية من استعمال القبطية وهمشت مكانة المغرب العربي كالعادة.

فما عسانا نستخلص من الجدل المتعلق بدراسة اللهجات دراسة علمية من زمان والتي تعود إلينا اليوم تحت عنوان "الفصحى والعامية" رغم كل المحاولات السابقة؟ نلاحظ:

اقتراح مشاريع واتخاذ مبادرَات وقرارات قل أن استحالت إلى تطبيقات عملية، مما يفيد أن الجدل في صيغته المعتمدة لا طائل وراءه ويعود ذلك إلى:

(أ) موقف مبدئي صارم ميز بين لغة معيارية صافية ولهجة وليدة ملوثة كأنها معضلة يتحتم عودتها إلى الأصل دون اعتبار أن كل لغة كانت في أول أمرها لهجة قد حالفتها ظروف عقدية أو سياسية أو حضارية[1] وأن فصاحتها ستؤول، إن تحضرت وامتدت على مساحات كبرى واستعملتها شعوب كثيرة إلى فصاحات ولهجات لابدَّ من تدبر أمرها.

(ب) اعتماد مفاهيم مفاتيح مثل الفصيح الأفصح والمولد المخضرم أو المعاصر المولد منه.. إلخ، لدمج العامي فيها دون السعي إلى البحث عن مظاهر التفاعل بين اللغتين مثل اعتماد عجائب اللغات آمالاً لتنمية معجم الفصحى بمشترك العامية المطرد الشائع في الأقطار المستعملة لهما كتابة ونطقًا.

(جـ) انعدام دراسات متخصصة مكتملة تدرس فيها اللهجات لذاتها ولحد ذاتها من خلال عينات عربية متنوعة، تستخرج منها خصائصها بدون قيود ولا شروط مسبقة لتوفير فرصة تاريخية موضوعية لمقارنتها بالفصحى طمعًا في حلول ممكنة.

(د) استبعاد القضية باسم مبادئ عقدية وسياسية وثقافية لمعالجة قضية لغوية تعتبر العامية خطرًا على الفصحى، وبالتالي على القرآن الكريم والدين والوحدة العربية المنشودة، وما وراء ذلك من مواقف تصل إلى حد الاتهام بالكفر والخيانة والمؤامرة... إلخ، لكل من تجاسر على تقديم حلول لهذه المعضلة التي ستنال من الفصحى ولهجاتها إن استبد بها

[1] الملاحظ أن العربية انطلقت أساسًا من لهجة قريش التي نزل فيها جل القرآن. وذلك شأن الفرنسية النابعة من لهجة توران والإسبانية المتولدة من لغة عسكر قشتالة، والإيطالية من لهجة توسكانا ... إلخ.

التمذهب الذي وسمه بعضهم بخطر الفصحى على العربية [١] سواء بخطر العامية على الفصحى، مع ملاحظة أن العقيدة لا تنتشر بلغة واحدة وأن الأديان الكبرى التي جاءت للعالمين قد شملت المعمورة بدون مباني ودلالات لغات، وأن المسلمين غير الناطقين بالفصاحة العربية هم أكثر ملة الإسلام.

فهل مِن مقترحات تساعدنا على أن نتقدم؟ يبدو أن ذلك يكون بالمقارنة والتدرج من خلال:

(أ) نشر الدراسات والبحوث والقرارات التي صدرت عن المجمع لتكون نواة لدراسات مستقبلية.

(ب) دراسة اللهجات لذاتها ولحد ذاتها وتدريس خصائصها وآدابها في معاهد متخصصة تعنى بالآداب والفنون الشعبية والحرف والمهن.

(جـ) عقد ندوات عربية متخصصة يشارك فيها أهل الذكر من ميادين مختلفة لتصبح القضية قضية عربية إسلامية دولية؛ لاستصدار مقترحات وقرارات جماعية مبررة ومقنعة ونافعة، منها النظر في وصف جديد للعربية فصيحها وعاميتها في القديم والحديث في سبيل حلول ممكنة على ضوء الدراسات اللسانية الحديثة.

(د) استقراء معجم اللهجات المطرد والمشترك حسب حقب يتفق عليها، واستثماره لتنمية الفصحى وتطعيمها مبنًى ومعنًى.

(هـ) تخليص صلات الفصحى بجميع أنواعها باللهجات بجميع مستوياتها من الأحكام الازدرائية ومن القطيعة القائمة بينهما، وبالأحرى من الغربة التي تقبعان فيها لتتواصلا وتتكاملا؛ لأداء وظيفتين إحداهما ثقافية والأخرى اجتماعية مثلما تشهد بذلك هذه المقطوعة لبيرم التونسي التي تتفاعل فيها الفصحى ولهجتها المصرية فرحًا بالعودة من

(١) كان ذلك في مقالة مشهورة للروائي التونسي البشير خريف المشهور صاحب رواية "الدقلة في عراجينها".

الغربة إلى الأوطان، لا يقل وقعها عن وقع نفس المقطوعة لو كتبت كاملة بالفصحى مع العلم أنّ الشعر بشاعره، وهو هنا بيرم التونسي الذي يقول:

" غُلُبت أقطـــع تذاكـــــر
وشـــبـــعت يا رب غربـــة
بيـــن الـــشطوط والبواخـــر
وبين بلادنـــا وأوروبـــــة
في بورسعيـــــد الـــسفينـة
وقفـــت تِفـــرّغ وتِمْـــلاَ
والبياعــــين حَوَّطُونـــــا
بكَـــارتْ بَوستـــال وعُملة
لكـــن بوليـــس المدينـــة
ما تفوتش من جنبه نملـــة
يا بورســعيد والله حـــسرة
ولســـه يـــا إسكندرية
هتف بي هاتف وقـــال لـــي
انـــزل ومن غـــير عزومـة
انـــزل ساعـــة تَجَلّـــي
فيهـــا الشياطين في نومـــة
انـــزل ده ربـــك تَمـــلي
فوقك وفـــوق الحكومـــة
نطيـــت في ســـتر المهـــيمن
عالبـــر يـــا حكمداريـــة

وأقـــول لكم بالصراحة

اللــــي ف بْلادَنـــا قليلـــة

عشرين سنة في السياحة

بشوف مناظر جميلـــة

ما شفت يا قلبي راحـــة

في دى السنين الطويلـــة

إلا ما شفت البراقـــع

واللبـــــــدة والجلابيـــة "

حرام أن يموت هـــذا الإبـــداع الفصيح وأن يخرج من تاريخ ذاكرتنا الفكرية والثقافية والجمالية وأن ندفنه باسم ... وباسم ... وباسم ... الأسماء كلها ومالها من تخريجات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

*   *   *

النسق الفصيح والنسق العاميّ
في المنهج التعليمي للغة العربية(*)

للدكتور عباس الصوري
(عضو المجمع المراسل)

يدخل هذا الموضوع ضمن مسار الأبحاث التي تحاول رصد موقع اللغة العربية داخل الثقافة المعاصرة في مظاهرها المختلفة. ويبدو هذا جليًّا في نقاط التقاطع والحوار بين الثقافة العربية في شموليتها وبقية الثقافات المعاصرة.

الإجابة عن ذلك تقتضي منا تحليل عدة أوضاع توجد فيها لغة العروبة على محك العصر. وسنكتفي في هذا العرض بالحديث عن مدى استعداد لغتنا العربية، لتؤدي مهمتها مثل سائر اللغات الحية، خصوصًا وأن الإقبال عليها في تصاعد مستمر لأسباب كثيرة.

فالعالم العربي يوجد حاليًّا في عمق الاهتمامات الدولية، لما له من موقع وما يزخر به من ثروات، اشتد الصراع حولها في العقود الأخيرة، وهذا كاف لجعل لغة العرب وثقافتهم هدفاً لمزيد من الاختراق. هذا فضلاً عن أن اللغة العربية بحكم أهمية تراثها المتنوع وفعل حجم متكلميها الهائل، كل ذلك أهلها لتكون ضمن اللغات الأولى في حظيرة الأمم المتحدة، لغة الترجمة، ولغاية التعارف وتبادل الصلات بين الشعوب الشقيقة والصديقة على السواء.

(*) أُلقي هذا البحث في الجلسة الثالثة عشرة، من مؤتمر الدورة الخامسة والستين، يوم الأربعاء الموافق ١٧ من مارس سنة ١٩٩٩ . ونشر بمجلة المجمع بالعدد التسعين، ص ١٨٧.

ثم إن العربية - فوق هذا وذاك- لغة الثقافة والدين لكثير من الشعوب الـتي تدين بالإسلام، ولكنها لا تتكلم العربية مثلما هو الحال في آسيا وأفريقيا وغيرهما من المناطق، وللمسلمين هناك اهتمام بالغ بتعلم لغة القرآن الذي به يتعبدون.

لهذه الأسباب، وأخرى اجتماعية واقتصادية وسياحية أيضاً، كانـت العنايـة باللغة العربية شديدة، مما جعل المشتغلين بشؤون البيداغوجية يركزون البحث عـن أنسب السبل لتيسير مهمة التدريس، وإعداد البرامج اللائقـة والطرائـق الميـسرة- والوسائل الفعالة لتبسيط عملية تعلم اللغة العربية، فماذا تحقق من ذلك؟

إن العناية بالشيء لا تعد شرطًا في تحصيله بالضرورة، فكثرة الاهتمـام، قـد تفتح المجال لابتداع المناهج وابتكار الأساليب، قد تساعد في توسيع هـذا المجـال، ليشمل سائر العراقيل التي تعوق اللغة العربية في أداء مهمتها، كلغة المـسلمين ممـن يتكلمها، وممن لا يتكلمها، ولكن ذلك ليس شرطاً في النجاح.

فإذا أخذنا على سبيل المثال لا الحصر، الأبحاث التي أجريت من قبل الباحثين في معهد الخرطوم، الذي يهتم بنشر اللغة العربية خارج نطاق العالم العربي، وحاولنا الإلمام بعينة منها ظهرت خلال الثمانينيات، لوجدنا الأعداد التالية:

-٧٠ بحثاً أنجز، في موضوع الظواهر النحوية والصرفية والصوتية.

- ٨٠ بحثاً، في المشاكل التربوية وقضايا التدريس.

-٢٠ بحثاً، في تعليم المهارات اللغوية.

-٣٠ بحثاً، في بناء المناهج وتخطيطها وتصميمها.

-٤٠ بحثاً، في تأليف النصوص التعليمية.

-٥٠ بحثاً، في دراسة السياسة اللغوية.

-٢٠ بحثاً، في الوسائل التعليمية.

-٧٠ بحثاً، في ميدان التقويم.

-٣٠ بحثاً، في طرائق إعداد المعلمين.

-٣٥٠ بحثاً، في دراسة الوضعيات اللغوية في البلاد الإسلامية ... إلخ.

فإن أضفنا إلى الرُّكام الذي يتزايد كل سنة ما هو موجود في السوق، مما ألف في البلاد العربية أو خارجها من كتب التعليم ومعاجم وأشرطة سمعية وبصرية سنجد حقيقة حصيلة هائلة من الأبحاث في الطرق والمناهج والأساليب المتنوعة في أهـــدافها، وفي محتوياهّا، وفي منظورها، ولكنها جميعاً تعد أداة لتقريب العربية لمن يـــود تعلـــم المستوى الفصيح منها، فماذا نستفيد من كل هذه الجهود؟ ســـنرى ذلـــك علـــى المستويات التالية:

١- على مستوى الأهداف.

٢- على مستوى المنهاج.

٣- الطريقة المتبعة.

٤- المحتوى.

١- على مستوى الأهداف:

يمكن أن ننظر إلى تعلم اللغة العربية لغايات لغوية محضة كما يمكن أن ندرسها لغاية ثقافية. ومن الصعوبة الفصل بينهما، ويبدو أن هذا التقسيم متأتٍّ مـــن إقبـــال الدارسين من غير العرب على معرفة اللغة، والذين أعدّت لهم برامج دون الاهتمـــام بالجانب الثقافي، الذي يوقع في الإحراج بالنسبة لهؤلاء عندما يتعلق الأمـــر بدراســـة نصوص القرآن والحديث والسنة والفكر الإسلامي؛ لأنها تعد من مكونات الثقافـــة الإسلامية.

إن الرهان على الدرس اللغوي المحض محفوف بكثير من المزالق، وعلى رأسها كون اللغة ليست مجرد متن جامد، وإنما هي عالم حي يحكي تجربة قوم بثـــوا فيهـــا

خلاصة عواطفهم، وسجلوا فيها مختلف رؤاهم الفكرية في الكون وفي الناس وفي الحياة.

٢- على مستوى المنهاج:

هناك المنهاج الخاص بتعليم العربية لأهلها، وهو يروج عادة في الدول العربية، وهناك المنهاج الموجه للطلاب المسلمين من غير العرب مثل المناهج الرائجة في السعودية ومصر (بالأزهر)، وبعض البلاد المشرقية الأخرى، ولها طابع ديني، وهناك المناهج الموجهة لغير المسلمين، ويحاول أصحابها أن ينسجوا على منوال الكتب السياحية التي تبيع اللغة مثل أي إنتاج سياحي آخر، فهي تسعى لتبسيط الدروس إلى حد تصبح معها مجرد جمل وتعابير جاهزة،قصد تبادل الحديث في شؤون الحياة العادية

٣- على مستوى الطريقة:

هناك الطرق التقليدية التي تجعل من درس العربية أداة للثقافة الإسلامية، فهي تعتمد على القراءة والنحو للمرور سريعاً إلى متون الفقه والشريعة والأدب، وهناك المناهج الموجهة لغير المسلمين، وهي تنبني أساساً على ما يسمى بالطرق الحديثة وهي تهدف إلى تركيز على لغة الحديث، لذلك استعملت الآلات السمعية والبصرية التي تساعد على تحقيق ذلك، وإلى هذا النوع نشير- في حديثنا - لأهميته وسرعة انتشاره.

٤- على مستوى المحتوى:

أي مستوى المحتوى اللغوي الذي نهدف إلى تبليغه: وهنا نصل إلى عمق المشكل، فاللغة - أساساً - ليست مجرد قواعد تحفظ، ومبادئ تعرف بواسطتها القوانين التي تتحكم في الصرف والنحو والبلاغة، اللغة - كما يقول ابن جني - أصوات ... أي ألفاظ وعبارات منطوقة ومسموعة، وسواء أكانت العربية تدرس للمسلمين من غير العرب أم لغيرهم من الشعوب الأخرى، فالأصوات في اللغة العربية تطرح مشاكل

تتصل بالاستماع أولاً ثم التلفظ ثانياً، وهندسة الأصوات مثل هندسة الكتابة، فكما أن الدارسين تبقى في نفوسهم أشياء من إرغامهم على الكتابة من اليمين بدلاً من اليسار الذي ألفوه، فكذلك يجدون غرابة لا تنتهي تجاه نظام الأصوات العربية.

فهناك إذن مشكل النطق؛ لأن الطرق الحديثة كلها أجمعت على إعطاء لغة الحديث الأهمية الكبرى، وبها تكون البداية في المستويات الأولى، ومنها التي تسعى إلى جعل لغة الكتابة بعد تعلم المشافهة مثلما يحصل في تعلم اللغات الغربية. وهذا ما يجعل تعلم العربية يقع في دائرة مغلقة، الخروج منها يتم عبر منعطفين: إما تعليم المشافهة الفصيحة، أو تعليم المشافهة غير الفصيحة.

– بالنسبة للاتجاه الفصيح: يجد تبرير موقفه في أن المشافهة بغير الفصحى تتم ليس بعامية واحدة وإنما بعاميات مختلفة، معظمها يتميز بعدم الانقياد في قواعده، وطريقة كتابته، وضبط نظامه الصوتي والصرفي. فما هي اللغة العربية العامية أو العاميات التي يجب تدريسها للطلاب الأجانب؟ إن كان الجواب هيناً في الاختيار فهو ليس ممكناً على مستوى الإنجاز والتحقيق ... ولا مجال للخوض في اللغة العامية الأقرب إلى الفصحى أو السقوط في فخ التفاضل... لهذا أختار هذا الاتجاه (الفصحى)؛ لأنها لغة العرب جميعاً، وبها يمكن التفاهم في جميع الدول العربية.

– الاتجاه الثاني: يرى أن الفصحى تصلح للدراسة الأكاديمية ولمعرفة الدين والأدب والثقافة، أما من يرد أن يحتك بالعرب في حياتهم اليومية ويعرف كيف يخاطبهم، فالفصحى وحدها غير كافية، بل يمكن أن تكون عامل إحباط في التعامل مع العرب بسبب صعوبة مخارج الحروف وكثرة الاشتقاقات، وأنواع الأفعال والجموع ...إلخ

والواقع أن هذه الثنائية: ثنائية اللغة والكلام، الفصحى والعامية، الفكر والممارسة... هو مشكل تعليم جميع اللغات، لكن بنسب متفاوتة طبعًا، وهو يجد له

حلاً في الثقافات التي لا يوجد فيها تباعد كبير بين اللغة العامة (لغة الثقافة) والفكر، واللغة العامية، لغة السوق والتواصل البسيط. لكن في العربية الأمر يختلف، فقد يصل التباعد إلى حد الاختلاف، وللمهتمين بالموضوع مواقف مختلفة:

-الموقف التقليدي من العامية:

التجاهل، وهي عند أصحابه تشكل خطرًا على الفصحى، لذلك وجب تنقية الدرس الموجه للعرب ولغير العرب من جميع الشوائب العامية، ويكون المعيار عندهم هو المتون الأدبية الكلاسيكية، وهي الجديرة بالدرس، وهي أساس الوحدة بين العرب وما سواها يعد خرقاً يجب محاربته ... وتقوم البيداغوجية عند هؤلاء على مفهوم الخطأ، انطلاقاً من المعيار.

– الموقف البيداغوجي:

المشكل يكمن – أساساً – في كيفية تأسيس الدرس اللغوي بالعامية إن كان لوجود هذا الدرس ضرورة. وكيف يمكن التحكم في الخلافات بين العاميات؟ وما هو النموذج المطلوب في النطق والنبر والتنغيم؟ وما الموقف من التداخل بين العامية والفصحى؟ ولحد الساعة لا توجد تجارب لنقل العاميات عن طريق المشافهة إلى الدرس الكتابي المبني على ضوابط متفق عليها، فالمستشرقون اهتموا بالعاميات كثيرًا ووضعوا لها قواميس لترجمتها، وحاول بعضهم رسم الخرائط اللغوية مثلما فعل "ولفنسن" في محاولته وضع جغرافية لهجية للعالم العربي أو كما فعل "كانتينو" الفرنسي في دراسته للهجة حوران وتدمر ...إلخ

ولمحمد جواد النوري أطروحة حول " لهجة نابلس " الفلسطينية ١٩٧٣، ويرى إبراهيم أنيس في كتابه "في اللهجات العربية": "أن مثل هذه الدراسات من شأنها أن

تخدم اللغة الفصحى"، وهو في الغالب يقصد اللهجات العربيـة القديمـة. إن هـذه الدراسات لا تخدم اللغة الفصحى - كما يرى أنيس - بصفة مباشرة، وإنما تكـون جهود أصحابها أساساً لإقامة الدرس اللغوي اللهجي، أما معظم هذه الدراسات فيقوم على أساس البحث التاريخي لمعرفة ماضي اللغة وتراثها، أو يكون الهدف لغويًّا لإثبات العلاقة مثلاً بين الفصحى والعامية، فماذا عن هذا الموقف الأخير؟

- الموقف اللغوي:

مشكلة هذه الدراسات أنها تغفل أولاً التفاعل الاجتماعي اللغوي، فهناك نوع من هذه الدراسات في بعده عن التفاعل المذكور يتخذ سبلاً سهلة لـضبط عنـصر التجانس بين الفصحى والعامية، وهكذا تخلط هذه الدراسات بين عدة مفاهيم مثـل مفهوم "الاندراجية" الذي تذكره تصريحاً ولكنها تقيم مفاهيمها عليه ضمنيًّا. فهـذا المفهوم عند اللسانيين يحيل على معني "التغير" ومعنى التغير يوضحونه بدرجـة مـن درجات التطور، والتطور يقام على أساس مبدأ "الأصل - الفـرع "، وإذا فهمنـا العلاقة بين الفصحى والعامية على هذا الأساس أي على أساس التغير اللغوي، سنجد بعض اللغويين يرون أن العلاقة بين الأصل والفرع لا تشكل قطيعة. يقول د. منـذر عياشي في كتابه "قضايا لسانية وحضارية" "إن الفارق بين الفصحى والدارجة فارق في الأداء لا يمس السطح" أما القطيعة "فهي مسافة لسانية تفصل بين لغة وأصـلها التاريخي المنسلخة عنه ... تشكل انفجاراً يصيب اللغـة الأم ويحيلـها إلى لغـات متباعدة"، وليس بهذا المعنى تعيش الفصحى تطورها، فالتطور بالنسبة إليها اسـتمرار للماضي في الحاضر.

وهذا التطور الخاص للغة العربية يعكسه حضور التراث في كل مناطق المـتن المعجمي للغة العامية ؛ لكن المسألة ليست من البساطة للحسم فيها بهذه الطريقة.

فالتغير الذي يحصل في لغة ما خلال مسارها التاريخي له أبعاد متعددة: هنـــاك الزماني والمكاني، والتغير الفردي للمتكلمين: يكون نفسيًّا وفسيولوجيًّا.

يقول ابن خلدون في المقدمة: " لغة العرب العهد مستقلة مغايرة للغة مـــضر وحمير، وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المـــصري، و لم يُفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعـــول فاعتاضـــوا منـــها بالتقديم والتأخير".

حسب هذا النص، فالتغير الذي أصاب لغة المشافهة في زمن ابـــن خلـــدون أصابها في دلالة الحركات، أي الإعراب. أما بنيـــة الكـــلام فقـــد بقيـــت علـــى (سُنن اللسان المصري) كما يقول، واستعاض الناس إذ ذاك بالتقديم والتـــأخير، أي التركيز على الرتبة، بدل حركات الإعراب.

التغيير إذن يكون على عدة مستويات:

– **المستوى الصوتي**: وهو رائج حتى في الفصحى ذاتها (وهو من أكثر المـــشكلات صعوبة في البحث اللساني كما يرى "دوسوسير" وغيره.

– **المستوى المعجمي**: وهو مجال انتقال المفردات وتغيرات دلالاتها، وتغـــيير بنيتـــها الصوتية وما يحدث فيها من إسقاط وحذف أو تسكين أو إدغام وإبدال ودمج.

– **المستوى النحوي والصرفي**: وهو الذي أشار إليه ابن خلدون، ولعله أخطر أنواع التغيير الذي إذا تجاوز حداً معينًا يحدث القطيعة، أما التغيرات على مستوى الأصوات والمفردات فهو شيء طبعي.

ويبدو لي أن بعض الدارسين قلبوا النظرية بقولهم بعد تغيير الدلالـــة ومحاولـــة البرهنة على ثباتها دون تغيير في العامية، مما جعل في المغرب عندنا، بعـــض علمائنـــا

يعملون على إصدار بعض الجداول الأخرى للاستدلال بها على أن العامية لا تشكل مظهراً من مظاهر التطور، وإنما هي في حد ذاتها أصل وغيرها تفرع عنها. ويبـدو لي أن هؤلاء – وعلى رأسهم الأستاذ الشاعر محمد الحلوى – لاحظوا شبه قطيعة مـع الفصحى في الحياة الاجتماعية، وأن انتشار التعليم وارتفاع المستوى الثقـافي بـين المتعلمين أذكى في نفوس اللغويين البحث عن العودة إلى ماضي الثقافة العربية الـنير، فأرادوا أن ينبهوهم إلى ما تتوفر عليه العامية من رصيد أثيل يجب الإلمام بـه قبـل البحث عن التجديد، لاحظ مثلاً الأستاذ الحلوى أن مفردات مثل الأفعال: كـرس، كردس، كشط، والأسماء مثل: الكيدر، الغطار، الغراف ...إلخ هي ألفاظ فـصيحة ولكنها ضائعة، ودراسة هذا الرصيد اللهجي المهجور، يطرح عدة مـشاكل رغـم الإغراء الذي يجعل المرء يعتقد أنه من اليسر سد الثغرة بين الفصحى والعامية.

والواقع أن مثل هذه الأبحاث لها أهمية كبيرة في معارفنا على مستويات أخرى، فنحن إذا عدنا إلى هذه الرسوبات الفصيحة في القاموس العامي، لنبحث متى حصل تقاطعها؟ وأين؟ وحينئذ نبحث في "كيف"؟ وقد حاول بـاحثون في المغـرب وفي المشرق أيضاً الإجابة عن "كيف" هاته، لكن المفروض أن يكون ذلك وفق منـهج واضح وقواعد لغوية محكمة يمكن بواسطتها تحديد ما يحدث بين لغتين من اقتراض أو استعارة أو تضمين بفعل – صلة القرابة والجوار ووحدة الأرومة أو بفعـل الهيمنـة والإقصاء. فلفظة "**خايب**" التي يعزيها الأستاذ الحلوى مثلاً – في أحد جداولـه إلى مادة "خاب" من قولنا: خاب سعيه، لا ندري هل هي فعـلاً عنـدما دخلـت في القاموس العامي؟ هل وردت من هذه المادة المذكورة أو أنها مشتقة من مادة أخـرى أقرب إلى المعنى العامي؟ وهو معنى الدمامة والقبح –معناها في العامية–، وقد وجدت هذا اللفظ صدفة في رسالة الغفران هكذا "خيعاب". كما أورد أبو العلاء في هـذه الرسالة ألفاظًا أخرى من صميم عاميتنا مثل: **البرمة، والطارِمة، والرتاج** ...إلخ.

فالباحث عندما عالج في العامية مثلاً هذه الأفعال مشتتة في جداوله:
كربـــع - كرفس - كردس - كردع، وهى رباعية، لم ينبهنا إلى الأصل الثلاثـــي الفصيح: ربع، رفس، هرس، ردع...

وأن الكاف الزائدة في شكليها (ك / كَ) ما هي إلا زيادة لمعـــنى، حـــصلت خارج قاعدة "سألتمونيها" المعروفة، وقد نبه على ذلك قديماً فقهاء اللغة، بصدد تحليل أصولية الفعل الرباعي المجرد .

والذي نريد أن نلفت الانتباه إليه هو أن القاموس العامي، مثلما لاحظ ذلـــك الأستاذ إبراهيم السامرائي، منبهاً إلى ما في دراسة هذا القاموس من فائـــدة للفصحى ودعامـــة لهـــا، فالعامية طوعت كثيرًا من الصيغ، وهي أبطأ من حيث التطور مـــن غيرها، ولنأخذ على ذلك فقط مثال: «اسم الآلة» كيف تطور في الفصحى، ولكـــن العامية جاءت لتحسم بتوسيع مجال صيغ اسم الآلة، ليشمل حاجيات العـــصر مـــن مستجدات نحتاج إليها في المعمل وفي البيت وفي الحياة العامة، وذلك بإضافة صـــيغ أخرى إلى الصيغ الثلاث المعروفة، ومن هذه الصيغ المستحدثة، صيغة " فعّالة"، مثل: ثلاجة، وغسالة، وكسَّارة ... إلخ.

* * *



رابعًا:

الفصحى والعامية

في وسائل الإعلام

فجر الإعلام في اللغة العربية(*)

للدكتور عمر فَرُّوخ
(عضو المجمع)

الإعلام: تسمية حديثة خاطئة لمدرك قديم صحيح، احتاج البشر منذ أقدم الأزمنة إلى أن ينقلوا عدداً من المعارف إلى مجموع معين من الناس، فاستخدموا في سبيل ذلك عدداً من الوسائل والوسائط. وكانت اللغة أبرز تلك الوسائل وأبعدها أثراً، وقل ما عرف البشر وسيلة مادية لنقل المعرفة بين طبقات البشر عبر التاريخ الطويل كهرم خوفو، ولكننا الآن في صدد نقل جوانب من المعرفة من طريق اللغة.

١ــ الإعلام: خطأ التسمية وتعريف مدركها:

إن كلمة "إعلام" تفسير لكلمة فرنجية Lnformatiom، وهى بدورها كلمة غائمة تستعمل مفردة في اللغة الإنجليزية،وتدل على الجمع أيضًا،كالكلمة القريبة منها News، والمصوغة في الجمع، ولكنها تدل على المفرد أيضًا. وما يسمَّى" الإعلام"في اللغة العربية غامض أيضًا،كغموض الكلمة المقابلة له في اللغات الأجنبية. إن المدرك الحديث" إعلام" يتموَّج أحيانًا كثيرة، فيتناول الإعلان (بالنون) حينا، والدعاية أو الدعاوة حينا آخر. وربما تناول التعليم. وللإعلام نفسه وجهان: وجه بريء مخلص، غايته مخاطبة العقل، لتعريفه أموراً أساسية صالحة، ثم وجه خادع ملتو ،غايته مخاطبة العاطفة في سبيل إقرار أثر في السامعين يتعلق بقضية عارضة،ربما تبدل الاهتمام بها غدا أو بعد غد.

وبالرجوع إلى الأصول العربية تبين أن العرب قد عرفوا هذا المدرك الضروري في الحياة الحضرية أو الحضارية، فوجدناه في الشعر الجاهلي وفى القرآن الكريم. ولكن الكلمة التي كانت تستخدم قبل الإسلام ثم في القرآن الكريم،كانت "الإبلاغ" كما في الشعر الجاهلي، ثم "البلاغ" كما في القرآن الكريم.

(*) ألقي البحث في مؤتمر الدورة الخامسة والأربعين، الجلسة الثانية، الثلاثاء٢٧من فبراير سنة١٩٧٩م. ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الثالث والأربعين، ص ٢٩.

٢- الإعلام حديثا والبلاغ قديما:

والمقصود بالإعلام أو بالبلاغ أن يكون من الحاكم أو من هــو في مقامــه إلى المحكوم أومن هو في درجته. والإعلام خاصـــة يكون عادة في نطاق أضيق من حيث المُعْلِم (بضم فسكون فكسر)، ومن حيث المُعْلَم (بضك فسكون ففتح).

كنا في مؤتمر لمثل ذلك،فوصل الكلام إلى أحد رؤساء الوفود، فأطال- (وكان مــن قبل تلميذاً في صف أحاضر فيه) - فأجزت لنفسي أن أستوقفه،ثم قلت له: أنت مــن قبل تلميذي، وأنا الآن لا أفهم ما تقوله. أعرف أن الكلام يجب أن يكون في "التوعية الشعبية" (كذلك كان العنوان للموضوع)، ولكني أرى كلامك يدور حــول "إقنــاع الناس بوجهة نظر الحكومة". فقال لي: وماذا أفعل ؟، كذلك قالوا لنا أن نقول.

أنا لا ألوم هذا المتحدث في ذلك المؤتمر ،فإن الإعلام الحديث لا يمكن أن يفهم إلا في هذا النِّطاق.

أما البلاغ فإنه شيء آخر: إنه نقل للمعارف الصحيحة الثابتة إلى مجموع الناس من غير إجبار في العادة على العمل بها.

٣- وجوه الإعلام الثلاثة في الجاهلية:

سأقتصر من وسائل الإعلام في الجاهلية على المعلقات. وسأتناول الكلام علــى ثلاث معلقات:

(أ) معلقة عمرو بن كلثوم، وفيها تبجح القوي في تبرير اعتدائه، و في التهديــد برد الاعتداء بمثله.

(ب) معلقة الحارث بن حلِّزة، وفيها اعتذار الضعيف من انهزامه وتنــصله مــن اعتداء وقع على خصمه، لم يكن هو القائم بذلك الاعتداء مع كلام في الحق والعدل.

(جـــ) معلقة زهير بن أبي سلمى، وفيها موقف الحكم العاقل الذي يعرف الفرق بين الاعتداء والدفاع عن النفس، ولكن زهيراً يتجاوز أسباب القتال للتوفر على الكلام في نتائجه و في ضرر تلك النتائج على المعتدي وعلى المعتدى عليه كليهما. كان زهير

يدعو إلى حل المشاكل بالسلم لا بالحرب. إنه كان يمثل في الجاهلية ما تمثله اليوم"منظمة الأمم المتحدة" كما يجب أن تكون منظمة الأمم المتحدة.

أما من حيث الألفاظ، فقد جاء في مجال الإعلام في المعلقات التي اخترتها ألفاظ منها:

ـــ (من جذر بلغ):

يقول عمرو بن كلثوم: ألا أبلغ بني الطماح عنا. ويقول الحارث بن حلزة:..

وأمر الله بَلّغْ يشقى به الأشقياء - أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو.

ويقول زهير: ألا أبلغ الأحلاف عنا رسالة. وكذلك يقول الأعشى (وإن لم أختر معلقته في هذا البحث): أبلغ يزيد بني شيبان مألكة.

ـــ (من جذر علم):

والصيغ من هذا الجذر مألوفة في مثل هذا الموضوع. قال عمرو بن كلثوم:

ألما تعلموا منا ومنكم كتائب...؟ - وقد علم القبائل من مَعَدٍّ - وقال الحارث: قد علمتم أيام ينتهب الناس - واعلموا أننا وإياكم ... وقال زهير: وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم. وقال الأعشى: سائل بني أسد عنا فقد علموا ...

وكذلك جاء في هذه المعلقات صيغ مختلفة من الجذور التالية:

من "خبر" (نُخبِّرك وتخبرينا)، ومن "حدث" (حدثت، ثلاث مرت)، ومن "عرف" (تعرفوا وأعرفنك) ومن" نبأ "(الأنباء وأنبائنا) ومن "زعم" (زعموا).

٤- ألفاظ الإعلام في القرآن الكريم:

وفي القرآن الكريم صيغ مختلفة من ألفاظ للدعوة، ترجع إلى نحو عشرين جذراً. وسأورد فيما يلي شاهداً واحدا، أو أكثر من شاهد واحد، على كل جذر، ويحسن أن ندرك أن عدداً كبيراً من هذه الألفاظ عامة،وأن القرآن الكريم هو الذي جعل منها ألفاظاً خاصة بالدعوة إلى الإيمان.

بشر - ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدًّا﴾ (١٩:٧٩،مريم)

بعث - ﴿ربنا ابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك﴾ (٢:١٩٢، البقرة).

بلغ - ﴿يا أيها الرسول، بلغ ما أنزل إليك من ربك،وإن لم تفعل فما بغلت رسالته﴾ (٥:٦٧،المائدة).

﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به﴾ (١٤:٥٣، إبراهيم).

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (٢٤:٥٤، النور).

بيّن - ﴿قد جئتكم بالحق لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ (٤٣:٦٣،الزخرف).

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم ﴾ (١٦:٤٤،النحل).

﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾ (٤:١٤،إبراهيم).

تَبِع - ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربّك﴾ (٦:١٠٦،الأنعام).

﴿وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ فاتبعوه واتَّقُوا لعلكم ترحمون﴾ (٦:١٥٥، الأنعام).

تلو- ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك﴾ (١٨:٢٧، الكهف).

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك﴾ (٢:١٢٩، البقرة).

جَوَبَ - ﴿ يا قومنا، أجيبوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ (٣١:٤٦، الأحقاق).

﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ (٤٢:٤٧، الشورى).

دعا - ﴿داعي الله﴾ (انظر فوق).

- ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلا وهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً. وأني كلما دعوقم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذاهم، واستغشوا ثياهم،وأصرُّوا واستكبروا استكبار. ثم إني دعوقم جهارًا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارًا...﴾ (٧١: ٥ - ٩، نوح).

- ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (١٦:١٢٥، النحل).

- ﴿يــا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّرًا ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وســراجاً منيراً. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾ (٣٣:٤٥،٤٧، الأحزاب).

ذكِّر - ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ (٥٠،٤٥، ق).

- ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ (٥٢:٢٩، الطور).

- ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ (٨٨:٢١، الغاشية).

- ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ (٧:٩٦، الأعراف).

- ﴿ولقد يسَّرْنَا القرآن للذكر فهل من مدَّكر ﴾ (٥٤:١٧،٣٢،٤٠، القمر).

- ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ (٦٨:٥٢، القلم).

- ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ (٨١ -٢٧، التكوير).

- ﴿قل: لا أسألكم عليه أجراً،إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ (٢٠:٤٢، طه).

- ﴿إن هذه تذكرة، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ (٧٣:١٩، المزمل).

- ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ (٧٤:٤٩، المدثر).

رسل - (أوسع المواد في هذا المعنى).

- ﴿هــو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ (٩:٣٣، التوبة؛ ٤٨:٢٨، الفتح؛٦١:٩، الصف)

- ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لِيُبيِّن لهم﴾ (١٤:٤، إبراهيم).

- ﴿يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنــه وســراجا منيراً.وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبير﴾ (٣٣: ٤٥- ٤٧، الأحزاب).

سمع - ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا. لو نشاء لقلنا مثل هــذا، إن هــذا إلا أساطير الأولين﴾ (٨:٣١، الأنفال).

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ (٩:٦، التوبة)

- ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ (٥:٨٣، المائدة).

- ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ (٢٧:٨١، النمل؛ ٣٠:٥٣، الروم)

- ﴿ومنهم من يستمع إليك، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ (٩:٤٥، الأنعام).

عرف - ﴿... مما عرفوا من الحق﴾ (انظر فوق).

- ﴿فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض﴾ (٦٦: ٣،التحريم).

تلــو- ﴿يتلو عليكم آياتنا، ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾

(٢:١٥١، البقرة؛ ٣:١٦٤، آل عمران).

نبأ - ﴿نبِّئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ (٤٥:٥٩، الحجرات).

- ﴿يستنبئونك أحق هو . قل: إي، وربي. إنه لحق﴾ (١٠:٥٣ يونس)

ندى - ﴿ونادى فرعون في قومه، قال: يا قوم، أليس لي ملك مصر﴾

(٤٣:٥١، الزخرف).

- ﴿ربنا، إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ (٣:١٩٣، آل عمران).

- ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾.

نذر- (هذه المادة واسعة جدا).

- ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله﴾ (٤٦ :٢١ الأحقاف).

- ﴿سواء عليهم أأنذرهم أو لم تنذرهم لا يؤمنون﴾

(٢:٦ البقرة؛ ٣٦:١٠يس؛ ٦:١٩ الأنعام).

- ﴿وأوحيَ إليَّ هذا القرآن لأنذركم به، ومن بلغ، أإنكم لتشهدون أن مــع الله آلهــة أخرى! قل لا أشهد، قل: إنما هو إله واحد،وإنني بريء مما تشركون﴾

(٦:١٩ الأنعام).

- ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أمّ القرى ومن حولها﴾

(٦:٩٢ الأنعام).

- ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾

(٧: ٦٣، ٦٩ الأعراف).

- ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعــوا إليهم﴾ (٩:١٢٢ التوبة).

- ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٢٦:٢١٤ الشعراء).

- ﴿ لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ (٣٦ : ٦ يس).

- ﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به﴾ (١٤:٥٢ إبراهيم)

- ﴿يا أهل الكتاب، قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا مــا جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير﴾ (٥:١٩ المائدة).

- ﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه ...﴾ (١٧:٢٧ الإسراء).

- ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ (١٥:٦٦ الحجر).

- ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض ..﴾ (١٧: ٤ الإسراء).

- ﴿وما كنت بجانب الغربي إذا قضينا إلى موسى الأمر ...﴾ (٢٨:٤٤ القصص).

هدى- ﴿أولئك الذين هدى الله، فبهداهم اقتده﴾ (٦:٩٠ الأنعام).

- ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ (٤٩: ١٧ الحجرات).

- ﴿وأما ثمود فهديناهم،فاستحبوا العمى على الهدى﴾ (٤١: ١٧ فصلت).

جعل - ﴿وجعلناهم أئمــة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾

(٢١:٧٣ الأنبياء).

- ﴿فقالوا: أبشر يهدوننا. فكفروا وتولوا﴾ (٦٤: ٦ التغابن).

- ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ (٢٧: ٩ الإسراء).

- ﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدي إلى الحق﴾

(٤٦: ٣٠ الأحقاف).

- ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ (٦:١٢٥ الأنعام).

- ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (١:٦ الفاتحة).

- ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ (٣:٢٠ آل عمران).

- ﴿إنما أنت منذر .ولكل قوم هاد﴾.

- ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا﴾

(١٧:٩٤، راجع ٥٥ الإسراء).

- ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ (٤٠:٥٣ غافر).

- ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾

(٤٨ : ٢٨ الفتح).

وعَظ - ﴿قالوا: سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ (٢٦:١٣٦ الشعراء).

- ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ (٢:٢٧٥ آل عمران)

- ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ (٣:١٣٨ آل عمران).

- ﴿يا أيها الناس، قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور﴾

(١٠:٥٧ يونس).

- ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾

(١٦- ١٢٥ النحل).

ثم استعرضت عدداً من رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم في "جمهرة رسائل العرب"، من تأليف أحمد زكي صفوت (الجزء الأول، مصر ، ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م) فوجدت تعابير، منها: أدعوك بدعاية الإسلام (ص٣٣،٣٤،٣٦،٤٦) - دعوتك (ص٣٩) - أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده (ص٤١) - يدعوهم (ص٤٥) - ادعوهم إلى الإسلام (ص٦١،٦٢) - ادعوهم إلى عبادة الله (ص٧٦)، ونجد في هذه الرسائل، وفي رسائل الصحابة الخلفاء، عدداً من الألفاظ التي كانت قد مرت بنا في الكلام على ألفاظ القرآن الكريم، مثل: بلغ (ص ١١٤،٣٩٣،٤٤٤) - علم وأعلم (ص٣٧٥، ٣٢٥).

وهنالك عدد من هذه الألفاظ يرد في خطب الرسول، وخصوصًا في خطبة الوداع: في قوله عليه السلام: "... ألا هل بلغت، اللَّهمَّ فاشهد" (بضع مرات).

ذلك عدد من الألفاظ الدائرة في الإعلام جمعتها من عدد من المعلقات،ومن القرآن الكريم، ومن عدد من رسائل الرسول عليه السلام. وقد بدا لي:

* أن الإسلام اختار كلمة "بلاغ" مع عدد من مشتقاتها في مقابل كلمة "إعلام" الدائرة في الاستعمال الحديث.

* ثم بدا لي أن كلمة "بلاغ" كانت تعني عرض الحقائق المقصودة بلا لبس، وليس ذلك غير منتظر في مقام الدعوة إلى الإسلام. أما كلمة "إعلام" الحديثة، فالمقصود منها توجيه الجانب الغالب من الرأي العام وجهة مخصوصة آتية،قد تتبدل في غدٍ أو بعد غدٍ، ثمَّ تعود إلى ما كانت عليه قبل مدة.

* إن الإعلام الحديث لا يرمي إلى بسط الحقائق بقدر ما يرمي إلى عرض الحقائق أحياناً عرضاً جزئيًّا. وربما صنع قرائن وأقامها مقام الحقائق.

*وعمدة الإعلام الحديث التوجه إلى الجمهور الغالب من الناس ممن يصدق فيهم قول المتنبي:

إنما تسرع المقالة في المرء

إذا صادفت هوًى في الفؤاد

فالعامة أكثر انجرافًا مع الإعلام البارع من المثقفين، الذين لا يتأثرون عادة بالدعوات القصيرة الفترات.

وألفاظ الإعلام الحديث ذات خاصيتين:

١- كلمات ذات رنَّة يتداولها الناس بكثرة، وليس من الضروري أن يكون معناها مفهوما، أو واضحًا عند الذين تلقى عليهم.

٢- كلمات جديدة ذات سهولة في اللفظ أو غرابة في اللفظ أو قوة لفظية.

وسأضرب على كل نوع من هذه الكلمات أمثلة موجزة:

- نشأ في العالم سلسلة من الفنادق أطلق عليها اسم "هلتون" من اسم صاحب هذا المشروع لسلسلة الفنادق، واسمه الكامل "كونراد نيكلسون هلتون"، ولد عام ١٨٨٧م، وكان لا يزال حيًّا في عام ١٩٧٣م. وما كادت "فنادق هلتون" تعلو في بلادنا حتى تسابق العوام إلى اهتبال الفرصة بتسمية أعمالهم "هلتون". فعلى مقربة من مجمعنا اللغوي دكّة صغيرة لإصلاح الأحذية اسمها "هلتون"، وهنا وهناك أماكن مشابهة لدكة إصلاح الأحذية تتزين باسم "هلتون".

- و في عام ١٩٧٠م أقيم معرض في "اليابان" أطلق عليه اسما مختصرًا هو ٧٠ من ٧٠ Expoo، فتسابق العامة إلى إطلاق كلمة "إكسبو" على محل بائع طعمية، على محل تجاري، على معمل نجارة، إلخ.

- وعندنا في بيروت محل لبيع الحلوى الفرنجية، اسمه "موناليزا" ثم محل للتزيين للسيدات، فيما أتذكر، وغيرها.

هذا على صعيد العامة، من حيث الألفاظ والعامة معذورون في ذلك، أما على صعيد أشباه الخاصة، فالأمر أدهى وأمرّ.

- كثر في المدة الأخيرة استعمال صيغتين: "توافر" بمعنى كثر، والمقصود "وفر" في أحد معانيها، أما توافر(كما جاء فى المعجم الوسيط) فمعناها يرجع إلى كرم الأصل، وما يشبهه. وأما الصيغة الثانية فهي "تواجد" بمعنى حضر،وتواجد معناها الصحيح: دخل في الوجد ، أو الانجذاب الصوفي ،طريق الغيبة عن الحس .

وهنالك ألفاظ كثيرة تؤخذ من اللغات الأجنبية، وتطلق بلا تمييز على ما يوافق معانيها أولا يوافق معانيها. قرب بيتنا في بيروت محل لبيع الحلوى اسمه: "بيليه"(وهو لاعب كرة قدم برازيلى فيما أظن). ودكان لبيع الأحذية اسمه "أولد ش" (الحذاء العتيق) ومحل صغير لبيع النسيج اسمه "بوتيك شوب"(دكان دكان). وهنالك محل اسمه "برسيوسا"، فإذا كانت الكلمة مأخوذة من الإيطالية، فيجب أن تكتب "برسيوزا"، أما إذا كانت مأخوذة من الإسبانية،فكتابتها الصحيحة "برثيوسا"؟ و في القاهرة إعلانات كبيرة عن "شاي أبي نواس" وما أعتقد أن أبا نواس كان يعرف الشاي، أو كان يحب الشاي لو عرفه.

هذا على صعيد الألفاظ. أما على صعيد النصوص الإعلامية،فكثيرا ما نقرأ مثل هذا النصّ:

جاءنا من وزارة الإعلام ما يلي:

وصل أمس "كورت فالدهايم" إلى بيروت – فاستقبله في المطار وفد كبير فيه فلان وفلان. وبعد قليل اختلى– "فالدهايم" بوزير الخارجية ساعة كاملة. وقد كانت وجهات النظر بينهما متفقة اتفاقا تامًّا.

وقد صرح "فالدهايم" لمندوبنا أن الأمم المتحدة والدول الصديقة حريصة على أن تتمتع المنطقة بالهدوء والازدهار، كما يجب أن ينال كل فريق حقوقه المشروعة،ثم قال "فالدهايم": إنه مستعد دائماً لأن يبحث مع جميع الفرقاء في كل الموضوعات التي تهم المنطقة.

(أ) في أثناء الثورة السورية أو الثورة الدرزية كنت طالبًا فى كلية الآداب في الجامعة الأميركية في بيروت. فطلب منا أستاذ التاريخ أن نأتي بدفتر كبير،ثم نقطع البلاغات التي تصدر في كل يوم لتكون تلك البلاغات سجلا نرجع إليه،حينما نريد في المستقبل أن ندرس أحداث تلك الثورة. فجئنا بسجل فاخر تعاونًا على شرائه، وأخذنا في كل يوم نقطع بلاغاً أو بلاغين تصدرهما سطلة الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان، ونلصق ما نقطعه من الصحف في ذلك الدفتر. ولما انتهت الثورة وجدنا من الخير للتاريخ ولدرس التاريخ أن نرمي بذلك السجل في زاوية من زوايا الغرفة، لعل أحدًا يتناوله فيستخدمه فيما هو أنفع.

(ب) المعروف أن كل وزارة في العالم تتقدم إلى الشعب ببيان وزاري واحد، أو بأكثر من بيان وزاري واحد في أثناء فترة حكمها، والقاعدة الدستورية أن يضع أفراد الوزارة هذا البيان بالتشاور فيما بينهم، وليس من الضروري أن تكتب الملكة إليزابث الثانية خطاب العرش، الذي تلقيه في مجلس النواب، ولا أن ينشئ كل رئيس وزارة كل بيان تتفق عليه وزارته.

ومنذ أنشئت الوزارة في لبنان - قبل الاستقلال وبعد الاستقلال- وكل بيان وزاري يتضمن الأمور التالية: تحسين الأوضاع العامة للشعب اللبناني- إيصال الماء والكهرباء إلى كل قرية في لبنان - جعل التعليم مجانا للجميع... إلخ. ولا يزال كل بيان وزاري يجد من الحاجة أن يعيد تعداد هذه الأمور إلى اليوم. غير أن الصحف في كل مرة تمدح البيان الوزاري وتبشر بما فيه من وجوه الإصلاح، وما سيحققه من وجوه التقدم والرفه.

(ج) آخر ما بثته الحكومة اللبنانية من أحاديث الإعلام حديث عن "متانة الليرة اللبنانية". في عام ١٩٢٧،مثلا كانت الليرة العثمانية الذهب تساوي خمس ليرات لبنانية ونصف ليرة. وكانت الليرة الإنكليزية الذهب تساوي ست ليرات وربعًا،وكان الجنية المصري الورق يساوي واحداً وعشرين شلناً إنكليزيا، وكنا ندفع قسط جامعة بيروت الأميريكية ستة عشر جنيهًا مصريًّا، و في عام ١٩٣٥ اشتريت بدلة "سموكنج" خاطها الخياط باثنتي عشرة ليرة لبنانية، أو بنحو مائة وخمسة وسبعين قرشا مصريا. أما اليوم فإن الليرة العثمانية الذهب تساوي مائتين وسبعين ليرة لبنانية، أو خمسين ضعفا مما كانت تساوي من قبل. وأما حديث الإعلام الرسمي، فقد أراد تبرير ارتفاع الأسعار في بيروت: فقال بالحرف الواحد: "إن القيمة النقدية لليرة اللبنانية لم تنخفض قطّ، ولكن القيمة الشرائية لليرة هي التي انخفضت"وكان في السامعين من صدق الحديث الإعلامي، وكان فيهم من لم يصدقه.

(د) إذا أنت خاطبت أحداً في الولايات المتحدة ،وجاها أو بالتلفون، سمعت منه في كل نصف دقيقة عشرين مرة "أوكي" .o.k.

في القرن الماضي هاجر إلى الولايات المتحدة رجل هولندي، فاتفق أن عيّن مراقبًا على خروج البضائع من الجمرك. ويبدو أن معرفته باللغة الإنكليزية المكتوبة لم تكن وافيه، فقيل له:إذا استوفت السلعة دورانها في المراقبة ودفع الرسوم فاكتب عليها:All correct كل شيء صحيح. ولكن صاحبنا كان كسلان، فلم يشأ أن يكتب الكلمتين، فكان يكتب الحرفين الأولين من كل كلمة منهما، ولكن الرجل

الهولندي كان يتكلم لغة تكتب كما تلفظ، فكان يكتب "أوكي" o.k. . بدلا من A.c- . والأميركيون أنفسهم اليوم يقولون "أوكي"، ومنذ وقت قريب أنزلت الحكومة اللبنانية إلى الأسواق نوعا من السكاير سمته" أوكي".

(هـ) كنت مرة عند بائع الجبن الذي أشتري منه، فجاء رجل وقال له: بحياتي عليك كان لكم بالأمس إعلان في التلفزيون عن شيء نسيته الآن. فما هو؟ فقال له الرجل: كان ذلك عن النوع الفلاني. فقال له الرجل: أعطني منه.

(و) وفي مرة ثانية جاء رجل، وقال له: أعطني من الجبن الذي يؤكل مع الخيار.

(ز) كنت مرة في بلد عربي في جماعة معي، فرتبت للجماعة زيارة إلى مصنع للسكاير، وكان المصنع ذلك على غاية من النظافة والنظام والترتيب، وكانت العناية بالآلات والأدوات وبالسكاير صنعًا وتغليفًا وتعبئة مما يثر الإعجاب. وفيما كنا خارجين سألت الدليل الذي كان معنا: "أأنتم هنا تهتمون بصنع الرغيف كما تهتمون بصنع السيكارة؟ رأيت الجواب في وجهه وعينيه،و لم أسمعه من فمه.

(ح) وفي مرة أخرى كنا في مكان آخر في مصنع للصّابون. طفنا في المصنع كله فانتهى بنا المطاف إلى مكان التعبئة. وكان المشرف على إعداد الصابون يشرح لنا كل ما يتعلق بالصابون،من جلب مادتي الصودا والزيت إلى المعمل،حتى تغليف قطعة الصابون. ولما انتهى الرجل من الشرح دار على الزوار بقطعة جاهزة من الصابون، فكان بعضهم يشم القطعة ويتمتم بكلمات معروفة، وكان منهم من يعجب بلونها، وكانت القطعة تمر بنفر منهم بلا حركة، فلما وصلت القطعة إلى يدي غمزتها قليلا. وتبنه المشرف إلى حركة يدي فقال لي:" ماذا نفعل ؟ السوق لا ترحم، ونحن نحتاج إلى أن نعجل في صنع الصابون ولا نستطيع أن نتريث كثيراً في أثناء طبخه".

هنا لا بد من ملاحظة: أن احتيار وسائل الإعلام وتخير الكلمات لتلك الوسائل لا يرجعان إلى المشرف على الإعلام بقدر ما يرجعان إلى مقدرة المقصودين بالإعلام على الاستيعاب، وعلى الانجراف في تيار الإعلام.

* * *

اللغة العربية ووسائل الإعلام(*)

للأستاذ حسن عبد الله القرشي
(عضو المجمع المراسل)

اللغة العربية: أصبحت اللغة العربية بخصائصها ومزاياها وجمهورها الكبير من أهم اللغات العالمية، وأضحت لها مكانة بارزة في عالمنا المتحضر، سواء في مجال دراستها، أو في مجال كثرة المشتغلين بها، أو في مجال، إقرار التخاطب بها في العديد من المحافل الدولية، في معظم أنحاء المعمورة.

لقد كرم الله تعالى هذه اللغة بأن جعلها لغة كتابة الكريم، الذي تكفل بصيانته، بقوله جل شأنه:﴿ إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾، وما دامت لغة القرآن هي العربية فإنها ستظل – بإذن الله – مصونة عزيزة، تمتنع على الهرم، وتتألق ما طال بها الزمن، وتثبت على مر العصور والأجيال.

والمجال ليس مجال إبراز هذه اللغة، والحديث عن سمو مكانها،فذلك لون من الحديث المكرور، والكلام المعاد.. وقد ألفت في هذه اللغة آلاف الكتب، وأشبعت درسًا وبحثًا، ولو أراد باحث وأعجزه التقصي. وليس معنى هذا أن هذه اللغة السمحة لم تعد في حاجة إلى المزيد من تعمق الباحثين ودرس الدارسين، والتغلغل في فهم أسرارها واكتناه دخائلها والوصول إلى جوهر فلسفتها، بل على العكس هي في أمس الحاجة إلى ذلك، لا سيما وهي تواجه تحديًا كبيرًا في عصرنا الراهن من تسرب العجمة إلى أبنائها، ومن ثم فقد أنشئت الكليات المتخصصة لتخدم مقاصد هذه اللغة وظهرت المجامع العتيدة لتطويرها حتى تتبوأ مكانتها اللائقة بها في الذيوع والانتشار في كافة المجتمعات باعتبارها أم اللغات، وأكثرها فضلا وأوسعها متنًا، وأشملها استيعابًا.

إلا أن هذه اللغة رغم الدراسات المستفيضة في سبيل تدريسها وتيسيرها فهي صعب، شموس لا ينقاد حرانها. و لا يلين نفورها إلا لذوي الهمم العالية، والعزائم

(*) ألقي هذا البحث في مؤتمر الدورة الخامسة والأربعين، الجلسة الثالثة، الأربعاء،الموافق٢٨من فبراير سنة ١٩٧٩م،ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الثالث والأربعين، ص ٤٠.

القادرة، والذكاء المتوهج، ومن هؤلاء علماؤنا الجهابذة الأوائل الذين كانوا مُثلاً عليا في عبقرية الفكر، وسموق الهمم، وطموح النفوس، حتى بلغوا في الفهم والبصيرة وحسن الإدراك أبعد الغايات، وحققوا أسمى المطالب، ودانت لهم طرائق البحث ومناهجه،حتى خلفوا لنا هذا التراث الزاهر الضخم، ينبئ عن معاناة بالغة، ويفصح عن جهد عتيد.

على أنه لا ينبغي لنا أن نقول: (هل غادر القدماء من متردم)، بل إن علينا إن نوقظ أبناء العربية المحدثين حتى يزيدوا في البناء الشامخ، ويبدؤوا حيث انتهى الأولون، وينبغي أن نرصد الجوائز القيمة، ونيسر الحوافز السخية لكل من توفر ويتوفر على تركيز جهده وتكريس وقته لخدمة العربية بصبر وحرص، وإصرار، وإيمان، وأن نشيد بالأعمال التي بذلت وتبذل في هذا السبيل، ونحفظ لها مكانها الرفيع، وأن نكرم أعلامها البررة على ما عملوا وعلى ما عانوا وصابروا وكابدوا.. حتى نحثهم بذلك على متابعة عملهم المرجو المشكور ونشجع الآخرين من أبناء الأمة العربية.. على النسج على منوالهم والسير على نهجهم.

إن اللغة العربية هي رابطة مقدسة كبرى لهذه الجماهير الكبيرة الناطقة بها، وقد أصبحت كثير من الأمم الغريبة عنها تسعى لتعلمها والإلمام بها، كي تفيد من مجالات الخير ومن ركائز الاقتصاد والنماء في بعض مناطقها،وبلاد الإنجليز في الحاضر مثلا دليل واضح على ذلك.

ولأن اللغة العربية هي لغة القرآن، فإن مجموعة الدول الإسلامية - من منطلق إسلامي - تحرص على تعلمها ليعود عليها ذلك بالنفع في شؤون دينها.

ولا يبعد عن الذهن أن اللغة العربية تملك من تعدد حروف الهجاء ما لا تملكه اللغات الأخرى كما أنها - بكثرة مترادفاتها وخصوبة معينها - من أطوع اللغات للنحت والاشتقاق، وهذا ما ساعد حديثًا على تعريب كثير من الصيغ والمسميات، والمصطلحات الأجنبية، وأثرى العربية ثراء كبيرًا.

وإذا كانت دراسة العربية ليست بالأمر السهل، وهذا ما يلجـأ إليـه بعـض خصومها في مناوأتها، فإن هذه الصعوبة واردة في دراسة معظم اللغات الحية، ولكـن الصبر والجلد يذللان كل الصُّعوبات ويزيلان أكبر العوائق.

وسائل الإعلام:

عصرنا الحاضر هو عصر إبلاغ وإعلام،ولذلك تعددت وسائل الإعلام فيه مـن صحافة، وإذاعة، وخطابة، وتلفزة، ومسرح، وسينما، وهـي الوسـائل المـؤثرة في الجماهير، واللغة مع بعض العناصر الأخرى هي أداة هذا الإعلام،وسبيله إلى الوصـول إلى جمهرة الناس،والتأثير فيها سلبًا أو إيجابًا، وأخذًا أو عطاءً... وقد يعلو شأن أمة من الأمم على غيرها إذا كانت وسائل إعلامها أقوى وأبرز. وطريقتها في التـأثير أذكـى وأوعى.

فالأمة المعلمة تحسب في طلائع الأمم رقيًا، إذا كان إعلامها مرتكزًا إلى حقائق دامغة وأسس ثابتة وإلا كان ضرره أكثر من نفعه،وتشبه الأمة المعربة الخطيب المفـوه والكاتب المبين اللذين يبينان عن حاجاتهما ومقاصدهما ببلاغة ويسر، أما الأمة المعجمة فهي شبيه بالعيي وبالأبكم اللذين هما كلف قبيح في وجه مجتمعهما.

وقديمًا قال الشاعر المخضرم" النمر بن تولب" مستعيذًا بالله من الحصر والعيّ:

أعذني ربِّ من حصر وعيٍّ

ومن نفس أعالجُها علاجا

ولا شك أن الأمم اليوم في حاجة إلى تنشيط وتدعيم وسائل إعلامها،فـالإعلام الخبير يلقي أضواء ساطعة على ماضي الأمة وتراثها، كما أنه يبرز الجوانب المشرقة من حاضرها،ويبين ما هي عليه أو ما تصبوا إليه من عزة ومنعة. أو من تطلع إلى مـستقبل حافل يمثل الخير والحق والجمال.

وتلجأ الأمم إلى الإعلام مثلا في جلب المنافع، ودفع المضار،بإبراز ما تملـك في نواحي العلم والفنون والثقافة والآثار أو ما منعته من ظواهر طبيعيـة تجـذب إليهـا

السائحين،كما أنها تلمح – من طرف خفي – إلى ما تملكه من عناصر القوة والسطوة مما يخيف أعداءها، ويجعلهم يحسبون الحساب الكبير لمحاولة الإضرار بها.

ولا شيء أبلغ تأثيرًا من الإعلام الرشيد في الدعاية إلى فكرة حسنة، أو الحث على منهاج قويم.

كما لا شيء أسوأ من الإعلام المضلل الذي يقود إلى المزالق والمهالك إذا كانت الإذاعة، والتلفزة هما أحدث وسائل الإعلام فلا بأس من إفرادهما بإيضاح موجز.

(أ) الإذاعة:

تكاد تكون "الإذاعة" أولى وسائل التأثير في جماهير الناس،فهي من العوامل الهامة لتكوين رأى عام في المجتمعات الإنسانية ذي أبعاد وأهداف، وهي أداة فعالة لنشر الثقافة والإحساس بوحدة المسئولية وإيقاظ الوطنية وروح التعاون البشري.

وبالنسبة لدعم انتشار اللغة العربية تكاد تكون الوسيلة الأم إذا أحسن استغلالها فهي من خلال العربية الفصحى يمكن أن توحد سائر اللهجات العربية وتصهرها في بوتقة واحدة.

و"الإذاعة"بطبيعتها ذات جمهور عريض وموصل ممتاز – كما تقدم – لمختلف نواحي المعرفة والأخبار والتسلية والترفية وتعليم اللغات الحية، وما إلى كل أولئك.

وكما أن لها حسناتها،فإن لها بالتالي بعض المعائب،كاكتفاء المستمع بتلقٍّ سلبي دون المشاركة في حركة الإبداع، والهيمنة على المستمع بقوة التأثير، وفرض مواد إعلانية قد يتضايق لها السامع.

(ب) التلفزة:

أما "التلفزة " فتلتقي مع "الإذاعة" في بعض خصائصها وتفترق عنها من حيث إن المرئي غير المسموع، والغائب غير المشاهد، فأنت في "الإذاعة" تتخيل الصور، أما في "التلفزة" فتراها ماثلة عيانًا ناطقة أمامك. وتكاد "التلفزة " أن تكون امتدادًا للمسرح.

كما أن "الإذاعة" تتيح قسطًا من الحرية للمتحدث،فالكلام في "الإذاعة" هـــو أكثر طبيعية، أما "التلفزة" فتستدعي قسطًا من التوتر والاحتشاد والتكلف في الحـــديث والهيئة.

كذلك فإن الممثل الإذاعي يمكنه أن يقرأ دوره من ورقة مكتوبة وهو يؤديه،أما الممثل في "التلفزة" فإن عليه أن يحفظه غيبًا حينما يؤديه عبر الشاشة.

و"التلفزة" أكثر إراحة للمشاهد، لأنها تجمع أمامه صور الأشياء دون حاجة إلى استعمال خياله وكده في تصورها.

و"التفزة" في حد ذاتها ذات خطر، فقد جارت على كثير من وسائل الإعـــلام فسلبتها جانبًا كبيرًا من جماهيرها واغتصبت بعض خصوصياتها، وهذه الوسائل هـــي: الإذاعة، والمسرح، والصحافة، والسينما.

وإذا كان الإعلان مضايقا في الإذاعة فإنه في "التلفزة" أقل مضايقة لا ســـيما إذا أبتعد عن التسلل خلال البرامج الشائقة، وذلك لما يحتويه من لمحات جمالية في الإخراج.

كيف تستفيد اللغة العربية من وسائل الإعلام:

إن الإفادة من وسائل الإعلام متعددة وتسخير هذه الوسائل لخدمـــة العربيـــة أصبحت واجبًا محتما،إذا أردنا للغتنا سعة الانتشار وسرعته،وهو ما نهدف إليه جميعًا.

ومن الأسباب الفعالة إعداد برامج ثقافية عربية قوية بطريقة جد مشوقة، وتقدم هدية للبلاد الأخرى لتعرض لديها في قنوات الإذاعة والتلفزة.

وكذلك إعداد برامج موسعة لتعليم اللغة العربية يقوم بها متخصصون أكْفاء.. تقـــدم هي الأخرى بطريق الإهداء.

ويمكن أيضًا إرسال بعوث من الإعلاميين العرب للمشاركة في وسائل الإعـــلام الخارجية يشاركون بالجهد والمال في إنشاء إذاعات باللغة العربية،وتتكفل بلادهم بتأمين متطلباتهم الذاتية،ولا شك أن وفادتهم ستلقى الترحيب الكامل من البلاد التي يوفـــدون إليها.

والوسائل عديدة لاستفادة العربية من الإعلام الحديث،متى صـــدقت النيّـــات وصلبت العزائم، ومن أهمها التزام العربية الفصحى وحدها.

خاتمة:

وخلاصة القول أن اللغة العربية بسعتها وشمولها ودقتها، وروعة مفرداتها وجمال تراكيبها ومتانة بنائها أداة طيعة مرنة للإعلام،تستوعب حاجته ولا تضيق بمطالبه، وإذا أحسنا الأخذ بهذه الأداة فإن إعلامنا سيبلغ الأوج، ويستولي على الأمر.

كما أن العربية يمكن أن تفيد بدورها من وسائل الإعلام انتشارًا وذيوعًا.

ولاشك أن من الواجب دائما مضاعفة العناية بتدريس اللغة العربية والتدقيق في اختيار الإعلاميين من أبنائها من محاضرين إذاعيين وصحافيين وكتاب،رواية وتمثيليـــة وقصة،فما أضر قضايا اللغة العربية في إعلامنا الحديث غير الاعتماد على قاصري الأداة ومستصعبي السهل، فهؤلاء من عوامل تعثر العربية، وانحراف مسارها في قنوات الإعلام الصحيح، وهم بالتالي لن يفيدوا من خصوبة هذه اللغة، ووفرة عطائها.

ومن المؤلم حقا أن يسيطر الكثيرون من هؤلاء المهازيل الكـــسالى علـــى الأداء الإعلامي، وتصبح أخطاؤهم وغلطاتهم مفردات وجملا ـــ سائدة مسيطرة علـــى لغـــة الإعلام، والمكتوب والمنطوق، وبحكم التقادم فإنها تضحى أمثلة تحتذى، بل إن بعـــضها قد أخذ طريقه إلى التداول والاستعمال ليس على مستوى الجماهير فحسب، ولكـــن على مستوى بعض من يسمون بالخاصة.

إن من الضروري انتقاء الأشخاص المشتغلين بالإعلام من العناصر الممتازة،ذوي الكفاءة اللغوية،وهم والله الحمد كثر من متخرجي الكليات المتخصـــصة،كما أن مـــن الواجب متابعة الدرس والبحث في جعل العربية أكثر مرونة وأيسر تلقينًا، ولاشـــك أن علماء العربية المعاصرين مهتمون أوسع اهتمام بتذليل عقبات اللغة، متفهمون روح هذا العصر العجلان، الذي هو عصر (الشطيرة) كما هو عصر (الذرة).

وأخيرًا فإن الكسب المعنوي والمادي الذي تجنيه الأمة العربية- داخلاً وخارجًا - من استعمال اللغة العربية في وسائل الإعلام لا يقدر بثمن.

هذه خطرات بالغة الإيجاز، مكتفية بالإشارة الخاطفة عن (اللغة العربية ووسائل الإعلام) والله أسأل أن يوفق شعوب هذه الأمة، ودولها وحكوماتها إلى خير الطـــرق، لخدمة لغتها ورصد كل غال في سبيل رفعة شأنها وإعلاء مكانها.

* * *

اللغة العربية ووسائل الإعلام
أترجمة أم عدوى لغوية؟(*)

للدكتور إبراهيم السامرائي
(عضو المجمع المراسل)

لعل: القارئ ستأخذه طِيرة من العجب أن أستعير كلمة "العدوى" من بيئة الأعراض والأدواء،فأجتلبها اجتلابًا إلى حيز واضح في علم "اللسانيات". غير أني قد استجزت لنفسي هذه الكلمة،فتوسعت في دلالتها توسعًا لا يحمل الضيم عليها،ولا يفسدها على نحو ما يعرض للكثير من الكلم في هذه الأيام، بحجة التطور وبذريعة أن العصر يفرض علينا من الجديد أفانين شتّى.

أريد بـ "العدوى" ما ألحقته الترجمة بالعربية من "ضير"، فقد حفلت العربية المعاصرة بأنماط كثيرة من "الصياغة" "Tournure" ومن غيرها مما يدخل في أساليب التعبير (١). ولقد كنت قد أشرت إلى ذلك في موضوع أعددته لمؤتمر المستشرقين العالمي الذي انعقد في باريس (تموز ١٩٧٣).

والموضوع مهم يتصل بالعربية وسلامتها كما يتصل بعلم "اللسانيات"، من حيث إن أنماطًا لغوية خاصة بلغة غربية فرنسية، ثم إنكليزية، قد وجدت السبيل إلى

(*) نشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الثالث والأربعين، ص ٩٩.

(١) قد يخطر في أذهان الدارسين ما يقابل هذه المواد المستعارة في اللغات الغربية(أخص منها الفرنسية والإنكليزية) وهو ما تفرضه العربية على هذه اللغات من الكلم والمصطلح والأساليب. وهذا موضوع تاريخي كتب فيه الغربيون، فأشاروا إلى الدخيل العربي في الفرنسية والإنجليزية والأسبانية وغيرها من اللغات، وصنفت في ذلك مصنفات معروفة. وقد تجاوز الأمر هذا الدخيل، فكان نمطًا جديدا من الفرنسية التي يحررها العرب من التونسيين والجزائريين والمغاربة. وهذه من الأنماط الظاهرة التي وقف عليها علماء اللغة واللسانيات من الفرنسيين.

انظر مقال الآنسة "زهرة رباحي" بالفرنسية،والمرسوم به اللغة الفرنسية كما تتكلمها" الإطارات التونسية" (في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد١٣ مارس ١٩٨٦ ص ١ - ٢٤). وقد آثرت أن أثبت كلمة " الإطارات"،لأشير إلى أن التوانسة وغيرهم من الإفريقيين قد استعاروا كلمة (cadre): الفرنسية واستعملوها مجازًا استعمال الفرنسية لها على غير الحقيقة. ومن غير شك أن الإنكليزية المستعملة لدى غير الإنجليز قد عرض لها من الجديد والدخيل ما أحالها إلى إنكليزية أخرى.

هذه العربية فبدت عربيـــة جديـــدة،وسمت بسمات من " التغريب" (بالغين المعجمة) ولا أقول " التعريب"، فقد اتجه هذا المصطلح الأخير وجهـــة جديـــدة تختلـــف كـــل الاختلاف عن" التعريب"، الذي عرفته العربية في عصور ســـلفت. إن "التعريـــب" في اصطلاح أهل عصرنا هذا يعني الترجمة والنقل من لغة إلى أخرى.

وإذا كنا نترجم عن اللغات الغربية، ولاسيما الإنكليزية والفرنسية،فمن المعلـــوم أن طائفة كبيرة من هؤلاء المترجمين النقلة يحدثون جديدًا غريبًا،يـــضاف إلى العربيـــة الجديدة. وليس من حرج على أن أستعير عبارة أهل العلوم في عصرنا،فأقول: إن كيان العربية لا يقبل في أغلب الأحايين هذا الجسم الغريب، الذي أريد له أن يزرع فيه فيجد له مكانًا. لقد شاه هذا الجسم وساء مغرسًا، ولكننا قد ألفنا هذه اللغة بِعُجَرِها وبُجَرِها كما قيل.

لا أريد أن أحجر على المعربين فأذهب إلى شيء من "قل ولا تقل" وذلك لأني موقن أن العربية واسعة،وأن كثيرًا مما أشير إليه أنه ليس من كلام العرب كـــان مـــن كلامهم،بل من كلام الصفوة أهل الفصاحة واللسن. وهل في طوقنـــا أن نـــذهب إلى القول إن العرب لم تقل كذا وكذا،ونحن لم نملك الكثير من كلام العرب؟ وأن القليـــل الذي بين أيدينا لم نحط به علمًا؟ وإني لأذكر أحدًا من هؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب من إخواننا المصريين،قال: إن كلمة "بعض" تدل على الجماعة وليس على "الواحـــد" وهو يرد بذلك على الأستاذ الدكتور مصطفى جواد - رحمه الله - أقول: لقد فـــات هذا الأستاذ الفاضل أن كلمة "بعض" تدل على الجماعة وعلى الواحد،وهي كذلك في لغة التنـــزيل في آيات عدة. فإذا كنا لم نحط إحاطة كافية بأشهر كتاب مـــن كتـــب العربية الجليلة،وهو كتاب الله - جل وعلا - فكيف يتأتى لنا أن نقول هذه المقولـــة: فنذهب إلى أن العرب لم تقل كذا وكذا؟

أعود فأثبت أني لا أومن بهذا المنهج، وأن هذه المعيارية" شيء عرفه المتقـــدمون وقالوا به، ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه، فقد تجاوزتهم اللغة إلى أشياء كثيرة.

ألم يكن الكثير من مسألة "عمود الشعر" والخروج عليه شيئًا يقدح بهذه المعيارية الخيالية؟

ولا بد من عودة إلى "الترجمة وآفاقها" لأشير إلى أن المتقدمين أحسو بعسرها، وأنها مشكلة ليس لنا أن نصل فيها إلى سمت المحجة وقصد السبيل كما يقول الجاحظ. لقد فطن الجاحظ إلى أن الترجمة مطلب عسير وأن ليس في طوق المترجم أن يأتي بالعلم لما يمكن أن تنال لغة من لغة أخرى، فقال في صفة هذا المترجم:"ومتى وجدناه أيضًا قد تكلّم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعتين فيه،كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها" (١).

وهذا يعني أن الترجمة عمل صعب، وأن صاحب الترجمة لا بد أن يكون ذا علم وافٍ باللغتين،وإلى هذا أشار الجاحظ،فقال في صفة المترجم:"أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية" (٢).

وهذا النمط من التراجمة فريد لا نعرفه إلا في فئة قليلة من أهل العلم. ولعل الجاحظ كان يقصد إلى هؤلاء في كلامه على القصّاص، حين قال:
"ومن القصّاص: موسى بن سيَّار الأسواري، وكان من أعاجيب الزمان،كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله،ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين. واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخل كل واحدة منها الضيم على صاحبتها إلا ما ذكرنا"(٣).

---

(١) الجاحظ: الحيوان ١ - ٧٦ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) الجاحظ: البيان ١ - ٣٦٨.

ولقد أشار ابن خلدون في "المقدمة" [١] إلى معايب الترجمة وما تؤول إليه، وأنها تؤدي إلى شيء غير مقبول في اللغة، فقال: " لأن البعد عن اللسان إنما هـو مخالطـة العجمة، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد".

وامتحن المحدثون بأمر الترجمة امتحانًا شاقًّا حتى ذهب أهل العلم والنصفة مـن الإيطاليين إلى القول: "إن المترجم خائن" (Traduttor tradittore). وما أظـن هـؤلاء ذهبوا إلى هذا التماسًا للسجع والمشاكلة، على نحو ما قيل عن الصاحب بن عباد أنـه خاطب قاضيًا بمدينة" قمّ " فبدأ الكلام بقوله:"أيها القاضي بقمّ" فلم يجد ما يتم به هذا الخطاب،إلا بقوله:" قد عزلناك فقُمْ ".

أقول: لم يكن شيء من هذا دفع أهـل الفصاحة من الإيطاليين أن يـذهبوا إلى أن " المترجم خائن" والترجمة خيانة، ولكنهم خبروا من أمرها عُسرًا، أدركوا أن النقل يجور على اللغتين أيما جور.

ومن المفيد أن أشير إلى شيء مما نال العربية من هذه الأساليب المترجمة التي تفتقر إلى الفصاحة. لقد أخذ الناس يقرؤون في المجلات والصحف،مثلاً: " إن الشاذلي أحـد أكبر العسكريين العرب [٢]....".

ألا ترى أن هذا الأسلوب في إضافة "أحد" إلى "أكبر العسكريين" أسـلوب لا تعرفه العربية؟ وهو من باب إضافة " الواحـد" إلى "الواحـد" وذلـك لأن "أكـبر العسكريين" واحد في الأصل، إلا أن يكون في التعبير ما يشير إلى غلبة المـضاف إليـه وهو" العسكريين". إن هذا لتأثر بأسلوب مترجم هو:...one of the bigger .

ولو أدرك الكاتب أن في العربية ما يغنيه عن هذه الرطانة لاهتدى إلى أن الأداة "من" الجارة تفيد التبعيض، فكان عليه أن يقول: "إن العقيـد الـشاذلي مـن أكـبر العسكريين" وأعيد لأذكّر أن هذا ليس من باب "قـل ولا تقـل"، ولا مـن بـاب

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٥٥٨.

(٢) مجلة الوطن(السنة الثانية، العدد ١٠٠، ص ١٣).

"التحجير"، فاللغة واسعة، ولكن ذلك يشير إلى التداخل اللغوي الــذي جــاءت بــه الترجمة،فأساءت إلى بناء اللغة وكيالها،ثم إني لأذهب إلى أن التصحيح تفرضــه علينــا معايير جمالية مما ندعوه بالمصطلح المعرَّب "الاستطيقا" الذى أشار إليه النقدة والفلاسفة المتقدمون[١] ألا ترى أن استعمال "من" الجارة هو أرشق عبارة وأخفّ لفظًا وأهــدى سبيلاً؟

وإذا جئنا إلى اللفظ الجديد في دلالته لرأينا نماذج جاء بها المترجم،جاهلا لمعــنى الكلمة الأجنبية أم غير جاهل، ومن هذه قولهم:"المعطيات" [٢].

ولعلي بحاجة أن أتوسع في الكلام على هذا الجديد الذي لم يستقر المعربون على دلالته استقرارًا يوحي أنه مادة عربية. إن "المعطيات" جمع مؤنث للمفرد "معطى"، وهو اسم المفعول من "أعطى" الرباعي. وقد جمعه المترجم الناقل لأنه قد خُيِّلَ إليه أنه يؤدي الكلمة الفرنسية (Les données)، وصيغة الكلمة الفرنسية اسم مفعول مؤنث مجموع، فكان المترجم على حق فى أخذ المقابل العربي اسما مفعولا مؤنثا مجموعًا.وهكذا نشأت كلمة جديدة شاعت شيوعًا عجيبا فى كتابات أهل هذا العصر من يعرف منهم اللغــة الفرنسية ومن يجهلها.

قد تقول: وهل من بأس أو ضير في هذا الجديد الوافد؟وأجيب عن هذا السؤال بأن الكلمة الجديدة يستعملها جمهرة من الناس ولا يدركون دلالتها،وقد تسأل أحدهم عنها فيجيب: "إنها أفكار"، وهل تكون "الأفكار" في عموميتها "معطيات"؟ ويجيــب آخر،فيذهب إلى أنها "إيحاءات" أو "مقترحات" أو أشياء أخرى.

والكلمة الفرنسية في "المعجم الفرنسي"، وفى استعمال الكتــاب مــن أهــل الاختصاصات وغيرهم،تعني: "النقاط التي لا تناقش ولا يتنازع فيها" فهل ترانا بلغنــا المراد في "المعطيات "؟.

---

(١) انظر كتاب الألفاظ ،للفارابي (ط . الكاثوليكية).

(٢) فقه اللغة المقارن، إبراهيم السامرائي (بحث تعابير أوربية في العربية).

وقد أدرك اللغويون المحدثون هذه الناحية،فكتبوا فيها مصنفات أشاروا فيها إلى الصعاب التي تعترض سبيل المترجم، وما ينتج عن هذه المهمة من الـدخيل والمسخ والنسخ والتحريف والترجمة الحرفية وآفات أخرى.

ومن هؤلاء اللغويين الذين شغلوا بمسألة "تداخل اللغات" العالم اللغوي "يورييل فاينرايش" (Uriel weinreich)، فقـد صنف كتابًا في الموضوع نفسه، وسِم: "اتصال اللغات" (Languages in contact)[1]. وقد نبَّه هذا العالم إلى ملاحظة ما يعرض لأية لغة من معايب حين ينقل إليها شيء من لغة أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن من يضطر إلى أن يعرب بلغة غير لغته الأصيلة،وهو لا يجيد اللغة الأخرى إجادته للغته، أو قل إنه لا يعرب باللغة المكتسبة إعرابه بلغته الأولى،إن هذا النفر من غير شك ليضيف إلى اللغة الأجنبية التي يحمل عليها إضافات غير محمودة تنال من جوهرها فضلا عن بهائها وجمالها. ومن هنا نشأت إنكليزية المستعمرات أو ما وراء البحار،كما نشأت فرنسية إفريقية، أو فرنسية أخرى.

ومثل هذا يعرض للغات كافة،فليس بدعًا أن تكون لنا عربية جديدة،فيها مما يتصل بالنحو وبناء الجملة وما يتصل بالصرف والأبنية،ثم ما يتصل بالأصوات والدلالة شيء جديد قد يكون عجبا في بعض الأحايين.

ولقد أشار إلى التحريف والعيوب التي تلحق أسلوب المترجم،وهو ينقل إلى لغة أخرى المسيو "جان بول فيني" (Jean Paul Vinay) في بحث له ضمه كتاب يشتمل على بحوث أخرى[2]. وقد جاء بشواهد عدة تشير إلى ما عرض للمترجم من صعاب جنبته سواء السبيل.

ومن المفيد أن أشير إلى شاهد اقتطعته من دراسة فى الترجمة[3] للسيد صالح الفرماوي التونسي، وهو يشير إلى الفرنسية التونسية وتأثيرها في العربية نقلا وترجمة.

---

(١) من منشورات الحلقة اللغوية لمدينة نيويورك (Languistic circle of New york) وطبع طبعة زيد فيها في مدينة لاهاي سنة ١٩٦٢.

(٢) ورسم الكتاب بـ (Le Langage) في سلسلة دائرة معارف بلياد (Encyclopédie de Pléide)

(٣) من بحث للأستاذ صالح الفرماوي، موسوم بـ" الترجمة من حيث هي عامل هام من عوامل العدوى اللغوية".

يقول الفرنسي: (Je nai Plus faim) يعرفها العربي في الشمال الإفريقي والعربي في المشرق، فيتأثر بها وهو يدرج في كلامه الشفوي أو قـــل: وهو يكتب فيقـــول:"لم يعد عندي جوع".

وهذه ترجمة حرفية، ولو قال: شبعت لكان أوفى لعربيتـــه. ومـــن المعلـــوم أن للشعوب طرائق خاصة في الإعراب عن المعاني والأعراض،فقد يكتفي الشرقي المسلم في هذه الحالة بقوله: الحمد لله، بعد الانتهاء من تناول الطعام؛ كناية عن اكتفائه وشبعه.

غير أن قول القائل: لم يعد عندي جوع تشبه. ما نسمعه في ديار المشرق العربي مـــن قولهم:"عندي جوع" وهذا نظير قول التونسي: لم يعد عندي جوع وهو فرق ما بـــين الإثبات والنفي. ولا أشك في أن تكون هذه العبارة المشرقية قد جاءتنا ترجمة حرفيـــة لاستعمال إنكليزي ثم فرنسي.

ومن المفيد أن آخذ شيئًا من تجربة تونسية،أشار إليها الأستاذ صالح القرمادي في البحث الذي نوهنا به قبل قليل.

جاء في البحث المشار إليه:"ومثل ذلك يقال في المثالين التاليين، وقد اخترناهمـــا من نصوص قمنا بترجمتها شخصيًّا:

١- النصّ الفرنسي:

(Jé Prefére La montagnà La mer) .

الترجمات العربية:

١- أفضِّل الجبل على البحر، وهي ترجمة حرفية.

٢- الجبل عندي أفضل من البحر. وهو تحوير أو تكييف.

٣- وللجبل خير لي من البحر وأبقى. وهو تعديل منسوج علـــى منـــوال الأســـلوب القرآني.

٢- النص الفرنسي[١]:

.(La gros rouge qui détache)

الترجمات العربية:

١- الأحمر الغليظ الذى يفصل. وهو ترجمة حرفية سمجة.

٢- الخمر الحمراء المبتذلة،التي لا تبقّع الثياب،بل يبقع رأس صاحبها إلى حيث لا ندري، وهذه ترجمة فيها شيء من التكلف والإفراط فى التحليل لا محالة. إلا أنها تدل على توفق المترجم مبدئيًّا إلى العثور على مرادف غربي للتورية الفرنسية الموحى بها في عبارة (detache) المقلوب عن (tache)، وهذا المرادف هو بقّع وأبقّعُ.

ولئن كانت هذه الإمكانيات المتعددة في نوع درجات الترجمة من لغة إلى أخرى ناتجة عن اختلاف الثقافات في العالم، فإن مرَدّها الأساسي من حيث علم الألسنة إلى أن كل لغة يصنف أصحابها التجربة البشرية تصنيفًا خاصًّا، كما ذهب إلى ذلك العالم الألسني الفرنسي"اندري مارتيني" (Andre Martinet)[٢].

وقد تأثرت اللغة الإعلامية الممثلة بالإعلان المذاع، وما يكتب في اللوحات أو قطع القماش، أو في الجدران مما يراد به الإعلان والدعوة لشيء من الأشياء.

ومن هذا ما سمعت من إحدى الإذاعات العربية، أن المذيع يتلو جملة هي:

"آخر صيحة في عالم الساعات" وهو يقابل في عبارته ما تذيعه الإذاعة نفسها في اللغة الفرنسية، وهى: (Dernier cri dans Le monde des montres)

وإذا عرفا أن هذه اللغة الجديدة تجاوزت حدودها،فليست هي مقصورة على اللغة السائرة الدارجة،مما يدخل في الإعلان والتجارة والخبر السياسي والفائدة

---

(١) قارن بين مختلف كيفيات أداء نفس المعنى، وهو الصّراع في اللغات الآتية:

مثلا في العربية الفصيحة: برأسي ألم. وفى العربية التونسية: رأسي يوجع فىّ .

وفى الفرنسية:(J' ai mal a La tête) . وفى الانكليزية (l have a headache).

وفى الإسبانية (me duele La Cateze). وفى الروسية(Golova mnie bobit).

(٢) بحث الأستاذ صالح القرمادي الذي أشرنا إليه.وهو غير منشور ولكنه أعد ليلقى بندوة علمية.

الاقتصادية، وإنما وجدت سبيلها إلى لغة الجد في المادة الأدبية، وسائر ألوان النشاط الفكرة.

وحسبك أن تعلم أن عبارة:

الأكثرية الساحقة: La majorité écrasante

قد وردت في فتوى دينية لأحد العلماء والأعلام من المراجع الدينية. وهذا يعني أن اللغة المترجمة مما ندعوه بـ "المولد الجديد" قد شاع شيوعًا تامًّا حتى خيل لكثير من الناس أنه مادة عربية. ومن أجل ذلك استعمله هؤلاء المفكرون الكبار من غير أن يشعروا أنه مولد جديد لا تعرفه العربية الفصيحة. ولم يتساءل هؤلاء كيف توصف "الأكثرية" بـ "الساحقة"؟ ومن أولئك الذين تسحقهم الأكثرية؟ وأكبر الظن أن هؤلاء لم يخطر في أذهانهم أن العبارة اجتلبت من بلد يحكمه نظام يقوم على المجلس النيابي الذي تكون فيه"أكثرية" "وأقلية".

ومن المفيد أن أقف على هذه الأبنية المختومة بياء النسبة، مع تاء التأنيث.

لقد وجدوا أن الكلمة الأجنبية مؤنثة (Majorité) فكيف يكون المقابل العربي مساويًا في التأنيث للكلمة الأعجمية، فلم يكن منهم إلا أن يفزعوا إلى هذه الصيغة المنسوبة المؤنثة.

وقد شاعت في الحقبة الأخيرة ألفاظ منسوبة ثقيلة، مثل المدة "الأصغرية" والاتفاقية "التصفوية" و"البرامج التنموية" والاتفاقية "النووية".

وشيوع هذه الألفاظ المنسوبة دليل على غياب الشعور بالفصاحة والقرب من العجمة، ذلك أن هؤلاء المعربين لم يشعروا أن أسلوب الإضافة يؤدى ما تؤديه هذه النعوت المنسوبة الثقيلة. ألا ترى أن قولنا: اتفاقية التسوية أو التصفية، وبرامج التنمية أخف لفظًا وأرشق عبارة من الاتفاقية النووية أو التصفوية.

لقد اضطر المعربون في مطلع هذا القرن إلى أن يستعملوا هذا الأسلوب في قولهم: الأنظمة التربوية، وعلم النفس التربوي.

ولعل هذا قد كان بسبب من الترجمة الحرفية المقيتة. أما المدة "الأصغرية" فتلك طامة "كبرى"، وهى إن دلت على شيء، فإنما دلالتها عجمة مستحكمة، فقد جهل الناطقون بالعربية أن الصفة "الصغرى" التي تترشح للتفضيل أحيانًا، تغني عن هذه" الأصغرية" القبيحة.

ومن هذه الأساليب الجديدة قولهم في العربية:

" لتغطية حاجاتنا" وهذا ليس من العربية فى شيء، بل هو ترجمة حرفية للعبارة الفرنسية (Pour La couverture de nos besoins).

ولقد شاعت هذه "التغطية" حتى صارت شيئًا لابد أن تجده في كثير مما يكتب في الصحف.

يقال مثلا: "لقد كلّف فلان بتغطية وقائع المؤتمر"، ويريدون ضبط الوقائع والإخبار عنها ولو أن أحدًا كان قد سمع هذه العبارة قبل ما يقرب من ربع قرن لفهم عكس ما يراد فهمه منها في هذه الأيام. أن "تغطية" الشيء في العربية تعني: حجبة وإخفاءه، فكيف كان العكس في لغة عصرنا هذا؟ هذا ما لا نريده لهذه العربية مع إقرارنا بالحاجة إلى تطويرها وتطويعها لحاقًا بما عند الأمم الأخرى.

ولعل أقطار الشمال الإفريقي قد عرفت من أمثلة هذه الرطانة شيئًا كثيرًا نلمحه فى أسماء المتاجر والمقاهي وغيرها من المحلات العامة. أنك تقرأ مثلا في واجهة إحدى المقاهى فى مدينة الجزائر: مقهى النهاية، وهو من غير شك ترجمة لاسم مقهى بالفرنسية هو: (Café Terminus).

والاسم بالفرنسية يعني "النهاية" أي نهاية الشارع أو نهاية الخط الذي ينتهي إليه القطار أو الحافلة.

غير أن ترجمة الكلمة الفرنسية (Terminus) إلى كلمة (النهاية) بالعربية،ذات إيحاءات مفزعة لا نحسها في الكلمة الفرنسية.

وقد يتسمح غير المعنيين باللغة والكتابة الأدبية والعلمية من التجار والصناع وأصحاب المصالح العامة بالمادة اللغوية، فيبيحون لأنفسهم ما لا يتقبله أهل الجد والعلم.

ومن ذلك ما وجدته في بحث الأستاذ جان بول فيني[1] (j.P.vinay) الذى أشرنا إليه من أنه وجد في "كندا" الفرنسية،إعلانًا يدعو الناس إلى التوفير والإدخار، فيعبر عن الادخار بأنه: (Passe Port Pour une meilleur Vie).

وهو ترجمة للنص الإنكليزي:

(Passport to better Living).

وقد يتجاوز هذا الدخيل مسألة الألفاظ والتعابير إلى الأصوات والأبنية،وشيئًا من النحو كما سنتبين:

التداخل الصوتي:

من غير شك أن الأصوات العربية تفتقر إلى أصوات لا نجدها في عدها كالأصوات اللاتينية: (V.p.G.). ولقد امتحن المتقدمون بهذه المواد فاختاروا لها الفاء لـ (P) والواو (V) والغين لـ (G) ولكنهم لم يثبتوا على هذا المتعارف المشهور. وكان الحق أن يكون في العربية القديمة التي وصلت إلينا في مواد الشعر الجاهلي ولغة التنزيل العزيز والتي خلت من هذه الأصوات، هذه الأصوات المشار إليها،ذلك أنها أصوات عرفتها اللغات السامية الأخرى.ومن غير شك أن اللهجات العربية القديمة قد عرفتها أيضا ولكن الفصيحة المشهورة قد تجاهلتها.

لا أريد أن أدخل في علم الأصوات التاريخي للعربية، ولكني أستدرك فأقول أن العربية المعاصرة قد امتحنت بهذه الأصوات وهي تنقل الكلم الأعجمي أذكر أني عرفت الشاعر الفرنسي (Victor Hugo) وأنا صغير قد تجاوزت مرحلة الدراسة الابتدائية في كتابه الشهر "البؤساء"، فعرفت أن هذا الشاعر الكبير قد عرفه قراء العربية الذين لا يعرفون الفرنسية بأسماء عدة هي:"هيجو، هيكو،هوجو، هوكو، هوغر، هيغو" ومن المعلوم أن ليس بين هذه الكلم شيء يفصح عن النطق الفرنسي. أما (Victor) فكان بالفاء. وليس "الفاء" نظير الصوت (V) وأهل الأصوات يعرفون هذه الحقيقة الأولية.

(١) المرجع المذكور آنفاً (سلسلة دائرة معارف بلياد).

وقد نتجاوز هذا القدر من الأصوات الساكنة هذه (Consonnes) إلى الأصوات الصائتة أو المصوته، ولا أقول "العلة" [1] ويدخل في هذا ما ندعوه في العربية بـ "الحركات".

ولنأخذ مثالا على ذلك نطق العلم المشهور الفرنسي "الجنرال ديغول" نسمع العربي ولاسيما في الشمال الأفريقي ينطق هذا العلم المشهور وهو يعقب صوت الدل (d) بـ (e) وهى حركة وسطية نصف منغلقة وبالصوت (g) وهو صوت في أقصى الحنك شديد مجهور فرنسي لا نعرفه في العربية الفصيحة، وإن كنا نباشره في اللهجات العامية الدارجة.

وقد يكون هذا محدودًا بالنطق، فلا يتجاوز الأمر إلى إحداث شيء مما ندعوه بـ "الفونيم" في علم الأصوات.

ومن التداخل ما يتصل بالأبنية الصرفية الجديدة.

لقد شاع في اللغة المعاصرة ضرب من التركيب الذي يؤلف أبنية مركبة غريبة ليست من النحت الذي عرفته العربية كقولهم:

"انكلوساسون"، وهو من (Anglo- saxon)).

"افرو آسيوي"، وهو من (Afro - asiatique).

"هندو – أوربي"، وهو من (Indo - européen)).

"الصناعات البترو –كيماوية "، وهو من (Les Industries Pétr -Chimiques).

وكأن المعربين في عصرنا عدوا هذه الأبنية مواد عربية، ومن أجل ذلك عوملت معاملة الكلم المنحوت، فأنت تجد ياء النسبة في آخرها، كقولهم: الصناعات البتروكيماوية. واللغات الهندو أوربية وهكذ.. .

---

(١) أقول: إن مصطلح العلة مصطلح لا يفي بالحقائق العلمية للأصوات اللينة "أصوات المد مع الحركات" وذلك لأن هذا المصطلح لا يتكفل بحقيقة هذه الأصوات وطبيعتها ومادتها وكيف تحدث، بل يشير إلى أن هذه الأصوات لا تثبت، فيعرض لها الإبدال، وهذه "علة" فيها؛ أي أنها لا تساوي الأصوات الأخرى التي نسبوا إليها الصحة والسلامة.

ولنعرض لشيء آخر يتصل بالبناء الجديد في الجملة العربية، ومن ذلك ما شاع من استعمال الكاف التي لا يراد بها التشبية، كأن يقال:"هو كأستاذ" والمراد: هو من حيث كونه أستاذًا. وهذا من الفرنسية:

(I est comme Professeur)

وقد يكون من سوء فهم الدلالة الصحيحة أن تأتي الترجمة أبعد ما تكون عن الأصل. ومن أمثلة ذلك الفعل (Connaitre) تترجم غالبًا بالفعل "عرف" ولكنه يعني "عانى" وقاسى و"كابد" في قولهم مثلا:

(M. Nixon a connu toutes les étapes de cette dégradatio).

وكانت الترجمة العربية:"لقد عرف السيد نكسون كل مراحل هذا الانحطاط".

وليس من مكان للفعل"عرف" في الجملة الفرنسية، ذلك أن الفعل الفرنسي (Connaitre) يعنى من بين معانيه الكثيرة (eprouver) أي عانى وقاسى وليس "عرف" فإذا ترجمنا الفعل الفرنسي بـــ "عرف" لم نحظ بالمعنى المراد.

ومثل هذا ما قرأته منذ زمن ليس ببعيد: "أن مصر تعرف أزمة أقتصادية" والفعل الفرد في هذه الجملة هو (Connaitre) ولا يعنى هذا "عرف" إنما يعنى"المعاناة" "والامتحان".

مثال آخر (١):

Aprés avoir resisté Pied a Pied aux requisitions,, qui Lui Parvenaient de La comission d,enquét du Sénat et du Procureur spécial, épaissisant le trouble autour de lui, il s' est declare mercred,.

الترجمة:

وبعد أن صمد تجاه الاستدعاءات التي توجهها إليه لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ والمدعي الخاص والتي تزيد في شدة الحيرة والارتباك حوله أعلن يوم الأربعاء...

قال الأستاذ صالح القرمادى:

---

(١) المثال مأخوذ من بحث الأستاذ صالح القرمادى الذي أشرنا إليه.

"هنا ينبغي الإدلاء بعدة ملاحظات، فمن الجدير أولا ــ وبالضدّ ممــا ذكرنــاه (كذا) من تداخل إلى حد الآن أن نلاحظ المجهود الذي قام به المترجم قصد اجتنــاب العدوى والتأثر بالفرنسية. ومن ذلك أنه قال:" لجنة التحقيق التابعة لمجلس الــشيوخ.." و لم يقل لجنة التحقيق لمجلس الشيوخ (باستعمال حرف اللام (ل) مرادفا للحرف (de) الفرنسي".

واستعمل المترجم:"تزيد في شدة" مقابلا لــ (épaissir). (وهذه الترجمة هــي التوصل إلى المعنى) بطريقة غير مباشرة.

واستعمل المترجم:" الحيرة والارتباك" مقابلا لــ (trouble) واستعمل لفظــتين مترادفتين موزونتين، ومن خصائص اللغة العربية الفصحى القديمة المرموقة (كذا).

كما يجدر بنا ثانيًا أن نلاحظ ما جاء في هذه الفقرة من تأثر تركيــب الجملــة العربية بتركيب الجملة الفرنسية، من ذلك استعمال جملة فرعية زمانية تبتدئ بــ "بعد أن" قبل الجملة الأصلية التي تبتدئ بالفعل "أعلن" وذلك رغم طول تلك الجملة الزمانية وتشعبها؛لاحتوائها على جملتين فرعيتين ثانويتين موصولتين (كذا) (التي... التي...).

وهذا الترتيب إنما هو من خصائص الجملة الفرنسية في الأسلوب الأدبي، وأما العربيــة الفصحى القديمة فقد كان الترتيب العادي بها باستثناء الجمل الزمانية المبدوءة بــ "لما" أن يعكس الإنسان،فيأتي بالجملة الأصلية ثم بالجمل الفرعية".

انتهى كلام السيد صالح القرمادي.

أقول: إن الجملة في ترتيبها كما ظهرت مترجمة متأثرة من غير شك بالترتيــب الفرنسي في الجملة الفرنسية. غير أن كلام السيد القرمادي في ترتيب الجملة العربيــة الفصيحة وكيف تأتي الجملة الأصلية مبدوءًا بها ثم تأتي الجمل الفرعية غير سديد؛ وذلك لأن الجملة العربية تبدأ بما هو المراد،فحيث أريد تعيين الذات بدئ بالاسم، فإن أريــد تعيين الحدث بدئ بالفعل، فإن احتيج بيان المكان أو الظرف أو الحال الخاصة بــدئ بالظرف أو الجار والمجرور أو نحو هذا. قال تعالى:"إياك نعبد وإيــاك نــستعين" وقــد

يتجاوز التداخل اللغوي فيحمل الضيم على شيء من خصائص النحو القديم، ومن أمثلة الفصل بين المتضايفين، كقول غير العارفين بفصيح العربية:

(سكرتير عام لجنة التنسيق" وهو من:)

(Secrétaire général du comité de coordination).

كان الصحيح الفصيح أن يقال جريًا على سنن العربية:" سكرتير لجنة التنسيق العام" أو"السكرتير العام للجنة التنسيق". غير أن التأثر بالأسلوب الأجنبي جرَّ المترجم إلى إتباع ما لا يجوز في العربية: ومثل هذا مسألة العطف على المضاف قبل المضاف إليه، كأن يقال:

دراسة لغة وأدب العرب.. .

وهذا يقابل في الفرنسية:

Etude/ de/ la/langue/ at/de/la littérature des Arabes.

وكان الصحيح الفصيح أن يقال:

دراسة لغة العرب وأدبهم.

خاتمة:

هذه نماذج جد يسيرة كشفت عن أن العربية المعاصرة يتعاورها الدخيل والغريب حتى أحالها إلى شيء جديد. وهذه المظاهر تلقاها في أنماط شتى من هذه اللغة، فليست هي خاصة بـ "لغة الصحافة" بل تجاوزتها إلى لغة الصفوة من أهل الجد والعلم. ولا تعدم أن تجد في لغة أهل الأدب والمعنيين بالعلوم اللغوية أشياء كثيرة منها.

وبعد أليس هذا هو "التغريب"؟ بالغين المعجمة. لا "التعريب"؟ وهل ترانا أسعد حظًّا إن كنا نركن إلى "التعريب"؟

وهذا التعريب ترجمة ونقل لأساليب غريبة بعضها شرّ لا بدّ أن نطرحه جانبًا، وبعضه شرّ لا بدّ منه، وبين هذا وذاك منافع جمة لا بدّ منها لحضارةٍ معاصرة.

* * *

لغة الصحافة في بلاد الشام*

للدكتور عدنان الخطيب
(عضو المجمع)

١- تمهيد:

قبل أن أبدأ حديثي عن "لغة الصحافة" وأنا لست من رجالها، يجدُر بي أن أنّوه بالمحاضرة التي أتحفنا بها قبل عامين أحد بقية السلف من شيوخ الصحافة المصرية الزميل المحترم محمد زكي عبد القادر وقد افتقدناه في نهاية مؤتمرنا السابق تغمده الله بواسع رحمته.

لقد اضطُر فقيدنا الكبير إلى الإفاضة في الكلام عن لغة الصحافة المصرية في عهدها الذهبي، أيام روادها الأعلام؛ ليصل إلى الكلام عن "العهود التي أخذت فيها لغة الصحافة بالتدني، وهي تعنى بالخبر الجديد وبالقصص المثيرة أكثر من عنايتها باللفظ الفصيح والأسلوب الرفيع".(١)

يومها قلت للزميل العزيز: "لو اضطُر أي عربي بعدك إلى الكلام عن لغة الصحافة في بلاده، لما جاء بأكثر مما حدثتنا به؛ لأن صحافة مصر بالنسبة إلى صحافة سائر الأقطار هي كمصر نفسها: الرائدة والمثل المحْتَذَى وغيرها عيال عليها ".

وإذا كان الكلام عن لغة الصحافة في مصر؛ يغني عن الكلام على صحافة غيرها عامة، فهو أشد غناء بالنسبة لصحافة بلاد الشام خاصة، فهما توأمان عاشا فترات طويلة يتبادلان المحررين؛ مشتركين في الطموح والآمال على أنهما يتصاولان إذا ما أفسد بينهما الزمان.

وفي هذه الأيام تكاد تكون لغة الصحافتين واحدة؛ لأن موضوعاتهما الرئيسة أو الرئيسية (نسبة إلى رئيس كل قطر) هي واحدة تعالج باللغة نفسها في نصاعة أساليبها أو

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثانية لمؤتمر المجمع في دورته التاسعة والأربعين، الثلاثاء الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢م ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والخمسين، ص ٢٩.

(١) انظر: وقائع مؤتمر ١٩٨١، عدنان الخطيب: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني.

أعجميتها أو ركاكتها، وإن اختلفت كل واحدة عن الأخرى في آرائهـــا واتجاهاتهـــا، فكلها تقريبا تدور حول "كارثة فلطسين" وما يتصل بها من موضوعات، إضافة إلى أن غالبية العاملين في الصحافة اليوم هم من مثقفي العصر المتخرجين في الجامعات العربية، وبرامج هذه الجامعات متماثلة ومستوى الخرجين فيها يكاد يكون متقاربًا.

على أني سأتجنّب في حديثي الكلام عن ماضي الصحافة وتاريخها؛ لأســـرع في الانتهاء إلى الغاية المتوخاة من البحث، وسأكتفي بذكر سببين من أسباب دفاعنا عـــن الفصحى وحرصنا على التزام الصحافة بها وبالأساليب العربية السليمة، أحدهما يهـــم الكُتّاب أنفسهم بشكل خاص، والآخر يهم العرب كل العرب.

السبب الأول: يكمن في جواب جاء على لسان أستاذ جامعي معـــروف يـــوم سئل: هل قرأت رواية الأديب السوداني المرموق الطيب صالح الحديدة، فقال: "اشتريتها من سنوات وحاولت قراءتها فوقفت كثرة العبارات السودانية الدارجة في الحوار عقبـــة بيني وبين إتمام قراءتها "[١]

السبب الثاني: جاء في حوار مع أديب فلسطيني مكافح كان يكتب بالعاميّـــة، قال: ".. عندما بدأت أكتب، كان يهمني أن أكتب، و لم أكن أعنى مثل الكثيرين باللغة وقد كنت أبرر عدم العناية باللغة بـــ (الثورية) .. فما دمت أثور على اللغة ولا أهـــتم بقواعدها، فلماذا أتعامل معها؟ ولماذا أيضا أهتم بترتيب الجمل والفقرات؟" وبعـــد أن ذكر كيف تكشفت له حقائق المؤامرات على العربية — وهدفها تجزئة الوطن العربي إلى شعوب يتعصب كل واحد منها إلى لهجته – قال: " لقد تعلمت من ناقـــد عـــربي أن الكتابة بلغة صحيحة هي التي تخدم القضية، ولقد عمدت منذ ذلك الوقت وحتى الآن إلى تطوير أدواتي... إنني أتعلم، وإنني مُصرّ على التعليم؛ لأنني فعلا أريـــد أن (أنقـــل) قضيتي إلى الناس".

---

(١) انظر على الراعي في مجلة العربي عدد يونيو ١٩٧٨ الكويت.

٢- الصحافة بين عهدين:

يكاد الكُتّاب والمؤرخون والغيارى على الفصحى يجمعون على أن الصحافة العربية — بصورة عامة — اجتازت عصرًا زاهيًا من عصورها نما وازدهر في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) إلى عصر جديد مازال يلفها حتى اليوم.

كما أهم يتفقون على أن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٤) - وإن حدَّت من نشاط الصحافة وعاقت تطورها - لم تقطع مسيرتها؛ إذ استأنفت نشاطها وتطورها السريع بمجرد أن آذنت الحرب على الانتهاء.

وعندما رغبت في تحديد التاريخ الفاصل بين العهدين لم أجد المعالم واضحة في أول الأمر. فنقبت في جذاذات أحتفظ بها فعثرت على خبر نشرته صحيفة شامية غير سورية، ونصه كما يأتي:

وزارة الإعلام السورية تعيد زميلا إلى عمله

دمشق: أصدر معاون وزير الإعلام في الجمهورية العربية السورية قرارًا بإعادة الزميل الأستاذ: ح إلى وظيفته في الوزارة بعد أن أصدرت المحكمة الإدارية العليا في مجلس الدولة حكمًا يقضي بإلغاء القرار الذي صدر عام ١٩٦٨ بتسريحه، وذلك لعدم وجود مبرر لإصداره من الناحيتين القانونية والمسلكية ودفع حقوقه كاملة عن فترة التسريح.

فنهنئ الزميل ونبعث بتحية إعجاب وتقدير إلى القضاء[١]

وبالخبر المذكور أمسكت ملاك الفصل الذي أريد بين العهدين، فقد كنت أعرف شخصيا الصحافي الذي ورد اسمه في الخبر.

كان رحمه الله رجلا طيبا حسن السمعة غير موسّع عليه في الرزق، إلا أني أجهل كيف أصبح صاحب صحيفة والمسؤول عن تحريرها هل الصحافة استهوته شابا

---

(١) انظر صحيفة الأنباء بيروت نوفمبر ١٩٧١.

فامتهنها أم أنه لم يجد غيرها مهنة تؤمن له معاشه، فأصبح محررًا ثم تمكن مـــن إصـــدار صحيفة باسم المحافظة التي ينتسب إليها وهي تبعد عن دمشق عشرات الكيلو مترات.

وبعد سنوات عديدة استيقظ ذات يوم ليجد مكتب صحيفته مغلقا ويجد نفسه موظفا صغيرا في إحدى زوايا وزارة الإعلام بدمشق، لا يعرف عملا محددا يتوجّـــب عليه إنجازه ولا رئيسا واحدًا يسبح بحمده، وضاقت نفسه بما آلت إليه حالـــه فأخـــذ يناجيها متذمرًا، وسمعت الآذان نفثات صدره وفي الصباح أدركه "التطهير" ليجد نفسه كهلا مُسرّحا من عمله يجوب الطرقات على غير هدى.

وعندما قرأت الخبر المذكور ذكرت "القانون" الذي استُخدم لاقـــتلاع ذلـــك الصحافي العصامي من عمل حر ارتضاه بنفسه ليصبح بعده شيئا لا رأي له ولا كرامة.

وعدت إلى القانون أسائله عن تاريخ صدوره والأسباب الموجبة التي صنعت له؟ فإذا بي أمام مجموعة من القوانين صدرت متتابعة في سنوات عقد أو يزيد بدءًا من نهاية النصف الأول من هذا القرن أصدرتها عصبة من الثائرين أطاحوا بالنظام القديم محتجين بأنه نظام بال يعجز عن حماية البلاد وقد زرع أعداؤها في قلبها جسما غريبا لا يـــدفع أذاه إلا حازم عنيد[1]

٣- لغة الصحافة وأثر النظام السياسي فيها:

إن الصحافة بطبيعة نشوئها وبحكم وظيفتها الحضارية لا تزدهـــر ولا تـــؤدي خدماتها على الوجه الأكمل إلا إذا كانت حرة تتبارى في كشف الحقائق، وتتنافس في تقديم ما يعود على بلادها وقرّائها بالفائدة، ولهذا كانت شديدة التأثر بشكل النظـــام السياسي الذي تصدر في ظله.

وحديثي اليوم عن لغة الصحافة يشمل صحافة جميع الأقطار الشامية وإن كانت ذات أنظمة سياسية مختلفة وتحكمها قوانين متباينة إضافة إلى أن حد السلطات الحاكمة لحرياتها على تفاوت كبير بينها؛ إذا يقتصر في بعضها على مجرد التوجيه والتحذير بينما

---

(١) وقع أول انقلاب عسكري في سورية في مارس سنة ١٩٤٩ وتلاه آخر بعد أشهر ثم تتالت الانقلابات.

بلغ في غيرها حد درجة استلحاق المؤسسات الصحافية كلها بأجهزة الدولة. ويستثنى لبنان العربي من كل هذا؛ إذا كانت صحافته حرة بكل أبعاد الحرية حتى وقع مضرجا بدماء أبنائه إلا أن لغة الصحافة فيها تكاد تكون واحدة بحكم الجوار والروابط المتينة بين سكانها وتقارب التفكير القانوني فيما بينها. أما صحافة فلسطين الذبيحة، فأنا لا أعرف شيئا عنها سوى ما قد أسمعه من مقتطفات كتبت فيها بلغة تعدل لغة الصحافة في سائر الأقطار وإن كانت تتجلى وكأن غلالة من اليأس والقنوط ترين عليها.

٤- سلطان الفصحى والشعر الأصيل:

طغت على الصحافة المستلحقة لغة تشبه الدواوين فيها الحذر من التبعة والخوف من المسؤوليات أمام الرؤساء، واعتاد الناس عليها وعلى ما ينشر فيها من أدب وشعر حديث غير أن سلطان الفصحى المشرقة والشعر الموزون الأصيل لم يضعف عندهم، فتراهم يفتشون عنها سرًا وجهارًا دون وساطة الصحافة.

ويوم مني العرب بالهزيمة الكبرى في الحرب مع إسرائيل طلع شاعر العربية العملاق بدوي الجبل علينا برائعته " من وحي الهزيمة " فتردد صداها في الوطن من خليجه إلى محيطه قبل أن تجرؤ صحيفة واحدة على نشرها.

وكان مما جاء في تلك القصيدة الطويلة أبيات ثلاثة مشرقة ألفاظها بليغة فيما ترمي إليه. قال الشاعر:

نحن موتى: وشر ما ابتدع الطغـ ـيان موتى على الدروب تسير

نحن موتى يُسِرّ جار لجار مستريبًا: متى يكون النشور

ارجعوا للشعوب ياحاكميها لن يفيد التهويل والتغرير

وتضم المكتبة العربية اليوم عشرات من الكتب تؤرخ لتلك الفاجعة وتُفَصِّل ملابساتها، وتبحث في أسبابها على شكل مذكرات واعترافات أو روايات وقصص تكشف بعض المعميات أو تفضح شيئًا من أسرار الكارثة، وشاهد الكثيرون في مختلف أقطار الوطن العربي عددًا من هذه الروايات تمثيلاً على الشاشة أو المسرح بلغة أثقلتها

التوريات والإيماءات، كما أن كُتّاب الصحف العربية الحرة التي تصدر في مهاجرها مازالوا إلى اليوم يُدبِّجون المقالات التي يقبل الناس على قراءتها ويرتاحون بالحديث عنها، دون أن يفقدوا النشوة العارمة إذا ما استمعوا إلى الأبيات الثلاثة المذكورة.

٥- هجرة الصحافة:

لابد لي من أن أتطرق وأنا أتحدث عن "لغة الصحافة" إلى ظاهر غريبة تمت في سنوات العقود الأخيرة الماضية؛ فقد نزحت عن الوطن العربي نخبة من شباب رجال الصحافة مُيمِّمة وجهها شطر البلاد الأوربية، و لم نلبث بعد رحيلها حينًا من الدهر، حتى وافتنا صحف عربية محررة بأقلام بعض أفراد تلك النخبة، تطبع وتصدر عن إحدى عواصم الدول التي استقر فيها المحررون وقد أطلق الناس على مجموعها اسم " الصحافة المهاجرة".

ويجدر بنا أن نتساءل عن الأسباب التي دفعت بصحف عربية إلى هجر أوطانها لتعود إلى قرائها في الوطن العربية مُحمِّلة إياهم نفقات قد تمنع فئات كثيرة منهم من شرائها.

أنا لا أستطيع الإجابة عن هذا التساؤل بأفضل مما قرأه الناس في بعض تلك الصحف، وإني مجتزئ ممّا كُتب بالنبذة الحديثة التالية:

أورد صحافي شاب في مقالة له، قصة معاوية بن أبي سفيان مع الرجل الذي ظل صامتًا في مجلسه بعد أن تكلم جميع من فيه، فطلب منه معاوية أن يتكلم فقال: والله يا أمير المؤمنين إني أخشى الله إن كذبت، وأخشاكم إن صدقت.

وأردف الصحافي يقول"... سبق لنا أن أطلقنا كذبة كبرى على القارئ، قلنا فيها: إننا حضرنا إلى هنا لنقول ما نريد، والأرجح أيها السادة أننا جئنا إلى باريس لنعيش كما نريد. ومن هذا المنطلق لسنا مستعدين أن نموت في سبيل أن نقدم للقارئ رأيًا صحفيًا نعتقد أنه الصحيح؛ فمعظم الأنظمة العربية تملك الاستعداد الكافي" لتصفية " أي صحافي يقول نصف الحقيقة، فما بالك بالحقيقة كلها... "[١]

---

(١) انظر: مقال ياسر عبد ربه، في صفحة حرة من مجلة المستقبل، عدد ٣٠٧، صدرت في باريس، يوم ٨ يناير ١٩٨٣.

٦- اللغة في الصحافة المهاجرة:

تتنافس الصحف المهاجرة في الادعاء باستقلاليتها عن أي نــزعة غير قومية وفي نفي ارتباطها بأي نظام عربي محدد، وبأنها تعرض على الناس الحقائق التي تراها أو تتصل بها إذا كانت تدعم المصلحة العربية، وتساهم في توحيد الصف العــربي في مواجهــة الأعداء والطامعين الغرباء في بلاد العرب وثرواتهم الطبيعية.

على أن محرري تلك الصحف يبقون حذرين فيما يكتبون، شديدي الحيطــة في عرض آرائهم وما يزعمون أنه هو الحقيقة؛ وما ذلك إلا خوفًا من منع تداول صحفهم أو تمزيق صفحات منها كما يجري ذلك في أقطار كثيرة.

أما كتاب الصحافة المهاجرة من داخل الوطن العربي فإنهم يلجأون إلى التعميــة والتورية وإلى الاستعارة والمجاز يملأون بها كتاباتهم التي تنطق فيها الحيوانــات بــالحكم والأمثال وتصف معاناتها الرهيبة من ظلم الإنسان لها.

لقد التقطت نُبذًا صغيرة مما نشرته صحيفة واحدة من المهــاجرات أعرضــها عليكم؛ تسجيلا لهذه المرحلة من تأثر اللغة العربية بالواقع العربي المؤ لم، فيما يلي:

١- قال كاتب مرموق في مقال له ما يلي: "... وبين ضجيج السيارات وزحام المارة التقيته على غير توقع، قطا منــزليًّا وجيهًا، تضاءل حجمه واتسخ وبره وتباطأت خطواته، ولما كان معروفًا لديّ بالشهامة والكبرياء وعزة النفس، اســتغربت وجــوده مختبئًا في أحد صناديق القامة، ولما اقتربت منه مستوضحًا قال، وهو يدفن وجهه بــين قائمتيه الأماميتين:

- ابتعد عني أرجوك إنني مراقب.

- ممن؟

- من الفئران... وأعفني من التفاصيل خوفًا من ضربة مكنسة، أو عظمة كاتمة للمواءمن أول الحديث، ودعنا في العموميات؛ لأن مشكلتي عامة لا ترتبط بزمان معين أو مطبخ معين، وكل ما في الأمر أنني كقط أينما سرت وأنّ قفزت في هــذا الــوطن العربي الكريم، أرى الدموع تلألأ في كل مكان وأشم رائحة الدم في كل زاوية. .."(١)

(١) انظر: محمد الماغوط: صحيفة المستقبل، عدد ٣٠٧، باريس في ٨ يناير ١٩٨٣.

٢- شاعر عربي مرموق، يتهافت الشباب في أنحاء الوطن العربي على قراءته يكتب في السياسة، على طريقته الخاصة، نثرًا يصور فيه حال الإنسان العربي في وطنه، وكتب مؤخرًا عريضة على لسان الأغنام، هذا مطلعها: " نحن – الأغنام العربية – الموقّعة بحوافرها أدناه، بعد التوكل على ألطاف الله سبحانه وتعالى، وكتابة وصيتنا، والتأمين على رؤوسنا ضد القطع لدى شركة أميركان لايف إنشورنس... قررنا أن نكتب في شؤوننا (الغنمية) إلى سيدنا السلطان. .. وزوجته قمر الزمان...

نرجو قبل كل شيء أن تسامحونا على رداءة خطنا... وضعفنا في قواعد اللغة العربية...

فنحن - كما سبق أن قلنا في أول هذا الاستدعاء - نكتب بحوافرنا. .. لأنكم صادرتم كل دفاتر الكتابة، وكل أقلام الحبر السائل والناشف الموجود في السوق واعتبرتموها من المواد الكمالية. . كالعطور.. والمشدات.. ورافعات النهود.. ثم نرجو أن تغفروا لنا ضعفنا في الصرف والنحو والإملاء لثلاثة أسباب:

أولاً: لأن غلاء الأقساط المدرسية لا يسمح لنا بالذهاب إلى المدرسة لاستكمال تعليمنا.

ثانيًا: لأننا نكدح ليلا ونهارًا لتأمين علفنا اليومي.

ثالثًا (وهو السبب الأهم) : لأن الفصاحة ليست مطلوبة في الوقت الحاضر؛ لأن كل فصيح هو عميل حتى يثبت براءته... "[١]

٣- ويبدو أن حذر محرري الصحيفة وأسلوب كتابها الساخرين لم يحولا دون بقائها في منجاة من الخوف على نفسها مما جعل المسؤول عن التحرير يبادر في العدد الأخير إلى نشر خبر في صفحته الأولى يقول فيه:

"أصدرت السلطات التركية مرسومًا يقضي بمنع إطلاق اللحى والشوارب بصورة مبالغ فيها.. في الجامعات".

---

(١) انظر: نزار قباني. صحيفة المستقبل، عدد رقم ٣٠١ الصادر في باريس يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٨٣.

وبعد أن ذكر الأسباب التي دفعت السلطات التركية إلى الأمر المشار إليه، علق على الخبر قائلا:

"... كي لا يفاجأ القراء – إذا استمر الضغط على الصحافة العربية – سنلجأ نحن إلى أسلوب اللحى والشوارب، فنكتفي مثلا – إذا أردنا أن نعبر عن اعتراضنا على موضوع معين – أن نضع عنوان الموضوع على رأس الصفحة، ثم نرسم شاربًا مرتفعًا إلى أعلى.. وفى الصفحة المؤيدة لموضوع ما نرسم لحية رفيعة. أما إذا كنا لا معترضين ولا راضين فنرسم شاربًا مستويًا، ونترك اللحية للصفحة التي بلا رأي..."(١)

٧- الصحافة والدعوة إلى العامية:

يعتقد كثير من الباحثين بأن الدعوة إلى العامية، التي كان لها في مصر وأقطار عربية أخرى تاريخ دوَّنه مؤرخون يهتمون بالفصحى قد ضعفت في أواخر العهد الزاهر للصحافة ثم إنها بدأت تسترد قواها مع بدء العهد الذي تلاه، تعينها في ذلك الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام حتى باتت الفصحى والأخطار تهددها اليوم من كل حدب وصوب.

إن هذا الاعتقاد يحمل جانبا كبيرا من الحقيقة؛ لأن الواقع يثبت أن تلك الدعوة الخبيثة التي كانت وليدة حرية الصحافة. قويت يوم كانت مزدهرة غير أنها لم تضعف بعد ذلك في أي قطر من الأقطار العربية، ولكنها استكانت وارتدت إلى أوكارها أمام قوة خصومها ودعم الرأي العام لهم، فلما دب الضعف في صفوف أنصار الفصحى بخفوت الغيرة عليها عند الجماهير، عادت الدعوة إلى الظهور والنشاط تحميها ثياب جديدة باسم (حرية الرأي والتعبير) أو (إحياء التراث والفنون الشعبية) أو (تشجيع الناشئة والطلائعية التقدمية) .

وخير دليل على هذا أن الدعوة إلى العامية كانت وما زالت قوية في لبنان بلد الصحافة الحرة، غير أن قوتها لم تزدد إلا بمقدار الضعف الذي حل بالمتصدين لها،

---

(١) انظر: مجلة المستقبل العدد ٣٠٩، الصادر في باريس، بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٨٣.

المنافحين عن الفصحى، الأمر الذي دفع جيلاً جديدًا من أنصارها إلى دعوة جديدة باسم "اللغة العربية الحديثة".

٨- اللغة المحكية:

قامت في السنوات الأخيرة في لبنان بدعة جديدة تدعو إلى العامية المحكية، والاختلاف بين الدعوتين جاء على لسان صاحب الدعوة الجديدة؛ إذ قال:

"الفرق شاسع وأساسي؛ فهم كتبوا ويكتبون بلهجة محلية، وأما أنا فأكتب بلغة عربية حديثة؛ أي بلغة أعترف بما طرأ عليها على ألسنة المتكلمين بها من تغير وتحسين فيكفي مثلا أن نلغي حركات الأعراب لنطرح عن كاهلنا وكاهل أبنائنا وأجيالنا الطالعة حملا ثقيلا لم يعد بإمكاننا ولا يجوز على الإطلاق أنْ نتمسك به، فإذا كنا نتكلم ونتفاهم بدون إعراب، فلماذا الإعراب إذن؟

وهكذا قل عن أسماء الموصول والإشارة وعن المثنى ونون الإناث وسواها من الضمائر التي سقطت من اللغة التي نتكلم بها.

والدليل الساطع على حكمة الحياة في طرح مالا لزوم له هو أن الذي طرحته من اللغة العربية لا يقتصر على بلد عربي دون آخر من الخليج إلى المحيط. فلا إعراب مثلا حتى في منشأ اللغة العربية ومهدها"[١]

"وعندما سئل صاحب هذه البدعة عن ما يعتقده في صداها لدى مجامع اللغة قال:

أولاً: هذه اللغة ليست لغتي، فهي لغة الشعب الذي يتكلم بها.

وثانيًا: إن هذا الشعب هو فوق المجامع، وفوق المراجع، وفوق القوانين والأنظمة، ولا يقدر أحد أن يفرض عليه شيئا أو يمنعه من أن يأخذ بما يشاء، وخصوصا بالنسبة إلى اللغة؛ لأن اللغة إذا خرجت على اللسان فلا يمكن أن تعود إليه. فلو بقينا مليون سنة نعلم أبناءنا اللغة العربية القديمة فلن يتكلموا بها أبدا "[٢].

---

(١) عمر يوسف الخال في صحيفة "الأسبوع العربي" بيروت في ١ يونيو ١٩٨١.

(٢) المصدر نفسه.

وكان قد سبق لصاحب البدعة الجديدة نفسه أن كتب: "... كيف ممكن يصير العقل حديث من دون لغة حديثة؟ اللغة أكبر مشكلة عمبيواجهها العرب. ومن دون حل مشكلة اللغة باعتماد المحكية ما بيتحرر العقل العربي، ولا بيتقدم الإنسان العربي حتى يتغلب على مشكلة إسرائيل... [١]".

وبالرغم من أن الدعوة إلى العامية تعيش في لبنان، الغالي على الأمة العربية، إلا أن أنصارها ينفثون سمومها بصحافته القوية المتقدمة المقروءة في سائر الأقطار العربية، حتى أصبح للعامية أنصار في صحافة أشد الأقطار تعصبا للفصحى، يستغلون شعارات (التحرير والتحديث) فيدسون مثل قولهم: "... إن لغة الناس كانت غير لغة السادة، لغة ديوان الخليفة، كانت متأنقة مترفة رصينة لماعة، ولكن اللغة كانت تتطور داخليا، تتخمر حتى وصلت دائما إلى مراحل عصت أوامر السلفيين؛ أي التقليديين، وقفزت إلى مستوى جديد كل الجدة، ومن هذا المنظور يمكن أن نفهم كيف سقطت حركات الإعراب من هذه اللغة أو تلك، وكيف تحولت العامية إلى لغة قومية. .[٢]".

أو أنهم باسم الحفاظ على التراث الشعبي يسجلون مثل هذا المطلع لقصة محلية: "وقعت بالأمس في حارتنا حادثة تموت الواحد من الضحك ذلك أن حمدان فسفسة الذي يعمل زبالا في قميل[٣] الحمام خرج من منزله متوجها لأول مرة في حياته إلى مدرسة الحارة ممتطيا ظهر البغل الذي يحمله طيلة النهار أكوام القمامة، يضرب جنبي البغل بحبل الرسن هاتفا به حا يا بغل حا. ..[٤]".

٩- تقارض الاهتمام بين المجمع والصحافة

دأب مؤتمر مجمع اللغة العربية على اختتام أعماله السنوية بمقررات عامة وكان يخص الصحافة العربية ببعضها وهو يوصيها دائما "بمزيد من العناية بسلامة لغتها، مقدرا

---

(١) انظر: صحيفة النهار العربي والدولي، بيروت في ٢٠ أكتوبر ١٩٨٠.

(٢) انظر: صحيفة تشرين، دمشق في ٦ فبراير ١٩٨٣.

(٣) القميل - بتشديد الميم عند العامة في حلب — هو: القمين عند العامة في مصر، والقميم عند عامة أهل الشام، والأخير أقربها للفصحى.

(٤) انظر: "مقصد العاصي"، من منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق سنة ١٩٨٢.

لها ما أخذت به من تخصيص جانب من صفحاتها للثقافة العربيــة" داعيــا إياهــا إلى "الاهتمام بما يقرره المجمع وما يطبعه".

لا شك عندي بأن الصحافة العربية - بصورة عامة - تُكِــنّ للمجمعــيين في مجموعهم كل تقدير واحترام، ولكنها تبعا لطبيعتها تعنى دائما - مع الأسف - بالجانب الإخباري لاجتماعاتهم ومؤتمراتهم، أكثر من عنايتها بالجانــب الموضــوعي لأبحــاثهم ومقرراتهم.

كما كانت بعض لجان المجمع تتابع الصحافة فيما تستخدمه من ألفاظ لمدلولات مستحدثة، وتلاحق الأساليب غير الفصيحة أو غير العربية التي ترددهــا الــصحافة في الموضوعات التي تنقلها عن اللغات الأجنبية بسرعة فائقة، وتحاول جاهــدة في مــؤتمر المجمع السنوي، ليقر ما ترى له وجها من ألفاظ لمدلولاتها المتداولة بين الناس، أو ليجيز بعض الأساليب التي تمكنت من تخريجها على وجه يحشرها في الأساليب العربية المقبولة.

فما هو صدى التوصيات التي يصدرها المؤتمر سنويا في الصحافة العربية؟ وما هو موقفها من مقررات المجمع ولجانه ومن مطبوعاته عندما تصدر؟

لقد لاحظت أن الصحافة زادت من اهتمامها بأمر اللغة في السنوات الأخــيرة، ولا تخلو اليوم الصفحات التي خصصتها للثقافة والآداب من بحث أو أكثر في موضوع لغوي، وإنك لتجد في الصحف السياسية التي تصدر في دمشق زاوية دائمة تكاد تكون يومية تحت اسم "نافذة على اللغة" [١] أو "لغتنا الجميلة"[٢] أو"لغة العرب"[٣]

وقد لا تخلو الصحف أحيانا من تعليقات على مقررات المجمع؛ تعليقــات قــد تكون إشادة بهذه المقررات أو ثناء عليها، وقد تكون مصحوبة بنقد لها أو غَمْز فيهــا. وفي بعض الحالات نجد التعليق مبنيا على توهم أو فكرة مبتدعة لا صحة لها، وغالبا ما يكون الرد على أمثال هذه التعليقات غير مفيد.

وأود أن أسجل هنا ما وقعت عليه في صحافة الأقطار الشامية خلال الــسنوات الخمس الماضية في النبذتين الآتيتين:

---

(١) انظر البعث اليومية. (٢) انظر تشرين اليومية (٣) انظر الثورة اليومية.

النبذة الأولى: كان تعليق الصحافة على توصيات المؤتمر ضعيفا تبعا للواقع السياسي السائد بين مختلف الأقطار العربية، وفيما يلي مقتطفات من كل تعليق:

١- نشرت صحيفة تصدر في لبنان مقالا تهكميا عقب مؤتمر سنة ١٩٧٨ جاء فيه: [١] "تستنفد أعمال مجمع اللغة العربية بمقر رواد تعريب المفردات الأعجمية في الجيزة نصف أيام شهر آذار (مارس) من كل سنة. أربع وأربعون سنة كرست هذا التقليد ولذلك شهدت خلال الشهر الماضي القاعة الكبرى للجامعة العربية جلسة الافتتاح الأولى العلنية بالخطب المناسبة التي توالى على إلقائها عدد من الخالدين.

قيل إن ألف تسمية أعجمية تناولها التعديل اللغوي... هذه كانت حصيلة إنجازات الخالدين على صعيد تطويق محاولات غزو الألفاظ الأجنبية للغة. فوضعوا هذه التسميات "الجاهلية" في ملفاتهم ريثما تصبح قيد التداول. . تماما كما لو كان تبديل اسم الرغيف الافرنجي "بالشاطر والمشطور وبينهما طازج" يمثل اكتشافا عبقريا بالنسبة إلى العرب وكل التراث ومجد العرب".

٢- جاء في صحيفة تصدر في سورية من مقال جاد عقب مؤتمر سنة ١٩٧٩ ما يلي [٢]:

"اعتبر المؤتمر السنوي الأخير لمجامع اللغة العربية وسائل الإعلام مسئولة عن الكثير من ظواهر الخطأ والضعف في لغتنا القومية، وقال العديد من أعضاء المؤتمر إن معظم هذه الأجهزة يفتقر إلى المذيعين ذوي الكفاءات العالية وإلى الإعداد الجيد للبرامج.....".

وبصورة خاصة توجه المؤتمر إلى الصحافة موصيا إياها بالمزيد من العناية بسلامة لغتها وقدر لها ما أخذت به من تخصيص جانب من صفحاتها للثقافة العربية بعامة، وفنون الأدب خاصة...

---

(١) نشر المقال في "الأسبوع العربي" بيروت ١٠/٤/١٩٧٨ بتوقيع ريمون عقل.

(٢) نشر في "البعث" دمشق في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٩ بقلم أحمد شكري.

والأمر يتعلق باللغة العربية فهي الرابطة الرئيسية بين الشعب العربي في جميع أقطاره من المحيط إلى الخليج...

نقول هذا، وفي أذهاننا آخر محاولة في لبنان لجعل العامية المحلية لغة للأدب والشعر والصحافة، فهي على هزالها دليل آخر على شراسة الحملة المشبوهة والمتواصلة لإضعاف اللغة العربية الفصحى، لغة الأمة العربية جمعاء، وإيجاد انقسام لغوي يصب في مجرى التجزئة.

٣- جاء في مجلة تصدر في سورية من مقال يلخص وقائع مؤتمر سنة ١٩٨٠ ما يلي [١]: ... وعرضت لجنة اللهجات على المؤتمر أعمالها، وتشمل:

(أ) الظواهر الصوتية في لهجة طيىء، وفي لهجة هذيل.

(ب) إدراج مائة كلمة عامية في معجمات الفصحى"

٤- وجاء في صحيفة تصدر في سورية أيضا من مقال يشرح فيه أعمال لجنة اللهجات في سنة ١٩٨٠ ما يلي [٢]:

"... وجاء في القرار الثاني من قرارات لجنة اللهجات الكلام التالي. إن لجنة اللهجات كانت دقيقة حين نظرت إلى الوحدة بين العامية والفصحى من جانب الألفاظ وحدها، ففي هذا الجانب - وحده - تبدو عاميتنا شديدة الاقتراب من الفصحى".

إن العامية مرفوضة دون شك، وإن الجهود تترى لتوهين ما يسمى ازدواجية اللغة العربية، ولا يشك المرء في أن نشر الكلمات الفصيحة الموجودة في العامية، يساعد كثيرا من علماء اللغة على تحديد المعنى الحقيقي للعامية المبتذلة المرفوضة التي يصح تجنبها ونبذها.

٥- وجاء في مقال يثني فيه صاحبه على جهود المجمعيين في خدمة العربية دعابة لطيفة؛ إذا نقل قصة أبي حسان التي رددها على مسامعنا الزميل المحترم عبد الرزاق محي

---

(١) انظر: م م (لغة عربية) دمشق في ١٩٨١/٤/١ بتوقيع ش. ف.

(٢) انظر: صحيفة العروبة، حمص في مايو ١٩٨١ بقلم سمر روحي فيصل.

الدين، يوم عرض على المؤتمر سنة ١٩٨١، قرار لجنة الألفاظ في التسوية بين (المتـــوفِّى والمتوفَّى) على الشكل الآتي [١]:

"سأل رجل يقرأ ما يصدر عن المجمع اللغوي شيخا وقورا رآه يمـــشى خلـــف جنازة: من "المتوفِّى" فقال الشيخ: اخجل يا أخي واسأل عن "المتوفَّى" فالمتوفِّى هو الله جل جلاله، فقال السائل: والله يا سيدي أنت أجدر مني بالخجل؛ لأنك لم تقـــرأ مـــا قررته لجنة المجمع من أن للفظين دلالة واحدة.

النبذة الثانية: لم ألاحظ فيما اطّلعت عليه من صـــحف، أي تعليـــق أو نقـــد لقرارات المؤتمر في أعمال لجنة الألفاظ والأساليب بإجازة أو رفض الألفاظ والأساليب الصحافية التي درستها، وحسبي أن أسجل في حديثي هذا قصة لفظة واحـــدة كـــثيرة الورود في الصحافة، أجاز المؤتمر استعمالها بصيغة حددها، فما هي القصة؟

كان المجمع موافقا على رأي الصحافة في أن لفظة (عقد) الأصيلة المنعوتة برقم، قاصرة عن الوفاء بالمعنى المعاصر المستفاد من جمع اسم (عشر الـــسنوات) المقـــصودة بالإشارة، فسنوات (العقد الثالث) ليست هي سنوات (العشرينيات) المتطورة تمامـــا و (الثمانينيات) التي نعيش اليوم في سنواتها لا يفي بمعناها قولنا (العقد التاسع) لهذا أجاز المجمع — من عشر سنوات — استعمال هذه اللفظة المستحدثة شارطا إثبات ياء النسب فيها.[٢]

ورجال الصحافة الذين اطلعوا على قرار المجمع قلائل جدا؛ إذا مازالت الصحف تكتب (الخمسينات) دون إثبات ياء النسب، غير أني لا أنكر أني بدأت أقرأ لكاتـــب مرموق ولغيره مقالات حديثة أورد فيها اللفظة برسمها الصحيح.[٣]

---

(١) انظر: قرار لجنة الألفاظ والأساليب المعروض على المؤتمر سنة ١٩٨١، وقد رفض المؤتمر قرارها بأكثرية واضحة.

(٢) في الدورة المجمعية التاسعة والأربعين لسنة ١٩٨٣.

(٣) أحمد بهاء الدين في مقالاته المنشورة في صحيفة المستقبل، فبراير ١٩٨٣.

١٠- تقييم لغة الصحافة المعاصرة:

إن المقارنة بين لغة الصحافة في عهديها الماضي والمعاصر، لا تعطي صحافة اليوم درجة رفيعة في فن التقاط الخبر وجمال الإخراج وإتقان الطباعة فحسب، بل تعطيها درجة عالية في المستوى العام للغة المحررين. وهي في هذا المستوى تعلو في القاعدة عن مستوى لغة الصحافة - في عهدها الذي غبر - علوا واضحا، وهذا أمر واقع غير مستغرب بعد ارتفاع مستوى لغة العامة نحو الفصحى خلال نصف القرن الأخير من جهة، وبعد اتساع التعليم العالي من جهة أخرى.

غير أن هذا الارتفاع في القاعدة تم مع تواري القمم العالية، أمثال تلك التي كانت أسماؤها تتوج صحف الأمس البعيد، وأما القمم في الصحافة الحاضرة فهي قليلة العدد أولا، وثانيا: إن ارتفاعها لا يتكون من مجموع كفاياتها الشخصية فقط.

إن أعلام الصحافيين في العهود الماضية أغنوا المكتبة العربية بمصادر مازالت حتى اليوم معتمدة في موضوعاتها، جمعوها بأنفسهم أو جمعت لهم بعد رحيلهم بعد أن كانت مقالات أو أحاديث صحافية منشورة كاللآلىء في صحفهم يتهافت الناس على التقاطها والتفاخر بجمعها والاحتفاظ بها ذخرا لهم ولأبنائهم من بعدهم[١].

١١- المسؤولون عن حماية الفصحى:

قد يسأل بعضنا بعضا: ومن هو المسؤول عن ما يحيط بالفصحى من أخطار نراها ماثلة أمام أعيننا، والغُير منا عليها يتعثرون في الطرق التي يرون فيها سبيل إنقاذ الضاد من محنتها؟

أستميحكم عذرا إذا ما جهرت قائلا: كل واحد منا مسؤول في هذا، وكل من قال أنا عربي هو مسؤول أيضا، كل في حدود ماله من تبعات؛ لأن العربية فقدت من يعني بها في البيت وفي المدرسة وفي الجامعة وحتى في الجوامع.

---

(١) انظر: مجموعة كتب الراحلين من أعلام الصحافة في بلاد الشام، من أمثال: محمد كرد علي. وعبد القادر المغربي، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، وخير الدين الزركلي، وبشارة الخوري، وأمين سعيد.

فقد فقدت الفصحى من يحرص عليها في جميع المجالس، حتى في تلك التي كانت منابرها تهتز من بلاغة خطبائها فترتنح جماهير الشعب من الصدى.

فقد افتقدت العربية أساليبها الأصيلة وبيانها الرائع في الصحف والمجلات؛ وفي مؤلّفات كبار العلماء، وحتى في كتب الأدباء والشعراء المحدثين.

فقد طال العهد على الجماهير وهي تقرأ ما تقذفه المطابع إليها، وتسمع ما يردده أصحاب السلطان عليها، حتى فقدت حاسة استنكار اللحن والحمية في الدفاع عن لغة الذكر الحكيم.

كل عربي منا مسؤول.

إن الرسام الذي كتب (لافتة) لطبيب؛ فصور الحرف اللثوي في اسمه بالشكل الذي عليه نطق العامة مسؤول [١] وقديما كان الخطاطون من حفظة القرآن الكريم أو ممن تعلموا قواعد الإملاء على الأقل.

أما الطبيب الجامعي الذي رفع على عيادته تلك (اللافتة) فمسؤوليته أشد خطرا على العربية من مسؤولية بائع الفاكهة وقد ارتفى (لا فتة) رسم عليها (بياع فواكي) زنة (بواكي) .

والعامل الحكومي على تسجيل (الأحوال الشخصية) للناس - وقد جاءته فلاحة تقول: ولدت بنتا وأطلقت عليها اسم أمي (سلمى) فسجّل (سلما) دون إثبات التنوين طبعا - مسؤول مسؤولية كبرى عن قائمة طويلة من الأسماء المسجلة في سجلات الحكومة بصورة لفظها بعيدا عن صورتها السيمة.

ومسؤولية الرجل الكبير — الذي أمر يوما بتسجيل محاضر الجلسات النيابية نقلا عن آلات التسجيل — بالغة الإثم، وأنا لست أدري إن كان من باب الإنصاف أو من باب العدل، القول: إن هذه المسؤولية دونها بمراحل مسؤولية الصحف ومحرريها الذين يعتمدون آلات التسجيل، فينقلون عنها خطب وأقوال الزعماء والرؤساء بلغة العامة.

---

(١) اللافتة موجودة على البناء ذي الرقم ٢٨، في شارع سليمان بن عبد الملك.

قرأت قبل أيام معدودات بحثا لأستاذين جامعيين نشراه تحت عنوان (اللغة العربية والتكنولوجيا المعاصرة) في مجلة فكرية راقية نافحا فيه عن العربية وكفايتها لاستيعاب المصطلحات الجديدة، ثم ختماه بالفقرات التالية:

"ولعل أكثر هموم اللغة العربية إيلاما هي مشكلة توحيد المصطلحات العلمية؛ وقد باءت جميع المحاولات المبذولة في هذا الصدد بالفشل، ولم تؤت بعد ثمارها؛ نظرا لتقاعس الدول العربية عن التعاون الفعال والكافي في هذا المجال، وخصوصًا حيال إقرار المصطلحات العلمية وجعلها إلزامية لجميع الهيئات والجامعات، ولو أن مجمعاتنا اللغوية تتلقى الدعم الكافي لوصلنا على الأقل إلى وضع مشابه للدول الأخرى، ومع أن هذه المجمعات تقوم بمجهودات كبيرة إلا أن جهودها هذه تضيع في زحمة تفرقنا وتباعد دولنا، وهي بذلك نسخة طبق الأصل من واقعنا الممزق"[١].

والقصة مع هذين الأستاذين اللذين التبس الأمر عليهما بين كلمتي "مَجْمَع" المخففة و "مُجَمِّع" المشددة تعيد إلى الأذهان قصة رئيس أحد المجامع العربية وكان يتحدث مع رئيس حكومة بلده، عندما أقبل وزير على رئيسه، فقدمه إلى المجمعي الكبير معرفا به بقوله: "رئيس المجمع اللغوي" وهو يشدد الميم الثانية، مما أغضب الرئيس ودفعه إلى التنبيه على هذا الخطأ، فضحك كبير الوزراء وهو يقول: "هون عليك يا سيدي فليس في الأمر خطأ يغضب، ألا تكتبون أنتم الكلمتين على صورة واحدة"؟

سادي:

كنت قبل عام مضى في مدينة جدة، ويومها كان زمام سياسة الدنيا بيد عسكري "عُتُل بعد ذلك زنيم[٢]" فإذا بي أقع في الصحف المحلية على الخبر التالي:

"هيج يسيء للغة الإنجليزية

أ. ف. ب (ميتشجان)

---

(١) انظر لـ: مظفر وسمير صلاح الدين شعبان، في مقالهما (اللغة العربية والتكنولوجيا المعاصرة) ص ١١٠ من المجلة العربية، عدد فبراير ١٩٨٣.

(٢) (الآية: ١٣ القلم) - العُتُلّ: القوي الجافي الغليظ، والزنيم: الدعي، الملصق بقوم ليس منهم.

أدرجت كلية "سولت سانتمرى" بولاية ميتشجان الأمريكية اسم السيد "ألكسندر هيج" وزير الخارجية الأمريكية في لوحة العار، بسبب نطقه السيئ للغة الإنجليزية.

وطالبت، الكلية أن يتحدث هيج اللغة اللاتينية الكلاسكية لفترة اختبارية مدتها ستة أشهر ليكفر عن سوء استخدامه المزمن للغة الإنجليزية، وهو الأمر الذي لا يمكن إصلاحه أو تعديله.

ومنحت الكلية الجائزة الأولى للسيد مالكوم بالدريج، وزير التجارة الأمريكي لتحدثه السليم باللغة الإنجليزية وإجادتها تماما [1]".

وألقيت بالصحيفة جانبا، وقد لفتني فكر منها: هل من جامعة أو مؤسسة عربية تجرؤ على تقليد تلك الجامعة الأمريكية دفاعا عن الفصحى؟ فأتعبني التفكير وأنا أتخيل طول قائمتنا السوداء وعدد المتزاحمين لاحتلال المراكز الأولى فيها من رؤساء وأمراء ووزراء.

وإذا سبق لي أن قلت بأن هناك أوزارا تَجُبّ تبعاتها في بعض الآثام تبعات الصحافة، فأنا لا أدافع عن الصحافة لأخليها من مسؤولياتها، فهي المسؤولة عن آثار ما تقذف به الناس صباح مساء من كلمات وتعابير عامية ومن جمل أو أساليب غير فصيحة، ولو في أخبارها المحلية؛ إرضاء لآلاتها الحديثة، وهي دوما فاغرة الأفواه، وإملاء لصفحاتها المتنافس على زيادتها بين الحين والحين أو تزلفا لذى سلطان.

إنها مسؤولة عن كل كلمة تنشرها، مادامت تستطيع رفض النشر ضمن الحدود المرسومة لها من قِبَل النظام الذي تعيش في ظله.

إنها مسؤولة عن كل كلمة تدعم تحلل السليقة العربية عند قرائها أو تفسد الذوق العام في التفريق بين دلالات الألفاظ والجمل، أو تميع حدود الزمن المرافقة لبعض الكلمات العربية.

---

(١) جريدة "عكاظ"، جدة في ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢ .

فإذا كان من مقتضى الفن الصحافي استعمال الفعل المضارع في عناوين الأخبار؛ لشد الانتباه إليها، فما الدافع لمغالاة بعض الصحف في الفن حتى تصدر وهي ترفع مثل هذا العنوان (القمر الروسي يسقط "أمس" في المحيط الهندي).

وإذا كان الإبداع في تبويب الصحيفة مرغوبا فيه، فأين الإبداع في باب يحمل هذا العنوان (حدث غدا) وقد تلقفته إحدى الإذاعات العربية لتنشر تحته تنبؤاتها عن حوادث المستقبل.

"ومجلة العربي" مثلا - وهى أوسع المجلات العربية انتشارا، وأقلها مصادرة أو في تمزيق بعض صفحاتها قبل التوزيع، ومن أكثرها استقامة في نهجها الفكري المستقل - ألا تتحمل تبعة ما تحدثه صورة اسمها في أذهان ناشئة الأقطار البعيدة من اضطراب؛ لاستهتارها بقواعد الإملاء في الفريق بين الألف المقصورة والياء؟

ولمن يرى رفع التبعة عن مجلة " العربي " محتجا لها بأن الرسام الذي خطط للمجلة اسمها، كان من بلد عربي جرت المطابع فيه من عهد بعيد، على عدم التفريق بين الألف المقصورة والياء في آخر الكلمة، أقول: ولكن مؤتمر مجمع اللغة العربية وجد ضرورة لهذا التفريق فأقره من بضع سنوات(١)، فلماذا لا يقرأون ما قرر؟

١٢- كلمة ختامية:

طال الحديث عن "لغة الصحافة"، وأرجو أن لا يكون قد أملّكم؛ فقد كان مجموعة أفكار وصور تواردت عليّ عندما بدأت أكتب، لململتها لأعرضها عليكم، وأفضل ما يدل على الخطر الداخلي الذي يتهدد الفصحى - لا من أهل اليمين المتطرف أو اليسار الجاحد فحسب بل من بعض أهل الوسط - ما جاء في نبذة وردت في مقال نشرته صحيفة جزائرية من أيام قليلة متضمنا: "... وفي أحد المؤتمرات كُشِف النقاب

(١) الدورة السادسة والأربعون، سنة ١٩٨٠.

عن أمر في غاية الغرابة يتلخص بأن تلك القوة ليست أفرادا من المجاهرين بالـــدعوة إلى العامية أو المحكية فحسب، بل فيهم أساتذة كبار يشعر المرء بوجودهم حتى بين أعضاء الهيئات والمجالس واللجان التي تقوم على خدمة اللغة ورعاية العلوم وتوجيه الثقافة، وهم كثيرًا ما يتظاهرون بالحماس الشديد في الدفاع عن الفصحى وبالخفاء لا يتورعون عن مساندة أعدائها والمشي في ركاب من لا يبالى بها [١]".

*　　*　　*

(١) انظر صحيفة النصر، قسنطينة في ٢٥ يناير ١٩٨٣.

لغة الخبر الصحفي(*)

للأستاذ سعيد الأفغاني
(عضو المجمع المراسل)

تنفق وزارات التربية والتعليم في العالم العربي مئات الملايين سنويا، لتزود الناشئين بعربية سليمة، بها يكتبون ويقرؤون ويتحدثون بطلاقة. ومتى صاروا في سن المراهقة انضم إلى آثار المدرسين فيهم أثر الصحافة؛ فإما نهضت بلاغتها بمستواهم وإما انحطت به فيما تنشر من ركاكات وأخطاء ... ثم جاء أخيراً الجهاز الإعلامي الجديد: الإذاعة، فصرنا نلمس في غير ما قطر عربي ضعف بعض المذيعين في ثقافتهم عامة، وفي لغتهم العربية خاصة، شأنهم في ذلك شأن بعض الصحفيين، حتى صارت الصحافة والإذاعة في بعض الأحيان أداة هدم، تهدم بالليل كل ما تعب في بنائه المدرسون في النهار، وطفقت الدول تنفق على الإذاعات والصحافة عشرات الملايين لهدم ما أنفقت في بنائه مئات الملايين.

من هنا كان خطر هذه الأجهزة عظيما في الخير وفي الشر، ولقد تصدى عدد من أولي الغيرة على اللغة للتنبيه على أخطاء شائعة منذ مطلع هذا القرن في مقالات متسلسلة في الصحف والمجلات، نفعت في وقتها ثم جدت غيرها بتأثير الترجمة الحرفية والضعف بالعربية، حتى لقد يئس بعض الغُيُرُ وقالوا:"لا علاج على الأرض لهذا الوباء" بعد أن قدموا خططا مختلفة للإصلاح لم يستجب لها. أقول هذا، وأنا أعلم صحفا عدة في العالم العربي تولاها بلغاء، وقاموا على سلامة لغتها، فصارت مضرب المثل على نشر الفصحى بين العامة والارتفاع بمستواهم. إن الصحافة، وكل جهاز إعلامي، سلاح ذو حدين، منه النفع ومنه الضرر. وأرى أن الإصلاح ممكن وأن العلاج في (ضمير) الصحفي والمذيع، فهو الذي يسوق صاحبه إلى أن يأخذ نفسه بإتقان لغته، وتوخي السلامة لها، وأن يقوى فيها بيانه وأداءه، ولاحافظ على الأرض أقوى من (الضمير).

(*) ألقى البحث في الجلسة الثالثة لمؤتمر المجمع في دورته التاسعة والأربعين، الأربعاء ٢٣ من فبراير سنة ١٩٨٣م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والخمسين، ص٥٥.

بهذا التفاؤل أبدأ حديثي عن لغة الصحافة، خاصا منها لغة الخبر [١] فقط.

الخبر أول ما يقصده قارئ الصحفية أو المستمع إلى الإذاعة. فوجب أن تكون العناية به صوغا وأداء بالغة، من حيث سلامة لغته وجودة أدائه، وإذا كان لكل فن بلاغته، فبلاغة الخبر في سرعة وعي القارئ أو السامع له دون عناء، باللفظ السهل الموجز الخالي من التزويق أو التفخيم خلوه من الابتذال، وألا يثقل الخبر بالعواطف السلبية ولا الإيجابية، وبعبارة ثانية أن يكون كالخط المستقيم : أقصر مسافة بين نقطتين: مراد الكاتب ووعي السامع أو القارئ، ولهذا أمور تعين عليه وأمور تعيقه.

فمما يعين عليه في رأيي أمران : قصر الجمل، ومراعاة فعلية الجملة العربية .

١- قصر الجمل:

الجمل القصيرة أدعى إلى متابعة الذهن لها بيسر وراحة، أما الجمل الطويلة فإما أن يضيع المقصود منها على القارئ أو المستمع، وإما أن يتسبب له - إذا اهتم بالموضوع — شيئا من الإرهاق. وإذا كان الضرر من طول الجملة يسيرا على القارئ في صحيفة لإمكان إعادته القراءة والإمعان فيها، فإن المستمع لا سبيل له إلى استعادة الخبر. هاكم مثلاً على خبر أذيع، ونشر الشهر الماضي :

"دعا وزير الخارجية الإيراني - في تصريح أدلى به خلال توقفه في مدريد، وهو في طريقه إلى نيكاراغوا المشاركين في اجتماعات مكتب التنسيق التابع لمنظمة دول عدم الانحياز — إلى تأييد النضال الشعبي الذي تخوضه نيكاراغوا، ضد الاعتداءات السياسية والعسكرية والاقتصادية، الذي (كذا) تقوم به الولايات المتحدة ضد نيكاراغوا "[٢]

هذا الخبر جملة واحدة بدأت (دعا)، ثم ترابط بعضها ببعض بظروف وحروف جر حتى انتهت. وربما يخفف من هلهلتها إعادة الفعل (دعا) قبل قوله (إلى تأييد) الذي فصله عن الفعل (دعا) ٢٢ كلمة، ومع هذا تظل الجملة غير مستساغة الطول.

---

(١) استعرت خمسًا من نشرات الأخبار، من مصلحة الإذاعة بدمشق، لتكون الأمثلة منقولة بالحرف.

(٢) النشرة الثالثة، في ظهيرة ١٩٨٣/١/١٠.

٢- فعلية الجملة الخبرية:

تعنى الجملة العربية بالحدث قبل المحدث، لذلك كثيرا ما يتصدرها الفعل. وحين تقوم أغراض بلاغية تدعو إلى العناية بالمحدث أولا يقدمونه، وهذا طبعا غير وارد في الأخبار؛ لأن الهدف منها أطلاع القراء أو المستمعين على الأحداث الجارية. وقد كثر الخروج على هذه البديهية في الأخبار، وأكثر ما تشيع في موجزات الأنباء فقد جاء في النشرة السابقة : "الرفيق فلان ... (وبعد ثماني كلمات) يقول في جريدة النهار ..." ولو بدأ بالفعل (قال الرفيق . في جريدة النهار) كان أقرب إلى طبع العربية، ولعل إلف الترجمة الحرفية السريعة مسؤول - إلى حد - عن تجاوز السليقة السليمة في مثل هذا.

ذلك بعض ما يعين على بلاغة الخبر، أوحت به قراءتي لخمس نشرات حديثة، ما تراكم في ذكراتي من أمثالٍ لها في غير قطر عربي. **وأما ما يعيق هذه البلاغة، بلاغة الخبر، فأمور منها:**

١-التلوث بآثار الترجمة الحرفية السريعة:

منذ القديم تسرب بين محرري الصحف ضعفاء بالعربية أقوياء في لغة أجنبية. وتحرير الصحف — كإعداد الإذاعات — تلاحقه السرعة باستمرار، فتقذف الجرائد إلى السوق كل يوم كلمات وتراكيب ركيكة، ويتلقفها القراء المحدودو الثقافة، فتشيع حتى ليقع فيها البلغاء من حيث لا يشعرون، ثم يتصدى لها المطلعون الغُيرُ على لغتهم بالتخطئة والإصلاح، ولو استشار المحررون معجما موثوقا به، أو أحد العلماء، أو رجعوا إلى مصحح متمكن في صحيفتهم لخف الضرر .

لكن هذا أيضا لا يقوم به إلا متعلم. ولكل زمان أخطاؤه وانحرافاته، وأنا أعرض إلى ما وجدته من ذلك في نشرات الأخبار المذكورة، ناظما ما تشابه منها تحت عنوان واحد.

٢-اضطراب الأزمان في الخبر الإعلامي الواحد :

الغفلة عن دقة المدلول الزمني للأفعال في اللغة العربية، تربك قارئ الصحيفة.

وفي حيز نقل الخبر إلى الجمهور، على الكاتب التزام صحة التعبير في أسهل أسلوب، إذ لا مجال فيه للاستعارة والمجاز والأغراض البلاغية، فلهذا مقامات أخرى.

إنك لتضحك إذا قيل لك: (أمس سيزورك فلان) وقد نألف هذا من بعض الأروام، الذين ينطقون كلمات بالعربية، فنستعيدهم الكلام لنفهم ما يريدون، لكنا لا نستسيغ أن نقرأ في صحيفة، أو نسمع من إذاعة في بلد عربية، مثل هذا الخبر: "السيد الرئيس يتلقي اليوم مكالمة هاتفية من الرئيس اللبناني[١] وكانت المكالمة قد تمت قبل كتابة النشرة بساعات فما معنى (يتلقى) هذه، أو هذا الخبر: "قوات الاحتلال الصهيوني تمنع قافلة للجيش اللبنانى من العبور" [٢] ويكون المنع حصل قبل يوم على الأقل. أو تسمع مثلا في إذاعة مسائية : (في الساعة العاشرة من صباح اليوم، يستقبل وزير الداخلية وفود المحافظات) . فتتبسّم عجبا من الفوضى في استعمال الأفعال .

٣- الفصل بين المتضايفين:

المضاف والمضاف إليه بمنزلة الكلمة الواحدة[٣] فلا يفصل بينهما بالمعطوف وحرف العطف؛ فمن الخطأ الذي تروجه الصحف والإذاعات، أمثال قولنا: (على مديري ومعلمي المدارس الحضور..)، أو (رفع مديرو وموظفو وعمال شركة كذا مطالبهم إلى وزارتهم ..) والصواب أن يقال : (على مديري المدارس ومعلميها) أو (رفع مديرو شركة كذا وموظفوها وعمالها مطالبهم)، من ذلك ما جاء في خبر (تشكل خطورة على ما أسماه أمن ووجود إسرائيل)[٤] وفي خبر آخر (ومناقشة وتقويم

---

(١)النشرة الرابعة المسائية، في ١٩٨٣/١/١٤ .

(٢)النشرة الثالثة، في ظهيرة ١٩٨٣/١/٧ .

(٣)لدلالتهما على شيء واحد، وقد أوقعت ضرورة الوزن بعض الشعراء قديما، فعطف على المضاف قبل مجيء المضاف إليه، والضرورات لا يقاس عليها . وقع ذلك للأعشى، في قوله :

إلا علالة أو بداهة سابح نهد الجزارة

ولأبي زبيد الطائي، في قوله :

يا من رأى عارضا أسر به   بين ذراعي وجبهة الأسد

(٤) النشرة الثالثة، في ظهيرة ١٩٨٣/١/١٠.

الأحداث)[١] وظاهر أن الصواب (ما أسماه أمن إسرائيل ووجودها) و(مناقشة الأحداث وتقويمها). إن الصحف والإذاعة مسؤولتان عن شيوع هذه الركاكة حتى فسدت تعابير الناشئة والكبار من كثرة التكرار، فمهما ينبه المدرسون إلى الخطأ صباحًا، تعقبهم في المساء المذيعة أو الصحيفة بالخطأ نفسه، فيرسخ الخطأ وينسى الصواب. وما أشك في أن أول من أذاع هذا الخطأ صحفي أو مذيع، اشتغل بالترجمة الحرفية عن الفرنسية مثلا.

٤- تتابع الإضافات:

تستسيغ العربية تتابع إضافتين، مثل: (خالد تلميذ مدرسة الميدان) وإن كان قولك (تلميذ في مدرسة الميدان) أسوغ وأخف، فإن زدت إضافة ثالثة (كتاب تلميذ مدرسة الميدان) وقع الثقل، فإن زدت إضافة رابعة، فأنت في بحبوحة الثقل وغايته، كما جاء في خبر: "إن وزراء دفاع دول معاهدة وارسو سيعقدون اجتماعهم"[٢] وزاد كرم محرر الخبر، فأتحفنا بخامسة، حين قال :"لجنة وزراء دفاع دول معاهدة وارسو تتابع اجتماعاتها في براغ".

ولو فصل هذه القناني الخمس المركوز بضعها فوق بعض عموديًّا، فقال (لجنة وزراء الدفاع لدول معاهدة وارسو) لزال المحذور، فإذا كانت الترجمة الحرفية هي التي جنت على المحرر، لأن الخبر مترجم فما عذره في قوله (... يصدر مرسومًا بتحديد موعد إجراء انتخابات مجالس المحافظات..)[٣] فهل هذا مترجم أيضا؟ للترجمة الحرفية بلاء على ملكة المترجم، بحيث لا تمضى على معاناته لها مدة حتى تفسد ملكته ويقضى على أصالتها. وله أن يستغنى عن كلمة (إجراء) لعدم ضرورتها، فيقول (.. مرسومًا بتحديد موعد لانتخابات مجالس المحافظات) إذاً لأراح واستراح، وعافى الناس من الركاكة. ومثل ذلك ما جاء في خبر (أمين سر منظمة طلائع حرب التحرير) [٤]

---

(١) النشرة الرابعة، مساء ١٩٨٣/١/١١.

(٢) النشرة الثالثة، في ظهيرة ١٩٨٣/١/٧.

(٣) موجز النشرة الأولى، في صباح ١٩٨٣/١/١٠.

(٤) النشرة الرابعة، في ١٩٨٣/١/١١.

٥- عدوى الخطأ:

مضى على بعض الأقطار العربية عشرات السنين تتداول مصطلحات عربية صحيحة لمقابلاتها الأجنبية، ثم سرت إليها عدوى من غيرها، الذي ما يزال مبقيا على ركاكات المترجمين .

من ذلك قولهم: **أمين عام التنظيم، مدير عام السكك الحديدية**، وهذا أشنع تركيبا من تتابع الإضافات؛ إذا ليس في التركيب إلا إضافتان، وهذا ليس بمستنكر، إنما المستنكر إضافة كلمة (**عام**) النكرة إلى (**التنظيم**) وإلى (**السكك**) إذ ما معنى (عام التنظيم، وعام السكك)؟ إن الإضافة تكون لمعنى، وهذه لا معنى لها، فليس شيء اسمه (عام التنظيم) ولا (عام السكك) فحين تقول (أمين وزارة الداخلية) مثلا تدرك أن لكل من الإضافتين معنى مفهوما فـ(وزارة الداخلية) واضحة المعنى، وكذلك (أمين وزارة الداخلية)، أما حين تقحم بينهما كلمة (عام)، فيسقط التعبير لأن (عام وزارة الداخلية) لا مفهوم له ولا يدل على شيء. وهذا لحن وزكة تسربا إلى بعض الأقطار حديثا، مع أن الصواب ما كانت درجت عليه من قولها (الأمين العام لوزارة الداخلية) وهو التركيب العربي السائغ الواضح الدلالة الذي كنا نستعمله منذ أزمان، في عدد من الأقطار. وما أظن أني سمعت مثل هذه الهجنة النابية إلا من قريب في إذاعة الأردن وسورية. والأمل أن نلتزم السلامة التي كنا عليها، فنقول (الأمين العام لوزارة الداخلية) و(المدير العام للسكك الحديدية).

ومما وقع فيه العدوى أيضا، كلمة (**كادر، وكوادر**)، فمنذ أكثر من أربعين عاما نستعمل كلمة (**ملاك، وملاكات**) لأجهزة الدولة والمؤسسات، فملاك وزارة أو شركة مجموع الدرجات فيها لموظفيها ولعددهم، فنقول مثلا (ملاك وزارة العدل مئتا قاضي صلح، ومئتا قاضي بداية واستئناف وتمييزه، وخمسون مفتشا وخمسمائة كاتب من درجة كذا و...) ووقعت النكسة من سنوات قريبة، فصرنا نسمع من بعض الصحفيين والإذاعات؛ (كادر، وكوادر) الفرنسية، بينما لا يزال الاسم الرسمي كلمة

(ملاك)، جاهلين ما قطعته بلادهم من خطوات، كذلك عاد إلى الظهور — بدل الاتفاقات — الكلمة الأجنبية (بروتوكولات) على سماجة اللفظة وثقلها. وكنت لا تقرأ في الصحف إلا (مديرين) جمعا لمدير، فأخذ بعضهم في الصحف والإذاعات يقول **(مدراء)** وهو جمع خطأ جدا، إذ لا نقول في جمع مشير: مشراء، ولا في جمع معيد: معداء، وسألنا صاحب الجريدة مرة عمن كتبها في جريدته فامتعض وقال : هو مسجل ويتطوع أحيانا في إعانة بعض المحررين .. وكانت إذاعة دمشق وصحفها منذ إنشائها، حتى الآن تقول (سينشأ الضباب صباحا) ثم تسرب إليها في فترة قصيرة كلمة **(الشبورة)** بدل (الضباب) و هي من دارجة بعض قرى لبنان، ثم رجعت (الضباب) بفضل يقظة مسؤول فيما أقدر. أكتب الله علينا أن يقود مخطئنا المصيب ؟

وجاء في نشرة واحدة مرة (أذاع راديو بيروت)، وفي نشرات بعدها (قالت إذاعة بيروت) أهناك اتجاهان في إذاعة واحدة ؟ أحدهما يقول: إذاعة بيروت، والآخر يقول : راديو بيروت.

مازلت أقول إن (الضمير) أشد ما نحتاج إليه في أعمالنا.

٦-كلمات تدل على غير المقصود منها:

جاء في نشرة صباحية، في ١٩٨٣/١/٩ (ليقوموا بواجباتهم) والكاتب يريد (بالواجب عليهم)، واجبي ما يجب لي عليك، والواجب عليّ ما ينبغي عليّ القيام به تجاه غيري، والفرق بينهما جليّ .

وجاء في نشرة أخرى "ما سبق للعرب أن أقروه في سابق اجتماعاتهم"[١] اللفظ يدل على ما سبق اجتماعاتهم، وهملا يريدون هذا، بل يريدون ما قروره في اجتماعاتهم السابقة، وفرق ظاهر بين التركيبين.

وجاء فيها أيضا: "وقد فشلت سلطات الحكم العسكري الصهيوني في مساومته".

---

(١) الثالثة، في ١٩٨٣/١/١٠.

وهم يريدون (وقد أخفقت)، لأن معنى الفشل: الضعف، ومعنى الإخفاق: الخيبة وعدم النجاح، والفرق بينهما واضح.

وجاء في خبر آخر، قولهم (إن التضخم المالي سيرتفع بمعدل ١,٤ بالمئة عن نفس المعدل في التضخم خلال العام الفائت [١]).

كلمة (نفس) لها معنيان: الأول: واحدة من النفوس، والثاني : التوكيد؛ فأما المعنى الأول، فتتقدم فيه كلمة (نفس)، تقول (نفس الرجل طيبة) وفي المعنى الثاني: التوكيد، يجب أن تتأخر (نفس) حتما، تقول (رأيت الرجل نفسه)، وفرق كبير بين (نفس الرجل) و(الرجل نفسه) وتقديم المؤكّد على المؤكَّد لحن تسرب من الترجمة الحرفية، وعدم الانتباه إلى اختلاف اللغات في استعمالاتها. والصواب أن يقال (سيرتفع بمعدل ١,٤ في المئة على المعدل نفسه، خلال العام الفائت).

أما قولهم : وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على اهتمامنا : فهو تركيب درج منذ سنوات، وهو مترجم حرفيا عن تركيب أجنبي يوردون أمثاله خطأً في مقام تقوية الدلالة على شيء ما وهو هنا الاهتمام. والذى ينعم النظر في التركيب يجده على العكس، فهو يعني أن هذا لا يدل على شيء؛ فإن كان فيه دلالة على شيء ما - فربما - فهو يدل على الاهتمام. وهذا مع ركته مضعف للمعنى المراد، والصواب إسقاط الجمل الشرطية كلها، بحيث يبقى (وهذا يدل على اهتمامنا)، فإن أردنا الحصر قلنا (وهذا إنما يدل على اهتمامنا) .

٧- متفرقات مما يشيع الآن في الصحف والإذاعة:

أتكلم هنا على خمس كلمات لا يجوز إغفال التنبيه عليها، لتسربها إلى الخاصة أيضا ف، هي من الخطأ الحديث:

يتمركزون، ويتمحورون:

"يتمركزون[٢] فيها" في العربية (يركزون)، ولا داعي إلى إقحام الميم، ثم الاشتقاق منها، فليست من أصل الكلمة.

---

(١) النشرة الأولى، في ١٩٨٣/١/٧.

(٢) النشرة الأولى في ١٩٨٣/١/١٠.

وفي خبر[١] (دعا إلى نبذ التمحور حول الأنباء القطرية) هذه أبشع مـن الأولى، ومعناها غير صحيح، هم يريدون معنى(يدورون حول الأنباء القطريـة)، وأتوقـع أن يتجنب الإعلاميون هذه الركة، حفاظا على لغة الصغار والكبار، حتى العلماء منـهم، فإن التكرار الكثير للفظ الهجين على السمع يزلقه على ألسنتهم من حيث لا يـشعرون ولا يريدون.

أكد على:

وجاء في خبر واحد (التي أكدت عليها المؤتمرات ...يؤكد يوميا على التزامه)[٢] يتكرر هذا اللحن في كل صحيفة ونشرة تقريبا، فيصعب إحصاؤه، والجملتان السابقتان من خبر واحد، وقد ملّ المصلحون من الإشارة إلى هذا اللحن، فالفعل (أكد) ينـصب مفعوله بنفسه، وإقحام (على) بعده هجنة قبيحة، وتكرارها هـو الـذي أشـاعها، والصواب أن نقول (أكدها المؤتمرات و(يؤكد يوميا التزامه) أي، بإسقاط (على) بعـد (يؤكد).

أي:

في خبر "لم يتقرر بعد عقد أيّ قمة "[٣] "منعت دخول أي طالب" [٤] "تعارض أي علاقة مع الكيان الصهيوني"[٥] هذه الاستعمالات لم تقتصر على الصحف والإذاعة، بل عمت بها البلوى، حتى تسربت إلى الكتب المدرسية والثقافية بل إلى اللغة الدارجة، التي يتفاصح بها، وصارت كالوباء الذي عم وطم، وأصلها الترجمة الحرفيـة الخاطئـة (Any) الإنكليزية، وهذا المعنى لا ينطبق على (أي) العربية التي حـصر اسـتعمالها في الاستفهام والشرط والموصولية والكمالية. والكلمة الصحيحة التي يجب أن تحل مكانها

---

(١) النشرة الرابعة في ١٩٨٣/١/١١.

(٢) النشرة الأولى في ١٩٨٣/١/٢٠.

(٣) النشرة الثالثة، في ١٩٨٣/١/٧ .

(٤) النشرة الرابعة، في ١٩٨٣/١/١١.

(٥) النشرة الرابعة، في ١٩٨٣/١/١١.

هي كلمة (كل)، قبل المضاف إليها أو كلمة (ما) الدالة على التنكير بعدها، فنقول (لم يتقرر بعد عقد قمة ما)، "منعت دخول كل طالب"، "تعارض كل علاقة مع الكيـان الصهيوني".

مع:

كلمة (مع) تأتي بعد جملة تامة الدلالة، وتعني مصاحبة ما قبلـها لمـا بعـدها، فمجيئها قبل أن تتم الجملة هو محط الإنكار. وفي العربية أفعال تدل بطبيعتـها علـى المشاركة ولا يأتي فاعلها واحدًا، بل متعددًا مثل (اجتمع، اتفق، تشارك) تقول : اتفق سليم وخالد، واجتمع البائع والسمسار، تشارك المجتمعون، فإن قلت (اتفق سليم) كان قولك غير جملة، لأن الفاعل لم يستوف بعد، ولا تأتى هنا كلمة(مع) البتة بل لابد من معطوف بالواو، فتقول (اتفق سليم وخالد) . وعلى هذا فقول بعضهم: (اتفق سليم مع خالد) لحن غير جائز. وجاء في الأخبار هذه الجمل (وكان قد اجتمع مساء أمس مـع السفير الأمريكي)[1] والصواب اجتمع هو والسفير) أو (اجتمع بالسفير) وجاء أيضًا : "للالتقاء مع المسؤولين ... لعقد اجتماعات مع المـسؤولين"[2] والـصواب (للقـاء المسؤولين ... لعقد اجتماعات بهم). وأعجب مما تقدم خبر جاء فيـه" قـال وزيـر الخارجية الإيراني : إن حرب بلاده مع العراق هي حرب دفاعية"[3] أكانـت إيـران والعراق تحاربان معًا في صف واحد، حتى نقول (مع)؟ هذا ما يفيده الخبر عربيًـا . إن المكان هنا لحرف (اللام) لا لـ (مع) التي عكست المعنى. والصواب:" إن حرب بلاده للعراق هي حرب دفاعية" كذلك قولهم (اتفقت إنكلترا مع فرنسا) خطأ لأن (اتفقت إنكلترا) ليست جملة، فلا تأتي بعدها (مع)، و(اتفق) فعل مشاركة ينبغـي أن يكـون فاعله متعددًا، والصواب (اتفقت إنكلترا وفرنسا).

---

(١) النشرة الثالثة، في ١٩٨٣/١/١٠.

(٢) النشرة الثالثة في ١٩٨٣/١/١٠.

(٣) النشر .

هذا:

تكثر كلمة "هذا" في الأخبار والإذاعات والبيانات، مفردة مبتدأ لا خبر له، بل لا معنى للكلمة البتة، وحتى الآن لا نعلم المراد منها. ولا خبر لها قد يفهم من قرينة أو كلام سابق. فمن عرف خبرها ومعناها فليفدنا أفاده الله، هي كالنقطة بين كلامين، استحدثت قريبًا جدًا، فلتسموها (هذا الإذاعية) لا معنى لا إعراب، هي صوت والسلام.

وبعد، فكل منا في مجاله يستطيع إزالة التشويه عن صفحة البيان العربي الناصعة، وقد أنيط بنا جميعًا - صحفيين ومذيعين وجامعيين ومجمعيين ومدرسين ومسؤولين - رفع لواء العربية ووقايتها من كل ضعف، وضمائر المسؤولين عن الصحف وسائر أجهزة الإعلام هي التي تجعل منها أداة هدم أو أداة بناء.

* * *

لغة الصحافة في القطر الجزائري[*]

للأستاذ أحمد توفيق المدني
(عضو المجمع)

أيها العلماء الأعلام والزملاء الكرام:

استجابة للقرار الذي اتخذته هيأتكم الموقرة، القاضي بجعل موضوع لغة الصحافة خلال العصر الحديث، موضوعا أساسيا تدور حوله مناقشات دورتنا الحالية، يسعدني أن أقدم هذه الملاحظات حول صحافتنا العربية بالقطر الجزائرى، وهي، والحمد لله، صحافة مزدهرة يانعة سليمة الفكر، جيدة التحرير، حاملة قسطها الأوفى في نشر اللغة العربية وإحلالها المقام اللائق بها، في أرضها، وبين أهلها وذويها.

ولا تجهلون سادتي الجلة أنه منذ ربع قرن كامل، كانت الجزائر تخوض معركة الحرب التحريرية الوحيدة في العالم العربي من حيث طولها الذي زاد عن سبع سنوات عجاف، ومن حيث شدتها وفظاعة وقائعها، ومن حيث وحشية المستعمر في قمعها ومحاولة القضاء عليها وكذلك من حيث الانقلاب السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي الذي أحدثته بعد النصر المبين. فمن خرائب الاستعمار الفظيع الذي ملك الأرض وما فوقها وما تحتها، وجعل ابن البلد الحر خادما ذليلا حقيرا، أخرجت دولة مسلمة عربية فتية، قوية، محترمة الجانب لواؤها مرفوع وكلمتها مسموعة.

إن جزائرنا اليوم ومنذ عشرين سنة فقط، ذات حكومة مركزية قوية، يديرها حزب واحد هو الذي قاد الأمة في معركة التحرير الشامل، فرفع العلم ووطد أركان الاستقلال. وهي ذات مجالس شعبية عديدة، ولها ميثاق وطني، ودستور صودق عليهما من طرف الشعب بما يكاد يشبه الإجماع، وكلاهما يقرر بصراحة أن الإسلام دين الدولة، وأن العربية هي لغتها الوطنية وأن الاشتراكية هي نظامها الاجتماعي

(*) ألقي في الجلسة الرابعة لمؤتمر المجمع في دورته التاسعة والأربعين، الخميس ٢٤ من فبراير سنة ١٩٧٣م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والخمسين، ص٦٣.

والاقتصادي — والبلاد تسير ضمن هذا الإطار سيرا متواصلا، فهي ترعى الدين الإسلامي وتحميه. وتنشىء في كل مكان المساجد العديدة البهية، وعما قريب تفتح أبواب الجامعة الإسلامية الكبرى في مدينة قُسَنْطينة، ثم هي تعلم العربية الفصيحة بلهجتها القرآنية لما يزيد عن الأربعة ملايين من صبيان الأمة ذكورا وإناثا، أي خمس عدد السكان البالغ ٢٠ مليونا، وهي ماضية في تعريب الثانويات والكليات بصفة مستمرة، وقد تم تعريب عدد كبير منها كالحقوق والفلسفة والتاريخ والجغرافية، والعلوم الاجتماعية.

أما الصحافة عندنا فهي تابعة كلها للنظام الحاكم. نظام حزب جبهة التحرير الوطني الجزائري، وليست لنا إطلاقا صحف معارضة، ما دمنا متفقين على الأسس، إلا أننا نملك ونستعمل حرية النقد اللاذع والتوجيه الصحيح، وتشمل الصحافة العربية عندنا ثلاث صحف يومية سليمة التفكير، جيدة التحرير، هي: "الشعب" بالعاصمة الجزائر، و"النصر" بقسطنطينة في شرق البلاد، و"الجمهورية" بوهران في غربها. كما لنا عدد لا يستهان به من المجلات الثقافية والعلمية والأدبية والفنية، أهمها. المجاهد الأسبوعي، والأصالة، والثقافة، والمرأة الجزائرية والجيش، ومجلة التاريخ، ونحو عشر مجلات شهرية أخرى.

أما الكتابة في هذه الصحف والمجلات فهي — كما سترون — من النثر العربي الفصيح، ربما تمتاز بالجودة، والمتانة ودقة التعبير لا يستعمل من العربية القديمة غريبها[1]، بل هو منطلق من البيان القرآني المدهش، الذي يدخل الأذن بغير إذن، ويسمو بالفكر وبالروح معا إلى أعلى الدرجات، فالصحافة عندنا من حيث التحرير، ومن حيث التفكير، لا تشرف الجزائر وحدها، بل هي تشرف مغربنا الكبير، وتشرف عالم العروبة الفسيح.

ولقد رأيت أن أنقل لمجمعكم السعيد نبذا مما تكتبه عندنا مختلف الصحف

١- ولا يستعمل من العامية شيئاً.

والمجلات متناولة شتى المواضيع، لكي تروا سادتي الجلة رأي العين، سلاسة التحرير، ودقة التعبير، ولكي تطلعوا - حفظكم الله - على ما يشغل الرأي العام عندنا من مشاكل العرب - وما أكثر مشاكل العرب - ومشاكل العالم، ومشاكلنا الداخلية الخاصة (*) .

١- الدين الإسلامي:

تقول صحيفة الجمهورية، تحت عنوان: "الإسلام قوة وحضارة".

"لقد كان الدين الإسلامي وما يزال كاسحا للجهل بجميع أشكاله، وهو من بين الديانات جميعا أقرب إلى العقل، وأكثر تقبلا للتلاؤم مع الإنسان، في مغامرة الوجود المتجددة، لأنه بعيد عن الهمجية ومظاهر الجهل، ومتناسب هو وذكاء الإنسان؛ لأن العقيدة الإسلامية هي الوحيدة المعروضة دون لبس أو غموض.

(*)ولي قبل ذلك ثلاث ملاحظات، أود بيانها: أولا: أنني لا أريد من وراء ما سأقدمه لكم، إطراء للجزائر، أو تنويها بشأنها كلا. فلست والحمد لله إقليميا، إنما أريد أن أقدم لكم صورة حية من صور الكفاح في بلد كان فرنسي الجنسية واللغة والحكومة؛ وكانت العربية محرمة الاستعمال فيه، يعاقب معلمها ومتعلمها إلا ما ندر، ولم تكن له منذ ربع قرن إلا صحيفة واحدة، تمثل العروبة والإسلام الصحيح، هي "البصائر"، وما أدراك ماهيه. ففي عشرين سنة من الاستقلال الشريف، أصبحت لنا، وبفضل أبنائنا، هذه الصحف التي ذكرت؛ ونكتب يوميا وأسبوعيا مثل ما سأقدمه لكم.

ثانيا: أنني إن تكلمت عن الصحف الجزائرية، فكأنني أتكلم عن صحف المغرب العربي عامة، فلغتنا واحدة في المغرب الأقصى الشقيق المحبوب، وفي تونس العزيزة الغالية. وطريقة تفكيرنا واحدة، وآمالنا البعيدة واحدة. وجهادنا العنيف في سبيل الإسلام واللغة والوطن واحد.

ثالثا: تعقيباً على ما جاء في المحاضرة القيمة المجيدة التي تفضل بها الأستاذ الجليل سعيد الأفغاني بالأمس، أقول إن كتاب الأخبار في كل صحفنا، ربما وقعوا في نفس الأخطاء اللغوية أو النحوية التي تفضل بذكرها فالصحيفة اليومية تقتضي السرعة في الإنشاء والتجهيز، وهذا ما يمكن أن يحدث الخلل في السياق العربي المتين، وكتاب الأخبار في كل الصحف العربية شرقا وغربا، ليسوا جامعيين، ولا مجمعيين، بل هم في الغالب من المترجمين وكتاب الطبقة الثانية أو الثالثة. ونرجو أن يجيء وقت قريب يستريح فيه قراء العربية من هذه التراكيب النابئة.

رابعا: ليست لنا في الجزائر ولا في أي قطر من أقطار المغرب العربي صحف باللغة العامية. وليست لنا في كل بلادنا المغربية، دعوة لإحلال العامية مكان العربية الفصيحة. بل إننا جميعا نجاهد الجهاد الكبير في سبيل رفعة العربية وانتشارها، حتى تصبح قريبا بحول الله، لغة العامة والخاصة.

بعد هذا أعود للموضوع فأقدم لكم شيئا مما جاء في الصحف الجزائرية عن مختلف الشئون.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الإسلام هو قوة حضارية.

إن الإسلام تحصَّل على قوة البعث والانبعاث لارتباطـــه بـــالواقع في أصـــوله وجذوره وهو حياة الجماعة ونظامها الاجتماعي، ويكفل توزيع الخيرات بالعدل بـــين الناس، وهو التعاون في جميع صوره وأشكاله، وهو التعاون بـــين الـــضعيف والقـــوي وعطف الغني على الفقير، وأساسه العمل في ظل الحرية والنظر إلى مستقبل الحـــضارة والرقي نظرة واقعية. وعندما تعود الحضارة الإسلامية - وهي عائدة لا محالة - فإنهـــا تعود بروح جديدة وطموح. إن العلماء قد فسروا الإسلام بشكل يتفـــق والمـــصلحة العامة، وكانوا يستنبطون من القرآن ما ينفع الناس.

وبعد ذلك جاء بعض الزنادقة الذين كانوا يجهلون روح القرآن الحقيقة وبدأت البدع والخرافات الخاطئة التي أبعدتهم عن القانون الإسلامي. ممـــا جعـــل الـــشعوب الإسلامية تعيش في فتن مزقت شملهم، وفتحت الأبواب للاستعمار الأجنبي.

إن ما يحتاج إليه العالم الإسلامي اليوم هو إعادة اكتشاف الإسلام كما مورس أيام الخلفاء، وتطويره كما طوره المجتهدون والعلماء من الرعيل الأول الذين تفهمـــوا روح القرآن الحقيقية.

لأن القرآن الكريم يعلمنا أن الحياة هي عملية خلق متطور وثابت. ولكل جيـــل الحق في حل مشكلاته الخاصة، فعلى الجيل الحالي من المسلمين أن يتفهم روح القـــرآن الحقيقية وفق مبادئه العامة، في ضوء تجربتهم المريرة وشروط كبيرة في العمل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، من معاني الرقي والتقدم من أجل سعادة الإنسانية. ولكي يستطيع المسلم أن يحقق ذلك عليه أن يرسي عقائده بشجاعته وبقوته المعنوية، لتجاوز السلبيات التي كانت وما زالت سببا في تدهور أمته العظيمة، بعد انتصار ساحق علـــى كل مظاهر السلبية، وبعد كل التطور والتقدم الذي عرفته الأمم والشعوب التي ارتضت الإسلام دينا، ولتركيز الضوء على سلبياتنا التي ينبغي محاربتها نـــستطيع أن نقـــول إن الشرائع الدينية المتعلقة بتنظيم المجتمع لم تكن جامدة، كما يعتقد الغربيون بل كانـــت

تتطور يوما بعد يوم. ومن المؤكد أن حالة الشعوب الإسلامية أصبحت مريعة، لكن ذلك لا يعود إلى الإسلام وإنما عكس ذلك؛ فجمود المسلمين اليوم سببه التخلي عن الشرائع الإسلامية والتباعد عنها أكثر فأكثر.

وهذا يعني العودة إليه، لأن هذه الأمم لا تصلح إلا بما صلح به أولها كما قال مالك، رضي الله عنه.

٢- مقاومة الاباحية والتحلل:

تقول "الجمهورية" أيضاً:

"في قاموس الخير نجد كل معاني العظمة والكرامة والوطنية والجهاد والإيثار ونكران الذات واحترام القيم، والتقاليد والعادات الحسنة.

وفي قاموس الشر نجد كل معاني الانحلال والإباحية والجبن والخيانة وحب الذات، والتنكر للقيم والعادات الحسنة، ونشر العادات السيئة، وفي قاموس الشر يكمن التفكك، الذي يجد صاحبه نفسه جاهلا كل شيء عن مجتمعه، وإن عرفه فإنه يسعى إلى تقديمه بصورة لا تتفق والواقع، لأن حب الذات وعبادها يدعو دائما صاحبه للقيام بأعمال منافية للمجتمع، وما دام الأمر يتعلق بكسب مادي، فإن هؤلاء يجتهدون ولو بالافتراء على الواقع، وتزلفا وقربى، للوصول إلى الهدف.

فهل، حقا، أصبحت الشهرة الأدبية تتم اليوم عن طريق كتابة روايات إباحية، وكتابات لا أخلاقية؟ يبدو أن هذه الشهرة وإن تحققت لأن "الموضة" كذلك، فهي شهرة زائفة، وستذهب أدراج الرياح، كما ذهبت شهرة الحلاج وغير الحلاج.

ذلك أن أدب العورات، الذي يحاول البعض نشرة تقليدا لموجة غربية، هو أدب بائد لا محالة، فعندما يجمع هذا الأدب في جملة واحدة، بين كلمات كهذه "كان يمارس العادة-" "-وكان معلم قرآن وعضوا في جمعية العلماء"، فهذا يعني أن كلاما كهذا هو إلى الهذيان أقرب منه إلى الأدب، وقد يستمر صاحبه في الهذيان حتى يقول سخفا، لا شعرا ولا أدبا.

قد يقولون في كل من كتب مثل تلك الفقرة، أو فيمن يريد إشاعة أدب "العورات" هو أديب ثوري وتقدمي، وهذا يدعونا إلى الترحم على الثورية، إذا كان ذاك مقياسها، وعلى التقدمية، إذا كانت الإباحية معيارها؛ لأننا سنصف كل من قال "وكان صديقا لعلي أبو طالب" - هكذا - والغلظ من عندهم، سنصفه بالثورية كما قد يصفون كل من ندد بالإباحية وأدبها: بالرجعية والسلفية، وقراء "الكتب الصفراء" كما جرت العادة من قبل.

لكن، إذا كان رفض أدب الإباحية، يعني بالضرورة إلصاق تهمة الرجعية، فهل من الثورية، أن تقول أديبة:وفي جلسة سمر التقيت فيها بنزار قباني،على كؤوس...

وبعد، لقد حمت حول الموضوع، ولم أدخل في صميمه. لأنه ليس من اختصاص الصفحة الخوض في مثل هذا الموضوع، ومع ذلك فإننا نؤكد، أن معلم القرآن سيظل خادما لهذا الكتاب العظيم وستبقى الجزائر تذكر بوفاء مآثر رجال جمعية العلماء.

وسيظل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – رمز البطولة والفصاحة، لو فكك بعضهم نفسه إلى أجزاء، ثم التحم بأجزاء أخرى من ذوى أدب العورات والمعرة، لما استطاع أن يأتي بحديث من مروياته أو خطبة من خطبه.

لقد قلنا شيئا، وبقيت أشياء، نرجو مخلصين، من هؤلاء الإباحيين، عدم الخوض فيها لأن ذلك يعني نشر الغسيل على الملأ، ولأن قصص المجون والفساد أصبحت ممجوجة، ولو طعمت بأغراض ومجتمع يسعى إلى بناء ذاته ومستقبله، انطلاقا من واقعة؛ فهو مجتمع يسمو عن قصص السخف والدعارة والانحلال.

ومن هنا، تبدو بعض القصص والروايات المتداولة والمعلن عنها للإشهار، روايات لا قيمة لها أخلاقيا، على الأقل من وجهة نظري. أما فنيا، فقد كان لها الحظ في تقييمها من طرف غيرنا. وكان لها الحظ أيضا. عندما وصفت بالثورية، وأصحابها بالثوريين. وكما قلت، فكم هي مغبونة تلك الكلمات وخاصة في الوطن العربي، ومسكين من وصف بها تملقا وزلفي، لأنها أوصاف ما أريد بها وجه الله.

وأخيرا، لقد كان من المفروض أن تنشر هذه الكلمة في الصفحة التي نشر فيها التفكك، ويأبى الله ورسوله إلا أن تنشر في رحاب الكتاب والسنة، لأنها كلمة خير، أما الذين يزعمون أن الكتابات الإسلامية ليست أدبا، فنشكر الله على ذلك، لكن هؤلاء ينسون أنهم لا يزالون عالة على تلك الكتب التي هي محور رسالات جماعية، وستبقى كذلك.

٣- أما في ميدان السياسة العربية، فتكتب صحيفة الشعب، تحت عنوان: (لبنان يدفع)

"تتحدث التقارير الصحفية عن المأزق الذي آلت إليه المفاوضات الثلاثية، وصعوبة التوفيق بين المطالب اللبنانية في إجلاء الاحتلال الإسرائيلي عن لبنان، وبين الأطماع الصهيونية في تكريس نتائج الاحتلال لهذا البلد.

وهذه الصعوبات الطارئة لم تفاجئ - بطبيعة الحال - إلا أولئك الذين كانوا يتخيلون أن قوات الاحتلال الصهيوني دخلت إلى لبنان لمجرد القيام بحملة تأديبية ضد قوات المقاومة الفلسطينية، وأنها ستنسحب من تلقاء نفسها بمجرد تحقيق هذا الهدف.

والواقع أن التذرع بتصفية وجود المقاومة الفلسطينية من لبنان لم يكن إلا شجرة من غابة الأطماع الصهيونية التاريخية في لبنان.

إن ما عرضته إسرائيل في جلسات المفاوضات المتنقلة بين "خلدة" و"كريات شمونة"يوضح بكل بساطة أنها لا تريد فقط تحويل لبنان إلى بلد منزوع السلاح نهائيا، ولكن تحويله إلى مجرد بلد تابع ومجال حيوى واستراتيجى أيضا.

ولكن في مقابل هذا الإصرار الصهيوني على تحقيق جميع أطماعه، والتهام لبنان سياسيا وعسكريا، ماذا يملك لبنان المحطم الجريح المحتل لرفض إدارة المحتل الذي يجثم على نصف أرضه عسكريا وسياسيا.

لا شيء غير التفرج العربي الذي تركه يواجه مصيره المحتوم ألا وهو الاستسلام أو المحو من الخارطة السياسية للمنطقة. أما ما يقال عن الاستياء الأمريكي من التصلب

الصهيوني في المفاوضات فليس إلا مجرد مسرحية، وذرا للرماد في العيون؛ فإسرائيل دخلت إلى لبنان بإرادة أمريكية وهي باقية بإرادة أمريكية ومطالبها جزء لا يتجزأ من الإرادة الأمريكية ومصالحها من صميم المصالح الأمريكية.

إن الأمل في قدرة أمريكا على الضغط على إسرائيل هو بمثابة انتظار الضغط من شارون على بيغن أو العكس.

إن مهزلة الاستياء الأمريكي مهزلة من فصل واحد، وستنتهي هذه المهزلة بإعلان عجز أمريكا انطلاقا من التجربة بأن الضغط لن يؤدي إلا إلى نتائج عكسية، وسيطلب من لبنان — ما دام لا يستطيع مواصلة الرفض — دفع ثمن التصلب الصهيوني والعجز الأمريكي والغياب العربي".

وفي نفس الموضوع، تكتب مجلة المجاهد، وهي اللسان الرسمي لجبهة التحرير الجزائري، تحت عنوان:

"الكلام الرديء، في الزمان الرديء".

"ما بعد بيروت، جملة ما تزال تتصدر عناوين الصحف، ولا يكاد يخلو منها أو من مضمونها أي تحليل، بصرف النظر عن هوية الكاتب ونيته.

نقرأ ذلك ونسمعه كأن بيروت نهضت من كبوتها واستعادت عافيتها أو كأن ما أصابها، وأصاب أهلها، لا يزيد عن كونه حادثا من الحوادث التي تقع في هذه المدينة أو تلك، بين حين وآخر لسبب من الأسباب العادية.

نقول ذلك ونتعود على سماعه، وكأن الاجتياح الصهيوني الهمجي، المدعوم فكرا وعملا، من قبل الإمبريالية الأمريكية، الذي حصد الرؤوس، وزرع الدمار، وخرب النفوس، وما يزال شبحه الرهيب يلقي بظله الأسود على ربوع لبنان .. يلاحق الثكالى والأيتام .. كأن شيئا من ذلك كله لم يحدث، كأن بيروت ليست هي لبنان، وليست أول عاصمة عربية مستقلة، تطؤها أقدام الصهاينة، منذ بدأ الصراع العربي الإسرائيلي المرير.

إن هذا الـــ (ما بعد) الذي أصبح محور ردود أفعالنا، تجب مقاومته لأنه لا يخلو من مضامين، هي في الأساس من إيحاء العدو.

إننا نقول ذلك، وكأنه ما كان و لم يعد يهمنا من أمر بيروت إلا خروج المقاومة وما دمنا قد حققنا ذلك. فلا يحق لنا أن نفكر في بيروت، ولا فيما لحق شعبها، بل من اللائق أن ننتظر (ما بعد) أخرى، تكون منطلقا لما نقول ونردد. إن رجحان كفة العدو طوال حقبة الصراع العربي الإسرائيلي، لا يعود فحسب إلى تفوقه في امتلاك أحـــدث الأسلحة، وتحكمه في كيفية استعمالها. ولهذا نراه عمد، وما يـــزال، إلى شـــل الإرادة العربية بالحرب النفسية، يمهد بها لكل عدوان، ويؤكد بها كل انتصار. عقب حـــرب ١٩٦٧ وقف موشى ديان على حافة قناة السويس، وقال للصحفيين، مزهوا بانتصارات جيشه: (لن تقوم للعرب بعد اليوم قائمة.. ولن يفكروا في شن حرب على إســـرائيل.. إننا اليوم نسكن في عظامهم!).

ولما انصرف، انفرد به أحد الصحفيين، وقال له: هل تعتقد حقا أن إســـرائيل انتصرت وضمنت السلام أمام هذا البحر العـــربي الـــذي يعـــد بـــالملايين، ويزخـــر بالإمكانيات؟.

التفت ديان إلى محدثه، ورد عليه قائلا في شبه تنهد: يا عزيزي هنـــاك جنـــرال واحد – لا أحد غيره – قادر على قهر العرب والانتصار عليهم إنه جنرال اسمه اليأس!!

وهذه الـــ (ما بعد) هي إحدى بنات هذا الجنرال، وما أكثر أخواتها، التي دسها العدو في نفوسنا وشغلنا بها لكي لا نفكر في فلسطين ١٩٤٨ ولكي نـنـــسى حريـــق المسجد الأقصى، وأصبحت القدس بكاملها عاصمة للعدو، وحتى لا ننشغل (بثـــورة الحجارة) التي عمت الضفة والقطاع، فجعنا باجتياح الجنوب ومحاصرة بيروت، وإخراج المقاومة منها.

لقد تمكن المرض منا وسكن عظامنا، ولعله لن تطول وقفتنا عند جملة (ما بعـــد بيروت) وما أحسبني خرجت من أسر الجنرال الذي أشار إليه ديان"!!.

٤- في الميدان الاجتماعي:

تقول جريدة "الشعب":

استعرضت الأخت زهور ونيسي - كاتبة الدولة للشؤون الاجتماعية، أمام مجلس الوزراء المنعقد صباح أمس الأحد تحت رئاسة الرئيس الشاذلي بن جديد، رئيس الجمهورية الأمين العام للحزب - الخطوط العريضة للبرنامج المشترك لصالح المعوقين الذي يدخل في إطار تدعيم السياسة الحالية لصالح هذه الفئة من السكان سواء على مستوى الوقاية أو إعادة التأهيل والإدماج.

ويؤكد هذا البرنامج للوقاية بين وزارة التخطيط والتهيئة العمرانية ووزارة الصحة وكتابة الدولة للشئون الاجتماعية، يؤكد المكانة الهامة للمعوقين التي أكدت عليها النصوص الأساسية للبلاد، كالميثاق الوطني، والدستور، وقانون الصحة، والقانون العام للعامل، ويدعو ضرورة الحلول المرضية للمشاكل التي يواجهها المعوقون، والتي تتطلب تدخل الدولة قصد إعداد وتنفيذ برنامج في إمكانه تدعيم السياسة الحالية لصالح هذه الفئة من المواطنين.

وقد تعرض التقرير في البداية إلى الوضعية الحالية للمعوقين مع تصنيف للأنواع المختلفة لهذه الفئة التي يبلغ عددها بحسب تقديرات وزارة الصحة سنة ١٩٧٩ ثمانمئة ألف معوق من بينهم:

٢٠٠ ألف معوق عقلي.

٣٠٠ ألف معوق جسدي.

٢٠٠ ألف معوق حسي (وهم: الصم - البكم - المكفوفون).

ويهدف هذا البرنامج الذي يسير في إطار الخطة السنوية (١٩٨٣) لتسطير برنامج لفائدة المعوقين حسيا (وهم: المكفوفون - الصم - البكم) وسوف يتم إنجاز هذا البرنامج كما يلي:

- إنجاز ١٦ مدرسة للصم البكم تستوعب كل منها (١٥٠) طفلا، أي بمجموع ٢٤٠٠ مقعد، وبفضل هذا الإنجاز سوف ترتفع نسبة التكوين من١٢,٥ إلى ٤٣٪ .

- إنجاز ٨ مدارس خاصة بالمكفوفين، تبلغ قدرة استيعابها ١٥٠ مكان، أي توفير ١٢٠٠ منصب للتكوين، وبذلك سترتفع نسبة التكوين من ٤ إلى ١٦٪ ثم توسيع بعض المدارس كمدرسة الشباب الصم البكم بوهران، وإنشاء ملحق خاص بالفتيات بمدرسة الصم الكائنة بالحراش، وتهيئة وترميم وتجهيز المؤسسات الموجودة.

بالإضافة إلى هذه العمليات المقررة في إطار برنامج خاص بالبنايات الجاهزة لسنة ١٩٨٣، هنالك مشروع لإنجاز مدارس لتكوين المختصين، ومن بينهما:

- ٣ مدارس لتكوين المختصين في الإعاقة بالبليدة وباتنة ومعسكر.
- ٣ مدارس للمعوقين السمعيين: اثنتان بالجزائر وواحدة بجيجل.
- ٧ مراكز طبية نفسية تربوية: اثنان منها في الجزائر وواحد على مستوى كل من ولايات قسنطينة ووهران وأم البواقي وعنابة وسعيدة":

- كتبت صحيفة "النصر":

"إن الله خلق الإنسان ومعه عقله مع يديه، فإذا لم يستخدم عقله كانت يداه أقرب إلى قوائم الأنعام والسوائم. يقف هذا الأخ من قضية النسل موقف العداء - يؤكد أن تنظيم النسل لا تقره شريعة ولا يوافقه العقل والمنطق، وقد أقحم العقل والمنطق ظلما وعدوانا، فالعقل يقول بأن كل جهود التنمية تلتهمها الزيادة السكانية. والمنطق الإنساني أدرك منذ القديم أن الإنسان المبدع يساوي عشرة آلاف رجل على حد تعبير "هير قليطس". وقد أكدت الشريعة أن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله".

لم يكن العدد في يوم من الأيام هو الحكم الفاصل في تقرير النجاح أو الفشل والنصر أو الهزيمة، والتاريخ يقول: إن حملة العبادلة قد استطاعت هزيمة الملك "حيروديوس" أو"جرجير" - كما لقبه العرب - رغم أن النسبة كانت ١ إلى ٦، وحملة العبادلة هي أولى الفتوحات الإسلامية في شمال أفريقيا.

وفي العصر الحديث استطاعت إسرائيل أن تهزم العرب في كل الحروب، رغم أن النسبة كانت ١ إلى ٥٣".

٥- وعن "النقد الذاتي" تقول مجلة "المجاهد":

"إذا كان طموحنا في التقدم مرهونا بما يؤديه الفرد والجماعة في مختلف المرافق، فإن الإشارة إلى بعض السلبيات التي تكبح خطواتنا نحو تحقيق أهدافنا يعد أمرا ضروريا مثل:

- عدم احترام الزمن: مما لاشك فيه أن المجتمعات المتقدمة تقدس عامل الزمن وهو سر من أسرار تقدمها، ونحن — للأسف — مازالت عندنا مقولات: قتل الوقت وتضياع الوقت، وهي مقولات شائعة نستعملها في حياتنا العملية اليومية دون خجل أو تأنيب ضمير.

- ذهنية البايلك: رغم النصوص والقوانين والإجراءات الهادفة إلى جعل العامل مسيراً ومنتجا مسؤولا، فما زالت بقايا عقلية البايلك تتحكم في سلوك وتصرفات قطاع لا بأس به من العمال والمسؤولين على السواء، وهو ما يدل عن قلة إدراك ووعي بالتحولات التي عرفها مجتمعنا منذ الاستقلال إلى يومنا. ذلك أن التسيير الاشتراكي للمؤسسات اليوم حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى برهان رغم وجود الذهنيات المشار إليها، والتي ستمحى من أذهان أصحابها كلما ازداد نشاط الحزب ومنظماته الجماهيرية في أوساط الشعب بمختلف فئاته.

- قلة الوعي السياسي: إن ضعف مستوى الوعي السياسي لدى المواطن يجعله عرضه للإشاعة وتصديقها، لكونه يفتقر لأدوات تحليل ما يسمع ويشاهد ويعيش، وهو ما يسهل مهمة أعداء الثورة ويزيد من نفوذهم؛ لأنهم — كما يقول علماء الإدارة — يمثلون "التنظيم الغير الرسمي"، أي أن نقدهم للأشياء لا يلزمهم بتصليحها وتسويتها، وهو ما يجعلهم يركزون على نقائص الأمور دون إظهار جوانبها الإيجابية، والخطر يكمن في تأثير نقدهم على المواطن غير الواعي.

هذه بعض المظاهر التي يجب على الحزب ومنظماته الجماهيرية واتحاداته المهنية والثقافية ووسائل الإعلام بمختلف أشكالها أن يهتموا بها بشكل مكثف، وحتى تكون هناك صلة دائمة بالعامل في وحدته والفلاح في مزرعته والطالب في كليته من أجل تحقيق شعار المؤتمر الاستثنائي للحزب "من أجل حياة أفضل" والحياة الأفضل لا تكون دون مضاعفة جهودنا الرامية إلى رفع الإنتاج سنة بعد أخرى، وهي مهمة وواجب كل عامل منا، عليه أن يلتزم أمام نفسه أولا بالقيام بواجبه حسب جهده ومقدرته".

٦- وفي الأدب تقول "الجمهورية":

"وقد أصبح من الضروري أن يكون الشاعر فنانا وفيلسوفا في الوقت نفسه، وهذا ما ندعو إليه وبإلحاح. فالفنان قلب، والفيلسوف عقل، وهما مجتمعان كفيلان بخلق الشاعر الحقيقي.

وبالنسبة للشاعر سمير رايس فهو يتوفر على خاصية الفنان، ولكنه يفتقر إلى خاصية الفيلسوف صاحب الرؤية الواضحة والموقف الثابت، والمعين، هذا ما لاحظه بعض المتدخلين حين قال: إن القصيدة عند سمير موقف غامض، ولكن إمكانية التطور موجودة بدليل أن هذا الشاعر بدأ الكتابة في وقت متأخر وفي ظرف قصير من الزمن استطاع أن يفرض وجوده بقوة في الساحة الشعرية.

وقد لاحظ هذا الأخير أن هناك علامات تؤشر على أن سميرا لو استمر في الكتابة لوصل إلى إبداع شعري قوي وأصيل، ومن هذه العلامات:

١- قدرة الشاعر سمير على الإمساك بنبض القصيدة فنيا.

٢- قدرته على تشكيل الجملة الشعرية المفعمة بالحس اللغوي، فالشاعر إنما يبدع عن طريق اللغة، وبفضل "إحساسه اللغوي".

٣- للشاعر سمير أذن موسيقية مرهفة الإحساس، ومن ثم فإن الجانب العروضي - أي الميزان - لديه سليم من الكسور.

وكما يرى الشاعر "زتيلي" هذه كلها مؤشرات تدل على أن سميرا قادر على تطوير أدواته الفنية بغية المزيد من العطاء الشعري الجيد.

وعلى العموم فإن الأمسية - رغم حضور جمهور متواضع - كانت هامة وجدية، ونتمنى من اتحاد الكتاب أن يواصل مثل هذه النشاطات لاسيما في هذا الزمن، والبقية تأتي".

٧- وفي النقد الأدبي تقول "الجمهورية" عن رواية ظهرت حديثا:

إشكالية الرواية:

"يمكن أن نقول: إن نهاية الأمس تطرح سؤال وظيفة الثورة من حيث هي فصل تاريخي في علاقة هذا الفعل بالمجتمع الذي قام فيه، إذ أن الرواية تشدد على العلاقة بين الثورة والقرية، فالثورة تعيش التاريخ أما القرية فتعيش خارج التاريخ. لهذا يصبح دور الثورة هو نقل القرية وإنسان القرية من زمن الراحة والسبات إلى زمن الحركة والانطلاق، إن قدرة الثورة على نقل الإنسان من وضع لا تاريخي إلى وضع تاريخي هو الذي يحدد معنى الثورة الحقيقى، فتحقيق الانتقال هو تحقيق الثورة وغياب هذا الانتقال هو غياب الثورة، بل يمكن أن نقول أكثر من ذلك، إن إمكانية تحقيق الفعل التاريخي هي إمكانية ارتباط هذا الفعل بحركة التاريخ وامتلاك آفاق جديدة، ينطبق هذا على الثورة وعلى الدين وعلى الدولة، فالثورة لا تظل ثورة إلا بتطورها المتجدد، الذي يحدد مهامها المتجددة، فهي تبدأ بتحرير الأرض، ثم هي تنتهي إن لم تحرر الإنسان من كل أشكال البؤس والحصار؛ أي أن الثورة تنتهي عندما تحرر الأرض من المستعمر ثم تنسى تحرير الإنسان من الإقطاع والجهل، وكذلك حال الدين، فالدين لا يمكن أن يلعب دوره التاريخي إلا عندما يرتبط بالأرض والإنسان والهموم اليومية. فهو دعوة مفتوحة على الدنية وعلى السماء، أو دعوة سماوية هدفها تحرير ما هو "دنيوي". أما خلع الدين عن ما هو (أرضي) وحصره في (السماوي) فقط فإنه طرد للدين من التاريخ ومن مسار الزمن التاريخى، وما يصدق على الدين يصدق على الدولة، فارتباط الدولة بالتاريخ هو ارتباطها بوظيفتها في خدمة الإنسان وتحريره، أما عندما تنقطع عن الإنسان فهي تدور في عالم أجهزتها الرسمية وبذلك تنسى التاريخ وينساها التاريخ.

يحاكم "بن هدوقة" مفاهيم الثورة والدين والدولة في علاقتها بتحرير الإنسان وتحقيق دورها الاجتماعي، أي أنه لا ينقد هذه المفاهيم المطلقة ولا يدعو إلى هدمها، وإنما إلى ربطها بالحركة التحريرية؛ لهذا يهاجم تعاليم الدين الصماء بلا هوادة، لكنه في هذا الهجوم لا يهاجم الدين كدين، بل يهاجم الشكل الجامد من الدين، الذي ينسى الإنسان وبؤسه، ويقبع صامتا في خدمة الجهل والإقطاع، وفي هذا الإطار يدعو "بن هدوقة" إلى ربط الحاضر بالماضي، والمعاصر بالتقليدي والراهن بالقديم؛ إذ أن كل المفاهيم لا تعثر على دلالاتها إلا في شكل وظيفتها في حاضر الصراع وفي صراع الحاضر".

٨- وفي الثقافة تقول "الجمهورية":

"أما على الصعيد العربي، فإن إحياء هذه الذكرى يرجع أساسا إلى سنة ١٩٦٦، حيث تم تأسيس الجهاز العربي لمحو الأمية، بموافقة مجلس جامعة الدول العربية، إلا أنه رغم هذه المدة الزمنية الطويلة نسبيا، نرى الأمية مازالت ضاربة أطنابها بالدول العربية، حيث تصل نسبتها إلى ٧٠٪ مما ترك التخلف والفقر عالقا بها، علما بأن أراضيها تزخر بخيرات لا تحويها بلدان أخرى متقدمة كثيرة، وأنها قد استقلت منذ زمن بعيد، وعليه، فأين نحن من شعار محو الأمية إذا كانت الأموال العربية تستغل في مشاريع لغير صالح جماهير أمتنا".

٩- أما في الميدان العلمي، فتقول صحيفة الشعب في اكتشاف (فيروس) السرطان:

"لقد أتيح لنا أن نكتشف بواسطة المجهر الإلكتروني الذي يكبر ما بين مائة وخمسمائة ألف مرة تلك الفيروسات في خلايا حنجرة الإنسان المصابة بالسرطان، غير أن مجرد اكتشاف الفيروس أمر غير كاف أبدا، فمن الضروري جمعه بكمية كبيرة وفصله عن كافة المواد الأخرى وتركيزه ودراسة خصائصه؛ لتشخيصه بشكل شامل، وهذا ما قمت به مع الأكاديمي "جدانوف" والدكتور "إيلين".

وتسنى لنا إثبات أن هذا الفيروس يشبه من حيث سماته كلها ذلك الفيروس الذي يسبب سرطان أثداء القرود.

ثمة ثلاث فئات من الفيروسات التي تسبب الأورام الخبيثة في أجسام الحيوانات، وهي فئة "س" التي تسبب فيروساتها سرطان الدم وورم المعى الخبيث لدى الحيوانات، وفئة "ب" التي تسبب السرطان لدى الفئران، وفئة "د" التي تتضمن فيروسات السرطان المستخرجة من أجسام القرود والإنسان.

ولقد تركزت جهود العلماء في الماضي على اكتشاف ودراسة الفيروسات من فئة "س"، أما نحن فنجحنا للمرة الأولى في اكتشاف نوع جديد من الفيروسات من فئة "د".

وعند مقارنة ذلك الفيروس بجميع الفيروسات المعروفة والمستخرجة من الحيوانات، اتضح أنه يختلف عنها ويشبه الفيروس المستخرج من ثدي القردة المصابة بالسرطان، وتبين الأبحاث أن العينات المضادة لذلك الفيروس موجودة في خلايا سرطان الثدي عند الإنسان.

لقد ظهرت في العقود الأخيرة فرضيات عديدة حول أسباب نشوء الأورام الخبيثة ولكن وجهة نظر العلماء السوفيات – وفي مقدمتهم " زيلبيرت " عضو أكاديمية العلوم الطبية – بدأت تتغلب تدريجيا".

١٠– وفي الاقتصاد، تقول مجلة الجيش وهي من ابدع مجلاتنا:

(وأعتذر عن نقل هذا المقال بطوله، نظرا لأهمية ما فيه من معلومات غزيرة).

"تقييم الوضع الاقتصادي غداة الاستقلال:

لقد ظلت الجزائر ما يقرب من قرن وربع قرن تئن تحت السيطرة الاستعمارية من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٦٢، هذه الفترة التي عرفت فيها البلاد أبشع أنواع الاستغلال والنهب الاستعماري، حيث استنزفت خيراتها وشرد أبناؤها، وطردوا إلى قمم الجبال الصخرية والمناطق الفقيرة، بعد أن وزعت الأراضي الصالحة للزراعة والمناطق الخصبة على أقلية بسيطة من المعمرين حولت خيرات هذه الأرض لصالح "المتروبول"، بينما بقي أبناء البلاد يعانون من الجوع والفقر والتشرد والجهل، وعرضة للأمراض الفتاكة.

ولكن رغم هذه الظروف الحالكة والوضعية الاجتماعية المزرية، لم ينطفئ بصيص الأمل، بل كانت المقاومة متواصلة ومستمرة منذ دخول المستعمر - ابتداء من مقاومة الأمير عبد القادر - إلى أن كانت الثورة التحريرية الكبرى سنة ١٩٥٤ الـــتي تحـــدت الإرادة الاستعمارية، ووقفت في وجه أعتى قوة في العالم آنذاك: "الحلف الأطلـــسى"، فاقتلعت بذلك جذورها بعد سبع سنوات ونصف من الكفاح المستميت للحصول على الاستقلال، الذي كلفها تقديم مليون ونصف مليون شهيد من خيرة أبنائهـــا، وفعـــلا تحققت آمالها بتاريخ ٥ يوليو ١٩٦٢ الذي أشرقت فيه شمس الحرية على كامل التراب الوطني، ولكن كيف وجدت الجزائر نفسها في هذا التاريخ؟

لما أحس الاستعمار الفرنسي بنهايته في بلادنا، بدأ ينظم خطط التخريب والنهب للاقتصاد الجزائري قبل انسحابه بحيث جعل الدولة الجزائرية المستقلة تـــرث اقتـــصادا مخربا، تسيطر عليه متناقضات السياسات الاقتصادية التضخمية التي طبقتها الـــسلطات الاستعمارية في إطار (مشروع قسنطينة). وتسلمت الجزائر مصيرها الـــسياسى وهـــي تواجه وضعا اقتصاديا واجتماعيا متدهورا، خلفه الاستعمار؛ حيث وجدت نفسها أمام ٣٠٠,٠٠٠ يتيم وحوالى ٤٠٠,٠٠٠ من المعتقلين والموقوفين في السجون وما يزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ لاجئ خارج الوطن و٧٠٠,٠٠٠ مهاجر، خاصة من القرى إلى المدن وما يقرب من ٣ ملايين من المجمعين، الذين أخرجوا من ديارهم وقراهم؛ لتجمعهم داخل مراكز أقيمت لهذا الغرض والتي تشبه المحتشدات، وما يزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ مجاهـــد، حاربوا في الجبال، عادوا منهكي القوى، أكثرهم معطوب أصابه رصاص العدو وشظايا القنابل وغارات النابالم، ولذلك كانت إعادة تنظيم السكان وتثبيت الوضع الاجتماعي والاقتصادي من الصعوبة بمكان قبل البدء في معالجة الجروح الغـــائرة الـــتي تركهـــا الاستعمار البغيض في الجسم الجزائرى، من جـــراء التخريبـــات الماديـــة في الهياكـــل الاقتصادية والإدارية والاجتماعية المختلفة.

فلقد دمرت ٨٠٠٠ قرية تدميرا كليا مما نتج عنه تشريد عائلات، وبقاؤها بدون مأوى، كما أحرقت آلاف الهكتارات من الغابات مع أن البلاد كانت في حاجة ماسة

إلى تشجير واسع، وتعرضت مساحات شاسعة خاصة في المناطق الجبلية إلى (سياسة أرض محروقة) ولازالت معالمها حتى اليوم تمثل مشهدا من مشاهد التخريب كما تركت الأراضي مهملة سنوات طويلة، كذلك أشجار الفواكة بقيت بدون علاج وقائي، وأدى الانخفاض الكبير في عدد المواشي من ٧ إلى ٣ ملايين رأس إلى حد انقراض بعض أنواع منها تقريبا كالبقر.

وكانت مصالح النقل أهم المصالح التي يمكن القول بأن المستعمر قد اهتم بها في الجزائر، وفي شمال البلاد بخاصة، وذلك لتمكنه من تحويل الإنتاج وخيرات البلاد من مصادرها إلى فرنسا. هذه المصالح قد دمرت فهدمت الطرق ونسفت الجسور وبلغ التدمير حدا أصبح معه من اللازم أن تؤدي خدمات استنفدت الجزء الأكبر من ميزانية مصلحة الجسور والطرق لسنة ١٩٦٣".

١١- وفي الميدان الفني تقول: صحيفة الشعب عن المسرح الجزائري:

"أطرف ما يقوله أشباه المثقفين هذه الأيام، إنه من باب السخرية القول إن هناك مسرحا في الجزائر.

وللحكم على هذا الرأي، نقول: إن الموقف السالف الذكر من الظاهرة المسرحية لا يدهشنا ما دام يبدو صحيحا ظاهريا، إذ تنبع هذه الصحة من كونها تعكس واقعا حقيقيا لم يستطع مروجوه التعبير عن خلفياته ومسوغاته الموضوعية، وأبرز مثال يجسد ضحالة آرائهم وسطحيتها، يتجلى من خلال عدم تمكنهم من التفرقة بين حجم المسرح في الساحة الثقافية وتأثيره في المجتمع، وبين الظروف التي تحيط برجال مسرحنا، والتي تحدد بدورها مدى ذاتية أو موضوعية المستوى الذي يظهر به مسرحنا حاليا.

إن المستمع لمقولة "ليس هناك مسرح في الجزائر" يتخيل أن المسرح قد غلق أبوابه وفر رجاله إلى حيث لا يدري أحد أو أنهم اعتادوا التكاسل ووجدوا مبرر عدم الاهتمام بقطاع المسرح؛ لينتهزوا هذه الفرصة ويبقوا وراء الكواليس في انتظار المرتب الشهري، وحتى لا يقال: إنهم يتقاضون أجرا مقابل لا شيء، نجدهم يقدمون مسرحية أو اثنتين في السنة، يقتبسون الأولى ويترجمون الثانية.

وللأسف الشديد مازالت هذه "الفتاوى" تنتشر من يوم إلى آخر وبـين عـشية وضحاها، وأصبحت بفعل التداول أحكاما موضوعية يتقلبها العقل بكل سهولة، وذلك ما يهدد ويزيد في الوضعية المتدهورة التي يمر بها المسرح الذي مازال حيا يـرزق، وإن تسببت علاقة وسائل الاعلام به في الظرف الذي يعرفه، إلى جانب الإهمال الكبير الذي مازال يعانيه إلى حد كتابة هذه السطور..." إلى أن تقول الصحيفة:

"وانطلاقا مما سبق، نقول: إن المسرح لا يمكن أن يستمر بهـذه الوضـعية؛ لأن المسرح الذي يعتمد على المبادرات الشخصية أو الاجتـهادات الفرديـة لا يمكـن أن يتوصل إلى توفير كل شروط الإبداع، لأنها تبقى محدودة بإمكانيات ضيقة لا يمكن أن ترتفع إلى مستوى العملية الإبداعية الشاملة، ومن هنا، فإن التفكير في مستقبل مسرحي أضحى الإجراء الملح، قبل أن يتوقف المسرح نهائيا، كمـا قـال أحـد المـسرحيين الجزائريين".

١٢- وأخيرا عن الرياضة، تقول صحيفة "الشعب":

"انطلقت أمس بالملعب الملحق لألعاب القوى (مركب ١٩ جـوان) للألعـاب الخماسية العسكرية تحت إشراف العقيد "علي بوحجة" عضو اللجنة المركزية للحزب، وقائد الناحية العسكرية السابعة الذي كان مرفوقا بالمقدم "علي القاسمي" عضو اللجنة المركزية ومدير المصلحة المركزية للرياضة العسكرية وعدد من رجال الجيش.

وبعد الإعلان عن الانطلاقة الرسمية للدورة واستعراض الوفود الممثلة للنـواحي العسكرية السبعة والأكاديمية العسكرية لمختلف الأسلحة بشرشال والمدرسة العسكرية للتربية البدنية والرياضة والمدرسة العليا للتقنيات، فتح المسبح الأولمبي المغطـى التـابع للمركب أبوابه في وجه المتنافسين؛ ليتباروا على تحقيق أحسن النتائج الممكنة في النوع الرياضي الأول المسجل في برنامج الألعاب الخماسية التي تضم - بحسب التسلـسل - السباحة (اليوم الأول) واجتياز الحواجز، ورمي القنابل اليدوية (اليوم الثاني) والعـدو الريفي والرمي (اليوم الثالث والأخير).

وكان على المتسابقين قطع مسافة ٥٠م، أي طول المسبح في أقصر ظرف زمني مع احترام شروط اجتياز الحواجز الأربعة التي وضعت في الرواق بين نقطتي الانطلاقة والوصول.

وسيتواصل الجو التنافسي صباح اليوم بالمدرسة العسكرية للموسيقى ببني مسوس التي تحتضن مسابقتي اجتياز الحواجز ورمي القنابل".

وهكذا أيها السادة الأبرار، أنهي هذا العرض المفصل عن لغة الصحافة عندنا منذ الاستقلال؛ رأيتم فيه رأي العين سلامة العربية، وجودة التعبير، وحسن التنسيق في مختلف شعب الحياة اليومية التي يهتم بها الشعب العربي الجزائري اهتماما عظيما.

وأرجو أن أكون قد وفقت في الاختيار والتفصيل، مع اعتذاري عن تطويل اقتضاه المقام. ولكم الشكر الجزيل.

*   *   *

لغة الصحافة(*)

للدكتور محمد عزيز الحبابي
(عضو المجمع المراسل)

لغات ولسان:

يتكون اللسان العربي من لغات؛ من بينها لغة الصحافة. فكما لنا لغة خاصة بالفقه وأخرى بالتجارة، وثالثة بالفلسفة، ورابعة بالرياضيات،. . لنا لغة الصحافين.

لن يفصل هذا العرض لغة الصحافة عن المكونات الأخرى للسان العربي مادامت كلها تتعامل فيما بينها وتتخاصب. بيد أن للغة الصحافة فعلات أكثر نفوذا إلى وعي الشعوب وإلى ذاكرتها التاريخية والجمعية.

تدخل لغة الصحافة في لغات الإعلام وهي اللغات الأولى من حيث التأثير المباشر على الأفراد وعلى الرأي العام، ومن حيث الانتشار إنها أقوى من لغة المهد. فأفق هذه ضيق؛ إذا ألفاظها وتعابيرها تنحصر في المحسوسات البدائية، يتعلمها الطفل، عفويا وفطريا. وهنا لغة ثالثة يدركها كل من يشملهم التمدرس، وعددهم بالعالم العربي ينمو ببطء؛ لأن النمو الديمغرافى يعاكسه. ولغة المدرسة ليست وللأسف؛ لغة جميع الأطفال، بل تكتسب بجهود وتحصيل وحظوظ، ويذهب نحوها الأطفال؛ خلافا للغة الصحافة التي تأتي عند القارئ وتغزوه يوميا، وفي كل أطوار سنه. إنها تهاجم بصره وتغريه. فهي على الأرصفة في الطرق، وفي المكتبات، وفي قاعات الانتظار، وفي مكان العمل، وفي "الباص" والقطار والطائرة. لغة الصحافة تتابع المؤبجدين حيثما حلوا.

لغة الصحافة سيف ذو حدين معلق فوق الرقاب، فكما تقول الحق، نشرًا ودفاعًا؛ تؤكد الباطل وتسانده وتذيعه، وكما تنمى التواصل بين البشر لصالح التطور الحضاري والرقي العام، تقطع أحيانا روابط التواصل بين الأفراد والشعوب، وتعكر

(*) ألقي في الجلسة الخامسة، لمؤتمر المجمع في دورته التاسعة والأربعين، في ٢٦ من فبراير سنة ١٩٨٣م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والخمسين، ص ٧٩. (وسبق هذا البحث بحث للأستاذ محمد زكى عبدالقادر، بالعنوان نفسه، سقط من الترتيب سهوا، وسيرد في آخر هذا الكتاب).

صفو الوعي الفردي والجماعي. ولقد صدق من صرح بأن الصحافة هي السلطة الرابعة؛ أي إنها تأتي بعد السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، وقبل السلطة الخامسة التي تتكون من تجمع الصحافة مع باقي السلطات في يد واحدة احتكارا واستبدادا.

من هنا خطورة الصحافة. إنها في أمية دائمة: إما أن تستعمل لغة واضحة ودقيقة وصحيحة المعنى والمبنى، (وإن الدقة والوضوح يستلزمان صدق الأخبار، وحسن النية)، وإما أن تستعمل لغة مهلهلة تقريبية ومبهمة؛ ومن هنا الخلط بين المفاهيم والالتباس بين المعاني، فيحصل سوء فهم وسوء تفاهم يستغلان استغلالات سلطوية وتخلفية، فتسخر أفرادا وجماعات لصالح قلة من الهيآت الخاصة.

إذا كانت تلك الأدوار المزدوجة في ما تقوم به الصحافة، وكان نفوذها على ذلك المستوى من الخطر، وجب التحري عن لغات الصحافة. ولغة هنا لا تنحصر في معرفة قواعد النحو والصرف والتراكيب، بل إنها أيضا قدرة تتسرب للذهن والضمير فتوجهها إيجابيا أو سلبيا.

(فاوست) يسكننا:

فاوست بطل أسطورة جرمانية قديمة ترمز – على ما يظهر – إلى أن الإنسان الذي يتطاول على الواقع – عوضا من أن يتكيف معه – لا بد من أن يتعرض لأخطار وتجارب قاسية. ولن يتغلب على وضعه إلا بنقد ذاتي جرئ يفتح به بصره على الواقع ولو كان مرا.

فموقف العرب من لسانهم موقفان: موقف عاطفي، الحب فيه يعمى ويصم، وموقف يعتمد الموضوعية ويخضع للواقع حلوه ومره.

من مميزات الكائن البشري السوي الحرص على عدم ضياع هويته الأصلية. إن ضياع لسان قوم، يكسر هيكل مجتمعهم، إذا لا فرد ولا مجتمع دون لسان وتواصل. فالكائنات العاقلة تتساكن فيها قوى متضاربة، وأي فرد لا يحافظ على الاعتدال بينها يخسر مقومات هيكله السيكلوجي المجتمعي، فيكون مآله مآل (فاوست) .

وبدل أن يبقى رجلا يتمتع بالحياة، طبيعيا، ويكتسب من المعرفة ما تسمح به قدراته، يتحمل المخاطر، ويبذل الجهود التي تقتضيها المغامرة من أجل الجاه والمعرفة دون تهاون - تنازل (فاوست) عن روحه لـ (ميفيسطوفيليس) أمير الشياطين، وبالمقابل التزم هذا الأخير بخدمة (فاوست) مدة أربع وعشرين سنة، يوفر له ملذات فوق العادة، ويمنحه أقصى ما يمكن من المعرفة. فأعرض (فاوست) عن اللجوء إلى اللسان القومي وإلى تعاون مع أبناء جنسه، فأعرض وبات يتحدث بلغة (ميفيسطوفيليس) وحدها.

وما إن تراءى لـ (فاوست) أن مشروع التعاقد دخل حيز التنفيذ، حتى انطلق وهو خلو من الروح الفردية والجماعية، يعمل في الكون كمن أصبح قادرا على فهم كل شيء والسيطرة على كل شيء. وسرعان ما أضحى متجبرا في العالم.

و لم يمر إلا وقت قصير حتى اضطرب وجدانه أمام الفراغ والسأم. فجند مجموع قواه للهدم والعنف متخبطا في الكون، غائبا عن المحيط الإنسان وعن الواقع، وهل من سبيل على الاندماج في مجتمع وإدراك واقعه دون معرفة لسان ذلك المجتمع. فالروح النضوي المتسرب بين كثير من المثقفين العرب يتأتى من شعورهم بالاغتراب داخل أمتهم لأنهم يجهلون، أو يتجاهلون لسانها إما لاعتباره ناقصا ومتجمدا، وإما لانبهارهم بألسنة الغرب.

وبعد أن تخلى فاوست عن لسان قومه والتآلف معهم، غدا يقتله الحنين إلى هويته الأصلية، وبدأ ضميره يستيقظ رويدا رويدا. لكن، هيهات أن تنسجم طبيعتان في شخص واحد كما جاء في القرآن: " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ".

جن (فاوست) من البحث عن ذاته وعن قيم يزن بها بنود العقد الذي يربطه بـ (ميفيسطوفيليس) بعد أن اقتنع بأن الصفقة خاسرة، قسمة ضيزى.

كيف يقيم ويقوم الخسارة، وقد استرخص من قبل تراثه ولسانه والروح والكرامة؟

يلتقي (جوتيه) بفاوست في القرن التاسع عشر، ويأخذ بيده ليشخصه من جديد. استعاد فاوست كل أبعاده وغدا لا يستوحي سلطة الفكر والمعرفة إلا من إنسانيته، وبلغة الأم، اللغة المتجذرة في كيان شخصه وفي أعماق ذاكرته، إذاك وعى فاوست وضعه المزيَّف والمزيِّف، فدخل معركة ضد من اغتصب منه الروح، فكانت عاقبة (ميفيسطوفيليس) الخسران المبين. أما فاوست الإنسان فقد صار يحقق ما يرنو إليه من توق للعمل، إلى أن أصبحت حركاته قصدية في مغامرات إنسانية؛ لأنه التزم بتحقيق مثل عليا، كما أدركها بوجدانه ووعيه وعقله وحدسه، على ضوء قيم شمولية مشتركة أخذها من الثدي والمهد، وعن الأم والأب والإخوة ورفاق الطفولة في البيت والمدرسة والشارع.

لا نهضة بلا لسان متطور:

فمتى يستعيد فاوست العرب العصري روحه لينحي عن الطريق كل آثار ميفيسطوفيليس، ويجعل قوتي: الدفع ورد الدفع متكاملتين؟

متى سنستأنف، متعاونين، المسيرة نحو آفاق جديدة تضمن الكرامة للجميع، وتصحح الاتجاهات الاقتصادية والمعنوية معا؟

تود شعوبنا بكل أحشائها أن تتجاوز القطيعة والانشقاق الصراعي بين مسؤوليها نحو الانتصار على التخلف. ولا كفاح ناجح دون مناخ ثقافي تتفتح فيه الشخصية الفردية وتنتعش فيه الذاكرة الجماعية عن طريق اللسان القومي.

وصفت الصحافة بأنها "صلاة يومية" أي أنها بعد أن بدأت قليلة الانتشار واختيارية الوجود في حياة الأفراد والجماعات، أمست لازمة وشبه مقدسة، وها هي اليوم تغزو الآفاق وتتابع الناس، حتى من لا يحسن القراءة منهم، هجوما مسموعا ومرئيا بل تتسرب حتى أسرَّة الناس، مما جعل لغتها أقوى انتشارا وتأثيرا في الأعماق.

فالسؤال إذن: هل للصحافة العربية على اختلاف أنواعها، لغات في مستوى الأدوار المنوطة بها؟

بصفة إجمالية، أن الواقع المعيش يجيب بالنفي. ففي الوقت الذي تفككت فيه كل عروتنا، وباتت " الأمة " العربية بلا جامع مشترك (لا سوق اقتصادية مشتركة، ولا توحيد في برامج التعليم، ولا أحلاف دفاعية، ولا نظرة منسقة في السياسة، والديبلوماسية، ولا. .. ولا... وألف لا ولا. ...) كل ما تبقى لنا هو اللسان العربي لنتواصل به، رغم الاختلافات والتنافي، وهما يتناوبان الظهور والاختفاء، فوق ساحة الدولة العربية، مع مر السنوات.

نعم، باللسان العربي يقع اللقاء والافتراق أي به نتصل، والضمير في "نتصل" لا يعود إلا على حاملي الشهادات وعلى المؤبجدين عموما، أما جمهرة الشعبيين العرب، فلا يحسنون قراءة ولا كتابة. أن الدارجات تغرقهم في قطيعة مع لسان تراثهم، ويفصل بعضهم عن بعض، كلما انتقلوا من مكان عاميتهم إلى مكان عامية أخرى. هكذا العاميات والدارجات تغرقنا في اللاتفاهم بيننا.

فماذا يستفيد المصري، الأمي والمثقف على السواء، من أخيه المغربي عندما يقول له: " الخوهد لوليا طلعتلي الزعْف "؟ وماذا يستفيد المغربي، كيفما كان مستواه، عندما يسمع شقيقه ابن الكنانة يصرح: " أنا عايز أُوَد زَيْ ده "؟

إنها شقة تزداد مع الأيام ومع المسرح ومع السينما، ولغة الأغاني، عمقا وتعقيدا. فقراءة الصحف والمجلات ميزة من امتيازات نخبة المتعلمين.

والقراء نوعان: نوع يتهجى العناوين ويتفرج على الصور، ونوع يستوعب ما يقرأ. والقراءة الحق لا تكتفي بالتأبجد، بل لا بد من تعلم جد طويل الأمد؛ لأن اللسان العربي ليس سهلا كما يزعم البعض. إنه عسير جدا لعلتين: أولاهما أنه ليس لسان الخطابات اليومية في السوق والبيت... ثانيتهما أنه يجند البصر على حساب السمع. إن العربية، حتى المكتوبة، لا تخلو من صعاب لا يتغلب عليها إلا أفذاذ قلائل.

على رأس لائحة تلك الصعوبات: أن الكتابة العربية معوقة لفقدان الحركات على الحروف، وكل جهاز أو جسد أصابه عطب ما في حركاته، بات مشلولا.

قد ننتصر — إن قليلا وإن كثيرا — على القطيعة وعلى صعوبة القراءة إذا جندنا الإذاعة والتلفزة، وكذا السينما والمسرح والأغنية في خدمة اللسان العربي؛ أي الجامع المشترك بيننا؛ لأنها أداوت فعالة لترسيخ الجمل السليمة والألفاظ الصحيحة في الذاكرة والنطق المستقيم في الحديث.

فهل سيصح العزم على القيام بذلك؟ من الجواب ستكون بداية الإصلاح الأشمل، أو نهاية المحاولات المتفائلة، فمن الصحفيين من يضعوا مصطلحات وعبارات وترجمات تفرض نفسها بفضل التكرار فيتعود عليها البصر أو السمع فتستقر بالذاكرة وهذا ناموس طبيعي، لأن ما يجد قلبا خاليا يتمكن. والواقع أن بعض ما يوضع ارتجالا (الخبر الصحافي لا ينتظر) أو بعد بحث وتأمل، يكن مقبولا لسلاسة بنيانه واشتقاقه، كما أن بعض ما يقترحه صحفيون آخرون لا يقبله الذوق، أو يكون غير دقيق.

كذلك، يرجع الفضل إلى الصحافة في ترويج ألفاظ عربية كانت مهجورة، فأعادوا لها الحياة.

نقطة ثالثة. حينما يقع اكتشاف أو اختراع، سرعان ما يسميه الصحفيون قبل المجامع والجامعات والمعاهد العليا. وعندما تضع إحدى هذه الهيآت أسماء لتلك الاكتشافات، تكون الأسماء التي أطلقها الصحفيون قد استقرت.

- فهل من حل لهذا الوضع؟

- أتدخل المجامع والهيئآت العلمية الأخرى في حرب مع الصحافة؟

تلك سلسة من التساؤلات وليست الوحيدة على كل حال.

ومهما يكن من اجتهادات، فإن الوضع الحالي غير مشجع. استمعوا إلى إذاعة الرباط، مثلا، فكل الأغاني بالعامية، وأحيانا بكلمات يمجها الذوق العامي نفسه مثلا: "عينيك كيف الزلميط" (زلميط Ies allumettes الفرنسية). طبعا، قد تصادفون، عرضا أغنية بشعر عربي، لكن ذلك من النوادر، والنادر لا حكم عليه أو به. بنفس الإذاعة المسرحيات بالدارجة، وأرقاها بالعامية.

تتبعوا بإذاعة القاهرة مباراة لكرة القدم بين الزمالك والأهلي، فتسمعون خليطا عربيا إنجليزيا، لا هو هذا اللسان ولا هو ذاك: أفسايد (عوضا عن الشرود أو التسلل) و كورنر (عوضا عن ركنية أو جانبية) وبنالتي (في مكان ضربة جزاء) .

ولنتصفح برامج المسرحيات المعروضة حاليا في مسارح العالم العربي جميعه، والشرائط السينمائية في قاعات العروض العربية كلها، سنجد أن جلها أجنبي، والباقي بالعاميات باستثناء قلة القليل.

فإلى أين نسير؟

إن القضية ليست في تصحيح وزن صرفي أو اختبار لفظ أفصح من آخر، أو تأكيد قاعدة نحوية. إن القضية مصيرية، وبالتالي تستوجب تغيير بنيان أجهزة الإعلام والتثقيف، وغربلة الأطر المسؤولة. واستبدال فنانين وصحفيين بآخرين يفرضهم مستواهم الفن واللغوي، ويعون مسؤوليتهم حق الوعي.

لقد جلس البعض على كراسي في الحكم أو الإدارة، واستلذوا السكوت و"مَاعْلِيش" ويتجنبون كل رجوع إلى ضمائرهم ليصلحوا ما حولهم. فمنهم من باع ضميره، كما فعل (فاوست) مقابل الهدوء، حتى لا يزحزحوا عن كراسيهم، ومنهم أنصاف مثقفين، لا هم يعملون على إصلاح ما بهم من نقصان، ولا هم تحركوا؛ لأن الحركة تفضحهم. الكل يتآمر على العربية وعلى ما حملت من تراث إنساني وما يمكنها أن تساهم به لصالح الإنسانية.

فكأن الجميع ملتزم بالسكوت نحو (ميفيسطوفيليس) أمير الشياطين الذي اشترى من (فاوست) روحه.

تنتقل الآن إلى وجه ثان من المشكل: إنه استلاب التخاطب اليومي عند كثير من المثقفين العرب الذين انبهروا بالغرب فتغربوا لغويا وسلوكيا. تلك غربة واغتراب وتمغرب. إنه عائق ليس أقل خطورة من العوائق السابقة. بل على العكس، إنه انتحار لشخصية الأمة بواسطة انتحار كرامة أطرها العليا والوسطى، وذوبان الآمال المعلقة عليها.

لا مجال للخلق العفوي في عالم الفكر أو المعاني والمثل، كما هو محال في عـالم المادّة. لا بد من مواد أولية ومن فكر ليفهمها قبل أن يتصرف فيها. ومن المسلم به أنه لا فهم ولا فعل إلا عن طريق اللسان. فبالألفاظ تسمى الأشياء، وتتحول مفاهيم ندخل بها في حوار مع ما نريد إدراكه، فيبدأ الاكتشاف والتصرف في الموضوعات المدركـة. لذلك، لن تلعب أية لغة أدوارها إذا تجمدت أو جمدت.

لقد أتى دهر على لساننا كان خلاقا مبدعا كشافا، ثم أغلق باب الاجتـهاد في الفقة، وجف معين علم الكلام، وبالتالي تجمدت العربية. اجتهد الأجداد عندما ترجموا، واجتهدوا عندما فكروا، بل حتى عندما سامروا في ليالي المرح والدعابة، ثم أصـابتهم الأمواج من كل مكان، وجاءهم ريح عاصف، فكان ما كان.

إن الذبذبة والحيرة، كالوثوقية، عرقلة للفكر، تمنعانه من مرونـة التـصرف في الواقع. فالوثوقية المادية، والوثوقية المثالية، تعارضان توحيد الرؤية والالتحام بالواقع إنهما حاجزان في طريق بناء المستقبل، بل حتى في سيرورة تصوره؛ لأن الـتفكير مـضمونا خارجا عنه يتجاوزه. فمعيار اليقين ليس في الفكر بل في علاقة الفكر بالحياة وتطابقـه مع مجرياتها. ومجريات حياة اليوم هي السرعة والتفتح، فاللسان العربي معرض لتحولات العصر، ومن يحاولون تجسيده يقتلونه.

ذاك هو معنى "الإنسان حيوان سياسي، مدني بالطبع" على اعتبار أن الـسياسة هي التي تُسيِّر المجتمع وتنظِّم العلاقة بين الأفراد فلا قوانين للفكر توجهه وتجعلنا نخضع لها قبل أن نخضعها لنا.

الفكر أفقي، وإن ظنه البعض عموديا، بيد أن أفقيته محدودة، مكانيا وزمانيا. إنه "آلة" تاريخه وتأريخه. ومن هنا تصدر عن الفكر دلالات حضارية. فعمليات الفكـر قصدية، غائية. لذلك، كلما أردنا تحليل فعل فكري، وجب أن يقوم التحليل بلـسان واضح ودقيق ومتحرك.

إن ماهية الفكر ومضمونه يتلازمان كما أن أي فعل فكـــري، في فرديتـــه، لا ينفصل عن فعل الفكر بصفته موضوعا. فالشعور حضور الـــذات مباشـــرة في ومـــع محيطها.ومن وظائف الفكر المتميزة أن يعين الشعور ليرتفع على مستوى الإحساس إلى الوعي، ولينتقل بالوعي إلى التأمل في علاقات الذات بمحيطها. أن التأمل شرط ســـابق على أي تخطيط للوسائل الكفيلة بإصلاح خلل علاقات الذوات بمحيطها وبالتاريخ.

ليس المحيط المجتمعي فضاءً جغرافيا وحسب، بل ثقافـــة تتجلـــى في الـــسلوك والعادات والأعراف، المكتوب منها وغير المكتوب، كما أن التاريخ ليس أحداثًا وآثارًا وحسب، بل إنه أيضا، ذاكرة جماعية تسكن اللسان القومي، بكـــل لغاتـــه وتتحـــرك بحسب ديناميته. فهو الذي يسقى الفكر والحدس والإحساس، من الداخل ومن الخارج، فمثل من يحاول إيقاف هذا الرافد أو الآخر (برفض الاجتهاد والتفتح) كمثل من يحاول إيقاف الحياة في تدفقها.

* * *

الصحافة وتجديد اللغة(*)

للأستاذ عبد الله كنون

(عضو المجمع)

وقر في أذهان الناس أن لغة الصحافة لغة ضعيفة، وأنه لا ينبغي لمن يحب أن يكون كلامه في المستوى المطلوب من الفصاحة اليعربية أن يتأثر أسلوب الصحفيين، وإلا أصبح هدفا للنقد بأن كتابته من نمط ما يكتب في الصحف. ومنذ أن كتب الشيخ إبراهيم اليازجي مقالاته المعنونة بلغة الجرائد والناس يعتقدون أن كتاب الصحف من أراد الناس لغة، وأن على الأديب، إذا أراد أن يبرز بين الكتاب، مجانبة ما يتردد في كتابات الصحفيين من ألفاظ وجمل، تخل بجمال الأسلوب وفصاحة الديباجة.

وتابع اليازجي غيره ممن انتقدوا لغة الصحافة، وزاد اعتقاد الناس بأن هذه اللغة تسفل إلى حد أنه يجب الحذر منها.

وكان علينا أن نعتبر هذا النقد ظاهرة صحية، وأنه تقويم لبعض ما يلتوي في أيدي بعض الصحفيين من أساليب وكلمات، يجب أن ترد إلى الصواب ولا زائد، وأن غالب الكتابة الصحفية لا بأس بها، بل إنها مثال لتجديد اللغة والتوسع في دلالاتها وفتح لآفاق التعبير عما يجول في ذهن الكاتب من معان وأفكار، وما يقع تحت بصره من مشاهد وأحداث. كيف ونحن نرى أن الصحافة المعتد بها، والتي يقرأها الجمهور الغفير من الناس، لم تزل تخضع في تحريرها لرئاسة بلغاء الكتاب وكبار الأدباء، كأحمد لطفي السيد، وعلي يوسف، ومحمد حسين هيكل، وأمين الرافعي، وداود بركات ومحمد عبده ورشيد رضا، وأحمد حسن الزيات، ومحب الدين الخطيب، والبشير الإبراهيمي، وغيرهم من كبار الكتاب الذين لا يرقى الشك إلى ثقافتهم اللغوية، فضلا عمن يشارك في تحريرها والكتابة لها من أساتذة الأدب وعباقرة المفكرين؛ كطه حسين، وعباس العقاد،

(*) ألقي البحث في الجلسة السابعة من مؤتمر المجمع، في دورته التاسعة والأربعين، الثلاثاء الموافق الأول من مارس سنة ١٩٨٣م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والخمسين، ص ١٢٥.

وأحمد أمين، وزكي مبارك، والمنفلوطي، والبشري، والمــازني، والعريــان، وشــكيب أرسلان، وصادق الرافعي، وسواهم.

وإذا كان من الجائز أن يقع في كلام أحد هؤلاء الأساطين، أو من دونهم رتبــة من محرري الصحف، بعض الألفاظ أو العبارات الضعيفة، فذلك هو ما يتوجه له النقد ويستوجب التصحيح، على ما جاء في مقالات اليازجي وغيره ممن تصدوا لهذا البــاب من الكتابة اللغوية.

و لم يفتأ اللغويون وعلماء العربية يتتبعون ما يقع في كلام الناس - والناس هنــا تعني الخواص - من اللحن والخطأ اللغوي، وينبهون على صوابه وتصحيحه، و لم يقــل أحد أن ذلك موجب لتجنب التأثر بأسلوب هذا الكاتب أو ذاك، بله الحكــم عليــه بضعف اللغة ورداءة الكتابة لخطئة في لفظة أو لحنه في عبارة. ومن أول من نذكرهم من المؤلفين في هذا الباب أبو القاسم الحريري، وكتابه "**درة الغواص في أوهام الخــواص**" أشهر من أن يعرف به.

ومن المفارقات الغريبة أن الحريري، الذي تتبع أوهام الخواص، لم يسلم ممن يتتبع أوهامه في مقاماته التي تأتي في الطليعة من الأعمال الإبداعية في أدبنا العربي وهو ابــن الخشاب، وإن انتصر له بعد ذلك ابن برى على ما هو معروف.

ونتيجة هذه المفارقة أن الكلام، منذ تفتقت به الألسنة، لم يزل يتعثــر عليهــا فينحرف عن مخرجه الصحيح أحيانا وينعكس ذلك على رؤوس الأقلام فتسجل الخطأ من حيث لا يشعر الكاتب، وحينئذ يأتي المصحح فيؤدي مهمته على الوجه المطلوب.

فالصواب هو الأصل والخطأ طارئ، وليس في أي إنتاج صحفي أو غــيره مــا يعكس القضية، حتى يجعلنا ننبه على تجنبه جملة ونُحذر منه كله، فإن أفعــال العقــلاء تنــزه عن العبث، والموضوع بحاله وهو لغة الصحافة وكتابة الصحفيين، فلنبق مرتبطين به وفي دائرته الخاصة.

وإنني أعتقد أن أكبر تطور عرفته لغتنا العربية في عصرنا الحاضر، كان على يــد الصحفيين ومحرري الصحف، فإن هذه الطبقة من حملة الأقلام تواجه عملا راتبا يتطلب

منها إنتاجا يوميا متنوعا يملأ أنهر الصحيفة على اختلاف صفحاتها من إخبارية وسياسية وأدبية واجتماعية واقتصادية وغيرها، ومن ورائها آلة الطباعة التي لا ترحم وهي كالغول لا يشبعها شيء، فكلما أطعمتها بما تظن أن فيه الكفاية تقول هل من مزيد، وعمل من هذا القبيل ليس كعمل الجامعي في تطلب المصطلح ولا كعمل المجمعي في تخريج هذا المصطلح، على روية في الأمر وسعة من الوقت، بل هو وحي اللحظة وتفكير الآونة، فإن أخطأ فله العذر، وإن أصاب فهو يستحق جزيل الشكر، والواقع أنه مصيب في غالب الأحيان، وخطؤه — إن كان — لا نسبة بينه وبين صوابه الكثير الغامر، بدليل أنه لا يفطن له إلا الخبير الماهر.

والميزة الكبرى لعمل الصحفيين، في تطوير لغتنا الضادية، هي توسيع دائرة دلالات الألفاظ وتحميلها من المعاني الجديدة ما لم تكن تدل عليه من قبل، بلا تكلف ولا تحمل. فما يحق أن يطلق عليه تجديد بالمعنى الوارد في الشرع للتجديد في الدين، فهو ليس نقض القواعد وهدم المعالم وإنكار الشرائع وطمس الشعائر، بل المحافظة على الأصول وتقديمها بما يجعلها تحيا بعد الدروس، وتتقبلها النفوس بتصديق وإيمان، كذلك التجديد في اللغة الذي نجده في عمل الصحافة هو تطوير لها باحتضان ما جد من المعاني والأفكار من غير تبديل ولا تغيير في القواعد والأحكام، فإننا نقرأ الصحفات المتوالية التي تتطرق للموضوعات المختلفة، ونستفيد فائدة جلى من قراءتنا، ولا نشعر بأي شيء من الخروج عن المألوف والمأنوس من الألفاظ والتراكيب في معالجة الكاتب للموضوع الذي قرأناه، وتلك هي البراعة في الأداء والمقدرة في التعبير التي أوجدتها الصحافة ولغة الصحفيين.

ولنقارن هذا العمل العظيم، في عموم فائدته وشمول معطياته مع المحافظة التامة على القواعد والأصول ببعض الأعمال المنسوبة للتجديد والمرسومة بالإبداع في الميدان الأدبي، وخاصة منها ما يسمى بالشعر الحر، ولاسيما الرمزي منه في مصطلح أصحابه، إذ نرى الألفاظ لا مدلول لها، والمعاني دونها خرط القتاد، وأما الموسيقى الشعرية فعليها

السلام، ومع ذلك فان الدنيا قد صمت آذانها بالدعاية التي تبث لهذا الـشعر الجديـد والعمل الإبداعي الذي يتيه به قالته ومن تبعهم من الهاوين، حتى صاروا يسمون الشعر العربي الأصيل – إزراء عليه – بالشعر العمودي، ولا يهمنا هنا في المقارنة إلا موضوع اللغة، فأي مكسب استفادته العربية من هذا الإنتاج إلا تمزيق شملـها وتعميـة معـاني ألفاظها، وإبهام أغراضها، وغموض ما كان واضحا من أساليبها؟.. أن العمل الصامت الجليل الذي قامت به الصحافة العربية منذ إنشائها وتقوم به إلى الآن في تجديد اللغـة يزيد قيمة ويرتفع قدرا بمقارنته بهذا العمل الأدبي المزعوم الذي صحبته هـذه الـضجة الدعائية، و لم يكن له من عطاء إلا الجلبة والضوضاء.

إن آلاف الألفاظ والتراكيب التي لا نعرف لها واضعا ولا صانعا والتي أصبحت من صميم اللغة العربية، وثروتها الواسعة التي لا تعرف حدا، هي مـن عمـل رجـال الصحافة وابتكارهم، إما بالترجمة من اللغات الأجنبية، وإما باستعمال المجاز والاستعارة؛ توسعا في دلالات الكلمات، وإما بالوضع الوحِيّ الذي يجئ عفو الخاطر ويكون مطابقا للقواعد وأحكام اللغة من اشتقاق وتعريب وغيرهما.

وإذا كانت الدعوى لا تصح إلا بالدليل، فها أنا أعرض عليكم عشرات، بـل مئات من الألفاظ ذات الدلالة الجديدة التي لم تكن لها من قبل، وإنما استعملت فيهـا حديثا على صفحات الجرائد، وقد التقطتها من أحد المعاجم الفرنسية العربيـة، وزدت عليها ما حضرني مما لم يذكره هذا المعجم، وهو المسمى "العضد الـيمين للمحـررين والمترجمين"، تأليف "ليون برشي" رئيس قسم الترجمة بتونس علـى عهـد الحمايـة الفرنسية، وهو مطبوع بالجزائر سنة ١٩٥٣؛ أي قبل ثلاثين سنة، اعتمد فيه – كمـا قال – على الصحافة العربية، مشرقية، ومغربية، لوقته فكم حدث بعد ذلك من ألفاظ؟ وقد راعيت في ذكر هذه الألفاظ والعبارات الترتيب المعجمي، و لم أذكـر منـها إلا المستعمل المشترك بين الأقطار العربية والأكثر انتشارا من غيره، وكـذلك لم أذكـر المصطلح العلمي؛ لأن المؤلف ليس من أهله، والمعجم أصلا غير موضوع له وها هـي تلك الألفاظ:

علم الآثار، أثرى، أو عالم الآثار، بعثة أثرية، دار الآثار، أدوات مكتبية، أدوات الزينة، مصدر مأذون، الأوساط المأذونة، مؤسسة ثقافية، أو غيرها، مؤسسات تأشير، تأشيرة على جواز السفر، إطار، أطر، بمعنى سك الموظفين أو العمال، عيد ألفي، ذكرى ألفية، وزارة ائتلافية، استئناف القضايا، استئناف القضايا، محكمة الاستئناف، مؤهل، مؤهلات، حرب أهلية، آلة تصوير، آلة كتابة، أو كاتبة.

بحث علمي، أو أدبي، قاضي البحث، ملاحة بحرية، وزير البحرية، استبداد، حكم استبدادي، مستبد، حكم ابتدائي، محكمة ابتدائية، مدرسة ابتدائية، شهادة ابتدائية، مبادئ، مبادئ القانون، مبادرة، بدل أتعاب، بدل اشتراك، مبررات، برر العمل، مبردات، برقية، أبرق، مكتب البرق، محكمة النقض والإبرام، مباراة أدبية وغيرها، وضعه على بساط البحث، بصمة الأصابع، بصمات، بطاقة تعريف، بطاقة بريد، بطاقة زيارة، بطولة رياضية وغيرها، بعثة علمية أو عسكرية وغيرهما، بعد وأبعاد بالمعنى النسبي، بلدية، قرار بلدي، بلاغ رسمي، بلاغ حربي، بيئة علمية أو حضارية، بيان حقيقة.

متحف، تحف فنية، تيار كهربائي، التيارات الفكرية والسياسية وغيرها، ثقافة، اللجنة الثقافية، النخبة المثقفة، ثلاجة، مثلجات، الثورة، حركة ثورية، ثوري، ثائر، الثورة الوطنية.

جهة وطنية، الجبايات، نظام جبائى، جدول أعمال، بجرة قلم، جريدة، جرائد، يرى بالعين المجردة، منطقة مجردة من السلاح، تجريدة عسكرية، إجراءات إدارية أو قانونية، مجرى الهواء، مجلة ومجلات، مجلس تأديبي، مجلس النواب أو مجلس الأمة، المجلس البلدي، مجمع علمي أو لغوي، مجامع، بإجماع الأصوات، جمعية رياضية وغيرها، جمعية الأمم، جامعة علمية، جامعي، المجتمع، علم الاجتماع نظرة إجمالية، جراحة التجميل، الجماهير الشعبية.

التجنيد الإجباري، الجندي المجهول، الجنس، علاقة جنسية، الجنس اللطيف، ملاحة جوية، الأرصاد الجوية، النشرة الجوية، جواز السفر.

حبر على ورق، احتج، احتجاج بالمعنى السياسي، الحجر الصحي، الحجر الأساس، الحجز على الأمتعة، الحواجز الجمركية، الخط الحديدي، الستار الحديدي، حادثة سير، رئيس التحرير، محرر، وحدة حرارية، بالحرف الواحد، احتراف، محترف (مقابل هاو)، محروقات سائلة أو جامدة، محرك كهربائي، حركة فكرية، نقطة حساسة، حساسية، محسوبية، فعله لحساب فلان أو على حسابه، حصانة سياسية أو نيابية، محضر الجلسة، محاضر، محاضرة، القسم التحضيري، محطة وقود، محطة الإذاعة، محطة السيارات، الحفريات الأثرية، حفظ الصحة (علم)، حافظة النقود، محفظة أوراق، تحفظ أو فعله مع التحفظ، حافلة ركاب، علم الحقوق، كلية الحقوق، حقوقي، قاضي التحقيق، حقيبة سياسية، حقيبة يد، محكمة مختلطة، حكومي، رئيس الحكومة، احتلال، جيش الاحتلال، عهد الاحتلال، تحليل طبي، تحليل أدبي، الحوامض والحمضيات، حملة عسكرية أو صحافية أو انتخابية، حماية أجنبية، سلطات الحماية، محاماة، محامي، دول المحور، حوالة بريدية، منطقة حياد، دول عدم الانحياز.

خبير، وكالة إخبارية، دائرة الاستخبارات، عمل تخريبي، الخارج (ما عدا الوطن) وزارة الخارجية، خريج أو متخرج من إحدى الكليات، اختزال، مختزل، اختصاص، الاختصاصات العلمية، تخصص علمي، على طول الخط، خطوط المواصلات، خطة عمل، مخفر الشرطة؛ الخالدون (المجمعيون) الأخلاق (علم) شرطة أخلاقية، جمعية خيرية.

سياسة عدم التدخل، وزارة الداخلية، حرب داخلية، تدخل في المناقشة، التدخين، درجة علمية، درجة الحرارة، مدرجات رياضية وجامعية، مدرسة أدبية أو نقدية، رجال الدرك، دركي، الدستور، دستورية القوانين، تدشين، دعاية، داعية، مدع عام، مدفئة، تدفئة عمومية، الدفاع الوطني، هيئة الدفاع (في المحاكم)، مدفعية، سلاح الدفاع، مدمرة، دورية عسكرية، دوري رياضي، لعب دورا رئيسيا، مدير، إدارة، إداري، الدوائر المختصة، مائدة مستديرة، ذخيرة حربية، علم الادخار، ذكري الأربعين، مذكرة، إذاعة، مذياع، مذيع.

رأس مالي، رأس مالية، رابطة قلمية، رابطة علمية، التربية البدنية، علم التربيــة، مرتب شهري، مراجع التحقيق والبحث، رخصة بمعنى العطلة، رخصة بمعنى الترخيص رد الفعل، رداءة الطقس، المرتزقة (جنود) إرساليات تبشيرية، مراسل صحفي، رســم بمعنى ضريبة رسوم، فن الرسم، المراسم الملكية أو الرئاسية، أمر رسمي، بنادق رشاشــة، ترشيح لجائزة أو لانتخاب، مرشح، الرصيف، بمعنى الميناء، الرصيف بمعــنى الزميــل، المرطبات، آلة رافعة، المرافعات (في المحاكم)، مركب رياضي، مركبــة، مركزيــة ولا مركزية، مشروبات روحية، رياضة بدنية، رياض الأطفال، زائدة دودية، مزاد علــني، سابقة، سوابق أسبقية، مسابقة، إدارة التسجيل، رسالة مسجلة، سجل ذهبي، ســحب القرعة، سحب كلمته، سحب مبلغا ماليا من المصرف، أغلبية ساحقة، ســدَّد دَيْنــه، تسديد الاشتراك، المسدس، سر المهنة، الأمراض السرية، إسعاف، مستعجل، ســيارة إسعاف، إسعاف شتوي، ساعي البريد، سلة المهملات، سلم الوظيفة، سماعة التلفون، السوق السوداء، سوق خيرية، مستوى أدبي أو معيشي، سيارة، صحف سيارة.

الشئون الثقافية، شذوذ جنسي، تصرفات شاذة، مــشروع تجــاري وغــيره، مشاريع، سلطة تشريعية، رجل الشارع، المشروعية مركب شراعي، التشريعات الملكية أو الرئاسية، الاشتراكية، الأشغال العمومية، الأشغال الشاقة، وزارة الصحة، التــدابير الصحية، مصحة، صحافة، صحيفة، صحفي، الصادرات والواردات، التصدير والإيراد، أصدر أمرا، أصدر صحيفة، توقفت الصحف عن الصدور، مصرف (بنك) مصارف، معاملة مصرفية، مصعد، مصاعد، ضرائب، إضراب، كرة المضرب، ضغط الدم، مطبعة، طباعة، مطبوعات.

طبقات الأرض (علم) ، حالة الطوارئ، أطروحة، مطعم، مطاعم، طاقم (أسنان وغيرها)، طائرة أو طيارة، طيار، مطار، طيران (شركة) مظلة شمس، مظلــة نــزول، المظليون (جنود)، مظاهرة، تظاهر، ظاهرة، ظواهر، عجلة سيارة، عجلة نارية، معدات حربية وغيرها، سنة إعدادية، معدل التنقيط، معادلة، عريضة، عرض، معارضة، معرض، معروضات.

أحكام عرفية، بطاقة تعريف، وزارة المعارف، تعاضـدية، عـضو في جمعيـة، أعضاء، اعتماد، عميد، عمدة، الطبقة العاملة، قانون العمل، عملية جراحية، عمولـة، عمالة عنصرية، العناصر الأساسية (في أي مركب)، معهد، معاهدة، متعهد، عهـدة، عيادة طبية، معبد، عيار ناري، أحيل على المعاش، الغازات السامة، الغازات الخانقـة، الغازات المسيلة للدموع، مواد غذائية، تغذية ناقصة، التغريب، الغرفـة التجاريـة أو الفلاحية، غرامة، أغلبية نسبية أو مطلقة، غارة جوية، غواص، غواصة، قانون الغـاب، قطع غيار.

مقالة افتتاحية، مدينة مفتوحة، فترة انتقال، استفتاء شعبي، مواد متفجرة حكـم فردي، تفرغ، مفترق الطرق، فصل السُّلَط، الفنون الجميلة، فوضوية، وزير مفـوض، المفوضية، حفلة استقبال، قاعة الاستقبالات، تقرير، تقارير، مقـرر، الأدب المقـارن، القانون المقارن، قاص، قصصي، قصة أو أقصوصة، المقصلة، قاطرة، قطار، مقطورات، قطعة بحرية، قطاعي، مقاطعة، إقطاعية، كلمات متقاطعة، مقتطع، تقاعد، أحيل علـى التقاعد، مقعد الحكم، استقلال تام، استقلال داخلي، مستقل (غير منتم)، انقـلاب، قلب نظام الحكم، التقاليد، تقليدي، إقلاع (الطائرة أو مركب بحري) قلم حبر، قلـم رصاص، قلم المطبوعات، قمع المظاهرات، قمع الغش، قانون المطبوعات، المقومـات العامة، الرقم القياسي، الاكتفاء الذاتي، كلية، كليات، الكواليس، الكماليات، تكميلي.

ملحق أسبوعي (في الصحافة) ملحق عسكري، ملحـق ثقـافي، ملحمـة (في الشعر)، شعر ملحمي، ملازم (عسكري) ، كاتب ملتزم، لسان حال، ملعب (الكرة)، ملاعب، لغم وألغام، باخرة لرفع الألغام، ملف، لفافة بريدية، اللفيف الأجنبي، لفـت نظر، تلقيح (ضد مرض ما)، ملقن (في المسرح)، مكمن الملقن، ألقت الباخرة مرساها، ألقى خطابا، ألقى عليه القبض، ألقى نظرة، إلى الملتقى، ملاكمة، ملاكم، قدم ملتمسا، ملتمسات، لوحة فنية، لائحة، لوائح، نسبة مئوية، ذكرى سنوية، فن التمثيـل، ممثـل وممثلون، تمثيل سياسي، مادة ومواد، مادية مادي، مواد أولية، بين المد والجزر، مـادة

الخلاف، المدنية، مسئولية مدنية، تمرين، نظام المرور، ممرض، تمريض، تمرين وتمارين، تمرينات عسكرية أو رياضية، متمرن، ماسح أحذية، مسك الدفاتر، إمساكية رمضان، جيش المشاة، مصل وأمصال، إمضاء، الممضي أسفله، صاحب الإمضاء، مطاط، مادة مطاطة، إمكانات وإمكانيات، موالح (للحمضيات)، ملاح وملاحون، ملاحة بحرية أو جوية، الملكية (نظام) ، الملكة الخاصة، الملكية الفردية، ملاك، منحة دارسية، منح، المهن الحرة، تعليم مهني، تموين، بطاقة تموين، مياه إقليمية، ميدان العمل، ميدان بمعنى الساحة، امتياز (الجريدة أو غيرها)، صاحب الامتياز، عدد ممتاز، إنتاج أدبي أو صناعي أو فلاحي، إنتاج وطني أو محلي، انتخاب، معركة انتخابية، منتخِب ومنتخَب، منتخبات أدبية، انتداب، مندوب سام، مندوب فوق العادة، مندوب الجريدة، نادي وأندية، نزع السلاح، تنازع البقاء، تنازل عن العرض أو عن أي حق، نزل، أعضاء التناسل، أمراض تناسلية، النشئ والناشئة، نشيد، أناشيد، نشيد وطني، نشر، نشرة، نشرة أخبار منشورات، ناشر، دار نشر، نشاط أدبي واقتصادي وغيرهما، نشل، نشال، نصب تذكاري، تنصيب، منضدة، مناضد، ناطحة السحاب، منطاد، مناطيد، نظارة ونظارات، قاعة انتظار، مناظرة، منظمة، منتظم دولي، سلطة تنفيذية، لجنة تنفيذية، نافذة ونوافذ، علم النفس، طبيب نفساني، حالة نفسية، انتفاعي، نقابة عمال أو أطباء، نقابي، التنقيب عن الآثار والمعادن، نقد أدبي، نقد بمعنى العملة، النظام النقدي، مركب نقص، النقض والإبرام، نقطة استفهام، نقطة نظام، نقل، وسائل النقل، ممتلكات منقولة، نقالة، نهضة أدبية وغيرها ونهوض، نوبة عصبية، نيابة عامة، هيئة نيابية، تناول الكلمة، تناول الشاي، هتف بحياته، الهاتف، هتاف عظيم، هدف وأهداف (رياضي وسياسي)، تهريب، مهرب. استهلاك، مستهلك، في مهمة، مهمات ومهام، همزة وصل بين، بنات الهوى، هواية، هاو، هواة، هيئة سياسية، هيئة نيابية، توتر العلائق، ضرب على الوتر الحساس، وجبة غذائية، وجبات، وجهة نظر، الواجهة الشعبية، واجهة القتال، ودادية بمعنى جمعية، مستودع السيارات، ورش عمل وأوراش، موزع البريد،

توزيع الجوائز، ميزانية، الأوساط الديبلوماسية، العصر الوسيط، القرون الوسطى، موسوعة وموسوعات، موسوعي، وسائل الراحة، وسام وأوسمة، موسم الصيد، وصفة طبية، مواصفات، وصل وتوصيل وإيصال، وصولي، وصولية، وصاية بمعنى انتداب سياسي، أوضاع اجتماعية وغيرها، وضعية البلاد، موضوع، موضوعي، موضوعية، وطن قومي، وظيفة، وظائف، وظائف الأعضاء (علم)، موظف، الوعي القومي أو الديني، توعية، توفير، صندوق التوفير، اتفاقية، التوقيت الصيفي، الوقود (للنفط)، الأمر الواقع، التوقيع، الموقع أدناه، توقيف، إيقاف، موقف سيارات، مواقف مشرفة، الوقاية المدنية، وكيل الحق العام، وكالة أخبار، توليد، دار أو مستشفى الولادة، توليد القوة الكهربائية، مولدة. حالة يأس، اليابسة، ميتم، يخت، اليد العاملة، وقف مكتوف اليدين، الصنائع اليدوية، يمين، يسار (بمعنى الاتجاه السياسي) يومية (أجرة)، يومية الحائط. والسلام عليكم.

* * *

لغة الصحافة في مصر

منذ ظهور الصحافة في القرن الماضي(*)

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

(عضو المجمع)

الرغم من أن (الصحافة) ظهرت في أول أمرها في الصين، في القرن العاشر قبل الميلاد، فإن الصحافة بمفهومها ومظهرها الحديث لم تظهر إلا في القرن السادس عشر، بعد اختراع الطباعة بوساطة جوتنبرج.

والصحافة العربية هي من حسنات القرن التاسع عشر، وإن كانت أول صحيفة عربية هي التي أنشأها نابليون في مصر، سنة ١٧٩٩ آملا أن يوطد بها أركان حملته. .. ثم جاءت بعدها (الوقائع المصرية) التي أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٨، ويليها (المبشر) التي أصدرها الفرنسيون في الجزائر سنة ١٨٤٧، فكانت الجريدة الثانية في العالم العربي.

وقد عرف قدر "الصحافة" كثيرون من العظماء والمفكرين والقادة والسياسين والأدباء والشعراء... فهذا هو البابا ليون الثالث عشر، يقول: (الصحف رسالة خالدة) وهـذا بونابرت، يقول: (الصحافة ركن من أعظم الأركان التي تشيد عليها دعائم الحضارة والعمران) وهذا تولستوي يقول: (الجرائد نفير السلام، وصوت الأمة، وسيف الحق القاطع، ومجيرة المظلوم، وشكيمة الظالم. . فهي تهز عروش القياصرة، وتـدك معـالم الظالمين. .) وهذا فولتير يقول (الصحافة آلة يستحيل كسرها، وستعمل على هدم العالم القديم، حتى يتسنى لها أن تنشئ للدنيا عالما جديدا..).

وقد قدرها في عالمنا العربي اثنان من نوابغ خريجي دار العلوم سنة ١٨٩٢ ومن أوائل المشتغلين بالصحافة حيث قالا في مجلتهما "المنتقد" التي أصدراها شـهرية سـنة

(*) ألقيت المحاضرة في الجلسة الثامنة من مؤتمر المجمع في دورته التاسعة والأربعين، الثلاثاء، الأول مـن مـارس سـنة ١٩٨٣م، ونشرت بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والخمسين، ص ١٣٩.

١٨٩٣- وهما: الشيخ أحمد الأزهري بك، ومصطفى الدمياطي -: (إن نعمة الجرائد على البلدان. لا تقل عما تشرف به الإنسان من نعمة البيان. وإن كل بلاد توفر حظها من هاته النعمة، تكون أسمى وأرقى من التي لم تنل حظا يدرك هذه النعمة).

ونذكر لأنطون الجميل باشا - رئيس تحرير "الأهرام" وأحد أعضاء مجمعنا الراحلين — قوله عن الصحافة (إنها شجرة الحقيقة يغرد على أفنانها الكتاب الصادقون). وقد عدها أمير الشعراء أحمد شوقى آية هذه العصور الحديثة في قوله من قصيدة، يحيي بها نقابة الصحفيين، في عيدها الأول:

لكل زمان مضى آية

وآية هذا الزمان الصحف

لسان البلاد ونبض الـ

عباد، وكهف الحقوق وحرب الحيف

و"الجريدة" هي بعينها "الصحيفة". . إلا أن الكونت رشيد الدحداح اللبناني أول من استعمل كلمة (صحيفة) لجريدة (برجيس باريس) العربية، التي أصدرها في فرنسة سنة ١٨٥٨، وتابعه الناس أول الأمر، ثم جاء بعد ذلك بسنوات، اللغوي فارس الشدياق فآثر كلمة (جريدة) ودار من أجل ذلك نقاش طويل انتهى إلى أن جاء الشيخ إبراهيم اليازجى سنة ١٨٨٤، فأسمى مجلة (الطبيب) باسم: (مجلة) وكذلك فعل مجلتيه: (البيان) و(الضياء)، اللتين أصدرهما بمصر سنة ١٨٩٧ وسنة ١٨٩٨، على الولاء. ومن ذلك الحين أطلق اسم (الجريدة) على الصحيفة اليومية الإخبارية السياسية، واسم (المجلة) على الصحيفة الدورية: أسبوعية كانت أم شهرية أم دورية.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن الشيخ رفاعة آثر إطلاق كلمة (الوقائع) على الصحيفة اليومية، ومن هنا جاءت تسمية (الوقائع المصرية)، التي عهد إليه بإصدارها

وتحريرها، ولكن الدكتور لويس صابونجي اللبناني، وصاحب مجلة (النحلة) التي أصدرها بلندن. استعمل لفظة (نشرة) في مقابل كلمة (جورنال) الفرنسية، بمعنى الجريدة، كما استعمل إخواننا الجزائريون في القرن الماضي عبارة: (الورقة الخبرية) وهي ترجمة حرفية لعبارة Newo Paper الإنجليزية.

ومن اللطيف أيضا أن الصحافيين والقراء كانوا - قبل الثورة العربية - لا يفرقون في الاستعمال بين (جريدة) و(مجلة)، إلى أن جاء إبراهيم اليازجي سنة ١٨٨٤، فوضع، حدا قاطعا للتمييز بينهما حين أصدر مجلاته الطبيب والبيان والضياء.

والصحافة - عموما - أنواع، فمنها الصحافة الأدبية، والصحافة العلمية، والصحافة الدينية، والصحافة النقدية، وقد تختص صحيفة أو مجلة بنوع واحد لاتعدوه إلى غيره، كما قد تجمع واحدة بين أن تكون علمية أدبية ثقافية، كما ظهر ذلك واضحاس في مجلات المقتطف والهلال في القرن الماضي، والرسالة والثقافة في القرن العشرين.

ولقد كانت لغة الصحافة — أول ظهور الصحف والمجلات في القرن الماضي — تابعة للغة العامة التي كان يكتب بها الناس أو يتخاطبون. .. فهي لغة هابطة بلغت أدنى درجات الضعف والهبوط التي وصلت إليها الآداب العربية عامة.

وكان الكتاب والمحررون يحشون عباراتهم بألفاظ تركية، أو أفرنجية كثيرة، أو عامية مما يلفظه العوام. ولم يكن هناك تحرج من ذلك، أو لم يكن هناك تنبه لخطره على سلامة اللسان والبيان العربي. وقد دخلت الألفاظ الأجنبية المعربة إلى لغة الصحافة — كما دخلت إلى لغة الكتابة والتأليف - بلا ضابط. بل كان رائد في الصحافة والفكر مثل رفاعة رافع، يلجأ إلى إدخال الألفاظ الأعجمية بطريقة (التعريب)، بالإضافة إلى جهوده التي لا تنكر في ميدان (الترجمة). فصرنا نجد في لغة (الوقائع المصرية) مثل هذه العبارات: افتتاح "برلمنتو" إنكلترة. و"فاميلية" الحضرة الفخيمة. وشهر "زانويه" أي يناير، و"البولوتيقة" الخارجية أى السياسة الخارجية.

واجتمع مع غزو لغة الصحافة بلغة الأجانب ولغة العوام، غزو آخر من هبوط الأسلوب وركاكته وازدحام العبارات بالمحسنات البديعية، كالذى نجده في نعي ابنه محمد على، المنشور بالوقائع سنة ١٢٤٦هـ =١٨٣٠م. حيث يقول: "إن الكاتب حزين، حتى إن قلمه انغمس بمداد المأتم، وأسال دمع المداد كالديم. وصريره أبدى زفير الحزن والألم، حزنا على حضرة المعصومة، والدرة المعدومة، فرع الأصل الأصفى، منبع الجود الأحفى، وهي التي كانت الإسكندرية متشرفة بها، ومكسوة ثوب شرف بها..".

وقد بلغ من سلطان (العامية) في لغة الصحافة أنها لم تكتف باستعمالها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بل امتد أثرها، حتى قبيل الثورة العرابية بعام واحد، حين أصدر السيد عبد الله نديم سنة ١٨٨١ جريدته (التنكيت والتبكيت) فخص قسما غير قليل من صفحاتها باللغة العامية. .

ولعله رأى بحكم روحه الثورية أن يمد مجال انتشار كتاباته إلى العوام ليبلغهم صوت الثائر الممهد لثورة عرابي. وقد كان النديم يجمع في كتاباته بين الفصحى والعامية، وتعد كتاباته الصحفية بالفصحى نموذجا للبيان العربي المشرق الخطابي المؤثِّر، وإن كان يُؤْثر السجع وحشو عباراته بالمحسنات اللفظية الكثيرة، التي لم تخرج عن روح العصر ومزاجه.

وإذا اغتفرنا لعبد الله نديم التجاءه للغة العامية تحقيقا لهدف سياسي جليل، فإننا لا ننسى له حبه للغة العربية الفصحى. واهتمامه بها وإشادته بقيمها حين كتب في مقال صحافي له بعنوان "إضاعة اللغة تسليم للذات" حيث يقول فيه: "إيها الناطق بالضاد: بم تستبدل لغتك، ومالها من مثيل. وإلى من تتركها وأنت لها كفيل، وما الذى استحسنته في غيرها واستقبحت مقابله مقاله فيها؟ وأي شيء طلبته فيها، ولم تجد له اسما؟ لبيك أيها الأخ الشقيق، وإن لم نحمل في بطن واحدة، اللغة سر الحياة، والحد الفارق بين

الإنسان والبهيم. وهي التي جذبت قلب أمك واستعطفت، جانب أبيك، وتملكت فكر أخيك، واستمالت صاحبك، وألفت جارك، وتعارفت مع مواطنك، فهي أنت إن كنت لا تدري من أنت. وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن".

ويبدو أن سلطان العامية في لغة الصحافة في ذلك العهد من القرن الماضي كان قويا، وتيارها كان مندفعا متدفقا. وبلغت فيها النكبة أن صحفا غير قليلة قد بدأت تصدر باللغة العامية وتتميز بها، ووجدت من جمهرة من القراء إقبالا عليها، وغراما بها، مثل جريدة "أبو نظارة" التي أصدرها في باريس اليهودي الإيطالي المصري يعقوب صنوع، و"التنكيث والتبكيت" التي أصدرها عبد الله نديم في مصر سنة ١٨٨١م، و"السيف" التي أصدرها حسون وحسين على سنة ١٩١٠ و"المسامير" التي أصدرها السيد عارف سنة ١٩٠٩ و"حمارة منتي"، التي أصدرها محمد توفيق ١٨٩٩.

و لم تكتف اللغة العامية بهذا الغزو الصحافي حتى قامت في سنة ١٨٩٣ حملة شديدة على الفصحى، ودفاع شديد عن العامية قام به المهندس الإنجليزي مستر "ويلكوكس" مفتش الري بمصر، وسجله على صفحات مجلة (الأزهر)، التي شاركه في إصدارها الشيخ أحمد الأزهري[1].

ولقد حرصت بعض الصحف في مصر على تخصيص جماعة من الأزهريين ليتولوا مراجعة الأخبار والمقالات قبل طبعها، وتصحيح أخطائها النحوية واللغوية، وذلك حرصا على أن تظهر لغة الصحيفة أو المجلة خالية مما يعيبها من شوائب الخطأ اللغوى وهؤلاء المصححون للغة التحرير هم غير المصححين الآخرين، الذين يتولون تصحيح تجارب المطبعة مما وقع فيها من هفوات المجمع وعثراته.

---

(١) وكأنما صح في اللغة العربية - وخصومها يومئذ حتى من أبنائها – قول زميلنا الصديق العلامة عبد الله بن كنون، من قصيدة عنوانها :"خصوم العربية ".

جهلوها فناصبوها العداء ومن الجهل ما يكون بلاء

وأخطاء تجارب المطبعة في الصحافة والصحف لا تقل عنها في الكتب المطبوعة فالخطأ هنا قائم كما هو قائم هناك. ولا يكاد يسلم كتاب عربي من خطأ مطبعي، كما لاتسلم صحيفة أو مجلة من ذاك. وعلى حين لا تتجاوز أخطاء المطبعة في بعض الكتب بضعة أخطاء أو تطبيعات - كما نسميها اليوم - فإنها قد تبلغ في بعض الكتب بضع عشرات أو مئات على حسب حظ المطعبة من عناية المصححين وتنبههم:

ولا تخلو الكتب المطبوعة في أواخرها من جدول لتصحيح ما صدر من أخطاء مطبعية فيها، على حين لا تهتم الصحيفة - وخاصة اليومية - بتصحيح ما يقع فيها من تطبيع. وقد وقعت في ذلك الباب لطائف وطرائف يتندر بها الصحافيون حين يقتضي المقام.. فمن ذلك ما وقع في صحيفة يومية سيارة حين روت في أخبارها نبأ عودة أحد الزعماء إلى بيته في موكب حافل فقالت: (وما بلغ دولته بيت الأمة حتى علا الصهيل) والمقصود طبعًا: حتى علا التهليل. وقال أحد الزعماء في خطبة سياسية له: (واصغوا إلى صوت الضمير)، فجاءت بها المطبعة هكذا: (... إلى صوت الحمير). وجاء في عنوان خبر صحافي (الفرنسيون يضيقون الخناق على البصل المراكشي) وصوابها طبعا: (البطل المراكشي)، ونشرت صحيفة سيارة نبأ عن مروءة أحد المشايخ وهمته، فعلقت على الخبر قائلة: (وأنها تثني على عمة فضيلته). فحرفت الهاء إلى العين ... وفى العقد الرابع من قرننا هذا، قامت حركة تدعو إلى إنصاف رجال القضاء وسرعة ترقياتهم، فكتب داود بركات رئيس تحرير الأهرام يناصر الحركة قائلا: (يجب تعرية القضاة) وهو تحريف لعبارة (يجب ترقية القضاة). وفى العام نفسه قامت حركة لإدخال عنصر الشباب في القضاء بعد أن كان وقفا على الشيوخ، فنشرت الأهرام خبرا عنوانه: "تجريد ثياب القضاة" وهو تحريف مطبعي عن عبارة (تجديد شباب القضاة). . ونشر أحد محرري الجريدة نعي شخصية كريمة، وجاء فيه: (توفي إلى رحمة الله فلان، أسكنه الله فسيح

جناته). وعلق "موضب" الجريدة على هامش الخبر بالنشر (إن كان له مكان) فجـــاء منفذ الحروف، وجمع هذه التعليقة بعد الخبر مباشرة. فصدر في الصحيفة مطبوعا هكذا (توفي إلى رحمة الله فلان أسكنه الله فسيح جناته، إن كان له مكان).

ولمطابع الصحف وطابعيها في هذا الباب طرائف لا تنتهي.

وحين تخلصت لغة الصحافة المصرية من الزخارف اللفظية. والمحسنات البديعيـــة قبل الثورة العرابية بقليل، فإنها ظلت محتفظة بالسجع الذي كان مستملحا عند الكتاب والقراء على السواء. وكان للسجع - حتى المتكلف - أثر كـــبير في نفـــوس القـــراء، وسلطان كبير على نفوس الصحافيين، ففى عدد من الوقائع المصرية جاء هذا الخبر سنة ١٨٦٥: (إن أناسا من اللئام، سفلة الأنام، ارتضوا بالخزي وارتكاب الآثام، فاستبدلوا الاشتغال بأنواع الكسب الحلال بالاشتعال بالحرام والعـــار، والـــدوران في القـــرى والأمصار. وكلما صادفوا أناسا على فطرتهم وحسن نياتهم، تحيلوا علـــى اصـــطيادهم بتحيلاتهم، وعملوا طرق الخديعة والحيل في سلب أموالهم، بعد سلب عقولهم بإحـــدى المغيبات المشهورة بين الناس بالتاتورة، فيضعونها في شيء من المأكولات، ويطعمونهـــا أصحاب العقول الناقصة بدون شعور، وبعد الحصول على مهـــامهم يفـــرون..) ولم يكتب "للوقائع المصرية" التخلص من هذا السجع البارد المتكلف، إلا حين تولى تحريرها الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٠ - أى قبيل الثورة العرابية بعامين - ففي عهد هذا الإمام المفكر الرائد تخلصت لغة الصحافة جملة، وفي "الوقائع" خاصة، من بقايـــا المحـــسنات البديعية، ومن السجع جملة، وأصبحت الكتابة مرسلة طليقة من تلك القيود اللفظية التي كانت تجني على المعنى وتجعله ناقص الأداء السليم. واستعاض الشيخ محمد عبده عـــن السجع بالازدواج أو الترادف الصوتي، وهو نوع من السجع لا تلتزم فيه تقفية أواخـــر الجمل، بل يلتزم فيه توازن بين الجمل بدون تشابه أواخر الألفاظ.

ومن الإنصاف للتاريخ والحق أن نقول إن الشيخ أحمد فارس الشدياق قد سبق الشيخ محمد عبده في التخلص من السجع منذ القرن الماضى حتى يومنا هذا. فحين أصدر الشدياق مجلته "الجوائب" سنة ١٨٦١ في الآستانة، اتخذ فيها الأسلوب المرسل سواء في الأخبار الصحفية أو المقالات. وبهذا انقادت له كثير من المعاني وموضوعات العلم والفكر التي كانت لغة السجع تضيّق عليها. وحين كان الشدياق يسجع فإنه كان يتخذ ذلك في المقال الأدبي والعاطفي. أما مقالات السياسة والعلم والأخبار فقد تحرر فيها من قيود السجع والزخرف اللفظي جملة.

ولاننسى فضل الشيخ إبراهيم اليازجي في هذا الميدان، فهو صحافي لغوي عريق في مجلاته: الطبيب البيروتية، والبيان والضياء المصريتين. وكأن الثلاثة، الصحافيين الكبار: أحد فارس الشدياق، وإبراهيم اليازجي، والشيخ محمد عبده، كانوا على ميعاد في تخليص لغة الصحافة - بل لغة الكتابة والإنشاء عامة - من السجع وبقية الزخارف والمحسنات.

ولعل مثالا واحدا من مقالات الشيخ محمد عبده الصحافية في (الوقائع المصرية) سنة ١٨٨٠يبين لنا أسلوبه الصحفي المترسل المتحرر من القيود، السهل العبارة، الخالي من اللفظ الغريب الجاف، الداخل إلى عقول القراء من أيسر الأبواب وأسهلها. فهو يقول من مقال سياسي، عنوانه (خطأ العقلاء): (إننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها، والحرية التامة في الانتخابات العمومية لرؤساء جمهوريتها وأعضاء نوابها ومجالسها وما شاكل ذلك، ونعرف مقدار السعادة التي نالها الأهالي من تلك الحالة. ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم؛ لأنهم أرباب الانتخابات، وإنما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس هم نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم وتتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة.

لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها لأفغانستان مثلا، حال كونها على ما نعهد من الخشونة. فإنه لو فوض أمر المصالح إلى رأي الأهالي، لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام. ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا، لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أو نسيبا أو قريبا.

وأين هذا الاسلوب الصحافي المرسل، للشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٠في "الوقائع المصرية" من أسلوبه المسجوع المتكلف المزخرف الموشى. الذي كتبه في جريدة الأهرام سنة ١٨٧٦ تقريظا لها، وترحيبا بصدورها، حيث يقول (إنه لما ظهر لدى كل قاصّ ودان واشتهر بين بني نوع الإنسان، أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك؛ إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم، وانفردت بالبراعة في الصنائع والابتكار في أنواع البدائع، فكان أبناء العالم إذ ذاك ينتدون نداها ويستجدون جداها، يستمطرون من الغيث قطرا، ويستمدون من المحيط نهرا، فكان التمدن فيها كهلا، حين كان عند غيرها طفلا. ومازالت كذلك حتى زها فيها التمدن ولا عجب؛ إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حدب، وأن ملوك الأرض خدام عتبته، وتيجان الكيانين تحت قبضته، فاستكبروا واعتلى، ولكؤوس الراحة اجتلى..)!

ولغة الصحافة المصرية في عهد الثورة العرابية هي حسنة من حسنات ذلك العهد الذي كان يتأجج بالشعور الوطني، والعاطفة القومية، وقد وجدت تلك الثورة في جماعة من الصحافيين - من أمثال أديب إسحاق، وعبد الله نديم، ومحمد عبده، وإبراهيم اللقاني - لسانها المعبر عن آمالها وآلامها. وتمتاز لغة ذلك العهد بالأسلوب الخطابي الذي يعتمد على إثارة الشعور، وإلهاب العواطف؛ وذلك باستخدام الألفاظ الطنانة

الرنانة التي تترك في النفوس أعمق الآثار، وتهييء الناس لقبول التغيرات والتطورات التي تتطلبها مبادئ تلك الثورة. ونسوق هنا نموذجا من مقالات "أديب إسحاق" الصحفية التي قصد بها فضح نظام الحكومة والحكام في مصر، تمهيدا للثورة التي قام بها أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي وغيرهما من أحرار الضباط، الذين ثاروا على الخديو وعلى حكومة الاستبداد، حيث يقول: (فمسلكي أن أكشف حقائق الأمور، ملتزما جانب التصريح متجافيا عن التعريض والتلميح، وأن أجلو مبادئ الحرية، وآراء ذوي النقد، وأن أبين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث، أو مقاصد أهل الحل والعقد، وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا: أولي الأمر، ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهمًا: أمناء الأمة، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا: ولاة النظام، وأن أعين واجبات الإنسان الشرقي بالنسبة إلى نفسه، وإلى قومه، وإلى بلاده، وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق، وقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية. وأهيج فضالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين، ليعلم قومي أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ومالا منهوبا فيطلبوه..).

ويمتاز "إبراهيم اللقاني"، من بين الأربعة الذين ذكرناهم، بأن أسلوب كتابته الصحافية - على قوته وتأثيره في النفوس - كان يخلو تماما من كل زخرف أو حلية لفظية أو مبالغة أو إغراق في التشبيهات والأوصاف، أو تقعر في الألفاظ، وكان يميل إلى عمق الفهم والقدرة على التحليل، ومخاطبة العقل والمنطق، بدلا من استجداء العاطفة.

فمن مقال صحفي له في جريدة (مرآة الشرق) كتبه سنة ١٨٧٩ - أى قبل الثورة العرابية بثلاثة أعوام - تراه يقول: (هذا سر ما نراه في هذه الأيام من الفتنة والحوادث العظيمة الناشئة عن حركة الخواطر في البلاد الواقعه تحت رقّ الاستعباد، فلا يحسب الناظر إليها، المتهيب منها، أنها ناتجة من فساد الأخلاق ورداءة الطباع وسفالة

النفوس، مستدلا على ذلك بما يرتكبه أهلها من المنكرات كالقتل بالاغتيال، والأسر بالاحتيال، كلا! وإنما هي نتيجة استبداد الأمراء، وعسف الرؤساء، وظلم الزعماء، فإن هذه القواسر تنصب على قوة الحرية الكامنة في صدمة الأفراد، فيحصل لها الضغط، فتندفع من بعده، فتخرج بشدة اندفاعها عن مركزها الطبيعي، وتفضي بصاحبها إلى الإفراط. وبناء عليه فما القتل، وما الأسد، وما الفتنة، وما الثورات، إلا نتائج الاستبداد المترتبة عليه لزوما ووجوبا..).

ويجرنا الحديث عن سهولة الألفاظ في لغة الصحافة في القرن الماضي، لدى مدرسة جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، إلى الحديث عن التقعر والتشدق والإغراب في اختيار الألفاظ عند بعض الكتاب، حتى من الشيخ محمد عبده نفسه، والسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومحررها، فقد كان الشيخ الإمام، في أول أمره وبداية عهده بالصحافة، محررا بالوقائع المصرية، يميل إلى الإغراب في الألفاظ، على نحو ما كان يفعل الكتاب المتشدقون؛ إظهارا للتفاصح والمعرفة باللغة. ولقد تأثر رشيد رضا - وهو يمثل لغة الصحافة الدينية - بأستاذه وصفيه الشيخ محمد عبده، الذى كان يستعمل أولا ألفاظا غريبة معجمية، مثل: الذبذب، لهدب الثوب، والقسطل، للغبار، والذملقاني، للسريع في الكلام: والمتفثف، بمعنى المتفلسف، والمناهدة بمعنى المدافعة، والجهام، للسحاب غير الممطر، ثم عدل عن ذلك وآثر الألفاظ السهلة، واللغة البسيطة كما آثر التخلص من السجع ومن المحسنات.

وبعد الثورة العرابية ببضع سنوات - وبالتحديد سنة ١٨٨٩ - أصدر الشيخ علي يوسف صحيفة "المؤيد"، فطلعت على الناس بأسلوب جديد في التحرير الصحفي، وفي لغة الصحافة، وكانت بذلك معلما من معالم الطريق. وامتاز أسلوب على يوسف بقوة الحجاج، والجدل، والتعويل على المنطق والإتيان بالأدلة المقنعة، وأصح المقدمات

المفضيةإلى أصح النتائج، مع الاعتماد على البساطة والسهولة، والاستـــشهاد بـــالواقع المحسوس لاالبعيد المتخيل، والإتيان بالألفاظ عل قدر المعاني في غير زيادة أو نقـــصان، فليس هناك مبالغة ولا إغراق ولا حشو ولا نقص ولا إخلال، مع القدرة على النقـــد النـــزيه البناء، والإكثار من التكرار؛ لتأكيد المعاني في نفوس القراء. وهو - على شدته وقسوته في نقد خصومه من رجال الاستعمار والسياسيين - لا يسف ولا يتبـــذل ولا يهبط إلى مستوى العوامّ.

ولعل إيراد بعض فقرات من مقاله - الذى كتبه تعليقا على حفلة وداع اللورد كرومر التي أُقيمت. بدار الأوبرا سنة ١٩٠٧، عقب إبعاده عن مصر بسبب أحـــداث دنشواى، يكشف لنا بوضوح عن لغة ذلك الرائد الصحافي العظيم الذي كانت كتاباته تهز العالم كله ما بين مشرق ومغرب، فهو يقول:

"أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية، لإكرام الرجل عند رحيله كمـــا أرادوا، ولكنه انقلب - بما جرى فيه - مظهرا عدائيا من اللورد لم ير الراءون، ولم يرو الراوون مثله في مقام وداع كهذا المقام. دعنا من كون رئـــيس الاحتفـــال - يريـــد مصطفى فهمي باشا - أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الأول، وما عـــرف حـــتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معا يقدم عليه سواه في الكلام.. ودعنا من كونه خطـــب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيبا من كلامه في احتفال كهذا. .. ودعنا من زعمه أنه يمثل - مع الحكومة في موقفه - السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه في الرأي والقول.

دعنا من كل هذا، وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابـــة وصـــيته الأخيرة وخاتمة أعماله في مصر، فبينا كانت الأمة المصرية واقفة موقف الآمل، منتظـــرة من ذلك الراحل العظيم، والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية

بما قضى عليها من الجمود الأبدي ونحو الأمة المصرية، بما وصفها به من العقم السرمدي – بينما هي ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها، ويضمد الكلوم التي فتحها في جسمها، بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات، وجامعتها كشكولا بين الجامعات. وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في إكرام الراحل عند رحيله، متناسيا الحزازات السياسية التي طالما كان اللورد مهاجسا فيها غير عادل ولا متلطف. . بينما كان هذا، إذا ببركان البيروقراطية – التي نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته، حتى برز فيها [1] أكثر من كل مبرز في تواريخ الحكومات المطلقة – قد انفجرت نيرانه، وقذف بلظاه على الأحياء والأموات".

وإذا كان "المؤيد" يمثل الصحافة المصرية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، فإن هناك صحفا ثلاثة في أوائل القرن العشرين، تمثل اتجاهات واضحة في لغة الصحافة. بالإضافة إلى اتجاهاتها السياسية التي ليست موضوع حديث في هذا المقام وهذه الصحف هي: (الجريدة) التي كان يرأس تحريرها أحمد لطفي السيد، وقد أنشأها حزب الأمة سنة ١٩٠٧ لتكون لسان حاله. وجريدة "الأخبار" التي أصدرها أمين الرافعي سنة ١٩٢٠، وجريدة "البلاغ" التي أصدرها عبد القادر حمزة سنة ١٩٢٣. لقد امتاز لطفي السيد بلغة سهلة مبسطة مرسلة الأسلوب، لا تقعر فيها ولا تعقيد وقد حاكاها كثير من الصحافيين. ولن أضيع وقتكم بذكر نماذج منها، ويكفي الرجوع إلى كتاب: "تأملات" و"المنتخبات" التي جمعها صديقنا المجمعي القديم إسماعيل مظهر، لنتبين ملامح الأسلوب الصحافي عند لطفي السيد. أما أمين الرافعي فقد تميزت لغته الصحافية بما تميزت به لغة لطفى السيد، ويزيد عليه حرارة الإيمان بالعقيدة التي يدين بها، وصراحة في مناقشة خصومه، ووضوح العرض للموضوع في مقالاته،.

---

(١) ويلاحظ في أسلوب علي يوسف طول الجمل عنده طولا ملحوظًا، والبعد ما بين المبتدأ والخبر، أو الشرط والجواب، أو بين الظرفية وجوابها.

وكذلك كان عبد القادر حمزة في مقالاته في (الأهالي) أولا. وفي (البلاغ) أخيرا. ويتميز أسلوبه الصحافي بالاعتدال والاتزان والواقعية والجد، وعفة القلم والتفكير المنطقي، ونتركه يعبر عن أسلوبه الصحافي بقوله: (لم يجر قلمنا بما يثقل على النفس، ويستكره في السمع، أو ينبو عن الذوق، لأن غايتنا الإصلاح لا الإيلام وطريقتنا هي الإقناع لا الإقذاع وليس في أسلوب التناول الذى توخيناه ما يمكن أن يشكو منه أدق الناس إحساسا، وأرقهم شعورًا. ..إذلا حفوة في العبارة، ولا عنف في اللفظ، ولا إغلاظ في القول، ولا شيء غير الموضوع..).

على أن ذكرنا لهذه الصحف الثلاث وهؤلاء الصحافيين الثلاثة لا ينبغي أن ينسينا أسماء كثيرة، تعد لغتهم نموذجا في لغة الصحافة المصرية من أمثال العلامة محمد فريد وجدي في (الدستور) وأحمد حافظ عوض، عضو مجمعنا الراحل في (المنبر) و(كوكب الشرق) ومحمد مسعود في (المنبر)، وخليل ثابت في (المقطم)، وداود بركات وأنطون الجميل في (الأهرام)، وعبد الحميد حمدي في (المنبر) و (السفور)، ود. محمد حسين هيكل في (السياسة) و (السياسية الأسبوعية) وإبراهيم المازني في (الأسبوع)، ومحب الدين الخطيب في (الفتح)، وعباس العقاد في (البلاغ) و(الدستور)، ودياب في (الجهاد) وغيرها.

على أن ذكرنا لهؤلاء الأعلام في العقود الأربعة من هذا القرن العشرين لن يصرفنا عن الإشادة بقلم في الصحافة المصرية، تميز بأسلوب جديد منفرد، كان هو المبتدع له، وحذا حذوه كثيرون من تلاميذه وهو المرحوم - بلدينا من المنصورة - الأستاذ محمد التابعي، وقد كتب عنه في الخمسينات من هذا القرن أحد تلاميذه يصف أسلوبه قائلا: (مدرسة التابعى الصحفية لها أثرها في تاريخ الصحافة. لقد حرر أسلوب الصحافة الساخرة من الأسجاع والمترادفات، فهو الذي أدخل اللغة الكاريكاتورية في الصحافة: بضعة خطوط سريعة تعبر كأنها لوحة فنية رائعة. كلمة واحدة تلتصق

بشخصية السياسى وتحوله من رجل وقور إلى مسخرة. لقد كانت لغة الصحافة قبل ذلك أشبه بفساتين السيدات في الماضي مليئة بالذيول، فجعل محمد التابعي لغة الصحافة بسيطة) .

ومن تلاميذ مدرسة التابعي في الأسلوب: الشقيقان مصطفى أمين وعلي أمين - رحمه الله - وإحسان عبد القدوس، ومحمد حسنين هيكل.

وقد تميزت لغة الصحافة منذ نشأتها ببعض الأساليب التي انفردت بها عن لغة الكتابة حتى لتكاد تنادي على نفسها بأنها لغة الجرائد والمجلات، وقد تسرب بعضها من اللغة التركية، فقولهم في تشريف الرجال: (عطو فتلو أفندي حضر تلري)، وقولهم في معرض الأخبار والأنباء والنعي والحفلات وغيرها: أنسنا بلقاء الوجيه الأمثل - مات فلان مبكيا عليه من الجميع - استأثرت رحمه الله بالمبكي عليه - على أثر داء لم ينجح فيه نطس الأطباء - فأكل المدعوون هنيئا وشربوا مريئا - سبق فذكرنا في عدد فائت - كنا أول من أذاع هذا الخبر - سيدنا فهرست الكمال. وعنوان الحلال (وصفا لجمال الدين الأفغاني) - البقية تأتي - سابق للاحق (إذا كان للمقال بقية ستأتي).

ومن العبارات التي تدخل في روع القراء توثيق الأخبار، وأنها لا يرقى إليها الشك، قولهم في لغة الصحافة: علمنا من المصادر العلمية - ومن دوائر الحل والربط - وممن بيدهم مقاليد الأمور. وقد يكون محرر الخبر أو مخبر الجريدة نقله عن ساعي أحد الوزراء، أو تلقفه من موظف صغير جدا في الوزارة - وقد وفق الصحافي البارع فكري أباظة - رحمه الله - إلى إلغاء هذه العبارات من قاموس لغة الصحافة، واستعاض عنها بقوله أخبرتنا جاسوستنا الحسناء. . والمؤدى في الحالين واحد... وهو أنه ليست هناك مصادر عليمة ولا دوائر الحل والربط، ولا حتى جاسوسة حسناء. ..ولكنه اجهاد من الصحفي المحتال لتلقف الأخبار وتصيدها من الأفواه.

و لم تقف اللغة جامدة أمام تطور الصحافة وظهور أنواعها، من صحافة سياسية، وصحافة علمية وصحافة أدبية، وصحافة دينية، وصحافة فكاهية نقدية. .. فتطـــورت اللغة في هذه الأنواع الصحفية حتى تلائم أهدافها، وتوافق أغراضها. .. وتحولت لغـــة النقاش والحوار والجدل السياسى إلى لغة خاصة في الـــصحف والمجـــلات الـــسياسية والحزبية، كالذى حدث بين صحف: "اللواء"، "والمؤيد"، "والجريـــدة"، و"الأهـــالي" و"البلاغ"، و"السياسة" التي أصدرها حزب الأحرار الدستوريين. كما تحولت اللغة في مجلات "المقتطف" و"الهلال" و"العربي"، التي رأس تحريرها المرحوم د.أحمـــد زكـــي – عضو مجمعنا الراحل – إلى لغة العلم التي كان يكتب بها أمثال د. يعقوب صروف، ود حسن كمال، وفؤاد صروف، وعاطف البرقوقي وكذلك تحولت اللغة – في مجـــلات: "الهلال" و"رعمسيس" و"البيان" لعبد الرحمن البرقوقي، و"الرســـالة" لأحمـــد حـــسن الزيات، عضو مجمعنا الراحل، و"الثقافة" لأحمد أمين، عضو مجمعنا الراحل، و"الجديد" لمحمد حسن نائل المرصفي، و(الزهور) لأنطون الجميل، عضو مجمعنا الراحل – إلى لغة الأدب التي يميزها التأنق، وحسن السبك، وصحة العبارة، والترسل، والوضوح والنقاء. كما ظهرت في مجلة "المنار" الدينية ومجلة "الأزهر" لغة تعبر عن أغراض الدين وحكمته وآفاقه الإنسانية ببيان عال، وأسلوب مشرق تجلى في مقالات: رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي، وغيرهما.

أما صحف الفكاهة والنقد والسخرية، فقد ظهرت فيها لغة خاصة متميزة تعبر عن هذه المعاني أصدق وأحلى تعبير. وقد ظهرت في هذا الميدان أسماء لامعـــة، كـــان الجمهور يقبل على قراءتها، ويتلقى نتاجها بشغف عظيم، من أمثال سليم ســـركيس، صاحب مجلة "سركيس" الذائعة الصيت، وحسين شفيق المصري، الذي كان فيه اقتدار عظيم على الجمع بين لغة الجد ولغة الهزل، فلا تحس أن هذ الكاتب الهازل هو ذلـــك

الكاتب الجاد، وسليمان فوزى، صاحب الكشكول، وهو أستاذ في هذا الباب. وزميلنا المجمعى الراحل: إبراهيم عبد القادر المازني، الذى ارتفع أسلوبه النقدي اللاذع إلى كفة تداني لغة البلغاء من كتاب العصر العباسي.

و لم تعش الصحافة بمعزل عن اللغة، ولا عاشت اللغة بمعزل عنها، فقد كان من الصحافيين من يناصر اللغة، ويدعو لها في تحمس كبير، ويجعلها من مقومـــات الذاتيـــة للأمم كما رأينا من قبل عند عبد الله نديم في مقاله (إضاعة اللغة تسليم للذات) الـــذي كتبه قبيل الثورة العرابية. وكان من رجال الصحافة اللغويين من رصد قلمه، ووقـــف نشاطه على تصحيح الأوهام والأخطاء اللغوية التي يقع فيها الصحفيون والكتاب، من أمثال إبراهيم اليازجي، وأسعد داغر، ونجيب شاهين، والأب أنستاس الكرملي – عضو مجمعنا الراحل — وقد تمخضت هذه التصويبات اللغوية عن كتاب "لغـــة الجرائـــد"، لإبراهيم اليازجى، و"تذكرة الكاتب" لأسعد داغر. ووجدنا في هذا الباب اهتماما أكثر من اللغويين بلغة الصحافة خاصة، واللغة العربية عامة، فقام العلامة اليازجي بإنشاء مجلة الطبيب في الشام، والبيان والضياء في مصر، وكاد يجعل تلك المجـــلات وقفـــا علـــى الدراسات اللغوية. كما قام الأب أنستاس الكرملي بإصدار مجلة (لغة العرب) التي كان لها فضل، أي فضل في خدمة اللغة العربية.

بقي أن نشير – ونحن في معرض الحديث عن لغة الصحافة – إلى ظهور تعبيرات وألفاظ خاصة في زماننا هذا، يراد بها تجنب استعمال الألفاظ اللغوية الأصليه للمعـــاني ووضع تعبيرات تكون أخف وقعا على مسامع الجماهير والقراء، مع أنها تـــدل علـــى المعاني الأصلية بطريقة ملطقة ومخففة. وقد تكون تلك العبارات من وضـــع الجهـــات المسؤولة أو من إيحاءاتها، كما قد تكون من وضع الصحافة نفـــسها. وذلـــك مثـــل: (**تحريك الأسعار**)، ويقصدون: زيادتها، و(**الرأى الآخـــر**)، ويقـــصدون: المعارضـــة،

و(**المتحفظ عليهم**)، ويقصدون: المقبوض عليهم و(**النكسة**)، ويقصدون: الهزيمة، و(**السلبيات**)، ويقصدون: الأخطاء، و(**التجاوزات**)، ويقصدون: الجرائم، و(**ترشيد الاستهلاك**)، ويقصدون: نقصه وتقليله و(**الدعم**)، ويقصدون: الإعانة. وهذا باب من البيان الذي لا يخفى على حس المواطنين وفطنتهم.

سادتي:

أخشى أن يكون تيار الصحافة - وهي بحر متلاطم، بل محيط لا ساحل له - قد جرفني بما فاتني معه تقدير الوقت. وبما أحاذر أن أكون أطلت عليكم فأمللتكم.

ولهذا أبادر إلى الختام إشفاقا عليكم، وحرصًا على وقتكم. .. ولكن لابد من فكاهة تتصل بموضوع اللغة، مادمنا في معرض المحاضرة عن لغة الصحافة. ونـدع الصحافي الفكه، الساخر، الخفيف الظل: فكري أباظة، يقول في مذكراته الرشيقة: "كتبت عن رجل كبير، فقلت إنه يزحف نحو المجد، ونحو القمة بسرعة. .. فطلبني بالتلفون، وكلمني ثائرا غاضبا من كلمة (**يزحف**)، قائلا: أتراني طفلا صغيرا؟ وهل هذا يليق؟ قلت له بكل هدوء: سل أحد اللغويين عن معنى "**يزْحَف**" في هذه العبارة. وكلمني من فضلك بعد خمس دقائق؟ وبعد خمس ذقائق كلمني، قائلا: شكرا يا فكري! اللغويين بيقولوا إن يزحف دي كويسة؟ .

والسلام عليكم ورحمه الله،،

* * *

لغة الصحافة في الأردن(*)

للأستاذ الشيخ إبراهيم القطان
(عضو المجمع المراسل)

عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، حصلت في بلاد الشام بلبلة في الحكم، وذلك طبقًا لمعاهدة "سايكس بيكو" فقسمت بلاد الشام "سورية" أربعة أقسام: سورية الحالية احتلها الفرنسيون، ولبنان كذلك، وفلسطين: احتلها الإنجليز:

وبقيت سورية الجنوبية الشرقية، التي أطلق عليها فيما بعد "شرق الأردن"، بقيت في شبه فوضى فتألفت فيها ثلاث حكومات في الكرك، وفي السلط، وفي أربد، كان يدير شئونها أحد رجال الإدارة بالتعاون مع مجلس استشاري، أعضاؤه من وجوه المنطقة وأعيانها وكان يمثل بريطانيا لدي كل حكومة من هذه الحكومات معتمد بريطاني لم تحدد صلاحياته كل التحديد في تلك الفترة القصيرة.

وفي هذه الفترة جاء الأمير عبد الله بن الحسين من الحجاز إلى العقبة، ثم إلى معان وبعد مشاورات ومحاورات مع زعماء البلاد ووجوهها قرر المسير إلى عمان، فبلغها يوم الأربعاء ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩هـ الموافق ٢ من مارس ١٩٢١.

وكان في الفترة التي أمضاها في العقبة ومعان قد أسس أول جريدة أسمها "الحق يعلو" كانت تطبع على الجلاتين.

ولما استقرت البلاد وهدأت انتهى عهد الحكومات المحلية وأخذت السلطة تتركز في يديه، وأما الإنجليز فلم يفعلوا شيئا، لا سلبًا ولا إيجابا.

في سنة ١٩٢٣ أنشأت الحكومة الأردنية أول جريدة وهي "الشرق العربي" وكانت الجريدة الرسمية الناطقة باسم الحكومة، كان يشرف عليها الأديب والشاعر

(*) قدم هذا البحث إلى مؤتمر المجمع في دورته التاسعة والأربعين ١٩٨٣م، ونشر بمجلة المجمع بالجزء الحادي والخمسين، ص ١٧٩.

المعروف محمد الشريقي وكانت لغتها سليمة، وكان يكتب فيها عدد من الكتاب والأدباء والمعلمين.

جاء في افتتاحية السنة الثالثة، العدد ١٠٦ تاريخ ١٠ ذوالقعدة ١٣٤٣ ما يلي:

"تستقبل هذه الصحيفة سنتها الثالثة بأمل، داعية إلى خير العمل، مستبقة ما ينفع العرب شعبيا وحكوميا، وينهض بقوميتهم الحديثة علميا وأدبيا وسياسيا واجتماعيًا جهد المستطاع.

ونحن لا ندعي العصمة والكمال، فيما يخط قلمنا أو يطمئن إليه شعورنا وتفكيرنا، بل ندعي الإيمان، والإيمان القومي الخالص الذي يدفع الدعاة من حملة الأقلام إلى التقاط الحكمة، أين وجدت، فيهتدون بهديها ويقررون مبادئها بتضحية وثبات حتى إذا أخطأوا الطريقة، وزلت بهم قدم الحقيقة، كان لهم من إخلاصهم ما يقيل العثار، ويشفع ليلهم نهار إلخ...

وفيها مقالات في التاريخ، وما قاله ياقوت عن "الأردن" وبعض الأنظمة والقوانين وأخبار تنقل "الأمير" وأخبار متفرقة: مثلا: "وقع زلزال شديد في اليابان" و".. أصدرت الحكومة المصرية بلاغًا بعدم الحج في هذا العام".

"عطلت في سورية جريدة المفيد، وبريد الشرق" الشاعر:

إنما سمي الشاعر شاعرًا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استظراف لفظ وابتداعه أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير "... العمدة:

وتجد رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب؛ وأقوالا لابن المقفع، وفقرات من العمدة مترجمة عن خصائص الأدب ومقالات متنوعة عن الهند، ودياناتها والفلسفة عند العرب وبعض القصائد للشاعر الشريقي.

ومن الأخبار:

- دَعا جلالة ملك بريطانيا والملكة، زيور باشا إلى حفلة شاي ملكية.
- أقام المستأجرون في بيروت مظاهرة ضد أرباب الأملاك، وقع فيها قتلى وجرحى.
- زار سورية أمير الشعراء أحمد شوقي بك، فاحتفلت البلاد بقدومه.

وفي مطلع افتتاحية العدد ١١٣، ١٣ صفر ١٣٤٤، ١/٩/١٩٢٥ بعنوان "الانقلاب الصحيح".

مر على هذا الشرق العربي تطورات كثيرة في هذا الربع الأول من القرن الحاضر، فقد دالت فيه دول، وراجت سياسات مختلفة، وظهرت انقلابات عديدة، ومرت بهذه الأصقاع العربية أمم كثيرة، شرقية وغربية، واختلف على منابرها أحرار وعبدان ولكن رغم هذه التطورات والانقلابات مازلنا نتعثر في مفاوز الحرمان، شاعرين بحاجتنا إلى الانقلاب الصحيح. ولما تطلع شمسه المشرقة فتخرجنا من الظلمات إلى النور، أو تلمع ناره الهادية، وقد عسعس الليل وضل الحادي وحار الدليل.

أما هذا الانقلاب فما أحسب فواعله في غير نفسية الأمة وعقليتها وإرادتها، لا في تصاريف الأدهار، وأيدى الأغيار بل ما أتمثله واضح الفجر إلا بغلبة التربية والعلم، وتوجيه الأنفس إلى تقديس الغاية المشتركة في الأمة، وإعداد وسائل القوة الحديثة تأييدا لمطمحها الأقدس ... إلخ.

وإننا لا نزال نحس نفس الإحساس، ونتجرع المرارة ونتمنى الأماني نفسها، ولا نزال حائرين لا ندرى أين نتجه.

وجاء في ختامها: نعم حينما تتبدل عقلية الحاكم منا فيخفف من خيلائه وغطرسته، ويذهب إلى أنه أمين مصالح الأمة لا سيدها المطلق الذي يتصرف بروحها وحقها أنى شاء.

وحينما تتبدل عقلية الأمة فتخفف من عبادة الأقوياء، وتشعر بوجودها شعورًا صحيحًا؛ مدركة معنى حاكميتها، وكيف أن مصلحتها في النزول على حكم الغاية المشتركة، والوازع الذي يكفل صيانة اجتماعها ماديا وأدبيا.

نعم حينما يشعر أغنياؤنا أن للأمة حقًا في أموالهم، متذوقين حلاوة هذا الحـــق، وحينما يوقن حكامنًا أن للأمة حقًا في حاكميتهم متذوقين حلاوة هذا اليقين.

وحينما تشعر الأمة أنها سيدة أمرها وأمينة مصالحها، متذوقة حلاوة هذه السيادة والأمانة، أذن يا أخي أذان الفجر، فجر السعادة القومية، فجر الانقـــلاب الـــصحيح الثابت".

إن هذا الكلام الذي طرح منذ ستين عامًا لا يزال مطروحًا الآن. ولا نـــــزال تائهين حيارى، لا ندري أين نتجه، ولا نملك من أمرنا شيئا.

وأرجو المعذرة من هذا الشطط، والاستطراد.

وتتابعت الصحف: جرائد ومجلات، فكان من الرواد الأوائل أستاذنا الأســـتاذ محمود الكرمي: أنشأ جريدة الشريعة صدر منها أعداد قليلة.

ثم أنشئت جريدة الأردن، أنشأها الأستاذ خليل نصر، ولا تزال تصدر إلى الآن وهي من أقدم الجرائد، ولكنها جريدة محدودة ولغتها ليست بمستوى "الشرق العـــربي" ولا "الشريعة".

ثم صدرت عدة صحف منها "جريدة الوفاء" للمرحوم الأستاذ صـــبحي زيـــد الكيلاني وكانت لغتها جيدة، الأستاذ صبحي كان أزهريًا، ومن المعلمين المتمكـــنين، درس مدة لا بأس بها في مدارس الحكومة، ثم اشتغل في الصحافة إلى أن توفاه الله.

وصدرت مجلة "الحكمة" للأستاذ الكبير الشاعر الشيخ نديم الملاح، فكانت ممتازة في ما تحويه من مقالات علمية وأدبية بلغة سليمة وإخراج جيد، وكان يكتب فيها عدد من الأساتذة في اللغة والتاريخ والأدب والسياسة وغير ذلك ودامت نحو سنتين على ما أذكر ثم احتجبت لأمور مادية.

ومن الجرائد التي ظهرت، جريدة "الجزيرة" للأستاذ تيسير ظبيان، وكان كتلـــة من النشاط في التعليم والكشافة والنواحي الاجتماعية، ودامت فترة طويلة، ثم تحولـــت إلى مجلة باسم "الشريعة" ولازالت تصدر بعد وفاته يحررها، ويشرف عليها أبناؤه.

وظهرت في أواخر الأربعينيات جريدة "النسر" لصاحبها المحامي صبحي القطب، ودامت فترة، كانت من الجرائد الرصينة، بلغة جيدة تعالج إلى جانب السياسة والاجتماع الأدب والتاريخ وعددا من الموضوعات ثم احتجبت.

وتتابعت الصحف والمجلات فكانت جريدة الحوادث وعليها مسحة يسارية، وجريدة الشعب وجريدة الدفاع، وجريدة فلسطين، وعدد من المجلات، الميثاق لصاحبها المرحوم شفيق رشيدات، وكل هذه الصحف احتجبت.

وفي مطلع السبعين أنشأت الدولة جريدة الرأي، وعينت لها مجلسًا من عدد من الكتاب والمسئولين، وجهزتها بمطبعة حديثة، واستمرت مدة ثم تخلت عنها الدولة إلى عدد من الصحفيين يديرونها، وكذلك تحولت جريدة فلسطين إلى جريدة الدستور لعدد من الكتاب، وأنشئت حديثًا جريدة " صوت الشعب "، أيضًا لا تقل عنهما، وهذه الصحف الثلاثة اليوم هي الصحف الرئيسية في الأردن.

وهناك صحف أسبوعية: اللواء، حسن التل، وأخبار الأسبوع، وجريدة الصحفي، وغيرها.

وتصدر وزارة الأوقاف مجلة شهرية باسم "هدى الإسلام" وأخرى "الإسراء". ووزارة الإعلام تصدر مجلة شهرية باسم "أفكار". ولغة هذه الجرائد على وجه الإجمال لا بأس بها، وأحيانا نجد فيها بعض الضعف. فمن التعابير التي تظهر مخالفة للأصول مثلا:

١- "صادق الحاكم العسكري على قرار المحكمة".

٢- "رضخ فلان للضغوط...".

٣- "من شجب الشعب الفسطيني للروابط".

٤- "أمن له الشيء... وتأمين الأخبار إلى أهلها".

٥- "دعت لجنة شئون المهنة إلى .... كما ودعت اللجنة المحامين المتدربين".

٦- "باشر بكذا بإجراء مسح...".

٧- "معروض للبيع قصر في كذا...".

٨- "قام معالي الوزير.. بزيارة إلى السيد ...... كما استقبل رئيس المجلس في مكتبه فلانا".

٩- "تجري الاستعدادات في مكتب كذا لتأمين اشتراك الأعضاء...".

١٠- " أعلن هنا رسميًا أمس أن وزارة الخارجية اللبنانية قد أبلغت أن المبعوث الرئاسي الأمريكي... سيصل إلى فلسطين المحتلة غدا..."

١١- "بحث مدير زراعة محافظة كذا مع المسئولين. ... إجراءات تنفيذ تعليمات وزارة الزراعة وأكد المدير ضرورة تنفيذ هذه التعليمات...".

١٢- "صحيح أن العالم لا يزال ينقسم كعهده السابق إلى دول صناعية متقدمة. وإلى دول نامية..."

وصحيح أن الدول الأغنى لا تزال تهيمن على شروط التبادل التجاري... إلخ.

"وفى طليعة المستجدات من الظروف المعقدة أن الولايات المتحدة، ومعها قوى دولية أخرى قد رمت بقفاز السلام أمام العرب".

١٣- "ليقوم بمحاولة تلقى رسائل تخاطرية، ضمن إطار تجربة هامة سميت بـ "الاختبار الكبير للتخاطر بين موسكو وسيبيريا".

١٤- "ثم الخروج بقرار شكلي لا يطال المجرمين..".

"تهانينا يا أبا فلان. .. وألف مبروك" وكلمة مبروك تتكرر كثيرًا في جميع الصحف عوضًا عن كلمة "مبارك". وهذا غيض من فيض، فلغة الإعلانات تكتبها الجرائد كما ترد إليها دون أن تصححها أو تنظر فيها.

وفي الضفة الغربية منذ أن كانت باسم "فلسطين" كانت الصحف فيها ناشئة، فكانت جريدة فلسطين من الجرائد الرائدة، لمؤسسها عيسى داود العيسي، ودامت مدة طويلة، ثم انتقلت إلى عمان بعد النكبة، ودامت سنين عديدة إلى أن استبدلت بجريدة الدستور الحالية.

وقد تتلمذ على جريدة فلسطين عدد كبير من الكتاب الصحفيين وكان يحرر فيها الأستاذ يوسف حنا، وغيره من الكتاب المعروفين.

وكانت جريدة الكرمل لصاحبها الأستاذ نجيب نصار، وجريدة الحياة اليومية لصاحبها خالد الدزدار، وكان يشارك في تحريرها الأديب الأستاذ عادل جبر، والشاعر الكبير خير الدين الزركلي والأستاذ الكبير أكرم زعتير ونخبة من الشباب المتحمس. وكانت جريدة في مستوى جيد.

وفي الثلاثينيات صدرت جريدة "الجامعة الإسلامية" لمنشئها الأستاذ سليمان التاجي الفاروقي وقد كان يحرر فيها طائفة من كبار الكتاب، منهم الأستاذ على ناصر الدين، وسامي السراج وإبراهيم الشنطي الذي أسس جريدة الدفاع، والأستاذ تيسير ظبيان ودرويش الشامي، وأكرم الخالدي، وعبد الغني الكرمي، وسامي الشمعة وغيرهم من رجال الفكر والأدب.

وكان للجريدة شعبية كبيرة، وإقبال كبير من القراء، ودامت فترة كان لها الصدارة بين زميلاتها من الصحف.

وكانت "جريدة الجامعة العربية" لصاحبها الأستاذ منيف الحسيني، وهي جريدة تنطق بلسان سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني، وكانت شديدة اللهجة على خصومه السياسيين.

وأصدر الأستاذان الكبيران خير الدين الزركلي، وإبراهيم الشنطي بالاشتراك مع الأستاذ شوكت حماد جريدة الدفاع، وهي يومية، في يافا عام ١٩٣٨، فسارت على نسق جديد في تحريرها، وأخبارها، فانتشرت بسرعة بين جميع الطبقات، واحتلت مكانة مرموقة بين الصحف العربية، وكان يحرر فيها طائفة كبيرة من الكتاب، وكانت تدفع لهم أجورا كبيرة في تلك الأيام. فكانت الجريدة فتحا جديدا في عالم الصحافة الفلسطينية الحديثة.

وصدرت مجلة "صوت الحق" لصاحبها المرحوم المحامي فهمي الحسيني، وكـان يحررها الأستاذ المجاهد حمدي الحسيني، الذي كان يقود جمعًا من الشباب الاستقلالي لمكافحة الاستعمار.

وصدرت مجلة الفجر لصاحبيها الأديبين الأستاذ عارف العزوني ومحمود سيف الدين الإيراني، فكانت مجلة تقدمية تبحث في الأدب وتهتم بالقصص في سبيل فجر نهضة تقدمية جديدة.

وكانت جريدة مرآة الشرق، لصاحبها الصحفي المعروف الأستاذ بولص شحادة، من الصحف الموجهة التي تناضل عن عقيدها بشجاعة وقوة وكان يكتب فيها كثير من الكتاب في شتى الموضوعات.

وأصدرت جريدة فلسطين جريدة باللغة الإنجليزية تولي تحريرها الأستاذ عزمي النشاشيبي، والكاتب الهندي الأستاذ "أختر" وقد قامت الجريدة بالدعاية للقضايا العربية فترة من الزمن.

وأصدر الحزب العربي جريدته اليومية "اللواء" فقام على تحريرها الأديب الأستاذ خيري حماد والأديب الشهيد صبحي الطاهر وطائفة من الكتاب.

ومن المجلات الرصينة "مجلة العرب" لصاحبها الكاتب الكبير الأستاذ عجاج نويهض، مترجم كتاب "حاضر العالم الإسلامي" وكانت المجلة لسان العرب في كفاحهم المشبوب ضد الاستعمار، فكانت تنشر مقالات كبار المجاهدين والأدباء والسياسيين.

وأصدر فريق من الشباب في يافا جريدة يومية باسم "الشعب" كان محررها المسئول الأستاذ كنعان أبو خضرة، وكان سكرتير التحرير الأستاذ عبد الغني الكرمي وكان الأستاذ أدمون روك المشرف العام على إدارتها وسياستها، واحتجبت سنة ١٩٤٨ بظروف الثورة.

وكانت مجلة المهماز لصاحبها الأستاذ منير حداد، هي المجلة الوحيدة التي تصدر "كاريكاتورية" فتعالج الموضوعات السياسية بالرسوم اللاذعة.

وكانت جريدة الصراط المستقيم لصاحبها المرحوم الشيخ عبد الله القلقيلي تعالج الشئون الدينية بالإضافة إلى موضوعات السياسة والأدب.

وكانت مجلة الإقدام لصاحبها طانيوس عبده نصر نسيج وحدها في عالم الصحافة، لأن صاحبها كان يحرر شتى الموضوعات بلغة مشوبة وأسلوب انفرد به صاحب "المشراط الحاد".

وأما مجلة القافلة التي كان يصدرها مكتب المطبوعات في القدس فقد اشترك في تحريرها عدد من الأساتذة منهم: الأستاذ على الدجاني وحازم نسيبة، ورفيق النمري، واسحاق رشيد وقد تولى رئاسة تحريرها الأديب المعروف حسن مصطفى.

وكانت مجلة "الصريح" للأستاذ هاشم السبع وهو أزهري متمرد، وكان أسلوبه شديدًا، ولسانه صارما، لا يسلم منه أحد، واحتجبت لوفاته رحمه الله، فقد كان مرحا خفيف الروح، متحمسا لأمته ووطنه.

هذه لمحة موجزة عن الصحف والصحافة في الأردن بضفتيه.

إن لغة الصحف في الأردن لغة سليمة في الغالب، ويشوبها أحيانًا بعض الانحراف، وذلك آت من الكتاب الجدد، وأرجو المعذرة إن كنت أصلت بعض الشيء بالتعريف بالجرائد والمجلات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

لغة الإعلام(*)

للأستاذ حسن عبد الله القرشي
(عضو المجمع المراسل)

كان الإعلام، ومتفرعاته - وما زال - أحد العوامل المهمة التي ترتكز عليها الأمم في إظهار الوجه الحسن لتراث الأُمة، ورصد مراحل تطورها، وإبراز ما هي عليه من عـــزة وَمَنَعة وما تتمتع به من حاضر مرموق،وما ينتظرها من مستقبل باهر.

وخلال الحروب الباردة والساخنة معًا كان الإعلام هو المعوان لصد أطماع الأعداء والإيماء إلى القوى الكامنة والمدخرة لدى الشعوب.

وقد أصبح للإعلام خبراء ومستشارون، وكليات جامعيـــة متخصـــصة، ووزارات تُرصد لها الأموال الكثيرة، وشركات ومؤسسات كبرى تُـــستثمر فيهـــا الملايـــين مـــن الدولارات ويعمل بها مئاتُ الآلاف من الفنيين والمختصين في مختلف الحقول، وأصـــبحت ركائزه من صحافة، وإذاعة، ومكتبات وتلفَزة، وأدوات نشر مؤسسات ضـــخمة مـــؤثرة تضم الآلاف من ذوي التخصصات الراقية في مجالات الثقافـــة، والفكـــر، والاجتمـــاع، والاقتصاد، يسخرون أفكارهم وأقلامهم لمسيرة هذا المرفق الحيوي الهام الذي هو مرفـــق الإعلام.

لذلك فليس غريبًا أن يتجه الحديث إلى (لغة الإعلام) ومناهج القول فيها مما عنـــاه بتخصيص مجمعنا اللغوي العريق.

وإذا كانت اللغة هي أهم أسباب نجاح الإعلام على الإطلاق، فمـــا هـــو المنـــهج الأصوب الذي يجب أن تسير عليه لغة الإعلام؟

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثانية لمؤتمر الدورة الرابعة والخمسين، يوم الثلاثاء ٢٣ من فبراير سنة ١٩٨٨م، ونشر بمجلة المجمع بالجزء الثاني والستين، ص ٣١.

لا شك أن اللغة الإعلامية ينبغي أن تنقسم قسمين:

القسم الأول: اللغة التي نستخدمها في الوسائل المطبوعة (من كتب وصحف ومجلات وروايات، وقصص) فهذه يتعين أن تكون اللغة الفصحى.

ولا يغرب عن البال أن الفصحى قد أُصيبت بالكثير من أدواء العُجمة نتيجة التقهقر الذي عرا تدريس هذه اللغة في المدارس، والمعاهد، والجامعات، والتدني في مستويات التحصيل، مما يتطلب تلمس العلاج الناجح لذلك.

ورغم ما توافرت المجامع اللغوية مشكورة على تسهيله واشتقاقه من عبارات... وما استحدثته من مصطلحات للتمشي مع روح هذا العصر المعجل فإن الضعف ما يزال سمة ملازمة للغة الفصحى في الإعلام.

أما القسم الثاني: فنظرًا لأن الإذاعة والتلفزة بخاصة تخاطبان جميع الطبقات التي تتكون من متعلمين وأُميين فإن الطريقة المثلى — في رأيي — هي أن تكون لبعض موادهما لغة مبسطة بعيدة عن التعقيد تكون مفهومة للمتعلم وغيره على السواء، رغم ما جنحت إليه بعض أَجهزة الإذاعة المرئية والمسموعة من تخصيص ما يسمى بالبرنامج الثاني لفئة الطبقات المتعلمة.

ولا أقصد بتبسيط اللغة بالنسبة لغير المتعلم الهبوط بمستواها، ولكنني أَقصد أن تكون لغة ميسرة سهلة مشتقة من الفصحى ذاتها، هدفها الارتقاء بالمفهوم العادي وصقله ويمكن أن تقدم بها المواد الترفيهية، وما يماثلها. وربما اندرج تحت هذا المفهوم اللغة التي يجب أن يخاطب بها الطفل في وسائل الإعلام.

وإذا كانت اللغة هي الوسيلة للإعلام فإن مضمون الإعلام ذاته يجب أن يكون مضمونًا صادقًا، فلا ينبغي أن يكون مثلاً أداة طيعة للأهواء أو تزييف حقيقة والدعوة لمبدأ هدام أو الترويج لسلعة تافهة.

إن من آفات الإعلام الجنوح إلى اصطناع منهج الكذب والتدجيل، وإلباس الباطل ثوب الحق، وخداع القارئ أو السامع أَو المشاهد، وكل أُولئك أَردية خَلِقة سرعان ما تتكشف للناس، ويبدو زيفها وخواؤها مما يؤثر تأثيرًا بالغًا على سمعة إعلام الدولة وتخلخل الثقة به، وانعدام مصداقيته.

ونحن نعرف مثلاً أن هناك محطات للإذاعة يؤثر السامع سماع أنبائها على أنباء سواها - وما ذلك إلا لأَنها انتهجت تحري الصدق في بث الأَنباء حتى أَصبح ذلك تقليدًا لها في هذا المضمار.فتحري الحقائق المجردة، ورصد الوقائع التابعة هما الأَداء الصحيح للإعلام الناجح، ومهما ضاعفنا من جهود هذا السبيل فإنها الجهود التي تؤتي ثمارها، وتصيب أَهدافها.

وهناك اقتراح يمكن إيلاؤُه عناية خاصة ويتلخص في حث المسئولين في وزارات الإعلام في الدول العربية على ضرورة استخدم اللغة العربية الفصحى في نشرات الأخبار وإِبعاد الكلمات العامية والحوشية منها نهائيًا فيما تقدم من مواد إعلامية عبر الإذاعتين المرئية والمسموعة كي تكون هذه النشرات واجهة حية للغتنا العربية.

إِن هذا البحث - وهو لغة الإعلام - والذي آثرت أن أُوجز القول فيه خشية الإطالة والإملال — هو جديد الموضوع بكل تفاصيله، إِذ أَننا نبحث عن أَمثل الطرق للوصول إلى القارئ والسامع، والمشاهد، وفي نفس الوقت يجب أَلاَّ ننسى- ولو للحظة واحدة- أَن تراثنا هو لغتنا العربية لغة القرآن الكريم الذي أَنزله الله تعالى وتعهد بحفظه، وحديث المصطفى- صلى الله عليه وسلم- ومن الأَنسب دائمًا أَن نبحث في هذا العصر ما يعزز هذه اللغة وقيمتها ويزيد من رقعة انتشارها ورفع مكانتها.

ولعل من بوادر الخير ما أَصبحنا نلاحظه في المؤتمرات الدولية والمحافل العالمية مـــن التزام مندوبي الدول العربية وبعض الدول الإِسلامية الحديث باللغة العربية بهدف ترسيخها والتعريف بجمالها وأَصالتها وجرسها المحبب، وفرضها على مجتمعات العالم ما أَمكن ذلك.

أَخيرًا أَكرر تقديري للزملاء الصفوة الفضلاء على تلطفهم بحسن الإِصغاء.

وما توفيقي إِلاَّ بالله عليه توكلت وإِليه أُنيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

* * *

لغة الإعلام(*)

للدكتور تمام حسان

(عضو المجمع)

لعل أوضح ما في الإعلام أنه دعوة إلى قبول أمر بعينه، ومحاولة للإقناع بصدق دعوى لم يقم على صدقها دليل سابق. من أجل هذه الدعوة وتلك الدعوى تصاغ اللغة بكيفيات خاصة في تراكيبها وأساليبها، وفي أفكارها ومعانيها، وفي بوحها وكتمانها، وفي تصريحها وتلميحها وإيحائها بما لم يقل، وفي مخاطبتها للعقل حينًا وللعاطفة حينًا آخر. وسنلم إلمامًا رفيقًا فيما يلي بشيء من خصائص لغة الإعلام من حيث:

التراكيب- الأسلوب - الأفكار- طابع الاتصال الإعلامي - تسخير العلم والتكنولوجيا والفن- الإعلام المنطوق والإعلام المكتوب- الحرب الباردة.

إن لغة الإعلام بحكم وظيفتها والغاية منها تفضل الجمل البسيطة السريعة إلى الاستيعاب والفهم، والتي تأذن بقدر من الإيقاع، فيعين الإيقاع على جذب انتباه السامع إليها وتأثره بها. ذلك بأن مناط الإيقاع في الكلام إنما هو النبر وكميات الجمل. أما النبر فيكمن في إظهار جزء من النطق على ما عداه، وذلك بواسطة تسليط قدر من النفس على الأوتار الصوتية في نطق مقطع من مقاطع الكلمة أكبر مما يكون مسلطًا على الأوتار الصوتية في أثناءِ نطق المقاطع الأخرى. فإذا قلنا مثلًا: "مجمع اللغة العربية" فالنبر على أول مقاطع المضاف (مج) وعلى ضمة اللام من "اللغة" وعلى المقطع (بي) من "العربية" فإذا انتظمت المسافات بين نبر ونبر أو تقاربت كان من نتائج انتظامها أو تقاربها ما يعرف باسم الإيقاع، مثال انتظامها تطابق المسافات في قولنا:

* من تأنى نال ما تمنى*

إذ نجد بين كل مقطعين وقع النبر عليهما مقطعًا واحدًا لم يقع عليه النبر هكذا:

من- ت - أن - نا - نا - ل - ما - ت - من - نا

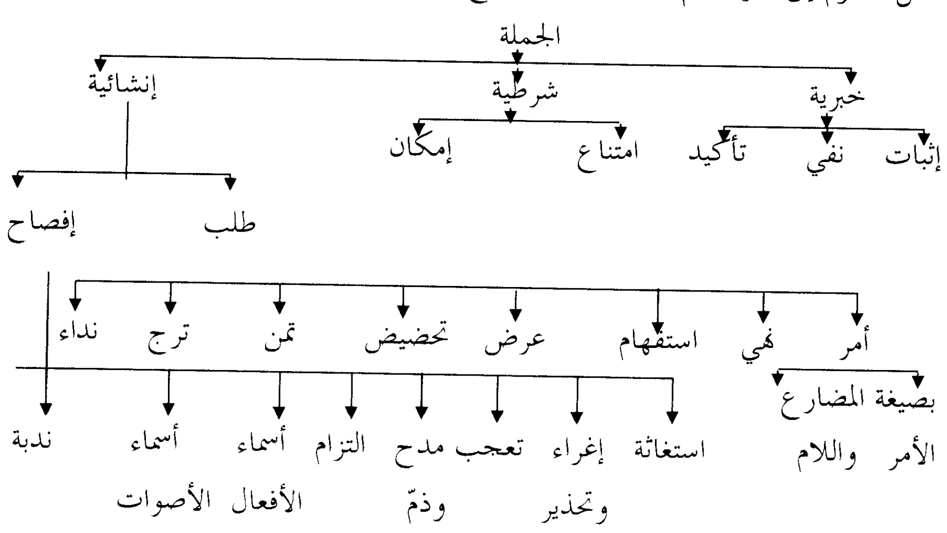
(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثالثة لمؤتمر الدورة الرابعة والخمسين، يوم الأربعاء ٢٤ من فبراير سنة ١٩٨٨م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الثاني والستين، ص ٤٤.

وليس كل قول يجري على هذا النحو الدقيق الانتظام؛ إذ قد تكون المسافة بين النبرين مقطعين أو ثلاثة ثم يبقى الإيقاع إيقاعًا، ولنا على ذلك شاهد من زحافات الشعر وعلله التي لا تطعن في كونه شعرًا موزونًا على رغم ما تخلفه من اختلاف بين اطراد النظرية وتباين التطبيق.انظر إلى اختلاف المسافات وبقاءِ الإيقاع في قوله تعالى: [لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِن أَلْفِ شَهْرٍ] هكذا:

ل- ل- تل- قد- رخي- رن - من - أل- ف - شهر

يضاف إلى هذا الإيقاع المقطعي إيقاع آخر تركيبي، يتمثل في قصر الجمل وبساطتها؛ إذ تبدو الجملة خفيفة على اللسان أثيرة في الآذان لا ترسف في قيود الموصولات وصلاتها الطويلة ولا في الجمل الحالية عند إمكان الحال المفردة، ولا في الصفات المركبة: الظروف والمجرورات المتعلقة بلفظ واحد وهلم جرًّا مما يصلح لخطاب المتمرسين في استعمال اللغة لا لخطاب سواد الشعوب.

والجملة السائدة في لغة الإعلام هي الجملة الخبرية — يؤخذ ذلك أوَّلاً من ملاحظة طبيعة الاتصال الإعلامي، ويؤخذ ثانيًا من تأمل لفظ "الإعلام" وما يحمله من دلالة؛ فالإعلام "نقل المعلوم إلى غير العالم به" فإذا تأملنا أنواع الجملة وجدناها على النحو التالي:



فالجملة الخبرية أصلح تلك الأنواع لنقل المعلومات، أما ما عداها فإن الجملة الطلبية هي الأصلح في مقام الحشد والتحريض في الأزمات القومية بالدعوة إلى المشاركة في الجهود القومية، على حين نجد الجمل الإفصاحية تسود في الشعر وفنون الأدب الأُخرى. والمقصود بلفظ "تسود" أن النوع المذكور يرد في الكلام أكثر ممَّا يرد غيره من الأنواع، وليس المقصود أنه يستقبل بالورود، ذلك بأن مطالب القول قد تختلف بين لحظة وأُخرى، والمتكلم قد يصرّف كلامه في اتجاهات مختلفة للوصول إلى أثر مطلوب، فلا قيد عليه في اختيار نوع الجملة الذي يختار.

ولغة الإعلام كلغة السياسة تفضِّل في تراكيبها عدم التورط كلما كان ذلك مستحبًّا، ومن ثم تستغني في الكثير من الحالات بأفعال المطاوعة والبناء للمجهول عن التورط في ذكر من أوقع الحدث، فالبناءُ "ينهدم" ولكن لا داعي لذكر من هدمه، والمعاناة "تتصل" ولا يذكر من وصلها وكان سببًا لها، واللثام "أميط" عن معلومات بعينها دون ذكر لمن أماطه، ولعل الفارق بين المطاوع والمبني للمجهول أن المطاوع لا يصاغ من الفعل إلاَّ أن يكون للمفعول قدرة على رد الحدث أو مقاومة وقوعه؛ ومن ثم لا يقال: "اَنضرب فلان" ولا "انلعبت المباراة" ولا "انقتل القتيل"؛ لأن الضرب إذا وقع فقد وقع، ولأن المباراة لا وجود لها معينًا فتقاوم اللعب، ولأن القتيل لا يرد عن نفسه القتل. أما المبني للمجهول فصالح في كل حالة، وإن افتقر إلى الجار والمجرور كما في "أُثني على فلان" و "استقيم على الطريق". وهكذا تجد لغة الإعلام مهربًا من التورط بواسطة إِيراد عبارة "مثل انفجرت القنبلة" دون القول بأَنها: "فجرها فلان"، وفي القول بأنه: "علم أن بعض العناصر تسعى إلى كذا" دون ذكر مصدر المعلومات ولا من بلغه العلم بها.

ولغة الإعلام مولعة باختيار الصفات إيجابًا وسلبًا لبعض الموصوفات سعيًا إلى ترسيخ اعتقاد هذه الصفات في أذهان سواد الناس، لاحظ مثلاً عبارات، مثل: "الشعب النبيل"

و"الأرض الطاهرة" و"الهجوم الشرس" و"العهد البائد" و"الطبقات الكادحة" و"التحكم البغيض" و"المظاهرات الصاخبة" و"الشهداء الأبرار" و"الحروب الطاحنة" و"الجنود الأبطال" وهلم جرًّا، فإذا لصقت هذه الصفات بموصوفاتها في لغة سواد الشعب كان لها من القيمة الإقناعية مايكون عند المشاهدة؛ لأنها إذا فاتها أن تدرك بالعين فقد حلت الأُذن محل العين سماعًا، وحل محلها اللِّسان نطقًا، وما ظنك بجارحتين تتضافران على أداءِ ما تقوم به جارحة واحدة؟

ومن هذا القبيل أيضًا ما نلمحه في لغة الإعلام من الإحالة إلى أُمور غير مسلمة أو إلى وقائع ذات صلة ضعيفة بالموقف الحاضر، فمن الإحالة إلى غير المسلمات أن يقول القائل ردًّا على سؤال اتجه إليه في مؤتمر صحفي: إن موقفنا واضح من هذه القضية "إن موقفنا" ويكتفي بهذه العبارة عن شرح الموقف أو يحيل السائل إلى بيان نشر أو أُذيع في ظرف سابق، ومن الإحالة إلى وقائع ضعيفة الصلة بالموقف الحاضر أن يجري قياسًا بين موقفه السلبي الحاضر وموقف إيجابي سابق من قضية أُخرى محتميًا بالإيجاب السابق من مغبة السلب الحاضر. ويمكن أن نسمي هذا المسلك في لغة الإعلام باسم "الهروب" إذا لم نسمه باسم آخر هو "التضليل" وقديمًا اعترض بعض الناس على تعريف اللغة بأَنها "وسيلة لنقل الأَفكار"، فقال: "ما أَبعد هذا التعريف عن تحديد طبيعة اللغة؛ لأَن اللغة في أَكثر المناسبات تمثل وسيلة لإخفاءِ الأَفكار"، وإذا علمنا أن صاحب هذا الاعتراض هو "تاليران" فهمنا دافعه إلى الاعتراض المذكور الذي لا يأْتي إلاَّ من رجل تمرس بالسياسة ودروبها الملتوية.

وقد تتجه لغة الإعلام عند الضرورة إلى التراكيب التي تحتمل أكثر من معنى لتصل بها إلى لبس مقصود أَو تعمية أَو مغالطة. والمعروف أَن كل لغة من لغات العالم تعرف من التراكيب ما يأْذن للبس أن يقع. وفي لغتنا العربية شيءٌ غير يسير من هذه التراكيب كما يبدو في الصور الآتية:

١- المصدر المفرد المتعدي، نحو: "أنت أولى بالإنصاف" إذ لا يدرى ما إذا كان المقصود "أن تُنصف" أو "أن تَنصف".

٢- المصدر المضاف، نحو "زيارة الأصدقاءِ تسر النفس" إذ يمكن أن يكون الزائر هو المتكلم أو الأصدقاء.

٣- الصفة بعد التركيب الإضافي، نحو "أُعجبت بدار الكتب المصرية"،فهل المصرية هي الدار أو الكتب؟.

٤- الحال عند تعدد ما يصلح لها، نحو: "غادرته غاضبًا" فمن الغاضب؟ الفاعل أم المفعول؟

٥- الخبر والإنشاء، نحو: "بارك الله في زيد" فهل ذلك إخبار عنه أو دعاءٌ له؟

٦- تعدد احتمالات عود الضمير، نحو: "أخبر زيد عمرًا أن أباه قادم" لا يدرى لمن الأب؟ وكذلك: "رجا التلميذ معلمه أن يعيد قراءَة الدرس" فأيهما سيكون القارئ؟

٧- احتمالات معنى "ما"، نحو: "ما أوصلك لأهلك" لا يدرى إن كان المقصود الاستفهام أو التعجب.

٨- العطف على المتضايفين، نحو: "ذهب إلى أبناءِ زيد وعمرو" هل عطف عمرو على الأبناءِ أو على زيد؟

٩- احتمالات معنى اللاَّم، نحو: "اشتريت ضيعة لزيد" هل اشتراها من أجل زيد أو من زيد؟

١٠- احتمالات تعليق الجار والمجرور، نحو: "مات زيد مجاهدًا في سبيل وطنه" هل مات في سبيل وطنه أو كان مجاهدًا في سبيل وطنه؟

١١- احتمال المفعولية والظرفية، نحو: "أحببت يوم الجمعة" فهل أحب اليوم أو أحب في اليوم؟

١٢- احتمال المفعولية والمصاحبة، نحو: "أحببت سلمى وقدوم الربيع" فهل وقع الحب على قدوم الربيع أو في قدوم الربيع؟

.بمثل هذه التراكيب أيضًا تستطيع لغة الإعلام أن تتفادى الوضوح المؤدي إلى التورط هربًا إلى اللبس والتلاعب بالعبارات، وكلنا سمع عن عبارة قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وما أثاره تنكير لفظ "أراض" في الترجمة العربية من لبس أدى إلى إجهاض القرار نفسه وحرمانه من طاقة حل المشكلة التي صيغ من أجلها.

ولغة الإعلام تخاطب سواد الشعب ومن ثم كان عليها أن تتوخى بعض المعـــايير في أسلوبها حتى تكون مفهومة ومؤثرة وأوضح هذه المعايير البساطة والتكرار. فأما البـــساطة فهي البعد عن التأنق في العبارات وعن الأساليب البيانية البعيدة التناول بحيث يستطيع كل من سمع العبارة أن يستوعب مضمونها أو أن يستوعب منها مضمونًا ما (إذ ليس من شأن السامع أن يفهم دائمًا ما أراده المتكلم على وجهه المطلوب)؛ لأن عمل المتكلم في برمجـــة صياغة العبارة يختلف عن عمل السامع في تحليلها فالخطان غير متوازيي،ن ولا يلـــزم مـــن وحدة العبارة أن ننتهي إلى وحدة الفهم. والواضح أن تباين الأفهام مع العبارات البـــسيطة أقل منه مع العبارات المنمقة، وهو مع الأسلوب الحقيقي أقل منه مع الأســـاليب المجازيـــة. وهكذا تصبح البساطة مطلبًا لا تسامح في شأنه من مطالب لغة الإعلام.

ومن الثابت أن التكرار والإلحاح على العبارة ذو أثر بين في اعتقاد صـــدقها حـــتى عندما يكون من البيِّن أنها تخالف المنطق وطبائع الأشياء. ولو أن إنسانًا مـــستقيم الـــتفكير ألحت على سمعه أنباءُ الجن والشياطين وشطحات الصوفية وأهل الخطوة منهم كـــدعوى وجود ضريحين لشخص واحد في مكانين متباعدين، أو أن فلانًا يجد رزقه في الخلوة تحـــت السجادة كل يوم لانتهي بأثر التكرار والإلحاح على هذه الدعاوى إلى اعتقاده إياها.

والتكرار من حيل الإعلام الإسرائيلي المؤثرة. لقد عمدت إســـرائيل إلى تـــسمية الأراضي العربية المحتلة باسم "الأراضي المدارة " حتى تبعها الإعلام الغربي في هذه التـــسمية

ثم تخفف الإعلام الإسرائيلي من الصفة واقتصر على استعمال الموصوف حتى أصبحت الأراضي العربية المحتلة تعرف في الغرب باسم "الأراضي" فقط. ومثل ذلك أنها تسمي الفلسطينيين الذين لم يهاجروا من رقعتها قبل ١٩٦٧م باسم "العرب الإسرائيليين" تجنبًا لذكر فلسطين أو الفلسطينيين، وتبعها الإعلام الغربي في ذلك، بتأثير التكرار والإلحاح في التكرار، ومن ذلك أيضًا أن تسمي عدوانها "حربًا وقائية" وهكذا.

ولغة الإعلام تصطنع من أساليب المداورة والمغالطة ما تستطيع به أن تطمس ما لا ينفعها من الحقائق. فقد تعمد إلى ما يعرف بتسريب الأخبار الكاذبة بعد أن تحسن صوغها وتتقن اختلاقها لتكون صالحة للتصديق. وقد تفعل ذلك إيجابًا بدعوى حدوث مضمون الخبر أو سلبًا بنفي وقوعه؛ لتثير بالنفي دواعي الإثبات. فلقد يحدث أن تريد دولة تخويف دولة أخرى مجاورة تُكِنُّ لها العداوة فيكون سبيلها إلى ذلك أحد أمرين: فإما أن تعمل على تسريب خبر يفيد أن عندها سلاحًا سريًّا كالقنبلة الذرية أو الغازات السامة... إلخ. وإمَّا أن تنفي هذا الخبر وإن لم يقله قبل النفي قائل، وذلك أن تذيع في وسائل إعلامها كلامًا مضمونه أن بعض الجهات زعمت أن الدولة المعنية تمتلك السلاح الفلاني، وقد صرح مسئول بأن هذا الخبر غير دقيق. فحين يرمى الخبر بعدم الدقة يثبت له الصدق وإن انتفت الدقة.

وكذلك تعمد لغة الإعلام أحيانًا إلى المغالطة كالذي تفعله إسرائيل؛ إذ تنكل بالشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة بدعوى الحفاظ على الأمن، فإذا سمع الناس أو قرأُوا إسرائيل تسعى إلى حفظ الأمن لم يتساءلوا عن الأمن لمن يكون؟ أهو أمن الغاصب المعتدي أم أمن المقهور المعتدى عليه، وإذا لم يكن هناك فحص للدعاوى على هذا النحو فلا بد أن يصدق الناس الإعلام الإسرائيلي، ومثل ذلك ما نراه من أن إسرائيل تسمي الضفة الغربية للأُردن "يهودا والسامرة"، وما تدعيه بتلفيق الحجج من أن طابا تدخل في حدود إقليم

النقب، ولعل أكبر أكذوبة إسرائيلية هي دعوى أن إسرائيل دولة ديموقراطية، وهي دعوى للتغطية على حقيقة أنها دولة عنصرية.

ومن وسائل لغة الإعلام رواية ما يقوله الآخرون عن الجهة صاحبة الإعلام، وتبالغ بعض الجهات في ذلك حتى يأتي إعلامها أحيانًا بنتائج عكسية. فمن المقبول مثلاً أن يقال: إن المتحدث الرسمي لدولة (ب) قد أثنى على سياسة دولة (أ) أو أن الضيف العظيم الذي يزور دولة (أ) قد أثنى على ما شاهده من مظاهر التقدم. ولكن دولة (أ) تهبط بمستوى أهميتها حين تذيع أن فلانًا الموظف بإدارة تحقيق الشخصية في دولة (ب) قد أثنى على طرق المحافظة على الأمن في دولة (أ) أو أن الشيخ فلانًا صاحب معهد تحفيظ القرآن في (ب) قد أثنى على المناهج التعليمية في (أ).

ولقد توحي لغة الإعلام أو تومئ، أو تعرض، فلقد توحي بالتعليق على مناورة بالذخيرة الحية وبدعوى نجاح المناورة وتحقيق أغراضها بأن الدولة مستعدة لمختلف الاحتمالات. ولقد تومئ بإشارة خفية إلى مساعدة قدمتها لدولة أُخرى في أزمة عارضة إلى أنها دولة خيّرة ذات علاقات حسنة بالدول الأُخرى، وقد تعمد إلى التعريض بدول أُخرى تقصر دون حظها من الديموقراطية بإعلانها التمسك بالديموقراطية أو تقصر دون حظها من التمسك بالشريعة الإسلامية بالمفاخرة بتمسكها بالشريعة، أو تقصر دون حظها من الاكتفاءِ الذاتي في منتج ما بالإشارة إلى اكتفائها هي من هذا المنتج. والغاية التي تسعى إليها دولة ما بهذا التعريض قد تكون إيجابية لتحسين صورتها أو سلبية لتشويه صورة الغير أو هما معًا. وهذه الوسائل الأُسلوبية في الإعلام قد يحسن استخدامها فتأتي بالنتائج المرجوة وقد يسوء فلا يكون منها إلاَّ الضرر.

هل تخاطب لغة الإعلام العقل أَو تخاطب العاطفة. المعروف أَن مخاطبة العقل تجري في مجريين:

(أ) الاعتماد على المسلمات التي تعدّ جزءًا من تركيب العقل كإدراك العلاقة السببية بين شيئين أو إدراك العلاقَة الكمية أو الزمانية أو المكانية ... إلخ.

(ب) الاعتماد على الأَدلة المنطقية.

والحجة التي تنبني على هذا الأَساس العقلي إذا وضعت في صورة قياس منطقي ما صارت منطقية صورية. أما إذا خلطت الحجة بين العنصر (أ) وبين أمور أُخرى كالإغراء والتحذير والتمني والترجي وغير ذلك من الأَساليب الإنشائية، فإنها تتحول إلى دليل خطابي. فإذا تحول الأُسلوب عن نهجه هذا إلى أن يكون شاعريًّا في طابعه أو تحريضيًّا خالصًا، فإنه يخاطب العاطفة مثال ذلك ما تصطنعه وسائل الإعلام من الأَناشيد الحماسية والإشادة بالأمجاد.

إذا عرفنا هذا فهمنا أن لغة الإعلام تخاطب العقل حينًا والعاطفة أحيانًا، وأكثر ما يكون اتجاهها إلى العاطفة. انظر فيما تعرضه وسائل الإعلام من أنواع الفنون كالأَناشيد والتمثيليات والبرامج الوطنية... إلخ تجد ذلك يتجه أساسًا إلى شحن العواطف. ثم انظر إلى برامج التوعية والبرامج الثقافية والتوثيقية، تراها تخاطب العقول وتضيف إلى حصيلة المعلومات.

والإعلام في أحسن صوره تأليف للقلوب واستدعاء لمودة الجماهير. ولكن هذا التأليف وذلك الاستدعاء ينبغي لهما أن يكون بعيدين عن التدخل في حرية إرادة الجماهير بواسطة المطالبة بأمر ما، ولعل الفارق الأكبر بين الإعلام والإعلان: أن المعلن يمكن له أن يجرؤ بمطالبتك بشراءِ سلعة ما غير مكتف بتحسينها في نظرك، أما وسيلة الإعلام فقصارى ما تبلغه أن تحسّن أمرًا ما في نظرك دون أن تطالبك باعتناق فكرة معينة وشر الإعلام ما لجأَ إلى لغة الإعلان؛ لأن لغة الإعلان متهمة حتى تظهر براءتها، ولكن لغة الإعلام بالعكس بريئة حتى تظهر إدانتها.

وربما كانت لغة الإعلام في كثير من الحالات بديلاً من التصرفات العملية غير المستطاعة؛ فلقد يحدث أن تتخطى دولة ما حدود الشرعية فتعتدي على جهة أضعف منها صديقة لدولة أخرى، فلا تجد الدولة الأُخرى من وسائل الردع ما ترد به هذا العدوان أو ترد عليه؛ فتعمد إلى الشجب والإدانة والاحتجاج والاستنكار والشكوى وغير ذلك من الوسائل التي لاتجر عليها موقفًا عمليًّا خطرًا أو غير مقبول في مسرح السياسة الدولية. مثال ذلك موقف الدول العربية من أحداث مثل ضرب المفاعل العراقي، والغارة على لبنان، والبطش بالشعب الفلسطيني في فلسطين المحتلة وغير ذلك من العربدة الإسرائيلية؛ فإذا لم تستطع الدول العربية المبعثرة النوايا والجهود أن ترد بالإيجاب على هذه الوقائع عمدت إلى الشجب والشكوى للهيئات الدولية، وجعلت ذلك بديلاً للعمل العربي المشترك الذي صيرته الفرقة أمرًا مستحيلاً.

ولغة الإعلام في طابعها الاجتماعي أشبه بالمحاضرة منها بالمناظرة ذلك بأن مصدرها واحد ومورِدها متعدد، فهي لغة جهة رسمية بعينها؛ إذ تخاطب أسماع السواد أو أبصارهم. ويصدق هذا الطابع على لغة الإعلام حتى حين تكون ندوة إذاعية أو تليفزيونية أو حديثًا صحفيًّا مصدره طائفة من أصحاب الرأي، إذ يتناولون موضوعًا واحدًا بالشرح والتعليق فتكون وحدة الموضوع وحدة للمصدر الإعلامي وإن تعدد المعلقون، ولكن هذا الموضوع الواحد يتجه إلى الملايين من أبناء الشعب وإلى غيرهم ممن تصل إليه هذه الوسيلة الإعلامية. وهذا الطابع الأحادي المصدر يعطي لغة الإعلام وظيفة توحيد الفكر والشعور والوجدان في سواد الشعب ويجعل الناس صفًّا واحدًا وراءَ قيادتهم إلاَّ من ظفرت به منهم وسائل إعلام جهة أُخرى. وهذا ما سوف نشير إليه بعد قليل.

ولغة الإعلام تبرير لمواقف النفس، واتهام لمواقف الغير، ومن ثم تكون دائمًا محتملة للصدق والكذب؛ إذ لا يعقل أن تكون مواقف جهة ما صوابًا دائمًا ومواقف جهة أُخرى خطأً على طول الخط؛ وإنما يخلط الناس عملاً صالحًا وآخر سيئًا، وتلك سنة السلوك

الإنساني الذي لا عصمة له من الزلل. وكما يتجنب الأَفراد أن يطلع الناس على سلوكهم فيعمدون إلى أن يقدموا للناس صورًا ذهنية حسنة تنوب عن حقائق ذواهم تسعى الدول أن تحسن من صور شخصياهم الاعتبارية فتخفي من نواياها ما تخفي وتستر ما ساءَ من أعمالها، ثم تذيع بوسائل إعلامها ما كان حسنًا من جوانب سياساها. وهكذا سيبدو الناس والدول في الأَذهان على هيئة صور ذهنية محسنة، ولو اطلع كل فرد أو دولة على ما أخفاه عنه فرد آخر أو دولة أخرى لفسدت الحياة الاجتماعية؛ و لم يعد من الممكن أن يطمئن كل إلى كل. أما كيف يمكن تحسين هذه الصور الذهنية للأفراد فبالكتمان والبوح بحسب الظروف إن شئت فقل: بالنفاق الاجتماعي للأفراد ثم للدول بواسطة لغة الإعلام أو النفاق على المستوى السياسي الدولي.

لقد شهد العالم في العقود الأخيرة ثورة جامحة في العلم والتكنولوجيا وانعكس ذلك على وسائل الإعلام من حيث قدرهّا على التبليغ واكتساحها لحواجز الزمان والمكان. يصدق ذلك على الصحافة، كما يصدق على الإذاعة والتليفزيون والفيديو والسينما والمسرح والأغاني والصور، والملصقات والتماثيل وما عسى أن يكون وسيلة ما من وسائل التبليغ الأخرى. فأمّا الصحافة فقد شهد هذا العصر طباعة الصحيفة الواحدة في عدد من المدن في وقت واحد كما يحدث لصحيفتي الأهرام والشرق الأَوسط، وأما الإذاعة فقد ألغت الحدود وسيادة الدولة وجماركها واقتحمت على الناس مضاجعهم في كل مكان من العالم، و لم يعد شرط التبليغ من خلالها إلاَّ تقويتها وتوجيهها الوجهة المطلوبة. وأمّا التليفزيون فقد أضاف إلى الصوت الصورة الملونة ويسعى إلى جعلها مجسمة. ولقد استطاع الفيديو أن يجعل من التليفزيون وسيلة خاصة، وقد قصدت منه الدولة أن يكون وسيلة عامة، وبذلك أصبح التليفزيون وسيلة محتملة للإعلام المعاكس وللفساد والإفساد في مختلف المستويات. وتشاركه السينما هذا الاحتمال، ذلك ما يكون من تخطى هذه الوسائل لحاجز المكان. أمّا تخطى حاجز الزمان فيتم من خلال طباعة الصحيفة وشرائط الكاسيت والفيديو

والفيلم السينمائي، إذ يمكن الاحتفاظ بهذه الوسائل على مدار الزمن فتضيف إلى قيمتها الإعلامية قيمة أخرى وثائقية.

وهذا التطور في تكنولوجيا وسائل الإعلام أدى إلى نتيجتين خطيرتين:

١- صعوبة السيطرة الإعلامية على الجهة الداخلية في كل دولة.

٢- إمكان نشوب الحرب الدعائية، كالتي أطلق عليها ذات مرة "الحرب الباردة"، وقد نشبت بين الدولتين العظمتين، وقامت على ما أطلقت عليه السياسة الأمريكية "حافة الحرب" أو "سياسة الحافة".

وقد ترتب على العنصر الأول بالفعل أن تنتشر الأفكار الشيوعية في العالم وأن تبدو روسيا في نظر البعض أملاً لطلاب العدالة الاجتماعية بعد أن حسَّنت وسائل إعلامها صورها وعرضتها على الشعوب في صورة طيبة. أمّا العنصر الثاني فيتمثل خطره في أن الحرب الباردة قد تتحول عن برودها؛ لأن ردود الفعل لا تقاس ولا تضبط. وأكبر دليل على ذلك ما حدث في عام ١٩٦٧م من تصريحات غير محسوبة قصد بها مجرد الدعاية ولكنها أدت إلى كارثة ما زلنا نطعم ثمراتها المرة.

تلك هي لغة الإعلام سم وترياق، صدق ونفاق، نصر وعدوان، جمع وتشتيت، ولها بعد كل ذلك ما لغيرها من أنواع النشاط اللغوي فهي تحتمل الصحة والخطأ، والجمال والقبح، ومخاطبة العقول، أو مخاطبة العاطفة والوجدان، ثم تبوح وتكتم، وقد تكتم إذ تبوح، وباختصار هي الإنسان نفسه بخيره وشره.

* * *

الإعلام واللغة الإعلامية(*)

للأستاذ منير البعلبكي
(عضو المجمع المراسل)

تمهيد:

الإعلام

١- ماهيته

٢-مراحل تطوره:

(أ) مرحلة التصـــــوير.

(ب) مرحلة الكتـــابـــة.

(ج) مرحلة الطباعـــــة.

(د) مرحلة الصـــحافة.

(هـــ) مرحلة الإذاعـــة.

(و) مرحلة التلـــفزة.

٣- أهميته ومستقبله.

اللغة الإعلامية

١- طبيعتها ومزاياه.

٢- لغة الصحافة.

٣- لغة الإذاعة والتلفزة.

الإعلام واللغة الإعلامية

تمهيد

يُجمع الباحثون، أَو يكادون، على أَن الإِعلام هو سمة العصر الحديث وطابعه المميّز.

وهم ينـــزعون اليوم، أكثر فأكثر إلى إحلال مصطلح "التواصل"(١) أو "التواصل الإعلامي " محلّ مصطلح "الإعلام"؛ لأن منهجية الإعلام الحديث تتخطى مجرد إبلاغ الخبر

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثانية عشرة، لمؤتمر الدورة الرابعة والخمسين، في يوم السبت ٥ من مارس ســـنة ١٩٨٨م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الثاني والستين، ص ٢١٠.

(١) يستخدم معظم المؤلفين في حقل الإعلام لفظ "الاتصال"، بدلاً من لفظ "الإعلام"، وعندنا أنهم لا يضيفون بـــذلك إلى معنى الإعلام أي بعد جديد؛ لأن "الاتصال" كالإعلام، عملية من جانب واحد، و "التواصل" هو اللفـــظ المعـــبر تعـــبيراً صحيحاً عما يقصدون إليه، كما سنرى.

من طرف واحد لتجعل من العملية الإعلامية ضربًا من التبادل والتفاعل يشترك فيه اثنان: المُبَلغ والمُبَلَّغ، المُخْبِر والْمُخبَر[1]، وبكلمة أخرى لتجعل من هذه العملية نشاطًا ثنائيّ البُعد بعد أن كانت من قبل نشاطًا أُحاديّ البُعد.

وإنما يتجلّى ذلك أحسن ما يكون التجلي، في الصفة الحوارية التي تطبع عملية الإعلام في يوم الناس هذا. "فالإعلام هو الآن أكثر منه في أي وقت مضى في الصحيفة بين المحرّر والقارئ، وحوار في الراديو بين المذيع والمستمع، وحوار في التليفزيون بين الممثل والمشاهد، وحوار في الجهاز الإلكتروني بين دماغ لجهاز ودماغ الإنسان[2].

الإعلام

١ – ماهيته:

ولكن ما هو الإعلام؟

الإعلام، أو التواصل، هو في أبسط معانيه نقل الخاطرة أو الفكرة أو الرأي أو المعلومة أو النبأ من شخص إلى آخر ومن مكان إلى مكان أُو قُلْ هو إشراك الآخرين والاشتراك معهم في المعلومات والأفكار.

والإعلام بهذا المعنى موغل في القِدَم. ولقد غالى بعضهم في التأكيد على قِدَميته فذهب إلى القول: إنه ظاهرة عادية عرفتها كلّ المجتمعات منذ قالت حواءُ لآدم: "طيبة هذه التفاحة"، وإنه كان ينتقل بصورة فطرية بين الناس من شفة إلى أذن... وذلك من طريق المصادفة حينًا، ومن طريق التجربة الشخصية حينًا، ومن طريق الرواة والنقلة أو عن طريق التواتر في أكثر الأحيان[3].

---

(١) الدكتور حسن صعب، إعجاز التواصل الحضاري الإعلامي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤، الصفحة ١٢٠ – ١٢١.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٧٦ –٨٥.

(٣) الدكتور أنيس مسلم، وسائل الإعلام بين الرأي العام والإرادة الشعبية التعاونية، اللبنانية للتأليف والنشر، الطبعة الأولى، جونيه، لبنان، ١٩٨٥، ١٤ – ١٥.

والحق أن الإعلام لا يعدو أن يكون كما يقول الدكتور عبد العزيز شرف: عملية ترامز "[١] ذلك بأنه يقتضي وجود مصدر يرسل الرمز بوسيلة من الوسائل، ووجود مستقبل يعمل على حلّ الرمز وتفسيره، ثم يبعث برجعه أو صداه إلى المصدر، وهكذا...

والرمز قد يكون إشارة أو راية، وقد يكون حركة أو نغمة، وقد يكون طبلاً يُقرع أو نارًا تُضرم، وقد يكون رسمًا في كهف من الكهوف أو حرفًا من الحروف، وكل هذه هي في حقيقتها "لغات" استعان بها الإنسان - وهو مخلوق تواصليّ بطبعه – على تحقيق تواصليته والعمل على تطويرها وتوسيع مداها لتصبح امتداد للكلمة المنطوقة أو للغة بمعناها المتعارف عليه. ومن هنا جاز القول: إن اللغة هي "القاسم" المشترك الأعظم بين مختلف عناصر العملية الإعلامية من مرسل، ومستقبل، ورسالة، ووسيلة اتصال "[٢].

٢- مراحل تطوره:

(أ) مرحلة التصوير:

يُعتبر اهتداءُ الإنسان البدائي إلى الرسم أولَ مَعْلَم بارز على طريق التطور الإعلامي أو التواصلي. ذلك بأنه استطاع بهذه الوسيلة المستحدثة أن يسجّل خاطراته وانطباعاته وخلجات فؤَاده وحكاية عصره كلها على جدران المغاور التي اتخذها منازل له قبل بزوغ فجر التاريخ المدوَّن بآلاف من السنين مؤَلفة. يدلّك على ذلك أن علماءَ الآثار اكتشفوا عام ١٩٤٠م، في لاسكو Lascaux في الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا مجموعة من الكهوف تشمل على رسوم جدارية ترقى إلى حوالي العام ١٨٠٠٠ قبل الميلاد، وهي تصوّر حيوانات مختلفة ومشاهد رائعة أبدعها الإنسان القديم في ظلمة الكهف الدامسة، وعلى ضوء مصابيح شاحبة قوامها بعض الطحالب المغموسة في الدّهن[٣].

---

(١) الدكتور عبد العزيز شرف، المدخل إلى وسائل الإعلام، دار الكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٠م، الصفحة ٧٩.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٧٩.

(٣) منير البعلبكي، موسوعة المورد، المجلد الثاني، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م الصفحة ١٩٣.

وفي عهد الفراعنة ابتكر المصريون وسيلة تواصل لغوية رائدة قوامها مجموعة من الرموز التصويرية عُرفت بالهيروغليفية. ولقد اتخذت هذه الرموز شكل أشخاص حينًا وأشكال حيوانات أو أشياء حينًا آخر، وكان كل رمز منها يمثّل كلمة أو مقطعًا أو صوتًا، ومن هنا اعتدّها العلماء ابتكارًا مهّد السبيل لاختراع الأبجدية[١].

ليس هذا فحسب، بل لقد عني قدامى المصريين في الوقت نفسه بتصوير مظاهر حياتهم، على جدران المقابر المحيطة بالأهرام، تصويرًا بارعًا يخيَّل معه لزائرها، كما قال المؤَرخ الشهير جيمس هنري بريستد، وكأن الزمن قد رجع به القهقرى فهو يجوس خلال بيوت المصريين القدامى ويتجول في بلاد وادي النيل لحظة كان أهلوه يبنون تلك الأهرام العظيمة[٢].

وبذلك يكون الإعلام، على حد تعبير الدكتور عبد العزيز شرف، قد "بدا مصوَّرًا"[٣]. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما حقّقه الإعلام في عهد التلفزة والأقمار الصناعية من انتصارات باهرة جاز لنا أن نضيف إلى هذه الملاحظة الصائبة قولنا: "وانتهى مصوَّرًا".

وبذلك أيضًا يكون الإعلام قد عرف ثورته الأولى، وهي ثورة كان سلاحها الرسم.

(ب) مرحلة الكتابة:

أما مرحلة التطور الإعلامي الثانية فهي مرحلة الكتابة التي بدأت مع اختراع الحرف. وإنما يُعزى الفضل في هذا الاختراع إلى الفينيقيين الذين طوروا الهيروغليفية المصرية، وابتكروا حوالي العام ١٤٠٠ قبل الميلاد، أبجدية فذة قَصَروها على عدد محدود من الرموز أو الحروف، التي يمثل كل منها صوتًا بسيطًا. ومن العلماء من يعتقد أن الأبجدية

---

(١) منير البعلبكي، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٨٦.

(٢) الدكتور عبد العزيز شرف، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٧٦ والصفحة ٩٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٢٩٩.

الفينيقية نشأت من محاولات أبجدية ساميَّة أبرزها الكتاب المعروفة بالـسينائية الأمُّ proto-Sinaiic التي ترجع إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

وأيًّا ما كان، فليس من شك في أن اختراع الأبجدية قد مكّن الإنسان من اختـــزان المعلومات والمعارف ونقلها إلى الأجيال المتعاقبة، مستعينًا على ذلك بالنقش على الطـــين والحجر والخشب أولاً، ثم بالتدوين على ورق البردي والرقوق، ثم بالكتابة على الورق آخر الأمر. ولعل أعظم ثمرة من ثمرات هذا التطور ظهور "الكتاب" بوصفه وعاءً للمعرفة، وأداة للتثقيف، ووسيلة لنشر الفكر الإنساني على مستوى العالم كلّه، من غير اعتبار لقيود الزمان أو المكان. وفي هذا الصدد يقول "مرشال ماكلوهان" Marshall Mcluhan: إن الكتاب قد أسهم في خلق الروح الوطنية، وتحرير كثير من القوى الاجتماعية، وساعد علـــى تعمـــيم التعليم وتطوير الصناعة والتجارة.[١]

وبذلك يكون الإعلام قد عرف ثورته الثانية، وهي ثورة كان سلاحها الحرف.

(ج) مرحلة الطباعة:

يُعتبر نشوء الطباعة المرحلة الثالثة من مراحل التطور الإعلامي. وإنما كان ذلك، أول ما كان، وتلك حقيقة تغفل عنها أَقلام الكثرة الكاثرة من الباحثين في القرن الثاني للميلاد، عندما شرع الصينيون ينقشون النصوص الدينية على الحجر ثم يحبّرون السطوح المرتفعـــة ويأخذون عنها عددًا من الطبعات impressions.

حتى إذا أطلّ القرن السادس للميلاد عرفوا الرواسم أو الكليشيهات الخشبية. ولعل أقدم أثر مطبوع بهذه الطريقة كان صلاة بوذية، طُبعت على رَوسم خشبي حوالى العـــام ٧٧٠ للميلاد.[٢]

---

(١) الدكتور أنيس مسلم، المصدر الذي سبق ذكره، الصحفة ٢٢-٢٣.

(٢) منير البعلبكي، المصدر الذي سبق ذكره، المجلد الثامن، الصفحة ٨٢.

هذا بالمعنى التاريخي للمصطلح، إذا جاز التعبير. أما الطباعة بمعناها المتعارَف عليه اليوم فقد وُلدت على يدي جوهان غوتنبرغ الذي اخترع الطباعة بالحروف المنفصلة في ما بين عامَ ١٤٣٦ وعام ١٤٣٨. ومنذئذ انتشرت هذه الطريقة المستحدثة في أوربا وشاع استخدامها بعد ذلك في أرجاء العالم كله.

وتُعتبر مطبعة بولاق التي أنشأها محمد علي باشا في مصر، عام ١٨٢١ [١] أعظم المطابع الرائدة في الوطن العربي، وكانت قد سبقتها إلى الظهور مطبعة أوربية أنشئت في "فانو" من أعمال إيطاليا، برعاية من الكنيسة الكاثوليكية، ولا يزال لدينا من إصدارها كتاب صلاة يرجع تاريخ طبعه إلى العام ١٥١٤[٢]، ومطبعة ديرمار يوحنا الصابغ التي أنشأها في الشوير الراهب اللبناني عبد الله الزاخر، المتوفى عام ١٧٤٨[٣] والمطبعة التي نهبها نابليون بونابرت من الفاتيكان، وحملها معه إلى القاهرة عام ١٧٩٨[٤].

ولقد كان من آثار اختراع الآلة الطابعة انخفاض في كلفة إنتاج الكتاب، وتكاثر في عدد النسخ المتداولة من الكتاب الواحد "وانتقالُ هذا العدد من مقام العشرات والمئات إلى مقام الآلاف والملايين"[٥] وتوسع في إنشاء المدارس ودُور التعليم، وتسارع في انتشار المعارف على نطاق واسع لم يكن للإنسان عهد به من قبل.

وهكذا تحقَّقت ديمقراطية الثقافة بعد أن أصبحت في متناول الناس على اختلاف طبقاتهم و لم تَعُدْ وقفًا على فئة منهم صغيرة. هذا على المستوى العالمي. أما في أوربا – مهد الآلة الطباعية – فقد أدى نمو صناعة الكتاب وازدهار تجارتها وتكاثر عدد مؤسسات

---

(١) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت الطبعة السادسة والعشرون، الصفحة ٤٢٥.

(٢) فيليب حتي، وأدورد جرجي، وجبرائيل جبور، تاريخ العرب، دار غندور، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٩٧٤م، الصفحة ٨٤٦.

(٣) رئيف خوري: التعريف في الأدب العربي، لجنة التأليف المدرسي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٦٢ الصفحة ٤٤٦.

(٤) فيليب حتي، وأدورد جرجي، وجبرائيل جبور: المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٨٤٣.

(٥)الدكتور محمد أحمد خضر: مطالعات في الإعلام، الطبعة الأولى،عام ١٩٨٧م، الصفحة ١١٧ (لا ذكر لمكان الطبع).

الطباعة إلى ضعف احتكار الكنيسة والأديرة للمعرفة والعلوم، مما جعل الطريق ممهّدًا أمـــام حركة الإصلاح الديني "[١].

وبذلك يكون الإعلام قد عرف ثورته الثالثة، وهي ثورة كـــان ســـلاحها الآلـــة الطابعة.

(د) مرحلة الصحافة:

الصحافة، في الأساس، صناعة جمع الأنباء، وإبداء الرأي فيها، وتقديمها إلى الناس بطريقة تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الصورة الممثّلة للحدث، وذلك على صفحات نشرة بخسة الثمن يومية الصدور في الأعم الأغلب. وقد اتسع مفهوم الصحافة في العصر الحديث فأخذت الصحف اليومية تُعنى، إلى جانب الأخبار، بأشياء أخرى غير الأخبار، فأفردت زوايا من صفحاتها، أو صفحات كاملة منها، للمقالات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية والتاريخية والأدبية والعلمية والنقدية والفنية والرياضية وغيرها، وعُنيت فضلاً عن هذا بالتعليق على الأحداث وبإجراء ما يُعرف بـــ"الحديث الصحفي" و"التحقيق الصحفي" وما إليهما. ولكن العنصر الأبرز في الصحيفة اليومية يظل برغم ذلك عنصر الخبر.[٢]

والصحف ليست كلها يومية. فهناك صحف تصدر أسبوعيًّا، وصحف تصدر شهريًّا، وأخرى تصدر فصليًّا. وهذه هي المجلات.

والمجلاّت بعضها ثقافي عامّ يحمل إلى قرائه قصصًا وقصائد ومقالات سياسية أو أدبية أو اجتماعية أو علمية مدروسة وموثقة وطويلة النفس عادة. وبعضها مقصور على حقل من حقول المعرفة فهو لا يقدّم إلى قرائه غير المقالات والبحوث الداخلة في نطاق تخصصه.

---

(١) الدكتور عصام سليمان عيسى: "تاريخ الاتصال ووسائله" مجلة الدراسات الإعلامية، العـــدد ٣٨ دمـــشق ١٩٨٧م، الصفحة ١٤.

(٢) منير البعلبكي، المصدر الذي سبق ذكره، المجلد السادس، الصفحة ٢١.

ومهما يكن من أمر، فقد كان نقل الأَخبار يتمّ منذ أقدم العصور، من طريق الشفة أو من طريق المراسلة. حتى إذا اختُرعت الآلة الطباعية في القرن الخامس عشر غدا نقل الأَخبار وقفًا على الصحف في المقام الأول. وإذا كان من المرجَّح أن تكون أول نشرة إخبارية مطبوعة قد ظهرت عام ١٤٥٧ للميلاد، فإن الإجماع منعقد على أن صحيفة فرانكفورتر جورنال Frakfurter Gournal التي صدرت عام ١٦١٥، وكانت أسبوعية، هي أولى الصحف الأوروبية العصرية، وأن صحيفة "ويكلي نيوز" Weekly News التي صدرت عام ١٦٢٢، وكانت أسبوعية أيضًا، كما يدل على ذلك اسمها، هي أولى الصحف الإنكليزية على الإطلاق. أما أولى الصحف العربية فكانت "الوقائع المصرية" التي أنشأَها محمد علي باشا في القاهرة عام ١٨٢٨.

والكلام على الصحافة لا يكتمل إلا إذا أشرنا، ولو إشارة عابرة، إلى وكالات الأنباء. ذلك بأَن هذه الوكالات تقوم بجمع الأخبار التي تمسّ الصالح العام، وتعمل على تزويد صحف العالم بأفضل سرد ممكن لأهم الأنباء الداخلية والخارجية، ومن هنا اعتُبرت دعامة أساسية من دعائم الصحافة المعاصرة، وجزءًا لا يتجزَّأ من بنيتها التحتيّة.

وبفضل وكالات الأنباء هذه، وفضل التقدم المتسارع الذي حققته الطباعة والتطور المذهل الذي شهدته وسائل التواصل السلكية واللاسلكية والإلكترونية في السنوات الأخيرة تمكنت الصحافة من إحراز الانتصار تلو الانتصار سواء على صعيد التوزيع وسعة الانتشار، أو على صعيد الأخبار والتثقيف أو على صعيد التوجيه والتنوير، أو على صعيد الإمتاع والتسلية، أو على صعيد تكوين الرأي العام. ومن هنا أمست وسيلة الإعلام الجماهيرية الأولى، وكان لها دور كبير في تعزيز ديمقراطية الثقافة.

والواقع أن الصحافة، كما يقول الأستاذ عبد اللطيف حمزة، هي "مرآة الأمّة، ولسانها الناطق بأفكارها وآرائها، ورغباتها وحاجاتها، وآلامها وآمالها" وهي إحدى القوى ذات السلطان في دورة الحياة الحديثة، ومن أجل ذلك عُدَّت السلطَة الرابعة في الدولة، "أي

السلطة التي هي في حوزة جميع القوى السياسية والتي تجسد، إلى حدّ ما، كل القوى الشعبية التي تعتبر نفسها غير ممثَّلة بالسلطات الثلاث التقليدية: التشريعية والتنفيذية والقضائية"(١).

ليس هذا فحسب، بل لقد ذهب برنارفْوَيَنْ voyenne إلى أبعد من ذلك فاعتدّها السلطة الأولى على اعتبار أنها تمثل تيارات الرأي، والرأي وبخاصة في الأنظمة الديمقراطية هو الذي يجسّد قِيَم المجتمع ويفرض ذاته على المشرع، وعلى السلطتين التنفيذية والقضائية أيضًا(٢).

هذا، وعن الصحيفة المطبعية انبثقت الصحيفة السينمائية، والصحيفة الإذاعية، والصحيفة التليفزيونية. ولن ينقضي غير وقت قصير حتى تصبح الصحيفة الإلكترونية في متناول الناس جميعًا(٣). وليس هذا بعجيب أَلبتَّة أن أصبحت بعض الصحف الكبرى تُطبع، اليوم، بين قارة وأخرى من طريق التواصل الفضائي(٤).

وبذلك يكون الإعلام قد عرف ثورته الرابعة، وهي ثورة كان سلاحاها الجريدة والمجلة.

(هـ) مرحلة الإذاعة:

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عرف العالم وسيلة إعلام جديدة نقلت التواصل من المرحلة المكتوبة إلى المرحلة المسموعة، وساعدت على "تصغير" العالم، إذا جاز التعبير، وربط بعض أجزائه ببعضها الآخر. ولم تكن هذه الوسيلة الجديدة غير المذياع أو الراديو.

---

(١) الدكتور أنيس مسلم، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٣٢.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ١٧٦.

(٣) الدكتور حسن صعب، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٢٢.

(٤) المصدر السابق، الصفحة ٢٥.

وإنما أُنشئت أولى محطات الإذاعة،في العالم، في الولايات المتحدة الأمريكية، عام ١٩٢٠. ومنذئذ انتشرت هذه المحطات في مختلف الأقطار وأصبح المذياع وسيلة تواصل جماهيرية تنقل الصوت، كلامًا كان أو نغمًا، إلى ملايين المستمعين في كل مكان. حتى إذا اختُرع الترانـــزستور غزت الإذاعة كل زاوية من زوايا الأرض، وبخاصة في بلدان العالم الثالث، وغدا في ميسور الناس أن يستمعوا إلى برامج الإذاعات المحلية والعالمية وهم في منازلهم أو في مكاتبهم أو في طريقهم إلى العمل أو خلال تنـــزههم في الحدائق العامة...

ليس هذا فحسب، بل لقد حلَّ المذياع في كثير من الأحوال محلَّ الجرائد والمجلات، سواء أكان ذلك على صعيد الإخبار أو على صعيد الإمتاع. وإن لم يوفَّق إلى حمل الناس على الاستغناء عن الجريدة أو المجلة، وكاد يحل محلَّ الكتب كوسيلة تثقيف وتوعية.

والحق أن المذياع قد عمل على تعزيز ديمقراطية الثقافة التي انبثقت مـــع اختـــراع الطباعة ونشوء الصحافة، وذلك من خلال ما راح يقدمه إلى مستمعيه، علـــى اخـــتلاف طبقاتهم، وبصرف النظر عن كونهم متعلمين أو أميين، من أحاديث أدبية ودينية وعلميـــة ومن برامج ثقافية أو تعليمية ميسرة. ولعل هذا هو الذي حمل الدكتور طه حسين علـــى اعتبار الإذاعة والتلفزة من العوامل التي تعوق الثقافة، ودفعه إلى القول بأنه كان يظـــن أن الراديو "سيكون أداة صالحة لنشر الثقافة والمعرفة في أعماق الشعوب فإذا بـــه يـــؤَدي إلى عكس ما كان يُرجى منه؛ ذلك لأن الإذاعة تريد أن تصل إلى طبقـــات الـــشعب علـــى اختلاف حظوظها من المعرفة، وهي من أجل ذلك مضطرة إلى أن تصطنع اليسر والسهولة لتبلغ هذه الطبقات المختلفة التي تتفاوت حظوظها من المعرفة.. وإذا اعتمدت الإذاعة على السهولة واليسر اضطرت إلى تجنب المعرفة الرفيعة والثقافة العميقة والواسعة"[1].

وأيًّا ما كان فقد وُفقت الإذاعة إلى الفوز برضا الجماهير العريضة بفضل هذا اليسر نفسه الذي يأخذه عليها الدكتور طه حسين، والذي لولاه لانفضَّ النَّاس من حولها كما ينفضُّون اليوم من حول البحوث المعمَّقة والكتب الموضوعة لخاصة المثقفين دون عامتهم.

---

(١) الدكتور عبد العزيز شرف، المصدر الذي سبق ذكره، ص ٢٣٠.

وبذلك يكون الإعلام قد عرف ثورته الخامسة، وهي ثورة كان سلاحها الصوت.

(و) مرحلة التلفزة:

ولم ينقض على اختراع المذياع غير ربع قرن حتى اختُرعت، في ما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٤ وسيلة تواصل جماعية جديدة عُرفت بالتلفزة، وقوامها تحويل مشهد متحرك وما يرافقه من أصوات إلى إشارات كهربائية ثم نقل هذه الإشارات وإعادة تحويلها من طريق جهاز الاستقبال إلى صورة مرئية مسموعة[1]. من هنا اعتُبرت خطوة على طريق الإعلام متقدمة على المذياع أو الراديو، إذ جمعت بين الصوت الذي هو ميزة الراديو وبين الصورة التي هي ميزة السينما، ومتقدمة على السينما أيضًا؛ لأنها عبارة عن شاشة سينمائية صغيرة تقدّم إلى المرء ضروبًا من الأفلام المشوقة، فضلاً عن آخر أنباء العالم وصنوف البرامج التثقيفية والترفيهية وهو مسترخ في منـــزله، لا يغادره إلى دور السينما كلما حلا له أن يشاهد ما يُعرض على شاشاتها الكبيرة من ذلك كله.

وسرعان ما غزا التلفاز في الأربعينيات من هذا القرن الكثرة الكاثرة من البيوت وبعض المعاهد والمؤسسات في كثير من بلدان العالم وأصبح علامة فارقة تميّز الحياة المعاصرة وضرورة لا يُستطاع تصوّر المدنية بدونها.

وكما ظُنَّ، في بادئ الأمر، أن المذياع سوف يغني الناس عن الجريدة أو المجلة ثم قام الدليل على أنه أعجز من ذلك فكذلك ظن في أول عهد الناس بالتلفزة أنها سوف تلغـــي الإذاعة أو تسدّ مسدّها، ولكنَّ تعاقب الأيام ما لبث أنَ خيّب هذا الظن وأثبت أنه كـــان مجرّد وهم كبير.

هذا، وقد خطت التلفزة في السنوات القليلة الماضية، بفضل التقـــدم التكنولـــوجي الحديث، خطوات واسعة إلى الأمام، فأصبح في إمكان الإعلامـــيين أن ينقلـــوا بـــرامجهم

---

(١) منير البعلبكي، المصدر الذي ذكره، المجلد التاسع، الصفحة ١٨٤.

التلفزيونية عبر الأقمار الصناعية. وأَخَذَ بلايين الأَشخاص يشاهدون في ساعة واحدة، وفي اللحظة عينها هبوط أول إنسان على سطح القمر، ويحضرون الألعاب الأولمبية، ويشاركون في اللقاء بين شخصيتين عالميتين في أي مكان من العالم[١]"

وبذلك يكون الإعلام قد عرف ثورته السادسة، وهي ثورة كان سلاحاها الصوت والصورة.

٣- أهميته ومستقبله:

تلك هي أبرز معالم التطور الإعلامي وأهم وسائله، منذ العهود السابقة! للتاريخ المدّون حتى الآن. فإذا أضفت إلى الوسائل التي تحدّثنا عنها وسائل أخرى لم يتّسع مجال البحث للكلام عليها، كالمنبر (الخطبة والمحاضرة والمناظرة) والمسرح والسينما والإعلان والعقل الإلكتروني أدركت أي مقام يحتلُّه الإعلام في دنيا الناس، وأيقنت أننا نعيش اليوم في عصر متميّز هو "عصر الإعلام" بعد أن عشنا منذ إطلاق أولى المركبات الفضائية "عصر الفضاء"[٢].

وسواء أصح هذا أم لم يصح فإن الإجماع منعقد على أهمية الآثار التي أحدثها الإعلام في حياتنا المعاصرة، وهو ما يتجلى لنا من قول مارشل ماكلوهان: إن وسائل الإعلام قد حوّلت العالم إلى "قرية عالمية صغيرة[٣]"، ومن نظريته الشهيرة التي ذهب فيها إلى القول: إن كل وسيلة إعلامية جديدة، من تلك الوسائل التي أشرنا إليها، هي امتداد تكنولوجي لحاسّة بعَيْنها من حواسّ الإنسان، "فالطباعة التي نشرت القراءة هي امتداد لحاسّة الإنسان البصرية، والإذاعة التي عمّمت الصوت، هي امتداد لحاسة الإنسان السمعية،

(١) الدكتور حسن صعب، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٢٤/٢٥.

(٢) الدكتور محمد حمد خضر، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ١٢٩.

(٣) الدكتور عصام سليمان عيسى، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ١٨.

والتلفزة التي أشاعت الصوت والصورة معًا هي امتداد للحاستين البصرية والسمعية، والعقل الإلكتروني الحافظ للمعلومات والمحلّل لها هو امتداد لذاكرة الإنسان وفكره "[١].

ويتوقع الباحثون أن يشهد الإعلام، عمّا قريب، مستجدات جديرة بأن تغيّر وجه الحياة الإنسانية. ومن هنا قالوا: إن التعليم في البيت سيحلُّ محلَّ التعليم في المدرسة، وإن عملية تكوين العقول وإعدادها لمواجهة الحياة ستعود مرة أخرى، ولكن على مستوى أرفع بكثير، إلى المنزل، وبذلك يمكن الاستغناء عن التعليم النظامي الذي يتلقاه الطلاب في المدارس على اختلافها[٢]، وقالوا أيضًا: إن المنزل سوف يصبح مركزًا إعلاميًّا ثنائيَّ التحرك، فيتلقَّى ساكن المنزل الجريدة التي يريدها، إلكترونيًّا أو تلفزيونيًّا، ويتبادل الآراء مع محرريها، ويختار البرنامج التلفزيوني أو الإذاعي الذي يفضِّل، ويبعث بالتعليقات الفورية إلى مخرج ذلك البرنامج، ويتسلَّم إلكترونيًّا صفحة الكتاب التي يحتاج إليها من المكتبة من غير أن يغادر منزله، ويُجري مناقشة إلكترونية تلفزيونية مع جيرانه وأعضاء ناديه وكل منهم ملازم داره، ويخاطب بجهاز هاتفي فضائي مخصوص كلَّ من يشاء وهو يشاهده وكأنه جالس معه "[٣].

وإذا اعتبرنا أن مراحل التقدم الإعلامي قد تمّت على نحو متسارع، بمعنى أن الفترة الزمنية الفاصلة بين المرحلة الأولى (مرحلة التصوير) والمرحلة الثانية (مرحلة الكتابة) قد نيّفت على ستة عشر ألف عام، وأن الفترة الزمنية الفاصلة بين المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة (مرحلة الطباعة) بلغت نحوًا من ثلاثة آلاف عام، في حين أن الفترة الزمنية الفاصلة بين المرحلة الخامسة (مرحلة الإذاعة والمرحلة السادسة (مرحلة التلفزة) لم تزد على ربع قرن.. أقول:إذا اعتبرنا هذه الصفة التسارعية التي طبعت تاريخ تطور الإعلام حقَّ لنا أن نكون

---

(١) الدكتور حسن صعب، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٧٠.

(٢) الدكتور عبد العزيز شرف، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٢٧٣.

(٣) الدكتور حسن صعب، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ٧٦.

على مثل اليقين من أن المستجدّات المستقبلية التي يتوقّعها الباحثون سوف تصبح حقيقة ملموسة بأسرع مما نتصور، وربما خلال سنوات معدودات لا تزيد على أصابع اليدين.

اللغة الإعلامية

١- طبيعتها ومزاياها:

إن مهمة الإعلاميّ، سواء أكان صحافيًّا أو إذاعيًّا أو مشتغلاً في حقل التلفزة، تقتضيه أن يواجه الجمهور يومًا بعد يوم، ليطلعه على أنباء الساعة، أو ليحللها له، أو ليبدي رأيه فيها وكثيرًا ما تقتضيه مهمته النهوض بأعباء أخرى كالإقناع والتوجيه والتثقيف، والتعبير عن موقف سياسي أو اجتماعي أو عقائدي معيَّن، والعمل على تجسيد آمال المجتمع وتطلعاته، فضلاً عن الإمتاع والمؤانسة وما إليهما.

وهذا الجمهور الذي يخاطبه الإعلامي جمهور عريض تتفاوت أعمار أفراده وحظوظهم من الثقافة والمعرفة. ففيه الكبير وفيه الصغير، وفيه الطالب وفيه المعلّم،وفيه الأديب وفيه المهندس والطبيب وفيه ذو الثقافة الرفيعة وفيه نصف المثقف بل والأُمي في بعض الأَحيان، وكلٌّ من هؤُلاء يتوقَّع أن تكون الوسيلُة الإعلامية "مفصَّلةً على قياسه" وأن ترفع (أو أن تهبط) إلى مستواه، والإعلاميُّ في حيرة من أمره.

وإذْ كان من هَمِّ الإعلاميّ أن يوصل "رسالته" إلى هؤلاء جميعًا، وإذْ كانت لغة الإعلام لغة تواصل في المقام الأول، فقد تعيَّن عليه أن يراعي مختلف المستويات والمدارك، فلا يقول كلامًا يعجز بعض من جمهوره عن فهمه، ولا يصطنع بيانًا يعجز بعضه الآخر عن تذوقه. وهذا ما حمل الدكتور إبراهيم إمام على القول: إن الإعلاميّ " مضطر إلى افتراض إنسان متوسط الثقافة يوجّه إليه إعلامه "[(١)].

وقد توسع الدكتور عبد العزيز شرف في الكلام على هذه النقطة فقال ما خلاصته: إن وسائل الإعلام، في سعيها الدائب لاجتذاب أكبر عدد ممكن من القراء أو المستمعين أو

---

(١) الدكتور عبد العزيز شرف، المصدر السابق ذكره، الصفحة ٦١.

المشاهدين، تتوجه إلى نقطة متوسطة افتراضية يتجمّع حولها أكبر عدد من الناس، ونادرًا ما تكون هذه النقطة هي أدنى المستويات. وإن رؤساء تحرير الصحف درجوا على توجيه المندوبين الناشئين إلى "ذلك الشخص الذي يحرّك شفتيه عندما يقرأ" يعني إلى الشخص الذي يمثل أدنى مستوى ثقافي بين قراء الصحف، وإذا كان هذا الشخص قادرًا على فهم الأخبار الصحفية فإن القراء الذين يفوقونه ثقافة قادرون على ذلك. وإنه لمّا كانت وسائل الإعلام تخاطب قارئًا أو مستمعًا أو مشاهدًا افتراضيًّا فليس عجيبًا أن تفتقد روح الألفة التي تسود عند الاتصال بشخص واحد. فالتقرير الذي تنشره صحيفة من حدثٍ ما، يفتقد كثيرًا من الألفة التي يتميز بها خطاب يرسله صديق إلى صديقه عن هذا الحدث[١].

وتفاوت أعمار الأفراد وحظوظهم من الثقافة والمعرفة ليس وحده ما يَحْكُم لغة الإعلاميّ وأسلوبه، فثمة عوامل أخرى تحكم هذه اللغة وذاك الأسلوب. ومن أبرز هذه العوامل " آنيّة " الخبر اليومي الذي يشكّل مادة الإعلام، ذلك بأن هذه "الآنيّة" ترسم للإعلاميين حدودًا لا يستطيعون أن يتخطوها، وهذه الحدود تُلزمهم باصطناع أسلوب في الكتابة لا يحتمل الحذلقة والتقعر والزخارف اللفظية.

ليس هذا فحسب، بل إن هذه الصفة "الآنيّة" التي تطبع النشاط الإعلامي تفرض على العاملين في هذا الحقل قيودًا من نوع آخر لا يفرضها الإنشاء الأَدبي أو العلمي أو الفلسفي أو الفني على أصحابه. فالأديب، كما يقول الدكتور محمد حمد خضر "حر" في أن يكتب في يومه عن أمسه السحيق لغده البعيد، وكذلك العالم والفيلسوف والفنان.

أما الصحافي فمُلْزَم أن يكتب في يومه عن يومه وليومه. أي أنه يكتب اليوم عن أحداث اليوم لقراء اليوم، ولا محلَّ في عمله للتأجيل ولا مجال للهروب من الماضي "[٢]

(١) الدكتور عبد العزيز شرف، المصدر السابق ٦٨، ٦٩.

(٢) الدكتور محمد حمد خضر، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ١٢٢.

وهذا ما يجعل الإنشاء الإعلامي متَّسمًا بطابع السرعة والاستعجال والسرعةُ والاستعجالُ عدوان لدودان للتدبّر والتعمّق.

وإذْ كان نقلُ الأخبار والتعليق عليها يحتّم الالتزام بالواقعية والموضوعية فقد تعيَّن أن تتَّسم لغة الإعلاميين بالطابع الواقعي والموضوعي. وفي هذا المعنى يقول الدكتور إبـــراهيم إمام: إن التحرير الإعلامي تحرير موضوعي يبتعد عن الذاتية التي يتَّصف بها الأديب مـــثلاً. "فالأديب يُعْنَى بنفسه، ويقدم لنا ما يجول في خاطره، ويسجّل ما يراه وفقًا لرؤيته الخاصة وبرموز تنمّ عن ثقافته وعقليته. وهو في هذا الصنيع يصف الـــنفس الإنـــسانية ويتعمّـــق أسرارها ويكشف عن حسناتها ومساوئها. ويكون لأوصافه صدىً في نفوس القراء من كل جنس، وفي كل عصر، ما داموا قادرين على قراءته وفهمه والاستفادة منه. فالأديب حــــرّ في اختيار ما يقول والقراء أحرار في قراءة ما يكتب الأَديب"[١] أما الإعلاميّ فـــلا يعبّـــر كالأَديب، عن أفكاره وتجاربه الخاصة. إنه يعبّر في المقـــام الأَول عـــن أَفكـــار المجتمـــع وتجاربه[٢].

وفي هذا أيضًا يقول الدكتور محمد حمد خضر "إن الكاتب الإعلامي لا يسخر قلمه لوصف مظاهر الطبيعة أو رسم طبائع البشر أو تصوير خلجات الـــنفس أو التعـــبير عـــن الانفعالات الوجدانية إلا إذا كان من شأن ذلك كله أن يؤدي إلى تكثيف الطاقة المحرّكـــة للرأي العام نحو الهدف الإعلامي المطلوب[٣].

ويقول في موضع آخر: يحقّ للأَديب والفنان والفيلسوف أن ينقلوا كلامًـــا عـــن أشخاص غير موجودين في الواقع يخترعهم الخيال وتولّدهم التصوّرات كما يحق للأَديب أن يستنطق الحيوان، وأن يُحيي الجماد، وأن يخلط بين الواقع والحلم. وليس للصحافي من هذا

---

(٢) الدكتور عبد العزيز شرف، المصدر الذي سبق ذكره، الصفحة ١٧.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١٨.

(٤) الدكتور محمد حمد خضر، المصدر السابق ذكره، الصفحة ١٣٣.

كله شيء فهو مُلْزَم بنقل وقائع الحياة الموضوعية بصورها الحقيقية بأكثر ما يمكن من الدقة وأكمل ما يكون من الموضوعية[1].

وعلى ضوء هذه الملاحظات كلها نخلص إلى القول: إن للإعلام لغته الخاصة التي تختلف عن لغة الأدب ولغة الشعر ولغة العلم، ذلك بأن لغة الأدب ذاتية في المقام الأول، ولغة الشعر مجنَّحة بالرؤى والأخيلة، ولغة العلم مثقلة بالمصطلحات الفنية والأسماء العلمية، أما لغة الإعلام فتتميّز، أول ما تتميّز، بالواقعية والموضوعية وتتّسم – أو يجب أن تتّسم بالبساطة، والوضوح، والسلامة، والإيجاز، والمرونة، والحَرَكية،والنفاذ المباشر والقدرة، على الإمتاع، فضلاً عن السلامة من الناحيتين الصرفية والنحوية.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن أسلوب الإنشاء الإعلامي يختلف باختلاف الوسائل والمؤسسات الإعلامية فهو في الصحافة غيره في الإذاعة أو التلفزة، وهي في مجلة "تايم" غيره في مجلة "نيوزويك". ليس هذا فحسب، بل إن أُسلوب الإنشاء الإعلامي يتفاوت تبعًا للمادة الإعلامية ذاتها، ضمن الوسيلة الإعلامية الواحدة فهو في الخبر غيرُه في التعليق، وهو في الصفحة الأدبية أو العلمية غيره في الصفحة الرياضية أو الفنية أو الإمتاعية، وهكذا.

وسنحاول في ما يلي أن نلقي نظرة عجلى على واقع لغة الصحافة العربية، وواقع لغة الإذاعة والتلفزة العربيتين.

٢– لغة الصحافة:

كانت الكتابة العربية في القرن التاسع عشر مكبَّلة بأغلال التقليد، رازحة تحت أثقال السجع، غارقة في لُجَج الجناس والطباق وما إليهما. وكانت برغم ذلك كله مهلهلة النسج، هزيلة المضمون، بعيدة كل البعد عن سحر البيان العربي وروعته. ولقد كان طبعيًّا

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٢٣.

أن ينعكس ذلك على لغة الصحافة منذ اليوم الأول لنشوئها فتنجرف في تيار السجع، وترسف في إسار الضعف وتتردى في مهاوي التكلف، وتعوزها جودة السّبك، كما نرى في افتتاحية العدد الأول من جريدة الوقائع المصريّة التي أنشأها محمد على باشا في القاهرة عام ١٨٢٨ والتي تُعتبر أقدم الصحف العربية على الإطلاق(١).

قال محرر "الوقائع":

"الحمد لله باري الأمم، والسّلام على سيد العرب والعجم. أما بعد، فإن تحرير الأمور الواقعة مع اجتماع بني آدم، المتدبّجين في صحيفة هذا العالم، ومن ائتلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم، ومعاشراتهم التي حصلت من احتياج بعضهم بعضًا، هي نتيجة الانتباه والتبصّر بالتدبير والإتقان، وإظهار الغيرة العمومية، وسبب فعّال منه يطلعون على كيفية الحال والزمان(٢).

وقد دفعت هذه الحقيقة أحدَ الغيارى على العربية إلى أن ينشر عام ١٨٨٦م في أحد أعداد مجلة المقتطف مقالاً شكى فيه من ركاكة الأُسلوب الصحافي كما يظهر في ما كان يُترجم من اللغة التركية وبعض اللغات الأجنبية الأُخرى، مقدِّمًا على ذلك أمثلة كثيرة داعيًا إلى "درء هذه المفاسد، ونبذ الكلام الركيك الفاسد"، وذلك بمطالعة كتب أئمة البيان العربي القدامى(٣).

ولئن كانت الصحافة قد وفقت، بعد انقضاء فترة يسيرة، إلى التغلب على هذه الركاكة وعلى غيرها من مواطن الضعف، إلا أنها عجزت عن التفلت من قيود السجع. ولعل خير دليل على هذه الواقعة افتتاحية العدد الأول فكأنما الدار زُوْن (أي موضع تُنصب

---

(١) وهذا ما يجعل تلك الافتتاحية أول مقالة تسطر في تاريخ الصحافة العربية.

(٢) أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، الطبعة السابقة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٢، الصفحى ٤٤٩.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فيه الأَصنام "، أو معرض فنون... وتدلّت الثريات كأنها أشجار مفتّحة الأَنـــوار، وكـــأن أقباسها آذان جياد، أو عيون جراد، أو قِطَع أفلاذ، أو صفائح فولاذ[١].

ومع ذلك فإن لغة الصحف لم تَنْج من نقد كبار اللغويين الذين تتبعوا سقطاتها وعملوا على تصحيح مغالطها. ولعل أشهر هؤُلاء الشيخ إبراهيم اليازجي الذي نشر في مجلة "الضياء" مقالات متتابعة عنوانها "لغة الجرائد" وقد صدرت هذه المقالات في ما بعد في كتاب يحمل الاسم نفسه، وذلك في القاهرة عام ١٣١٩ للهجرة. وقد قدم لهذا الكتاب بالقول: "إننا لا نـــزال نرى في بعض جرائدنا ألفاظًا قد شذّت عن منقول فأُنـــزلت في غير منازلها أو استُعملت في غير معناها فجاءت بها العبارة مشوّهة وذهبت بما فيها من الرونق وجودة السَّبك فضلاً عما يترتب على مثل ذلك من انتشار الوهم والخطأ، ولاسيما إذا وقع في كلام من يوثق به فتتناوله الأقلام بغير بحث ولا نكير "[٢].

والواقع أن كثيرًا مما أورده اليازجي في كتابه هذا يظل محلّ خلاف بين العلماء؛ لأنه استند في رفضه إياه إلى مجرد القول: إن كتب اللغة لم تنصّ عليه، وكأن كتب اللغة قد نصّت على كلام العرب كله، أو كأن كتب اللغة القديمة مفروض فيها أن تنصّ على ما قضت ضرورات هذا العصر باستخدامه. ومع ذلك فمن المفيد أن نورد هنا نماذج من الأَخطاء التي سردها؛ لأَنها تلقي الضوء على بعض عشرات الأقلام في زمن اليازجي؛ ولأَن عددًا غير يسير من هذه الأخطاءِ لا يزال يتردد صداه في صحفنا ومجلاتنا حتى يوم الناس هذا.

قال صاحب "لغة الجرائد": ويقولون: غصن يانع، أي: نضير أو رطب، وكذا زهرة يانعة وروض يانع، ولا يأْتي "ينع" بهذا المعنى، إنما يقال: ثمر يانع وينيع، أي ناضج، وقد ينع الثمر وأينع، إذا أدرك وحان قطافه...[٣].

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٤٥٢ أيضًا.

(٢) الشيخ إبراهيم اليازجي، لغة الجرائد، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، القاهرة ١٣١٩ للهجرة، الصفحة ٥-٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١١.

"ويقولون: ذهب الرجلان سوية، أي ذهبا معًا. وإنما السّوية بمعنى السّواء، يقال:قسموا المال بينهم بالسوية، وهذا حكم لا سوية فيه، وهي النَّصَفة والعدل[١]".

"ويقولون: هو يسعى لنوال بغيته وإنما النوال بمعنى العطاءِ، أي الشيء الذي يعطى، وليس بمصدر لنالَ، والصواب لنيل بغيته[٢]".

"ويقولون: نيّف وعشرون دينارًا فيقدمون النيّف، والمسموع تأخيره، يقال عشرون ونيف، ومئة ونيف[٣]".

ويقولون: هو مدمن على هذا الأمر، أي مواظب عليه، مديم لفعله، والصواب ترك الجارّ؛ لأن هذا اللفظ يتعدى بنفسه[٤]".

"ويقولون: عوّدته على الأَمر، وتعوّد عليه، واعتاد عليه، والصواب حذف الجارّ في الكلّ [٥]".

"ويقولون: رأيته أكثر من مرة، وجاءني أكثر من واحد. والظاهر أن هذا التعبير منقول عن التركيب الأجنبي. والعرب يستعملون لفظ غير: يقولون رأيته غير مرة وجاءني غير واحد؛ لأَن غير الواحد لابدّ أن يكون اثنين فما فوق[٦]".

ويقولون؛ رجل ثوروي على مثال فوضوي، أي من أصحاب الثورة وهم ثورويّون. ولا وجه لزيادة هذه الواو قبل ياء النسبة وكأَهم يتجافون عن أن يقولوا: ثوريّ؛ لئلا يلتبس بالمنسوب إلى الثور، إلى أن الثور لو فطنوا مشتق من الثَّوران؛ لأَنه يثور، أو لأَنه يثير الأَرض فالشركة حاصلة على كل حال[٧]".

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٨.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٢١.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٢٥.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٢٦.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة ٣٢.

(٦) المصدر نفسه، الصفحة ٤٩-٥٠.

(٧) المصدر نفسه، الصفحة ٥٢ – ٥٣.

وأيًّا ما كان، فقد خطت اللغة الصحافية منذ عهد الشيخ اليازجي، خطوات واسعة على طريق الصحة والنصاعة وحسن البيان، ووضعت ألفاظًا لم تكن، كالسيارة والدراجة والمجهر والهاتف والمُنطاد، واشتقّت صيغًا من بعض الأسماء مثل قَوْلَب من القالب، وموّل من المال، وبرمج من البرنامج، وقنّن من القانون، وعَلْمَنَ من العلمانية، وطور من الطور، وعلبَ من العلبة، ومصّر من مصر، ولَبْنَن من لبنان، وقيّم من القيمة، وجدولَ من الجدول، واستجوب من الجواب، واستشرق من الشرق. ليس هذا فحسب، بل لقد وفقت، فضلاً عن ذلك كله، إلى مخاطبة جماهير الشعب في غير ما ابتذال أو إسفاف، وإلى التعبير عن حاجات العصر مستوعبة خلال ذلك كل جديد في ميادين الفكر والعلم والاجتماع.

وإذا صحّ أن البلاغة، كما عرفها بعض شيوخنا القدامى، هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، فعندئذ يكون في ميسورنا أن نزعم أن لغة الصحافة قد بلغت اليوم مرتبة صالحة من البلاغة. وهذا ما أكد عليه نقيب الصحافة اللبنانية، محمد البعلبكي، بقوله: "إن لغة الصحافة العربية بوجه الإجمال لغة فصيحة يندر فيها الخطأ اللغوي، سواء من حيث قواعد النحو أو من حيث تركيب الجملة، بل إنها لغة ترتفع في بعض المقالات إلى درجة البلاغة، بكل ما في البلاغة من تحسين وإبداع[1]".

والحق أن الصحافيين المعاصرين لم يرتقوا بلغة الصحافة إلى مرتبة من البلاغة صالحة فحسب بل ارتقوا من طريق ذلك بلغة الناس اليومية أيضًا فهذّبوا حاشيتها،وأثروها بطائفة من الألفاظ والصيغ التي ابتكروها وعملوا على الترويج لها. وهكذا جرت على الألسن كلماتُ وتعابير مستحدثة ما لبثت أن أصبحت جزءًا لا يتجزأُ من اللغة المحكية. ومن الأمثلة على ذلك قولهم: السيارة والدّراجة، والقطار، والقاطرة، والمدمّرة، وجواز السفر، وتأْشيرة الخروج، وتذكرة الهوية، وحظر التجول، وصفارة الإنذار، والهاتف، والبرقية،

---

(١) محمد البعلبكي، من رسالة بعث بها إلى صاحب هذا البحث في نطاق استطلاع للرأي أجراه حول لغة الإعلام.

والديمقراطية، والدكتاتورية والأرستوقراطية، والبورجوازيــة والإشــتراكية، والــشيوعية، والتعاونية، والمأساة، والكارثة، والمهزلة، والتطبيع والتصنيع، والتطويع، والتعليب، والــبرج العاجي، وغزو الفضاء، والقمر الصناعي، والمركبة الفضائية وقولهم: "وضعه في الــصورة" "وبدأ العدّ العكسي" "وفاوض من موقع القوة "، وفقدت الدولة مــصداقيتها، وأعطــاه الضوء الأخضر"، "وشد الحزام "، "وعضّ على جرحه"، " و"انطوى على نفسه" و" لعب على ورقة الصراع الطائفي "وأحصى عليه أنفاسه"، و"خرج عن طوره"، و"خــرج مــن جلده"، و"دفع الثمن غاليًا"، و"ذرّ الرماد في العيون"و"دقّ ناقوس الخطــر"، و"تــوترت العلاقات"، "وتكهرب الجوّ"، و"قرأ ما بين السطور"، و"دخل التاريخ من أوسع أبوابــه"، و"على مستوى العاصمة أو الجمهورية ... إلخ"[١].

وهذه الملاحظة تقودنا إلى ثلاث ملاحظات متلازمة معها، **أولها**: أن الصحافة قد أنــزلت الأدب من برجه العاجي وَوَسَمته بسمَةٍ ديمقراطية جديدة فتعايش مع الناس وعُني بمعالجة قضاياهم اليومية والمصيرية. **والثانية**: أنها أعادت العربية إلى أصالتها بوصفها لغة أدب وعلم وحضارة بعد أن أحالتها عصور الانحطاط إلى لغة أدب وبديع وبيان ليس غير، **والثالثة**: أنها أغنت المعجم العربي بما استحدثه رجالها من تعابير فرضتها عليهم الأحداث الجارية أو حملتهم على ابتداعها ضرورات الترجمة عن مصادر الأنباء أو عن موارد المعرفة من كتب ومجلات علمية وموسوعات عامة[٢] فقالوا: سياسة المحاور، وسياسة اللاعنف، وسياسة الحياد الإيجابي وسياسة التمييز العنصري، وسياسة الاقتصاد الحرّ، وسياسة الاقتصاد الموجّه، وسياسة التهدئة، وسياسة الحافة أو سياسة حافة الهاوية،[٣]، وسياسة شدّ الحزام...

---

(١) من أراد التوسع في هذا الموضوع، فليرجع إلى كتاب الأستاذ أحمد أبــو ســعد: " معجــم التراكيــب والعبــارات الاصطلاحية القديم منها والمولد " الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧.

(٢) اجتمع لدينا خلال إعداد هذا البحث مئات من هذه التعابير، نكتفي هنا بذكر طائفة منها.

(٣) Brinkmanship.

وقالوا: الحرب الخاطفة، والحرب الباردة، وحرب الإبادة، وحـــرب الإذاعـــات، وحرب الإشاعات، والحرب بين الإخوة، وتوازن القوة، وتـــوازن الرعـــب، والتـــوازن الاستراتيجي، والغارات الجوية الوهمية، والانتفاضة الشعبية...

وقالوا: المقاومة السلبية، والعصيان المدني، والتعايش السامي، وحقـــوق الإنـــسان، والحقوق المدنية، وعواصم القرار، والإرهاب الدولي، وحمّام الدم، وبؤر التوتر...

وقالوا: العالم الثالث، الإصلاح الزراعي، والأَمن الغذائي، وبنك الدم، وإصـــلاحية الأحداث، والآثار الجانبية، واستطلاع الرأي، وناطحات السحاب، والضريبة التصاعدية، والحاسبة الإلكترونية أو الدماغ الإلكتروني، والعدّ العكسي، وغـــزو الفـــضاءِ، والقمـــر الصناعي والمركبة الفضائية...

وقالوا: حق النقض، والعملة الصعبة، والقطع النادر، والروتين الحكومي، ومجانيـــة التعليم، وديمقراطية الثقافة، ومسرح الدمى، ومسرح اللامعقول، ومسرح العبث، ودواليب الحظّ، ومحكمة التاريخ، والبنية التحتية، والتكامل الاقتصادي، والتبادل الثقافي، والمدرســـة النموذجية، والحلقة الدراسية، وقصر الثقافة وبيت الطلبة، والمدينـــة الجامعيـــة، والمدينـــة الصناعية، والمدينة الرياضية، ومدينة الملاهي، ومدينة الأشباح...

وقالوا: قصيدة النثر، وعروس المدن، وفتاة الغلاف، وملكات الجمـــال، والجريـــدة الناطقة، وكاميرا الأَخبار، ومجلة المجلات، ومجلة التليفزيون، والأُسلوب البرقي. والـــرقص التعبيري.

وقالوا: عقدة النقص، وتنازع البقاءِ، وبقاء الأَصلح، والـــصراع بـــين الطبقـــات، والمدارس الأدبية، والمجامع العلمية، والجماعات الأُصولية، وموضوع الساعة، وساعة الصفر ومقبرة المشاريع.

وقالوا: المعدن الأَصفر، والذهب الأَسود، والضوء الأَخضر، والخط الأحمر، والكذبة البيضاء، والانقلاب الأبيض، والثورة البيضاء، والسوق السوداء.

ويحسن بنا قبل الانتقال إلى الكلام على لغة الإذاعة والتلفزة أن ننصّ على أن الصحافة كان لها أكبر الفضل في نشوءِ فنّ "المقالة" الحديث؛ وذلك لحاجة الصحف والمجلات إلى معالجة مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفلسفية والتاريخية وغيرها في فصول مركزة لا تحتل من صفحاتها غير حيّز محدود، والحق أن " المقالة " استقطبت نفرًا من كبار كتّاب العصر، فانبروا إلى إمداد الصحف والمجلات بفيض خواطرهم ووحي أقلامهم. وقد جمع كثير من ثمرات هذا النشاط الخصب في كتب قيّمة أضافت إلى الأدب العربي ثروة جديدة.

٣- لغة الإذاعة والتلفزة:

إن ما ذكرناه عن لغة الصحافة ينطبق انطباقًا شبه كامل على لغة الإذاعة والتلفزة. ولا عجب، فقد بدأ الإعلام المسموع "الإذاعة" والإعلام المسموع المرئي "التلفزة" من حيث انتهى الإعلام المقروء، بمعنى أنهما لم يكونا في حاجة إلى تجشّم مشاقّ الرحلة الطويلة التي تعيّن على الصحافة القيام بها لكي تكشف لغتها المميزة. ومن هنا اتسمت لغتهما الفصحى، منذ البدءِ، بالبساطة والوضوح والإيجاز والمرونة والنفاذ المباشر والقدرة على الإمتاع، فضلاً عن السلامة النسبية من الناحيتين الصرفية والنحوية.

نقول: "السلامة النسبية"؛ لأَن مستوى لغة الإذاعة والتلفزة يبدو لنا دون مستوى لغة الصحافة، وهذا الهبوط في المستوى لا يتأتى دائمًا عن ضعف في النصوص المكتوبة. فالنصوص قد تكون خالية من الشوائب في كثير من الأحيان، ولكنه يتأَتى عن ضعف في الأداء ناشئ في أسوأ الأَحوال عن " أميّةِ " بعض المذيعين - وبخاصة في حقل التلفزة اللبناني وفي أحسن الأَحوال عن ضآلة حظوظهم من الثقافة اللغوية.

ذلك بأَن لِلُغة الإذاعة والتلفزة، بخلاف لغة الصحافة، وجهين اثنين وجه الكتابة، ووجه التلاوة. وهذا ما فصّله نقيب الصحافة في لبنان محمد البعلبكي في قوله: "إن ما قد

يختفي وراء الحرف المطبوع في الصحافة ينكشف على لسان المذيع أو المتحدّث في الإذاعة والتفزيون... وإن أبرز ما تعانيه اللغة العربية في هذا المجال هو ما اتصل بمخارج الحروف من حيث التفخيم والترقيق، وما اتصل أيضًا بلجوءِ المذيعين إلى اعتماد تسكين أواخر الكلمات باستمرار، مما ينبئُ عن جهل ويؤَدي إلى تقطيع الجُمَل تقطيعًا يُفسد المعنى أو يؤْذي بلاغة الأَداء، حتى إذا أقلع المذيع عن التسكين وقع في أخطاء نحوية من مثل خفض المنصوب أو نصب المرفوع أو تأْنيث المذكر وتذكير المؤنث ومختلف الضمائر العائدة إليهما[1].

وقريب من ذلك قول فيكتور سحاب في كتابه: "أزمة الإعلام الرسمي العربي": "وفي هذا النطاق يدخل أمر تحريك أَواخر الكلمات. ذلك أن عجز معظم المذيعين عن التحريك السليم ألجأهم إلى اتباع أُسلوب بشع في الإلقاءِ يقضي أن يسكنوا آخر كل كلمة ويقطعوا انسياب الجملة التي يجب أن تكون متصلة بفضل الحركة في آخر كل كلمة.. وفي هذا النطاق أيضًا يدخل أمر التفخيم والترقيق. ومعظم المذيعين الآن لا يعرفون أيّ الحروف تُفخَّم وأيها ترقق[2].

وقوله في موضع آخر: "إن مذيعينا توقفوا منذ ردح من الزمان عن السعي إلى اللفظ السليم والتحريك الصحيح، بل توقفوا عن التحريك على الإطلاق فقطّعوا الكلام كلمة كلمة... وفقدوا الحسّ بالإيقاع العربي للكلم، والتنغيم السليم للجملة وفي الماضي لم تكن تلك هي حال الإعلام الرسمي. كنا نستمع إلى مذيعين هم أشبه بالأُدباءِ منهم بالنمط الذي نعرف اليوم، لقد نما حجم الإعلام وعظم شأنه ولم يواكب ذلك نماء في كفاءة العاملين فيه، بل أدّت الحاجة الكثرة إلى التساهل في المعايير[3]".

---

(١) محمد البعلبكي، المصدر السابق ذكره.

(٢) فيكتور سحاب: أزمة الإعلام الرسمي العربي، الطبعة الأولى، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥، الصفحة ٩٧-٩٨.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٢٠-٢١.

ويتجلّى ضعف المذيعين اللغوي في مجالات غير هذه أيضًا. ذلك أن نفرًا غير يسير منهم يجهل في الأعم الأغلب معاني الحروف ومواضع استعمالها، ولا يميز بين همزة القطع وهمزة الوصل فهو يصطنع الأولى حيث ينبغي أن تُصطنع الأخرى، ولا يراعي أحكام العدد، ولا يكسر همزة "إن" بعد فعل القول، ولا يُكلف نفسه عناءَ ضبط عين الفعل من طريق العودة إلى المعجم.

هذا فضلاً عن بعض الأخطاء المفردة التي يرتكبونها عادة، من مثل قولهم: "احتَضر" بدلاً من "احتُضر" وقولهم: "اضطُرَّ إلى كذا" بدلاً من "اضطَرَّه الأمر إلى كذا" متوهمين أن هذا الفعل لا يأتي بغير صيغة المجهول ألبتَّة، وقولهم "مزقَّه إرَبًا إرَبًا" بدلاً من "مزَّقه إرْبًا إرْبًا"، ومن عجب أن اليازجي نبه على هذا الخطأ في كتابه "لغة الجرائد" منذ مئة عام على وجه التقريب، ومع ذلك فلا تزال طائفة من المذيعين تقع فيه، وقولهم: "عن كَثْب" بدلاً من "عن كَثَب" وقولهم: "الأزَمة"، بدلاً من "الأزْمة"، وقولهم: "المُعْدَم"، بمعنى المعوز والفقير بدلاً من "المُعْدِم"، وقولهم: "من جراءِ" بدلاً من "من جَرّاءِ"، وقولهم "إحدى المستشفيات" بدلاً من "أحد المستشفيات"، وقولهم: "غادر سماحتُه إلى الديار المقدسة" بدلاً من "غادر سماحته العاصمة أو المدينة إلى الديار المقدسة" غافلين عن أن "غادر" فعل متعدٍّ وليس فعلاً لازمًا، وقولهم: "سوف لن يحضر" بدلاً من "لن يحضر"، وقولهم "نفَّذت بيروت إضرابًا شاملاً، بدلاً من " أضربت بيروت إضرابًا شاملاً "، وقولهم: " نفَّذ طيران العدو غارة على الجنوب" بدلاً من "قام طيران العدو بغارة على الجنوب" أو "شنَّ طيران العدو غارة على الجنوب"، وغير ذلك مما سمعناه ودَوَّناه في أثناء إعداد هذا البحث.

وأيًّا ما كان، فرفْعُ مستوى لغة الإذاعة والتلفزة ليس بالأمر العسير إذا صدقت النيّات وصح منا العزم، ونحن نقترح توصلاً إلى ذلك بالأخذ بالتوصيات التالية:

١- إنشاء فروع في كليّات الإعلام لتخريج المذيعين والمذيعات، وبخاصة في علمي الصرف والنحو وفي الأدب العربي وتاريخه.

٢- العناية في هذه الفروع بتدريس القرآن الكريم وعلومه، وبخاصة علم التجويد، لما لذلك من أثر بعيد في تقويم ألسنة الطلاب، وإثراء ثقافتهم اللغوية، وفتْح أعينهم على جمالية " العربية " وأسرار بلاغتها.

٣- قَصْر إسناد وظيفة المذيع أو المذيعة على خريجي هذه الفروع وخريجاتها.

٤- إخضاع من تختارهم هيئة الإذاعة أو هيئة التليفزيون، لهذه الوظيفة، لدورة تدريب يركّز فيها في المقام الأول على حسن الأداءِ وجودة الإلقاء.

٥- تعويد المذيعين والمذيعات مراجعةَ المعاجم ابتغاءَ التأكد من صحة ما يستعملون من ألفاظ سواء من حيث المعنى أو من حيث البنية، وابتغاء ضبط عين الفعل الثلاثي في الماضي والمضارع، وما إلى ذلك.

٦- إنشاء هيئة مراقبة مهمّتها الاستماع إلى المذيعين والمذيعات، على نحو موصول، وتسجيل الأخطاء التي يقعون فيها وإرشادهم إلى وجه الصواب في كل منها بعد انقضاء الفترة الإذاعية.

ومهما يكن من أمر، فإن مشكلة الأداء والإلقاء ليست العقبة الوحيدة التي تعترض سبيل لغة الإعلام الإذاعي والتلفزيوني وتهبط بها إلى ما دون مستوى لغة الصحافة باعتبار أن الصحافة ليس عندها مشكلة أداءٍ وإلقاء... ذلك بأن ثمة مشكلة أخرى عانى منها الإعلام الإذاعي والتلفزيوني منذ نشأته، ولا يزال، في حين ظلّت الصحافة في نجوة من مفاعيلها السلبية منذ اللحظة الأولى حتى اليوم. عَنَيْت مشكلة العامية والفصحى، وهي أشدّ خطرًا وأكثر تعقيدًا من مشكلة الأداءِ.. والإلقاء.

وواضح أن نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية تقع خارج مشكلة العامية والفصحى هذه، لأنها حُرّرت أول ما حررت - ولا تزال تحرَّر إلى الآن - بالعربية الفصحى. ومن هنا اقتصرت هذه المشكلة على مختلف البرامج الإذاعية والتلفزيونية باستثناء النشرات الإخبارية.

والحق أن الكثرة الكاثرة من الذين كتبوا أو ألفوا في موضوع الإعلام توقفت عند هذه المشكلة وحاولت أن تبدى رأيًا فيها، أو تقترح حلاً لها.وإذْ كانت هذه الآراء وتلك الحلول تلتقي كلها عند نقطة مركزية واحدة، فقد رأينا أن نورد في ما يلي نموذجين اثنين منها ليس غير.

أولهما: قول الدكتور فؤَاد زكريا: "وفي الإطار ذاته، إطار نشر الثقافة، تندرج مشكلة اللغة الفصحى واللهجات العامية، ومن هنا رأى البعض أن التوجه إلى الجماهير العربية من خلال اللغة الفصحى وحدها هو أشبه بصرخة في الفلاة، لا تجد من مستجيب، وأَكدَّ هذا البعضُ أنك إذا أَردت أن تسمعك الجماهير حقًّا، وتستجيب لندائك، فلا مفر لك من التضحية برونق الفصحى، ومن مخاطبة هذه الجماهير باللغة التي تحيا بها حياتها اليومية وتعبّر بها عن انفعالاتها وتشرح من خلالها أحاسيسها وأستطيع أن أقول: إنه إذا كان هناك أي حل لهذه المشكلة فإن أقرب الأَجهزة إلى تحقيق هذا الحل هو الإذاعة المرئية، ففي استطاعتها أن تستخدم في برامجها المختلفة لغة عامية ممزوجة بالفصحى مزجًا يزداد قوة بالتدريج، وأن تعوِّد الجماهير العربية - دون نقلة مفاجئة - على أن تأْلف سماع الفصحى والتعبير عن نفسها من خلالها، وذلك بأن تضع خطة مدروسة للغة المستخدمة في برامجها، حتى الترفيهية منها، وكلنا نعلم أن هناك عامية تتضمن كثيرًا من التعابير الفصيحة، وأن هناك لغة متوسطة، لا هي بالعامية الخالصة، ولا هي بالفصحى الكاملة. مثل هذه اللغة إذا استُخدمت على نطاق واسع وازداد نصيب الفصحى فيها بالتدريج كانت كفيلة بأن تعيد إلى اللسان العربي وحدته دون عناءٍ كبير".

وثانيهما: قول الدكتور نديم نعيمة، أستاذ الأدب العربي الحديث في الجامعة الأميركية في بيروت: "الواضح في نظري أن مشكلة الإعلام عندنا هو أنه ما يزال يتعثَّر غالبًا بين عامية وفصحى متنقلاً بين لغتين اثنتين بلغتا في تباعدهما حد الاستقلالية، بحيث

أصبح لكل منهما دائرتها وجمهورها. فكأن الإعلام إذ يعتمد الواحدة أو الأخرى إنما يتوجه إلى فئة من فئتين مستقلتين في المجتمع الواحد. المنتظر من إعلامنا، وهو ما بدأنا نرى بوادره، خاصة في لبنان، ليس أن يهرب من الفصحى إلى العامية بهدف التعميم، أو من العامية إلى الفصحى توسيعًا لدائرة الانتشار، بل أن يخلق لغة هي "عامية الفصحى" تمامًا كما هو حاصل في لغات العالم المتقدم. فهناك "عامية الإنكليزية" لا الإنكليزية العامية، وهناك "عامية الفرنسية" لا الفرنسية العامية، وكذلك هي الحال في الألمانية والإيطالية والإسبانية وغيرها. "عامية العربية" ليست اللغة المحكية بل هي الفصحى وقد أكسبها الاستعمال ما للعامية من حركية وأسقط عنها الكثير من أصولية أرستقراطيتها اللفظية والإعرابية والبلاغية والبيانية وغيرها دون أن يحوّلها إلى لغة عامية مستقلة "[١]

ولئن كان نطاق هذا البحث لا يتسع لمزيد من التفصيل، فإنه لن يضيق ببضع ملاحظات تختصر رأينا في هذه المشكلة:

١- إن لغة الإذاعة والتليفزيون مرشحة لأن تكون هي لغة الناس المحكية في المستقبل، بل لغة العرب الجامعة لهم، وذلك نتيجة لاستماع الجماهير إليها على نحو موصول، ونزوعهم إلى محاكاتها على نحو لا واع. ومن هنا تعيّن أن تُدرس أعمق الدرس وتُرسم لها الخطط العلمية التي تفضي إلى حلّ مشكلتها حلاً نهائيًا.

٢- إن كل حلّ صحيح لهذه المشكلة يجب أن ينطلق من حقيقة أساسية هي أن الفجوة بين العامية والفصحى واسعة إلى حدّ يتعذّر معه ردمها في فترة قصيرة. وهذه الحقيقة تفرض علينا أن لا نتعجل الحلّ المنشود وأن نعمل على بلوغه خطوة خطوة ومرحلة بعد مرحلة.

وتأسيسًا على هذا، نرى أن تكون لغة الإذاعة والتلفزيون في الوقت الحاضر على الأقل وريثما تصبح هذه اللغة لغة الناس المحكية في يوم من الأيام - على مستويات ثلاثة:

---

(١) الدكتور نديم نعيمة، من رسالة بعث بها إلى صاحب هذا البحث، في نطاق استطلاع للرأي أجراه حول: لغة الإعلام.

(أ) مستوى "العربية الفصحى".

والواقع أن الإعلام المسموع والإعلام المرئي اصْطَنعا هذه اللغة، منذ نشأتهما الأولى، وفي نشراتهما الإخبارية كلها، ولا يزالان. ونحن نقترح أن يصطنعاها أيضًا في كل ما يقدمانه إلى المستمعين والمشاهدين من أحاديث، وندوات ثقافية، وبرامج تعليمية، ومقابلات مع رجال الفكر والسياسة. ..إلخ.

(ب) مستوى "اللغة المتوسطة".

وهي اللغة التي تقع في منزلة بين منزلتي العامية والفصحى، والتي أطلق عليها الدكتور نديم نعيمة اسم "عامية الفصحى".

ونحن نرى أن يصطنع الإعلام الإذاعي والإعلامي التلفزيوني هذه اللغة في برامجهما الترفيهية على اختلاف أنواعها.

(ج) مستوى "اللغة الدارجة".

ونعني بها العامية المهذبة بعض الشيء، والمرشحة لأن تهذَّب باستمرار، وعلى نحو تدريجي، كلما آنس رجال الإعلام استعدادًا من جمهور المستمعين والمشاهدين لتقبّل هذا التهذيب ومقدرة على استيعابه.

ونحن نذهب إلى القول بأن التمثيليات الإذاعية والتلفزيونية كلَّها يجب أن تُكتب بهذه اللغة إلا إذا كانت تمثيليات تاريخية أو مترجمة عن إحدى اللغات الأجنبية.

٤- إن لغةً إعلامية موحَّدة لابدّ أن تنبثق مع الأيام، وعلى نحو طَبَعيّ من المستويات اللغوية الثلاثة التي ذكرنا، وبذلك تحلُّ مشكلة العامية والفصحى في الإذاعة والتلفزيون، وتمهَّد الطريق إلى حلّها في حياة الناس اليومية أيضًا.

*   *   *

العربية الفصحى والعامية في الإذاعة والتلفاز(*)

للدكتور عبد الكريم خليفة
(عضو المجمع)

أولى مجمعنا العتيد في القاهرة موضوع العربية الفصحى والعامية اهتمامًا كبيرًا، فجعله محور مؤتمره السنوي في عدة دورات. وهو يبغي من ذلك كله محاصرة العامية والارتفاع بها إلى الفصحى، وبالتالي القضاء عليها في مختلف مستوياتها وفي جميع أقاليمها وبيئاتها في الوطن العربي. وهذا عمل جليل يضاف إلى أعماله الرائدة في خدمة الفصحى لغة الأمة الجامعة ولغة تراثها ولغة عقيدتها.

إن اللغة العربية لغة كتابة وخطاب في العصر الحاضر، ويصدق عليها ما يصدق على جميع اللغات الحيَّة في العالم. وإن خصوصيتها تنبع من كون الفصحى لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فهي اللغة الموحِّدة منذ أصبحت لغة الوحي، وهي لغة الإبداع في مختلف نواحي المعرفة الإنسانية، في الآداب والعلوم والفكر والفنون، في حضارة عربية إسلامية أصيلة، ولعدة قرون. وهذه الفصحى تعني في جميع الأحوال لغة الكتابة، سواءٌ أكان ذلك في مجال التأليف، أم التعليم، أم في مجال المراسلات السياسية والإدارية، وفي مختلف جوانب الحياة الثقافية والفكرية والدينية.

وإلى جانب العربية المكتوبة، نرى العربية المحكية أو لغة التخاطب. وإن لغة التخاطب، لا تعني بالضرورة اللغة العامية، فلغة التخاطب تختلف عن اللغة المكتوبة في جميع اللغات.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثالثة من مؤتمر المجمع، في الدورة السادسة والستين، في ٤ من أبريل سنة ٢٠٠٠م، ونشر بمجلة المجمع بالجزء الحادي والتسعين، ص٦٧.

فالإشارة ونغمة الصوت والانفعالات الجسمية والعاطفية ومختلف الأوضاع النفسية والبيئية، تشكل عوامل مهمة في اللغة المحكية، لغة التخاطب. ويأتي موقعها بين اللغة الفصحى، اللغة المكتوبة واللغة العامية، ففي عهد الازدهار الحضاري، وانتشار التعليم، واختفاء الأمية عند بعض الشعوب، نجد اللغة المحكية تقترب كثيرًا في مفرداتها وتعابيرها من اللغة المكتوبة، ولكنها لا يمكن أن تكون هي نفسها في نظمها وأساليبها وبلاغتها.

وفي زمن التخلف الحضاري، والتردي الثقافي، والانهيار القومي تتردى اللغة القومية وكذلك اللغة المحكية حتى تصبح الأخيرة هي ذاتها اللغة العامية مع اختلاف في المستويات بين الشرائح الاجتماعية.

واللغة العامية، لا تعني بالضرورة اللغة الشعبية أو ما يسمونه في الوقت الحاضر لغة التراث الشعبي. وربما كان أقرب إلى الصواب إذا قلنا: إنها تستوحي معناها من لفظة "عامي" بمعناها الاصطلاحي صفةً للإنسان الجاهل. فالإنسان العامي، هو الإنسان الذي لا يقرأ ولا يكتب. وإن العاميَّة هي لغة هذه الشريحة أو الشرائح من المجتمع. وتختلف مستوياتها اللغوية في الخطاب باختلاف النسيج الاجتماعي للأفراد والجماعات من حيث المكانة الاجتماعية، ومن حيث الغنى أو الفقر، ومن حيث الذكاء والقدرة على الإبداع.

ويقودنا البحث العلمي المتأني لتاريخ الفصحى منذ أن أصبحت لغة الوحي الإلهي، وعبر عصور الحضارة العربية الإسلامية، حتى يومنا هذا، إلى أنها قد اكتسبت جميع مقومات اللغات الحيَّة، فاستطاعت أن تعبر عن دقائق الفكر الإنساني، واستوعبت حصيلة ما وصل إليه الفكر الإنساني في جميع ميادين المعرفة، وفي مختلف الحضارات، وخاصة ميادين الإبداع في الآداب والعلوم والفنون.

وخلاصة القول:فإن هذه الفصحى كانت ملازمة لوحدة الأمة وتقدمها العلمي وازدهارها الحضاري.

ولا يمكن أن يدور في الخيال، أن اللغة المحكية قد توقفت، حتى في أوج القوة السياسية وازدهار الحضارة العربية الإسلامية، أو أن العامية في أكثر أوضاعها خشونة وجلافة، وفي أبعد مستوياتها عن استيعاب دقائق الفكر، وتجسيد القيم السامية، قد اختفت أو زالت. وإن الذي لا شك فيه هو أن جميع هذه المستويات اللغوية كانت موجودة. وأن التمايز بينها قوةً وانتشارًا كان يخضع لعوامل التقدم وعوامل الانحطاط، لعوامل الازدهار العلمي والحضاري ولعوامل التخلف والهزائم. فلم يكن الصراع في جميع هذه الحقب، بين العربية الفصحى والعاميات العربية، وإنما كان الصراع بين القوة والضعف، بين الوحدة والتشتت، بين العلم والجهل، بين عوامل الازدهار الحضاري وأسباب التخلف.

وكانت العربية الفصحى في جميع الأحوال، بل وفي أشدها ترديًا الهدف الأسمى الذي يسعى إليه الناس في مجال الكتابة والخطابة، تعلمًا وإتقانًا. وكانت المستويات اللغوية تتفاوت من حيث القيم والمفاهيم حسب بعدها أو قربها من اللغة الفصحى. وقد يشوب اللحن اللغة الفصحى أو يخالطها إلى حد كبير، ولكن لم يكن ذلك يعني شرعية الكتابة بالعامية، فاللحن في اللغة الفصحى شيء والعامية شيء آخر... استطاعت العربية الفصحى بما أحاطها الناس– العامَّة منهم والخاصة من حبٍّ وتقدير واحترام أن تخرج سليمة من محنة تأخر الأمة العربية وغوصها في ظلمات الجهل والتخلف. .. ولم تشكل العاميات في بيئاتها وأقطارها المختلفة خطرًا كبيرًا ينال من اللغة الفصحى. وكلما عظمت الأخطار كانت تتراجع الفصحى إلى قلاعها الحصينة في حلقات المساجد والكتاتيب، حول القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. .. وإلى المؤسسات العلمية التي حافظت على كيانها عبر العصور، في جامع القرويين بفاس، وفي جامع الأزهر بالقاهرة، وفي جامعة الزيتونة بتونس، وغيرها من المراكز الثقافية والتراثية مثل النجف وبغداد ودمشق والقدس. ..

وأن الذي لا شك فيه أيضًا، أن أصحاب الكفاءات الأدبية والتقنية من عامة الناس، كانوا يعبرون عن أحاسيسهم، ويصورون وقائع حياتهم، ويصفون نزاعاتهم وغزواتهم

بالشعر العامي، الذي كان يطلق عليه بصورة وأخرى "الزجـل" ويسمونه الآن الـشعر العامي، وفي بعض الأقطار العربية يسمونه "النبطي".. وما كان يدور في خلد أحد أن هذا اللون من الأدب يزاحم العربية الفصحى أو يشكل خطرًا عليها، وإنما كان يمثـل واقعًـا اجتماعيًّا أصابه الجهل والتخلف، فقد صوَّر المبدعون من شعراء البادية ومن شعراء العامية جوانب حياتهم المختلفة، وصوروا أحاسيسهم ومشاعرهم أصدق تصوير. ولكن التواصـل بهذا الأدب وتذوقه والانفعال به، لا يتجاوز دائرة العامية لتلك القبيلة أو المناطق التي تنطق بها. وهي على كل حال عامية منطوقة غير مكتوبة. وما كان لهذه العامية أو الشعر العامي أن يكتب؛ لأن الكتابة تفسد عليه سحره وتأثيره في جمهور السامعين.

وبقي هذا الحال حتى القرن التاسع عشر، عندما بدأت الجيوش الاستعمارية تغـزو مختلف الأقطار العربية في الجزائر، وتونس، ومـصر، والمغـرب، وبـلاد الـشام، وأرض الرافدين. وبدأت تتسلل بأقنعة مختلفة إلى الجزيرة العربية. وكان إقصاء العربية الفصحى عن مجالاتها الحيوية في مختلف مناحي الحياة العلمية والإدارية ومحاصرتها مـن أهـم أهـداف المخططات الاستعمارية، فبدأ الاهتمام المنظم باللغات العامية المعاصرة. وبدأت الدراسات الموجهة لوضع قواعدها في النحو والصرف والنُّطق، والانتقال بها من لغةٍ منطوقةٍ محكية إلى لغة مكتوبة، ومن لغةٍ خشنةٍ جلفة، تحمل القيم الإقليمية والقبلية ومفاهيم الغزو والتخلـف إلى لغةٍ وطنيةٍ، على حدِّ تعبير أنصار العامية ومحبيها، تحل محل العربية الفصحى.

وأحدثت فيما بعد وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ثورة لغوية ومعرفيـة في القرن العشرين، فكان للصحف الريادة التاريخية في الوطن العربي. ونحن إذا استثنينا عددًا قليلاً منها خضع لتوجهات وظروف معينة، نرى أن الصحافة بصورة عامة، كان لهـا دور إيجابي في دعم العربية الفصحى وتطوير أساليبها، ورفدها بأساليب ومـصطلحات تيـسر استعمالها في مختلف مجالات الحياة.

وقد تسارعت التطورات في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، منذ النصف الثاني من القرن العشرين، وكان للحرب العالمية الثانية دور أساسي في تطور وسائل الإعلام المسموعة (الإذاعة)، وكذلك في وسائل الإعلام المرئية (التلفاز)، فوجهت البرامج الإذاعية إلى عامة الجماهير العربية في مختلف أقطارها من أجل تعبئة المشاعر وتوجيه الرأي العام، وذلك من خلال تضييق شقة الاختلاف بين الفصحى والعاميات المحلية، فساهمت الإذاعة منذ البداية في إحداث تطورات جديدة في لغة المجتمع إلى جانب المؤسسات الإعلامية والتعليمية الأخرى، فكان على وسائل الإعلام في استعمالها اللغوي أن تميز بين ثوابت اللغة العربية الفصحى المتمثلة بنحوها وصرفها ونظمها، وبين ما هو عارض ومتبدل في مفرداتها ودلالات معانيها وأساليب تعبيرها. . فكانت لغة الإعلام الإذاعي الموجهة إلى جماهير الأمة، من متعلمين وأميين تمثل مستوى من مستويات اللغة الفصحى للتعبير عن معاني الحياة الجديدة في تحولها إلى متطلبات الحياة العصرية.

وإنه لمن بدهيات الأمور- وما عليه التطور اللغوي في مساره الطبيعي- أن توجه أجهزة الاتصالات الجماهيرية المسموعة والمرئية لنشر اللغة العربية الفصحى وتعميم خصائصها الأصيلة وصفاتها الذاتية، فالإذاعة والتلفاز تشغلان مكانة متميزة للارتفاع بالعاميات إلى مستوى العربية الفصحى، والنهوض بها والسمو بأساليبها وتعدد فنون القول فيها، من حيث كونها لغة الأمة الجامعة والموحدة.

وتسهم هاتان المؤسستان، من خلال اللغة الفصحى في رقي تفكير الأمة بما تحمله من قيم وعقيدة وموروث حضاري، وبما تدخله وما تشيعه من مفردات ومصطلحات علمية وحضارية جديدة، ومن المفروض أن يتم ذلك كله وفق خطة لغوية، تلتزم بها أجهزة الاتصال الجماهيرية بصورة عامة، والإرسال الإذاعي والتلفازي بصورة خاصة. ومحور هذه الخطة: الحرص على القواعد الأساسية في النحو والصرف والبلاغة، وتوجيه العناية إلى ما تختص به أساليب العربية الفصحى من بساطة وإيجاز ودقة ووضوح. ومن المفروض أن

تتضافر الجهود لوضع المصطلحات الجديدة وتوحيدها في الوطن العربي كي تحتفظ العربية الفصحى بدوام وحدها، لغةً للحياة والفكر والعلم والعقيدة.

ومنذ حوالي النصف الثاني من القرن العشرين، شاع الإرسال الإذاعي في مختلف الأقطار العربية، وترتب عليه مسؤولية عظمى نحو جماهير المستمعين في توعيتها وتثقيفها وتعبئة الرأي العام وتوجيهه، فأصبحت الإذاعة قوة حيوية فاعلة في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والدينية والثقافية.

وجاء الإرسال التلفازي وأصبح له جماهير واسعة من المستمعين والمشاهدين؛ فأجهزة التلفاز تعتمد على ما يسمى بالشاشة الصغيرة، وهي تجمع المسموع إلى المنظور، وتستغل الصورة والصوت، والإرسال التلفازي يفضل الإرسال الإذاعي من هذه الناحية. وقد شاعت الشاشة الصغيرة في النصف الثاني من القرن العشرين، وعمَّت مختلف الأوساط. وتطورت هذه الأجهزة تطورًا تقنيًّا هائلاً، ودخلت عصر الفضائيات، فأصبحت شاشة التلفاز لعرض أحداث العالم وشتَّى مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية إلى جانب التعرف على طبائع الأمم والشعوب، وأساليب عيشها وعاداتها، وعلى بيئاتها الجغرافية في الجو والبر والبحر. ومع أن التلفاز يفضل الإذاعة في بعض الجوانب، ومع مزاحمته لها، فإنه لم يكن بديلاً عنها، فطبيعة أجهزة التلفاز تهيئ له الفرص لمخاطبة شتى فئات الناس على اختلاف طبائعهم واتجاهاتهم، كما هو شأن الإرسال الإذاعي.

وهذا يفرض على أجهزة الاتصال الجماهيرية من إذاعة وتلفاز أن تتبنى لغة مشتركة، تستفيد من الصوت والصورة والحركة في الاتصال اللغوي والإعلامي. وإن نواميس الحياة الاجتماعية والتاريخية لأمتنا العربية والإسلامية، لتفرض أن تكون هذه اللغة المشتركة، هي العربية الفصحى، الثابتة في نحوها وصرفها، والمتطورة بأساليبها ومفرداتها وَضْعًا ودلالة.

وإن العربية الفصحى هي اللغة الوحيدة التي تستطيع الخروج من الحدود السياسية للدول العربية إلى مخاطبة الجماهير العربية في مختلف أقاليمها، فهي لغة الاتصال بالجماهير

التي تخاطب المتعلم والأمي معًا، وتُعْنى بما تقتضيه الحياة المعاصرة من تطور، فالعربية الفصحى هي التي تجسد نسيج الثقافة العربية، وتخرج بها من الإقليمية المحلية الضيقة إلى وحدتها العربية، وإلى آفاقها الإسلامية وبالتالي إلى مجالها الإنساني.

إن هذا التيار في مسيرة العربية الفصحى هو التيار الغالب؛ لأنه يمثل طبيعة الحياة النامية والمتطورة. إنه يمثل القوانين العلمية لِتَطوُّر المجتمعات العربية وذلك بمعزلٍ عن إرادة ورغبات من يكيد للعربية الفصحى أو يدعم العاميات العربية عن جهل أو سوء نية أو الاثنين معًا.

كان التردي الذي أصاب العربية الفصحى في الأقطار العربية، وشيوع العاميات، نتيجة الجهل والتخلف. واستطاعت العربية الفصحى أن تجتاز قرون المحنة، بمالها من حبٍّ واحترامٍ وتقدير في نفوس عامة الناس على مختلف فئاتهم الاجتماعية، فاختفت عن المسرح الدعوات إلى إحياء العاميات وتقعيدها نحوًا وصرفًا وكتابة، واختفت أيضًا الدعوات إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية وهجر كل ما هو تراثي، وفصل حاضر الأمة عن ماضيها.

وما إن انتهت الحرب العالمية الثانية، وقامت الشعوب العربية في جميع أقطارها بثورات دامية في سبيل حريتها واستقلالها حتى بدأت العربية الفصحى تستعيد سيادتها في أوطانها. ولكن بدأت سياسات لغوية مريبة، تنتقص من العربية الفصحى، واستطاعت هذه السياسات في معظم الأقطار العربية إقصاءها عن مجالاتها الحيوية في الجامعات والمؤسسات العلمية والتقنية والإدارية. ومع أن العربية الفصحى تقابل الجهل والتخلف، كما كان شأنها في الماضي، فإن تأسيس الجامعات في الوطن العربي، وازدياد أعدادها منذ منتصف القرن العشرين، حتى بلغت الآن حوالي مئة وسبعين جامعة، تنضوي تحت لافتة اتحاد الجامعات العربية، وأصبح المتخرجون فيها بالآلاف، لم يؤدِّ إلى سيادة العربية الفصحى.

وتغيرت طبيعة الصراع والمواجهة، إلى صراع ومواجهة سياسية، فالفصحى هي اللغة الوحيدة التي تعطي لأمتنا العربية هويتها، وهي الآن تواجه أخطارًا من نوع جديد، وأهمها:

أولاً: إقصاء اللغة العربية الفصحى عن سيادتها في أوطانها، وعن مجالاتها الحيوية، وإحلال اللغات الأجنبية محلها، لاسيما في التعليم العالي والجامعي والمؤسسات العلمية والفنية.

ثانيًا: التوجه نحو العاميات الإقليمية، وممارستها على الصعيدين الرسمي والاجتماعي، والاهتمام العملي بها من خلال البرامج الإذاعية والتلفازية، بل ودور النشر.

لن أتوقف في هذه الكلمة الموجزة عند خطر مزاحمة اللغات الأجنبية للعربية الفصحى والسياسات الرسمية والعملية التي جعلت من الإنجليزية والفرنسية لغة للتدريس العالي والجامعي والبحث العلمي في جميع الأقطار العربية، إذا استثنينا سورية منذ سنة ١٩١٩م والسودان بأخرة، وبعض الكليات الجامعية في عددٍ محدد من الأقطار العربية. فهذا موضوع يستحق أن تفرد له دراسة مستفيضة.

أما الخطر الذي يهمنا في هذا الحديث، فإنه يتمثل بالتوجه نحو العاميات الإقليمية في جميع الدول العربية، وتشجيعها في برامج الإذاعة والتلفاز بل وفي بعض دور النشر. فإذا كانت الصحافة قد بدأت نسبيًّا في وقت مبكر في الوطن العربي، في مصر، وبعد ذلك في الأقطار العربية الأخرى، فإن الإرسال الإذاعي قد جاء متأخرًا.

وكانت بداياته الأولى في الإذاعة المصرية بالقاهرة، واتخذت الإذاعة في مصر سياسة لغوية من حيث الواقع العملي في معظم برامجها إذا استثنينا القرآن الكريم والأحاديث الدينية والتمثيليات التاريخية، تقوم على المزج بين العامية والفصحى، وعلى تسكين أواخر الكلم. واختارت اللهجة القاهرية بين اللهجات المتعددة التي يتحدث بها عامة الناس في مختلف مناطق القطر المصري. وقد سبق أن مارست مؤسسات إعلامية أخرى ثقافية وفنية، مثل هذه السياسة اللغوية، فكان المسرح المصري والسينما المصرية والأغاني المصرية، تتجه هذا

الاتجاه. ومع أنها اختارت اللهجة القاهرية من حيث المبدأ، أساسًا للنطق، فقد أدركت أن الاتكاء على العربية الفصحى في سياق العامية، عامل جوهري، في برامجها وأنشطتها الثقافية والفنية الموجهة إلى مختلف شرائح الشعب المصري من مثقفين وأميين. وما لبثت وسائل الإعلام هذه المكتوبة والمسموعة والمرئية، أن وجدت أن الاتكاء على العربية الفصحى في هذا المزيج اللغوي هو الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من الخروج من الإقليمية الضيقة المحدودة إلى مجال الأمة العربية في وطنها الرحب من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، وفي هذا التوجه الرحب تستطيع تحقيق أهداف ثقافية واقتصادية وقومية.

وتوالى تأسيس المحطات الإذاعية في بقية الأقطار العربية وحذت في سياستها اللغوية حذو الإذاعة المصرية من حيث المبدأ. وتلا ذلك إنشاء محطات التلفاز، وانتشرت وسائل الاتصالات هذه المسموعة والمرئية وشاعت، ولكنها بقيت في الوطن العربي أجهزة رسمية، تخضع للسياسة الحكومية في كل دولة من هذه الدول. فالتوجه الرسمي هو الذي يرسم لهذه الأجهزة اتجاهاتها السياسية والثقافية. فأصبحنا نرى كيف أن الأحداث الكبرى من سياسية واجتماعية، تجد صداها سلبًا أو إيجابًا في نوعية البرامج في الإذاعة وفي التلفاز، وفي لغة الإعلام والاتصال بجماهير الأمة.

فقد كان إنشاء الدولة الصهيونية في فلسطين، في قلب الوطن العربي، هزة عنيفة للأمة العربية، أعقبتها ثورات للتحرر والاستقلال في مختلف الأقطار. وتعالى المدُّ القومي العربي فتراجعت العاميات في برامج وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، لتحل محلها العربية الفصحى المشتركة، بأساليبها السهلة وخصائصها الذاتية في قدرتها على التعبير عن دقائق الفكر، بوضوح وسلاسة وإيجاز.

وفي كل مرة تتعرض الأمة العربية إلى محنٍ سياسية وعسكرية، تنطلق الأقلام الموتورة للنيل من اللغة الفصحى، فنراهم يختلقون الحجج ويلوون الحقائق، ويحمِّلون العربية الفصحى مسؤولية هزائمهم. ويجد ذلك صدى مريحًا في الأوساط الرسمية المؤثرة؛ لأنها

وجدت مِشْجبًا تعلق عليه نتائج سياساتها وتقصيرها. وبدأت العامية تجد طريقها إلى المحافل الرسمية، وإلى خطب الرؤساء والوزراء والمسؤولين الرسميين، وكان ذلك حتى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين عملاً مستهجنًا.

وتوالت الأحداث والفتن والحروب الداخلية، تجتاح الأمة العربية في العديد من أقطارها وبدأ التَّقَوْقع الإقليمي والمحلي والطائفي يجد طريقه إلى السياسات الرسمية في معظم الدول العربية، لاسيما الغنية منها والمؤثرة. ومن الطبيعي أن ينعكس هذا كله في أجهزة وسائل الإعلام. وكانت الإذاعة والتلفاز أهم هذه الأدوات باعتبارهما جزءًا لا ينفصل عن السياسة الإعلامية في كل قطر عربي. وإن التحول إلى الإقليمية الضيقة، والتكتلات الأجنبية والشعوبية المعادية لوحدة الأمة العربية والفكر العربي والثقافة العربية، يجعل اللغات العامية ودعمها ومحاولات تقعيدها وتقنينها، أهم وسيلة إعلامية لتحقيق الإقليمية والابتعاد عن قومية الثقافة العربية ووحدة الأمة.

وفي هذه الظروف الراهنة التي هانت بها الأمة العربية على أعدائها، وعلى نفسها وهو أشد أنواع الهوان، تنطلق من أروقة بعض الدول العربية المهمة، لاسيما ما كان منها مهد العربية الفصحى، في الجزيرة العربية، حركات منظمة جعلت اهتمامها الفِعْلي بالعامية المعاصرة، أدبًا وفكرًا وتراثًا. وتجد هذه الاتجاهات الدعم من أقوى عناصر المجتمع تأثيرًا، فأنشئت بعض المؤسسات التي تهتم بنشر العامية، وبتسخير المال لتشجيعها والحث على البحث والنشر والتأليف بها. واستجابت لهؤلاء وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، وشرعت تُسوِّد بالعامية صفحات الصحف اليومية والأسبوعية[١].

ومن هذه المؤسسات التي تعنى بنشر العامية المركز الإقليمي لدول الخليج الذي أسس في قطر سنة ١٩٨٤م تحت اسم "مركز التراث الشعبي" [٢].

---

(١) انظر: مرزوق بن صنيتان بن تنباك، الفصحى ونظرية الفكر العامي، الرياض، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦/ ص ١١.

(٢) انظر: مرزوق بن صنيتان، ص ١١ .

ويعقب الدكتور صنيتان على هذا الوضع في الجزيرة العربية، قـائلاً: " وحركـة العامية فكرًا وثقافة وأدبًا في الجزيرة والخليج في هذا الوقت، وتحت الظروف الراهنة التي تمرُّ بها الأمة العربية من محيطها إلى خليجها، أمر يزيد الخوف ويبعث هاجس الريبة في نيـات الذين يسعون لنشرها بهذه القوة[١]".

وكان هذا الوقت، الذي أشار إليه الدكتور صنيتان، قبل عام١٩٨٦م، تاريخ نشر كتابه، ومنذ ذلك الوقت، على ما أعلم، ازداد الاهتمام بالعامية والتأليف بها.

ونحن نرى بالمشاهدة الهجمات الحاقدة على اللغة العربية الفصحى. ومن بين أجهزة الاتصال الإعلامي وأقواها تأثيرًا أجهزة الإذاعة والتلفاز. فإذا استعرضنا برامج دور الإذاعة المنتشرة في الوطن العربي، نجد اللغة العامية أو المحكية الدارجة تحتل المكانة الأولى، وتستأثر بأطول الأوقات.

وإذا أخذنا، على سبيل المثال، المخطط البراجمي للإذاعة الأردنية، الـذي بـدأ في ١/٧/١٩٩٩م وانتهى في ٣٠/٩/١٩٩٩م وكانت مدة الإرسال الإذاعي تبدأ في السـاعة ٤,٤٥ صباحًا وتنتهي في الساعة ٤,٤٥ من صباح اليوم التالي، نلاحظ ما يأتي:

أولاً: بثت دار الإذاعة الأردنية في عمان برامج باللغة العربية الفصيحة من حيـث المبدأ، مدة (٧٧٠) دقيقة، من أصل (٢٤) ساعة، أي (١٤٤٠) دقيقة، وهذا يعني نـسبة ٥٤٪ تقريبًا من مدة الإرسال.وقد وزعت الموضوعات على النحو التالي، محسوبة بالدقائق.

الموضوعات	الدقائق	النسبة	النسبة المئوية
١- تلاوة القرآن الكريم	٦٠	٦٠/٧٧٠	٨٪ تقريبًا
٢- موضوعات دينية	١٣٥	١٣٥/٧٧٠	١٨٪ تقريبًا
٣- نشرات الأخبار	٣٤٥	٣٤٥/٧٧٠	٤٥٪ تقريبًا
٤- الموضوعات الثقافية	٢٣٠	٢٣٠/٧٧٠	٢٩٪ تقريبًا

(١) انظر مرزوق بن صنيتان، ص ١١.

وإن قولنا: "من حيث المبدأ في تعيين المدة الزمنية يعني وجود موضوعات باللغة المحكية، في إطار المدة الزمنية المحددة للبرامج باللغة الفصحى، مثل برنامج: "نافذة الصباح" الذي يقدم باللغة العامية الدارجة بعد نشرة الأخبار الصباحية.

ثانيًا: بثت دار الإذاعة الأردنية في عمان برامج باللغة المحكية العامية الدارجة مدتها (٦٧٠) دقيقة من أصل (١٤٤٠) دقيقة، مدة الإرسال الإذاعي في اليوم، وهذا يعني ٤٦٪ تقريبًا من مدة الإرسال. وقد اشتملت على موضوعات متنوعة أهمها:

١- مع المزارع والمجلة الزراعية.
٢- الأسرة.
٣- البث المباشر.
٤- اللقاء المفتوح.
٥- شعر شعبي.
٦- أجيال صاعدة.
٧- المسلسل اليومي.
٨- من البادية.
٩- شعر شعبي.
١٠- كل يوم حكاية.
١١- سيرة البناء.
١٢- نادي المستمعين.
١٣- مساء الخير.
١٤- مبروك.
١٥- أغانٍ.

إن نظرة شاملة على هذه البرامج تقودنا إلى ملاحظة السياسة الإعلامية التي تقف خلف هذا التخطيط، سواء أكان ذلك من حيث اللغة أم من حيث الموضوعات.

فتلاوة القرآن الكريم والموضوعات الدينية، تفرض اللغة الفصحى لغة الأداء الإذاعي لا محالة، وقد خصص لها ما نسبته ١٣,٥٪ تقريبًا من البرنامج اليومي.

ومن الملاحظ أيضًا أن نشرات الأخبار شغلت ما نسبته ٢٤٪ تقريبًا من البرنامج اليومي و٤٥٪ تقريبًا من المدة الزمنية التي خصصت للبث باللغة العربية الفصيحة.

وربما كان من المفيد أن نتوقف عند هذه الملاحظة، فالكلمة المذاعة تخاطب المتعلم والأميّ معًا. ومن المفيد أن نكوِّن فكرة عن اختيارات المستمعين لمختلف البرامج. و لم

أستطع مع الأسف أن أقف على دراسة وافية لهذا الموضوع المهم، إلا ما وجدته من نتائج الدراسة التي أشار إليها الدكتور عبد العزيز شرف في بحثه القيم الذي نشره في مجلة اللسان العربي بالرباط، المجلد الثالث عشر ص١٨٨- ٢٢٩. والإحصائيات التي اعتمدها نشرت في أمريكا سنة ١٩٥٤م، تحت عنوان: "أنواع البرامج الإذاعية التي يفضلها الأميون والمتعلمون تعليمًا ابتدائيًّا، والمتعلمون تعليمًا ثانويًّا، والمتعلمون تعليمًا عاليًا، في استبيان أجري على المستمعين في مصر وسورية والأردن ولبنان، باعتبارها ممثلة للوطن العربي". فكانت النتائج هي:

البرنامج المفضل	الأميون	المتعلمون تعليمًا ابتدائيًّا	المتعلمون تعليمًا ثانويًّا	المتعلمون تعليمًا عاليًا
الأخبار	٤٥٪	٥٤٪	٦٠٪	٥٧٪
الموسيقا الشرقية	٥٩٪	٥١٪	٣٢٪	٢٩٪
الموسيقا الغربية	١٪	٨٪	٣٠٪	٤٢٪
القرآن الكريم	٤٤٪	٣٧٪	١٥٪	١٢٪
الأحاديث والمحاضرات	١١٪	٢٠٪	١٩٪	٢٣٪
موسيقا مختلفة	١٣٪	١٨٪	٢٤٪	٢٦٪

وتشير بعض الدراسات الأخرى التي لم أستطع الاتصال بأصولها، أنه ثبت بالإحصاء أن الجمهور يحصل على ٦٠٪ من الأخبار عن طريق الإذاعة المسموعة.

ومن الواضح أن هذا الرقم يُترجم - إلى حدٍّ بعيدٍ - النتائج السالفة الذكر.

وإذا أخذنا في حسابنا أن الأخبار تذاع عادة باللغة العربية الفصيحة، وأن الفصحى هي لغة القرآن الكريم، فإن دعوى مروجي العامية والملتزمين ببرامجها في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، لا تقوم على أساسٍ منطقي ولا تستند إلى واقع لغوي وعقائدي، فالعربية الفصحى هي لغة الإسلام، وهي اللغة المشتركة لجماهير الأمة في أقطارها وكياناتها السياسية المختلفة. وإن الأمية وهي ظاهرة تخلف، لا تقف حائلاً بين الأميين وبين فهم النشرات الإخبارية التي تلقى بالعربية الفصحى، وكذلك الأحاديث بل وما تنشره الصحف السيارة...واللغة السائدة في كل ذلك هي العربية الفصحى.

وفي مجال التلفاز اخترنا في هذا البحث المخطط البرامجي للتلفزيون الأردني للقناة الأولى في الدورة البرامجية الحالية،التي بدأت في ٢٠٠٠/٣/١، وتنتهي في ٢٠٠٠/٦/٣٠.

وتتأثر برامج التلفاز بالعطلة الأسبوعية، وقد أصبحت تشمل هذا العام يومي الجمعة والسبت. ومن الملاحظ أن البثّ التلفازي يبدأ في أيام العمل العادية، الساعة السادسة والنصف (٦:٣٠) صباحًا، وفي يومي العطلة الرسمية، الجمعة والسبت الساعة الثامنة (٨) صباحًا. ونظرًا للوضع الخاص ليومي العطلة، فسنعتمد في دراستنا هذه يوم الخميس أحد أيام العمل في الأسبوع لكي يكون نموذجًا معبرًا في هذه الدراسة. يبدأ البث التلفازي يوم الخميس -كما هو الشأن في الأيام العادية- الساعة السادسة والنصف (٣٠: ٦) صباحًا، ويتوقف البث الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي ويبلغ زمن البث (١٠٩٨) دقيقة، وفي عرضنا للغة التي تقدم بها هذه البرامج نسجل الملاحظات الآتية.

يبث التلفاز الأردني من حيث المبدأ برامج باللغة العربية الفصحى مدتها (٢٢٣) دقيقة، وهذا يعني نسبة ٢٠٪ تقريبًا من مدة الإرسال. وقد وزعت الموضوعات على النحو الآتي، محسوبة بالدقائق:

الموضوعات	الدقائق	النسبة العادية	النسبة المئوية
القرآن الكريم، ومن فيض النبوة، وشراع في بحر النور	٣٥	٢٠٠/٣٥	١٧,٥٪
نشرات الأخبار	٩٠	٢٠٠/٩٠	٤٥٪
قضايا ثقافية (من وحي التراث)	٤٥	٢٠٠/٤٥	٢٢,٥٪
حالة الطقس، وأخبار الرياضة، والنشرة الاقتصادية	٣٠	٢٠٠/٣٠	١٥٪
المجموع	٢٠٠	٢٠٠/٢٠٠	١٠٠٪

رابعًا: يبث التليفزيون الأردني بعمان في دورته الحالية البرامجية التي بدأت في ١/٣/٢٠٠٠م، وتنتهي في ٣٠/٦/٢٠٠٠م، باللغة العامية الدارجة مدة (٨٩٠) دقيقة من أصل (٣٠: ١٨) ساعة أي (١٠٩٨) دقيقة، وهي مدة الإرسال التلفازي يوم الخميس، وهذا يعني نسبة ٨١،٨٪ تقريبًا من مدة الإرسال في اليوم، وقد وزعت الموضوعات على النحو التالي، محسوبة بالدقائق:

الموضوعات	الدقائق	النسبة العادية	النسبة المئوية
يوم جديد	١٠٥	٨٩٠/١٠	١١,٨ تقريبًا
مسلسل الأطفال	٣٠	٨٩٠/٣٠	٣،٣٪ تقريبًا
صحتين وعافية	٣٠	٨٩٠/٣٠	٣،٣٪تقريبًا
وثائقي، للطفولة أسرار	٣٠	٨٩٠/٣٠	٣،٣٪ تقريبًا
المسلسل الاجتماعي	٥٥	٨٩٠/٥٥	٦,٢٪ تقريبًا
من عمان بصراحة	٥٥	٨٩٠/٥٥	٦,٢٪ تقريبًا
متنوعات من المهرجان	٥٥	٨٩٠/٥٥	٦,٢٪ تقريبًا

اضحك بتطلع الصورة أحلى	٥٥	٨٩٠/٥٥	٦,٢٪ تقريبًا
بناة المستقبل	٥٥	٨٩٠/٥٥	٦,٢٪ تقريبًا
المسلسل الكرتوني (سفينة الزمن)	٥٥	٨٩٠/٥٥	٦,٢٪ تقريبًا
منوعات	٢٥	٨٩٠/٢٥	٢,٨٪ تقريبًا
الحدائق	٣٠	٨٩٠/٣٠	٣،٣٪ تقريبًا
مسلسل الماء	٢٥	٨٩٠/٢٥	٢,٨٪ تقريبًا
إعلانات ومنوعات	٢٥	٨٩٠/٢٥	٢,٨٪ تقريبًا
منوعات	٥٠	٨٩٠/٥٠	٥٪ تقريبًا
مسلسل اجتماعي يومي	٦٠	٨٩٠/٦٠	٦,٧٪ تقريبًا
طال السهر	٩٥	٨٩٠/٩٥	١٠,٦٪ تقريبًا
فليم السهرة العربي	٦٠	٨٩٠/٦٠	٦,٧٪ تقريبًا

وإن نظرة شاملة على هذه الموضوعات التي تبث باللغة العامية الدارجة وقد بلغت نسبتها ٨١,٨٪ تقريبًا من مدة الإرسال التلفزيوني، تقودنا إلى القول بأن هذا الوضع اللغوي المتردي في وسائل الإعلام، لاسيما المرئية منها لا يستجيب إلى واقع جمهور الشعب الأردني، ولا إلى أمانيه القومية وتطلعاته إلى التقدم والرقي والإبداع.

فالأردن بلد عربي أصيل، لم يعرف سوى العربية بين سكانه وقبائله، منذ العصر الجاهلي حتى الآن. وكان طيلة هذه الحقب جزءًا من بلاد الشام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين. وشأنه فيما يخص العاميات المختلفة واللهجات المتعددة، شأن الدول العربية الأخرى على اختلاف في المستويات، بعدًا أو قربًا من العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهي اللغة الجامعة الموحدة التي تعطي للأمة العربية هويتها.

ونحن عندما نتحدث عن اللغة العامية التي يبث بها عدد من موضوعات البرامج الإذاعية والتلفاز، إنما نتحدث عن عامية مصنوعة، تقحم على هذه البرامج الإعلامية

المسموعة والمرئية، فالعاميات في بلد صغير المساحة مثل الأردن، متعددة بتعدد المناطق الجغرافية والشرائح الاجتماعية. .. في البادية والريف والمدن، وتختلط العاميات في مستوياتها المختلفة باللهجات؛ إذ نجد اختلاف اللهجات في أحياء المدينة الواحدة.

وفي هذه الظروف القاسية، التي تمر بها الأمة العربية، نجد- مع الأسف- أن ممارسة العاميات وتشجيعها ودعمها في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، تشكل عنصرًا أساسيًّا في السياسات الإعلامية واللغوية في جميع أقطار الوطن العربي، على اختلافٍ في المستويات.

فإذا كانت وسائل الإعلام الرسمية، أي التي تسيطر عليها الحكومات، تجد نفسها مضطرة في برامج القرآن الكريم والموضوعات الإسلامية خاصة، أن تستعمل اللغة العربية الفصحى، فإننا نرى بالمشاهدة والسماع، كثيرًا من الفضائيات العربية ومحطات الإذاعة المحلية، تتبنى العاميات، عن سابق قصد وإصرار في سياسة مدروسة غير معلنة في كثير من الحالات، فإن المشاهد والمستمع للفضائيات العربية يلمس مدى استشراء العاميات واللهجات العامية على برامجها. وإن المتتبع لهذه البرامج يستطيع أن يدرك بسهولة، أن السياسات الإعلامية في الوطن العربي، تعمل على الانعزالية، وتوطيد دعائم الإقليمية المحلية، والنأي بنفسها عن الثقافة العربية الجامعة. وفي الوقت نفسه تمارس سياسة واقعية في الانفتاح على الثقافات الأوربية والأمريكية، وعلى لغاتها، بل وعلى أزيائها وأساليب الحياة فيها.

فهذه السياسات الإعلامية من حيث الممارسة تنطلق من واقع لغوي وتراثي وتاريخي وإسلامي موحد، ممثل بالعربية الفصحى إلى السير باتجاه التشرذم، والتفتت والتجزئة الإقليمية والمحلية، ممثل بالعاميات وما تحمله من قيمٍ أخلاقية واجتماعية متخلفة. ويتم هذا كله في الوقت الذي نرى فيه الدول الأوربية مثلاً، تنطلق من تعدد اللغات المختلفة والثقافات المتباينة، والتاريخ الحافل بالصراعات العرقية والمذهبية والأطماع الاستعمارية إلى إقامة وحدة اقتصادية وسياسية، والسير على طريق الوحدة الثقافية.

وخلاصة القول: فإن مسيرة بعض وسائل الإعلام العربية المقروءة والمسموعة والمرئية باتجاه الانعزال المحلي، واستعمال العاميات، لغةً محكية ومكتوبة، إنما هو تعبير عن حالة

مرضية طارئة، قد تطول مدتها أو تقصر، ولكنها لا محالة زائلة بزوال أسبابها؛ فهذا هو ما تمليه حقائق الأشياء. وما تقضي به نواميس تطور الأمم وتقدمها.

فمن حيث الواقع العملي، فإن وسائل الإعلام الحديثة المقروءة والمسموعة والمرئية، الموجهة إلى جماهير الأمة العربية وشعوبها، في أقاليمها وكياناتها السياسية المتعددة، تجد لزامًا عليها أن تخاطب الأفراد والجماعات بلغة مشتركة وليس أمامها، بالتالي سوى العربية الفصحى لغة مشتركة، يفهمها العامي والمتعلم على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية، وإن حبَّها واحترامها وتقديرها ليتغلغل في اللاوعي في نفس العربي الذي يعتز بعروبته وإسلامه.

فللعربية خصائص ذاتية، تجعلها قادرة على التعبير عن دقائق الأفكار، واستيعاب كل جديد في الفكر الإنساني والحضارة الإنسانية. فالاشتقاق، والإبدال، والقلب والمجاز، والنقل، والوضع والتعريب بمعناه اللغوي قنوات ذاتية تمدها بأسباب الحياة والنماء.

وللعربية الفصحى منذ أصبحت لغة الوحي الإلهي، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، خصوصية، لا تشاركها فيها أية لغة أخرى، فقد أصبحت لغة ثابتة من حيث نحوها وصرفها ونطقها، ومتطورة ونامية من حيث مفرداتها ودلالاتها وأساليبها.

إنها لغة باقية على وجه الأرض ما بقي الإسلام والمسلمون، وهي لغة خالدة بخلود القرآن الكريم، يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّا أَنـزلناهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا[١] ﴾، وفي آية أخرى:﴿وَهَذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ[٢]﴾، ويتعهد سبحانه وتعالى بحفظه وبقائه، إذ يقول، عز وجل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نـزلنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لهُ لَحَافِظُونَ[٣]﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

---

(١) سورة يوسف: ٢

(٢) سورة النحل: ١٠٣

(٣) سورة الحِجْر: ٩

بين الفصحى والعامية في وسائل الإعلام(*)

للدكتور عبد الله الطيب

(عضو المجمع)

في كتاب سيبويه " أيُّ مَن إن يأته مَنْ إن يأتنا نُعْطه يُعْطه تَأْت يُكْرِمْك" أ.هـ وفي موضع آخر: "وسألت الخليل عن قولهم أيّتهُن فلانة وأُيُّهن فلانة"، فقال: إذا قُلْتَ أيّ فهو بمنـزلة كلّ، لأنَّ كُلاًّ مذكر يقع للمذكر والمؤنث، وهو أيضًا بمنـزلة: بعض، فإذا قلت: أيّتُهن فإنك أردت أن تؤنث الاسم، كما أن بعض العرب فيما زعم الخليل يقول: كلتهن منطلقة.

وفي الباب الذي يلي هذا: باب أي إذا كنت مستفهمًا بها عن نكرة "وإذا قال: رأيت امرأة" قلت أَيَّةً يا فتى فإن قال: رأيت امرأتين قلت: أَيَّتَيْنِ يا فتى، فإن قال: رأيت نسوة، قلت: أَيَّاتٍ يا فتى. ومضى سيبويه يحكي راويًا وذا رأْيي، قال: "فإن تكلم بجميع ما ذكرنا مجرورًا جررت أيًّا، وإن تكلم به مرفوعًا رفعت أيًّا؛ لأنك إنما تستفهم على ما وضع المتكلم عليه كلامه " ثم قال " قلت: فإذا قال: رأيت عبد الله ومررت بعبد الله، قال: فإن الكلام: ألا تقول أيًّا، ولكن تقول: من عَبْدُ الله وأيٌّ عَبْدُ الله لا يكون إذا جئت بأيٍّ إلا الرفع" أ. هـ

وهنا نتساءل فلم قال من قبل: "فإن قلت: رأيت نسوةً قُلت: أيّاتٍ يا فتى؟ هل قوله يا فتى وَحْدَها يريد به الوصل، فذلك جعل الاستفهام يُجْرَى على النصب أو هل ثمَّ وجهٌ آخر؟

وقال سيبويه في باب آخر: "أعلم أنك تثني أيًّا، وذلك قولك: رأيت رجلين فتقول: مَنَيْن؟ كما تقول: أيّينِ؟ وأتاني رجلان، تقول: مَنَان؟ وأتاني رجالٌ تقول:

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الرابعة من مؤتمر المجمع في الدورة السادسة والستين، في ٥ من أبريل سنة ٢٠٠٠م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والتسعين، ص ١١٥.

مَنُونَ؟ وإن قال: رأيت رجالاً، قلت: منين؟ كما تقول: أيين، وإن قال: رأيت امرأة قلت: مَنَه كما تقول أيَّةً، فإن وصل قال: من يا فتى للواحد والاثنين والجمع.

وبَعْدُ. . فجميع هذا الذي تقدم لا يستعمل في اللغة الإعلامية المعاصرة و لم يستعمل في الذي بلغنا من إعلاميات وإعلاميين في عصور العربية الزاهية زمان المحدثين، هذا نقوله على تقدير أن أصحاب الرسائل والكتاب والشعراء كانوا بمنزلة ما نسميه الآن إعلاميين وإعلاميات.

هذا الذي جاء به سيبويه عن رأي أو رواية مأخوذة عن الفصحاء أو مقيس على ما أُخِذَ منهم. وهؤلاء الفصحاء من العرب كانوا سادة أو مؤدبين. واللغة العالية أبدًا لغة العلية من الناس ومن يخدمهم أو يحاكيهم، هذا عند العرب وعند غيرهم. وفي تذكرة الحفاظ للذهبي في ترجمة زِرّ بن حبيش:"كان زِرٌّ من أعرب الناس، كان ابن مسعود يسأله عن العربية" وابن مسعود صحابي جليل أقدم عهًدا ومولدًا وأجل قدرًا من زر بن حبيش ومن كثير من خيار العرب، وكان رضي الله عنه من هذيل وهي من أفصح قبائل العرب معروفة بذلك، ووثيقة صلة الرحم والدار بقريش. وقد يذكر أن أبا الأسود الدؤلي كان ذا علم بالعربية، وخبره مع أمير المؤمنين ومع زياد معروف.

وهلْ أَيَّاتٍ "التي ذكرها سيبويه كلمة واحدة منصوبة أو كلمتان "أياتْ" مجزومة وقفًا ثم هِنْ دالةً على الإناث مختزلة ومُغَيَّرة من هن كما في عاميتنا الآن، نقول "هِنْ" للنسوة، و"هُنْ" للرجال، وهي في الفصيحة كذلك عند الجر، كقوله تعالى:﴿ يُدنين عليهنَّ من جلابيبهن﴾. والنون والميم متقاربتان، وبعض اللغات أخوات العربية تجمع بالياء والميم مكان الياء والنون.

وفي كتاب سيبويه "وإن قلت: رأيت امرأتين قلت: مَنَتَيْن؟ كما قلت: أَيَّتَيْن إلاّ أن النون مجزومة" فلزم سيبويه في التأنيث الوقف خلافًا لما فعل في التذكير.

فعلى هذا ما زعمنا فـــي "أيَّاتٍ" أنها من أياتْ مجزومة بعدها هنْ ثم أســـقطت الهاء وضمت إلى ما قبلها، فنشأت من ذلك أيَّاتٍ. ونحن في عاميتنا نقـــول: إن قـــال: رأيت نسوة:إياتٍ وإن قال: رأيت رجالاً إيّاتٌ، أي إياتْ هُنْ، أي هم.

وقال سيبويه في موضع آخر: " فإن قال: رأيت نساءً قلت: مناتْ؟ كما قلت: أيَّات إلا أن الواحد يخالف أيًّا في موضع الجر والرفع وذلك قولك: أتاني رجل، فتقول: مَنُو؟ وتقول: مررت برجل فتقول: مَنِي؟.

في عاميتنا في السودان إن قال: أتاني رجل تقول: مِنُو؟ وكَأنَّ أصل هذه (مَـــنْ هُو) ثم كأن المتكلم حاول البدء بالسكون وتخلص من صعوبته بالكسر فقـــال: مِنُـــو. ولعل مثل هذا التصرف هو أصل مِيْن المصرية. ومِنُو في لهجتنا كأنها من (مين هُو) وإذا قال: رأيت امرأة قلنا: مِني؟ أي (مين هي) بتقصير الإشباع وجعله كسرة بدل الياء.

الذي أهم بقوله هو أن اللغة الفصحى العالية التي لا نجدها إلا في كتب النحـــو وكتاب سيبويه وما أشبهه لعلها كانت متداولة فقط في المحادثات؛ إذ لا شاهد عليها في القرآن والمأثور من الخطب والحديث والأشعار. هل كانت هذه الأشياء الـــتي رواهـــا سيبويه عن الخليل ويونس وأشياخه كأنها عامية فصحاء البدو والرؤساء رويت وقـــيس عليها؟

عندي أن لهجتنا العامية في السودان قد احتفظت بكثير من الكلام الفـــصيح الأصـــل. وأحسب أن مثل الذي فيها أو قريبًا منه يوجد في أكثر عاميات العرب مع ما عراها من لحن وتغيير. والتغيير من سنن الكون. ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

قد بين الإعلام الحديث بما لديه من مناهج بارعة ووسائل حديثة على نشر بعض مظاهر الكلام المُعْرَب أو المقارب له على نطاق أوسع. ولكنه مع ذلـــك ســـيدخل في أسلوب التفاهم أصنافًا من اللين واللكنة الأعجمية المباعدة لنا بطابعها، ذي الوحـــدة القومية عن طابع أصالتنا النابع من لغة القرآن والأسلوب الذي هو لغة الضاد الفصيحة.

عسى أن يكون من الحكمة ألا ننجرف في محاربة العامية، ولكن نسلك مسلكًا معتدلاً كأسلافنا، ندرس اللغة الفصيحة لنفهم القرآن والحديث والفقه وأدب العـــرب ونعبر ببيان ينظر إلى أجود ما صيغ بعد ذلك من نماذج ولن تقصر الأصالة المكتنـــة في العامية أن تغذونا بما ينبعث في بياننا من حين إلى حين من بلاغة وفصاحة وتجويـــــد وتجديد.

ولن يخلو عصر من العصور التي نستقبل- إن شاء الله - من بارودي يجـــدد أو شوقي يحدث.

* * *

خطر الدخيل على الفصحى والعامية معًا(*)

للدكتور أبي القاسم سعد الله
(عضو المجمع المراسل)

حضرات الزملاء الأفاضل:

حين قرأت العنوان المختار لهذه الندوة وهو (الفصحى والعامية في وسائل الإعلام) تساءلت: هل الموضوع جديد؟ لقد بدا لي بسرعة أنه موضوع تناوله المجمعيون وغيرهم في عدة مناسبات، وأن الصحف والكتب قد عالجته منذ الخمسينيات، وربما قبل ذلك، ثم بدا لي أن موضوعًا كهذا جديد ولو كان قديمًا؛ لأنه متجدد تجدد اللغة نفسها، وتجدد الإعلام والمجتمع بكامله. وربما نستطيع القول: إن كل عقد من الزمان له وسائل إعلامه وعاميته، وكلاهما يؤثر في الفصحى إيجابًا وسلبًا.

إن ما نشهده اليوم، ونحن في مرحلة أصبح الإعلام يسميها، مرحلة العولمة، هو الهجمة التي تقودها شبكة المعلومات على مواقع اللغة العربية، سواء كانت الفصحى أو العامية، وهي هجمة لا تخص اللغة العربية بالمناسبة، وإنما هي موجهة بصفة عامة إلى إضعاف اللغات القومية في العالم، حتى المتقدمة منها، فالفرنسية والإيطالية واليابانية وغيرها تعاني من لغة المعلوماتية وهجمة العولمة كما تعاني اللغة العربية ومثيلاتها، وهي تحاول أن تتخذ لنفسها وسائل للحماية الذاتية ما أمكنها، فتجند إعلامها المحلي ومجامعها وعلماءها وسياسييها ليقفوا ضد هذه الموجة العاتية، موجة لغة المعلوماتية، بما فيها من رموز ومصطلحات ومغريات كالسرعة والفاعلية والتجدد.

وأول ضحايا هذه العولمة اللغوية هم الشباب، ابتداء من سن المراهقة، فمن جهة الفاعل هناك خريطة جديدة للتعامل مع الآخر، فالعالم كله، بما فيه

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة السادسة من مؤتمر المجمع في الدورة السادسة والستين، في ٨ من أبريل سنة ٢٠٠٠م. ونشر البحث بمجلة المجمع ، بالجزء الحادي والتسعين ص ١٦٧.

ومن فيه، أصبح ممثلاً على شاشة صغيرة، يكفي تحريك (فارة) لاكتشاف خباياه وألوانه من الرغبات الجنسية إلى الآفاق العلمية، إلى الرياضة والمسليات، وغير ذلك مما يشد العين والقلب والفكر لتلك الشناشة الصغيرة. أما من جهة المفعول به فهناك لغة لتلقي المعلومات غير اللغة التي اعتاد الشاب سماع موسيقاها أو ألف رؤية حروفها، وهي في العادة لغة إنجليزية مقتضبة أو مختصرة في مصطلحات ورموز سرعان ما يتعرف عليها المتلقي، حسب تعليمات يتقنها بالممارسة والمرور بتجربة الصواب والخطأ أو من الأصدقاء، وحتى بالتعلم العادي في دورات لا تدوم في العادة أكثر من نصف شهر.

وأمام انبهار المتلقي، وهو هنا الشاب المراهق ذو الاستعداد الفطري للاكتشاف والمغامرة وحب الجديد، تتغلب لغة المعلوماتية الجديدة الحية والعملية على اللغة الوطنية، ولو كانت لغة الأمة والقلب والتراث، لأنها أصبحت فاقدة للجدة والتطور، بل رازحة في أثقال التخلف وعدم الاستجابة لمطلب السرعة والتلقائية ومسايرة روح العصر.

ذلك هو أحد أنواع الإعلام الذي يهدد الفصحى والعامية معًا. ومن الخطأ أن ندعي أن هجمة العولمة اللغوية تضر بالفصحى فقط. ذلك أن العامية، إذا صينت من الدخيل غير الخاضع لقولبتها وصياغاتها، هي إثراء للفصحى؛ لأنها في الأساس منها، ولذلك نرى ضرورة حماية العامية أيضًا من الدخيل المتغلب؛ لأنها هي باب الإساءة إلى الفصحى إذا ما ظل مفتوحًا على مصراعيه، وهي الباب الرئيسي للاستلاب اللغوي، الذي وقعت فيه بعض الشعوب. ولا عجب أن يدعي دعاة القضاء على الفصحى من المستشرقين فصل هذه عن عامياتها، بل تشجيع العامية في البلد الواحد لتصبح "عاميات" تمهيدًا لإحلال اللغة الدخيلة مكانها حيث تصبح هي (أي اللغة الدخيلة) أداة للتواصل بدلها؛ لذلك فالدعوة لحماية الفصحى يجب أن تشمل أيضًا حماية العامية؛ لأن العامية هي الخط المتقدم للدفاع عن الفصحى، فإذا سقطت في وجه العولمة اللغوية فإن الدفاع عن الفصحى سيضعف كثيرًا، إذا لم يسقط أيضًا.

وهناك أنواع أخرى من الإعلام تواجهه الفصحى والعامية معًا أيضًا. ونعني بـه الإشهار أو الإعلانات التجارية، فقد أصبحت شاشة التليفزيون والسينما تعج بالصور المغرية والملونة والمتحركة في أشكال مختلفة لتروّج لأنواع العطور والمأكولات والملابس وأدوات التجميل والمخترعات والألعاب والطرائف، ونحوها. وكلها تؤدّى بأصوات وحركات رجالية ونسائية ذات دلالات خاصة، تخطف البصر وتحرك القلب وتلفت الانتباه وتخلب السمع، ولاسيما عند فئة الشباب والنساء؛لأنها في معظمها موجهة لهاتين الفئتين من المجتمع – وكلها تستعمل في أغلب الأحيان العامية المختلطة بأسماء العلامات التجارية والعناوين والأسماء الأجنبية المنطوقة بأصوات عربية، فيكون ذلك ترويجًا لا للبضاعة فقط ولكن لألفاظ ومعاني اللغة الأجنبية، إضافة إلى ما يحدثه ذلك من أثر سلبي على اللغة الوطنية، باعتبارها تظهر غير قادرة على توصيل نفس الألفاظ والمعاني إلى المنتمين إليها.

وإلى جانب ذلك تردّد الإذاعات وتنشر الصحف وتعرض شركات الإشهار ألوانًا أخرى من التأثير اللغوي، كل في مجاله. ففي هذه الإذاعات تذاع الإعلانات عن البضائع ونحوها بأصوات مغناة فيها تطريب وموسيقى بلغتها الأصلية الأجنبية، وقد تضاف إليها أمثال وحكم، وأسجاع ومقاطع صوتية مؤثرة، وأثناء ذلك تمرر الألفاظ والتعابير الدخيلة الحاملة لأسماء الشركات وعناوين المستحضرات وهلم جرًّا.

أما الصحف وشركات الإشهار فتبرز إعلاناتها التجارية بطريقة الإغراء والتلاعب بالألوان والأضواء، وهي تعتمد على الصورة الخاطفة للبصر في أحجام مختلفة. ومن خلالها يعرف القارئ- شاء أو لم يشأ- نوع المعروض أمامه، وقد أصبحت بعض الصحف تكتفي بنشر صور الفنانين والفنانات في أحجام وأشكال وألوان ملفتة للنظر، لا لشيء سوى ملء حيز من الصحيفة والكتابة أحيانًا تحت الصورة أو فوقها بأن صاحبها أو صاحبتها تفعل كذا في مكان كذا بألفاظ وتعابير دخيلة على العربية.

وهناك آفة أخرى تظهر في وسائل الإعلام في بعض البلدان العربية، ونعني بها استعمال المختصرات باللغة الأجنبية للدلالة على اسم شركة أو حزب أو جمعية.فالعربية قد تختصر العنوان الطويل، مثلاً، في كلمة، ولكنها لا تستعمل المختصر في شكل حروف منفصلة أو مجموعة، فلا نقول عن جامعة الدول العربية (ج. د. ع) ثم ننطقها (جدع) لتصبح علمًا على جامعة الدول العربية أثناء النطق أو الكتابة، ولكن بعض الصحف في الجزائر على الخصوص، تقول عن جبهة التحرير الوطني (ف. ل. ن.) وهو اختصار الاسم بالفرنسية (FLN)، ثم تعرّفها وتجملها وتقول: (الأفلان). وهكذا تفعل مع مختلف أسماء الأحزاب السياسية والشركات الوطنية والجمعيات المدنية، حيث يكون الأصل المختصر المعبر عن (Abreviation) من الفرنسية، ثم تعرّب ذلك المختصر وتدخل عليه أداة التعريف، فتقول في التجمع الوطني الديمقراطي (الرند) من الفرنسية (RND) وفي الشركة الوطنية للكهرباء والغاز (السونالغاز) SONALGAZ. وقد راجت هذه الاستعمالات حتى أصبح المواطنون بجميع طبقاتهم يعرفونها بنطقها الأجنبي، ولو كانت مكتوبة بحروف عربية، ولو نطقت لهم بالعربية ربما لا يعرفونها، وكل ذلك من باب الترويج للدخيل على الفصحى والعامية معًا، سواء أراد ذلك أصحاب الإعلام أو لم يقصدوا إليه.

ويتصل بهذا ما شاع في الجزائر من استعمال للألفاظ الأجنبية للدلالة على التجارة أو البطالة ونحو ذلك، حتى أصبح من الصعب محوه من أذهان الناس، خذ مثلاً كلمة (طرابندو). فقد استعملت في الصحف العربية والفرنسية، وفي وسائل الإعلام الأخرى للدلالة على تجارة الشنطة، واشتقت منها كلمة (طرابنديست) أي تاجر الشنطة، وهي عملية كان يقوم بها في العادة شباب لجلب بضائع معينة من الخارج، وكانوا في الواقع وسطاء بين تجار محليين أو موردين وتجار أجانب أو مصدرين، ويتصل

بذلك أيضًا استعمال تعبير خاص بالبطال، أي الذي لا عمل له والذي يقــضي وقتــه واقفًا عند حائط، علامة على الركود الاقتصادي، وضياع الشباب، ومن ثمة أطلقــت وسائل الإعلام على الشاب البطال "حيطست" (من كلمة حيط/ حائط) وأصبح الناس يرددون عبارات (الحيطستز) أو البطالين. وأمثال هذه التعابير والألفــاظ كــثيرة، في وسائل الإعلام الجزائرية، مما يدل على حدة الصراع اللغوي بين الدخيل (الفرنــسي) والفصيح / العامي.

وإليك الآن أمثلة مما تنقله وسائل الإعلام بأصوات جذابة مطربــة في أغلــب الأحيان، أو تكتبه الصحف وتكرره الألسنة، حتى استفاض بين الخاص والعام:

(١) كلمات من (الإنترنيت):

كوبي = نسخ / Copy

بيست = لصق / Paste

سيف = حفظ / Save

أوبن = فتح / Open

ساين آوت=إغلاق/خروج/ Sign – out

(٢) كلمات متصلة بالحياة اليومية:

نيدو = نوع من الحليب / Nido

لوريال = مختبر لأدوات التجميل وغيرها / L'Oreal

تايم آوت = نوع من الحلوى (شوكولاتة) / Time – Out

رنقو = بطاطا مقلية / مجففة /Ringo

ميت لاند = لحم مصبّر Meat Land

(٣) بعض المختصرات الشائعة:

الأليسكو = (المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة)/ Alesco

الأفالان = جبهة التحرير الوطني/ FLN

الرند = التجمع الوطني الديمقراطي/ RND

سونالغاز = الشركة الوطنية الجزائرية للكهرباء والغاز/ Sonalgaz

حضرات الزملاء الكرام:

في ضوء ما قدمته وما ستقدمون من وجهات نظر مفيدة حول موضوع هذه الدورة، اسمحوا لي أن اقترح عليكم جعل عنوان الدورة المقبلة هو (وضع اللغة العربية في مواجهة العولمة اللغوية) .

وفقنا الله لخدمة لغتنا القومية، رمز وحدتنا ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً.

*   *   *

الفُصحى والعامية في وسائل الإعلام(*)

للأستاذ حسن عبد الله القرشي
(عضو المجمع المراسل)

نظرة موجزة:

كانت اللغاتُ موضعَ معاناة منذ أن أوجدَها الله على سطْح الأرض، ومُنذ أن أنطقَها الإنسان، ومنذ أن أنــزلت بها الكتب السماوية.

وإذا كانت لا تكادُ تخلُو لغةُ أمّةٍ من فُصْحَى وعامية، فإن المسؤولية في العنايــة باللغة العربيةِ يجب أن تكونَ أكبرَ وأضخم؛ فهي التي نــزل بها القرآن العظيم كتــابُ الإسلام الذي هو خاتمةُ الأديان، وهي التي كان على أبنائها و لم يزل أن يعلّموها سائرَ الأمم فهم دعاةُ نَشرِ هذا الدِّين الحنيف في أصقاع المعمورة.

وقد أتقنَ أناسٌ العربية إلى حدِّ الإعجاز، كما أخــل بهــا آخــرُون إلى حــدِّ الانحدار...

أَجَل لقد شرَّف الله العربية أَعظم تشريف وأرقَاه حين أنــزل بها كتابه الجليل، مما أوجبَ عناية الإنسان بها فهي سبيلُه إلى قراءةِ كتَابه العزيز أرقى ما تكون القراءة.

كما كانت هي الأساس في وصولِ الكُتّاب البلغاء إلى كَراسِي الحُكم، والقيادة، والرئاسة، والوزارة.

والشعرُ كان رأسَ وسائل الإعلام في عصور ازدهاره جاهليةً وإسلاميةً؛ ولذلك أصبح الشاعر لسانَ الأمة العتيدِ. والمثالُ شعراء المعلقات وأضرابهم، وشــعراء العــصر الأموي، والمتنبي الذي له ذكرٌ مشهور في مجموع العصور.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثامنة من جلسات مؤتمر المجمع في دورته السادسة والستين في ٩ مــن أبريــل ســنة ٢٠٠٠م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الحادي والتسعين، ص ١٩٥.

وقد حفَلت كتبُ التراث العليا كالأغاني للأصبهاني، والبيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه بمئاتِ القصائد الفصيحة، التي كانت أغنياتٍ مدَى قــرونٍ عديدة وأجيالٍ متعاقبة.

وفي عصورنا المتأخرة ابتُليتِ الفُصحى بلغة العوام المسمّاة (العامية)، وزادَها بلاء وابتلاء تعدُّدُ وسائلِ الإعلام الحديثة من صحافة، وإذاعة، وسينما وتلفزة، وكلها تُؤثرُها وتروِّجُ لها وتزيدُ من ترسِيخها في الأذهَان.

فتكافلت كلُّها على حَربِهَا حتى ضعُفَ شأْن الفُصَحى، وأصبحَ المُصِرُّون علــى التحَدث بها موضع فكاهة وسخرية، وأصبحت سلاسلُ الأخطاء الواردة على ألــسنة رجالٍ وسَيداتِ الإعلام موضعَ تَسامح وإغضاء وترفُّق. وأصبحتِ العامية اللُّغة السلسة والسَّهلة على أقلاَم كتَّاب القَصص، أستثنى من هؤلاء الكَاتبَ والأديبَ العَلَم (نجيــب محفوظ).

بل إن الهبوط استولى على أقلام الكثيرين من الشُعراء فإذا هم يؤثرونَ بــساطةَ اللغة على التعمُّق فيها تماثلهم في ذلك وسائلُ الإعلام على تعدُّدهَا.

وأضحى شاعرُ العامية معدودًا في الصَّفِّ الأولِ من الشعراء تُحجز لــه أرقَــى المجالسِ والأماكن ليُفيض على الناس فيها من أمسياتِه التي تمتلئ بالمــصفِّقين والمطيــبين وربما المنافقين.

وتدهورُ الفُصحى أدَّى إلى تدهورِ الشعرِ، فصار أكثرُ شعرِ الأغاني عاميًّا صرفًا..

ثم أُصبنا بالآفةِ الكبرى وهي ما يُسمَّى (بالشعر المنثور) أو قصيدةِ النثر ممّا أخلَّ بموازين الشعرِ الفصيح، وأصبحَ لهؤلاء مكَانةٌ مرموقة وهم يجهلون كــلَّ مــن ينتقــد اتجاهاتهم والصحف التي يسيطرونَ عليها ترفُضُ النشر لِمن يتعرضُ لانتقــادهم، ممــا يوجب على الغَّير على الفُصْحَى أن يصلِحوا – ما أمكنَ هذا الخلل الذي يكاد أن يهدِّدَ مستقبلَ الفُصحَى وما هو ببالغٍ ذلك إن شاء الله.

وفي كلّ الأحوال فالمسألةُ ليست مناظرةً بينَ الفُصحى والعامية؛ فالفُصحى هي الراجحة وميزانها هو الرابح.

وموضوعُ الفصحى والعاميةِ موضوعٌ خصْبٌ، وقد كتبَ فيه أعلامٌ كبار من سائِر بلاد العروبة مشرقيون ومغربيُّون، كما أوردوا العديد من الأمثلة التي تماثلتْ فيها الألفاظ والكلمات الفصيحة مع العامية.

وقد تَعرض لهذا الموضوع أعلام قدماء مشهورون من أعلام العربية كصاحب اللسانِ، وكالطبري في تفسيره، وكالزَّبيدي الأشبيلي، وكالحريري، وغيرهم كثيرون.

وكثيرٌ من الكتاب لا يفرّقون بين أيّ وبين أيةٍ في الخطاب، وهناك من يستعير ويستعملُ لفظةً في غيْر موضعها، فقد شاع على الألسنة وبعض الأقلام مثلاً قولهم: هذا كلام شيِّق، وهذا حديث شيق، مع أن كلمة شيق معناها مشتاق، والأصح أن يقالَ: هذا حديث شائق، وهذا كتاب شائق أي تَشوقُ قراءتهُ، وهناك من يخلطون بين كلمة الأَعلام والإعلام، فيقولون: هذا مدير الأعلام، وهذا وزير الأعلام إلى غير ذلك.

وفي منطقةٍ كمنطقة الخليجِ العربي تكادُ تسيطرُ العامِّية سيطرةَ تامَّة حيث لا تخلُو جريدةٌ أو مجلّة من غلَبةِ ما ينشرُ بالعامية، ويؤْثَرُ بالمكان الأفضل والأبرز.

ومن الآفات التساهلُ في انتقاء رجالِ الإعلام ونسائه من الذين لا تخلو ألسنتهم من اللّحن ولا كتاباتهم من العِوَج.

وفي فترة كنتُ منتسبًا إلى الإذاعة المصرّية، وتَقدَّم للإذاعة مئتَا شابّ من خرِّيجي الآداب فلم ينجح منهم كبيرُ المذِيعين بالإذاعة غيرَ ثلاثة نفرٍ ليس غير. . وكبيرُ المذيعين هذا كانَ المثقف الجهير الدكتور (علي الراعي) يرحمه الله.

ويكفِي في تدقيق الدُّكتور (الراعي) نفسِه أنه وهو في منصبه المذكور (كبير المذيعين) كان قد أسقَط المذيعَ المعروف فيما بعد الأستاذ (جلال معوض) ذاكرًا أنه لا

يخلو من مَضْغٍ للكلام، و لم يدخل الأستاذ (جلال) قسمَ المذيعين إلاّ بعد أن سافر الدكتور (الراعي) إلى بريطانيا لدراسة الأدب المسرحي، وحَصل منها على الدكتوراه.

لقد كانَ ذلك في عهد مضى، أما الآن فقد كثر الهابّون والدابّون في سائر الدوائر الإعلامية في شَتّى الأقطارِ العربية، وتكادُ تنعدم مَيْزَة الفَرْزِ والتدقيق.

وعَلى أيةِ حال فإنه لا تُنكَر فائدةُ العامية في مهمَّة التوصيلِ والإبلاغِ على ألا تُعطَى كل هذه الغلبة المطلقة مما يُسيء إلى الفُصحى أبلغَ إساءة.

كما لا يُنكر فضلُ وسائلِ الإعلام الحديثة على أن تُوجَّه لسبيلِ الخير المحض، وعلى أن تكونَ معوانًا لدعْم الفُصحى الدعمَ الكافي الذي يعيدُ لها شبابَها ورونقَها، وما تستحقُّه وتستأهِلُه من مكانةٍ سامية.

ومختصر الرجاء في القول:

أولاً: أنه ينبغي أن تعطى الفُصحى الأهميةَ الأولى والقُصوى في التداولِ، وأن يُعطى لشعرِ الفُصحى مكانةٌ عالية في التنغُّم والغنَاء.

ثانيًا: أن يُحصَر تَداولُ العامية في الأغاني الشعبية وما ماثلها، ويَختصر ذلك كثيرًا من المستَويات السائدةِ اليوم.

ثالثًا: أن تُركَّز المسؤوليةُ في مسؤولِي الإعلام والوسائل التي يواجهون بها الشّعوب، وأن ينتقى هؤلاء من أشخاصٍ ذوي فَنٍّ ومِراسٍ، وعلم، وخبرة، وثقافة، وبُعدٍ عن مجاملة رجالِ السلطة في محاولاتهم التدخل في مجالاتِ الإعلام، ومؤازرةِ من يهتمون بهم من العناصرِ والشخصيات والمنتفعين من وراء نفوذهم.

رابعًا: الحرص على تزويد كليّاتِ الإعلام في الجامعاتِ التي بها هذا النوع من الكلّيات بأساتذةٍ عالميِّين، يستطيعونَ إفادة طلابها وطالباتِها فوائدَ حديثة، ويرفعون من مستوياتهم.

خامسًا: ضرورة مراقبة مسؤولي الإعلام، لعدم الإفراط في تشجيع العامّية.

ولقد أبدعَ شاعر الفُصحَى (حافظ إبراهيم) في تحيَّتِهِ لها بقصيدته العصماء الـتي أصبَحتْ على لسانِ الجَميع، والتي يقول فيها:

رَجعْتُ لنفسِـي فاتَّهمتُ حَصَاتي
ونَاديتُ قومي فاحتَسبتُ حَياتي
رَمَوْني بِعُقمٍ في الشَّبابِ ولَيتني
عقمتُ فلم أَجْزَعْ لقولِ عداتي
وسِعتُ كتـابَ اللهِ لَفظًا وغايـةً
وما ضِقتُ عن آيٍ به وعظـاتِ
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ
وتنسيقِ أَسْمـاءٍ لمخترعَـاتِ؟
أنا البحرُ في أحشائِهِ الـدُّرُّ كامـنٌ
فهلْ ساءَلوا الغواصَ عَن صَدَفاتي؟
أَيهجُرني قومي – عَفا اللهُ عنهُمـو
إلى لغـةٍ لـم تَتَّصـلْ بـروَاةِ؟

وفي تحيةِ الفُصحى قلتُ كثيرًا، ومما قلت:

هَفَا النَّجمُ يعنـُو لأعتابهـا
وَغَنَّى الزَّمانُ على بَابِهـا
ودَانَ لها المجدُ وهْو العَصي
وأرْخَى العنَانَ لخطَّابهـا
تَرقرقَ منها الضِّياءُ البَهيجُ
وشَعَشَع في أفْقِ أصحابِها

وتَوَّجَها الله يــــا لَلْجــلال

بوحـــْي تجلَّى بِمحرابِهـــا

غَمَائِمهـــا ثَــــرَّةٌ بالْحيـــاة

ووشْـــيُ الرَّبيع بأهدَابِهـــا

هي (الضَّاد) مـــا ظَفِرت أُمـــة

بِمِثلِ جَنَاهَـــا وأَطْيابِهـــا

تَعهَّدَهـــا ربُّهـــا بالبقـــاء

فَهل مُجدِبٌ فَيضُ إخصابِها؟

تألَّق في صَفَحـــاتِ الخلـــودِ

فتَنْجابُ ثـــــورةُ حُجَّابِهـــا

وما شَفَّ عن شُرُفاتِ الوجودِ

كمثل سَنًا شعَّ من غَابِهـــا

وكَم يَحْفِر الصَّخْرَ صبٌّ بها

لِيحظَى بترشَافِ أكوابِهـــا

فما عِشْقُها غيرُ مـــَوْتٍ بهـــا

غرامًـــا لِتَهنـــا بتَرحَابِهـــا

لينقادَ منها النَّفُـــورُ الشَّموسُ

ويُستَعْذبَ المرُّ مـــن صَابِها

ويَنْهمِرَ الـــدُّرُّ من بَحْرهـــا

ويَحلُـــو الرَّحيـــق لشُرَّابِها

أَنُوفٌ هِيَ (الضّادُ) أن تُجتَنَى

لغَيــــرِ صَبُورٍ لأتْعابِهـــا

لِغيرِ مُلِحٍّ شـــديـــدِ المِـــرَاسِ

عَميقِ المُعانـــاةِ، وَهَّابِهـــا

يَجُوبُ الدُّروبَ احتفاءً بِهـــا

لِيُسلَكَ في سِمْطِ أقطابِهـــا!

* * *

وَأَعْرَضَ عنها قَصيرُو الأَدَاةِ

وَما مِنهمـــُو مَنْ تَغَنَّى بِهـــا

فَما عَبَأَتْ بالأُلَى أعْرَضوا

وَمَـــا وصلتهم بأَسبَابِهـــا!

وأخيرًا فهذه نظرةٌ وجيزة في موضوع الفُصحَى والعامِّية في وســـائل الإعـــلام، ورغمَ أن مَجالَ القول ذُو سعة آثرت الاختصار خشية الإمـــلال، مع إتاحة الفرصـــة للأفذاذ الكرام من أعلام الزملاء الفضلاء لإشباعِ الموضوع بذخائر أفكـــارهم، وثمـــار أقلامهم، والله من وراء القصد.

* * *

الفصحى والعامية في وسائل الإعلام
انطباعات واقتراحات(*)

للدكتور أحمد صدقي الدجاني
(عضو المجمع المراسل)

دورة أخرى يخصصها مجمع اللغة العربية في جمهورية مصر العربية، من دورات مؤتمره السنوي لقضية الفصحى والعامية، مركزًا هذه المرة على وسائل الإعلام، ومتابعًا دوره المتميز في الحفاظ على اللسان العربي الفصيح، وفي تنمية لغتنا العربية والارتقاء بها. وينطلق المجمع في أداء دوره من إدراك عميق بمكان اللسان في هوية القوم، وكونه أحد أركان هذه الهوية التي بالحفاظ عليها والتمسّك بها يتحقق نهوض الأمة وازدهارها الحضاري.

والحق أن جهود هذا المجمع والمجامع العربية الأخرى على هذا الصعيد تثمر وعيًا متزايدًا في أوساط الأمة بأهمية العناية بلسانها. وقد بدأ ما زرعته هذه الجهود يخرج شطأه، ويستوي على سوقه، ويثمر ثمارًا طيبة من خلال عمل طويل المدى. ومَثَلٌ على ذلك توقفتُ أمامه مؤخرًا حين شاركت في أعمال مؤتمر عربي قومي أهلي مشغول بتحقيق المشروع الحضاري العربي، يناقش مختلف قضايا الأمة، فإذا بأوراق المؤتمر ومناقشاته تعتبر قضية الحفاظ على سلامة اللغة هي إحدى هذه القضايا بالغة الأهمية.

وقد أشارت المناقشات إلى ما تتعرض له لغتنا من هجوم تشارك فيه قوى هيمنة دولية تضع نصْب أعينها التسلط على وطننا، واستلاب هويتنا بهدف فرض تبعية لها علينا والحيلولة دون ازدهار إبداع الإنسان العربي، ذلك لأن الإبداع لا يكون إلا

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثامنة من مؤتمر المجمع، في الدورة السادسة والستين، في ٩ من أبريل سنة ٢٠٠٠م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالعدد الحادي والتسعين، ص ٢٠١.

بتوطين العلم، وتوطينه لا يكون إلا باللغة القومية" كما جاء في هـذه المناقشات عند بحث العلاقة بين "العلم والثقافة واللغة". وجرى التأكيد علـى العنايـة بالمـصطلح، والاهتمام بسلامة اللغة في وسائل الإعلام. وكان لافتًا أن يوصي الأعضاء بأن يتضمن تقرير المؤتمر السنوي عن "حال الأمة" بابًا عن وضع اللغة العربية في سائر أرجاء الوطن العربي وأن يجعل المؤتمر قضية اللغة العربية محورًا رئيسيًّا في أعماله، وأن يعمل أعـضاؤه من أجل إيجاد وعي لغوي بين الجماهير العربية، مؤيدين ما طرحه الـدكتور أنطـون زحلان، والدكتور عثمان السعدي.

إن تركيز النظر على قضية الفصحى والعامية في وسائل الإعلام يأخذ في الاعتبار ما للإعلام اليوم من سطوة ونفوذ في عصر ثورة الاتصال، ومن تأثير على الإنـسان في عصرنا. والحق أن مكانة الإعلام هذه تحمل في طياها فرصًا لأن يكون التـأثير إيجابيًّـا لصالح الإنسان ورقيّه وفصاحة لسانه، إذا أَحسنا توظيف الوسائل الإعلامية في تقديم ما هو مفيد. كما تحمل في طياها مخاطر أن يكون التأثير سلبيًّا إذا وظّفت قـوى الهيمنـة الإعلام لاستلاب الهوية، ونشر رطانة اللسان، وتعميم قيم هابطة. وإسهامنا في هـذا النظر هو في طرح انطباعات تكونت من خلال متابعة فردية وحوارات حول الموضوع، وفي بلورة اقتراحات.

نستذكر بين يدي طرح هذه الانطباعات ما خرجنا به من نظرنـا المجمعـي في الفصحى والعامية في دورتنا السابقة، ومن تأملاتنا، بشأن دلالـة كـل مـن هـذين المصطلحين، "وحقيقة أن أهم الفوارق بينهما هي ما يحدث في العامية من تحريف النطق ببعض حروف اللغة وتغييره كليًّا في بعض الأحيان، وإهمال تحريك أواخر الكلمـات وإعراها، وتغيير حركات حروف الكلمة. وتؤدي هذه الفوارق إلى تعـدد العاميـات العربية بتعدد أنحاء الوطن العربي الكبير واختلاف لهجاته، في وقت يحافظ "الفـصيح"

على وحدانيته، فيبقى نموذج اللسان الراقي الحريص على النطق الصحيح للحروف وعلى الإعراب وعلى سلامة الكلمة". وقد أوصلتنا تأملاتنا أيضًا إلى أن ظاهرة وجود الفصحى والعامية جنبًا إلى جنب ظاهرة قديمة مستمرة، تتضمن تعايشهما في تفاهم أساسه التسليم بمكانة الفصحى العالية ومرتبتها الرفيعة، وفي تكامل يتجلى في أداء كل منهما دوره في ضوء حقيقة أن الاجتماع الإنساني منذ كان فيه عامة وخاصة، ويشهد نزوع أفراده للارتقاء باللسان. كما كان من بين ما وصلنا إليه أن للكلام الفصيح درجاته وأفصحه هو الفصحى، وأن للعامية درجاتها تبعًا لقربها أو بعدها عن الفصحى، وأن قوى النهوض في الأمة دائبة على التمسك بهويتها، تذود عن اللسان العربي، وقد دخلت معركتها للحفاظ على سلامة مرحلة جديدة اليوم في ظل هجمة قوى الهيمنة الدولية "بالعولمة" وتوظيفها في التحكم في الإعلام، والتدخل في المناهج التربوية لفرض مخططاتها التي منها تعميم عامية هابطة والقضاء على الفصحى.

نستذكر أيضًا أن وسائل الاتصال الجديدة في عالمنا من صحافة وإذاعة مسموعة وأخرى مرئية اكتسبت شعبية متزايدة في النصف الثاني من القرن العشرين، فاستحقت أن توصف بأنها "جماهيرية" وإذا كانت الصحافة المعتمدة على الكلمة المكتوبة قد جذبت إليها قطاعًا واسعًا ممن يحسنون القراءة من أبناء الأمة، فإن الإذاعة بنوعيها جذبت إليها فضلاً عنهم قطاعًا أوسعَ من العامة مستمعين بعد انتشار المذياع (الراديو) الصغير، ومشاهدين بعد انتشار الرائي (التلفاز) وصُحونه التي تستقبل العديد من قنوات البث الفضائية. وجاءت وسائل الاتصال الجديدة هذه لتتابع بكفاءة أعظم ما كانت تقوم به وسائل الاتصال القديمة من خطبة ونداء، وانضم إليها فن السينما وتطوير المسرح استمرارًا للمسرح القديم والرواية المغناة للسير على الربابة وخيال الظل. وكانت الفصحى معتمدة في تلك الوسائل الإعلامية منذ القدم مع مزجها بالعامية أحيانًا.

ونستذكر أن الصلة بين حال التربية والتعليم في المجتمع وحال الإعلام فيه وثيقة، فالتربية والتعليم يهيئان الذي يقوم بالإعلام والذي يتلقاه، فهما فاعلان مؤثران في الإعلام. والإعلام هنا تابع لهما، ولكنه بدوره يصبح مؤثرًا عليهما لقوة تأثيره على المتلقي. وهذا يعني تبادل التأثير بين التعليم والإعلام.

إن الصلة الوثيقة بين التعليم والإعلام تدعونا حين ننظر في "الفصحى والعامية في وسائل الإعلام" إلى النظر في حال الفصحى والعامية في التعليم. وهناك انطباع بأن المدرسة في غالب الأقطار العربية لا تولي العناية الكافية لفصاحة اللسان، وأن مناهج التعليم لم توفق في تعليم اللغة العربية السليمة، وأن موجة تعليم لغات أجنبية اقترنت بإهمال تعليم اللغة الأم. والأسباب وراء هذا الحال كثيرة تتعلق بقيادات التعليم، وواقع المدرس داخليًّا، وبمؤثرات خارجية؛ ولذا فإننا نشهد عند كثيرين من الطلاب "تلوثًا لغويًّا" على حد وصف الأستاذ الدكتور كمال بشر للرطانة الشائعة بينهم.

والحق أن المؤثرات الخارجية لتغليب العامية على الفصحى وجدت مع قيام قوى الهيمنة في الغرب بالتمهيد لغزوهم الاستعماري للوطن العربي ودائرته الحضارية الإسلامية، وقويت هذه المؤثرات حين تمكن المستعمر الغربي من التحكم في وضع مناهج التعليم. وقد كتب كثير عن هذا الموضوع، تجلى من خلاله ما قصدته قوى الهيمنة من هجومها على اللسان العربي الفصيح من هزّ الهوية، كي تتمكن من نشر لغاها وفرض التبعية لها على من اهتزت هويتهم تحقيقًا لتسلطها عليهم ثقافيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا. وآخر ما سمعناه عن استهداف الفصحى ما طرحه الدكتور عثمان السعدي في المؤتمر القومي الغربي العاشر في مطلع أبريل نيسان ٢٠٠٠ حول ما جرى مؤخرًا في "فرنسا" التي كانت تدرس العربية منذ قرون بالحروف العربية، وتعاملها في المدارس الثانوية في مستوى واحد مع الإنجليزية والإسبانية" ففي يوم ٢٠٠٠/١/٧ أصدرت

وزارة التربية الفرنسية قرارًا يطبق في امتحانات البكالوريا في حزيران يونيو المقبل، يقضى بأن تمتحن العربية بالحروف الفرنسية التي تستخدم في ورقة الامتحانات وفي الأجوبة على الأسئلة. ويشمل هذا القرار الغريب على حد وصف عثمان السعدي: "التوقف عن تدريس العربية الفصحى التي يعتبرها الداعون للقرار لغة تعاهدية غير حية، واستبدال اللهجات العربية بها، مع اعتماد اللهجة المغاربية، واللهجة الشامية، واللهجة البربرية القبايلية "وقد صدرت ردود فعل على هذا القرار في أوساط فرنسية اعتبرته انحرافًا بالثقافة العربية. ومن الذين احتجوا على هذا القرار رئيس الجمعية الفرنسية لأساتذة اللغة العربية الذي اعتبره" موقفًا أيديولوجيًّا ينطلق من الاستعمار الجديد الذي يفرنس حتى العربية، وذلك بكتابتها بالفرنسية، وحذرت الجمعية الفرنسية لأساتذة اللغات الحية " بأنه بدون تكوين الشباب بالعربية الفصحى، فإن الذين يتخرجون سيكونون أميين لا يستطيعون قراءة أبسط جريدة".

يذكرني هذا التحذير بما قلناه لطلاب عرب يحاولون تعلم لسانهم العربي؛ لأنهم حرموا من تعلمه صغارًا، فيقصدون معاهد أجنبية في بعض عواصمنا العربية تنظم دورات لتعليم العربية للأجانب، وتخصص جزءًا كبيرًا من المنهج لتعليم العامية، " إن تعلّم الفصحى هو السبيل لتعلم العربية، وهو أيضًا السبيل لفهم كل اللهجات العربية. والعكس غير صحيح، أي أن تعلم لهجة عربية محلية لا يوصل إلى تعلم الفصحى العربية".

تجدر الإشارة هنا إلى أن الدول التي تنتمي إليها هذه المعاهد الأجنبية، حريصة على تعليم شعوبها لغاتها الفصيحة دون اللهجات المحلية أو لغات أقوام فيها. وهذا ما تعمد إليه في جهودها لنشر لغاتها وثقافاتها في العالم. فبريطانيا مثلاً تعلم اللغة الإنجليزية في الحالين، وليس اللغة الويلشية أو اللغة الاسكتلندية. وهذا شأن فرنسا وبقية دول

أوربا. ومعلوم أن لكل من الدول الكبرى في عالمنا سياسة معتمدة في نشر لغتها يجري تنفيذها من خلال مجالس مختصة لها مكاتب وفروع في أقطار كثيرة، وتخصص لها ميزانيات كبيرة. ومعلوم أيضًا أن مردود هذه السياسة كبير جدًّا على الصعيد المعنوي وعلى الصعيد المادي أيضًا.

لقد حرصت هذه الدول في عصر ثورة الاتصال على توظيف مختلف وسائل الإعلام لنشر لغاتها. وهكذا أصبحنا نرى اليوم في الإذاعة المرئية بخاصة قنوات فضائية تذيع كل منها بلغة الدولة التي تمتلكها. كما نرى انتشارًا واسعًا للصحافة الناطقة بلغات الدول الكبرى تعود بمردود كبير معنوي ومادي.

ماذا عن الفصحى والعامية في وسائل إعلامنا العربي؟

نبدأ بالصحافة، ونستحضر تاريخها في القرنين الأخيرين منذ ظهورها مرورًا بتطورها وصولاً إلى واقعها القائم، حيث أصبحت تحتل مركزًا مرموقًا في إعلامنا بصحفها اليومية ومجلاتها الأسبوعية، ودورياتها الشهرية والفصلية. ويمكننا أن نخرج من هذا الاستحضار بمجموعة انطباعات:

– **الانطباع الأول**: هو أن الصحافة العربية اليوم تعتمد في التعبير لغة عربية فصيحة في كثير من أبوابها. وتتميز هذه اللغة بالسهولة والبساطة والنمو. وقد تطورت مع تطور الصحافة وغدت سائدة في تحرير الخبر، وفي إجراء التحقيق الصحفي، وفي كتابة التحليل والتعليق في الأعمدة وفي بريد القراء. واشتهرت هذه اللغة باسم لغة الصحافة الذي بات يشير إلى ما تتميز به.

– **الانطباع الثاني**: هو أن الصحف اليومية الكبيرة ومثلها المجلات تولي عناية متزايدة بالفصحى الأدبية وبالنقد الأدبي الذي تزدهر به اللغة وترتقي، وذلك من خلال نشرها مقالات للأدباء والكتاب المرموقين. ونحن نرى اليوم تنافسًا بين هذه الصحف

والمجلات على دعوة الأقلام المعروفة للكتابة فيها. كما نرى ارتباط دائرة من القراء بمتابعة مقالات هؤلاء، وهي دائرة تتسع باستمرار، الأمر الذي جعل كبار الأدباء والكتاب حريصين على النشر في الصحف.

- **الانطباع الثالث**: هو أن هناك مكانًا في أكثر هذه الصحف والمجلات لعامية راقية، وبخاصة في التعبير الشعري. فهي تنشر أزجالاً وشعرًا نبطيًّا مزدهرًا في جزيرتنا العربية وشعر الملحون المعروف بالمغرب. وقد تنشر قصصًا وروايات تتضمن حوارات بالعامية في حدود ما أقره النقد الأدبي. والغالب على العامية المنشورة أنها عامية راقية حافلة بالصور الجميلة، قريبة من الفصحى.

النتيجة التي نصل إليها من خلال هذه الانطباعات أن الغلبة في الصحافة هي للفصحى، وأن مستقبل الفصحى في الصحافة زاهر إذا أولى النقد الأدبي عناية لما ينشر في الصحافة، وتابعت مجامع اللغة اهتمامها بالنظر في لغة الصحافة والتفاعل معها. ويحمد لمجمع اللغة العربية بمصر هذه المتابعة، وحرصه على تخصيص لجنة للنظر في الألفاظ والأساليب، ومناقشة ما تتوصل إليه في مؤتمره السنوي.

نأتي إلى الإذاعة بنوعيها المسموعة والمرئية، ونستحضر تاريخ الأولى الذي يعود للربع الثاني من القرن العشرين، وتاريخ الثانية الذي يعود للنصف الثاني منه. ونستذكر كيف أصبحت الإذاعة المسموعة "جماهيرية" واسعة الانتشار بعد اختراع المذياع الصغير "الترانستور"، وكذلك كيف دخلت الإذاعة المرئية مرحلة جديدة باستخدام "الصحن الهوائي" الذي يستقبل "الفضائيات" من القنوات المتصلة بالأقمار الصناعية. ونلاحظ أمورًا تشترك فيها نوعا الإذاعة وأمورًا تخص كلاً منهما. والأمور المشتركة التي تخرج من انطباعاتنا هي:

١- أن الفصحى هي المعتمدة في الإذاعتين المسموعة والمرئية في قراءة نشرات الأخبار، وفي إعداد الأحاديث العلمية، والأدبية، والفكرية في غالب الأحيان.

٢- أن هناك توزعًا في الحوارات المذاعة بين الفصحى والعامية. وتختلف نسبة الأولى إلى الثانية بحسب نوعية الحوار ومستوى فصاحة كل من المذيع ومحاوره. وتعاني بعض هذه الحوارات من تلوث لغوي، وبخاصة في نطق بعض الحروف، مثل: الثاء التي تنطق سينًا والذال التي تنطق زايًا، والظاء التي تنطق زايًا مفخمة أو ضادًا، والضاد التي تنطق دالاً، والطاء التي تنطق تاءً.

٣- أن التمثيليات والمسلسلات تعتمد الفصحى غالبًا إذا كانت تعالج موضوعات تاريخية، وأنها تعتمد العامية غالبًا إذا كانت تعالج موضوعات معاصرة. وتتعدد العاميات فيها بحسب المكان، في قطر واحد أو في عدة أقطار، كما تتراوح هذه العاميات بين عامية راقية وأخرى هابطة.

٤- أن الأغاني المذاعة في المذياع والتلفاز (الرائي) تغلب العامية عليها، مع وجود للقصيدة المغناة يزيد أو ينقص حسب المناخ الثقافي المحيط الذي يتفاعل فيه المؤلف، والملحن، والمغني، والقيادة الإعلامية والنقد. ويمكن تمييز عامية راقية في بعض الأغاني تكفل للأغنية إذا حسن تلحين كلماتها الانتشار والبقاء، كما يمكن تمييز الكلام العامي الهابط في أغانٍ كثيرة قد تنتشر مؤقتًا إذا حسن تلحين كلماتها ولكنها لا تبقى.

يطيب لنا هنا أن نستذكر أمثلة على انتشار القصيدة الفصيحة المغناة وبقائها حية عقودًا من السنين، فهذه الموشحات باقية. وقد بقيت القصائد التي ترنم بها مغنون كبار بعد أن عهدوا بتلحينها إلى كبار الملحنين. وهذا شأن ما لحّنه وغناه محمد عبد الوهاب من شعر أحمد شوقي وغيره من الشعراء المحدثين، مثل: بشارة الخوري، وعزيز أباظة، وكامل الشناوي، ونزار قباني، ومحمود حسن إسماعيل. وهذا شأن ما لحنهُ رياض السنباطي من شعر أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وعزيز أباظة، ونزار قباني، وجورج جرداق، وأحمد آدم وغنته أم كلثوم. وقد بقيت قصيدتا "رسالة من تحت الماء" و"قارئة

الفنجان" اللتان ألفهما نـــزار قباني ولحنهما محمد الموجي، وغناهما عبد الحليم حافظ على الألسنة عقودًا ثلاثة، وغدتا من الأعمال الفنية العظيمة وهكذا.

كما يطيب أن نستذكر أيضًا الأغاني التي تنتسب كلماتها إلى العاميـــة الراقيـــة وحظيت بملحنين مرموقين وبمغنين كبار. ولا يتسع المجال هنا لإثبات ما يدعوه الخاطر منها، ولذا يكفي أن نشير إلى ما ألفه بيرم التونسي وصلاح جـــاهين وأمثالهمـــا، وإلى أغنية "الليلة الكبيرة" التي لحنها سيد مكاوي من كلمات صلاح جاهين. ولافت هنا أن الأغاني التي اشتهرت في العقدين الأخيرين وبقيت، كانت كلماتها تتميز بأنهـــا عاميـــة راقية تنتمي إلى عدة أقطار عربية. ومن أمثلتها "بعاد كنتم ولاّ قريبين" التي غناها محمد عبده، و"ليلة لو باقي عمري ليلة" التي غناها عبد الرب إدريس، و "أنا مار مريت جنب أبواب البيت" التي غناها عاصي حلاني، و"برد ورعد" التي غناها وائـــل كفـــوري، و "قالوا لي" التونسية، وقبل ذلك أغنيات وديع الصافي.

النتيجة التي نصل إليها من خلال هذه الانطباعات عن الفـــصحى والعاميـــة في الإذاعتين المسموعة والمرئية، هي أن للفصحى مكانتها في التعبير عما هو جادٌّ ومفيـــد، وأن للعامية مكانًا في برامج الترويح، وأن هناك عامية راقية يتجاوب المستمع والمشاهد معها. ويسجل للفضائيات في الإذاعة المرئية بخاصة أنها أتاحت للمشاهد التعرف علـــى مختلف اللهجات العامية العربية بصورة لم تحدث من قبل من خلال التمثيليات والأغاني. ولافت ما يقترن بهذا التعرف من انسجام في أغلب الأحيان، ومن سعادة بهذا التنوع. وقد اكتسبت بعض التمثيليات التي كانت متقنة فنيًّا في موضوعها وتمثيلها وإخراجهـــا شعبية واسعة، وكان للحوار بالعامية الراقية رونقه فيها. ومثل عليها نذكره هو مسلسل "أيام شامية" السوري "ليالي الحلمية" المصري.

لما كانت الإذاعتان المسموعة والمرئية تقومان بإذاعة " الأفلام السينمائية "، فإن من المناسب التعرف على حال الفصحى والعامية في هذه الأفلام التي تجـــذب إليهـــا

مستمعين كثيرين من جيل الحداثة بخاصة ومشاهدين أكثر من متابعي "التلفاز"، والانطباع عما تعرضه الشاشة الصغيرة هو أن العامية هي المسيطرة في الأفلام العربية. وهي عامية تتفاوت من فيلم لآخر في درجة رقيها أو هبوطها. ونلاحظ أن نسبة الهبوط زادت مع زعم "الواقعية"، بينما كانت العامية الراقية هي الغالبة في أعمال الفنانين الكبار، وفي مقدمتهم يوسف وهبة. وما يصدق على السينما يصدق على المسرحيات التي تعرضها الشاشة الصغيرة.

يبقى أن نشير إلى أن بعض ما تعرضه الشاشة الصغيرة من المسلسلات الأجنبية، ومن أفلام الرسوم المتحركة تقوم بعض المحطات بجعل النطق فيه بالعربية الفصيحة في عملية ما يعرف "بالدبلجة" وهي كلمة معربة. كما تقوم بترجمة الكلام في بعض المسلسلات الأجنبية والأفلام بلغة عربية فصيحة تطبع في أسفل الصورة. وهكذا نجد الفصحى هي الغالبة على هذا الصعيد. وغير خافٍ أن اعتمادها في هذه الأحوال يعود إلى أنها المفهومة في كل الأقطار.

إذا كان لنا في ختام هذا الحديث عن الفصحى والعامية في وسائل الإعلام أن نبلور اقتراحات للارتقاء باللغة في ضوء ما أوردناه من انطباعات، فإن **اقتراحنا الأول**: هو أن يكون من مواصفات من يتولون القيادة في وسائل الإعلام إدراكهم لمكان اللغة في الحفاظ على الهوية، واحترامهم للفصحى، وتطلعهم للارتقاء باللسان وتجاوبهم مع العامية الراقية، ونفورهم من العامية الهابطة.

واقتراحنا الثاني هو: العناية بتدريب الصحفيين والمذيعين الجدد، على النطق السليم والكتابة العربية الصحيحة. **واقتراحنا الثالث:** هو العناية بالنقد الأدبي لما ينشر ويذاع، سواء بالعامية الراقية أو الفصحى، ومتابعة رصد الأخطاء وتصحيحها بهدف الارتقاء باللغة.

واقتراحنا الرابع: هو تعزيز العلاقة القائمة بين مجامع اللغة العربية ووسائل الإعلام، بحيث تسارع المجامع إلى تزويد وسائل الإعلام بما تعتمد من مصطلحات، وما تقوم به من ترجمة أو تعريب، وتقوم وسائل الإعلام باستخدامها وتعميمها.

وبعد..

فإن للفصحى مكانًا في وسائل الإعلام لا تستطيع العامية أن تحتله. ويمكننا حين نستحضر ما كانت عليه لغتنا العربية في واقع الحياة اليومية قبل ثورة الاتصال وبعدها، أن نقرر أن حال الفصحى هو اليوم أفضل، وأن الآفاق أمامها أرحب. وقد حدث ذلك على الرغم من كل مخططات قوى الهيمنة التي استهدفتها بالعداء وسعت إلى أن تحل محلها عاميات عربية. ولا شك في أن ما قامت به المجامع من جهود للحفاظ على اللسان العربي والارتقاء باستخدامه كان له فضل خاص في احترام الفصحى والالتزام بها في التعبير في الموضوعات الحيوية في وسائل الإعلام. وها نحن نرى ما زرعته هذه الجهود يخرج شطأه ويستوي على سوقه. ويبقى أن تنجح هذه الجهود في تطوير مناهج التربية والتعليم وأساليب تعلم اللسان الفصيح لتجاوز ما يعانيه الطلاب من تلوث لغوي. وكذلك في تعريب العلوم.

وتحية طيبة مباركة عطرة لمجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية بمناسبة انعقاد مؤتمره السادس والستين.

* * *

الإعلام العربي وما يضيفه للعربية من توليد للمفردات وأساليب التعبير(*)

للأستاذ علي رجب المدني
(عضو المجمع)

إن دوائر الإعلام المنطلقة من الفصحى أسلوبًا لخطابها من حقها (بما أوتيته من كفاءة وأكفاء) أن تمضي رافعة الرأس في السير على سنة (التوليد في العربية) تلك السنة التي أعتقد أنها سنة حسنة، لمستنيها أجرها وأجر من عمل بها ما التزمت السبيل السويّ فيما تولده من مفردات وأساليب نطق عربي سليم، غير مشوب بتعجيم ولا ابتذال. ذلك التوليد الذي نشأ منذ أن غزت العجمى العربية الأولى (عربية قريش) التي هي ثاني التهذيبات من مراحل التهذيب الثلاث التي مرت بالعربية والتي سماها المرحوم محمد فريد وجدي - في دائرة معارف القرن العشرين - باللغة الخالصة التي قيل: إنها أوحي بها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وكان ذلك الغزو من أعدائها وأعداء الكتاب الذي نزل بها.

فقد انطلقت ضمائر ومدارك الأسلاف من علماء هذه الأمة على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم تذود عن حياض عربية القرآن وتدفع عنها غزوات العجمى وترسي قواعد الاجتهاد والابتكار السليم الواعي. مما حقق للعربية إضافات مكنتها من أن تستوعب حضارات الآخرين وتتأهب لمواجهة عصور العلم على نحو مكنها من أن تحتل مركزها المتقدم برصيد من المفردات والمصطلحات أهلها لذلك المركز.

لكن مذهب (التوليد) الذي استكمل مقوماته في عصر ازدهار الدولة الإسلامية في بغداد، لم يقم على عشوائية التبني للمفردات وأساليب النطق وإنما انتهج منهجًا

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة العاشرة من مؤتمر المجمع، في الدورة السادسة والستين، في ١٠ من أبريل سنة ٢٠٠٠م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالعدد الثاني والتسعين، ص ١١.

يرتكز على توخي الحيطة كل الحيطة والحذر أشد الحذر من أن ينصرف التوليد إلى الإخلال بما استقر عليه القرآن ولغة قريش من مضامين وأسس لا تقبل ما قد يسببه الجموح في التوليد من مساس بهما أو تأثير عليهما أو على شيء من قواعد الإعراب والصرف أو قواعد البلاغة التي استقر الأخذ بها.

وما قامت المجامع اللغوية في عالمنا العربي (وفي طليعتها مجمعا القاهرة ودمشق ثم ما توالى منها) إلا بحافز من الحرص على تلك الخطوط الحمراء التي لا يجوز تخطيها على نحو قد يضر بكيان اللغة واحترامها واستقلالها في مسيرة التوليد التي استأنفتها هذه المجامع المجيدة على نحو أضافت به للعربية رصيدًا جيدًا من المفردات التي تتطلبها طبيعة العصر، لذلك فإن التوسع في الاستفادة من مذهب التوليد خصوصًا على أيدي الصفوة من الإعلاميين العرب إنما تعني مضيًّا في تشييد الصرح الذي بدأ تشييده أولئك الأسلاف الأماجد في عصر أمتنا الذهبي، غير أن التسليم للسادة الإعلاميين بحق التوليد في اللغة ينبغي أن يقترن بالتزام متبادل بينهم وبين مجامع اللغة العربية في الوطن العربي الكبير بأن تكون تلك المجامع مرجعًا لهم للتأكد من سلامة ما يولدون ويضيفون إلى العربية إضافة سليمة من كل ما من شأنه أن يشكل تعارضًا أو تجافيًا مع قواعد اللغة أو أساليب النطق البلاغية المعهودة.

وما من مظهر لذلك الالتزام المتبادل المرجو أفضل من أن يقوم ميثاق شرف بين ولاة الأمور من الجانبين يضمن العمل بمقتضى بنوده على نحو لا يحتمل الإخلال أو التغاضي.

ولا يخفى ما في تحقيق كل ذلك من إضافة منتجة ومثرية للغة الضاد سواء كان ذلك بالنسبة للمجامع أو للكتاب الإعلاميين الذين يتصاعد دورهم من إعلاميين فحسب إلى رواد للأجيال المتجددة في تلقينها ما عز على الأجيال السالفة أن تتلقنه وتتعلمه من مصطلحات نطق ومفردات مستحدثة يكون الفضل في استحداثها لأولئك

الإعلاميين العباقرة الذين اجتمعت لهم مواهب الذوق الأدبي والفني على نحو غير مسبوق أهلهم للنهوض بدور تثقيفي وحضاري عظيم الأثر لم يتح لأسلافهم أن يدركوه أو أن ينهضوا بمثله.

أما المجامع فإن بمقدورها أن تستفيد من ميثاق الشرف هذا موردًا فياضًا بالجديد من أساليب التعبير ومفردات اللغة، وهذا من شأنه أن يضاعف رصيدها مما تغذي به قواميسها ويفتح من خلالها الآفاق للهيئات العلمية والتعليمية كي تنهل المزيد مما تقدمه لها تلك القواميس وأبحاث اللجان المختلفة بتلك المجامع كل عام.

ولا أراني مبالغًا عندما أقترح أن يتحول ميثاق الشرف المرجو إلى تشريع يلتزم به الجانبان ويبرز قدسية الأهداف المتوخاة من ورائه.

بقي أن نناقش أساليب التنسيق بين المجامع والإعلاميين بغية انتقاء أفضلها كقنوات اتصال بين الجانبين إمدادًا واستمدادًا، وأرى أن هذا يتطلب تكوين لجنة عليا على مستوى مجامع الوطن العربي ومراكز الإعلاميين على ساحة هذا الوطن، يكون مقرها القاهرة ويخول لها أن تندب لجانًا متفرعة عنها للتغلغل في دوائر الإعلام العربي المختلفة وتجميع ما يجد لديها من مفردات وأساليب ثم تعميمه على المجامع لاعتماد ما ترى اعتماده واستبعاد ما ترى استبعاده، على أن تلتزم دوائر الإعلام تلك بما يستقر عليه الرأي من خلال اتحاد المجامع العربية اعتمادًا واستبعادًا.

وبذلك يتحقق التنسيق المطلوب وتوالى رسالة التوليد دورها البناء في كيان لغتنا المجيدة وبعثنا الحضاري في مختلف الميادين العلمية والفنية والاجتماعية والثقافية بوجه عام.

وجدير بنا أن نعمل لإيجاد قنوات اتصال وتواصل بين مختلف النوادي الفكرية من خلال نشرات دورية تتولى اللجنة العليا، بواسطة ما يتفرع عنها من لجان، إعدادها

وإمداد تلك المنتديات بها متضمنة ما يستجد من مفردات وأساليب نطق معتمدة، ولا بأس أن تقوم اللجنة العليا المذكورة بإصدار مجلة فصلية تتضمن جميع تلك المفردات والأساليب وجهات استحداثها حتى يتكامل التواصل بين جهات الإعلام والجماهير العربية على نحو يحقق مزيدًا من التلاحم والثقة والتمازج الفكري بالقدر الذي يوسع من قاعدة الكتاب والمحررين ويخفف من عبء وسائل الإعلام في تجميع ما تحتاجه من مواد لإمداد مؤسساتها الإعلامية من مسموعة ومقروءة ومرئية.

ولا يخفى ما في التمكين من الوصول إلى هذه المرحلة المتقدمة من منافع تعود على المجتمع العربي بوجه عام بقدر من التواصل والإيجابية والحماس الحافز مما يضمن قيام المجتمع العربي المتجانس المرجو قيامه خلال هذا القرن إن شاء الله تعالى.

ولن ينكر متبصر بعيد النظر ما لغياب عناصر التواصل هذه من أثر سلبي على فرص الدمج بين أجزاء الوطن العربي التي تعاني من عزلة بعضها عن بعض فكريًّا ومن صعوبات في تفاهمها وتعاونها على نحو يقرب من وحدتها ودمج كياناتها المبعثرة في كيان عربي واحد قوي يتوقف عليه كل أمل في تحررها وتقدمها.

ولعل من أهم ما ينبغي أن تلتزم به وسائل الإعلام على اختلاف أنواعها وأساليبها التركيز على رصد ما يجد لديها من مفردات وأساليب نطق مبتكرة أو مستمدة من لهجة التخاطب السائدة بين الناس، وتقديمها أولاً بأول إلى اتحاد المجامع أو المجمع الذي تقع في دائرة وجوده وتنتظر ما يصدر عنه من دراسة وقرار بشأن كل من تلك المفردات والأساليب على نحو يحقق التوافق بين وجهة نظر المجمع في إجازتها واتجاه الجهة الإعلامية لاستخدامها.

وهذا من شأنه أن يضمن سلامة الإضافة إلى العربية بالقدر الذي يحمي كيانها ويحول دون مزاحمة العامية للفصحى وإحلالها بما استقر عليه النطق العربي السليم من

مراعاة لحرمة التراث العربي، وعدم المساس بأي ركن من أركانه أو إخلال بسلامة مضامينه، ولا يخفى ما في اندساس العامية في الفصحى دون رقابة من خطورة التشويه لأساليب التعلق العربي الموروثة بما قد يندس من تعابير وأساليب نطق تغيب المعنى المقصود وتحدث بلبلة تخل بالأغراض المستهدفة من التعبير.

ومن شأن توحيد الجهد والعناية بين كل من وسائل الإعلام ومجامع اللغة تقوية اللُّحمة بينهما بالقدر الذي يتطلبه استمرار تعاونهما التعاون المنشود دون تراجع أو ملل من أحدهما.

ولعل مما يرجع الفضل في توليده للإعلام المقروء والمسموع من مفردات احتلت موقعها البارز في النطق العربي فصيحه وعاميه كلمة (هُوِيَّة) التي شاع التعبير بها فيما نقرأ وما نسمع، وأنها لخير مثال على ما يحققه التوليد للعربية من إضافة مبنية على رقة الذوق وأناقة العبارة ويسرها وخفتها.

وإني وإن كنت لا أرى المضي في عرض النماذج المماثلة لهذه المفردة غير أني أرى أن أضيف إليها ما يكمل عائلتها التي لا غنى عن تكاملها ليستقيم استعمال الكلمة المذكورة التي لا تعني إلا المفرد المذكر، الأمر الذي يثير التساؤل عن سبب التوقف عن استحداث ما يعني المفرد المؤنث. وجمع المذكر، وجمع المؤنث، والمثنى المذكر، والمثنى المؤنث، وذلك بقولنا: (هِيِّة) و(هُمِّيَّه) و(هُنِّيَّة) و(هُمَايَة) لكل من المثنى المذكر والمؤنث فنقول: هُيَّتها وهُمِيَّتهم وهُنِّيَّتهُنَّ وهُمَايتُهُمَا (للمثنى المذكر والمؤنث) وبذلك نحقق للتعبير العربي الحديث تكامله الذي يؤكد قوة وجدارة رحم العربية بالتميز والسبق إلى التطور ومسايرة حضارة الإنسان وحسه الجمالي، الذي يجد به إلى الإيجاز وخفة التعبير وأناقته.

ويمكن أن يقاس على هذا الكثير مما استحدث وما قد يستحدث من مفردات وأساليب نطق تتمتع بكل هذه المزايا، الأمر الذي يجعل من اشتداد اللُّحمة بين المجامع

العربية ودوائر الإعلام المختلفة إضافة مثرية وخطوة حضارية متقدمة من شأنها أن تنهض بثقافتنا العربية وتنطلق بها إلى مركز الصدارة الذي هي أهل له.

ولست أرى أي نشوز في التعبير عندما أقول: عرفت هِيِيَّة المرأة التي وجهت إليَّ تساؤلها وسألت عن هُمَيَّة الرجال الذين وفدوا إلينا وعن هُنَيّة النسوة اللاتي كُنَّ معهم. وصافحت الرجلين بعد أن عرفت همايتهما وهماية المرأتين اللَّتين كانتا معهما.

هذا مجرد مثال أعرضه آمل أن يستقبل بأقل قدر من الدهشة والاستغراب وأن يولي المزيد من الحلم وسعة الصدر اللذين يمكنان من التركيز على الهدف السوي الذي يهدف إليه.

سادتي الزملاء:

لعل من أهم الخطا وأجداها في مسعى التواصل بين مجامعنا العربية والرأي العام العربي الذي يمثل غاية وجودها وهدف رسالتها، أن يبذل مسعى مكثف من أجل تخصيص أركان ثابتة ودائمة لهذه المجامع في كل وسيلة من وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية تتولى تموينها تباعًا بما يجد من أعمالها ومنجزاتها على نحو مبسط يستهدف التغلغل إلى جميع المدارك والمستويات، ويستقطب اهتمامها الذي يتعين إيقاظه من خلال التعريف بما ينطوي عليه تجاهل الفصحى من مساس بكبريائنا الحضاري بل وكياننا الإنساني من أساسه.

ولا يفوتني أن أعود إلى ما سبق أن قلته في بحثي (تعميم الفصحى بتفصيح العامية) الذي شرفت بإلقائه في مثل هذه المناسبة في أوائل العقد الأخير من القرن المنصرم من أن نسبة كبرى من مفردات العامية في مختلف أجزاء الوطن العربي هي ذات أصل عربي فصيح، ولا يتطلب تفصيحها أكثر من مجرد رصدها وحصرها والاستعانة بخبراء المجمع على تفصيحها وتعميمها من خلال الأركان المقترحة أعلاه في وسائل

الإعلام التي سيتقبلها ولاة أمورها من كتاب ومحررين ببالغ الاهتمام والترحيب. الأمر الذي يكفل إحياءها ووضعها موضع الاستعمال والتداول بين أساليب النطـق العـربي الفصيح الذي ستثريه.

وختامًا لا يسعني إلا أن أكبح اندفاعي للمزيد من القول حفاظًا على وقـتكم وتمكينًا لما قد يكون أجدى وأجدر بالاهتمام.

أشكركم والسلام عليكم

* * *

الفصحى والعامية في وسائل الإعلام(*)

للدكتور يوسف عز الدين

(عضو المجمع)

مما لا جدال فيه وجود صراع واضح الأثر بين العامية والفصحى في مختلف مضامير الحياة اليومية. ونجد ذلك في المدارس والجامعات ووسائل الإعلام، وهي ساحات لحماية الفصحى والذود عنها؛ لأن العامية داء استشرى بين العرب.

بدأت الظاهرة منذ بداية عصر النهضة، وأحس بها الغيارى ودافعوا عن الفصحى مثل الرافعي، وحافظ إبراهيم وغيرهما، وقد عرف من دعاها "وليم سبيتا" الذي أراد إثبات رأيه فوضع كتابه **(قواعد اللغة العامية في مصر)** وطالب بأن تكون العامية لغة الآداب والعلوم والفنون، ورأى الفصحى محدودة في المفردات، وظن أن هناك اختلافًا كبيرًا بينها وبين العامية، وقال بأن الفصحى تؤخر الحضارة، وفاته أنها اللغة التي دامت طول القرون الطويلة واستوعبت ثقافات الأمم، وحضارات العالم وازدهرت بها، وما نزال نفهم الكثير من الأدب الجاهلي والإسلامي والأموي بيسر وسهولة، وأن الإنجليز اليوم لا يفهمون لغة جوسر CHAUCER ولا لغة شكسبير وسائر كتابهم إلاّ بوساطة المعاجم على الرغم من قصر عمر الإنجليزية واللغات الأخرى، واضطرت الشعوب الغربية إلى التخلص من اللاتينية واستعمال اللغة الشعبية للبعد الكبير بينها وبين الإيطالية والفرنسية والإسبانية.

دعاة العامية:

وجاء ولككس WILCOKS الذي كان في دعوته يهاجم الفصحى ويسخف اللغة العربية، ويزعم أنها عاجزة عن مسايرة ركب الحياة الحديثة وادعى أن الشعب

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الرابعة عشرة من مؤتمر المجمع في الدورة السادسة والستين، في ١٢ من أبريل سنة ٢٠٠٠م، ونشر البحث بمجلة المجمع؛ العدد الثاني والتسعين، ص٦٣. **(ويمكن أن ينضمّ هذا البحث إلى بحوث الصّراع بين الفصحى والعامية).**

المصري تأخر لأنه لم يستعمل العامية وعاقته الفصحى عن الابتكار والاختراع، ونشر إعلانًا في (مجلة الأزهر) يغري فيه باتخاذ العامية، لغة للكتابة والأدب، قال فيه: (من قدم لنا هذه الخطبة باللغة الدارجة المصرية وكانت موفقة جدًّا؛ يكافأ بإعطائه أربعة جنيهات (إفرنكية) وإن كثر المتقدمون، فيعطى هذا المبلغ لمن يحوز الأولية[1].

والدعوة إلى العامية انتشرت في كتابة الغربيين والعرب. ومن الغربيين كارل فولرس الألماني FULLERS ت ١٩٠٩م الذي هاجم الفصحى لأنها جامدة فلم تساعد المصريين على النهضة الفكرية والتقدم الحضاري، وحسبها كاللاتينية التي ماتت فألف كتاب (**اللهجة العامية في مصر**) ١٨٩٠م كما ألف سلدن ولمور الإنجليزي كتابًا سماه (**العربية المحلية في مصر**) وحسب أن اللغة الأجنبية ستسيطر على مصر، واتفق هؤلاء على ضرورة جعل العامية لغة العلوم والآداب والفنون، ولعلي أستغرب من الأستاذ أحمد لطفي السيد تساهله في قبول المسميات الأجنبية، ورأيه بأن العربية فقيرة وأن لغة الجمهور ستخرج الفصحى من جمودها، وأن يكون الصلح بين العامية والفصحى عندما تستعمل مفردات العامية، وإن وضع شرط عدم الابتذال، ولكنه يعود فيقول أن نتذرع إلى إحياء العربية باستعمال العامية، ومتى استعملناها في الكتابة اضطررنا إلى تخليصها من الضعف وجعلنا العامة يتابعون الكتاب في كتاباتهم والخطباء في خطاباتهم والممثلين في رواياتهم[2].

وأعمال المجمع دليل على أن الفصحى قادرة على استيعاب الجديد عندما وضع عددًا كبيرًا من معجمات متعددة في كل العلوم الحديثة، وما زال يوالي عمله ومعه مجامع اللغة العربية في دمشق والأردن وبغداد والمغرب.

---

(١) الفصحى في مواجهة التحديات، نذير محمد مكتبي، ١٢١.

(٢) المصدر السابق ١٢٧.

الدعاة في الوطن العربي:

أما دعاة العامية من أبناء العرب فمنهم الأموات والأحياء، فكان منهم سلامة موسى (ت ١٩٠٨م) ومارون غصن (ت ١٩٤٠م) وسعيد عقل، وكان قبلهم يعقوب سنوا، الذي سمى نفسه يعقوب صنوع ت ١٩١٢م، والخطر الكبير من الذين عاشوا في البلاد العربية، وكانوا من أبنائها وكان هؤلاء أشد ضراوةً عليها من الأجانب وآزرهم وسائل الإعلام التي تدخل في كل مكان من المسلسلات، والروايات، والندوات، والمحاضرات التي تذاع في هذه الوسائل، ومن الطريف أن جاءني دعاة العامية لتسجيل حوار معي، وعلى الرغم من البراهين التي سقتها على أن كاتب العربية أكثر شهرةً في العالم العربي وأكثر فائدة مالية بانتشار آرائه فلم يقنعوا، فاضطررت أن أضعهم أمام الواقع، قلت لهم: سوف أتفق معكم إذا فهمتم عبارةً واحدة بالعامية في العراق. فنظروا إلي وكأنهم انتصروا عليّ قلت سآتيكم بقرينة: دخل جائع إلى المطعم في بغداد فقال للنادل الذي تسمونه (جرسون) بالفرنسية، ونسميه في العراق (بوي) بالإنجليزية: أريد نص ماعون باجلا، ونص ماعون تمن، ونص صمونة فنظروا إليّ بدهشة وقال أحدهم: أعد الجملة وبالطبع لم يفهموا. فما كانوا فاعلين لو قلت لهم: الطوز فوق الجرباية؟

الإعلام اليوم:

وهذه المشكلة أخذت حيزًا من الكتاب في الصحافة اليوم، فقد كتب فهمي هويدي[1] مقالاً بعنوان (دعوة إلى تعريب لسان العرب) يذكر ما حاق باللغة العربية من إهمال وعبث وسماه كارثة في العالم العربي؛ لأنه رأى طلاب الأزهر في المرحلة الابتدائية ملزمين بتعلم الفرنسية مع أن فرنسا تحرم تعليم أية لغة أجنبية في تلك المرحلة المبكرة، ولما رأى تفاقم الحال قال بصراحة: "آن الأوان لرفع الصوت عالياً بالدعوة إلى تعريب لسان العرب" وقال: "إنه كان يلح طول سنوات على الدفاع عن لغة القرآن في الدول الإسلامية في آسيا وأفريقيا حيث يطلق على الحرف العربي اسم الحرف الشريف،

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ٢/٢/٤٢/٢٠٠٠.

ولكن لم تبق غير دول محدودة تستعمله، مثل: إيران وباكستان وأفغانستان" وقال: "إن حجم الكارثة جعل صوتي أكثر اختناقًا بعد أن حلت الكارثة باللغة العربية، وأشاد بقرار تونس بجعل عام ٢٠٠٠م عام اللغة العربية، وتألم للتراجع المستمر عن العربية التي تمثل شخصية الأمة القومية وألا يكون تعلم لغات أجنبية على حساب اللغة العربية، وقال بمرارة: "لنعترف بأن اللغة العربية هزمت في بلادها وأنها تتلقى كل يوم ضربة موجعة ومهينة"، وأشار إلى أن موريتانيا تخلت عن العربية في مدارسها، وكانت إحدى قلاع العربية ومناراتها التي وصلت إشعاعاتها إلى أرجاء غرب إفريقيا، وقال" إن أحد الرؤساء العرب يدير المؤتمرات باللغة الفرنسية، وأنه كان يجيب عن أسئلة الصحافة العربية باللغة الفرنسية، وفي بعض دول الخليج أصبحت الأردية اللغة الثانية بعد العربية، وأشار إلى انتشار خطر قائم في الخليج من كثرة المدارس التي تدرس باللغة الإنجليزية، وغدت العربية لغةً هامشية، أما الأردن فقال: إن الإنجليزية أصبحت من لغات الخطاب وكادت أن تتحول إلى لغة رسمية.

وعن مصر قال: شيء محزن حقًّا أن يصل تراجع العربية في أكبر دولة عربية حيث أصبح تعلم الأجنبية هدفًا قوميًّا، وأصبح الدخول إلى المدارس الأجنبية هدفًا، وأن الرطانة هي المعتمدة في أواسط كثيرة، وقال: نشرت بعض الصحف أن إجادة اللغة الأجنبية كانت إحدى شروط الدخول في الوزارة في مصر.

ومن الطريف أني قابلت رئيس وزراء الصين (شون لاي) وكان يتحدث معي باللغة الصينية فقلت: يا سيادة الرئيس أنت تعرف الفرنسية والإنجليزية فلماذا لا تتحدث معي بالإنجليزية؟ فكان رده عليَّ باللغة الصينية وتجاهل قولي.

وكتبت الكاتبة زينب حفني مقالاً[1] (حتى لا توأد لغتنا على يد أبنائها، وعزت انتشار العامية إلى الإعلام، وتساءلت عن الكيفية التي من الممكن اتباعها لخلق توازن بين الفصحى والعامية حتى نحافظ على لغتنا من الاندثار) وقد رأت عدة عوامل هدمت

---

(١) الشرق الأوسط، واكتفيت بنماذج الشرق الأوسط.

اللغة العربية أهمها: (مجال الفن، المتمثل في السينما والمسرح الزاخر بالإسفاف والإعلام بجميع وسائله، والفضائيات العربية التي تتسابق في إذاعة الغث من المضامين، ودور الأسرة ومناهج التعليم، كما صرف الإنترنت والكمبيوتر الشباب عن لغتهم وألقت اللوم على النوادي والجمعيات الأدبية التي لا تتحمل مسؤولياتها، وإلى كتاب يستعملون العامية واللغات الأجنبية، وودت أن تسعى المجامع اللغوية في رفع مستوى العربية، وأشارت إلى توصيات الدورة الخامسة والستين، وهاجمت المحلات والشركات والفنادق التي لها أسماء أجنبية، ورأت وجوب منع هذا الأمر بتاتًا إلاّ أن هذا لم يطبق حتى الآن وأصبح نسيًا منسيًّا) وفات الكاتبة الفاضلة أن المجمع ليس سلطة تنفيذية، وأن قراراته طالما حفظت في أدراج الوزارات المسؤولة.

من الهند:

ومن الغيارى على اللغة العربية كاتب من الهند، فقد قرأت مقالة بتوقيع (أبو أسامة) بعنوان (اللغة العربية تتطلب اليوم اهتمامًا أكبر من العرب)، لأن لسان العربية ليس للعرب والمسلمين كعامة اللغات، وإنما هي جزء من حقيقة الإسلام، فقد كانت لغة الوحي ومعجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولسان دعوته وخلدها القرآن الكريم بخلوده، وأكرم بها المسلمين أن ينطقوا باللغة التي نطق بها الرسول وأن يخطبوا ويكتبوا باللاغة التي اختارها رب العالمين[1].

وسائل الإعلام:

إن وسائل الإعلام بصورة عامة تخرب اللغة العربية، وقد رأينا بعض هذه الوسائل وهي الصحافة نموذجًا للشعور المؤلم عند الكتاب. فالأغاني بلهجات متعددة والمسرحيات والمسلسلات والقصص، فقد نشرت جريدة الأهرام في الملحق قصة باللغة العامية[2].

---

(١) الداعي، مجلة تصدر في الهند، العدد ١٣/٨ / ديسمبر ١٩٩٩م كاتب المقال: نور عالم أميني.

(٢) جريدة الأهرام، العدد الصادر في ٢٠٠٠/١/٧م.

إن التناحر السياسي وحب الذات والإقليمية والبلدانية فرضت علـــى الإعـــلام لتكون هناك لغات متعددة ولهجات متباينة، وأخذ بعض الكتاب العرب ينخـــرون في جسمها فكثرت الأشعار النبطية في الجرائد، وأخذ بعض المسؤولين وقـــادة الـــسياسة ينظمون باللغة النبطية أو العامية التي سميت الشعبية، وكثرت دقات الطبول والزلفى لها، فهل يحس هؤلاء بمقدار الضرر الـــذي يعـــود علـــى أمتهم المسلمة إذا ابتعدوا عـــن الفصحى، بعد أن بدأت وحدة الفكر والعقيدة تتآكل وغرست العادات الفردية بيننـــا، وخلقت دولاً ومناطق لها حدودها السياسية حتى لا تستفيد الأمة من خيرات شعوبها؟ فقد خطط لهذا الأمر تخطيطاً واضحًا فلو قرأنا مذكرات كسنجر مرةً أخرى لوجـــدناه يطالب العرب أصحاب المليارات التي كانت في مصارف أمريكا بـــصرفها، وبالفعـــل صرفت وأصبح أصحابها فقراء لا يقدرون على دفع رواتب الموظفين، وفي العراق يموت الأطفال والشعب جوعًا ومرضًا، وما كان يعرف يومًا من الأيام الجـــوع والمـــرض، وظهرت الحدود والوقوف عليها وسمات الدخول، وبرزت على الأكتـــاف النجـــوم والتيجان على أكتاف أبناء بلد لا تتجاوز مساحتها الكف.

هل انهزمت الفصحى؟

إن الواجب القومي والوطني أن تقوم حملة كبيرة للتوعيـــة بضرورة العودة إلى الفصحى، بعد أن انتشرت العامية هذا الانتشار السريع وبخاصة في البيـــت والمدرســـة والجامعة، وتخطط لوقف هذه المؤامرة وبدراسة عميقة للطرق التي توصل إلى حب اللغة العربية لأبنائها؛ لأن لها قدرة قوية على الوقوف ضد هذه التيارات ولا لـــوم علينـــا، فالغرب شديد المحافظة على لغته والتخلص من اللغات الأخرى؛ ففي ولاية تكـــساس قرية صغيرة عدد سكانها ٧٨٠٠ اختارت الإسبانية لغة لها فثـــارت طبـــول طـــواحين الإعلام على مدينة (السنـــزو) الأمريكية ورأوا الخطر المحدق في أمريكا وعلـــى اللغـــة

الأمريكية من هذه الظاهرة، وهي قرية صغيرة في ولاية تكساس، وبدأ العلماء والباحثون يدرسون خطر اللغة الإسبانية التي اتخذتها قرية الستزو على أمريكا، وعدت القرية خطرًا على لغة أمريكا القومية، وقورنت بما صنعت كيوبك في كندا التي تستعمل الفرنسية بالرغم من اتساع اللغة الإنجليزية وسيطرتها العالمية[1]، وفي فرنسا صدرت مذكرة حول تعليم العامية للعرب وكتابة العربية بالحروف اللاتينية (الشرق الأوسط٢٠٠٠/٢/٢٧م وحجتهم أن العرب الذين في فرنسا يتكلمون العامية ولا يعرفون الكتابة، والنص المكتوب باللاتينية يسهل عليهم الفهم ويساعدهم على النجاح في تعليمهم الجامعي، والواقع أن البعد السياسي والتعصب الديني ضد العربية من أهم دواعي هذه الحملة، إن وسائل الإعلام العربية المرئية والمسموعة أخذت تمعن في استعمال العامية والعامية المحلية فهناك في لبنان مثل هذه الوسيلة واضحة، وإذا أرسل قارئ رسالة بالفصحى تقرأ باللهجة اللبنانية العامة، إنها خطة مدروسة لتحدي الفصحى.

أقول بصراحة: إن دعاة العامية أو النبطية أو الشعبية يدارون ضعفهم في ركوب موجة العامية مدعين أنها أقرب إلى فهم العامة وأتساءل: لماذا يهبطون إلى العامية ولا يرتفعون إلى الفصحى؟ وهذه المسلسلات التراثية يقبل عليها الناس بلهفة ويفهمون أحداثها فهمًا واضحًا، ومما نشر في الصحافة رأي لـ (عائدة أبو فرح) تقول لتليفزيون (M TV) ترد على دعاة العامية في لبنان، وتقول بأن الفصحى توحد اللهجات في لبنان لوجود اللهجات التي يتحدث بها أهل بيروت غير التي يتحدث بها أهل الشمال، إذ إن بعض سكان الشمال مثلاً لا يفهمون اللهجة التي يتحدث فيها أهل بيروت؛ لذلك فالفصحى تكون حلاً وحيداً لإيصال الخبر الصحيح بالشكل الصحيح.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج: ٢١، ج: ١ ص: ١٥.

وقد نشرت إحدى الجرائد[1] تحت هذا العنوان (انكفاء الفصحى في البرامج الإذاعية والتليفزيونية في لبنان) وقالت: (المذيعون يجنحون إلى العامية بامتياز المرئي والمسموع، وتحدثت عن انقسام أبناء لبنان عن انتشار العامية في معظم وسائل الإعلام وابتعاد عدد كبير منهم عن الفصحى. ومن حسن الحظ هناك من يقاوم هذا التحدي، فقال بعضهم: إن تراجع العربية الفصحى عن مجالات المشافهة يؤدي إلى عواقب وخيمة، ورد آخرون بأن العامية هي أقرب إلى أذن المواطن والأبسط للاستيعاب بعد أن تخلى المنتجون عن مسلسلات الفصحى، ولا أدري هل هناك عامية لبنانية سليمة، وهي مشحونة بالإنجليزية والفرنسية وتدخل الآن السرلنكية كما قالت ليان حداد في مقالها، وجدت اختلافاً بين المذيعات في لبنان وكان مع الفصحى عدد من المذيعات، ونسي هؤلاء أن الفصحى تجمع العرب والعامية تفرقهم.

* * *

---

(١) الشرق الأوسط ٢٠٠٠/١/٤م وفي المقال آراء المذيعات في إذاعة لبنان، مثل: نورا خوري مع العامية، وغادة أبو فرج مع الفصحى، والدكتور أحمد بيضون، وبعض آراء أخرى عن العامية والفصحى أجرتها: ليليان حداد.

صراع اللُّغات في وسائل الإعلام(*)

للدكتور عبد الهادي التازي

(عضو المجمع)

لم يكن يدور بخَلَدي طَوال العقود الماضية على إنشاء هذه المؤسسة الخالـدة أن تأتي أيام يُخَصِّص فيها المجمع موضوعه بالكامل للغة العربية في وسائل الإعلام لماذا؟ لأن اللغة العربية في وسائل إعلامنا كانت تتمتع وحدها بالظهور سمعيًّا وبصريًّا وكتابيًّا، و لم تكن تخشى أيَّ منافس لها على الساحة فقد ازدحمت الأصول وتكاثرت اللغات الـتي تطلب بحق وجودها بحجةٍ أو بأخرى، ومن هنا أمسى المسؤولون عن اللغة العربيـة في مختلف المجامع يرفعون عَقيرتهم بالشكوى من المزاحمات التي تعتبر أحيانًـا مـن قبيـل المضايقات! .

وقد زاد في همنا – نحن المجمعيين- أن هـذه الأصوات التي أخذت في الارتفاع لم تكن صادرةً عن لغاتٍ نعتبرها أجنبية بالمعنى الحضاري، أي إنها فرنسية أو إسبانية أو إنجليزية أو ألمانية، ولكنها أصوات نابعة من نفس الأوطان التي نـسكنها، وتتمثـل في اللغات المحلية التي نعيشها من أمازيغية بمختلف لهجاتها وكردية أُوردية إلى آخر اللغـات التي يتعامل بها المسلمون في الشرق والغرب.

ويبدو لي أننا نبالغ كثيرًا في اتهام وسائل الإعلام بالتقصير إزاء اللغـة العربيـة، ونبالغ كثيرًا في التخوف الذي أخذ يخالجنا إزاء ظهور اللغة العربية وسأتحدث هنا مـن منطلق باحثٍ محايدٍ يتتبع أحيانًا أجهزة الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية طوال عقود طويلة خلت منذ ظهر الراديو في بيتنا وأعقبه التليفزيون المحلّي إلى أن تبعه التليفزيـون العالمي.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثالثة من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والستين، يوم الثلاثاء ٢٠ من مـارس سـنة ٢٠٠١م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الثالث والتسعين، ص ٣٥.

أستطيع القول، دون أن أخشى معقِّبًا: إن اللغة العربية بخير! نعم بخير وألــف خير؛ لأنها غزت البادية والجبلَ والصحراء، ولأن المشرفين عليها ممن يمتلكون زمام اللغة العربية عملوا دائمًا على تطوير معارفهم وتحْسين أدائهم وأرجو أن نقومَ بمقارنةٍ نــزيهة بين الأمس واليوم لنقتنع بأن زادنا في اللغة العربية زاد ينمو بمرور الأيام.

نعم – وبالرغم مما نحس به أحيانًا من أن لغةً أو لهجة تطفو على الصعيد، فإننــا في آخر المطاف نجد أنه لا يوجد أي أثر سلبيّ على اللغة العربية في ظهور لغةٍ أو لهجــةٍ ما؛ لأن اللغة العربية أخذت مكانها سلفًا، وهي في موقعٍ جيّدٍ، لا تخــشى معــه أيــة حضارة.

وأستطيع القول أيضًا، وأنا أشير إلى المقارنات والمفارقات بين الأمس واليــوم: إنني أستطيع أن أؤكد أن الأطر العاملة في وسائل الإعلام تواكب بدقةٍ ما يجري مــن تطور في اللغات الأخرى، وتقوم في نفس الوقت بتطعيم وتلقيح اللغة العربيــة أحيانًــا دون استشارة المجامع، تطعيمًا وتلقيحًا بما يجعلها لغةً قائمة على قدميها دائمًا وآخذة في طريقها إلى جانب اللغات التي نعتقد أنها تزاحمها أو تقاومها وأعتقد أن هناك – ربما – عقدةً تُهيمن على تفكيرنا في بعض الأحيان هي أننا نخشى وجود غيرنا معنا! ما نــزال نرفض التعامل مع هذا الغير. .! إن اللغات الأخرى فرنسية، إنجليزية، إسبانية ظهرتْ، وبحكم العولمة الزاحفةِ الراكضةِ ما تزال تظهر يومًا عن يوم، ولا مناص لنا من التعامــل بها والتعايش معها في الوقت نفسه الذي نعمل على الاستفادة من هذا التعامل والتعايش لإسماع نبْرة الحرف العربي لنفس المنابر التي تظهر فيها اللغات الأخر، بمعــنى أننــا في الوقت الذي نقبل فيه وجود الغير، علينا نحن كذلك أن نعمل بكلِّ وسائلنا على حمــل الغير على أن يقبلنا ويفهمنا.

لقد ولّى وقت إغلاق الآذان والعيون عما يظهر، إذنْ لا بد أن نعرف أن وجود لغاتٍ أخرى على الساحة أمرٌ طبيعي ومن شأنه – في نظري – أن يساعد على إغناء لغتنا واكتشاف المزيد من أسرارها ومباهجها ومفاتنها.

هناك حكمة للكاتب الألماني المعروف كوت Goethe تقول: "مَن لا يعرف من اللغات إلا لغتَه فذاك يَجهل حتى لغته".

لذلك أرجو التأكيد على قبول الغير كما أرجو في الوقت ذاته ألا يفسر هذا القبول على أنه تسليم في تراثنا – أبدًا – بل على العكس من ذلك، إنه – كما أسلفت – إغناءٌ للغتنا، وعامل من عوامل صمودها ومسايرتها للركب العلمي.

ومن هنا أعود للقول مرة أخرى بأن اللغة العربية في وسائل الإعلام بخير، وإن تحريفَ لفظٍ من مذيع أو مذيعة، وإن خرق قاعدة نحوية أو صرفية من صحفي أو صحفية لا يزعجني كثيرًا وأنا أسمع وأرى وأقرأ لهؤلاء في مجالاتٍ أخرى ما يثلج الصدر دفاعًا عن اللغة العربية وغيرةً على وجودها وحضورها.

لقد كان بعض شيوخنا بالأمس القريب ممن درسنا عليهم- رحمهم الله- كانوا لا يحسنون تحرير خطاب أو كتابة رسالة، وكانوا يرتكبون من اللّحن في الكلام ما كانوا يعيبونه هم على الآخرين، وسمعناهم يقولون، وهم يلحنون من قرائهم: " النّحو صنعتُنا واللحنُ عادتنا! "

لكل هذا أرجو أن يُسْمَح لي في هذا الإعراب عن وجهة نظري فيما يتصل بالموقف إزاء هذا الموضوع.

وهناك عنصر من العناصر التي طالما راجَعَنا فيه المشرفون على التحرير في وسائل الإعلام، هذا العنصر هو قضيةُ المصطلح فالناس في حيرةٍ من أمرهم، هل يعتمدون المصطلح المستعمل في مصر أو في سوريا أو في العراق أو في بلاد المغرب؟! .

وهنا تنتصب علامة استفهام كبرى أمامنا تتعلق بقضية المرْجِعية، لمن سيكون مرجع وسائل الإعلام في الأخذ بهذا المصطلح أو ذلك، وعندما نحاول أن نجيب عن هذا السؤال نصل مباشرةً إلى أصحاب القرار السياسي، وهل في استطاعَةِ أصحاب القرار أن يتوحَّدوا وأن يساعدوا المجامع على أن تُصبح ذات سلطة حول استعمال هذا المصطلح أو ذلك؟ !

إن الأكاديميات في أوربا مثلاً لها الحق في أن تفرض مصطلحًا ما من المصطلحات، وعلى جهاز الدولة أن يقتصر على استعمال ما قررته الأكاديمية في مختلف الجهات.

لأجل هذا، ونحن نتحدث عن اللّغة العربية في وسائل الإعلام، علينا أن نقوم نحن بالانفتاح على تلك الوسائل حتى تؤدي رسالتها، وبالسرعة المطلوبة، علينا أَن نقدم لها الفتوى في الوقت المناسب، علينا أن نشعرها بأن هناك مرجعيةً موحدةً في هذا الأمر ولا نتركها تتخبط بين اختيارات القواميس الرائجة.

ومن هنا سأخلص إلى ملتمسٍ طالما رددناه وأمَّلنا تحقيقه من المشرفين المسؤولين على أمر اللغة من رؤساءِ المجامع والأكاديميات، وهو تكوين هيئة عليا للتَّرجمة العربية تعتمد على رجالٍ أكفاءٍ في تقريب ما يجدّ من مفرداتٍ حضاريةٍ إلى اللغة العربية، وجعلها في متناول الراغبين على صعيدٍ واسعٍ لا يُحرَم منها أحد، ومن هنا سألتفت قليلاً إلى دور القواميس، دور وجودها في كلّ مكتب وكلّ زاوية إذا كنا نرغب في حماية اللغة العربية والحفاظ على نَفَسها المتحدد، القواميس الحية التي تساير العالَم كتفًا لكتِف، وتكون ذات قابليةٍ للتعْبير والتحديث والتحيين - عندما تقتضي الحاجةُ ذلك.

لا أدري كيف نقبل أن نسمع بوجود لجنةٍ دائمةٍ للقاموس تجتمع في أوربا على طول شهور السنة لتخرج في نهاية العام قواميس جديدةً تستوعب ما جد من مفرداتٍ

وتعابير ومصطلحات، لا أدري ونحن نسمع بذلك، ماذا يمكن أن نقول لعلمائنا ومجامعِنا ونحن نتحدث عن دور اللغة العربية في وسائل الإعلام؟

إن قراء اللغة العربية يتزايدون يومًا عن يوم في كل جهات الدنيا حسب استطلاعات الرأي، وإن موضوعات التناول باللغة العربية تعددت بل وازدهرت وأخذت تواكب المسيرات لحسن الحظ، بالرغم، مما نراه من ظهور لغاتٍ أخرى ولهجاتٍ أخرى، إن كل ذلك الصراع الذي نشاهده عبْر الشاشة وعبر الإذاعة وعبر الجريدة كذلك كان ينتهي ذلك الصراع في نظري إلى حقيقةٍ واحدةٍ، وهي أن اللغة العربية كانت لتبقى، ولن تستطيع حضارة من الحضارات أن تُبعدها عن الساحة ما دمنا نعمل نحن على تطويرها وازدهارها وحسن استعمالها.

وما دمنا جادّين في ملاحقة الجديد من القول لإغنائها بذلك الجديد، وكلّنا يعرف أنها أي اللغة العربية قادرة على استيعاب كل المميزات وكل الخصوصيات، وقادرة كذلك على أن تسهم هي بدورها في مساعدة اللغات الحضارية الأخرى. .. الأمر يتطلب فقط أن نقوم بالخطوات الأولى وأن نؤمن بأنّ وجود غيْرنا معنا لا يمكن أن ينال من عزيمتنا وتصميمنا.

* * *

التصويب اللغوي في وسائل الإعلام العربي بين المشرق والمغرب(*)

للدكتور محمد بنشريفة

(عضو المجمع)

من المعروف أن حركة التصويب بدأت حين ظهر الخطأ أول مـرة في أواخـر القرن الأول للهجرة بعد الفتوح الإسلامية، واختلاط العرب بغيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام وتكلمت بلغة القرآن، فظهر الخطأ وسمع اللحن، وكان هذا دافعًا إلى حماية العربية وسببًا لنشوء ما سمّي بمبدأ تنقية اللغة[١]، وظهور نوع من المؤلفات في لحن العامة، بدأها علي بن حمزة الكسائي، ونحا نحوه آخرون من مختلـف العـصور في المشرق والمغرب. وقد عدّ بعض الباحثين أزيد من خمسين كتابًا مـن تـراث لحـن العامة[٢]. ولهذا التراث فائدة كبيرة في دراسة التطور اللغوي ومعرفة مظاهره في مختلف الأعصار والأمصار العربية[٣]، وينبغـي أن أشير إلى أن المقصود بالعامـة في الكتـب المذكورة هم من يمكن تسميتهم بعامة الخاصة أو من يدعون اليوم أنصاف المـثقّفين، وهذا المعنى هو الذي يوضحه أبو بكر الزبيدي بقوله: " فألفيت جملاً ممّا أفسدته العامة عندنا، فأحالوا لفظه أو وضعوه في غير موضعه، وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة، حتى ضمَّنته الشعراء أشعارهم واستعمله جلة الكتاب وعلية الخدمة في رسائلهم"[٤].

وذكر بعد هذا أنه لم يجتلب "ما أفسده دهماؤهم وسقّاطهم ممـا عـسى أن لا يعزب عمّن تمسّك بطرف من الفهم"[٥]، ومما يدل على هذا أيضًا عناوين بعض الكتب التي ألفت في اللحن، مثل:**"درة الغواص في أوهام الخواص"** للحريري، و**"التنبيه على غلط الجاهل والنبيه"** لابن كمال باشا.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة السابعة من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والستين، يوم السبت الموافق ٢٤من مارس ٢٠٠١ م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالعدد الثالث والتسعين، ص ١٠٩.

ونشير أيضًا إلى أن هذا الذي سمّاه الأقدمون لحنًا يعتبره اللغويون المحدثون تطوّرًا لغويًّا نشأ من طبيعة اللغة باعتبارها كائنًا حيًّا يخضع لما يخضع له الكائن الحي من نشأة ونموّ وقوّة وضعف.

وقد ظهرت أبحاث بهذا المعنى أنجزها عرب ومستعربون (٦).

ولما صدرت الجرائد في العصر الحديث، وهي أول وسائل الإعلام ظهورًا- عاد المؤلفون إلى الحديث عن التصويب اللغوي والتأليف فيه، ولعلّ أول هؤلاء المؤلفين المحدثين هو الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب كتاب **"لغة الجرائد"** (٧).

وقام فيه "بتصحيح ما تداولته الأقلام من الأوهام"، وقد وجد أن بعض الأوهام التي وقع فيها أصحاب هذه الأقلام وقعت قبلهم لقوم من أكابر الكتاب، ومن أمثلة ذلك قولهم: لا يخفاك أن الأمر كذا، فقد جاء في "نفح الطيب" للمقري: "ولا يخفاك حسن هذه العبارة(٨)"، والصواب: ولا يخفى عليك.

وقد كان اليازجي أول من أشار إلى تأثير اللهجة العامية والترجمة الحرفية عن اللغات الأجنبية في العربية الحديثة، وهو التأثير الذي طما بحره بعد ذلك.

ومن الغريب أن الأخطاء اللغوية التي ذكرها اليازجي ومن جاء بعده ما يزال بعض الكتاب يرتكبونها إلى الآن، وقد تحدث مؤلف كتاب **"أخطاؤنا في الصحف والدواوين"** عن هذا الحال، فقال: "وعندي أن إصلاح كلام هذه الفئة لا يكون بالتنبيه على عثراتها والإشارة إلى ما ينبغي إطراحه من مصطلحاتها ومواضعاتها، فهذا أمر يطول حديثه ولا يقنع، ولو ألّف فيه معجم كاللسان، ولا سبيل لمعالجة الداء إلاّ بتعهّد أسبابه الأولى وتدبّر علله الأصلية، فكتابنا من لغتهم على ما رأيت من البعد والغربة، ومن الاعتزال والوحشة، فلا مندوحة إذًا عن اقترابهم منها بالتلطّف لها، والتوفر على دراستها" (٩).

لقد قيل هذا الكلام في الأربعينيات من القرن الماضي، وهي سنوات كان فيها بعض من يكتبون في الصحف بمصر والشام والعراق من أئمَّة البيان، فأين نحن الآن من ذلك الزمان؟

لكن الإنصاف يوجب ألا نبخس الصحافة حقَّها، ويفرض أن نعترف بفضلها، ونشيد بدورها في إحياء اللغة الفصحى، وإشاعتها بين الناس، وإسهامها في جعل كثير من المفاهيم والمصطلحات متداولة ومستعملة عندهم، وكذلك الإذاعة التي كان لظهورها في البلاد العربية أثر عظيم فيما ذكرنا لعله فاق أثر الصحافة، وأستشهد هنا على سبيل المثال بكلمة للشيخ محمد الفاضل بن عاشور وهي قوله:

" لما شاعت أحاديث المذياع في أوساط الأمّيين كثرت ورود الألفاظ والتراكيب الفصحى على أسماعهم فألفوها، وبذلك بدأت المفردات العامية تتناقص، والمفردات الفصحى تكثر، وصيغ النطق تعتدل، حتى تطوّرت اللهجة العامية تطوُّرًا عظيمًا، وذلك من أمتن دعائم الوحدة العربية الكاملة(١٠)".

إن التصويب اللغوي في وسائل الإعلام الذي اهتم به عدد من المؤلِّفين طَوَال القرن الماضي نشأ عنه رأيان:

- أحدهما يدعو إلى حماية اللغة وصيانتها وتنقيتها وصفائها، وينتقد أي محاولة للخروج عن سننها المقرَّرة، ولا يسكت عن أي تهاون في الأخذ بها، ومعظم المجمعيين والجامعيين من أصحاب هذا الرأي، وسأختار مثالاً له من محاضرة للجامعي المجمعي سعيد الأفغاني تحدث فيها عن لغة الخبر الإعلامي في الوكالة العربية السورية للأنباء، ومما جاء فيها:

"وصرنا نلمس في غير ما قطر عربي ضعف بعض المذيعين في ثقافتهم عامّة وفي لغتهم العربية خاصة، فصارت بعض الأحيان أداة هدامة تهدم كلّ ما تعب في بنائه

مدرّسو اللغة. وطَفِقت الدول تنفق على الإذاعات عشرات الملايين لهدم ما أنفقت في بنائه مئات الملايين، وينبغي مكافحة هذا الوباء في الصّحافة والإذاعة وسائر أجهزة الإعلام[١١]".

ومن جملة ما دعا إلى تصويبه قولهم: القانون الدُّوَلي بضم الدال وفتح الواو، والصواب الدَّوْلي بفتح الدال وسكون الواو[١٢].

- أما الرأي الثاني فيدعو أصحابه إلى تبسيط اللغة وتقريبها من أكبر عدد من القراء والمستمعين، وهم يقولون: إن الفضل فيما وصلت إليه العربية الحديثة يرجع إلى الصحافة، وجل أصحاب هذا الرأي من الصحافيين، ومنهم أديب مروة الذي يقول: " إن الأسلوب السهل المشرق الذي وصلنا إليه اليوم في الكتابة بلغتنا العربية لا يعود الفضل فيه إلى معلّمي اللغة في المدارس والكليات، ولا يعود الفضل فيه إلى الكتاب والأدباء القدامى، بل الفضل الأول في هذا الأسلوب يعود إلى صحافة اليوم[١٣]".

ويرى عبد اللطيف حمزة أن "المعين الأول الذي يستقي منه المعجم اللغوي للصحافة في كل أمة من الأمم هو الشعب[١٤]". وقد ذهب إلى أن لغة الصحافة إنما هي عامية معربة، أو مفصَّحة وقال: "والعجب كل العجب أن نرى بعض المجدِّدين في الأدب يطالبون ملحِّين بين الحين والحين باصطناع اللهجة العامية في الكتابة تيسيرًا على القراء وإشراكًا لأكبر عدد منهم في التعليم والثقافة. وما درى هؤلاء المجدِّدون، وهم يتعبون أنفسهم في هذا السبيل، أن الصحافة الشعبية تقوم لهم بهذا العمل الجليل، وتتقدم كل يوم خطوة جديدة نحو هذه الغاية، ولكن من غير أن تثير عليها ضجَّة من جانب المحافظين المتزمتين الذين يحمون اللغة الفصيحة من أن يتسرب إليها بعض الألفاظ والجمل التي ليست منها في الحقيقة".

ويبدو أن هذا الرأي الذي يدعو إلى استعمال لغة خفيفة من وسائل الإعلام هو الرأي الغالب الآن، ويسمي بعضهم هذه اللغة الفصحى المعاصرة.

أنتقل بعد هذه اللمحة السريعة عن حركة التصويب اللغوي في وسائل الإعلام بالمشرق إلى الحديث عن التصويب اللغوي في المغرب، وهو قليل بالقياس إلى ما رأيناه لدى المشارقة، وسبب ذلك أن الصحف لم تظهر في المغرب إلاّ في عهد متأخر، وكانت جريدة " السعادة" التي صدرت في طنجة سنة ١٩٠٤م ثم نقلت إلى الرباط حيث ظلّت تصدر إلى سنة ١٩٥٦م هي أطول الجرائد عمرًا في عهد الحماية الفرنسية، وقد أشرف على تحريرها في العقود الأولى بعض اللبنانيين والجزائريين الذين استقدمتهم الإدارة الفرنسية[١٥]، وكان كتابها ومراسلوها من بعض المغاربة الذين درسوا العلوم الدينية والأدبية[١٦]، ولهذا كانوا يحافظون على جودة الأسلوب ونصاعته، ويمكن تشبيه هذه الجريدة من حيث الهدف والأسلوب بجريدة " المقطَّم" و"المؤيد" في مصر.

وفي العَقد الثالث وما بعده من القرن الماضي ظهرت صحف أنشأتها الحركة الوطنية في شمالي المغرب وجنوبيِّه، وأشهرها جريدة "العلم" التي ما تزال تصدر إلى الآن، ولم يكن في هذه الصحف الوطنية ولا في تلك الصحف الرسمية صحافيون محترفون كما كان الأمر في المشرق، وإنما كان معظمهم ممن درس في المعاهد الأصلية، ومنهم من درس في المدارس التي أنشأتها إدارة الحماية الفرنسية[١٧]، وكانوا في الجملة يتابعون ما يصل إلى المغرب من الجرائد والمجلاّت المصرية وغيرها، فيتأثرون بأساليبها.

ولما كان استقلال المغرب حَدَثَ تطور كبير في التعليم ووسائل الإعلام من حيث الكم، ولكن كان لذلك تأثير على الكيف، وأسهم فيه انتشار اللغة الفرنسية في عهد الاستقلال انتشارًا لم يعرفه المغرب في عهد الحماية، فأصبحت الثنائية اللغوية في المغرب أمرًا واقعًا طوال النصف الأخير من القرن المنصرم وما تزال، وفي هذه الحقبة ظهر الضعف اللغوي في وسائل الإعلام، وظهرت بعض الكتابات في التصويب اللغوي، ولعل أشهرها ما كتبه الدكتور تقي الدين الهلالي، فقد نشر سلسلة مقالات في مجلة "دعوة الحق" التي تصدرها وزارة الأوقاف بالمغرب وسمّاها "تقويم اللسانين". قال:

"المراد باللسانين: اللسان والقلم، فإن العرب تقول: القلم أحد اللسانين، والمقصود هنا إصلاح الأخطاء التي تفاقم أمرها في هذا الزمان حتى أصبحت مألوفة عند أكثر الخاصة بَلْهَ العامة، فشوهت وجه اللسان العربي المبين، ورنّقت صفو زُلالِه المَعين[١٩]" وقد بدا لهذا العالم المغربي الذي طوّف كثيرًا ومارس العمل في الإذاعة والصحافة، وزاول التأليف والترجمة أن يحذو حذو إبراهيم اليازجي وأسعد داغر، ويكتب في موضوع التصويب: "أداء الواجب للغة الضاد، وصونًا لجمالها من الفساد ".

وقد نبّه تقي الدين الهلالي في هذه المقالات على أشياء لم يذكرها غيره ممن كتب في الموضوع، ولكنه كان يطيل حبل الكلام، ويخرج إلى الاستطراد، ويحتد في الرد؛ ولهذا لا يقبل بعض القراء على ما يكتبه[٢٠].

وممن لهم إسهام في التصويب اللغوي بالمغرب: عبد الله كنون، ومحمد الفاسي، ومحمد بن تاويت، ومحمد الحلوى، وأحمد الأخضر، وغيرهم [٢١].

ولما تأسست أكاديمية المملكة المغربية في سنة ١٩٨٠م كان السّهر على سلامة اللغة العربية وحسن استعمالها من الأهداف المنصوص عليها في قانونها التأسيسي[٢٢]، وتحاول لجنة اللغة العربية في الأكاديمية العمل على تحقيق هذا الهدف بالتعاون مع المشرفين على وسائل الإعلام والتعليم والترجمة، وقد قامت بجهود في جميع هذه المجالات، فرصدت الاستعمال اللغوي في الإذاعة والتلفزة والصِّحافة، وحصَرت مجموعة من الأخطاء، وقامت بتصويبها في قوائم وجّهتها إلى وسائل الإعلام المذكورة[٢٣].

وقدمت مقترحات إلى المسؤولين عن الإعلام كان منها:

١- تقوية دروس اللغة العربية في المعهد العالي للصحافة.

٢- العناية بتدريب الطلاّب في هذا المعهد على حسن الإلقاء والتلاوة.

٣- حسن اختيار العاملين في أجهزة الإعلام، وإسناد العمل لمن هو أهل له.

٤- تعيين مراجعين لغويين في الإذاعة، والتلفزة، والصحف.

٥- تنظيم دورات تدريبية منتظمة للمحرِّرين، والمذيعين، ومقدِّمي البرامج في الإذاعة، والتلفزة.

٦- إحداث جوائز تشجيعية تمنحها وزارة الإعلام للمتفوِّقين في العمل الإذاعي والتلفزي المتميِّزين بحسن استعمال اللغة العربية تحريرًا وإلقاء.

ولتيسير الأداء اللغوي السليم أشارت لجنة اللغة العربية على المسؤولين عن وسائل الإعلام بتوفير بعض الوسائل التكميلية، ومنها:

١- شكل الكلام المكتوب والمرقوم وضبطه بإشراف مراجعين لغويِّين.

٢- توفير معاجم المصطلحات الإعلامية الميسَّرة ومعاجم الألفاظ الشائعة في ميادين العلم والثقافة والحضارة.

٣- توفير "معجم جغرافي" يضبط أسماء الأماكن والبلدان(٢٤).

وقد تعزّز عمل لجنة اللغة العربية في الأكاديمية بتنظيم ندوة حول "قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب"، شارك فيها أكاديميون ومجمعيون وجامعيون من المغرب وبعض الأقطار العربية، وتناولت أبحاث المشاركين في الندوة قضايا المعجم العربي، والرصيد اللغوي، والتعريب، والترجمة، والمصطلح، والازدواجية اللغوية، ومناهج تعليم اللغة العربية، وأثر لغة الصحافة ووسائل الإعلام في تطوير اللغة العربية وتنميتها، وقد نشرت الأكاديمية هذه الأبحاث ضمن سلسلة الندوات من مطبوعات الأكاديمية(٢٥).

وكان للجنة اللغة العربية اهتمام كبير كذلك بدراسة موضوع الترجمة، إذ من أهداف الأكاديمية أيضًا السهر على إتقان الترجمة من اللغة العربية وإليها، وقد صدرت عنها مقترحات وتوصيات في هذا الموضوع، منها التأكيد على توافر الشروط الضرورية فيمن يقوم بالترجمة كإتقان اللغتين المترجم منها والمترجم إليها، والتخصص في المادة التي

هي موضوع الترجمة، وتوافر أدوات العمل الضرورية كالمعاجم المتخصِّصة ومضابط المجامع اللغوية، وقد وجهت تنبيهات إلى المعنيين بأمر الترجمة حول ما شاع من فساد في ترجمة عدد من مفاهيم الحضارة، والثقافة، والتِّقانة، والأعلام الجغرافية، وغيرها. ودعت إلى توحيد الضوابط الخاصة بكتابة الأعلام الأجنبية بالحروف العربية، وتقدمت بمشروع لإنشاء معهد عالٍ لضبط المصطلحات والترجمة، ونظمت ندوة للترجمة العِلْمية، شارك فيها باحثون من المغرب والمشرق، وقد نشرت أعمال هذه الندوة كذلك ضمن سلسلة الندوات التي تصدر عن الأكاديمية(٢٦).

ومن المواضيع التي دُرست في لجنة اللغة العربية أيضًا موضوع "الحرف العربي والتكنولوجيا" وقد عُقدت له ندوة ساهم فيها خبراء في تكنولوجيا المعلوميات، وكانت الغاية المنشودة منها هي البحث عن أحسن وجه لتعامل الحرف العربي مع هذه التكنولوجيا المتطوِّرة (٢٧).

وقد كان للّجنة أيضًا رأي في إصلاح التعليم، وتحسين برامج اللغة العربية، ومراجعة بعض المعاجم التي عرضت عليها. ونحن نتعاون كذلك مع اتحاد المجامع العربية في مختلف الأعمال التي يدعو إليها.

إن هذه الجهود التي عرضتُ عناوينها باقتضاب شديد هي دون مطامحنا المنشودة؛ لأن اللجنة كانت تعتمد على جهود أعضائها، وعددهم محدود، وهي تفكر الآن في الأخذ بنظام الخبراء واختيارهم من بين الأساتذة الجامعيين للاستعانة بهم في إنجاز برامجها.

وأريد أن أنوِّه بجهود تقوم بها بعض المؤسسات عندنا في خدمة اللغة العربية ومنها مكتب تنسيق التعريب الذي يواصل عمله الجليل من خلال المعاجم ومجلة "اللسان العربي".

ومنها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب الذي ينظّم نـــدوات، ويـــدعو إلى محاضرات، ويصدر بانتظام مجلة أبحاث لسانية، وقد نشر في السنوات الأخيرة معاجم في المعلوميات والتعمير والنباتيات.

وللجامعات المغربية وبعض الجمعيات وبعض الأفراد جهود مشكورة في خدمة اللسان العربي.

بيْد أن اللغة العربية التي هي اللغة الرسمية بنص الدستور ما تزال مضارَّة باللغـــة الفرنسية في مجالات متعدِّدة، وهي إلى الآن ليست اللغة المـــستعملة في دوائـــر المـــال والاقتصاد، كما أن الثنائية اللغوية في التعليم والصِّحافة والإذاعة والتلفـــزة مـــا تـــزال سارية، ولعل أبلغ ما يدل على هذا الوضع هو العنوان التالي:

"ما مستقبل جريدة تصدر بالعربية في المغرب؟"

وهو عنوان مقالة كتبها الصحفي والوزير السابق في الإعـــلام محمـــد العـــربي المساري، وقد بدأها بقوله:

"يطرح هذا السؤال للاعتبارات التالية وهي:

أن الثنائية اللغوية في المغرب مستقرة، وهي في تفاعل مستمر وأن هناك عوامـــل تؤثر بشكل خاص على أداء الصحيفة الصادرة بالعربية في المغرب وأن الارتباط باتفاق شراكة مع الاتحاد الأوربي في أفق ٢٠١٠ سيجعل للصحيفة الصادرة بلغة أوربية مكانة متزايدة الأهمية في المناخ الاقتصادي والسياسي في مغرب الغد"، ومما جاء في هذه المقالة "أن هناك تفوقًا ملموسًا للفرنسية يتجلى في أشياء متعددة من فاتورة المعاملات التجارية إلى الورقة الإدارية البسيطة فضلاً عن أن التقارير والمذكرات التي تتحرك من دواليـــب الإدارة كلها محرَّرة بالفرنسية، وقد زادت هذه الظاهرة غلوًّا واســـتفحالاً في الـــسنين الأخيرة واستقر طبع التداول بالفرنسية في الاجتماعات والندوات كمسألة بديهيـــة لا تثير سؤالاً[٢٨]".

وأشار إلى هذا الوضع الغريب أيضًا جامعي لغوي هو الدكتور عبد القادر الفاسي، الذي يقول: "إننا بالرغم من كون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد - نشهد تحولاً في غير صالح العربية، أحد تمظهراته تزايد مستمر في تحرير النصوص والمراسلات الرسمية أكثر فأكثر بالفرنسية، ونجد إلى جانب هذا صيغًا معربة لهذه النصوص، لكنها مكتوبة غالبًا بلغة غير مفهومة، فأين يكمن الخلل وكيف يمكن تجاوز هذا الوضع؟".

وقد قرأت أعمال الندوتين اللتين نظمهما معهد الدراسات والأبحاث للتعريب في موضوعي "عربية الصِّحافة"، و"العربية في الاقتصاد والإدارة"، وشارك فيهما جامعيون وصحفيون وإداريون، فوجدت في أبحاثهم غيرة صادقة على اللغة العربية ودعوة مؤكدة إلى تعميمها في الإدارة وتوظيفها في ميادين المال والاقتصاد، مع الانفتاح على تجارب الدول العربية في هذه الميادين.

ولعل مما يدعو إلى التفاؤل بمستقبل اللغة العربية عندنا أن مزدوجي اللغة عندما يحاولون التحدث بالعربية في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، يجتهدون في أن يكون كلامهم بلغة معربة ميسَّرة، وليس بالعامية الدارجة وسبب هذا -فيما أرى - أن عاميتنا المغربية ليست متطورة كبعض العاميات المشرقية والمتداولة التي نجدها اليوم تزاحم الفصحى، وتنتشر عبر القنوات المختلفة في المسلسلات وغيرها.

ومن هنا نقول: إن العامية الدارجة المغربية لا تنافس الفصحى، وإنما اللغة الأجنبية هي التي تضارُّها وتضرُّ بها، ولما كانت اللغة أو اللغات الأجنبية مما لا بد منه للانفتاح على المعارف والعلوم العصرية، فإنه ينبغي أن يُراعى في توظيفها أن تكون في خدمة اللغة العربية.

* * *

المراجع (الهوامش)

١- العربية: ١٠٠-١١٠ يوهان فك.

٢- لحن العامة والتطور اللغوي: ٩٧-١٠٠، تأليف: الدكتور رمضان عبد التواب.

٣- العربية: ١٠٠-١١٠.

٤- لحن العوام للزبيدي، تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب.

٥- نفسه.

٦- منها كتاب "التطور اللغوي التاريخي" للدكتور إبراهيم السامرائي وكتاب "لحن العامة والتطور اللغوي" للدكتور رمضان عبد التواب، وكتاب "العربية" ليوهان فك وغيرها.

٧- نشرها في مجلة الضياء، وجمعها: مصطفى توفيق المؤيدي وطبعها في القاهرة.

٨- نفح الطيب.

٩- نقلاً عن كتاب لحن العامة والتطور اللغوي: ٣٥٠.

١٠- ورد في ندوة الإذاعة الصوتية حاضرها ومستقبلها، تونس ١٩٨٢م.

١١- لغة الخبر الإعلامي في الوكالة العربية السورية، دورة الخبر في الإعلام، دمشق ١٩٨٣م، ص ١٣١.

١٢- نفسه: ١٤٩، ويقول مصطفى جواد: إن النسبة إلى الجمع واجبة إذا أريدت الدلالة على الاشتراك، وذكر أن العرب قالت: رجل شعوبي، أصولي، إخباري. انظر "قل ولا تقل"، بغداد ١٩٧٠.

١٣- الصحافة العربية – نشأها وتطوُّرها – بيروت ١٩٦١.

١٤- المدخل في التحرير الصِّحفي، ٢٨٧، دار الفكر العربي ١٩٦٨.

١٥- كان منهم وديع كرم ويوسف كرم.

١٦- كان منهم: محمد بوجندار، وأحمد بوستة.

١٧- كان منهم: محمد المهدي الحجوي.

١٨- يبلغ عددها ١٥ مقالة، بدأت في العدد ٣ من السنة ١٠، وانتهت في السنة ١٣.

١٩- مجلة "دعوة الحق"، ع. ٣ س ١٠، ص ٢٦.

٢٠- كتب في الرد على مقال لبعضهم ١٦ حلقة في " دعوة الحق".

٢١- نُشرت جل تصويباتهم في جريدة "العلم".

٢٢- جاء في هذا القانون ما يلي: "السهر- بتعاون مع الهيئات المختصة في الميدان المقصود – على حسن استعمال اللغة العربية بالمغرب وعلى إتقان الترجمة من اللغة العربية وإليها وإبداء الآراء السديدة في هذا الموضوع"، أكاديمية المملكة المغربية، ص ٦.

٢٣- توجد نماذج منها في " قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب": ٤٣-٤٤. وفي " الحرف العربي والتكنولوجيا ": ٤٦-٤٧.

٢٤- تراجع في كتاب:" قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب"، ٢٨-٢٩.

٢٥- " قضايا استعمال اللغة العربية"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٩٩٤.

٢٦-"الترجمة العلْمية"، مطبوعات المملكة المغربية، الرباط ١٩٩٧.

٢٧-"الحرف العربي والتكنولوجيا"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية،الرباط ١٩٨٩.

٢٨- نشرت هذه المقالة في الدورية المغربية لبحوث الاتصال، ع ٩، ١٩٩٨ من ص٣٣ إلى ص٤٣.

اللغة العربية والإعلام
الواقع والمأمول(*)

للدكتور أحمد بن محمد الضُّبيب

(عضو المجمع المراسل)

إن موضوع اللغة العربية والإعلام موضوع مثير للشجون، متعدد الجوانب، وهو ذو محاور كثيرة تحتاج إلى ندوات ومؤتمرات عديدة، ولذلك فإن الحديث فيه كلما كان مركزًا على محور معين كان أجدى للاقتراب من جوهر المشكلات والوصول إلى حلول لها. وعندي أن الحديث في هذا الموضوع ينبغي ألا يكون أحادي الموقف، بمعنى أن يكون صادرًا من المتخصصين باللغة العربية أو المدافعين عنها والمتحمسين لها، وإنما يكون حوارًا مشتركًا بين هؤلاء من جهة والقائمين على الوسائل الإعلامية من جهة أخرى، وذلك حتى يصل الجميع إلى نتائج مقنعة، مبنية على استكشاف آفاق قضايا الموضع من جميع جوانبها.

ولعلي أزعم – غير مبالغ – أن المشكلة الرئيسية، التي ينبغي الوصول إلى كلمة سواء فيها بين المفكرين المهتمين بقضايا اللغة العربية، وبين القائمين على وسائل الإعلام في بلادنا العربية، هي مدى عمق الوعي بأهمية اللغة العربية الفصحى في حياتنا ومستقبلنا. هل نحن متفقون فعلاً على ضرورة سيادة اللغة الفصحى وإعطائها المكانة اللائقة بها، بوصفها لغة الدين والتراث والحضارة؟ وبوصفها الرابط الوثيق بين أبناء هذه الأمة على اختلاف بلادهم ومذاهبهم؟ وبعبارة أخرى، هل نحن مستعدون للتنازل عن ميزة للأمة العربية، لم يعطها غيرها من الأمم، تتمثل بهذا التواصل والاستمرار اللغوي بين أبنائها، منذ أقدم نص مكتوب وحتى أحدث ما أنتجه عصر الحاسوب

(*) ألقي البحث في الجلسة السابعة، من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والستين، يوم السبت الموافق ٢٤من مارس سنة ٢٠٠١م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الثالث والتسعين، ص ص ١٢٣ – ١٣٩.

والشبكة العالمية للمعلومات؟ هل يعد هذا الثبات اللغوي الفريد بين لغات العالم، والذي يتأبى على قانون تطور جميع اللغات، ميزة أم نقيصة للعربية الفصحى؟ وهل التضحية بهذا كله لحساب اللهجات المحلية واللغات الأجنبية مكسب تناله الأمة العربية يسهم في تقوية الأواصر بينها، ويوحّد أبناءها أمام الأخطار والمصاعب، في زمن أصبح المتباعدون فيه لغة وتاريخًا وتراثًا، يتجمعون ويحتشدون، طلبًا للمصلحة، ورغبة في الوصول إلى القوة؟ .

قد تبدو هذه أسئلة عبثية أو ساذجة في بعض أوجهها، لكن الإجابة على هذه الأسئلة، بصدق وتجرد، تؤدي بنا إلى القول بأن من العبث والسذاجة أن تدار وسائل إعلامنا بطرق أبعد ما تكون عن مصلحة الأمة، واستشراف مستقبلها بين الأمم.

إنَّ من الواضح أن اللغة العربية الفصحى تخنق في معظم وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، بطريقة تشعر بأن بعض القائمين على هذه الأجهزة على عداوة راسخة مع العربية، إنهم لا يعطونها من الوقت إلا أقل القليل، ولا يمنحونها من البرامج إلا برامج معينة، قد لا يكون الإقبال عليها كثيرًا، ولا يبرزونها للجمهور إلا بطريقة منفرة؛ فالبرامج التي تقدم فيها الفصحى سيئة الإخراج والتنفيذ، بعيدة عن هموم الناس، ونبض حياتهم اليومية، تلقى فيها اللغة بتكلف ظاهر وتقعر ممجوج.

والتمثيليات والمسلسلات العربية التي تعرض بالفصحى - ومعظمها تاريخي - تمثيليات هزيلة شكلاً ومضمونًا، والانطباع الذي يأخذه المشاهد أو المستمع عنها أنها عنوان للتخلف، الذي لم يعد مناسبًا لهذا العصر، أما برامج الكثافة العددية من المستمعين والمشاهدين فهي برامج تسرح فيها العامية وتمرح، وتقدم فيها للجمهور على أنها لغة العصر، مع تطعيمها بالألفاظ الدخيلة والجمل المجتلبة من اللغات الأجنبية. ولا يتمثل الإقصاء بالنسبة للغة العربية في قلة البرامج الثقافية الراقية التي ترتفع بالمستوى الفكري والثقافي لدى المشاهدين، وإنما يتعدى ذلك إلى إقصاء العربية من البرامج الثقافية نفسها على قلتها، وذلك بلجوء المثقفين أنفسهم إلى العامية في الحديث

والمداولة، ولا يُخفِي كثير من الإعلاميين وكتاب القصة في هذا العصر نفـورهم مـن الفصحى، وانحيازهم إلى العامية، بدعوى اقترابها من الجمهور وقدرتها علـى التعـبير بسهولة عن مختلف مناحي الحياة، وتصويرها للواقع، ولهذا فإن من المؤسف أن نجد من كبار الكتاب والروائيين والصحفيين والسياسيين من إذا تحدثوا في وسائل الإعلام امتطوا صهوة العامية، وعبروا بها دون خجل أو اعتذار، بل دون اعتبار لأذواق الجماهير الـتي يتحدثون إليها، وهي الآن لم تعد محصورة في بلد معين، أو منطقة جغرافيـة محليـة أو سياسية محددة، ولو كان المخاطبون من أبناء البيئات اللهجية التي يتحدثون بها لكـان للأمر بعض الوجه، ولكن الواقع أنهم يخاطبون في هذا الزمن جمهـورًا عريـضًا عـبر القنوات الفضائية، لا يمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي وحسب، ولكنـه - في عصر القنوات الفضائية وعالم الإنترنت - يتعدى ذلك إلى العالم كله، فيطرق بيئـات عربية وأجنبية، إسلامية وغير إسلامية، لا تفهم هذه اللهجات المحلية، ولا تجد العاميـة عندها الحظوة والاحترام، فهي بيئات لا تعرف غير الفصحى لغة عربية، وكان الأجدى لأولئك المتحدثين أن يوسعوا من دائرة مستمعيهم، فتتعدى دائرة الإبلاغ مواطنيهم إلى جماهير أخرى غفيرة على امتداد العالم.

لهذا فإن الحديث في هذا العصر لا يجب أن يكون تكريرًا لما كان يقال سابقًا عن لغة الإعلام، من أنها لغة لا تتسق والقواعد اللغوية، فهي مشوبة بالأخطاء في النطق أو الصيغ أو الاستعمالات. فذلك أمر كان يقال عندما كانت اللغة عزيـزة في نفـوس أبنائها، يخجلون من الخطأ فيها، ويحرصون على تنقيتها عما عساه يشوبها من خلل أو نقص في ألسنة مستعمليها. أما في هذا العصر فقد اتسع الخرق على الراقع، فأصـبحت حياة الفصحى في حد ذاتها مهددة، والحديث عن جدوى بقائها من عدمه موضع نقاش وحوار، بل والعمل على إضعافها والقضاء عليها قد بدأ يمارس على نطاق واسع، لا من

قِبَل أعدائها من الأجانب، الذين كنا نعرف أهدافهم ونواياهم الظاهرة والمستترة، وإنما من قِبَل أبناء هذه اللغة أنفسهم، الذين عاشوا مرحلة من الفوضى اللغوية، أدت في النهاية إلى غربة الفصحى بين أبنائها، وعدم حرصهم عليها، لعدم إحساسهم بقيمتها، أو ضرورتها لحياتهم الآتية. إن البعد الاستراتيجي للغة لم يكن أبدًا ضمن اهتمامات السياسيين، أو المخططين العرب، ذلك أن اللغة الفصحى مرتبطة بفكرة الوحدة العربية، التي كانت، ومازالت، من الشعارات التي لم تتجسد على أرض الواقع، وكان الأولى أن تبدأ خطوات تلك الوحدة العربية الكبرى بالعمل على ترسيخ مبادئ الثقافة العربية الشاملة في قلوب الناس، وإحلالها مكانتها في الحياة، وفي مقدمتها تقوية اللغة المشتركة، وفرض احترامها والعناية بها، ولقد كان المفكرون العرب إبان الاستعمار الغربي للبلاد العربية يظنون أن السبب في إضعاف اللغة العربية يكمن في تدخل الاستعمار، وفرض لغته الدخيلة، ومناصبة اللغة العربية العداء من منطلقات دينية وثقافية، ترمي إلى إضعاف الشخصية العربية وربطها بعجلة المستعمر، ولكن ما أن انقشع الاستعمار عن هذه البلاد، حتى تبين أن العلة التي أصيب بها الوجود اللغوي العربي لم تكن بسبب من الاستعمار وحسب، وإنما كانت بأسباب كثيرة منها: تنكر بعض أصحاب القرار للعربية، وفتنتهم الوافدة، وغفلتهم عن أهمية الفصحى، أو إصابتهم بالعمى الحضاري، الذي جعلهم لا يبصرون طريقهم بين الأمم.

والغريب أنّه حتى إبّان المدّ الوحدوي العربي، لم تكن اللغة العربية جزءًا مهمًّا من المشروع الوحدوي على أرضية التطبيق، وإنما كانت شعارًا يتلفظ به دون رصيد حقيقي من الممارسة، كان التفكير منصبًّا على توحيد المؤسسات السياسية دون نظر إلى البنى الثقافية الأساسية التي لا بد من وجودها لأي عمل طموح، ولذلك فإنه ما إن انهار الطموح السياسي في الوحدة، حتى تمكنت التجزئة بأظهر صورها وأعنفها، ولم يبق من مكونات الوحدة ما يقف صامدًا أمام تحطيم الذات العربية، فانفتحت الأبواب لتشويه الوجه الثقافي العربي بمختلف الأشكال، ولم يقتصر الأمر على محاربة الفصحى،

بتشجيع اللهجات العامية، وإعطائها الصدارة في المجال الفكري والثقافي، والاعتــراف بتراث العامية الفقير على أنه ندٌّ وصِنوٌ للتراث العربي الأصيل، الذي يحمل تجارب الأمة منذ الجاهلية إلى الآن، وإنما تعدى ذلك إلى التشكيك في الثوابت، والبحث في الأعراق والأصول وإعادة كتابة التاريخ العربي بشكل مشوَّه بعيــد عــن الحقيقــة، وإحيــاء الانتماءات العرقية والطائفية، فظهرت لغات مندثرة، ودفعت إلى الــصدارة لهجــات خاملة محلية، وأصبحت مهمة الباحث العلمي في تراث العربية أن يمعن فيــه تجريحًــا وهدمًا، لا أن يبني على الصالح منه ويهمل ماعداه، وارتُكِب ذلك كله باســم حريــة الرأي والبحثْ العلمي، وهكذا لم يمر زمن على العرب ضعفت فيه فكــرة الوحــدة، وتكرست فيه التجزئة، وساد فيه قِصَر النظر الاستراتيجي العربي، كما هو هذا الزمن.

وتأسيسًا على هذه الظروف نجد أن فكرة تعميم الفصحى إعلاميًّا في حد ذاتها، أصبحت مرفوضة عمليًّا من قبل بعض القائمين على الإعلام في بلادنا العربية، بعــد أن كانت مرفوضة في السابق من قبل بعض الباحثين نظريًّا.

وقد جندت لحرب الفصحى فضائيات، وجهزت جيوش من الجهلة والحاقدين، الذين وصلوا إلى درجة من التأثير في القرْار، حتى أقصوا الفصحى عــن الــصدارة في وسائل الإعلام، ولم يضيِّعوا الوقت في التنظير لقضيتهم، بل بادروا إلى خطوات عملية تجعل الأمر واقعًا، فحصروا اللغة المشتركة في ركن ضيق، وأخلوها من البريق، وشوَّهوا صورتها، وصورة من يستعملها، أو يعلّمها، أو يدافع عنها، ورفعوا بجانبها راية العامية، وأحاطوها بكل مظاهر الإبهار، التي ترفع من شأنها في أذهان العامّة، وجعلوها متفوِّقة في كثير من المناسبات على الفصحى، بعد أن كانت في السابق لا تدانيها في المكانة عنــد العامة أنفسهم، دعك من الخاصة والمثقفين، فكرسوا بذلك الفرقة، وانتصروا للإقليمية الضيقة، واستخدموا في ذلك أسلحة لا تستند إلى الأخلاق، وإنما تعتمد على مخاطبــة الغرائز والإثارة.

إن من المؤسف أن يدخل العرب عصر العولمة، ذي الصراعات الحاسمة، والقوى المتكالبة عُزْلاً لا من الأسلحة المادية وحسب، وإنما من الأسلحة المعنوية، وأهمها سلاح الثقافة، الذي يستمد قوته وتأثيره من اللغة الفصحى الموحدة، وهي خط الدفاع الأول عن الهوية.

إن الوضع اللغوي المزري في وسائل الإعلام المختلفة، هو نتيجة طبيعية للوضع اللغوي المتردي لدى العرب جميعًا، وهو وضع سبق أن تحدث عنه كثير من المفكرين والمختصين، فمنهم من وصفه بالاضطراب (د. كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، ص٢٧) ومنهم من وصف العربية بأنها في هذا العصر "لغة مهلهلة متخلفة، لا تكاد تُحَس بين أبنائها، برغم ما تملكه من إمكانات ضخمة ووسائل متنوعة وأسباب متعددة تضمن لها البقاء والاستمرار ... لغة يلفظها أبناؤها في كل مجالات الحياة، وينظرون إليها نظرة ازدراء وامتهان، ويتعالون عليها في كل مناسبة، وبدون مناسبة، لغة يتبرأ منها مثقفوها على كل المستويات، وفي شتى التخصصات، لغة لا يخجل من الخطأ فيها أحد، ولا يسعى لإتقانها إنسان، ولا يعبأ أن يجيدها مثقف" (د.أحمد مختار عمر، اللغة بين الموضوع والأداة، فصول، مج ٤، ع٢، إبريل/ مايو/ يونيه ١٩٨٤، ص١٤٢).

من الواضح أن انحسار تيار الفكرة الوحدوية عند العرب، والذي قوي بفعل هزائمهم المتلاحقة في العصر الحديث، وفقدانهم التوازن الحقيقي، قد أضر بشكل فادح بفكرة السيادة اللغوية للفصحى على الساحة العربية، وقد عدَّ بعض المنظرين لحقبة التشرذم العربي أن الرغبة في تعزيز الفصحى على حساب العاميات تملك طاقة رجعية وتمويهية، لكن الوجه الآخر للصورة أنها رغبة مستحيلة اليوم. فإلى الأمية يدل المسار الراهن على أن العاميات هي التي تصعد على حساب الفصحى، لاسيما مع لجوء وسائل الإعلام السمعية والمرئية، المتزايد النفوذ، إلى استخدامها، فإذا اقتضت متطلبات

التسويق اعتماد الفصحى في عدد من النشاطات الثقافية التي تُصدِّر إلى خـــارج البلـــد المنتج، فالملاحظ أن هذه الفصحى البطيئة والخشبية، تثقل علـــى تطـــور النـــشاطات المذكورة، خصوصًا في مجالي المسرح والأغنية" (حازم صاغية، وداع العروبة، لندن: دار الساقي ١٩٩٩م، ص ٦٦).

لقد تكشفت الأحوال المعاصرة للبلاد العربية عن أوضاع تشبه إلى حد كـــبير أوضاع البلاد العربية، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حين دخـــل الاستعمار إلى مشرق الوطن العربي، وفرض لغته وأغرى بها الجماهير، وجعل إجادتهـــا شرطًا من شروط الحصول على لقمة العيش، فاضطرهم إلى تعلمهـــا، وجعلـــها لغـــة الصفوة والحظوة، وأقصى العربية عن الإدارة والتعليم، ومجالات حيويـــة كـــثيرة، وإذا أخذنا مصر مثالاً على ذلك- وإليها دائمًا تسدد السهام لكونها قلب العروبة- فإننا نجد الإنجليز يبدأون بفرض التعليم باللغة الإنجليزية، منذ المرحلة الابتدائيـــة ســـنة ١٨٨٩م، ويستمر الأمر على هذه الشاكلة مدة تقارب العشرين عامًا، ولعل من الطريف والغريب في الوقت نفسه أن يطالب النواب المصريون في الجمعية التشريعية سنة ١٩٠٧م بضرورة إعادة اللغة العربية إلى مكانها الطبيعي في المجتمع، بتعليم الأبناء بها منذ نعومة أظفارهم، فينبري سعد زغلول – وكان ناظرًا للمعارف – في ذلك الوقت، لتسفيه هذه الفكـــرة قائلاً: "وإذا فرضنا أنه يمكن أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعـــلاً، فإننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى، لأنه لا يمكن للذين يتعلمـــون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوسطة، والمحاكم المختلطة، والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة، والتي يقتضي نظامها وجود كثير من الموظفين العارفين إحدى اللغات الأجنبية حق المعرفة، ولا أن يستخدموا في بنك أو مصرف، ولا أن يشتركوا في شركة من الشركات الأجنبية، التي كثر الآن تأسيسها في بلادنا، ولا أن يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة، ولا مترجمين، ولا غير ذلك من كل ما يحتاج إلى البراعة في لغـــة

أجنبية، وهو كثير جدًّا في بلادنا" (عمر الدسوقي، في الأدب الحـديث، ٢/٤٦-٤٧)، والدعوة إلى تعليم الأطفال اللغة الأجنبية منذ نعومة أظفارهم تتردد الآن بقوة في البلاد العربية، وقد غيرت بعض مناهج التعليم في بعض البلاد لتلائم هذه الرغبات، دون نظر إلى المحاذير الدينية والقومية والتربوية، التي تراعيها معظم دول العالم المتقدمة، فيكـون اللافت للنظر أن ما رفضه الوطنيون المصريون سنة ١٩٠٧م يتهافت عليـه التربويـون العرب المعاصرون، ويسوغونه بالدعوة نفسها المرفوضة، التي أبداها سـعد زغلـول في مفتتح هذا القرن، وبالمثل تعالت في مصر في تلك السنوات دعوات وجوب اسـتعمال العامية لغة للثقافة والإعلام، سواء من خلال المسؤولين الإنجليز، كويليام ويلكـوكس و"ويلمور" وغيرهم، أو من قبل من شايعهم من الكتاب المحليين، كسلامة موسى، الذي أعلن تأييده لويلكوكس، والسوري "إسكندر المعلوف"، الـذي أشـاد بالاتجـاه إلى الإنجليزية في التعليم، وحض المصريين على ترك الفصحى إلى العامية، على أن يكـون البدء بتحول الإعلام المقروء – بصحفه ومجلاته – إلى العامية، والانطلاق من ذلـك – فيما بعد – إلى التأليف بها، واتخاذها وسيلة لتدوين العلوم والآداب (نفـسه، ص ٤٢-٤٣) وغني عن الذكر أن مصر– بما تمتلكه من خصائص أصيلة وميزات ثقافية وفكرية – استطاعت أن تقضي على تلك الدعوات، وأن تعتصم بعروبتها وإسلامها وثقافتـها المتأصِّلة في نفوس أبنائها.

لقد ذكرنا ذلك لنبين أن تلك الأجواء الاستعمارية القديمة تخيم الآن على البلاد العربية، بدعوى العولمة والقرية الكونية الصغيرة، فأصبحت اللغة الأجنبية لدى بعـض المنظرين للتعليم وللثقافة مطلبًا وطنيًّا يزاحم اللغة الوطنية، وأصبحت العامية وجهًا ثقافيًّا مقبولاً في أوساط الأدب، بل يكاد يكون النتاج العامي هو الوجه الأوضح من وجـوه الأدب، فإذا ذكر الشعر، في بعض البلدان الخليجية مثلاً، انصرف المعنى لأول وهلة إلى الشعر العامي، وإذا ذكر مصطلح القصيدة العامية أصبح الشعر الفصيح محتاجًا، في كثير من الأحيان، إلى وصفه بالفصيح. وحتى إن وزير الثقافة والتعليم اللبنـاني أصـدر في

سبتمبر سنة١٩٩٧م تعميمًا إلى الجامعات، طالبًا تدريس الزجل، لاعتباره ديوانًا لبنانيًّا كالشعر العربي (صاغية، ص ٦٤).

وهكذا نجد أن تشجيع العامية وإحلالها محل الفصحى لم يعد موضوعًا للنقاش، كما كان في بداية القرن، بل هو موضوع في طريقه إلى الحسم لصالح العامية، وخاصة بعد أن تبنَّت وسائل الإعلام المرئية والمسموعة من خلال القنوات الفضائية التطبيق الناجز لهذه التجربة، فقدمت بعض البرامج الثقافية بالعامية، وحولت أفلام الصور المتحركة (الكرتون) المعدة للأطفال إلى العامية، بل تعدى الأمر إلى قراءة بعض نشرات الأخبار بها، أو تكليف المراسلين بعرض الأخبار باللغة العامية، وهي مناطق من العمل الإعلامي كانت حكرًا على الفصحى، وتبع ذلك التساهل الشديد في اختيار المذيعين والمذيعات فيما يخص اللغة، فالتكوين اللغوي الجيد لم يعد مطلبًا ضروريًّا للعمل في الإعلام. تقول المذيعة المغربية المتقاعدة "لطيفة الفاسي" واصفة حال المذيعات المعاصرات في التلفزة المغربية: "المذيعات يلقين نشرات الأخبار ملحَّنة، بمعنى أنها كثيرة الأخطاء، ومغناة في نفس الوقت، فلا نطقهن سليم، ولا أسلوبهن مقبول، ومن بينهن من لا تستطيع فتح فمها كما ينبغي، والحروف تبدل، فالظاء والضاد والدال والذال كلها تصبح دالاً، والموضوع ينطق "المودوع" وأعضاء الحكومة تنطق "أعداء الحكومة" والتاريخ ينطق "الطاريخ" وغيرها من الأخطاء الفاحشة التي نسمعها، فالقناة المغربية قدمت استقالة من اللغة العربية منذ مدة طويلة، وليس هناك مسؤولون يتحملون مسؤولية إنقاذ اللغة العربية التي تنتحر أمام أعينهم وهم صامتون، وأعتقد أنهم هم أيضًا لا يعرفون اللغة العربية، ولا يحبونها، وإلا لما أصبحت مشوهة كما هي عليه الآن" (الشرق الأوسط، ع١٣، ٥١، ٢٠٠٠/١٢/٨م، ص ٢٣).

قد تكون الصورة قاتمة، إذا افترضنا أن حالة الانتحار اللغوي التي تمر بها وسائل الإعلام العربية، المرئية والمسموعة، في هذا العصر، سوف تفضي بنا إلى تمزق لغوي في

المستقبل، يجعل من كل لهجة عربية لغة قائمة بذاتها، تستغلق على غير المتحدثين بها ، مما يعني قيام أمم عربية، وهو ما يبشر به، أو يجزم به، بعض الباحثين.

فعلى هذا الأساس قامت فكرة الدولة، التي تنفذ الآن على أرض الواقع، باعتبار أن كل دولة من الدول العربية لها خصوصيتها، التي تختلف بها عن الدولة الأخرى. وفي هذا المجال يكون التركيز منصبًّا على أوجه الاختلاف بين كل دولة عربية والدولة الأخرى، لا على أوجه التشابه والاتفاق، وفي هذا الوضع تصور كل دولة على أنها كيان قائم بذاته منذ أقدم العصور، وفي سبيل الوصول إلى ذلك يتم نبش الماضي، والنظر في تواريخ الأقاليم، فيكون العراق أشوريًّا بابليًّا، ويكون لبنان فينيقيًّا، ومصر فرعونية، ونحو ذلك، ولا تبخل الحفريات الآثارية في كل بلد عن أن تزوده بالانتماء المناسب، ومفردات التاريخ المشترك تغدو مزقًا يفخر بها بعض الشعوب دون بعض، فحرب القادسية عراقية، وغزوة مؤتة أردنية، وفتح بيت المقدس فلسطيني، وصلاح الدين عراقي، وابن دريد عماني، والهمداني يمني، وعمر المختار ليبي، وقس على ذلك ، وينظر في الاختلافات الشعبية السائدة، فتكون دليلاً على التميز لهذه الدولة – أو تلك – لا دليلاً على التنوع في الحضارة العربية الإسلامية.

إن ما ذكرناه من واقع تمر به البلاد العربية من الناحية الثقافية وما يمكن أن تؤول إليه، إذا ما استمرت على السير في هذا السبيل، يدعونا لأن نطرح الموضوع اللغوي من وجهة نظر تختلف عن وجهة النظر الوحدوية، التي أصبح يضيق بها مدَّعو الواقعية، أولئك الذين يقفون بأفكارهم عند الواقع، باعتباره غاية يوقف عندها.

إن ما نطرحه الآن يتسق مع الواقع، لكنه ليس الواقع العربي، وإنما الواقع الدولي الذي تعيشه البشرية في هذا العصر. والواقع المعاصر له معطيات كثيرة، لابد من التذكير ببعضها:

١- أن العرب جزء من هذا العالم الكبير، وأنهم يقعون في الجزء الجنوبي منه، وأن جميع ما يهدد به هذا الجزء من أخطار العولمة والهيمنة الغربية، والاستلاب الثقافي،

والتبعية السياسية، والاقتصادية سيتعرضون له بالضرورة، وقد لا يستطيعون مجابهته متفرقين على شكل أمم مختلفة.

٢- أن دول العالم بأجمعها تتجه إلى أنواع من التكتلات السياسية والاقتصادية والثقافية، وأن بعض هذه التكتلات الثقافية - كالتكتل الفرانكفوني - لا تخفي أهدافها السياسية والاقتصادية.

٣- أن ثورة المعلومات والاتصالات عن طريق الأقمار الاصطناعية والفضائيات والشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) والتقدم الهائل في تقنية الحواسب الآلية والبرمجيات، قد قربت بين الشعوب المتباعدة، وجعلت الضعيف منها تحت السيطرة المباشرة للقوي، وأن أخطار المجاعة المعلوماتية، التي تهدد الدول النامية أو النائمة، لا تقل فداحة وآلامًا عن أخطار المجاعة الغذائية.

وتأسيسًا على هذه الحقائق الواضحة، لا بد للعرب من أن تبنى استراتيجيتهم القادمة على نوع من العقلانية، الرامية إلى جلب المنفعة والمصلحة لشعوبهم، حتى وإن لم تتحقق الوحدة السياسية، التي تتخلى فيها كل دولة عن نظامها السياسي القائم، والتي ينطق الواقع بعدم جدواها.

إذا كان العرب يطمحون إلى اقتصاد متين - وإلى سوق عربية مشتركة - فلا بد لهم من استعمال لغة موحدة صحيحة منضبطة، وليس كاللغة الفصيحة لغة في هذا المجال. إن الانسجام اللغوي من أهم الوسائل للنجاح الاقتصادي، فالإنتاج الصناعي يتطلب أساليب موحدة ومنظمة، كما يحتاج إلى سكان متحركين ومتجانسين، وعلى درجة عالية من التعليم، وهذه المتطلبات تعني استعمال لغة واحدة موحدة، عن طريقها يمكن أن يتواصل جميع أعضاء المجتمع الذين يشاركون في العملية الاقتصادية " كما يشير إلى ذلك "جلنر" في كتابه "الأمم والوطنية" (نقلاً عن فلوريا كولماس، اللغة والاقتصاد،

ص ٤٨) ويتحدث "كولماس" عن مؤشرات التعدد اللغوي، وارتباطها بمتوسط دخل الفرد أو نصيبه من الناتج القومي في بعض بلاد العالم، فيلاحظ تدني متوسط دخل الفرد، في البلاد التي تتعدد فيها اللغات، مقارنة بالبلاد التي يقل فيها هذا التعدد؛ ففي "بريطانيا"، التي يبلغ سكانها ٥٧ مليون نسمة، بلغ متوسط دخل الفرد سنة ١٩٨٨م ما يقارب ١٢٨١٠ دولارًا، بينما بلغ متوسط دخل الفرد في الفلبين ذات التسعة والخمسين مليونًا من السكان، الذين يتكلمون ١٦٤ لغة ما يقارب ٦٣٠ دولارًا. أما اليابان التي بلغ عدد سكانها سنة ١٩٨٨م يقارب ١٢٢مليون نسمة، والتي يتحدث السكان فيها خمس لغات، فقد بلغ متوسط نصيب الفرد فيها من الناتج الإجمالي ٢١٠٢٠ دولارًا، بينما بلغ نصيب الفرد من الناتج الإجمالي القومي في "إندونيسيا"، البالغ عدد سكانها ١٧٤ مليون نسمة، يتحدثون ٦٥٩ لغة ٤٤٠ دولارًا فقط، ويوجز المؤلف ما توصل إليه البحث العلمي في هذا المجال، بعبارة "جوناثان بول"، وهي أن "البلاد المجزأة لغويًّا بشكل كبير بلاد فقيرة دائمًا" (نفسه، ص ٣٨)، ولهذا فإن التجانس اللغوي على مستوى الوطن الواحد له، أثر كبير في إحراز التقدم ونجاح التنمية. ويعزى النجاح الذي حظيت به التجربة اليابانية إلى التجانس اللغوي في البلاد، وسيادة لغة موحدة تنتشر على نطاق الوطن. (نفسه، ص٥٠).

ويعتقد بعض الباحثين: " أن التعدد اللغوي بين دول المجموعة الأوربية يعد عقبة أساسية تحول دون انصهارها في كيان موحد" (نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، الكويت ١٩٩٤م، ص ٣٤٨).

وهكذا فإن العرب، إذا كانوا يطمحون إلى تكتل اقتصادي كبير يواجهون به متغيرات المرحلة الحاضرة، فإن من أهم الأدوات التي يجدر بهم الحرص عليها: تهيئة بيئة متجانسة لغويًّا، ولا شك أن الفصحى - لا اللهجات - هي المرشحة لبلوغ هذا الهدف، فهذه اللغة - التي جعلها الله لغة لكتابه الكريم، ووعاء للتراث المشترك - جديرة بتحقيق كل متطلبات هذه المرحلة.

أما في مجال المعلومات فإن المأزق الحضاري الحرج، الذي تقع فيه الأمة العربية يفضي بنا - كما يرى الخبير العربي د. نبيل علي - إلى الفزع" فقد حلت بنا هذه الموجة العارمة، ونحن في أقصى درجات التشتت والفرقة، مهددين باضمحلال كياننا القومي تحت وقع ضغوط خارجية شديدة، وقيود داخلية قاسية". وبعد أن يستعرض القيود الخارجية، وهي قيود سياسية واقتصادية وتكنولوجية وزمنية، ويحلل القيود الداخلية التي يرصد منها: المناخ السائد (الذي أدى إلى تقلص طاقة الفعل لدينا إلى شعارات)، ومقيدات العنصر البشري (وعلى رأسها نقص أصحاب الرؤية المستقبلية، وخبراء تقنين تكنولوجيا المعلومات)، والمقيدات التنظيمية، ومقيدات عدم التجانس السياسي والاقتصادي والثقافي، يستطرد بذكر التحديات، ويجعل التحدي اللغوي أحد هذه التحديات التي تواجه العربي، لدخول هذا العصر، واقتحام عرين المعلوماتية الحصين (نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٤م، ص ص ٢٧-٤٤) والكاتب لا يضع في ذهنه بالطبع إلا اللغة العربية الفصحى، وإلا كيف يدخل العرب هذا المجال بأشتات من اللغات؟. ومن البديهي القول إن أي دعوة لاستخدام العامية بوصفها وسيلة اتصال على المستوى القومي، مهما أوتيت من بهرج إعلامي، هو حكم على الأمة العربية جميعها بالتخلف، في مجال حيوي يجتاح العالم الآن، ويتسابق البشر للتعامل معه في أوساط من المنافسة محمومة وشرسة.

وهكذا فإن الإفادة الحقيقة من تقنية الحواسب الآلية، وما ينتج عنها، ويحيط بها من علوم، لن يؤتي أكله إلا بتعريب هذه التقنية وتوطينها، كما تفعل كثير من دول العالم؛ ولن يكون هنالك نقلة نوعية للعلوم والتقنية عند العرب، إلا بالتعامل مع عصر المعلوماتية من منظور عربي، يستجيب لاحتياجات كل فرد من أفراد الأمة، ولا يكون ذلك إلا بلغة موحدة منضبطة، فاللغة "في مجتمع المعلومات لها موضع الصدارة، كيف لا، واللغة أهم مقومات ذكاء الإنسان، محور هذا المجتمع، ومصدر الذكاء الاصطناعي

للكمبيوتر أداة هذا المجتمع"(نبيل علي، نفسه، ص ٣٤٨)، كما أن اللغة تلعب دورًا خطيرًا في تثوير معمارية "الكومبيوتر" إلى درجة اعتبار "كومبيوتر" الجيل الخامس حاسبًا لغويًا في المقام الأول" (نفسه، ص ٣٤٩). في ظل هذه المعطيات نحن بحاجة إلى لغة واحدة موحدة، نجري عليها البحوث باهظة التكاليف، ونطوعها لهذه التقنية. وليس غير الفصحى المهيأة بثرائها العلمي والبحثي، وغناها المعجمي، لغة يمكن أن تحمل هذه المهمة، وبغير ذلك سوف نعيش على الفتات، كما عشنا في القرن الماضي، ولن يكتب لنا المشاركة في حقل المعلوماتية أو الانتفاع من ثمراته. ويكفي أن تعلم، على سبيل المثال، كم من الفوائد سوف يجنيها الإنسان العربي، لو تطورت برامج الترجمة الآلية لنقل العلوم والمعارف من اللغات الأخرى إلى العربية، وهي البرامج التي بدأت في لغتنا وليدة متعثرة، بسبب عدم وجود البحوث العلمية المكثفة، والأموال الضخمة التي تسندها.

من أجل هذا – وإذا كنا نريد نهضة حقيقة نتجاوز بها عثرات الماضي – نقول:

إن إعلامنا يجب أن يتحمل المسؤولية لإعداد العربي إعدادًا جيدًا للمستقبل.

- على إعلامنا أن يعزز في النفوس مكانة اللغة الفصحى، لكونها لغة المستقبل، وأن يشعر الإنسان العربي بأهمية الوعي بها واحترامها.
- على إعلامنا أن يفسح للفصحى مزيدًا من الوقت، وأن يقدمها في ثوب قشيب، يغري المتلقين بها، ويشجعهم على متابعة برامجها. وليس صحيحًا أن اللغة الفصحى لغة خشبية تثقل على تطور الأنشطة الإعلامية، كما وصفها بعض الكتاب – وقد مر بنا قوله –، وليس صحيحًا إن الناس لا يقبلون عليها أو يفهمون مفرداتها. فالقرآن الكريم تتلى آياته بين المسلمين آناء الليل وأطراف النهار ويتلذذ الناس بهذه الآيات الكريمة، ويدركون معانيها. ويتحلق أطفالنا حول أشرطة الصور المتحركة المدبلجة بالفصحى السهلة ويستمتعون بها، ويفهمونها ويقومون بترديد عباراتها. ويواظب بعض الكبار على مشاهدة بعض المسلسلات الأجنبية والأفلام، وبعضها مدبلج أو

مترجم إلى العربية الفصيحة، ولا يجدون صعوبة في فهمها، ويستمع الجميع إلى خطب الجمعة، ونشرات الأخبار بالفصحى، ويتجاوبون معها. فأين هي الخشبية التي يزعموها في هذه اللغة؟ . إن اللغة الفصيحة، إذا وضعت في الإطار الجذاب المناسب لها، فإنها تؤدي عملها بطريقة تتفوق بها على العامية المحلية المحدودة، إذ يكفي أنها تخاطب جمهورًا عريضًا على امتداد العالم، وهذا الأمر في حد ذاته مفيد للصناعة الإعلامية التي تستطيع عن هذا الطريق ترويج المنتجات الإعلامية في مساحات لا حدود لها من العالم، مما يزيد في ازدهار الإنتاج الإعلامي، في جميع أنحاء البلاد العربية. ويؤمن مردودًا اقتصاديًّا لا يستهان به .

- وعلى الجهات الرسمية المختصة أن ترصد الأموال للترويج إعلاميًّا للغة الفصحى، من خلال الدعاية لها، والإعلان عنها، وانتهاز الفرص للتعريف بأهميتها. والترويج للغة القومية عن طريق الحملات الدعائية ليس أمرًا مستغربًا فقد قامت به دول قبلنا، من أجل إثارة الشعور القومي نحو الاعتزاز باللغة، وجعلها حاضرة في أذهان الناس، ومن أمثلة تلك الحملات الدعائية: حملة وكالة اللغة الأيرلندية، التي نفذت سنة ١٩٧٨م، تحت شعار "لغتنا جزء من كياننا" وشملت الدعاية: الصحافة، والإذاعة، والتلفزة، ولوحات الإعلانات، وكلفت أموالاً ضخمة، وكذلك الحملة التي تقوم بها الحكومة الإندونيسية في شهر أكتوبر من كل عام، بوصفه شهر اللغة القومية، والحملة الدعائية التي قامت بها حكومة سنغافورة للترويج للغة "الماندرين" وهي اللغة الصينية لبكين، وغير ذلك (انظر في ذلك: كولماس، مرجع سابق ، ص ١٤٤).
- ولا تكتمل منظومة العناية بالفصحى، وتثبيت وجودها في المجتمع، دون إصدار التشريعات والأنظمة التي تحمي اللغة، وتصونها من العبث، أو مزاحمة اللغات الأجنبية لها. وهو أسلوب متحضر تمارسه كثير من دول العالم المتقدم، وليس خافيًا ما تقوم به فرنسا في هذا الصدد، بتطبيق قانون اللغة الفرنسية، الصادر سنة ١٩٧٥م، وتضع

بموجبه الغرامات على المخالفات اللغوية. ومن المفارقات أن جميع دساتير البلدان العربية تنص على: أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، لكنها لا تضع لهذه المادة من الأنظمة والعقوبات ما يكفل احترامها، أو عدم مخالفتها. ولعل من المبهج أن نقرأ في وسائل الإعلام خبرًا يقول : إن إمارة رأس الخيمة قد قررت وضع غرامة على الإعلانات التي تتضمن أخطاء لغوية، فيكون لهذه الإمارة الصغيرة فضل التنبه إلى خطورة العبث باللغة، كما يحدث في كثير من أقطار العرب.

لقد أردنا من خلال هذه الورقة أن نبين أن مستقبلنا - سواء كان اقتصاديًّا أو علميًّا تقنيًّا - لن يكتب له الازدهار، كما تدل على ذلك جميع المؤشرات، إلا إذا شاعت بيننا لغة واحدة، تنتظم المجالات المختلفة، وأن اللغة الفصحى، بما لها من إرث تاريخي، وقبول يتعدى حدود الدول الصغيرة، إلى المحيط العام لبلاد العروبة، هي المرشحة لهذه المهمة، وأن اللهجات العامية، التي يدفع بها إلى الصدارة في وسائل الإعلام هذه الأيام، ليست جديرة بالمهمة الكبرى. وصدق أبو الطيب حين قال:

"ومَنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّواقيا".

* * *

تأثير الإعلام المسموع في اللغة وكيفية استثماره لصالح العربية[*]

للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

(عضو المجمع المراسل)

يعرف كل واحد ما للإعلام المكتوب والمنطوق من تأثير عميق وواسع جدًّا في استعمال الناس للغتهم، وهو جزء من التأثير الشامل الذي تمتاز به وسائل الإعلام في جميع ميادين الحياة والفكر، وقد تضاعف هذا التأثير وقوي بتقدم الوسائل التقنية والتكنولوجيا عامة بكيفية عجيبة حتى صارت الكرة الأرضية- كما يشعر بذلك كل منا- عبارة عن قرية كبيرة لا يحدث فيها حادث ذو شأن إلا ويعلم به على الفور أكثر سكانها، فتأثير الإعلام والاتصال الواسع السهل والسريع من شأنه أن ينقل الأخبار بالألفاظ والأساليب التي تعوّد عليها المذيعون في الإذاعة والتليفزيون والمنشطون فيها، وبذلك صار دور هؤلاء في تشييع اللّفظة المحدثة دورًا هامًّا جدًّا وكذلك الخطأ اللغوي، فمسؤوليتهم في ذلك كبيرة.وقد لا يشعر بخطورته أولو الأمر منا- فيما يبدو لنا- فقد تركوا في هذا الميدان الحبل على الغارب وخاصة في العشرينيات الأخيرة، خلافًا لما كان عليه الإعلام والتعليم عندما أنشئت المجامع اللغوية .

وليس غرضنا في هذا البحث القيام بتحليل للغة الإذاعة والتليفزيون، فقد قام بذلك الكثير من الباحثين، بل غرضنا هو أن نبين الأهمية العظيمة التي يكتسبها الإعلام ولاسيما المسموع منه في التأثير على الاستعمال اللغوي لا عند النخبة من المثقفين فحسب بل حتى في استعمال الجماهير للغة وخاصة الأطفال والشباب. وسنمثّل، على كل حال، لهذا التأثير ببعض الأمثلة.

(*) ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة الحادية عشرة من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والستين، يوم الأحد الموافق ٢٥ من مارس سنة ٢٠٠١م، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء الرابع والتسعين، ص ٢٣.

وسنقترح فيما يلي بعض الوسائل لاستثمار هذه المنابع من الإشعاع الثقافي لنستفيد منه كأداة اتصال لا أقل مما هي عليه اللغات الأوربية الكبرى من الحيوية والنجاعة في التبليغ.

منبعان أساسيان للتأثير:

إن هناك منبعين أساسيين يؤثران في استعمال الناس للغة أيّما تأثير، وهما عاملان قويان جدًّا في انتشار ألفاظ الحضارة الحديثة والمصطلحات العلمية والتقنية، بل ولا مفرّ أبدًا من هذا التأثير ولا مردّ له. وهما المدرسة وامتداداهما من جهة، ووسائل الإعلام على اختلاف أنواعها من جهة أخرى. وهذا يرجع إلى أقدم الأزمنة إلا أن تعميم التعليم وارتقاء وسائل الإعلام، وانتشارها الواسع في عصرنا هذا جعلها من الوسائل العظيمة التأثير على عقول الناس وسلوكهم ولغتهم. وقد استغلت هاتين القوتين كلُّ الحكومات والأحزاب في كل دولة. أما فيما يخص البلدان العربية فإن الحكومات فيها لم تستغلّها استغلالاً عقلانيًّا في ميدان اللغة خاصة، وليس معنى ذلك أن السلطات المعنية في كل بلد غير شاعرة بأهمية التدخل في مصير اللغة باستغلال المدرسة على الأقل، فإن هناك الكثير من التوصيات في المؤتمرات لوزراء التربية والإعلام والتعليم العالي تنص على ضرورة هذا التدخل لصالح اللغة العربية، إلا أننا لم نسمع أن هذه التوصيات- ولو واحدة منها- قد حظيت بالتنفيذ الكامل وبالنتائج الملموسة. ثم إن القوانين والنصوص التي تخضع لها المجامع اللغوية تنص كلها في كل بلد على ضرورة إدخال المصطلحات التي انعقد عليها الإجماع في المستوى القومي، ومع ذلك فلا نعلم أن لفظًا واحدًا من تلك المصطلحات الحديثة فُرِض على الطلاب والتلاميذ الصغار.

هل يمكن أن تفرض اللغة وبالأحرى الألفاظ المحدثة؟

وكثيرًا ما سمعنا العلماء يصرِّحون بأن اللغة يستحيل أن يتدخل فيها الأفراد؛ لأنها ظاهرة اجتماعية؛ فلا قدرة للفرد على تغييرها بمحض إرادته. وهذا صحيح، قاله

القدامى من علمائنا؛ لأن اللغة وضع من أوضاع المجتمع يتواضع عليه الناس بدون ما شعور منهم في الغالب، فلا يستطيع الفرد أن يغير من ذلك شيئًا. فاللغة لا تفرض؛ لأن جوهرها اجتماعي محض كما أن الأوضاع الاجتماعية لا تفرض بل يرتضيها المجتمع كمجتمع لا كأفراد[١] إلا أن المجتمع قد تؤثّر فيه عوامل بكيفية حاسمة، وذلك مثل ما يقوله وينشره الرجال ذوو النفوذ الفكري أو الديني أو السياسي كزعماء الفكر أو الدين أو السياسة. وعلى مثل ذلك يكون المعلم والمذيع بالنسبة إلى الأطفال والجماهير[٢].

فإن كانت اللغة غير قابلة لأن تفرض بالقوانين فإنها، مع ذلك، تفرض نفسها بسهولة عجيبة جدًّا عندما تأتي على لسان المعلم والأستاذ، كما يكون لها حظ كبير من ذلك بالنسبة إلى الملايين من الناس إذا ما استعملها مذيع الإذاعة والتلفزيون، فكأن المجامع تعيش في عالم، والمدرسة والإعلام في عالم آخر. فالوضع غير الاستعمال، وعلى هذا فإن استعمال بعض الناس هو قدوة لغيرهم بحكم منصبهم ووظيفتهم، فهم أصحاب نفوذ من الناحية اللغوية (زيادة على نفوذهم الاجتماعي وغيره). وهؤلاء هم كما قلنا معلمو التعليم الابتدائي خاصة. والطفل الصغير إذا سمع معلمه يستعمل بكثرة لفظة لم يسمعها من بيئته غير المدرسية فإنه لا يشك أبدًا في وجودها في استعمال أكثر المثقفين.

وكذلك هو الأمر بالنسبة للإعلام عند أكثر الناس وخاصة الطبقات المتوسطة، فإذا سمعوا مذيعًا يستأنسون به كلما ظهر في الشاشة ويكثر من استعمال كلمة أو عبارة

---

(١) وكل ذلك صحيح في مجمله إلا أن إطلاق القول بدون قيد خطأ كما رأينا وكما سنراه.

(٢) ومثل ذلك أيضًا الخطاب الرائع الأسلوب، فإن تأثيره على استعمال الناس للغة معينة أيضًا حاسم كالقرآن الكريم فإنه غيّر من أوضاع لغة العرب؛ إذ نزل بلغتهم، فقد قلب أوضاع أساليب التعبير عند العرب (وأوضاع الأساليب غير أوضاع اللغة). وشاعت ألفاظ وردت في القرآن بمعنى خاص لا تعرفه العرب، واستبدلت في الاستعمال بعد نزول القرآن ألفاظ بأخرى.

أو مصطلح فإنهم يميلون إلى تبنى ذلك لثقتهم بالمذيع- كما يثقون غالبًا بما تكتبه وتنشره الصحف.

وعلى هذا فلا ندري لماذا لا تلجأ السلطات في كل بلد إلى استغلال هاتين البؤرتين للإشعاع الثقافي واللغوي وبالدرجة الأولى، فالذين لا يمكن أن يفرض عليهم أي شيء من اللغة هم الذين تعوّدوا على استعمال معيّن؛ إذ كان ما تعوّدوا عليه كافيًا، ولهذا فقد لا يكفي أن ترسل القوائم من الألفاظ والمعاجم الخاصة بالمصطلحات إلى العلماء والاختصاصيين الذين سبق أن دخلت في استعمالهم ألفاظ أخرى سواء أكانت صحيحة الوضع أم لا، عامية أم فصيحة، عربية الأصل أم أجنبية، فإذا كلموا في ذلك أي في سبب استعمالهم للأجنبي، قالوا:"إذا شاع اللفظ فلا مردّ له، وسنة الله في اللغات أن تقتبس لغة من أخرى" وغير ذلك من الحجج التي أخذت عن اللغويين الوصفيين في الغالب.

الغرابة بالنسبة لمن؟

وعلى هذا فإن مصير الكلمة المحدثة والتي لا يعرفها أكثر الناس- لا يمكن أن يبت فيها فيقال: إنها كلمة غريبة، فالغرابة بالنسبة لمن؟ فإن للمصطلح الجديد مصيرًا لا يتوقف شيوعه على معرفة الناس له مسبقًا فهذا دور. ثم إن غرابته في الوقت الراهن لا تمنعه من أن يكون مأنوسًا في وقت آخر إذا توافرت فيه شروط الشيوع واستئناس الناطقين له.

ثم إن دور المعلم ووسائل الإعلام تضاعف في عصرنا هذا، كما قلنا، تضاعفًا عظيمًا جدًّا، وذلك بحكم تعميم التعليم في جميع الأوساط والبيئات ودخول الإذاعة والتليفزيون في أكثر البيوت. ولم نر فيما مضى مثل هذه الظاهرة أعني أن يتمكن الإنسان من أن يشاهد ويسمع كلام أشخاص يبث من جميع أنحاء العالم، وأخص

بالذكر الناطقين بالعربية، فيسمع من كل قطر عربي كلام أهله؛ وعلى هذا فالتــأثير في اللغة من جهة معينة قد تضاعف أكثر فأكثر، فاللفظ المحــدث، والعبــارات الجديــدة (المصوغة على قياس كلام العرب) يمكن أن تشيع شيوعًا لا مثيل له في أي وقت مــن الأوقات. والألفاظ والأساليب إذا كثرت على ألسنة هؤلاء فكن على يقين أنها ستلفت انتباه المستمعين والمشاهدين. وإذا أدخلت المصطلحات في الكتب المدرسية على مستوى الوطن العربي فلا مناص من أنها ستشيع شيوعًا واسعًا[1].

ماذا نقرّ من الألفاظ؟

وقد يقول قائل: "يجب على المجامع اللغوية أن تقرّ الألفــاظ الــتي دخلــت في الاستعمال أو تضع لفظًا لما جــدّ من جديد من المفاهيــم العلميــة والتقنية". وهذا ما يفعله المجمع الفرنسي، فإنه ينظر فيما هو مستعمل بالفعل فإذا كثر واستقــــرّ علــى معنى معين أقرّه المجمع. أما المفاهيم الجديدة فليس للمجمع الفرنسي أن ينظر فيها؛ لأن العلماء والاختصاصين (وكذلك الهيئات العلمية) هم الذين يضعون اللفظ الجديد. وقد يدخل هذا الذي وضعوه في الاستعمال ويشيع غالبًا؛ لأن هؤلاء العلمــاء يخــضعون وضعهم للألفاظ لقواعد التوليد اللغوي الخاص بالفرنسية (واللغات الأوربيــة عامــة). وصارت هذه القواعد من السنن اللغوية عندهم. وذلك مثل الرجوع إلى مجموعة معينة من السوابق واللواحق اللاتينية واليونانية الأصل تواضع على الاستقاء منها كل العلماء في أوربا وأمريكا. فهذا هو شأن اللغات التي ينطق بها أهل الحضارة المتفوقة حاليًا على غيرها من الحضارات. وليس الأمر كذلك بالنسبــة للعالــم الثالث ولاسيما البلــدان العربية؛ لأن المخترعين للشيء هم بالضرورة أصحاب التسمية لهذا الشيء.أما الناقلون المستغلون لهذا الذي اخترع فلا يرفضون هذه التسمية غالبًا. أما الذين قــد يرفــضون

---

(١) وإدخالها في جميع هذه الكتب يقتضي أولاً أنها حازت على إجماع واضعيها؛ ومن ثم فلا يمكن أن يكــون عيــب التنافر الصوتي وغيره من العيوب التي تمنع الكلم من الانتشار.

فيختلفون بحسب أهمية تاريخهم وتاريخ حضارتهم، وبقدر ما بقي فيهم من الشعور بهذه الأهمية وضرورة المحافظة على هويتهم، ففي هذه الحالة تنشأ المجامع اللغوية بل وهيئات أخرى من هذا القبيل تحاول أن تسدّ "الثغرات اللغوية" أي الفراغات الـتي غزتها في الحقيقة الألفاظ الأجنبية، فتضع الألفاظ الجديدة من صميم لغتها. وهذا لا يخص العالم الثالث، بل هو موجود في قلب أوربا الآن. وذلك مثل اللغة الفرنسية التي عجزت عن مقاومة الإنجليزية في أكثر الميادين، ويعجب الإنسان من كثرة ما أنشأه الفرنسيون في هذه العشريات من هيئات لغوية (وقد صار المجمع الفرنسي منذ زمان هيئة تشريفيه لا أكثر)[1]. أما في البلدان النامية فقد يصيب بعض الشعوب والفئات شيء من اليأس في مغالبة اللغات المتفوقة، فإن لم يكن هؤلاء من الذين تغرّبوا التغريب العميق أقبلوا على التعريب اللفظي وتقبلوا ذلك بارتياح كامل مادام اللفظ قد صار بذلك مأنوسًا في السمع بل تحمسوا له وأيقنوا أنه أمر طبيعي، ولاسيما عند استماعهم للغويين الذين أثبتوا، بكيفية علمية لا غبار عليها، أن جميع اللغات تقتبس بعضها من بعض، ولا فائدة في معارضة ما لا مردّ له .

الاقتباس اللغوي العارم:

فهذا وإن كان ظاهره صحيحًا فإنه يحتاج إلى شيء من الاستدراك والتوضيح. فصحيح أن الاقتباس اللغوي هو ظاهرة طبيعية كثيرة الوقوع جدًّا ولا تسلم لغة منه أبدًا. إلا أن هناك حقيقة أخرى وهي أن نفوذ اللغة،وحيويتها، ومن ثم مستقبلها يقاس بسهولة تكيفها في ذاتها، وذلك بالرجوع إلى ما رزقها الله من الثراء

---

(١) وذلك مثل الـ Conseil de la langue franc,aise والـ Institut de la langue franc,aise. والـ Conseil international de la langue française وغيرها. وانظر عن الأعمال الرامية إلى إثراء الفرنسية وخاصة في الكندا ما كتبه Guy Rondeau.

La normalisation ling., terminologique et technique au Québec linguistique. Gt. du Québec ١٩٨٣, P. ٤١٥ sqq).

المعجمي الكامن والقدرة الاشتقاقية. أما اللغات التي تكثر من الاقتباس حتى فيما يوجد له مقابل وحتى يشمل المفاهيم العادية غير العلمية، فهذا يكون دليلاً قاطعًا على ضعفها وعجزها في داخل موطنها عن منافسة اللغات الأخرى، ومآل مثل هذه اللغات الضعيفة الزوال والانقراض وحلول غيرها محلّها[1] ولو في ميادين خاصة في بداية الأمر.

ففي هذا الميدان أيضًا يؤدي الإعلام وخاصة المنطوق منه دورًا خطيرًا جدًّا في ذيوع الألفاظ الأجنبية حتى تلك التي بقيت على شكلها الأعجمي و لم تعرّب. ونحن لا ننكر أن بعض هذه الألفاظ تفرض نفسها، مهما كان الموقف ومهما اجتهد المسمون بالمحافظين على إيجاد المقابل العربي، وذلك مثل كلمة "إلكتروني" فمهما حاول الذين اقترحوا بدله "كهروبي" فإن الكلمة الأولى ستبقى هي الشائعة؛ لأنها من الأمثلة التي يصير فيه الاسم هو المسمى والعكس، فهي توحي إلى شيء يعجب به الإنسان فصار الاسم ذا هالة تشع إشعاعًا، فلا يريد المستعمل أن يُذهب هذه الهالة باستعماله كلمة أخرى لا يمكن أن تقوم عنده مقامها. وهذا لا يتحقق دائمًا؛ لأن هناك قوانين لشيوع الكلمة وإقبال الناس عليها لا يعرفها علماء اللغة الذين لم يطلعوا على ما اكتشف من ذلك حديثًا. ومن ذلك ما عرفه علماؤنا قديمًا وأقروا بأنه من أسباب انزواء الكلمة وهو تنافر الحروف. وقد ورد شيء من ذلك فيما التقطه وجمعه علماء اللغة و لم يأت إلا في نص واحد أو اثنين. وقد أراد إحياءه بعض المجمعيين، ولا سبيل إلى ذلك، مثل : "الإرزيز" للتليفون و"المطثة" لمضرب الكرة، وغير ذلك .

وهناك حقيقة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه، وهو أن التدخل في مصير اللغة وتكييفها وتحسين مردودها في تبليغ المعلومات هو شيء ممكن جدًّا؛ ومن ثم فليس

---

(١) انظر بهذا الصدد "كيف تموت اللغات" في La mort d'une langue في كتاب Ch Baylon: Sociolinguistique

باريس، ١٩٩٦ . و R.Fosold في كتابه : The Sociolinguistics of Society, Blackwell, ١٩٨٤ .

صحيحًا أن يكون "تكور" اللغة أي تحوّلها إلى نظام آخر ومحتوى آخر شـيئًا محتومًـا، بحيث لا تستطيع أية قوة وأية هيئة أن توقف ذلك أو تعارضه. أما التدخل فلا مثـال أحسن من تدخل الهنود والعرب قديمًا في تدوينهم للغة التي أرادوا أن يحافظوا عليهـا. صحيح أن اللغة المتداولة في الخطابات اليومية هي التي تكون عرضة للتحول السـريع، وقد يصعب بل يستحيل أحيانًا كثيرة أن يعترض على ذلك وخاصة في ظروف خاصة مثل الاضطرابات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كالحروب ونزوح أهل بلـد إلى آخر وكغزو الغزاة وغيرها. أما لغة الثقافة أو اللغة المشتركة المستعملة في نشر التعلـيم وفي الاتصال مع الجماهير والإعلام وغير ذلك، فأكثر أحوالها البقاء على ما هي عليـه بفضل تدخل السلطات المعنية وأعمال اللغويين والنحاة ونقاد الإنتاج الأدبي.

وبالنسبة للغات الأوربية فأحسن مثال على ذلك هو ما قدم به الفرنـسيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر من تدوين وضبط للغة التي كان يحرر بها المثقفون وخاصة الكتاب والشعراء، فنجحوا في محاولاتهم النجاح التام. وناهيكم في زماننا هذا بمثال كلمة logiciel الفرنسية التي اقترحوها لتقوم مقام Soft-Ware (وكانـت قـد شاعت في ميدان الحاسوبيات)، فلا يوجد الآن ناطق بهذه اللغـة إلا وهـو يـستعمل logiciel ليس إلا، والذي قد ضاعف هذه المجهودات وجعلها تنجح أيما نجاح هو هذا الإعلام المنطوق الذي نحن بصدد الكلام عنه.

طغيان العامية في الخطاب الإذاعي والتليفزيوني وسبب ذلك:

يكثر المذيعون من استعمال العامية وكذلك المنشطون في خطاباتهم. ونستثني من ذلك في الغالب نشرات الأخبار. يكثر ذلك بصفة خاصة في الحصص التي موضـوعها الترفيه أو التسلية. وقد طغت أيضًا العامية على الفصحى في كل حصة يكون موضوعها تبادل الآراء أو الخبرة على شكل "استجواب" أو مجرد إجراء حديث. ويتعجب أكثـر

الناس من طغيان العامية في هذه الحصص الأخيرة؛ إذ قد يكون مستواها عاليًا. وكل هذه الظواهر هي- في الحقيقة- جدّ طبيعية؛ لأن المنطوق المتبادل بين اثنين على الأقل يقتضي أن يلجأ إلى جانب من الاستعمال اللغوي يتّصف بالخفّة والاقتصاد، أي بشيء كبير من العفوية؛ ولا سبيل إلى العثور عليه في العربية التي يتعلمها الناس في المدرسة[١].

ويجهل الكثير من الناس أن للعربية الفصحى مستوًى عفويًّا مثل جميع اللغات الحية، وأن العرب السليقيين كانوا يتخاطبون في حاجاتهم اليومية مثل ما يتخاطب الفرنسيون والإنجليز أي بلفظ سهل لا تكلف في تأديته. وهي اللغة التي وصفها القدامى الذين استمعوا إليهم ودوّنوا كلامهم، وقرئ به القرآن، وذلك مثل ما روي عن أبي عمرو بن العلاء من اختلاس للحركات والاختزال والحذف والإدغام.

أما في زماننا – ومنذ أقدم العصور- فقد صارت العربية تكتسب بالتلقين. والتلقين من عادته أن يهمل الخفيف من الأداء؛ لأن صاحبه يريد أن تعطى عناصر اللغة حقّها أي أن تحقق مخارج الحروف وأن تبيّن (إلى حد المبالغة أحيانًا) حركات الإعراب التي قد سقطت من العامية، فابتعدت الفصحى في مستواها التخاطبي عن الأداء العفوي، إذ حافظت العامية على الخفة؛ لأنها لغة تخاطب فقط[٢] على الرغم من وجود قراءة قرآنية بهذا النوع من الأداء الخفيف؛ وذلك لاندثار درس القراءات في التعليم (ووجودها عند الاختصاصيين فقط وهم قلة).

وصارت الفصحى مبتورة من مستواها العفوي، ولا يمكن أن نقول: إنها كانت على هذه الحال التي نعرفها اليوم فقط حتى في زمان السليقية؛ إذ كانت اللهجات

---

(١) أما هذا المستوى الذي يتعلمونه، فهو المستوى المستعمل في مقام غير عفوي، ككل خطاب محرّر يلقى على الناس، وتأديته ترتيلية في أصل وضعه. وهو لا يقل أهمية من المستوى المستخف.

(٢) ويجب ألا تخلط بين اللحن وهو الخطأ في اللغة – وتتصف به العامية، وبين التخفيف الذي ليس بلحن؛ لأنه سمع من العرب وقرئ به القرآن.

العربية هي لغة التخاطب. والحق أن ما كان يسمى بلغات العرب- وهي كيفيات في تأديتهم لعنصر واحد من عناصر اللغة -كانت توجد بالفعل في صميم الفصحى وكانت جزءًا منها، فالكثير من القراءات القرآنية كانت لغات، ويوجد في الشعر الفصيح الكثير من اللغات أي الكثير من التنوع في تأدية وحدة لغوية معينة[١].

وكان للعربية الفصحى التي نزل بها القرآن هذا المستوى العفوي، وإلا فكيف نفسّر هذه الكثرة الكاثرة من أمثلة الاختزال والاختلاس والحذف – في الأداء والتراكيب – التي ذكرها سيبويه في كتابه ولم تنسب في أكثرها إلى إقليم أو قبيلة؟ إنما الذي ينسب إلى القبائل هو غالبًا أداء مختلف عن الأكثر أو مساو له، ولا يتصف غالبًا بالاختزال والتخفيف.

فالذي منع الناس والمنشطين في الإعلام من تجنب الفصحى الملقنة بالمدرسة هو عدم توفر الفصحى التي تعلموها على ما تتصف به لغة التخاطب العادي من الخفة في الأداء، ومن الصيغ والتراكيب المأنوسة فيلجؤون إلى العامية، أو يخلطون بينها وبين الفصحى، ويميلون أحيانًا كثيرة وبكيفية عفوية إلى الاختلاس والاختزال كما كان ذلك موجودًا في الفصحى العفوية، فكأن التجاءهم إلى العامية أو هذا المزيج يريحهم من تكلف اللغة غير العفوية، وهو أمر طبيعي،ولكن الذي ليس بطبيعي هو أن يجهل أو يتجاهل أهل الاختصاص هذه الحقائق، وأخطر من هذا أن يعتقد أن العامية – أي اللغة الملحونة- لامناص منها لاتصافها بالخفة وأنها اللغة الوحيدة التي يتخاطب بها الناس في حاجاتهم اليومية، فيأتي بعض العلماء فيبرّر ذلك بقول المستشرقين:"إن الفصحى لم تكن في يوم من الأيام إلا لغة أدبية مشتركة". وهذا كله مغاير للحقيقة وبالتالي ظلم للعربية.

---

(١) وجود لغات العرب (بهذا المعنى) بكثرة في القراءات والشعر لدليل على أن الفصحى كانت لغة واحدة بشيء كثير من التنوع (الصوتي خاصة) وبالتالي لم تكن خاصة بالتعبير الأدبي وحده. ودليل آخر لا يقل أهمية من السابق هو قلة ما اختلفوا فيه بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه وكثرة ما جاء تأكيدًا لذلك من قول اللغويين "وقول عامة العرب". وإن أخذنا مثلاً معجم لهجة تميم فإنه ضئيل جدًّا من جهة، ولكل ما تميّزوا به فإن المقابل هو غالبًا قول أكثر العرب .

اقتراحات لاستثمار الإعلام المنطوق:

إن هناك من الأخطاء اللغوية ما يكون سببه الوحيد لشيوعها هو الإذاعة والتليفزيون؛ لأنها لا تظهر إلا فيما يسمع بالفعل لا فيما تكتبه الصحف أو غيرها. وذلك مثل هذه الكلمات العربية: "كيان" و"خيار" و"عيان" فقد شاع على ألسنة المذيعين النطق في الكلمتين الأوليين خاصة بفتح الحرف الأصلي الأول، وهو خطأ كما هو معروف. كما تغير النطق بعدة كلمات، وإن كانت مقبولة بشيء من التجوز، ومن ذلك كلمة "مهمة"، كنا في شبابنًا لا نعرف إلا النطق بها على وزن مُفْعِلة (اسم فاعل أهم)، فشاع الآن خاصة في بلدان الخليج" مهمة "بفتح الميم .

وأقبح من "كيان" بكثير هو نزعة لاحظناها في الأداء للكثير من المذيعين فلا يعتدون في نطقهم بحرف المدّ في حالات كثيرة، وذلك مثل: "المدرسة الأساسية" فينطقون بها "المدرسة الأسسية"، ومثل: "البرنامج التعليمي" ينطقون به : "البرنامج التعلمي". وقد انتشر هذا النطق الفظيع شرقًا وغربًا بسبب الإعلام المنطوق، وإن كان ظاهرة مثل الموضة في اللباس إلا إنه في منتهى الفظاعة لا من حيث الذوق بل من حيث إنه يؤذن بانحلال النظام الصوتي العربي في أعز صفاته وبالتالي يهدّد كيان العربية؛ وعلى هذا فإننا نقترح أن تتخذ تدابير مستعجلة من جهة، وتدابير أخرى تحتاج إلى إعداد الوسائل من جهة أخرى.

أما في القريب العاجل فلا بد- في نظرنا- من:

١- إصدار مرسوم أو أي نص قانوني في كل دولة عربية يسمح للمجامع اللغوية بالقيام بمراقبة للخطاب الإعلامي، وبصفة عامة كل كلام وحديث يذاع في الإذاعة والتليفزيون من حيث صحة التعبير وسلامته، وما تقتضيه قواعد اللغة العربية لفظًا ومعنى، إفرادًا وتركيبًا، وذلك بإصدار مجموعة من التنبيهات، وتطالب وسائل الإعلام بمراجعة خطابها في ضوء هذه التنبيهات.

٢- تمتين العلاقات بين المجامع اللغوية وكل العلماء الذين لهم خبرة بتدريس العربية من جهة والمؤسسات الخاصة بالإعلام، وذلك:

أ- بإعداد لقاءات مع أسرة المذيعين والمنشطين كالمحاضرات في اللغة العربيـــة والموائـــد المستديرة حول السلامة اللغوية، والأداء، وغير ذلك .

ب- تنظيم حلقات تدريبية لكل من توظفه هذه المؤسسات كمذيع أو منشط وغيرهم ممن يسمع صوته كل يوم الملايين من المستمعين، ويكون موضـــوع هـــذه الحلقـــات: "التدريب على الأداء السليم وعلى التعبير السليم من حيث النحو والصرف". أما فيما يخص التدخل في المدى المتوسط فيجب في نظرنا:

١- القيام بتأليف كتاب تعليمي يحتوي على قواعد النطق السليم المستخف (الفصحى المنطوقة) كما وصفه علماؤنا قديمًا، وكما يطبق على القراءات القرآنية من نوع "الحدر" الذي يصلح هو وحده للتخاطب الطبيعي العفوي.

٢- إدراج مادة الأداء للغة الفصحى المنطوقة، واستعمال هذا الكتاب في معاهد العربية وتكوين أساتذة اللغة العربية وخاصة في المعاهد المتخصصة بتكوين المذيعين.

٣- تنظيم دروس تليفزيونية في الأداء واللغة العربية.

وبالله التوفيق،

* * *

اللغة العربية في الخطاب الرسمي(*)

للدكتور أبي القاسم سعد الله

(عضو المجمع المراسل)

الخطاب الرسمي من أقوى المؤثرات في وسائل الإعلام الحديثة، وربما في كل العصور وفي جميع البلدان، فالمسؤول- مهما كانت صفته ورتبته- يؤثر على سامعيه ومشاهديه بنطقه وصوته وفصاحته إذا تفصح ولحنه إذا لحن. وما دام الموضوع الرئيسي لدورة المجمع هذا العام هو (اللغة العربية في وسائل الإعلام) فقد رأيت أن أتناول جزئية من هذا العنوان الواسع، وهى جزئية ربما لم يعالجها الكتاب عندما أشاروا إلى تأثيرات وسائل الإعلام ودورها في صفاء أو تشوه اللغة العربية.

وأقول "ربما" لم يحدث ذلك؛ لأن الدراسات في مثل هذا المجال تنصب عادة على موضوعات الخطاب الرسمي وليس على لغته، فإذا درس الكتاب علاقة اللغة بالإعلام فهم يتفادون عادة الخطاب الرسمي ظنًّا منهم أن ذلك يقودهم إلى السياسة، وهم لا يريدون أن يُؤَوَّل كلامهم أو يحمل على غير محمله، وأنا بدوري لا أريد ذلك، ولا أتمنى أن تكون كلمتي هذه عن ساس ويسوس، وإنما هي عن خط اللغة العربية في الخطاب الرسمي وعلاقة ذلك بالتنمية اللغوية والإسهام في حماية اللغة العربية من اللحن والضعف والدخيل.

إن بعض الرسميين قد رزقهم الله حظًّا وافرًا من التعلم والتثقف بلغتهم حتى استوعبوا قواعدها ومعانيها، وعرفوا أسرار نطقها وأسرار تأثيرها في المتلقي. وحين جاء دورهم لاستعمالها استعملوها على خير وجه ونجحوا في تبليغ أفكارهم بها وتوصيل معانيهم إلى جمهورهم بعبارات سليمة ومؤثرة خالية من الشوائب ومن التعابير الغريبة

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة العاشرة من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والستين، يوم الأحد الموافق ٢٥ من مارس سنة ٢٠٠١م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الرابع والتسعين، ص ١٧.

عن الأذن العربية، وبذلك نجحوا في المجالين: مجال المحافظة على لغتهم والاعتزاز بها بالانتماء إليها ، ومجال تبليغ آرائهم وتوجيهاتهم بها إلى جمهورهم ، فيكون الاتصال بين الطرفين قد حصل على خير وجه ، مع الاحترام المتبادل وثقة كل منهما في الآخر.

غير أن هناك رسميين آخرين لم تسعفهم الظروف بدراسة لغتهم إلا يسيرًا، أو أنهم درسوها على كبر فلم يتقنوها، أو أنهم لم يفطروا عليها أصلاً. ومع ذلك كان حظهم من المسؤولية كبيرًا، وبالتالي أصبح عليهم أن يخاطبوا الجمهور، وأن يتقدموا إليه ببرامجهم ومشاريعهم، وأن يهيبوا به عند الشدة، وأن يشرحوا له أوضاع البلاد بل وأوضاع العالم من حوله، فإذا هم عاجزون عن توصيل ذلك إليه بلغة عربية سليمة، فهم يخاطبون بلغة فيها لحن كبير وأخطاء لا يقع فيها حتى فتيان المدارس، وبأسلوب لا يساعدهم على التأثير في المتلقي، مهما بذلوا من جهد ومهما أحاطوا أنفسهم بالوسائل الإعلامية وجندوها لكسب الهالة والتأثير، بل ربما أثاروا من حولهم التساؤل والهمس، وفي آخر المطاف فهم لا يؤثرون في السامعين أو المشاهدين، ولا يحققون أهدافهم من الخطاب، وبذلك تكون اللغة العربية بالنتيجة هي الخاسرة؛ لأنها لم تجد الاحترام الواجب والغيرة الصادقة من صاحب الخطاب الرسمي أمام هجمات اللغات الأخرى ووسائل ترويجها الحديثة.

ويمكن أن نضيف هنا أن الخطاب الرسمي على مستويين: خطاب مكتوب، وخطاب شفوي أو مرتجل، والمعروف أن الخطاب المكتوب يعده كاتب أو أكثر، ويجري تحريره ومراجعته وملاءمة وقفاته وإشاراته، وكُتَّاب الخطاب الرسمي يفترض فيهم في عصرنا على الأغلب المعرفة الموضوعية وليست المعرفة اللغوية، ومن ثَمَّ يحال الخطاب بعد كتابته إلى مصحح لغة عربية قبل إلقائه، وقد تقل أو تكثر السطور في صفحات الخطاب الرسمي حسب التوجيهات وقدرة صاحب الخطاب على معرفة

الموضوع والسرعة في الإلقاء وإتقان القراءة، وقد يكون الخطاب مشكولاً كليًّا أو جزئيًّا تبعًا لإتقان أو عدم إتقان صاحب الخطاب لقواعد اللغة العربية. ورغم ذلك فإن المتتبع لصاحب الخطاب الرسمي أثناء الإلقاء يلاحظ أنه قد لا يقرأ بدقة بل إنه قد يقفز سطرًا أو حتى صفحة دون أن يشعر بالخلل ، وقد ينطق الكلمات بطريقة لا يدل نطقه إياها على فهمه لمدلولها ، ويلاحظ المواطنون في بعض اللقاءات الهامة أن بعض أصحاب الخطاب الرسمي عاجزون عن توصيل ما يريدون أثناء قراءتهم لورقات غير مرتبة، وقد يكثر عندهم اللحن وتجاوز قواعد النحو والصرف والبيان إلى درجة لافتة للنظر.

إن مثل هذا الخطاب لا يساعد مطلقًا على تنمية اللغة العربية بل إنه ربما أساء لها أمام وسائل الإعلام الأجنبية التي قد يوجد من بينها من يتقن العربية أكثر من صاحب الخطاب، ويحذق قواعدها فيتنبه للأخطاء إذا حصلت، أما الجمهور العربي فقد يتأثر سلبًا بسماع مثل هذا الخطاب، وقد يصاب بالإحباط والشك في قدرة لغته على التعبير ما دام صاحب الخطاب الرسمي نفسه لا يحسنها بالدرجة الكافية، ومن ثَمَّ لا يحترمها ولا يحميها، إضافة إلى أن مثل هذا الخطاب يعطي حجة قوية لمن يتهم اللغة العربية بالعجز أمام اللغات الأجنبية عن أداء دورها في العلوم والتكنولوجيا ما دام "حماتها" غير قادرين على إتقانها فيما دون العلوم والتكنولوجيا وهو الخطاب العادي.

هذا عن الخطاب الرسمي الشفوي، أما المرتجل فلا يحتاج إلى كل هذا الجهد في التحضير، فهو خطاب يلقى عادة بالعامية المحلية أو بمزيج منها ومن الفصحى، ورغم أننا هنا نتحدث عن الفصحى، فإن الخطاب الشفوي يهمنا من بعض الوجوه ، ذلك أنه ثبت أن صاحب الخطاب يتفوه بعبارات يدافع بها عن اللغة العربية باعتبارها اللغة الوطنية والرسمية والقومية، بل إنه قد يصرح بكلام فيه اعتزاز بالحضارة العربية الإسلامية والانتماء القومي وما إلى ذلك ، في حين أنه هو يلقى خطابه بالعامية أو ما في مستواها ، وهذا قد لا يتفق مع القضايا التي يثيرها.

لكن بعض أصحاب الخطاب الرسمي يستغلون أحيانًا سلطتهم ويعلنون عن آراء تسيء إلى اللغة العربية، وتعطي الحجة لأعدائها في داخل البلاد وخارجها ، مثلاً فقد سمعنا أن أحدهم أعلن لمواطنيه على الملأ وفي وسائل الإعلام أن من يرغب في التحدث بأية لغة فله ذلك ، وأنه لا يوجد في القرآن ما يمنع من الحديث بلغة أخرى غير العربية، وغير ذلك من الأقوال التي لا تخدم قضية اللغة العربية على كل حال ، ولا شك أن هناك فرقًا بين استعمال اللغة العربية وحمايتها والاعتزاز بها وبين تعلم اللغات الأخرى واستعمالها عند الضرورة، والاستفادة منها علميًّا واقتصاديًّا، ونحو ذلك. ومن جهة أخرى فإن تصريحات من النوع الذي أشرنا إليه تمس مشاعر وكرامة المواطنين الغيورين على تراثهم، وتفسح المجال أمام المتربصين بالعربية والطاعنين في كفاءتها وفي كل عناصر الهوية الوطنية والقومية والحضارية التي تعتبر اللغة وعاء لها وإحدى مقوماتها الأساسية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الخطاب الرسمي لا يتورع أحيانًا من استعمال اللغة الأجنبية حتى في مخاطبته المواطنين عند استقبال وفود رسمية أجنبية أو في ندوة لها صبغة دولية، فقد رأينا في وسائل الإعلام "الوطنية" صاحب خطاب رسمي يلقي على مسامع الحاضرين، وهو يقرأ من أوراق مكتوبة بلغة أجنبية أو يتكلم ارتجالاً بها بينما تظهر على الشاشة ترجمة كلامه بالعربية، وأحيانًا ترجمة لكلامه على الإطلاق، فهل صاحب هذا الخطاب يمثل حقًّا الرمز الذي تحتمي به اللغة العربية؟ وكيف يمكنه ذلك وهو نفسه لا يحترمها ؟ ولا نريد أن نخوض هنا في موضوع الشرعية والخروج عن الدستور الذي ينص عادة على أن اللغة العربية هي الرسمية والوطنية، وربما لا يعنينا كثيرًا إذا كان صاحب الخطاب الرسمي يتحدث بأية لغة يتقنها في اللقاءات الخاصة غير المنقولة عبر وسائل الإعلام إذا لم يجد في ذلك غضاضة وكانت ظروف الحديث نفسه تفرضه.

هذا في بلاد صاحب الخطاب الرسمي، أما حين ينتقل إلى خارج بلاده ليحضر ندوات ومؤتمرات دولية، فإن أجهزة الإعلام المتنوعة تنتقل معه لتنقل إلى المواطنين ما

سيلقيه باسمهم ، فإذا هو مكتوب ومقروء أو مرتجل بلغة أجنبية، وتضطر أجهزة الإعلام الوطنية إلى ترجمة ما يقوله ملخصًا وكاملاً. وقد تتحدث هذه الأجهزة على لسانه فتذكر أنه "قال كذا وكذا" ترى ماذا تكون ردود الفعل؟ وإذا افترضنا أن الخطاب قد أدى دوره بالنسبة إلى جمهوره الأجنبي (وقد يكون ذلك عن طريق الترجمة أيضًا) فإن جمهور صاحب الخطاب يبقى محرومًا من حقه في الاحترام والفهم بالإضافة إلى أنه قد يشعر بالإهانة في مشاعره وكرامته الوطنية.

إن هذه الصورة عن اللغة العربية في الخطاب الرسمي ليست بالضرورة هي الصورة العامة والشاملة لا على المستوى الجغرافي العربي ولا على المستوى الاجتماعي و السياسي في البلد الواحد، فنحن نعلم أن في بعض البلدان العربية خطابًا رسميًّا يحترم اللغة العربية ويعتز بها ويتقنها، ويحترم مشاعر المواطنين وهويتهم، ويشعر معهم بأنهم جميعًا رغم بوادر العولمة المتوحشة يخوضون معركة الحضارة بسلاح لغتهم.

فحديثنا إذًا عن بعض الحالات الغريبة التي نرجو أن يصلح أصحابها من أنفسهم، وأن يقيموا وضعهم باعتبارهم قدوة، وأن يتقنوا لغتهم قبل مخاطبة الجمهور بالعامية الفجة أو بلغة أجنبية في غير ما ضرورة، أو التصريح بعبارات يفهم منها الإساءة إلى اللغة العربية وكرامة أهلها؛ ذلك أن المفترض في أصحاب الخطاب الرسمي أنهم حماة الديار والتراث والأوصياء على الأخلاق والقيم، وأيضًا هم القدوة الحسنة للشباب والموظفين ورجال الإعلام فيما يتعلق باللغة العربية، ولسنا في حاجة إلى اقتراح توصيات بهذا الشأن، معاذ الله! فأصحاب الخطاب الرسمي أعرف الناس بواجباتهم أو هكذا يجب أن يكونوا.

* * *

وسائل الإعلام والفصحى المعاصرة(*)

للأستاذ عبد الله بن خميس

(عضو المجمع المراسل)

يعيش العالم عصرًا ماديًا، يكاد يطغى على كافة المقومات الروحية والمعنوية والقومية، وتتجه تياراته المتعددة إلى حيث السبل التي تغذي هذه المادية، وتمدها بالطاقات المختلفة لتلتهم ما يقدم لها، وتطلب المزيد حتى لقد حولت معارف العالم وعلومه واتجاهاته إلى روافد تغذي هذه المادة وتنميها، وتوجهت أفكار الشباب وهممهم وطموحاتهم إلى ما تروج بضاعته وتنفق سوقه، إلى علوم العصر ولغاته ومعارفه، فتحولت هذه إلى مواد رئيسية تستبد بوقت الطالب وتفكيره واهتمامه، وأصبحت مواد الدين واللغة والاجتماع في درجة متخلفة قصد ذلك واضعو المناهج أم لم يقصدوه، عرف أولئك ذلك على حساب كيان هذه الأمة ومعنوياتها ومقوماتها العامة أم لم يعرفوه.

فمادية هذا العصر قد حولت علومه ومعارفه إلى مبدأ مادي يخضع لقانون العرض والطلب... والطلب متجه كل الاتجاه إلى علوم العصر ومعارفه.. فذوو الهمم العالية والطموح ونوابغ الشباب وأذكياؤه انصرفت هممهم إلى ما تروج بضاعته وتنفق سوقه إلى العلوم العصرية . وبقيت العلوم النظرية فضلة لا يلتفت إليها إلا من يقعد به إدراكه، أو تتقاصر به همته. وعلى هذا الأساس يقل الإقبال على هذه العلوم من ناحية، ومن يقبل عليها يكون ضعيف المستوى ضعيف النتيجة...ومن ثم برزت النتائج المؤسفة وتبينا آثارها ونتائجها. وسوف لا يقف الأمر عند هذا الحد بل سنظل نواجه هذا الانحدار يومًا بعد يوم، وسوف يكون مستقبل علومنا الروحية والقومية وتراثنا

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة السادسة عشرة من جلسات مؤتمر المجمع، في دورته السابعة والستين، يوم الأربعاء الموافق ٢٨ من مارس سنة ٢٠٠١م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الرابع والتسعين، ص ٥٧.

وتاريخنا في مهب الرياح، وسوف تواجه هذه العلوم- بما في ذلك لغتنا الأصلية- مشاكل مستعصية عويصة العلاج منها- انصراف الشباب النابه عنها، وقلة الملتفتين إليها، ثم سوف تواجه إنتاجاً هزيلاً لا يمكن أن يضطلع بها في كتابته وتأليفه، ولا في أدائه ومعاناته، ولا في تدريسه وتربيته، وسوف تظل من انحدار في انحدار ومن تخلف في تخلف .

وإذا أضفنا إلى ما ذكرنا ما نواجهه من غزو فكري يكيد لعقيدتنا ولغتنا وتراثنا، ويجند له الأفكار الناضجة والوسائل الرهيبة التي تزهد ناشئتنا في عقيدهّا وتراثها ولغتنا، وتجعلهم ينظرون إليها نظرة تخلف وانحطاط.

ثم ما هو معروف من سنن الحياة بالنظر إلى الأقوى نظرة المثل الأعلى والقدوة المثلى ليلعب التقليد دورًا خطيرًا، ويصبح أولئك هم القدوة والأسوة..

لذا لم يكن بدعًا أن نرى أنفسنا خلف من نقلدهم حذو القذة بالقذة في صحافتنا، في إعلامنا، في أساليبنا،حتى لقد تجاسر بعض المتهورين إلى الدعوة للكتابة بالحروف اللاتينية، وحتى لقد ضربوا لغتنا في صميمها، وسعوا لهدم ركن ركين من قواعد لغتنا وهو الشعر، ليحلوا محله شعرًا وأغلالا طعم له ولا رائحة ولا أثر، وهو ما يسمى بالشعر الحر، أو المنثور، أو الرمزي...

عوامل هدم تكاثرت على هدم لغتنا وتقويض بنائها ... لم تجد أمامها وعيًا يكافحها، ولا غيرة تنافحها، ولا روحًا تدرك مكان اللغة من حياة الأمة ومترلتها من فكرها وتراثها ومستقبلها ومجتمعها ودينها وتاريخها ويقظتها ووعيها ... وجدوا الباب مفتوحًا فولجوا، ووجدوا النقد ميتًا، فعاثوا وعبثوا...

وإذا أضفنا إلى ما تقدم ضعف المناهج الدراسية وعدم إحكام وضعها وهبوط مستوى المدرس والمدرسة، كل ذلك أدى بنا إلى المستوى الذي نعانيه الآن، وسوف يزداد النقص ويتفاقم الخطر والوضع؛ لأنه لم يكن من السهولة بحيث يكتفي حوله

بعلاج مسكن أو توصيات لم تلبث حتى تنسى.. الوضع يحتاج إلى تضحية، ومتابعة، واستمرار علاج على أساس تشخيص الداء، ووصف الدواء النافع ... والعلاج الذي أقترحه لمكافحة هذه الأدواء الخطيرة هو:

أولاً: محاولة بث الوعي في أمة العرب، وتحذيرها من الخطر الداهم الذي يهدد لغتها وعقيدتها وتراثها لتصحو على واقع مؤلم تستنفر نفسها ضده .. تتبنى ذلك أجهزة الإعلام والصحافة والمجامع اللغوية ودور الثقافة والنشر والجامعات والمعاهد... إلخ

ثانيًا: إعادة النظر في المناهج وتقويتها وإحكامها، وتعهدها بالرعاية والعناية على النحو التالي:

(أ) فن الخطابة مفقود من هذه المناهج، وهو فن عظيم له أعظم الأثر في ماضي الأمة العربية، وتقويم لسانها - وحفظ كيانها، وإنجاب المصاقع والمقاويل الذين يهزون المجتمعات ويحركون الجماهير، ويتبارون في الفصاحة والبلاغة وعدم اللحن.. إنه رافد كبير وأثير من روافد الفصحى يكاد يكون الآن معطلاً.. والواجب إحياؤه بعزم وحزم ومتابعة.

(ب) لا زلنا ننظر إلى المطالعة على أنها مادة ليست من الأهمية بمكان، مع أنها في الواقع مادة أساسية تطبيقية هامة جدًّا، يمر عبرها فقه اللغة والنحو والصرف والبلاغة والعروض وضبط الأعلام والرسم وغير ذلك، ولكننا نكتفي منها بالقليل الهزيل ونترك الطالب يأخذ هذه العلوم، ويكاد يخرج من المدرسة أجنبيًّا عنها، وهي علوم آلية إذا لم نروض المتعلم عليها ونحمله على تطبيقها ونناقشه في زواياها وخباياها خرج جاهلاً بها، وهكذا كان يحمل الطالب درجة عالية في هذه العلوم ثم يخجلها حينما يخرج إلى ميدان الحياة أميًّا فيها أو شبيهًا بالأمي.

إننا لا نقنع من المطالعة بكراريس خفيفة لا تسمن ولا تغني من جوع، وبحصة أسبوعية في زاوية من زوايا الحصص ليس لها أهمية، وبمدرس يجهل مما يدرسه أكثر مما يعلمه في علم المطالعة.

إنني أقترح أن تأخذ المطالعة في مناهج الدراسة حصصًا وافية، وأن يدرسها أزهري أو درعمي، أو من هو على شاكلتهما من المتخصصين في هذه الفنون، وأن توضع لها كتب الجاحظ أو الزمخشري والقرطبي في التفسير، وأن يناقش فيها المدرس على الحبة والخردلة، وأن تكون درجاها في الامتحانات درجات كبيرة.

(ج) إن مناهج تدريس الأدب لدينا مناهج قاصرة، نكتفي فيها بسرد التراجم وقراءة النصوص للتسلية وتزجية الوقت. والمفروض أن ندرس الأدب دراسة وافية، وأن تكون دراسته متذوقة مشوقة، وأن نلتمس عبره الصورة والفكرة والغرض واللغة والأثر.

(د) الشعر الجاهلي كتر من كنوز اللغة، ومادة اعتمدها واضعو المعجمات اللغوية، وعوَّل عليها الرواد، واختزنت الذخيرة من فصيح اللغة وصريحها، فيجب أن نعول عليه وأن نضمِّن مناهجنا دراسته وحفظه واستظهار خباياه وأسراره.

(هـ)القرآن كتاب العربية الأمين، وبيانها المبين، ومستودع أسرار اللغة، وبيانها المعجز، وعقيدتها، وحكمها، وقصصها .. اتخذه رواد هذه الأمة الأوائل ديدنهم وهجيراهم، ولجأ إليه غير المسلمين يلتمسون ثروته اللغوية وفصاحته وجماله وعلو أسلوبه..

إنه جدير بعنايتنا، وإننا جديرون بجعله لنا حجة وأسًّا ومنهاجًا... ومثله السنة النبوية، بها جوامع الكلم ومصادر الحكم.

ثالثًا:

يجب أن نهيئ الفرص لخريجي اللغة والآداب والشريعة، وأن نضع لهم الماهيات المغرية والميزات، وأن نصرفهم إلى هذه العلوم بما استطعنا من دوافع ومحببات، فذلكم

منهج أمة تريد المحافظة على لغتها وتراثها وفخرها ومكانتها بين الأمم، ولو بوساطة الإغراء والتضحية.

إن ما قدمته هنا هو ما أعتقده من مسببات أدت بمستوانا اللغوي إلى هذا الواقع، وما قدمته من علاج هو ما أعتقده ناجعًا في مباشرة علاج هذا الداء، أصدر عن خبرة في التعليم، وقد مارسته أعوامًا، وعن همٍّ يلازمني منذ زمن على هذا المستوى الانحداري الذي أدى بنا إلى هذا الواقع..

*　　*　　*

في لغة الإعلام(*)

للدكتور إبراهيم السامرائي
(عضو المجمع)

تدخل لغة الصحافة في باب "الإعلام"، والإعلام مصطلح جديد أريد به أن يقابل كلمة أعجمية شاعت في باب هذا المصطلح الجديد في الإنجليزية والفرنسية. إن عامة المواد الجديدة ولا سيما المصطلح الفني في العربية محكوم بما هو سائر في هاتين اللغتين الأعجميتين. وكأننا لا نفكر في شيء خاص بنا نبتدعه ابتداعًا، ذلك أن العربية مغزوّة بل محاصرة بآلاف من المصطلح الجديد في العلوم والفنون كافة، فقد ورد في معلومات من الأمم المتحدة أن في كل سنة يجدّ أكثر من خمسة آلاف مصطلح علمي حضاريّ، فأين نحن من هذا السيل الآتي؟

وهكذا صرنا إلى مصطلح "الإعلام" منقولاً من المصدرية إلى شيء آخر يندرج فيه حشد من الكلم الجديد(1) على أننا قد نجد بين العرب من يؤثر مصطلح "الاتصال(2)"، وإن كان هذا في حقيقته "التواصل". ومهما يكن من هذا الاختلاف فقد ثبت "الإعلام" فكانت مؤسسات الإعلام، ووزارات الإعلام وغير هذا مما يتصل بهذه الممارسات الجديدة.

وإني لأبدأ فأؤكد أن الكلام في لغة الصحف لا يدخل في باب الخطأ والصواب، والتصحيح اللغوي الذي صار مادة لأهل العلم ومدعيه، فقد كثرت الكتب والرسائل في هذا الشأن.

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة السابعة عشرة من جلسات مؤتمر المجمع، في دورته السابعة والستين، يوم الأحد الموافق ١من إبريل سنة ٢٠٠١م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الرابع والتسعين، ص ٦٣.

(١) أقول: هذا الذي أبسطه في بحثي هذا أرمي إلى أن يكون مقدمة في "معجم للإعلام" أوشك أن أنتهي منه، لولا أني قد أتوقف في مواد ليست قليلة، افتقر فيها إلى علم المختصين الجديد في هذه الممارسة اللغوية.

(٢) انظر: إعجاز التواصل الحضاري الإعلامي، للدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت١٩٨٤ ص١٢٠-١٢١

على أن الكثيـــر من ذلك خـــروج عـــن العلم، وامتـــهان للعربيـــة وكيـــد لسماحتها، وهي أوسع مما تخبّطوا فيه.

على أني لا أنكر أن يكون في هذه اللغة جنوح عن العربية، وأن الذي عرض في ذلك هو عينه الذي يعرض في كتابة سائر المترسلين. ولكني أقول: إن هذه اللغـــة قـــد تبتعد في هويتها عن الأصول العربية، وأنها ضرب من الممارسة اللغوية المعاصرة. وهـــي لشمولها وسعة انتشارها غزت ميادين أبعد ما تكون عن الصحف، ألا نرى أن لغة أهل الاجتماع عامة هي شيء من هذا الجديد الوافد. وقد نتحول إلى اللغة الأدبية الحديثـــة فنجدها تتلقّف كثيرًا من موادها من حيّز هذه الصحف.

لقد استقبل اللغويون في أوائل القرن الماضي، وأوائل هذا القرن "لغة الجرائـــد" استقبالاً غير حسن، فراحـــوا يعرضون لما كان فيها من الخطأ،وما خرج فيه أصـــحابها عن قواعد العربية نحوًا وصرفًا وأبنيةً ونظام جُمَل، وقد ألفوا في هذا مصنفات.

قلت: بدأت الصحافة العربية في أوائل القرن التاسع عشر متسمة بصفات النثـــر في تلك الحقبة، فقد كانت مثقلة بالسجع وألوان البديع من جنـــاس ومقابلـــة، فهـــي متكلفة عسيرة لا تصل إلى الغرض المراد إلا بعد عسر.

لقد ورد في افتتاحية العدد الأول من جريدة "الوقائع المصرية" التي أنشأها محمد علي باشا في القاهرة سنة ١٨٢٨[*]:

"الحمد لله باري الأمم، والسلام على سيد العرب والعجم، أما بعد، فإن تحرير الأمور الرافعة مع اجتماع بني آدم، المتدبّجين في جمعية هذا العـــالم، ومـــن ائـــتلافهم وحركاتهم، وسكونهم ومعاملاتهم، ومعاشراتهم التي حصلت من احتياج بعضهم بعضًا، هي نتيجة الانتباه والتبصر بالتدبير والإتقان، وإظهار الغيرة العمومية، وسبب فعّال منه يطّلعون على كيفية الحال والزمان[١].

(*) أقول: هذا هو أوّل نمط صحفيّ في تاريخ هذا الفن الوافد.

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، لأنيس المقدسي، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٢، ص ٤٤٩.

وقد كانت هذه اللغة الركيكة قد حفزت المعنيين بالعربيـــة وأســـاليبها إلى أن يكتبوا في دفع هذه الهجنة على رأيهم.

على أن التنبيه على هذه اللغة وركاكتها وبعدها عن سماحة العربية لم يجد كثيرًا، فلقد ورد مثلاً في افتتاحية العدد الأول من صحيفة "لسان الحال" الصادرة في بـــيروت سنة ١٨٧٧م، أي بعد صدور "الوقائع المصرية" بخمسين سنة تقريبًا، شـــيء لا يتعـــد كثيرًا عما كانت عليه اللغة الصحفية في "الوقائع المصرية".

قال محرر "لسان الحال":

... الحمد لله الذي يسبِّح بحمده في الغدوّ والآصال، وينطق مفصحًا بتعداد آلائه لسان الحال، حمدًا يدوم آناء الليل وأطراف النهار، ما غرّد قمريّ، وترنَّم هزار[١]

وقد نقف في صحافة هذه الحقبة على نمط من الإغراق في استعمال الألقاب في مدح من يتحدَّث عنهم. ومن هذا ما ورد في جريدة "وادي النيل[٢]" عند صدور مجلتين في بيـــروت، إحداهما "الزهرة" ليوسف شلفون اللبناني المتوفى عام١٨٩٠م، والثانيـــة "الجنان" للمعلم بطرس البستانـــي عام١٨٨٣م، المتوفى سنة ١٨٨٣م. وهاتان المجلتـــان تكادان تتشابهان في كثير من الصفات.

جاء في مقال "الوقائع":"وكلتاهما من الطرافة والكياسة، وعظم الفائدة والنفاسة، في درجة عالية وهيئة حالية، وكأهما فتاتان من الجزر الأوربية وقد بـــدتا في كنـــائس نصرانية متجملتين بمآزر شرقية عربية، أو برانس مغربية... إحداهما تنشر باسم "الزهرة" بتأليف الأديب الأريب، والكاتب اللبيب، والآخذ في الكتابة بمجامع الفنـــون المـــدعو

---

(١) مطالعات في الإعلام، للدكتور محمد حمد خضر، بيروت ١٩٨٧، ص ١٥٤.

(٢) كانت كلمة "جريدة" من الكلمات الشائعة في أواخر القرن التاسع عشر، وقد استمرت هذه الكلمة مستعملة في أوائل هذا القرن، وهي تؤدي ما تؤديه كلمة "صحيفة" وما زال شيء منها حتى اليوم.

يوسف الشلفون.. والثانية تظهر باسم "الجِنان" بقلم وإدارة المؤلف اللطيف، والمصنف الشاب الفهيم المعروف كذلك باسم سليم[١].

على أن هذا قد ذهب في صحف هذا القرن، فلم نجد شيئًا منه فيما كان ينشر يعقوب صروف منشئ المقتطف.

لقد كنا نقرأ فيما يكتبه صروف سنة ١٩٢٧م شيئًا يبتعد عن هذا التكلف الذي لا يخدم الفن الصحفي.

وقد أشار إلى هذا التحول أنيس المقدسي في المصدر الذي أشرنا إليه.

على أننا لم نتخلص في هذه الحقبة مما ألمحنا إليه من ثقل هذه اللغة الصحفية، وأنت إذا نظرت إلى ما كان يكتبه السيد محمد توفيق البكري المتوفى سنة ١٩٣٢م وجدت أن التكلف في استعمال السجع والمحسنات البديعية واضح كل الوضوح. وقد أشار إلى هذا أنيس المقدسي في المصدر الذي تقدم ذكره.

قلت: لقد تصدى المعنيون بالحفاظ على العربية إلى لغة الصحف، وتنكروا لها. ومن هؤلاء الشيخ إبراهيم اليازجي الذي كتب مقالات عدة نشرها في مجلة "الضياء" بعنوان "لغة الجرائد" ثم أعيد نشرها في كتابه الموسوم بالعنوان نفسه[٢].

على أن ما نبّه عليه اليازجي في "مقالاته" هذه بعيد عن اللغة الصحفية التي نشاهدها اليوم، وها أنذا قد اقتطفت نماذج منها مما ورد في بحث عن "الإعلام واللغة الإعلامية" للأستاذ منير البعلبكي ألقاه في "مجمع اللغة العربية" في القاهرة سنة ١٩٨٧م.

---

(١) مطالعات في الإعلام ص ١٤٠، وقد علق الدكتور محمد حمد خضر على هذا، فقال: فتصوروا لو كان على الصحافي المعاصر أن يستخدم هذه اللغة، وأن يعتمد على هذا الإيقاع التعبيري لتغطية اختطاف طائرة، أو نقل أنباء غارة حربية...

(٢) لغة الجرائد، للشيخ إبراهيم اليازجي، مطبعة المعارف، القاهرة ١٣١٩ هـ.

أقول: إذا كانت لغة الصحف في بلدان المشرق العربي متأثرة بأساليب ما هو شائع في الإنجليزية في أمريكا وإنجلترا[1]، فإن لغة الصحافة في الشمالي الإفريقيّ متأثرة بما هو معروف متداول في الصحف الفرنسية.

وقد كان لي جولة في صحف المغرب وموريتانيا والجزائر وتونس وقفت فيها على طرائق من التعبير حكت ما هو معروف في الفرنسية. على أن هذا المحكي قد ألقت الضيم عليه عربية ضعيفة قد تحسب أن قائليها لم يجروا من العربية على عرق.

وسأستقري طائفة من هذه التعابير غير مُلزمٍ نفسي أن أحصها بهذا القطر أو ذاك،ذلك أن مسألة النسبة المحددّة لا تعني شيئًا يتسم بخصوصية بلد بعينه.

قرأت:

اجتمع بالدار البيضاء مبعوث الرئيس الليبي معمر القذافي قائد ثورة الفاتح من شتنبر مع زعماء من بلدان المغرب العربي.

أقول: "إن شتنبر" من أسماء الشهور المغربية وغيره هو سبتمبر، وهو شيء مما أخذه أهل هذه البلدان، و لم يستعملوا ما عرف العرب من أسماء الشهور التي عرفتها الأمم القديمة في بلدان المشرق، والتي استعملها العرب في ممارساتهم الاجتماعية والأدبية. لقد عرف العرب "أيلول" وهو اسم بابلي واستعملوه.

ومن عجب أن أهل اليمن عرفوا هذه الأسماء ولكنهم تأثروا بما هو شائع وجار في مصر فصرنا نسمع ونقرأ "سبتمبر" والثورة السبتمبرية.

ومثل هذا يقال في "يناير" في مصر، وهو جانغي في بلدان الشمال الإفريقي، وفبراير في مصر وهي "فيفري" في تونس والجزائر والمغرب، وهكذا "مارس" و"أفريل" و"مايو" و"ماي" و"يونيه" و"جوان"، و"يوليو"، و"جويليه" و"أغسطس" و"غشت" ثم "سبتمبر" و"شتنبر" و"أكتوبر" و"نوفمبر" و"ديسمبر" و"دجمبر".

---

(١) لابد لي أن أستدرك فأقول: إن العربية الحديثة عند قيام الحكم الوطني (وكان هذا استعمارًا أو انتدابًا) قد اعتمدت على الوافد إليها من طرائق التعبير الفرنسي؛ وذلك لقيام التراجمة من أهل لبنان وسورية بهذه المهمة.

وأنت ترى كل ذلك في بلاد الشام والعراق وبلدان الخليج والجزيرة: كانون الثاني وشباط وآذار وأيّار إلى آخره. قال أبو العلاء:

تشتاق أيّار نفوس الورى وإنما الشوق إلى ورده

وغير هذا كثير.

و"الفاتح" في استعمال أهل طرابلس الغرب اسماً لثورتهم يراد به "الأول" والاستعمال صحيح فصيح، غير أنهم التزموا به دون غيره، وكأن ما يرادف "الفاتح" لا يفي بالمراد.

وقصة "اجتمع مبعوث الرئيس معمر القذافي مع .." من الأساليب الجديدة التي لا نعرفها في فصيح العربية، ولكنها من لغة الصحف، ذلك أن "اجتمع" في العربية متطلب للواو بمعنى "مع" فلا نعرف: اجتمع مع، ولا اتفق فلان مع صاحبه، ولا اشترك مع، وغير هذا. وقرأت:

بعث أزيد من ٤٦ طالبًا أستاذًا درسوا بالمدارس العليا للأساتذة رسالة يلتمسون إثارة مشكل وضعيتهم الإدارية والمادية.

أقول - من غير شك- إن قولهم: "طالبًا أستاذًا" هو ترجمة لعبارة فرنسية، والترجمة حرفية كما يقال الآن، ولكني أريد أن أقف على "أزيد" هذه الصيغة التي لا نجدها إلا في نادر الاستعمال، وكأن العرب قد تحاشوا الياء المفتوحة والواو المفتوحة وهربوا إلى إعلالهما ألفًا. غير أن أهل هذه الديار "المغاربية" على اصطلاحهم الجديد يبتعدون عن "أكثر" لإلفتهم لـ "أزيد" مأخوذة من الألسن الدارجة.

وقولهم: "مشكل وضعيتهم".

أقول: "والمشكل" يقابل "المشكلة" في استعمال أهل المشرق، وأنت لا تستغرب عدم استعمال هؤلاء للمشكلة، إذا علمت أن "المشكل" أرادوا به مقابلة الكلمة الفرنسية "Probléme"، ولما كانت هذه مذكرة في الفرنسية جعلوا ما يقابلها "مشكلاً" مذكرًا.

قد تقول: إن "مشكل" كان في استعمال القدماء، فقد جاء "المشكل" لموضع الإشكال كما في استعمال ابن قتيبة "وتأويل مشكل القرآن".

غير أني أقول إن "المشكل" في استعمال أهل ديار المغرب منظور فيه إلى الكلمة الفرنسية، وليس إلى ما ورد من تراثنا.

ومثل هذا يقال في استعمالهم في هذه الجملة لـ "وضعية" فهي تقابل "Sitiuation" وهذه مؤنثة في الفرنسية، ولذلك عدل إخواننا في هذه الديار عن المذكر "وضع".

ولا بد لي أن أستدرك فأقول: إن جملة ما يؤثر في الاستعمال في هذه البلدان هو صحيح تحتمله العربية بوجه من الوجوه، ولكنه ذو خصوصية اكتسبها من أنه منقول عن أصل أعجميّ.

وقرأت أيضًا:

إدارة مفاحم المغرب.

أقول: لا أدري إن كان مفرد "مفاحم" مفحمًا أو مفحمة.ولكن الذي استوقفني هو هذا الجمع، وكأنه جمع ما يستخرج منه الفحم. والناس تضبط لغتهم الحاجة التي تحكمهم. ومثل هذا قولهم أيضًا:

المؤسسة العامة للأبناك.

و"الأبناك" جمع "بنك" وهذه مما عُرِّب في اللغة العربية، وكأنّ العرب اتفقوا على تعريبها واستعمالها. وقد جُمعت في بدلان المشرق على "بنوك" كما يقال في شهر: شهور. أما أهل المغرب فذهبوا فيها إلى "أبناك" وهم يجرون في هذا على قياس مماثل فجمع "نهر" أنهار.

أقول: ومسألة الجمع هي مسألة استعمال، فإذا شاع بناء في كلمة فيصبح ما جاز فيها من القياس مهجورًا.

وتقرأ في المغرب أن الشارع أو الطريق يُرسَم إليه بـ "محجّ".

أقول: واستعمالهم صحيح، وهو من العربية وليس من لغة فرنسية، ولكنه خاص بهم.

ويؤيد ما يذهبون إليه ما ورد في الحديث الشريف:

"تركتكم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها..."[1]

وقرأت:

مديرية تكوين "أطر".

و"الأطر" في هذا ترجمة لـ"Cadres" الفرنسية، أو يندرج في "الأُطُر" العمال المختصون وشبه المختصين، وكذلك الموظفون. وكانت هذه الكلمة "إطارات" في الصحف التونسية قبل ربع قرنٍ، فكان يقال: الإطارات الحزبية.

وقد وجدت هذه الكلمة طريقها إلى العربية في المشرق، ومنهم مَنْ عَرَّب الأصل الفرنسي وجمعه.

وقرأت من هذا:

وفاة ١٢٧٢ شخص بسبب إصابتهم بالسيدا.

أقول: و" السيدا" هو مرض الإيدز الذي نجده في صحف أهل المشرق. و"الإيذر" هو مرض نفص المقاومة، وقد صيغ من جمع أوائل حروف الكلمة في اللغة الإنجليزية، فالهمزة من كلمة، والدال من كلمة، والزاي من الكلمة، وهذا الاختزال وتكوين الكلم معروف في اللغات الغربية.

---

(١) الألفاظ الخاصة بهذه الصحافة المحلية كثيرة، وأريد بهذا ما أخذ من العربية، وليس من فرنسية اكتسبت خصوصية، ومنه: الحكومة معرَّضة للانفراط، وتعني أن عقد الحكومة انفرط فتفرَّق باستقالة وزير أو أكثر. ومنه: المرشحون للوظيف الحكومي قدموا استدعاءاتهم. أقول: والوظيف اسم جمع، ويريدون به الوظائف. والاستدعاءات تعني الطلبات، وهي شيء من العربية التي استعملها الأتراك العثمانيون، وما زال شيء منه في هذه العربية الخاصة، ومنه أن "الإشهار" هو "الإعلان" واللوحة الإشهارية: هي اللوحة الإعلانية. أقول ليس في هذا الالتزام جنوح عن العربية، ولكن "الإعلان" اكتسب قوة المصطلح الفني، وفي هذا لا تفي كلمة "إشهار" بالمراد من "الإعلان".

وقد اختلف الأمريكيون والإنجليز عن الفرنسيين، فأولئك يستعملون "إيدز" وهؤلاء يقولون: سيدا، والسبب أن نظام تأليف المركبات من الصفة والموصوف يختلف في الإنجليزية عن الفرنسية.

ومثل هذا يقول الفرنسيون: حلف "الأوتان" ويقول الأمريكيون والإنجليز حلف "الناتو" وهو شمال الأطلسي.

لكن الفرنسيين اضطروا إلى استعمال "يونسكو" على الطريقة الأمريكية الإنجليزية، لشيوع يونسكو أو أونسكو، وهي منظمة الثقافة والتربية والعلوم...

وقرأت: نُزعت الأراضي من مالكيها لاستغلالها من طرف مصالح المياه.

أقول: قولهم "من طرف" من الفرنسية (de la part). ولو أنهم اكتفوا بـ "من" الجارة لبقوا في حيز العربية، ولا أطلب إليهم التفاصح ليقولوا: من لدن مصالح المياه.

وقرأت: توصَّلنا برسالة من سكان القرية يثيرون فيها أنهم منعوا من زيارة مسجد المجاهدين.

أقول: واستعمال "توصَّل" مُعَدًّى بالباء يريدون به أنهم تسلَّموا رسالة.

وهم في هذا يجرون في نظرهم إلى قول الفرنسيين commoniquer de.

أقول أيضًا: وأهل الشرق يذهبون في خطأ باستعمالهم: "استلم" فيقولون استلمنا رسالة، و"الاستلام" للحجر، وهو السلام بكسر السين، قال الفرزدق:

" ركن الحطيم إذا ما جاء يستلمُ"

وقرأت: إقامة البراريك، في الحدائق مما يشوهها.

أقول: "والبراريك" من الكلم الأعجمي، وأهل الصحف أهل جرأة عجيبة في تعريبهم.

ونظير هذا قولهم: إحصاء سكان الكريانات.

ولا أدري ما الكريانات!!، وهي من الكلم الأعجمي.

ولا أبتئس كثيرًا في هذا فمثله استعمال "الفِلل" في الصحف المصرية جمع "Villa" والكلمة إيطالية الأصل.

وقرأت: ورشة لتعليم اللغة العربية!!

أقول: تعالى الله ما أجرأنا على العربية التي وصلنا بها لإقامة "ورشة" لتعليمها، هذا من المضحك المبكي.

ثم ماذا ألم نقرأ في صحفنا في المشرق العربي: لقد سددنا فاتورات تقاعسنا!!

وقرأت:

إن الدار البيضاء أحسن المدن الثالثعالمية!!

ولننظر إلى هذا النحت الجريء والتركيب الجريء!

ومثل هذا ما ننشر أن المنظمة الأفروآسيوية على طريقة ما يقول الأعاجم: أنجلوأميركان.

وقرأت: أن الحكومة تميل إلى الخوصصة.

أقول: وبعد نظري في هذه العبارة في صحيفة تونسية أدركت أن "الخوصصة" تعني: نقل الملكية العامة إلى الملكية الخاصة، أو ما يُدْعَى جعل ما هو قطاع عام قطاعًا خاصًّا. وقد سبق أن قال التونسيون بـ "التونسة" أي جعل الشيء الغريب تونسيًّا. وهذا كله من الكلم المعدول عن جهته[1].

وردت "الصحف" في لغة التنزيل وأريد بها كل شيء مكتوب على رقوق أو عسب أو لحاف، كما كان الأمر في "الصحف" التي احتفظ بها بعد رسول الله- صلى الله وعليه وسلم- في بيت حفصة، وهي التي اتخذ منها عثمان -رضي الله عنه- أصول المصاحف في "جمعه" المعروف المشهور الذي اضطلع به جلّة من الصحابة من

---

(١) أريد بالكلم المعدول عن جهته ما جمع على بناء لم يرد مثيل له في العربية، وفي هذا جمع المغاربة لـ"زبون" على زُبَنَاء. وما كان على "فعول" يجمع على "فُعَل" وهو مثل فعيل صفة كان أو اسمًا. وأما جمع أهل المشرق على "زبائن" فخطأ آخر، و"زبائن" جمع "زبونة" ولم نجد "زبونة" في عربيتنا. والزبون من الكلم المستعار في العربية القديمة.

كتاب الوحي، وغيرهم. فانتهوا إلى ما انتهوا إليه في استقرائهم واختيارهم واستحسانهم وجمعهم. و"للصحف" في لغة التنزيل العزيز حضور وافٍ، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وإذا الصحف نُشِرت﴾(١) كما ورد في قوله تعالى:﴿صُحف إبراهيم وموسى﴾(٢).

و"الصحيفة" و"الصحف" شيء عرفه العرب قبل الإسلام، وصحيفة "المتلمس" الشاعر الجاهلي وخبره مع الشاعر طرفة بن العبد والقصة مشهورة معروفة في أدبنا القديم "الجاهلي".

وجاء الإسلام وأقبل المسلمون على لغة التنزيل يدرسونها ويقفون على معانيها وما أخذوا به من أسرارها فكان علمٌ، وكان منهج في الدرس والتلقّي، وكان من ذلك أن هُرِع أهل العناية إلى الأعراب يستفتونهم ويأخذون عنهم، حتى إذا عادوا بذخائر لغوية وأدبية تتصل بالعربية والعرب وأيامهم وأخبارهم تصدروا لهذا الدرس الذي شقي به طلاب العلم، فكان مما يُحمَد عليه طلاب العلم أن يكون علمهم مأخوذًا عن شيخ من أولئك المشايخ النحارير يسمعون عنهم فيروون ما سمعوا، فكان درس وكانت "أمالٍ" يمليها "الجهابذة" الأعلام، وكانت رواية وقراءة.

وكان أن درجت أفواج من طلاب العلم على هذا السنن فأخذوا واستوعبوا ثم صنفوا الكتب ثم غَبَرَ دهرٌ فخلف بعد أولئك طلاّب جُدد لم يكن لهم أن يسمعوا كثيرًا على الشيوخ. و لم يُتح لهم أن يقصدوا بوادي الأعراب، يأخذون عن أهلها، ولكنهم تعجلوا المسيرة، ووجدوا أن طريق الأوائل مضن عسير، فلم يكن منهم إلا أن "عمدوا" إلى "صحف" المتقدمين ورسائلهم ومصنفاتهم، يقرؤونها فيفيدون منها.

وكان لا بد أن يعرض لهؤلاء في درسهم وقراءتهم الخطأ بسبب من التشابه في رسم الحروف، وبسبب ما يكون من "الإعجام" و"الإهمال"، وبسبب ما يعرض من الخطأ الذي مردّه الأبنية الصرفية والموقع النحوي الإعرابي للكلمة في موضعها. ومن هنا

---

(١) سورة التكوير، الآية ١٠.

(٢) سورة الأعلى، الآية ١٩.

كان هذا الخطأ الذي يتصل بالرسم و"الإعجام" و"الإهمال" قد أخذ اسمه من مادة "صحف" فكانوا يأخذون العلم من "الصحف" و"الكتب" و لم يسمعوه من شيخ رواية ودراية. وصار هذا الذي لم ينل العلم عن طريقه الذي درج عليه المتقدمون من أهل العلم "مصحِّفًا"؛ أي مرتكبًا للتصحيف وهو الخطأ. وقديمًا قالوا: لا يؤخذ العلم من "صحفي" وهو الذي عوّل على "الصحف" في تلقّيه للعلم، وقد ذمّوا "المصحَّف" بتشديد الحاء ونبزوه، ومن هنا نفهم قول أبي نواس في رثائه لخلف الأحمر:

*تروغ في الطُّبّاق والترع الأَلَفْ *

* أودَى جماع العلم مُذ أودَى خَلَفْ *

* من لا يعدُّ العلْمُ إلاّ ما عَرَفْ *

* قَلَيذَمٌ من العَيالِيم الخُسُفْ *

* فكلّما نَشَاءُ مِنْهُ نَغْتَرِفْ *

* روايةً لا تُجتَنى من "الصُّحُف"[1] *

أقول: هذه نبذة تاريخيه موجزة تتصل بـ"الصحف" وما كان من أمرها لدى الدارسين الأوائل.

ثم جاء عصرنا فكانت "صحف" جديدة، وهي غير "الكتب" القديمة، ولكنها مظانٌّ جديدة فيها "الخبر" و"الرأي"، وما يعرض في البلد من شؤون اجتماعية واقتصادية وسياسية و"علمية"، وهي ليست خاصة بالبلد الذي تحرّر فيه، وإنما تنفتح على بلاد فسيحة الأرجاء من أقاليم الدنيا. إنك تجد فيها ما يتصل ببلدك كما تجد فيها ما يتصل ببلدان العالم المعمور.

---

(١) الديوان.

وقد كان لنا "صحف" نحن العرب منذ أوائل هذا القـــرن، ولما كنا في أعقاب القرن المنصرم وأوائل هذا القرن من الأمم المغلوبة على أمرها، المتأخرة في مسيرتها عـــن غيـــرها من الأمم المتقدمة، ولما كنا أيضًا قد انقطعنا عن تاريخنا الثقـــافي وحـــضارتنا العريقة أقول: لما كنا بتلك الأحوال من التأخر والتخلف، صرنا نتطلع إلى العالم المتقدم وكان من جرَّاء ذلك أن كانت صحفنا في تلك الأحقاب معتمدة على ما ترفـــده بـــه صحف العالم المتقدم ولا سيما ما كان من حضارة العرب.

أقول: وكما أفادت لغتنا العربية في أعقاب القرن الماضي وأوائل هذا القرن ممـــا حفلت به اللغات الغربية استعانةً بذلك الوافد الدخيل، على التقرب مـــن متطلبـــات العصر، كان ذلك الدخيل في الوقت نفسه مما حمل الضيم على العربية.

وقد كنت وقفت على لغة الصحف وقفة طويلة وكتبت في أساليب الصحفيين التي جنحت بالعربية المعاصرة إلى لغة خاصة ذات سمات خاصة هي "لغة الصحف"، ولا يعنيني هنا أن أشير إلى أنها لم تتصف بسلامة المبنى والمعنى، وأنها تجاوزت في طرائقهـــا المشهورة من قواعد العربية نحوًا وصرفًا.

لم أرد إلى شيء من هذا على أنه موجود فيها، ولكني أقول: "إنها نمط خـــاص في التطور التاريخي لهذه اللغة".

وقد حفزني الأمر إلى أن أعود إلى هذه اللغة عودة أخرى وذلـــك لأني- وقـــد وجدت نفسي في بلاد المغرب الأقصى، وفي حاضرته الرباط، وأنـــا أقـــرأ الـــصحف المغربية- مضطرًّا إلى أن أقف على هذه اللغة التي استغربت من أمرها مسائل، وها أنذا أعرض لهذه "الغرائب" و"النوادر"[(١)]:

١- قرأت في صحيفة "الاتحاد الاشتراكي" [(٢)] المؤرخة في اليوم الثالـــث مـــن تمـــوز (جويليه) ما يأتي:

---

(١) قلت: "النوادر" وأريد بها ما أراد القدماء بالنوادر التي كانت ألفاظًا غريبة.

(٢) صحيفة يومية مغربية.

عقبَ انسحابه المفاجئ من مؤتمر القمة الإفريقي التاسع عشر الذي انعقد في أديس أبابا عاصمة أثيوبيا، وعودته من جولة في بعض بلدان المشرق العربي، صرح الرئيس معمر القذافي بأن ليبيا قامت بواجبها تجاه الصحراء العربية، وأنه لم يعد هنا أي مشكل أو خلاف بين المغرب وليبيا، وإنما المشكل هو المشكل القومي العربي أي مواجهة الخطر الصهيوني"

أقول: في هذا الذي ذكرته من كلام "المحرِّر" في الصحيفة المشار إليها شيء يجانب المشهور من القاعدة النحوية، وهو "عود الضمير على متأخر عنه" ليس إلى توجيهه أو تأويله من سبيل، وتلك قاعدة أدركناها ونحن صبية شُداة. وأنت ترى أن الضمير في "انسحابه" وهي الكلمة الثانية، ثم الضمير الآخر في "عودته"يعود على "الرئيس في قوله: "صرح الرئيس معمر القذافي". وهذه عربية ملحونة، وذلك لأن بناء الجملة على هذه الصفة الأعجمية شيء لا نعرفه في عربيتنا الفصيحة، وربما صعب عليك أن تجده في الألسن الدارجة. إن تجاوز هذه القاعدة النحوية يقدح في جمال العبارة وحسن أدائها، ومن هنا كان أغلب ما اشتمل عليه علم النحو من فوائد شيئًا يتصل الوفاء به بالبيان العربي في صفائه وسماحته وفطرته.

ولا أريد أن أترك عبارة هذه الصحيفة مكتفيًا بمسألة "عود الضمير على المتأخر" بل أتجاوز ذلك إلى شيء آخر ظهر في هذه العربية المعاصرة ومنها عربية "الصحف"، وذلك كقول "المحرر" نفسه في هذا الذي أثبتناه من كلامه:" ...وأنه لم يعد هناك أي مشكل"!؟.

أقول: إن قول المعربين في عصرنا: "إنه لم يعد" هو شيء من الدخيل الوافد من اللغات الغربية، وأظن أن الأصل الفرنسي هو الذي جاء بهذا الأسلوب المولّد الدخيل، فهو من غير شك من قول الفرنسيين: "il n'est plus".

وقد يستغرب القارئ هذا ويحمله مني على الادعاء أو الخيال الكاذب، فأقول: لم نعرف نفي الفعل "يعود" بـ "لم" لإرادة هذا المعنى في أساليبنا العربية الفصيحة، وذلك لأن المعنى: "أن الشيء غير مُشكل، أو لم يَبقَ في الأمر مشكل"، فلم يؤلَف في العربية استعمال الفعل "يعود" لإرادة هذا الضرب من نفي الشيء.

ثم أقول: واستعمال "المشكل" شيء جميل في عربية إخواننا أهل الشمالي الإفريقي، والكلمة في بنائها على اسم الفاعل من العربية الفصيحة القديمة، وذلك لأن "المشكل" ما أشكل أمره ومعناه وما يتصل به، ولذلك عرفنا من أسماء الكتب "تأويل مشكل القرآن" و"تأويل مشكل الحديث" من مصنفات ابن قتيبة وغيرها من أسماء الكتب.

غير أن المشارقة من العرب بنوا كلمة جديدة مؤنثة هي "المشكلة" وكأنهم وضعوه ليقابلوا بها "Problem".

هذا شيء من تاريخ هذه الكلمة المفيدة.

٢- وقرأت في هذه الصحيفة أيضًا قول المحرِّر نفسه:

" ...فعلى مَدَى خمسة أيام حلّل دارسو اللغات بمعناها الواسع لغة التواصل الأدبي والسينمائي والمسرحي والإذاعي والتلفزي ولغة الإشهار...".

أقول: لقد جاءت الكلمات في صورها الأعجمية مع شيء من التغيير في الأصوات حينًا، وفي الأبنية، أو في كليهما حينًا آخر. إن التعريب على هذا النحو شيء حسن، وقديمًا درج الأوائل على هذا السنن الواضح. غير أني أقول: إن "التلفزة" على هذا الوزن توحي بالمصدر، وليس الآلة أو الأداة أي ما يسمى "الجهاز" في عربيتنا المعاصرة، ولعل الذي جنح إلى استعمال "التِّلفاز" كان ألصق باللسان العربي، وذلك لأن "تِلفاز" وهو "تِفعال" نظير "التمثال" و"التِجفاف" في كلام العرب. هذه مسألة يسيرة مفيدة يكون فيها العود إلى الأصول أكثر فائدة وأجلُّ عائدة.

وفي هذه العبارة التي أثبتها من الصحيفة شيء آخر، وهو "لغة الإشهار". أقول: وقد يقف المشارقة أمام هذه الكلمة ولا يتجّه منها لهم شيء في القراءة الأولى

حتى إذا أطالوا النظر وعرفوا من سياقها شيئًا أدركوا أن "الإشهار" هي لغة الإعـــلام، وهي عندهم تقابل الكلمة الفرنسية "Publicité" وترجمة الكلمة الأجنبية هذه تطـــابق "الإشهار" أكثر من كلمة "الإعلام".

وهذه من سمات هذه العربية الصحفية في أقاليم البلاد العربية الإفريقية، ومثـــل هذه السمات اللغوية الخاصة بهذه الأقاليم الشيء الكثير(١).

٣- وقرأت في هذه الصحيفة أيضًا:

... وانحصر "تدخل" البروفيسور "كالفان" حول تطبيقات السيميولوجية المتعدّدة.

أقول: والكلام على محاضرات علمية في "السيميولوجيا"، وهي شيء من مـــواد علوم اللغة في هذا العصر، يراد بها العلم الذي يعني الاتصال بـــوسائل مختلفـــة منـــها الكلمـــة، ومنها الإشارة، ومنها الحركة وأشياء أخرى.

وليس من واجبي أن أعرض لهذا الذي يشقى به الغربيـــون ممـــا يتـــصل باللغـــة كالسيميولوجية والبنيوية وغير ذلك، ولكني أود أن أقف القارئ على شيء من الدخيل الجديد في العربيـــة المعاصـــرة، ولا ســـيما في أقـــاليم الـــشمالي الإفريقـــي، تلـــك العربية التي ينظر الناطقونَ بها إلى لسان آخر هو الفرنسية يستوحونها ويفيدون منها.

ومن هذا ما جاء في العبارة التي اقتطعتها من "الصحيفة" في خبر "المحاضرة" التي كانت في "السيميولوجيا" وهو قوله:

و"انحصر تدخُّل البروفيسور..".

أقول: قد يقرأ أهل المشرق مثلاً هذا فلا يهتدون إلى "التدخل" وما المراد بـــه، وقد يمر به أحدهم فلا يصل منه إلى شيء. غير أن العارفين باللغة الفرنـــسية أو ممـــن اتصلوا بالفرنسيين يدركون أن "التدخل" هو "خطاب" أو "تعليق" أو نحو هذا، يشارك

---

(١) لقد عرض إلى طائفة من هذه المولدات المستشرق الفرنسي شارل بلا، في كتابه: "العربية الحيّة".

به مُحاضر في مؤتمر أو ندوة أو ملتقى، وقد يكون "التدخّل" شيئًا غير موجز بل يكون خطابًا أو بحثًا.

وقد تسأل: وكيف أخذ إخواننا المغاربة والجزائريون هذا، والجواب: أنهم ترجموا به الكلمة الفرنسية "intervention" ويفيد التدخّل أو الدخول، فقد يتدخل الرجل بين جماعة ويشاركهم، ويتدخل الشيء في شيء آخر.

أقول: إن الترجمة دقيقة، ولكنها ولدت غرابة واستغلاقًا؛ وذلك لأن "التدخل" في العربية لم يُؤلف استعماله على هذا النحو، وإن كان من الجائز أن يقول الرجل: قد "تدخّلت" في مناقشة الرأي الذي أبداه المحاضر. وعلى ذلك لا يمكن لقارئ المناطق أن يفهم "التدخل" في الصحيفة على أي وجه إذا لم يكن يدرك ما للكلمة الفرنسية من أثر.

وقد ترجموا الكلمة الفرنسية المذكورة أيضًا بـ "التدخل" وربما قرأت "المداخلة" فقد تقرأ في أسلوب إخواننا أهل الشمالي الإفريقي تنبيه عريف الندوة إلى الحاضرين قائلاً: ينبغي أن تكون "المداخلات" موجزة[١].

وليس أمر هذا الجديد المولّد الدخيل غريبًا في هذه العربية الإقليمية فهو كثير قد يتجاوز الحصر.

وفي هذه العربية شيء آخر، فإذا كنا في المشرق العربي نلتزم بمصطلح "العمل" لما يقوم به العامل في المصنع والموظف في الوظيفة وغيرهما، فإذا إخواننا في الشمال الإفريقي قد اتخذوا "الشغل" مصطلحًا لهم، فيقال عندهم مثلاً: الاتحاد العام للشغل، وأقرأ مثل هذا في "الصحيفة" نفسها:

---

(١) ولو أردنا أن نستقري هذا الدخيل الذي حفلت به هذه العربية الإقليمية لكان لنا من ذلك الكثير، ولكن أرى أن أذكر بشيء ألفه المشارقة في هذه العربية، وربما استعاروه من إخواننا في الشمال الإفريقي، وهو لفظ "الأطر" أو"الإطارات" جمعًا.

٤- انتصار الكونفدرالية الديمقراطية للشغل.

و"الشغل" هنا هو "العمل" والأمر متصل بـ "العمال". ولا أريد أن أقف على "الكونفدرالية" التي تعني لونًا من الاتحاد على نظام خاص يعرفه أهل هذا الفن في السياسة والاجتماع، ولكني أقول:

إن أهل الحاجة من أصحاب الاختصاصات قد عرَّبوا المصطلح الأجنبي بيسر وخفّة دون ضجة أو جعجعة أو السؤال من المجامع اللغوية، فأخذوا المصطلح الأجنبي وكسعوه بالياء المشددة مع التاء على طريقة المصدر الصناعي كالمادية والمثالية والنوعية والكمية وغيرها، فقالوا: الديمقراطية والارستقراطية والفدرالية والكونفدرالية وغير ذلك. و لم ينتظروا رأي أهل الصنعة من أعضاء مجامع اللغة، وحسنًا فعلوا.

أقول هذا لأني أحسُّ أن أصحابنا أعضاء المجامع قد يتجاوزون الحدود، فيكثرون المناقشة ويظلون في خلاف طويل في أمر مصطلحات سلاح الطيران مثلاً، وقد اصطلح عليها أهل الاختصاص من الضباط العاملين في هذا الميدان ليقابلوا بها المصطلح في اللغة الإنجليزية، وهم أعرف بها وبحقائقها، ولكننا في المجامع نقرهم على صنيعهم بيسر، فيبدأ مع خبرائهم العسكريين جدل طويل لم يكن إلا عبثًا لا طائل وراءه.

وقد يحسن أعضاء المجامع صنعًا لو أنهم اقتصروا على التنبيه على ما في هذا المصطلح من تجاوز على قواعد اللغة في أبنيتها واشتقاقها. إننا نعلم أن هذه المصطلحات موافقة أو قريبة أحيانًا مما سُمّي المصطلح "الموحَّد" في "المعجم الموحَّد" الذي قام به الخبراء العسكريون في الجامعة العربية منذ سنين.

لو أن أصحابنا أدركوا صنيع اليهود في أرضنا المحتلة في المصطلح الجديد لعلموا أنهم اهتدوا إلى الطريق أمام هذه المئات من الآلاف من المصطلحات العلمية في العلم الجديد. لقد أدخل اليهود المصطلح الجديد من اللغات الغربية ولا سيما الإنجليزية و لم

يغيّروا فيه شيئًا، وذلك لأنهم مدركون أن لغتهم قديمة ناقصة لا تحوي إلا القدر القليل من الكلم القديم.

إن تلكّؤ المجمعيين العرب في الاتفاق على المصطلح الجديد دفع بأهل الاختصاصات إلى أن يتخذ كل فريق منهم مصطلحًا له، فكان من ذلك أن وقعوا في خطأ لغوي لم يكونوا على علم به، ذلك أن العربية على سعتها وسماحتها لا تقبل ما خولف فيها وجوه القياس في أبنيتها وصيغها.

ووجه المخالفة أن الفعل من "استبيان" هو "استبان" وهذا الفعل لا يمكن أن يكون مصدره إلا "استبانة" مثل "استقامة" والفعل "استقام".

أقول: لو وُجد في العربية الفعل "استبيَنَ" مثل "استحسَنَ" لكان "الاستبيان" بناء صحيحًا، ولكن معجمات العربية لم تثبت هذا. غير أني أميل إلى شيء آخر أذهب فيه إلى وجود هذا الفعل، أو أني أسعى إلى إحداثه بسبب شيوع "الاستبيان" الذي ما أراني أدفعه بقولي: إنه بناء لاوجود له في معجمات العربية، ذلك أن أهل الرأي في العلوم الاجتماعية قد درجوا عليه وشاع في استعمالهم شيوعًا عجيبًا، وهم يقابلون به الكلمة الأعجمية "questionnair".ولو أنك واجهتهم بالخطأ، وأن هذا المصدر مما لم تشر إليه المعجمات، ما استجابوا إليك ورفضوا البديل له وهو "الاستطلاع" مثلاً.

أقول: إذا كان هذا هو وجه الأمر فهلا نبحث في العربية لنجد وجهًا يعين على إحداث الفعل "استبيَنَ" الذي تحوّل إلى "استبان". إن إحداثه يندرج في باب الاحتفاظ بالأصل قبل "الإعلال"، ويؤيدنا في هذا أن العربية أعلّت الكثير من الكلم، واحتفظت بطائفة على أصولها، ومن ذلك ما جاء في بنات الياء من الأفعال:

قالوا: "استَغيَلَ" الشجر بمعنى التفّ على الأصل، و لم يقولوا: "استغال" ومثله "أغيَلَ" الشجر، على الأصل و لم يقولوا: أغال.

وقالوا: "استَفيَلَ" الجَمَلُ، و لم يقولوا: استفال.

وقالوا: "أغيَمَت" السماء على الأصل، كما قالوا:أغامَت بمعنى غَيَّمَتْ.

وقالوا: "أغيَلَت" المرأة، بمعنى أرضعت طفلها "الغَيْل" وهو لبنها وهي حامـــل. كما قالوا: "أغالَت" و"استغيَلَت"، وهي "مُغيل" بالمدّ، و"مُغيـــِل" بالياء المكسورة.

هذا شيء من الأفعال من بنات الياء مما كان حقه "الإعلال" فقد ورد مُعَلاًّ كما ورد على الأصل.

فأما ما جاء من بنات الواو من الأفعال فهو كثير ومنه:

"أجوَدَ" و"أجادَ" الرجل: إذا كان ذا دابّة "جواد أو فرس جـــواد"، وكـــذلك "استجادَ". و"استجوبَ" و"استجابَ" وكل منهما بمعنى، فقولنا: "استجابَ" معروف، فأما "استجوبَ" فمعناه استفهم وطلب الجواب.

وقالوا:"استصوبَ" و"استصابَ".

وقالوا: "استحوذَ" ولم يقولوا: "استحاذَ".

وقالوا: "حوِرَ" و "عَوِرَ" ولم يقولوا فيهما: "حار" و"عار".

أقول: إذا كان هذا ما هو معروف في العربية، أليس لنا أن نحدث أصل "استبانَ" ونعيده إلى الوجود وهو "استَبْيَنَ" لنقول بصواب "استِبيان" التي لم نجد وسيلة إلى دفعها وحملها على الخطأ، لشيوعها وإصرار القوم على استعمالها. غير أني أود أن يفهم القارئ أني لا أجوّز الخطأ بحجة الشيوع بل إني أدفع الخطأ وأرفضه، ولا سيما ذلك الذي يهدم أصلاً من أصول العربية.

وقد انتهيت مما وقفت عليه في صحيفة "الاتحاد الاشتراكي" المغربية، غـــير أني وجدت أن من الخير أن أمضي في هذه اللغة الصحفية التي حفلت بالجديد الغريب كثيرًا ولنقف قليلاً على جملة من الكلم المجموع فأقرأ فيها مثلاً:

"... الانتهاكات والخروقات في انتخاب اللجان الثنائية بقطاع الصحة".

ومن المفيد أن أقف على الكلم المجموع في لغة صحف هذه الأيام، فقـــد كثـــر حتى غدا شيئًا يسترعي النظر.

أقول: إن هذه الجموع هي في الأعم الأغلب جموع لمصادر، وليس في جمع المصدر من ضير فقد ورد شيء منه في العربي، لقد جمع "الخير" على "خيرات" في لغة التتريل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرات...﴾ (سورة الأنبياء:٧٣).

وليس لنا أن نقول: إن كلمة "خير" ليست من المصادر فقد استعملت في العربية استعمالاً كثيرًا على المصدرية. وقد سهل في العربية جمع المصدر، وهو من أسماء المعنى في الأصل، حين تحوّل به المعربون إلى اسم من أسماء الذات، فإذا قيل: "لقاءات" أو "نزاعات" فكأنهم أرادوا ما يكون في "اللقاء" أو "التراع" من أحداث، وما يتصل بذلك فكان ذلك مسوغًا لجمعهما.

ومثل هذا "الانتهاكات" التي وردت في عبارة الصحيفة التي أثبتناها. غير أن ورود هذا الكلم المجموع في صحفنا قد تأتي بسبب من الترجمة. فقد قالوا: "النجاحات" وأرادوا بالكلمة جمع الاسم وليس المصدر أي ما تمّ النجاح فيه من الأعمال والمنجزات.

وهذا من غير شك يومئ لي أن المحرر العربي قد نظر إلى الكلمة الأجنبية وهي Succés وهي مجموعة في الفرنسية دائمًا مختومة بعلامة الجمع، وكذلك في الإنجليزية، فلما نقلها إلى العربية جعلها جمعًا.

ولنقف على "خروقات" بمعنى "الانتهاكات" وهي من "خَرْق" وقد جمعت على "خروق" بعد تحولها إلى الاسمية وابتعادها عن المصدرية. غير أن "المحرر" لم يشعر بجمعها هذا فأراد أن يؤكد الجمع فصار إلى "جمع الجمع" فقال: "خروقات". إن باب جمع الجمع مقيّد محدود، وليس لنا أن نتسع فيه، فقد قالوا: رجالات، تعني الجماعة القليلة من الرؤساء والوجهاء والأعيان، وليس الكثير بكثير من "الرجال" ومثل هذا "البيوتات" و"البيوت" جمع "بيت" وهو معروف، فأما "البيوتات" وهي جمع الجمع فالمراد بها جملة قليلة من "البيوت" أو الأسر ذات الوجاهة، وقالوا: "بيوتات قريش" كبني هاشم وبني أمية وأُسَرٍ أخرى.

وقرأت بآخرة في حديث من أحاديث الصحف خصص للعمارة الحديثة فكان فيها ما أنا مثبته: أن "المعمار" الحديث يقوم على "تقنيات" العصر المعقد...".

وإطلاق "المعمار" على "العمارة" جهل بالعربية، وذلك لأن "المعمار" من ألفاظ المبالغة كالمِطعان والمِطعام ونحو ذلك، وليس فيه شيء من المصدرية أو نحوه. وقد عرف "المعمار" شهرة لطائفة من الرجال ومنهم "ابن المعمار" البغدادي[1].

ولما كان الكلام على مادة "عمر" وجدت أن المناسبة تدعو إلى الوقوف على "الاستعمار" الذي صار من مصطلح العصر ودلالته علمية فنية تاريخية يطول الحديث عنها.

أقول: إن هذه الدلالة جديدة، وليس من ضير أن نعطي هذه المعاني لكلمة "الاستعمار". وهذا يعني أن من طرائق توليد المصطلح أن تؤخذ الكلمة ذات الدلالة الخاصة القديمة وتعطى دلالة اصطلاحية جديدة.

إن كلمة "استعمر" في معناها القديم وثيقة الصلة بكلمة "عَمَرَ" فقد ورد في لغة التنزيل قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (٦١ سورة هود.) ومن غير شك أن إرادة الجديد لكلمة "استعمار" كانت بقصد أن تكون الكلمة ذات دلالة اصطلاحية خاصة.

ولنعد إلى عبارة الصحيفة التي أثبتناها لنقف على "التقنيات" فنقول: شاء المعنيون بالتعريب الحريصون على العربية أن يكون المصطلح بكلم عربي، وهو عندهم ألصق بالعربية من حيث إنها لغة عامرة تشتمل على الفوائد الجمة، ومن أجل ذلك كانوا مدفوعين إلى أن يكون المصطلح الجديد كلمة عربية، ولا يصار إلى الكلمة الأجنبية إلا اضطرارًا.

---

(١) وهو أبو محمد عبد الله بن إسماعيل الأسدي البغدادي، جلال الدين ابن المعمار، كاتب أديب، لقب بالفيلسوف، له شعر، من أهل بغداد، توفي بالحلة سنة ٧٤٢هـ. (انظر الأعلام للزركلي ٤/١٩٨)

لقد أرادوا بـــ "التقنيات" "les technologies"وتشبثوا بمادة عربية وهي "تِقن" بكسر التاء، وتفيد الرجل العارف الماهر في الصنعة والعمل.

أقول: ولا يمكن أن تكون "التقنيات" تعريبًا للكلمة الأجنبية، والقاف فيها يقابل الكاف. هذا غير صحيح؛ لأن "التقن" بمعنى الماهر الصَّناع هو من الفعل "تقن" الـــذي جاء منه "أتقَنَ". وعلى هذا لا يمكن أن يكون هذا المصطلح العربي مؤديًا مـــا تؤديـــه "التكنولوجيا". وكأن المعربين لم يهتدوا إلى وجه "التقنيات" وصيغتها وذلك أن منـــهم من ينطقها بتشديد النون، ومنهم من يخفف النون.

ثم ما لبث أن كان هذا المصطلح العربي مـــن الكلـــم المهجـــور، فقلما نبصره في الكتب وغيرها، من مصادر العلم. وعادت "التكنولوجيا" وكأن المعربين رضوا بها، فجعلوها معرَّبة على صيغتها و لم يغيروا فيها شيئًا.

وإذا كانوا قد قبلوا "التكنولوجيا"(*) و لم يغيروا فيها شيئًا، فقد قبلوا مواد كـــثيرة نجدها في الصحف وغيرها، فما زلنا نرى في "التلفاز" الكثير مـــن ذلـــك كقـــولهم في المصطلح السينمائي: "سيناريو"، كما نجد "الأوتوستراد" و"الإستاد" القـــومي لكـــرة القدم، ولو أردنا أن نعرض لهذا لطال بنا الكلام.

وشيء آخر في لغة الصحف يتسم بالجدّة والطرافة، وهذه الجِدَّة هي توليد دلالة جديدة ومنها:

١- "أننا نقرأ في صحف هذه الأيام: أن السلطة الحاكمة قد "تحفَّظَت" علـــى رئـــيس النقابة الفلانية و"التحفّظ" هنا لا يتصل بمادة "حفظ" ذلك أن المراد بـــــ "الـــتحفظ" السجن أو نحو ذلك.

٢- ونقرأ في صحف هذه الأيام: ينبغي "ترشيد" الاستهلاك.

أقول: و"الترشيد" مصدر الفعل المضاعف "رشَّد" ولا بد أن يكون في "الترشـــيد" شيء من "الرُّشد" وما يتصل بهذه الدلالة. غير أن المراد بـــ "ترشيد الاستهلاك" هـــو

(*) أليس دليلاً على أنها عرّبت دخول الألف واللام عليها "التكنولوجيا" نظير الديمقراطية والأرستقراطية وغيرهما؟

"تقليل الاستهلاك" وكأن معنى "التقليل" في استهلاك الغذاء قد يثير في النفـوس مـا يسوء، ولذلك يحسن التعمية في هذا الشأن والإيماء إليه بشيء ضدّه تقريبًا.

٣- ونقرأ أيضًا ما يشبه هذا من حيث "الإيماء" إلى المعنى المقصود وهو قولهم: لجـأت السلطات إلى "تحريك" الأسعار.

أقول: و"التحريك" مصدر للفعل "حرَّك" ولكن هـذا "التحريـك" لا يعـني صراحة معنى الحركة، بل إنه يعني "رفع الأسعار"، ولما كان "رفع" الأسعار مما يمكن أن يثير الجمهور ويزعجه، لجأ أهل الرأي إلى الاستعانة بضرب من التعمية والإيماء فقالوا: "تحريك" الأسعار هربًا مما تؤدي إليه كلمة "رفع".

٤- ونقرأ أيضًا:

"إن جهات عدّة قد عملت على " احتواء" حركة التمرّد في صفوف فـصائل المنظمة" والمراد بـ "الاحتواء" هنا السيطرة والغلبة والوصول إلى حل في الأزمة مثلاً.

أقول: وإعطاء "الاحتواء" هذه الدلالة هو شيء جديد عرفناه في لغة الصحف، وأصل "الاحتواء" معروف يقال: احتوى عدة أبواب مثلاً، بمعنى اشتمل على.

أقول: إن جملة هذه "المجازات" والاستعمالات قد استقريته مـن الـصحف في بلدان المغرب العربي بأقاليمه الثلاثة (تونس والجزائر والمغرب).

وقد يكون مفيدًا جدًّا أن أعرض لشيء آخر مما وقفت عليه في صحف المشرق العربي. ولا أريد أن أخصَّ بلدًا بعينه، فهي في جملتها تميل إلى التوحُّـد، ولـيس مـن خصوصية خاصة في هذا البلد أو ذاك.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن لغة الصحف في المشرق العربي كما هي في المغـرب تتميز في أنها:

١- تزخر بالتعابير الجديدة، والمجازات الجديدة، وكله مأخوذ من اللغات العربية، وهذا الذي يأتي من هذه المصادر قد يوافق العربية بوجه من الوجوه علـى سـبيل التوسـع

والاستعارة، وقد يكون مجافيًا للعربية، بعيدًا عنها، ولكننا ألفناه. إن هذه المولّدات من الألفاظ والتعابير والمجازات والجمل كثيرة، وقد يكون منها كتاب برأسه، أو قل: معجم جديد يشتمل على ما في الصحف وغيرها.

٢- إن الذي نجده في الصحف يبتعد أحيانًا عن نحو العربية وأبنيتها. وسنعرض لجملة ذلك فنقول[1]:

١- يجب أن تتصرف الدولتان الأعظم إزاء بعضهما على نحو أفضل..

أقول: إن فيما جاء في الصحيفة اليومية في خبر "الدولتان الأعظم" ما لا تسيغه العربية فإن كلمة "الأعظم" هي الصفة المفيدة للتفضيل، وهي محلاّة بأداة التعريف، وفي هذه الحال لا بد من المطابقة بين الصفة والموصوف، فكان ينبغي أن يقول: "الدولتان العظميان" والمطابقة ما كان منها في التذكير والتأنيث.

وقد تعرف سبب ارتكاب هذا التجاوز إذا أدركت أن صاحب هذا الأسلوب قد نقل ما قرأه في الصحف الأجنبية الغربية، ولاسيما ما كان منها باللغة الإنجليزية، وفيها أن الصفة في هذا المقام تبقى على حالها.

٢- وأقرأ قولهم:

وما زال علينا أن نقف في وجه المؤامرات.

أقول: إن الكاتب الصحفي مترجمًا كان أم غير مترجم غير ملمّ بالعربية، ولعله مثله في تلك اللغات الأعجمية، ثم إنه لا يعرف من العربية إلا الأشتات التي تلقفها في المرحلتين: الإعدادية والتوجيهية، وتلك بضاعة مزجاة.

إنه في هذه العبارة يستعمل "مازال" ولا يأتي لها بخبر تتم به الفائدة. ولا أعرض لكلمة "المؤامرات" وهي جديدة، بمعنى الأحابيل التي يحوكها رجال السياسة وغيرهم في سلوكهم لتحقيق ما يبتغون.

---

(١) هذه نماذج قليلة من كثير غيرها، لم أدخله في هذا الموجز، ومن أجل ذلك أعفيت نفسي من التزام ترتيباً معجميًّا على نمط من الأنماط، بل سأعرضها كما وقعت لي وأنا أقرأ الصحف في هذه الأيام.

أقول: إن في العربية ما يعين على استحداث هذا الجديد، ذلــك أن في مــادة "أمر[١]" شيء يصار به إلى هذا.

٣- وجاء في صحيفة من صحفنا الأردنية قول أحدهم:

" ...وأنبه على قلمي أن يترك الزمن الرديء ...".

أقول: هذا الأسلوب لا نجده إلا لدى المتساهلين بالعربية من كتــاب العهــد الجديد.

وقد أقول: أن ليس في العربية من ضير في هذا، ولكن لو كان هذا الكاتب قــد وصل إلى هذا الجديد بيقظة وإدراك ومعرفة بالأصول والفروع.

إن استعمال "على" مع "التنبيه" يشير إلى الهفوات والغلطات، ومن هنــا ورد في أسماء كتبهم:

١- التنبيه على حدوث التصحيف، لأبي أحمد العسكري.

٢- التنبيه على أغاليط الرواة، لحمزة الأصفهاني.

ولو عدلنا عن استعمال "على" مع "التنبيه" إلى حرف الجر "إلى" لكان ذلك دالاً على غير الخطأ والغلط، كأن يقال: التنبيه إلى عمل البر والإحسان، مثلاً.

إن استعمال "على" في كثير مــن مجــالات القــول مــؤذن بالــشر والأذى والاستيلاء [٢].

(١) ومن ذلك ما ورد في الآية الكريمة ﴿قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ ٢٠ سورة "القصص" وجــاءت "المؤامرة" في النصوص العباسية بمعنى ما يقدمه الرجل إلى الأمير والحاكم من طلب يلتمس فيه قضاء حق لــه، وهــي "العريضة" في العربية المعاصرة.

(٢) ذكر هذا الأستاذ الدكتور مصطفى جواد في كتابه "المباحث اللغوية في العراق" ص٤٣-٤٤ وأشار إلى جملة كبيرة من الأفعال ومنها قالوا: جرى على فلان أمر (أي أن فيه ضررًا) وكذلك أعانه وأعان عليه، ومال عليه، واضطغن عليه وتنادر عليه، وقال تعالى: ﴿وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل﴾ ووجب عليه، وضرب عليه ضريبة، واعتدى عليه، وانتقد عليه قوله، وأخذ عليه شيئًا، ودس عليه، وتجنى عليه، وكذب عليه، واختلق عليــه، ونم عليــه، وعتب عليه، وتقول عليه، وغير هذا كثير، أقول: ومن هنا نفهم أن اللغويين النقاد عابوا على أبي تمام مطلع قصيدته: "على مثلها من أربع وملاعب".. فقالوا: المطلع غير موفق؛ لأن الشاعر يمدح فلا يستحسن منه استعمال على الــذي يؤذن بالشر، ومن هنا أخل الشاعر بمقتضى الحال.

٤- ونقرأ أيضًا قولهم كثيرًا:

"... وأكد الرئيس فلان على عروبة لبنان...".

أقول استعمال "أكد" على هذا النحو، وهي تصل إلى مدخولها باستعمال "على" ليس من العربية، والفعل متعد في العربية، وكان ينبغي أن يقال: "أكد الرئيس فلان عروبة لبنان...".

وهذا التجاوز على المألوف من العربية كان بسبب أن الكلام كثير في اللغات الغربية، ولاسيما الإنجليزية والفرنسية، والفعل في هاتين اللغتين يصل إلى مدخوله بالحرف "على".

٥- ونقرأ أيضًا قول أحدهم:

" إن ما يدور على البوابة الشرقية من معارك ...".

أقول: "البوابة" من الخطأ الذي استحدثناه، وليس فينا حاجة إلى توليد "البوّابة" التي هي في الأصل مؤنث "بوّاب" وهو "الأذن" القديم الذي يلزم باب الأمير أو الوزير أو غيرهما، فالبوّاب صاحب الباب كالجزّار والنجّار، والحدّاد، وحرفته "البوابة" كالنجارة والحدادة.

وابن البواب من أشهر الخطاطين البغداديين في عصر الدولة العباسية، ولسنا ننكر تولد الكلم الجديد، ذلك أن الحياة المعاصرة تفرض علينا إحداث آلاف المصطلحات في كل باب من أبواب المعرفة الجديدة.

٦- ونقرأ أيضًا قولهم:

"اتحدت الحكومات الغربية في عملياتها ضد الإرهاب...".

أقول: و"الضدّ" في العربية هو المثل، والمخالف ضِدّ، وكلمات "الأضداد" شيء آخر، وهو أن الكلمة تعني شيئًا وضده معًا كقولهم: الجَون للأسود والأبيض. ومثل هذا كثير. وهي هنا نعت. ولا تكون غير نعت، وقد تأتي للجمع، قال تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (سورة مريم٨٢).

أما نحن اليوم فانحرفنا بالكلمة إلى استعمال جديد يبعدها عن النعت فتكون مصدرًا كما في الجملة المثبتة.

٧- ونقرأ في الصحف ونسمع في الإذاعات قولهم:

"...وأتت الحرائق على كل شيء: البيوت، الأسواق، المحلات العامة والحقول ".

أقول: إن استعمال "الواو" للعطف في آخر هذه الكلمات شيء لا تعرفه العربية والصواب إثبات الواو بين المعطوفات واحدًا بعد آخر. وليس هذا الجديد إلا بسبب ما ألفوه في اللغات الغربية.

٨- ونقرأ أيضًا:

"لقد سعت السلطات إلى تمرير هذه المسألة في الدوائر المسؤولة...".

أقول: و"التمرير" مصدر الفعل "مرّر" الذي ولّده المعاصرون ليقابلوا نظيره في اللغات الغربية، وليس في العربية شيء من هذا، وليس فينا حاجة إليه، وفي العربية الكثير مما يؤدي معنى "التمرير" كالتعدية وغيرها.

٩- ونقرأ قولهم:

"...وحدث هذا في إطار التوجه الجديد للمؤسسة من خلال ما بدا من الحلول...".

أقول: "الإطار" في حيز هذه الجملة من الاستعارة الجديدة من اللغات الغربية ولا ينصرف الإطار في العربية إلى غير معناه الحقيقي.

ثم إن استعمال "من خلال" التي شاعت شيوعًا عجيبًا من الاستعارة الجديدة أيضًا، وليس فيها شيء من معنى الظرفية الذي كان لها في العربية. وكأنها في الاستعمال الجديد تفيد ما تفيده لام الجر التي هي للتعليل والسبب، فكان ينبغي أن يقال:

"وحدث هذا في إطار التوجه للمؤسسة لما بدا من الحلول".

وقد جدّ في العربية المعاصرة مما نلحظه في الصحف الكثيرة مما يلتـزم في مـادة "التربية الرياضية" فأنت تقرأ مجازات جديدة مما تساهل فيها أصحابها، ولـيس لنـا أن نحملها على الخطأ، ومن ذلك.

أ- الكلية الجامعية تقيم صاعقة تنشيطية بكرة القدم.

ب- فريقا الأردن والسعودية يقصان "شريط" البطولة.

جـ- البطولة"الكروية" لأمانة العاصمة، والفريق الكروي فيها.

د- التقى الفريق السعودي ونظيره "الإماراتي".

من المعلوم أن "الإماراتي" اختصار لفريق دولة الإمارات العربية المتحدة لكـرة القدم!!

وقد نختم هذا الموجز بإيراد هذه الغرائب التي نجدها، وهي إما توليد جديد، وإما وجه من وجوه القول لم نألفه، ومن ذلك.

التوتر، التشنج، ساعة الصفر، المناخ الأدبي، الصناعة الدجاجية، الهدوء، الحذر، التشرذم، التقوقع، التحجر، الاستقطاب، المحور، التصعيد وكثير غيره.

خاتمة:

ما كان لي أن أذهب في استقرائي هذا إلى الاستيفاء، ولكني آثرت هذه الأشتات مما هو مني على طرف التمام كما قيل. ولكني قصدت أيضًا من إثبات هذه النماذج إلى أن أقول: إن الحاجة إلى وضع معجم جديد للعربية المعاصرة وحدها شـيء تفرضـه الضرورة القائمة، ثم إن عملاً كهذا مما ينبغي أن يكون لننتهي في تـاريخ العربيـة إلى استجلاء معالمها طوال العصور.

بحد التتمّة:

وجدت من المفيد أن أثبت هذا الملحق "الذي أقول فيه موجزًا ما كنـت قـد بسطته في بحثى وهو: أن هذه العربية المعاصرة في لغة الإعلام التي كنا نعـدها في أوّل

القرن العشرين "لغة جرائد" نبذًا لها، صارت ونحن في آخر القـــرن هـــي الفـــصيحة المعاصرة.

إن هذه العربية صارت لغة الأدب الجديد الذي تعمر به الصحف الذي يدعونه الحداثوي ولا أقول الحديث. هذه العربية التي تتضّح في أدبيات وزارات الثقافة في عالمنا العربي.

نجد في هذه العربية الكلم العاميّ نحو: دردشة وهلوسَة ومشوار وواحة، وقد نجد المستعار الذي لم نحسن استعارته، ومن هذا:

ورشة وأصلها Workshop الذي رأينا فيه ما هو "مشغل" لأصحاب الحِـــرَف. ولكننا حرفناه إلى غير هذا.

لقد وجدت من هذا: ورشة تعليم العربية لغير الناطقين بهـــا، وورشـــة الأداء الفكري، وورشة لتدريب خطباء المساجد، وورشة حماية الطبيعة.

ولو كان لي أن أُطيل لكان لي من هذا اللغط الكثير الكثير..

* * *

وسائل الإعلام والفصحى المعاصرة (*)

للدكتور عبد العزيز صالح المقالح
(عضو المجمع)

توطئه:

موضوع هذا البحث (وسائل الإعلام والفصحى المعاصرة) وهو من موضوعات الساعة في الواقع الثقافي العربي الراهن، فاللغة العربية الفصحى لم تشهد في مراحلها المتعاقبة ما تشهده اليوم من تحد ومخاطر، أسهمت فيها مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية وفرضت على المهتمين بالعربية الفصحى والناطقين بها البحث الجاد والمخلص عن حلول عملية تناسب العصر ولا تجافي جمالياتها ومواطن إبداعها، وذلك ما كان وراء اختيار المجمع لهذا المحور إدراكًا منه لهذه الأزمة ومساهمة في اقتراح الحلول الممكنة.

وأعترف أن الدعوة التي تلقيتها للمشاركة في كتابة هذا البحث جاءت متأخرة كثيرًا، ولم تتح لي من الوقت ما يكفي لإعداد بحث في مستوى خطورة الموضوع وأهميته. وبالرغم من ذلك أرجو أن يكون جهدي المتواضع هذا مساهمة في الإشارة إلى مواطن الخطر واقتراح بعض الحلول التي يمكن لها بالحوار أن تتعمق وتتبلور في صيغة عملية لا أشك في أن جهود زملائي المساهمين في هذه الندوة سوف تكمل جوانبها المختلفة وتعطيها ما تستحق من اهتمام، والله ولي التوفيق.

مدخل عام

العربية الفصحى هي اللغة الأم لأبناء الأمة العربية الذين يزيد تعدادهم - إذا صدقت الإحصائيات - عن ثلاثمائة مليون يرفدهم أكثر من مليار مسلم، تتطلع الغالبية منهم إلى دراسة هذه اللغة؛ لأنها لغة القرآن " والقران هو الإسلام ... وبالتالي حينما

(*) نشر هذا البحث بمجلة المجمع، بالعدد الرابع والتسعين، ص ١٣١، ضمن البحوث التي لم تلق في المؤتمر.

وجد الإسلام وجدت معه اللغة العربية؛ لأن القرآن عربي وصلاة المسلم وعبادته لا تجوز إلاَّ بالقرآن العربي. ولا يمكن لأي مسلم أن يحفظ القرآن إلاَّ إذا عرف اللغة العربية، ولو في شكل محدود وبسيط[1]، وما العاميات المنتشرة في كل قطر من أقطار الأمة العربية إلاَّ لهجات متفرعة عن هذه اللغة الفصحى.

وبناء الأمة العربية الواحدة وتعزيز التماسك بين أبنائها لن يتم إلاَّ عن طريق هذه اللغة وبوساطتها، فهي الحبل السري المتين الذي يربط بين أقطارها وأجيالها، وهي وحدها القادرة على أن تحيل التناقض القائم بين الأمة الواحدة إلى تكامل، والتنافر إلى تناغم، ولن يتم ذلك إلاَّ عن طريق التعليم من ناحية وباستخدام آليات الإعلام الحديثة ووسائطها المختلفة من ناحية ثانية، فاللغة العربية تعيش أزمة حقيقية سواء في الوسائط الإعلامية أو في مؤسسات الدولة العربية.

كما أن التعاون الوثيق بين المؤسسات التعليمية والثقافية والوسائل الإعلامية من إذاعات وتلفزات عامل حاسم في الحفاظ على اللغة العربية سليمة نقية، وفي تمتين علاقة المواطن بلغته أميًّا كان أم متعلمًا. وهذا يستوجب وعيًا متبوعًا بالعمل من جهات الاختصاص في الدول العربية، وفي مقدمتها وزارات الإعلام والثقافة والتربية والتعليم التي يجتمع وزراؤها بين حين وآخر، ولا يمكن أن تغيب عنهم المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية في أقطارهم ولا الخطر القادم مع عولمة الإعلام التي ستبدأ إن لم تكن قد بدأت. ومهما تكن الملاحظات على وسائل الإعلام والقسوة التي تلقاها من جانب الحريصين على الفصحى؛ فإن هذه الوسائل قد خدمت العربية، ووسعت من نشاطها، وعززت مكانتها، سواءٌ أكان ذلك عن طريق الجريدة أم الإذاعة أم التلفاز.

وفي الوطن العربي الآن عشرات الفضائيات ومثلها الإذاعات، وما لا يحصى من الصحف والمجلات، وكلها تكتب وتنطق بالعربية، إلاَّ أن الأمة التي تعاني من التفتت

---

(١) د . زكي رابح عمامرة: المجلة العربية للعلوم الإنسانية: ص١١، العدد ٢١، شتاء ١٩٨٦م.

والشتات لا تستثمر الإمكانات التي توفرها هذه الوسائل وفقًا للطموح القومي، كما أن المنظمات المعنية كالجامعة العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجامع العربية والجامعات، واتحادات الكتاب والأدباء لا تقوم بدورها على الوجه المطلوب، أو أنه لا يتاح لها القيام بدور المتابعة والربط بين الجهود المتعددة لحماية الفصحى وتهميش اللهجات.

ولعل أخطر ما تعرض له العرب من تحديات في القرنين الماضيين (التاسع عشر والعشرين) هو ذلك التحدي الذي عانت منه اللغة العربية بوصفها العنصر الأول والمهم بين كل العناصر المكونة للأمم، فقد أدرك الغزاة، الذين طمحوا إلى احتلال الوطن العربي وتمزيق أوصاله، أن نجاحهم في هذا يعتمد على إيجاد قطيعة تامة بين العرب ولغتهم الفصحى واستبدالهم بها لغات الغزاة أو اللهجات العامية.

وكادت تلك المحاولات أن تنجح في تحقيق أهدافها نظرًا للجهل الذي كان سائدًا في معظم الأقطار العربية من جهة، ولبطء حركة التحديث الشامل من جهة ثانية. وبوسع الباحث – أي باحث– أن يتتبع أنماطًا ونماذج عديدة من المحاولات التي تمت في مصر والشام والمغرب العربي بأقطاره الثلاثة، تونس والجزائر والمغرب، حيث نشطت الدعوات الأجنبية في التغريب، وسعت إلى الحض على تبني لغة المستعمر جنبًا إلى جنب مع إحياء اللهجات الميتة كالأمازيغية التي يرى عدد من الباحثين العرب والأجانب أنها من بقايا لهجات عربية قديمة.

ومن أهم الباحثين العرب، الذين يذهبون إلى أن الأمازيغية بقايا لهجة عربية قديمة، الباحث والمؤرخ الجزائري عثمان سعدي الذي يرى (أن كل الدلائل تشير إلى أن البربر عرب في أصولهم، وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية القديمة، وأن كل المتخصصين في الدراسات البربرية أثبتوا أن البربرية واحدة من اللغات السامية العربية القديمة، فقد تكون مشتقة من اللغة البونيقية مثلما يرى صراحة المؤرخ الفرنسي

للحضارة العربية "غوستاف لوبون". وكل المكتشفات الأثرية المتعلقة بالنقوش والكتابات القديمة أثبتت أن البربر أقرب إلى الحميريين، وأن هجرات عديدة تمت من الجزيرة العربية إلى شمال أفريقيا، فالهكسوس مثلاً شعب هاجر من الجزيرة العربية واستقر في مصر في الفترة ما بين ١٧٣٠ و١٥٧٠ قبل الميلاد، وهي من هذه الهجرات السامية التي سجلها التاريخ.

فالمؤرخ التونسي عثمان الكعاك يرى "أن البربر قدموا من الجزيرة العربية في زمن لا يقل عن ثلاثين قرنًا قبل الميلاد، و أن الفينيقيين اختلطوا بالبربر على طول السواحل الأفريقية المغربية في القرن الثاني قبل الميلاد. ولما كان البونيقيون عربًا من بني كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربة القحطانية، ويؤكد المؤرخون أن مدينة سوسة بتونس بناها العرب القادمون من جنوب الجزيرة العربية، قبل أربعة آلاف سنة وأعطوها اسم (حضرموت) ويسجل المستشرق الألماني - رولسلر - التشابه بين الآكديه و البربرية[١]".

وهذه الحقائق تفضح محاولات التزييف والاحتيال التي دأب عليها الغزاة للتأثير على العقل العربي بهدف الإكثار من الأقليات القومية في الوطن العربي، وربطها عن طريق الخوف من الأكثرية بالمستعمر الذي يبدي استعداده لحمايتها، ليواصل المطالبة بحقوقها السياسية والثقافية. ويشكو سكان المغرب العربي - الآن - من عمليات ناشطة لتزييف التاريخ تجري في مناطقهم على قدم وساق، وربما زادت بعد رحيل الاستعمار عما كانت عليه أثناء وجوده. وهذا يشير إلى أن الدوائر الاستعمارية حققت بعض النجاح في مسعاها، نظرًا لتقصير وسائل الإعلام العربية وصمتها الطويل، يضاف إلى ذلك نشاط أوسع وأشمل يكاد يجتاح الوطن العربي بأقطاره كافة، ويتجلى في التشكيك

---

(١) عثمان سعدي: الأمازيغ عرب عاربة: ص ٢٢.

المتعمد والمتواصل في قدرة اللغة العربية على مواجهة العصر، والتعامل مـــع متغيراتـــه، ويرافق ذلك النشاط المحموم إقبالٌ مبالغ فيه على دراسة اللغات الأجنبية عامة – واللغة الإنجليزية خاصة – انطلاقًا مما يتنبأ به بعض الباحثين عن قرب سيادة اللغة الإنجليزية في زمن العولمة القادم.

وقد أثار كتاب "هل تقضى الإنجليزية على اللغات الأخرى؟" لمؤلفـــه جوشـــوا أ.فيشمان قلقًا واسعًا وتساؤلات عديدة بعد أن قامت مجلة "وجهات نظر" بعرضـــها على صفحاتها. ومما جاء في ذلك العرض أنه علـــى الـــرغم مـــن أن اللغـــة مرادفـــة للأيديولوجيا أو المصالح القومية إلاَّ أن دور الإنجليزية كواســـطة لكـــل شـــيء مـــن الدبلوماسية الرفيعة إلى تنظيم المرورالجوي، تحقق قدرًا من الامتيازات للمتحدث بهـــا، وتسهم البلاد التي تتخذ من الإنجليزية لغة أولى لها بحوالي ٤٠٪ من إجمالي الناتج المحلي العالمي. وأكثر فأكثر يتزايد عدد الشركات التي تجعل من إتقان اللغة الإنجليزية شـــرطًا ضروريًّا للتعيين أو الترقية، كما يتزايد اعتماد الساسة على مستوى العالم على إتقـــان الإنجليزية في تحقيق النجاح. وعندما التقى المستشار الألماني المنتخب حديثًا جيرهـــارد شرودر والرئيس الفرنسي جاك شيراك في سبتمبر لمناقشة مستقبل التعاون لم يتحـــدثا بالفرنسية ولا الألمانية، وإنما تحدَّثا بالإنجليزية، والإنجليزية هي اللغـــة الرسميـــة للبنـــك المركزي الأوربي، بالرغم من أن المملكة المتحدة لم تنضم إلى الاتحاد النقـــدي الأوربي، وأن البنك موجود في فرانكفورت، وأن الموظفين الإنجليز فيه لا تتجاوز نسبتهم ١٠٪، وقد أصبحت هيمنة الإنجليزية مصدر ضيق داخل الاتحاد الأوربي حتى إن قادة الاتحـــاد يقدمون الحوافز لطاقم الموظفين لتعلم أي لغة أخرى.

وانتشار الإنجليزية المطرد يُعتبر سببًا ونتيجة في آن واحد للعولمة. . وهناك بعض العوامل الواضحة بنمو التجارة العالمية والتعاون بين الأمم، واتـــساع مـــدى الإعـــلام الأمريكي بصورة غير مسبوقة – وتوسع شبكة الاتصال الإلكتـــروني الـــتي أتاحهـــا

الإنترنت، والنفوذ اللغوي للأغاني والأزياء والرياضة وأساليب الاستجمام الأمريكيـــة، وهناك عوامل أخرى ربما بدت أقل وضوحًا، وإن لم تكن أقل قوة، مثل اتساع دراسة الإنجليزية فيما وراء البحار والأعداد الضخمة من الطلاب الذين يسافرون إلى الخــارج لدراستها في البلاد الناطقة بها. وفي عام ١٩٩٢م التحق نصف الطلبة الأجانب البــالغ عددهم أكثر من مليون على مستوى العالم بمعاهد في ستةٍ مــن البلــدان لغتــها الأم الإنجليزية: استراليا، كندا، أيرلندا، نيوزيلندا، والمملكة المتحــدة،والولايات المتحــدة الأمريكية[١].

لقد تعمدت في إطالة المقتبس من العرض المشار إليه للكتاب المثير لنتبين بوضوح المخاطر المتوقعة من العولمة الإعلامية والاقتصادية من جهة، ولكي تتضح مــن جهــة أخرى أبعاد التخطيط الدولي في التآزر القائم بين الإعلام والاقتصاد في تحقيق النجــاح اللغوي، وهو الأمر المفقود في واقعنا العربي. وبعض ما ورد في الكتــاب قــائم علــى التخمين والافتراض، لكن التخطيط المصحوب بالفعل قادر على الوصول إلى الهــدف البعيد، وحتى لا تستغرقنا أحلام اليقظة ينبغي أن نكون على دراية بكل المنجزات الــتي تتم على صعيد اللغات وما ينالها من حيوية وارتقاء أو ما يحيط بها من انحسار وذبــول وأن نتفهم أسباب ذلك ونتائجه.

وإذا كان هناك أشياء تحول دون كونية اللغة الإنجليزية، رغم النجاح الإعلامي الذي حققته، فإنه لا شيء يحول دون كونية اللغة العربية التي ارتبطت بالقرآن الكــريم وبما له من مكانة وحب في نفوس المسلمين لا في الوطن العربي فحسب، وإنما في أنحاء العالم، وهذه الكينونة الواقعية لا تحتاج سوى التزام إعلامي عربي وإسلامي، وفي عصر الفضائيات وحيثما يكون المسلم فإنه سوف يمسك بالمفتاح ويجد نفسه وجهًا لوجه مع

---

(١) مجلة الكتب وجهات نظر: ٥٠، العدد ٢١، أكتوبر ٢٠٠٠م.

اللغة التي يحب. وإذا كانت اللغة الإنجليزية لغة المال والاقتصاد، فإن اللغة العربية لغة الروح والقلب.

ومن المسلمات التي لا تحتاج إلى دليل أن القرآن الكريم قد حافظ - طول القرون الماضية - على العربية الفصحى، وحافظ كذلك على العامية من السقوط في براثن الإقليمية أو المحلية، وبفضله لم يحدث بينهما- الفصحى واللهجات العامية- ما يعكر الصفو، وذلك قبل أن تبدأ الدوائر الاستعمارية نشاطها المريب، ويبدأ بعض المثقفين العرب الحديث عن سيرورة مماثلة لسيرورة "اللهجات اللاتينية التي كانت منتشرة في أوربا قبل خمسمائة سنة، وقد انتهت تلك اللهجات اللاتينية إلى قيام عدد من اللغات الأوربية الحديثة[1]".

وهذا الفهم المغلوط،والمقارنة الفجة، والحديث عن التطور السلبي في العلاقة ما بين الفصحى ولهجاها هو الذي أصاب أستاذنا الجليل الدكتور شكري عياد بالرعب وجعله يصرخ بملء قلبه "وإني لأربأ بالأمة الإسلامية أن يقولوا كما قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأن يناموا على آذاهم ثقة بأن الله جلت قدرته ضمن الحفظ لقرآنه، مادام القرآن محفوظًا فالعربية محفوظة، وإلا فاعلموا يا قوم أن الله قادر أن يحفظ القرآن بغيركم ثم لا يكونوا أمثالكم، إنما تدعون لتكونوا جديرين أنتم وأبناؤكم بحمل ذلك القرآن المجيد[2]".

ولا أستبعد أن يرى بعض الجهلاء والسذج في هذه الصرخة النابعة من قلب مفكر وأستاذ حريص على لغة القرآن، ولغة الأمة وتاريخها وثقافتها بعض الجرأة التي تخرج بصاحبها عن اللياقة في الخطاب بدلاً من أن يشاركوه موقفه والخوف على لغة

---

(١) الدكتور مرزوق بن حفيتان: الفصحى ونظرية الفكر العامي، ص١٤٦.

(٢) المرجع نفسه: ص ١٦١.

القرآن، وأخشى ألاَّ يجدوا في هذا القول ما يجعلهم يشعرون بالخطر الحقيقي الذي يهدد الهوية الذاتية والثقافية للأمة، ويوشك أن يزحف بأظافره وأسنانه ليقضي على العلاقة الوحيدة الباقية بين أبناء هذه الأمة التي تنتظر دورها الموعود في دورات التاريخ القادمة، علمًا بأن الحقيقة القرآنية تؤكد أن الكتاب المنزل سيظل محفوظًا بالعرب أو بغيرهم.

الفصحى والوجه الإيجابي من الإعلام:

نستطيع القول إن هذا زمن الإعلام بلا منازع أو منافس، حيث تلعب وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة دورًا مركزيًّا مدهشًا ومثيرًا، وهو دور ذو شقين اثنين، أحدهما يقوم على الإبداع، والإضافة، والإسهام في تطور الوعي البشري وتقديم الإنتاج الخلاق للعلماء والمبدعين، والآخر يقوم على إغواء الإنسان والعبث بعقله وبوقته وتزييف وعيه، ولا بد أن ننفي عن هذه الوسائل فكرة وجهي العملة، فالخطاب الإعلامي يستطيع أن يكون بوجه واحد فقط، وأن يكون وسيلة إيجابية للتوصيل المعرفي والمعلوماتي الجيد عندما يخضع للإشراف الأمين، والتسيير الإنساني العلمي والموضوعي الهادف، أو يكون وسيلة سلبية مدمرة للإنسان وللغة وللقيم.

وقد أثبت الإعلام العربي- حتى الآن- جوانب قصور كثيرة وسلبية منقطعة النظير، سنعود إلى الحديث عنها فيما بعد، لكنه أثبت بالمقابل إيجابيات كثيرة من الإنصاف التذكير بها والإشادة بمنجزاتها، ومن تلك المنجزات: توسيع دائرة الاستخدام اللغوي، وجعل اللغة العربية في حالة حضور دائم بعد أن كان الأمر قبل ظهورها مقصورًا على المدرسة والجامعة والجامع، فضلاً عما أضافه وابتدعه من أنساق فنية وأدبية تختلف عن الأنساق المعروفة في شكل الكتاب. وهذا الدور يقترن بتأكيد أهمية اللغة كعامل أساسي اجتماعي وسياسي وفكري وفني. وهذا التطوير لأساليب استخدامات اللغة سوف يفضي حتمًا إلى العناية بها والاحتكام إلى قواعدها الضابطة لفن الكلام، يضاف إلى ذلك فتح أبواب جديدة لم تكن في الحسبان لعملية إنتاج اللغة

ونشرها عن طريق الخطاب الشفهي بما أكسب اللغة حيوية التلاقي والتصادم مع مستويات مختلفة من المتكلمين والموضوعات منها: الأدبي، والعلمي، والسياسي، والفني، والرياضي المؤسسي، والحر.

وبذلك تؤكد اللغة الفصحى استجابتها التامة وقدرتها على استيعاب المصطلحات والمعاني وتوصيلها بوضوح، وفي صياغات متنوعة مما أكسب اللغة ثراء لم تكن تحلم به خارج التأليف والمحاضرات والخطب. وفي هذا الصدد لا يغيب عن البال ما لهذه القنوات من ميزة فريدة في تقديم برامج الأطفال الدرامية بالفصحى مما يجعل الطفل ينشأ وهو على صلة بالصورة الأصح والأفصح للغته الأم.

يضاف إلى ما سبق – وهو الأهم– أن اللغة عن طريق آليات الإعلام الحديثة تستطيع أن تشكل مدارس أو جامعات مفتوحة سيكون لها دورها وإسهاماتها في تعليم الملايين، سواء أكان ذلك داخل الوطن العربي أم خارجه بين المواطنين المهاجرين الذين يعيشون في مناطق أخرى من العالم. ولقد تلقيت – وفي غضون عامين اثنين من انتشار الفضائيات العربية – ثلاث رسائل من أصدقاء مهاجرين في ثلاثة أماكن مختلفة هي ألمانيا وفرنسا وكندا، وهذه هي الرسائل الثلاث أضعها بين يدي القارئ ليدرك أبعاد الأثر الإيجابي الذي تتركه الفضائيات العربية التي أزعم أنها من أهم الوسائل الإعلامية وأكثرها حضورًا في حياة المواطن العربي، علمًا بأنها لم تستكمل انتشارها بعد بما فيه الكفاية؛ نظرًا لارتفاع أسعار أجهزتها ولما تعانيه غالبية سكان الوطن العربي من بؤس وفقر، وهذه هي الرسائل الثلاث بعد حذف الديباجة:

١– رسالة من كندا:

"شاهدناك في قناة الجزيرة في برنامج "ضيف وقضية" أنا والأولاد الذين كانوا سعداء جدًّا لرؤيتك، وللعلم أن الأولاد هم من أبلغنا عن موعد اللقاء، وذلك من خلال مشاهدتهم لقناة الجزيرة.

وبالمناسبة أصبحت القنوات العربية تمثل جسرًا بين الوطن والمغترب. ونحن هنا نشجع الأولاد على مشاهدة القنوات العربية في الوقت المخصص لمشاهدة التلفزيون؛ لأننا أحسسنا بأن مشاهدة هذه القنوات تعمل على ردهم إلى لغتهم العربية بعد أن كان الخوف من نسيانهم لها يقض مضجعي ومضجع أمهم، فكما تعلمون أن الأولاد يقضون معظم ساعات اليوم في المدرسة لا يتحدثون إلاَّ بالإنجليزية مع أساتذتهم، حتى عند عودتهم إلى المنزل. كانت الإنجليزية تزحف شيئًا فشيئًا إلى أن غدت السائدة في حوارهم في أثناء لعبهم ومذاكرتهم، وكذلك أثناء الطعام. وكثيرًا ما كنا- ولا نزال - نعنفهم في المنزل حتى تخالهم كنديين خلصًا.

الآن تغمرنا سعادة أن الأولاد قد بدأت تستهويهم هذه الفضائيات وبدؤوا يشغفون حبًّا لبعض برامجها. فلقد بدأت أنا وأمهم نلاحظ أن العربية أخذت تبرز في لعبهم وشجارهم ومذاكرتهم. وأعتقد أن الفضل في هذا التحول الإيجابي يعود لهذه القنوات العربية التي لم نكن نتخيل أنه سيكون لها هذا الأثر البديع في لغة أولادنا، فقد حركت عربيتهم المنحسرة في كلامهم وبدأت تغذينا وأصبحنا نطرب لسماع اللغة العربية من أفواه أبنائنا...

حفظكم الله تعالى لنا جميعًا وحفظ لغتنا العربية وصانها من كل مكروه".

٢- رسالة من ألمانيا:

"اسمحوا لي أن أحيطكم علمًا بأن وصول الفضائيات العربية إلى الغرب قد مثل تواصلاً لكثير من الأسر العربية المهاجرة بلغتهم وثقافتهم، وقد كانت قاب قوسين أو أدنى من الانسلاخ من الهوية العربية؛ نتيجة عدم ممارسة اللغة العربية في أرض المهجر. كما أن هذه الفضائيات رغم كثرة الغث فيها وقلة السمين قد جاءت لتساعد الكثير منا على استعادة هويتهم وثقافتهم العربية.

ودعوني أصدقكم القول: إنني وسط زحمة الحياة هنا في الغرب كانت تمر عليّ أيامٌ وأسابيع لا أتحدث فيها بالعربية إلاّ فيما ندر حتى ساق الله إلينا هذه الفضائيات التي أعادت الجسور بيننا وبين أمتنا ولغتنا العربية، فعبر هذه الفضائيات أستفيد أنا وأبنائي وبناتي في استعادة وتنمية مخزوننا اللغوي.

لقد أخبرتكم في رسائل سابقة أن لغة أولادي هنا خليط من الألمانية والإنجليزية والتركية؛ لأنهم يدرسون في مدرسة تحتضن دارسين هنودًا وألمانًا وأتراكًا وغيرهم.. نتمنى عليكم أنتم وغيركم من أعلام الوطن العربي أن تضاعفوا جهودكم في سبيل انتشار لغة الضاد، كما نتمنى على حكوماتنا العربية أن تعطي اللغة ما تستحق من اهتمام... ".

٣- رسالة من فرنسا:

"... مضت علينا سنون هنا في فرنسا نشتاق فيها إلى سماع أي برنامج عربي قيمًا كان أو حتى عاديًا، وأذكر أن بعض الأسر العربية المهاجرة كانت تطلب من ذويها في الوطن العربي إرسال برامج تلفزيونية مسجلة على كاسيت تطلع من خلالها على جديد الوطن.

اليوم وبفضل التقدم المعلوماتي أصبح المغترب يطالع صباح مساء أحوال بلده والمنطقة العربية بشكل عام، كما أصبح يسيرًا علينا مشاهدة البرامج واللقاءات الأدبية التي نحبها. وتدفع هذه الفضائيات عنا كثيرًا من الخوف من نسيان أطفالنا لغتهم الأم، فالأفلام الكرتونية وغير ذلك من برامج الأطفال التي تذيعها كثير من الفضائيات العربية أفادت الأطفال حيث أصبح من المألوف اليوم سماع أطفال يتنقلون بين الفرنسية والعربية بشكل ملفت للنظر، ونؤمل أن يأتي اليوم الذي يتحدث فيه أطفالنا العربية دون صعوبة".

ألا تؤكد هذه الرسائل الثلاث قدرة الفضائيات العربية واستطاعتها توصيل اللغة العربية عبر الفضاء الرحب إلى أي مكان من العالم؟ ثم ألا تستطيع - أي الفضائيات- أن تكون في الحاضر والمستقبل وسيلة التواصل التي لا يكتفي المهاجر العربي معها ومن خلالها من متابعة أحداث وطنه فحسب، بل متابعة ثقافته العربية والمحافظة على أهم مكونات هويته القومية؟ وتبقى الإجابة رهن التطورات والإجراءات التي تتخذها الأنظمة العربية تجاه الدور الذي ينبغي على هذه الأجهزة أن تقوم به إلى جانب دورها الدعائي الإعلامي.

ومن هذا المنظور إلى دور الفضائيات العربية يمكن تصور تأثيرها الفعال على غير الناطقين بالعربية، وذلك حين يحسن القائمون عليها الاختيار للبرامج والمعلومات، وعند الانتباه إلى ما تمتلكه هذه الآلة الإعلامية من إمكانيات وقدرات توصيلية هائلة وعلى جانب كبير من الأهمية في مجال استخدام اللغة العربية الفصحى واستقامة أدائها بوصفها أداة اتصال شفهي لا كتابي، وما تفرضه الصلة الشفاهية من معايير خاصة في التلقي المباشر.

ويمكن القول أنه بفضل الوسائل الإعلامية الأخرى، كالمذياع مثلاً - وهو حتى الآن ذو أثر كبير بسبب سعة انتشاره لسهولة اقتنائه ويسر تنقله- لم تعد العاميات وحدها هي أداة التخاطب بين العامة في المدن والأرياف، فقد أضافت إليها الفصحى مئات المفردات التي لم تكن متداولة ولعبت نشرات الأخبار والأحاديث الدينية والسياسية دورًا غير محدود في تفصيح العامية إذا جاز التعبير، ولي مع عامية الريف اليمني محاولة بدأت منذ أواخر السبعينيات عندما بدأت تدريس الأدب الشعبي في كلية الآداب جامعة صنعاء فقد تبدى الفارق واضحًا في مستوى القصائد الشعبية المرتبطة بالمناسبات قبل البث الإذاعي وانتشار أجهزة المذياع ومستوى هذا النوع من القصائد بعد البث الإذاعي وتوسع استخدام المذياع في الريف، وعلى رأس كل خمسة أعوام-

وهي فترة قصيرة نسبيًّا - أقوم بزيارة عدد من المناطق وألتقي بعـــدد مـــن الـــشعراء الشعبيين للتأكد من وجهة النظر هذه فأكتشف أن الفصحى قد أخذت مساحة أوسع في قصائد هؤلاء الشعراء. وتتعدى هذه الحالة الشعراء إلى غيرهم من الناس العـــاديين الذين صاروا يتحدثون في قضايا السياسة، ويجيدون شرح المتاعب التي يعانون منها بلغة لعب المذيع كما لعب التلفاز فيها دورًا لا يمكن تجاهله.

وفي جهدي المتواضع محاولة لإعداد دراسة مطولة تقارن بين ما كانـــت عليـــه مفردات القصيدة العامية (الشعبية) في ريف اليمن في بداية القرن العشرين وما صارت إليه في أواخر ذلك القرن. والأجزاء الأولى من الدراسة تثبت الأثر الكبير الذي أحدثته وسائل الإعلام المختلفة في القصيدة العامية التي تفصَّحت في كثير من مناطق اليمن، ولم يعد بينها وبين القصيدة من فوارق تذكر سوى ابتعادها عن قواعـــد الإعـــراب، أمـــا المفردات فقد صارت فصيحة تمامًا باستثناءات لا تكاد تذكر لمفردات محليـــة يحـــرص الشاعر على الإبقاء عليها لما قد تحمله من دلالات ذات حضور في ذهـــن المتلقـــي أو تكتنـــزه من معان هازلة أو ساخرة.

ولا أظن أن الواقع اللغوي في بقية الأقطار العربية يختلف عما عليـــه الحـــال في اليمن، وهو- بفضل الجهد المحدود وغير المخطط له من الوسائل الإعلاميـــة- يمـــضي عكس الاتجاه الذي أراده أعداء اللغة العربية. ولا ننسى أن الأثر الإيجابي لهذه الوســـائل مدعوم ومسنود بالمدارس وبالتوسع في التعليم الإلزامي وحـــصول التلاميـــذ في هـــذه المدارس على نصيب وافر من مفردات الفصحى وتراكيبها.

وحيث إن العلاقة بين اللغة والإنسان تنطوي على ثنائية المنفعة، فإن أحدهما لا يمكن أن يستغني عن الآخر، والمنفعة هنا ليست مادية وحسب، إنما هي روحية ونفسية وذاتية، وحرص الإنسان على لغته من المسلمات إلاَّ إذا طرأت ظروف قـــاهرة كمـــا

حدث لبعض الأقليات العربية التي خضعت لاحتلال جائر باعد بينها وبين لغتها القومية وفرض حصارًا على أطفال هذه الأقليات فلا يتكلمون إلا لغته.

كما تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى بعض المتعصبين للعامية والمهووسين بالمحافظة على طريقة نطقها وعلى مفرداها التي هي في الأساس ذات أصول عربية. إن هؤلاء لا يخفون قلقهم من الأثر الإيجابي لوسائل الإعلام، ولهذا فهم ينادون بتعميم العامية على هذه الوسائل كخطوة أولى لتعميمها على المدارس والجامعات كما يحدث شيء من ذلك لدى بعض المتعصبين في لبنان العربي.

الفصحى والوجه السلبي من الإعلام:

أوضحنا فيما سبق كيف تستطيع آليات الإعلام الحديثة، وفي مقدمتها الفضائيات التي ظهرت منذ وقت قريب، أن تساعد على نشر اللغة العربية الفصحى وتقديم أصناف المعرفة بلساها القويم، كما ألمحنا إلى الإمكانات التي تجعل هذه الآليات قادرة على أن تربط اللغة العربية بحركة الواقع بكل ما يضطرب في جنباته من تناقضات وصراع صاخب، ولكن هذه الوسائل - في غياب التصور القومي المشترك، وفي تجاهل التخطيط العلمي- تؤدي إلى العشوائية وتقضي إلى الانحراف بوظيفة الإعلام بعامة وتجعل منه أداة حادة تطعن الأمة العربية الفصحى في الصميم.

ويتجلى المشكل الإعلامي بوضوح في غياب أي نص صريح للوظيفة اللغوية التي ينبغي على وسائل الإعلام المختلفة أداؤها بإتقان، ثم في عدم التوفيق في اختيار الكفاءات الإذاعية من العنصر الرجالي والنسائي للعمل في هذه الوسائل وفي الفضائيات منها بخاصة، لاسيما بعد أن اتسعت هذه الأخيرة وأصبح لكل قطر عربي فضائية أو أكثر. ولا شك أن عددًا من هذه الفضائيات نجحت في استقطاب بعض الكفاءات وأصبحت تقدم خدمة هائلة للثقافة وللغة العربية إلاّ أن غالبية الفضائيات تعجز أو لا تريد أو لا تشعر بأهمية العناية باللغة العربية الفصحى، فضلاً عن الاعتماد على هذه

الآليات كجهاز إعلامي بمعناه الدعائي، عليه أن يتحمل مسؤولية المحافظة على الفصحى وحمايتها، وتقديم الإرث الثقافي العربي المشترك الذي هو بلا أدنى مبالغة أعظم إرث ثقافي ورثه شعب على وجه الأرض، وما المانع من تحول هذه الوسائل إلى أداة تعليمية وتثقيفية في وطن ثلاثة أرباع أبنائه أميون يسكنون الأرياف وأطراف المدن؟

ومن الصعب تتبع أشكال الإساءة إلى الفصحى في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية بالتفصيل، فقد صارت ميدانًا فسيحًا لتشويه النطق، والعبث بالتراكيب، والتجاوز عن القواعد النحوية والصرفية، فضلاً عن التوسع في استخدام اللهجات العامية من خلال الأعمال الدرامية وبعض البرامج الحوارية.

وقد تنبه بعض المفكرين والقادة الإعلاميين إلى تلك المخاطر منذ وقت مبكر، إلاَّ أن جهودهم الهادفة إلى التقليل من تلك السلبيات ذهبت أدراج الرياح، نظرًا لما سبقت الإشارة إليه من غياب التخطيط، والاكتفاء بما تؤديه هذه الوسائل من دور إعلامي.

وفي كتابه "هموم كاتب العصر" يشير الكاتب والإذاعي المعروف فاروق خورشيد إلى ما يسميه "خطورة التهاون في استخدام الأجهزة الإعلامية للهجات" وما يمكن أن يلعبه استعمال العاميات من هبوط في مستوى التلقي، وفي مستوى الأجيال التي يفصلها استعمال الإذاعات للعاميات عن حسها القومي العربي الذي يجب أن يؤصَّل وينمَّى.

ومنها أيضًا ما بدأت تحسه هذه الإذاعات من ضرورة قيامها ليس باعتبارها وسيلة إعلامية فحسب، وإنما كأداة ثقافية في الدرجة الأولى لا تقل خطورتها عن الكتاب والصحيفة. وضرورة قيامها بواجبها وبرسالتها في نشر الأدب، بل وفى إبداعه على السواء[1]".

---

(١) فاروق خورشيد: هموم كاتب العصر، ص١٤٤.

وفى مكان آخر يشير الكاتب إلى خطورة الدور الذي كان الإعلام الخـــارجي (غير العربي) يلعبه في أثناء تنافس معسكري القوتين الأعظم، واستخدام ذلك الإعـــلام الخارجي للهجات المحلية لكل مناطق العالم، ومنها الوطن العـــربي، وخطـــورة تلـــك الإذاعات - كما يقول - إنها "لم تكن تحمل الفكر وحده، وإنمـــا تحمـــل الفلـــسفة الإعلامية التي تتحكم في الشكل الإذاعي أيضًا، كما أنها تحرص على أن تجذب المستمع بكل الوسائل الممكنة، وبصرف النظر عن اعتبارات قومية محلية، أو قـــضايا تفرضـــها مراحل النمو التي تمر بها البلاد التي توجه إليها هذه الإذاعات، وهدف هذه الإذاعـــات الموجهة باللغات المحلية الدعائـــي يستتر وراء مهمتها الإعلامية، غالبًا ما تكون أكثـــر نجاحًا في الإذاعات المحلية للبلاد المستهدفة بهذه الإذاعات الموجهة[1] ".

و لم يختلف الأمر كثيرًا بعد سقوط أحد المعسكرين المتنافسين، إذ لا تزال أهداف المعسكر الباقي تواصل فرض سيطرتها، وإذا كان تأثير الإذاعات الموجهة قـــد قـــل أو اختفى بالنسبة للوطن العربي، فإن دور الفضائيات في تزايد ونمو، وتتمثل خطورتـــه في السيطرة شبه التامة على بعض الفضائيات التي تكاد تعتمد اعتمادًا كليًّا على أرشيفات الفضائيات الأجنبية، وعلى ما تجود به هذه الأرشيفات من أفلام ومسلسلات تخـــضع لترجمات رديئة، يختار المترجم الجاهل للغة العربية ما يحوله من تراكيب تتـــصادم مـــع العامية فضلاً عن تصادمها مع الفصحى، وتلوى عنق المفردات سواء أكانت أسمـــاء أم أفعالاً على نحو يثير التقزز، ومن ذلك - على سبيل المثال - السؤال الذي يتكـــرر في كل المسلسلات وفي كثير من الأفلام المترجمة أو "المدبلجة": "أأنت أكيد؟" "ويقصد به" أأنت متأكد؟" وتكون الإجابة دائمًا: "أنا أكيد!!" بدلاً من "أنا متأكد"، وهي قطرة في بحر الأخطاء التي تتكرر في هذه الترجمات الهادفة إلى العبث بتكوين اللغة ومفرداتها.

---

(١) المرجع نفسه: ص١٥٧.

ولا جدال في أن تأثير الفضائيات يفوق كل أثر للإذاعات، فالفضائيات لا تكتفي بالصوت، بل بالصوت والصورة الملونة وتحريك الشفاه، وما يترتب على هذا التحريك للعبارات من تشويه لطريقة الأداء.

ونعود مرة أخرى إلى كتاب "هموم كاتب العصر" الذي أشار منذ وقت مبكر إلى خطورة فادحة ترتكبها وسائل الإعلام، وتوجزها المقولة العربية القديمة: "فاقد الشيء لا يعطيه" وتتمثل في سوء اختيار القائمين على وسائل الإعلام من أشخاص ابتعدوا تدريجيًّا عن منابع اللغة العربية التي يجوز أنهم تلقوا شيئًا من دروسها في المدارس والجامعات ليقعوا بعد التخرج في أسر العامية ومنطقها المخالف للفصحى، يقول فاروق خورشيد: "وهذه الوسائل في أيدي مهذبين متخصصين في حرفتهم الإعلامية بالدرجة الأولى، وهم يتعلمون حقًّا حتى نهايات التعليم الجامعي، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن يكون ارتباطهم بالثقافة روحًا ومعنى وعطاء ارتباطًا عضويًّا كاملاً..

فالمسألة بالنسبة لهم مسألة وظيفة بالدرجة الأولى، وهم يقومون - في أغلب الأحيان - على خدمة العمل الثقافي كما يقومون سواءً بسواء على خدمة الطوائف والأقاليم أو السياسة الخارجية، حسب ما يقرره رؤساؤهم المباشرون، وطبقًا لظروف تعيينهم وتمرينهم، قبل أي اعتبار آخر، وهم بهذا - وفي أغلب الأحيان أيضًا - ممثلون عاديون للثقافة، كانت متابعتهم الثقافية حصيلة الدرس في المدارس والجامعات، ثم حصيلة ما تقدم لهم نفس الأجهزة الإعلامية التي دفعتهم ظروف الوظيفة العشوائية إلى العمل بها. وليس في هذا اتهام لأحد، أو إنقاص من شأن إنسان، إنما المسألة أن الثقافة بعامة والأدب بخاصة أخطر على حياة الأمة العربية وأكرم عليها من أي موظف في أحد الأجهزة العاملة بها على امتدادها من المحيط إلى الخليج لتزييف الحقيقة أو تنكرها أو تظل تتجاهلها، وكأنها غير قائمة وموجودة وناشبة أظفارها في واقعنا الثقافي المعيش في كل مكان من هذا العالم العربي كله[1]".

---

(١) المرجع نفسه: ص٢٢٦.

ومن هنا، فإن موظفًا إعلاميًّا هذه صفاته وتلك مزاياه، وهذه حدود ثقافتــه لا يمكن أن يفعل شيئًا تجاه ما تعانيه العربية الفصحى من إساءات يومية على لسانه وعلى ألسنة زملائه من إذاعيين وإذاعيات، توقفت معرفتهم باللغة العربية عند القواعد الأولية التي يتلقاها تلاميذ الابتدائية والإعدادية ثم تخلوا عنها بعد ذلك. والأسوأ من كل هــذا أن تفرض بعض الإذاعات وبعض الفضائيات "العربية" على مذيعيها أن يقدموا البرامج ومادة البرامج والأخبار بالعامية المحلية لكل قطر، وهي خطوة سيئة بــدأت في لبنــان العربي، ومن المحتمل أن تترك آثارها الأكثر سوءًا علــى بعــض الأقطــار العربيــة، فالاختيارات الرديئة - كما جرت العادة - سريعة العدوى، وإذا حدث ذلــك - لا سمح الله - ونشطت أساليب استخدام العاميات في الإذاعات العربية وفضائياها، فــإن جزءًا كبيرًا وخطيرًا مما كان يريده الغزاة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائــل القــرن العشرين في طريقة إلى أن يتحقق ويأخذ طريقَهُ إلى التنفيذ وبأيد وعقول عربيــة هــذه المرة. ولن يستطيع الغيورون على الفصحى أن يشيروا بأصابعهم إلى وجود قوى أجنبية وراء مثل هذه الإجراءات المنافية لوحدة الأمة والقاصمة لهويتها وتــدهور أســلوبها في الخطاب الثقافي والإبداعي، فالعامية كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: "هي لغــة الجهل وليست بلغة الثقافة أو بلغة اليسار. . ومن الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكــلام بغير العامية التي لا جمال لها ولا طلاوة، وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفــصحى أو يعبرون بالعامية تعبيرًا يزيد جمالها وتبدو عليه طلاوتها. فإذا عطفنا على العاميــة فإنمــا نعطف على الجهل ونستبقيه ونــزيده، ولا نخفف وطأة ذرة واحدة بتغليب عبــارات الجهالة على العبارات التي تصاغ بها آراء المتعلمين والمهذبين"[1].

ولا يبعد أنه كلما زاد واقع الوعي ضمورًا، وتناقص عدد حملة المسؤولية القومية زادت معاول الهدم قوة وتماديًا في التخريب والارتحال نحو الانعزال والهبوط. والغريب،

---

(١) عباس محمود العقاد: يسألونك، ص٥٠.

بل الباعث على الخجل، أن الصراع لا يدور حول محاولة استعمال العامية في التلفاز، وإنما يدور حول استعمال الفصحى في هذه الوسيلة كما تشير دراسة بالغة الأهمية تحت عنوان "العربية والقنوات الفضائية" ومما جاء فيها: "يزعم الكثيرون أن العربية الفصحى لا تصلح للتلفزة بوجه عام، والكثرة الكاثرة من هؤلاء تقف موقفًا فيه قدر من الاعتدال، فلا يرون بأسًا من استعمال الفصحى في نشرات الأخبار.

ومن معارضي استعمال الفصحى نفر آخر يفرط في المبالغة، فلا يرى مكانًا للفصحى في البث التلفزي على الإطلاق، ولا يسمح هذا النفر للفصحى بالتسلل إلى حرم التلفزة إلاَّ مكرهًا أو على مضض. ولم ينشأ هذا الموقف السلبي من استعمال العربية الفصحى مع نشوء التلفزة، بل هو موقف قديم ومعروف وشامل، لم يدع أي مجال من المجالات الثقافية والإعلامية دون أن يشمله بفقرة لاستعمال الفصحى وبيان عيوبه، والدعوة إلى استعمال اللغة المحكية بدلاً منها"[١].

ولا أحسب أن "وعورة" أو صعوبة اللغة العربية تصلح حجة لهؤلاء؛ لأننا إنما نكرر الدعوة لاستخدام الفصحى المعاصرة المتخلصة من الغرابة أو الصعوبة مما ينفر المستمع أو المشاهد أو القارئ المعاصر.

تصورات متواضعة للحل:

لقد تأكد فيما سبق أن اللغة العربية الفصحى كانت- ولا تزال - مع وسائل الإعلام المقروء منها والمسموع والمرئي - في حالة من الشد والجذب، وهي الآن وبسبب هذا التنازع بين الإيجاب والسلب تقف عند مفترق طريقين: أحدهما وهو الإيجابي يضع في اعتباره - دون تخطيط - أهمية المحافظة على الفصحى المعاصرة وضرورة نشرها وجعلها قادرة على الصمود في وجه المحاولات المختلفة للانتقاص منها ومن دورها الكبير الذي ينهض به قديمًا وحديثًا. والطريق الآخر وهو السلبي المفروش

---

(١) مجلة متابعات إعلامية: ص٩٣ العدد ٤٣ أبريل ١٩٩٩م.

بالأشواك والانحرافات الذي ينسى السائرون عليه أن اللغة العربية كانت - على مدى قرون - لغة الحضارة في العالم، وكان يستحيل على الدارس والمبدع أن يستوعبا ثقافة العصر بدونها، لذلك فسيكون من الخطأ بل من الإثم أن نترك لغتنا نهبًا للعوائق والسلبيات؛ لأنه من الصعب على الأمة العربية أن تجد لها مكانًا في صدر الحضارة المعاصرة أو حتى في أطراف هذه الحضارة بعيدًا عن لغتها وجسور ثقافتها، ولاسيما وقد أثبتت اللغة العربية حيويتها، وقدرتها على التطور والتجديد، ومواكبة التطورات في مختلف العصور، منذ استطاعت أن تخرج من نطاق الصحراء وتعبيراتها الضيقة إلى عالم الحضارة الواسع، لتعبر عن كل ما جد في هذا العالم الجديد من علوم وفنون ومصطلحات؛ ومن ثم فهي قادرة على مواكبة التطور الحديث في عصرنا الحاضر.

وقد أصبحت اللغة العربية اليوم من جديد لغة عالمية كما كانت لغة عالمية منذ قرون مضت، فهي اليوم لغة رسمية في المنظمات العالمية، وبعض المنظمات الإقليمية مثل منظمة الوحدة الأفريقية[1]".

ومن المؤكد أن اللغة لا تختزل في مفرداتها المعاني والدلالات التي نحتاج إلى تداولها وحسب، وإنما تختزل الخبرات الإنسانية التي توصل إليها الإنسان عبر العصور. كما أن كل تعبير حضاري يبدأ باللغة ومن اللغة، فالقرآن الكريم، وهو صوت السماء، في إحاطته بالأشياء وفي تدوينه لصراع البشرية مع ذاتها ومع أعدائها كان لغة ناطقة ومفسرة، وكان بوضوح هذه اللغة وإعجاز بنيتها وروعة صورها بداية تاريخ عظيم للعرب وللإنسانية جمعاء. واللغة في أساسها الروحي وفي خصائصها المكانية والزمانية جزء لا يتجزأ من تاريخ الأمة، إن لم تكن هي التاريخ ذاته؛ ومن هنا فالعناية بها واجب رسمي وشعبي فردى وجماعي، وعلى الإعلاميين المشتغلين بها صباح مساء إدراك هذه الحقيقة قبل غيرهم من المواطنين.

---

(١) د. زكي رابح عمامره: المجلة العربية للعلوم الإنسانية ص٩.

واللغة في مستوياتها السلمية أهم مقومات الإعلامي الناجح رجلاً كان أم امرأة، فاللغة أداة عمله الأولى، بها يفكر وبها ينطق، وعلى جناح كلماتها يسافر إلى الأذهان والقلوب. ولا تصور لإصلاح الإعلام العربي وتجديد دوره في حماية اللغة قبل التصور لمستويات الإعلاميين واختيارهم من ذوي الكفاءات اللغوية.

ومن حسن الحظ أن العرب يدخلون القرن الحادي والعشرين وقد أصبح لديهم عشرات الجامعات ومئات الكليات المتخصصة في اللغات، ومنها عشرات الكليات المتخصصة في اللغة العربية على وجه الخصوص. وهو ما يعطي للقائمين على الإعلام العربي فرصة واسعة لاختيار الأصلح من بين خريجي هذه الكليات للعمل في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، وسيكون ذلك بداية الحل المطلوب لإعداد الإعلاميين إعدادًا لغويًّا متينًا لتحسين أداء هذه الوسائل.

ويبدو أن الأمر كان هكذا عندما بدأت الإذاعات العربية والصحافة العربية، ثم اتسع الاحتياج واتسع معه الإهمال، وشرع داء المحسوبيات والوساطات ينخر في نظام الاختيار، فهبط المستوى، وانتشرت الأخطاء، وتعاظمت محنة الفصحى، وتعالت الدعوات المشبوهة إلى التخلي عن قواعد النحو والاستفاضة في الحديث عن فكرة العفوية في الحوار والأداء الإذاعي، والعفوية هنا بمعنى الانطلاق بلا رادع ولا التزام في القواعد اللغوية في النطق، وهي فكرة لا وجود لها في أية لغة محترمة من لغات العالم، علمًا بأن العفوية في الإبداع تعني انثيال أفكار المبدع بتلقائية حية، وتدفق فيض شحنات التعبير واثبة متألقة دونما تصنع أو افتعال، لا أن تتخلى عن قواعد اللغة أو تعبث بخصائصها.

ومن التصورات الجديرة بوقفة المهتمين بالفصحى ما يقال من أن أستاذ اللغة العربية انتقل من الفصل المدرسي إلى الإذاعة وإلى الشاشة الفضائية. وإذا كان مدرس

اللغة يقوم بتدريس أعداد محدودة من التلاميذ أو الطلاب، فإن أستاذ الوسيلة الإعلامية المسموعة والمقروءة، وهو أستاذ غير مباشر، يقوم بتدريس الملايين.

وقد ثبت من خلال استبيان قامت به مجموعة من طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة صنعاء أن عددًا من المشاهدين الذين تم استطلاع آرائهم يقلدون المذيع التليفزيوني ويحاكونه في نبرات صوته وأسلوبه في نطق الكلمات؛ لذلك ولكي يتم وضع حد للآثام التي تقترفها هذه الوسائل في حق العربية الفصحى يقتضي الأمر أن تختار المحطات مذيعيها بدقة وعناية، ووفقًا لمواصفات لا تقل أهمية عن تلك التي كان يتم بموجبها اختيار مدرس اللغة العربية في المدارس المتوسطة والثانوية على أقل تقدير، وأن يراعى عند اختيار مذيع أو مذيعة الفضائية أن يكون أو تكون له أولها شخصية تفرض احترامها وتأثيرها على المشاهدين أثناء قراءتها للنصوص، أو وهما يجريان حوارًا أو يتحدثان من أحد المواقع خارج المحطة.

ودعمًا للدور الذي يمكن للإعلام أن يقوم به للعناية بالعربية الفصحى، وفي إثبات قدرتها على استيعاب العلوم المعاصرة، ورد الاتهامات التي تزعم أن هذه اللغة غير قابلة لأن تكون أداة المعرفة الجديدة، في حين أن تاريخ هذه اللغة وحاضرها يدحضان كل هذه الاتهامات والتخرصات. والسؤال هو: كيف استطاعت لغات أوربا الغربية، وقد كانت قبل قرنين لغات فقيرة تستجدي مفرداتها ومصطلحاتها من اللغات الأخرى، ومنها اللغة العربية التي أمدت اللغة الإنجليزية وأخواتها بآلاف المفردات، كيف استطاعت تلك اللغات الأوربية - ولغات كانت ميتة ومنقرضة إلى ما قبل قرن واحد- أن تأخذ مكانتها بين اللغات، المعاصرة ولا تستطيع اللغة العربية أن تفعل ذلك؟! وإذا كانت الطفرة الإعلامية العالمية قد وصلت ذروتها في نظام الإنترنت، فإن العربية الفصحى استطاعت في وقت قصير أن تحقق وجودها في صميم هذه التقنيات، وأن تؤكد قدرتها في أن تكون أداة التخاطب والتواصل والتعليم والثقافة عبر كل الآليات بل

يمكن للقيمين على الإعلام العربي والحكومات ووزاراتها المعنية ومؤسساتها أن تستثمر اللغة العربية كأية سلعة اقتصادية تستفيد منها في التنمية، وذلك ما تشير إليه أحدث الدراسات حول اللغة والاقتصاد، فقيمة اللغة كما يقول مؤلف كتاب "اللغة والاقتصاد": "يحددها عدد من العوامل التي يساهم كل منها لا في جعل اللغة وسيلة فحسب، بل في جعلها أيضًا عنصرًا من عناصر العمليات الاقتصادية[1]"، مشيرًا إلى ما يمكن أن يدره تدريسها من عوائد، وما يمنحه وجودها الحيوي كلغة أم من استقرار وتوحيد مطلوبين لإنجاز التنمية الاقتصادية وأداء المهام بدقة ووعي واقتدار، لا يمكن بدون الحفاظ على اللغة أن تتم بشكل مرضٍ ومفيد.

لكننا للأسف نجد أنفسنا في أقطار وطننا العربي نستهين بلغتنا، ولا نرى للعناية بها وتطويرها أية حسابات في موازنات الحكومات التي – على العكس من ذلك – تبدد ما يدفعه أفراد الشعب في برامجها الخاصة دون أن تلتفت إلى العناية باللغة وترصد لها ما تستحق من دعم.. متوهمة أن تلك مهمة (روحية) ينجزها أفراد الشعب مع ذواتهم دون إنفاق. . ناسية أن الباحثين يربطون بين (تخلف لغات بلدان العالم الثالث) و(التخلف الاقتصادي) ما دامت هذه اللغات لا تستطيع أن ترفع درجة وحدتها الوطنية[2].

هنا سنتوقف لنضع أمام أنفسنا جميعًا سؤالاً مباشرًا نعتقد أنّ الإجابة عليه تصلح مدخلاً لمعالجة الأزمة التي جهد البحث في توضيحها، والسؤال هو: هل توفر في ضمير القائمين على الإعلام وشعورهم الحق إحساس بأهمية اللغة وسيطًا للتفكير والتعبير والوحدة القومية والتنمية؟ وماذا قدموا من خلال برامجهم لتأكيد هذه الحقيقة التي تمس وجود الأمة العربية وهويتها في زمن التآمر الصريح على وجودها وهويتها؟

---

(١) فلوريان كولماس: اللغة والاقتصاد، ترجمة: د. أحمد عوض، عالم المعرفة – نوفمبر ٢٠٠٠م، ص١١٧.

(٢) المرجع نفسه: ص٦٩.

ولا بأس في الأخير من أن نشيـــر إلى ظاهرة لا تقل خطرًا ولا ضـــررًا علـــى العربية، وهي الظاهرة المتمثلة في غياب وعي المواطن العربي الناتج عن قصور الإعـــلام بأهمية لغته وصمته المخزي على الضيم الذي يلحق بها في اللافتات الأجنبية المنصوبة في الشوارع والأسواق والتي تشعرنا - صباح مساء - وكأننا في مدن غير عربية، أو كـــأن العربية عجزت عن توفير الأسماء والإشارات. .ولا يوحي هذا الصنيع القبيح إلا بالمهانة والعجز والخذلان.

* * *

أثر الإعلام الفلسطيني في التنمية اللغوية في فلسطين(*)

للدكتور أحمد حسن حامد
(رئيس المجمع الفلسطيني)

مقدمة:

تقتضي العربية في فلسطين اهتمامًا خاصًّا، وذلك للظروف الصعبة التي يمر بها هذا القطر من أقطار العربية. وإذا كانت إسرائيل لا تألو جهدًا لسلب أرضه، وبناء المستوطنات على ترابه، فإن أكثر ما يخشى على العربية أن تداهمها لغة العدو وتقوى بحيث تزرع استيطانًا لغويًّا لا يقل خطره عن الاستيطان الأرضي.

ومن ثم كان لا بد من مراقبة واعية وحرص جاد لعملية الاحتكاك بين الشعبين العربي الفلسطيني والعبراني الإسرائيلي. وما يمكن أن ينتج عن هذا الاحتكاك من احتكاك لغوي صارخ قد يؤدي إلى طغيان العبرية، وطمس عربية السكان. وإذا كنا ندرك أن العبرية ليست لغة عالمية فإن إسرائيل تسعى ليل نهار إلى إحيائها، لتكون مستوطنة لغوية، ربما تعمل على التفاوض عليها كما تتفاوض الآن على الأرض والموقع، وعليه فإن المثقفين من أبناء هذا البلد يدركون أكثر من غيرهم ضرورة المحافظة على العربية، وتحصينها، ومحاصرة كل دخيل يمكن أن يتسرب إليها من ذلك الاحتكاك المشار إليه. وربما لا نخاف على مثقفينا أن يتعلموا العبرية كأي لغة أخرى أجنبية، ولكن الخوف يكمن في تسرب مصطلحات العبرية إلى الشارع الفلسطيني لتسمى بها الشوارع، والحوانيت، والأدوات المترلية وغيرها، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال الهيمنة السياسية والثقافية والعلمية للطرف الآخر.

وعلى الرغم من ذلك كله فإننا نستطيع القول: إن الشعب الفلسطيني بكل فئاته يدركون جيدًا خطر العبرية وسياستها الاستيطانية، ويسخرون إمكاناتهم العلمية لنصرة العربية، وحفظها من كل ما يلوث أصالتها ومناحي القول فيها.

(*) نشر بمجلة المجمع، بالعدد الرابع والتسعين، ص ١٥٧، (ضمن البحوث التي لم تلق في المؤتمر).

ومما يحمد لهذا الشعب أن يجد سلطته الوطنية تشجع عن دراية ووعي إنشاء دور تحفيظ القرآن الكريم بوصفه الكتاب الذي يحفظ العربية من كل سوء. ومن ثم نلاحظ زيادة كبيرة من هذه الدور بحيث لا نكاد نجد مسجدًا يخلو من دار لتحفيظ القرآن وترتيله وبخاصة للصغار لكي ينشأوا نشأة عربية إسلامية أصيلة، فيتعرفون إلى لغتهم ويحفظون ألفاظها وأساليب استعمالها.

إن وعي الشعب الفلسطيني للغته بوصفها شخصيتَه، وإدراكه أنّ أيّ خدش يصيبها إنما هو خدش لهذه الشخصية – أقول: إنّ هذا الوعي لا يقل عن وعيه لعدوّه المتربص به الدوائر من أجل اقتلاعه من وطنه، وإذا كان هذا الشعب يتعرض كل يوم للقصف من أجل سلب أرضه وهويته، فإن تشبثه بهذه الأرض وبمقوِّماتها، وبعروبته ومقوّماتها تجعله أكثر إصرارًا على الحفاظ على لغته، وإذا استطاع العدو بفعل قوته العسكرية أن يسلب أرض هذا الشعب فما أظنه قادرًا على سلب لغته وهويته، فإذا ما تحوّلت في أي مخيّم من المخيمات الفلسطينية فإنّك ستجد كل بيت فيها يحتفظ بمفتاح بيته الأصلي في يافا أو حيفا، أو اللد، أو الرملة أو غيرها، ويحتفظ إلى جانب ذلك بلغته مؤذنًا بأن هويته العربية الفلسطينية باقية أبدية.

ولن تستقيم هذه الهوية إلا إذا استمررنا في الحفاظ عليها بوسائل إعلامية متميزة وفعالة، ومن ثم فإن الإعلام الفلسطيني وإن كان ينشغل بالحدث السياسي المتجدد بتجدد القصة الفلسطينية وتفاعله مع أحداثها، إلاّ أنه لم يغفل الجانب اللغوي وتنميته وتطويره، ولتوضيح هذا الدور نجزّئ الإعلام حسب دوره لما يلي:

أولاً: المجلة الفلسطينية:

حفلت فلسطين منذ مطلع القرن الماضي إلى الآن بجملة من المجلات الثقافية والعلمية تراوحت فترات إصدارها ما بين سنة إلى عشر سنوات، ثم توقف بعضها

لأسباب خارجةٍ عن إرادتها، وكانت في كل فترة تواكب مسيرة القضية الفلسطينية بأبعادها السياسية والثقافية والاقتصادية وغيرها، وكان لها دور مباشر أو غير مباشر في تنمية اللغة العربية وتطويرها؛ لأنها كانت تصدر باللغة العربية ولا تسمح للغة العامية بالولوج إليها.

وقد نشطت المجلة في فلسطين بصورة ملحوظة بعد عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، ورأت أن عليها واجبًا لا بدَّ من أن تؤديه، وبخاصة بعد أن احتلت إسرائيل أراضي فلسطين جميعها، فكان لا بد أن تقوم بدور نضالي يحافظ على عروبة هذا البلد إلى جانب النضال السياسي، فانتفضت كما انتفض الشعب كلُّه من أجل الحصول على الاستقلال السياسي والثقافي وعودة الحقوق جميعها إلى أهلها. فسلكت فيما تنشر مسلكين:

مسلكًا محكمًا بمعنى أنها لا تنشر أي بحث إلاّ إذا خضع لشروط التحكيم العلمية، إذ يعرض البحث المراد نشره على ثلاثة محكمين ولا ينشر البحث إلا إذا جاء تحكيمه إيجابيًّا. وأغلب هذه المجلات يصدر عن الجامعات المحلية.

ومسلكًا غير محكَّم، غير أن ما ينشر فيها يعرض على هيئاتها التحريرية. وبحوث هذه المجلات ألصق بالجمهور وقضاياه من المجلات المتخصصة ذات المسلك الأول. ولكي تتضح الصورة نعرض لكل واحدة من مجلات المسلكين السابقين لنتبيّن دورها في تنمية اللغة العربية:

أ- مجلات المسلك الأول المحكَّم:

١- مجلة النجاح للأبحاث:

صدر العدد الأول من هذه المجلة سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثمانين، أي بعد نشأة الجامعة بست سنوات، وذلك بعد صراع عنيف مع سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وكان الدافع الأول لإصدار هذه المجلة: "تنشيط عملية التجديد العلمي لدى أساتذة

الجامعة وطلابها، فنشر الإنتاج العلمي في هذه الديار المقدسة يلعب دورًا مهمًّا في تثقيف الكتاب وإغناء معلوماتهم، ويشكل سياجًا منيعًا للعربية لا يسمح بموجبه للغث أن يلوث عناصرها، كما أن نشر الإنتاج العلمي على صفحات هذه المجلة يسدّ فراغًا معيّنًا حتى في الأجواء الثقافية والفكرية عند القارئ الفلسطيني في هذه الديار. "وتنشر المجلة أبحاثنا باللغتين العربية والإنجليزية، ويبرر ذلك رئيس هيئة تحرير المجلة آنذاك بسببين: الأول-: إفساح المجال أمام الراغبين في كتابة أبحاثهم باللغة الإنجليزية كالموضوعات العلمية الدقيقة التي ما تزال الإنجليزية تعد لغتها المتداولة الرئيسة. والثاني-: ضرورة دخول المجلة إلى أكبر عدد ممكن من الفهارس العلمية الموجودة في الجامعات ومراكز البحث المهمة في العالم.

ثم تطورت المجلة بعد ذلك، وأولتها الجامعة اهتمامًا خاصًّا، فأصبحت تصدر مرتين في السنة: مرة للعلوم الإنسانية كالآداب والتربية والاقتصاد والعلوم السياسية. وأخرى للعلوم التطبيقية كالفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة. ولا يخفى أن المجلة في نشرها للعلوم الإنسانية وبلغة عربية صحيحة تسهم بشكل مباشر في الحفاظ على لغة الوطن والأمة، إذ تؤدي في نهاية المطاف إلى تقوية اللسان العربي وتنميته وإن كان متخصصًا في فرع من فروعها. وعليه فإن إغناء اللغة بالمفردات والأساليب هنا يأتي خاصًّا وليس عامًّا، لأن موضوعات هذا المسلك متخصصة وقارئيها متخصصون، والفائدة العامة تكمن في القضاء على ما يطلق عليه أمية المتعلم.

وتولي المجلة اللغة العربية وعلومها عناية خاصة فما من عدد إلاّ ويضم في ثناياه بحثًا أو أكثر من البحوث التي تعنى بالعربية نحوًا، أو صرفًا، أو بلاغة، أو أدبًا. كما أنها نشرت بحوثًا متميزة حول قضايا اللغة نحو قضية الخفة والثقل وأثرها في بناء النحو العربي. وقضية الأصل والفرع وأثرها في وضع القواعد اللغوية، علاوة على ما نشرت

من بحوث في الشخصيات الأدبية والفكرية في فلسطين ممن كان لهم باع طويل في نهضة العربية وإغنائها بالألفاظ العربية الأصيلة.

٢- مجلة جامعة بيت لحم:

صدر العدد الأول من هذه المجلة سنة ألف وتسعمائة وإحدى وثمانين، وما تزال تصدر بصورة مستمرة، ولعل الهدف الرئيس من وراء إصدارها هو تنشيط الحركة الفكرية في فلسطين عن طريق نشر بحوث العلماء والمفكرين من أبناء هذا الوطن، مؤمنة بأنّ الأمة لا تحيا إلا بإحياء فكرها وتطويره والتشبّث به، وتبدو رسالة هذه المجلة جليّة في حَضِّ الجامعات الفلسطينية على دعم البحث وتشجيعه باللغة العربية؛ لأنها لغة الوطن القومية، فالنشر بها يعني إغناءها وتقويتها في ظلّ ما تعيش فيه من ظروف قاسية، وإن نظرة في البحوث التي نشرت على صفحات هذه المجلة كافية لتبيّن دورها المميز والفاعل في تنمية اللغة العربية وضوابط نقل الألفاظ الأجنبية إليها، والحياة الصحفية في فلسطين، والتطوير والثبات في أصوات العربية الفصيحة وغيرها من البحوث التي اضطلعت بها هذه المجلة.

٣- مجلة الجامعة الإسلامية في غزة:

صدر العدد الأول من هذه المجلة سنة ألف وتسعمائة وثلاث وتسعين، هدفها تشجيع البحث العلمي فقد جاء في مقدمة هذا العدد:"وإنما واجه الأساتذة العاملون صعابًا كثيرة لنشر أبحاثهم في المجلات العلمية والدوريات في الخارج لصعوبة الاتصال، أنشأت الجامعة دائرة البحث العلمي لتشجيع الأبحاث ونشرها في مجلة علمية محكمة. وقد توالت الأعداد سنة بعد أخرى، وتطوّرت المجلة لتحتضن البحوث العلمية في شتى مجالات الحياة، بلغة عربية سليمة مما جعلها تسهم، إلى جانب مجلات الجامعات الأخرى، في توعية المتعلمين وتواصلهم مع لغتهم الأصلية من أجل المحافظة عليها من أي تلوّث قد يلج إلى مفرداتها.

٤- مجلة جامعة الأزهر في غزة:

صدر العدد الأول من هذه المجلة سنة ألف وتسعمائة وسبع وتسعين. وتعنى بنشر البحوث والدراسات المحكّمة التي يعدها أعضاء الهيئة التدريسية في جامعة الأزهر والجامعات الفلسطينية والعربية في مجالات العلوم الإنسانية الدينية والأدبية، واللغوية، والتربوية، والقانونية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها؛ بغية رفد الفكر الإنساني بالدراسات العلمية المبتكرة، وتشجيع حركة البحث العلمي المتميز فيه.

٥- مجلة مجمع اللغة العربية الفلسطيني:

صدر العدد الأول سنة ألف وتسعمائة وتسع وتسعين، متضمنًا بحوثًا في العربية وعلومها، وتعنى المجلة بالتراث اللغوي والنحوي، وبالنقوش الأثرية، والشخصيات المجمعية التي كان لها دور فاعل في إحياء العربية ونهضتها في هذا الوطن، وتمحورت أبحاث العدد الثاني من هذه المجلة حول فلسطين تاريخًا، وفكرًا، وثقافة. ونبهت المجلة على الأخطاء اللغوية التي تلحن بها ألسنة المتكلمين والكتاب، ولا تتوانى عن نشر قرارات اتحاد المجامع اللغوية حول ما يستجد في العربية من ألفاظ فصيحة ينبغي استخدامها لإغناء اللغة في شتى الميادين السياسية، والاجتماعية، والتعليمية، والاقتصادية، وغيرها وصلاً إلى هدف نبيل هو تنمية اللغة العربية في هذا البلد المرابط.

صحيح إن المجلة ما تزال في بداية نشأتها غير أن غايتها نبيلة، وعملها شاق، والمجمع مصمم على تطويرها وتقدمها لتحفظ العربية أصالتها، ولتكون الحارس الأمين لها. ونشير هنا إلى أن السلطة الوطنية تولي المجمع ومجلته عناية خاصة إيمانًا منها بأن هوية اللغة لا تقل أهمية عن هوية الأرض والمنبت، والمساس بها مساس بشخصية الأمة والوطن.

ومهما يكن فإنّ المجلاّت السابق ذكرها تقوم بدورين هما:

١- تنشيط الفكر العربي لدى المتخصصين في الجامعات الفلسطينية، فهي الملاذ الذي يستطيع عضو هيئة التدريس أن ينشر فيه فكر عقله ونتاجه، وبالتالي تتجدد الأفكار والمعلومات التي تؤول الفائدة منها إلى الطلبة، والكتّاب بصورة عامة.

٢- حفظ العربية، وتنميتها وإغناؤها بالمفردات اللغوية الأصيلة القادرة على استيعاب المستجدات الحضارية في عالم سريع التقدم والتطوّر .

ب- مجلاّت المسلك غير المحكم:

يمكن للمطّلع على هذه المجلات أن يقسمها قسمين: أحدهما- ما كان ذا طابع ثقافي أدبي. والثاني- ما كان ذا طابع ثقافي دينيّ. والقاسم المشترك بينهما أنهما يصدران باللغة العربية؛ ولذا ترجع الفائدة في نهاية المطاف إلى العربية، وعالمها اللغوي الواسع. ولعلّ من الفائدة هنا أن نذكر بعضًا من مجلات هذين الطابعين لإظهار دورها في تنمية العربية وتطورها. أمّا مجلات الطابع الثقافي الأدبي فهي:

١-مجلة الكاتب: وقد صدر منها أعداد كثيرة وتنوعت مقالاتها لتشمل السياسة، والأدب، والثقافة، والفنون، والقصة، والشعر. وغايتها تحفيز الفكر والكتابة عند الكتاب والمثقفين والشعراء بلغة عربية صحيحة.

٢- مجلة الفجر الأدبي: وقد صدر منها أعداد كثيرة تزيد على الثلاثين ومن أهدافها:

* بناء حركة أدبية تقدمية.

* دعم الأدب الفلسطيني ليكون قادرًا على التواصل والتلاحم مع الحركة الأدبية العربية والعالمية.

* نشر الأدب المحلي في جميع أنحاء فلسطين.

وفي ضوء هذه الأهداف تنوعت مقالات أعدادها لتشمل الحديث عن اللغة والثقافة والقصة والرواية والشعر والمسرح، علاوة على بعض لقاءات الشخصيات الفلسطينية ذات الفكر المتميز والمؤثر في فلسطين.

٣-مجلة رؤية:

هذه المجلة حديثة المولد، إذ صدر العدد الأول منها في آب (أغسطس ٢٠٠٠م) ويبدو أن هدفها تعميق الفكر وتنوعه في شتى المجالات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالقضية الفلسطينية وما تواجهه من تحديات متعددة، وإذا كان حظّ الأدب فيها قليلاً فإن حظّ العربية يجيء من أن مقالاتها تكتب بلغة عربية صحيحة غنية بالمصطلحات العربية وفق تنوع موضوعات بحوثها، فلا نكاد نجد فيها مصطلحًا نابيًا خارجًا عن المألوف العربي الأصيل، ونأمل من هذه المجلة أن تولي العربية اهتمامًا أكبر، وأن تضع تطور العربية على قائمة برنامجها النشري في المستقبل.

٤. مجلة الكلمة:

هذه المجلة كسابقتها حديثة المولد، وهدفها يتركز حول تفعيل الحياة الفكرية في فلسطين بصورة تعايش متطلبات العصر، وتنشر أبحاثًا متقدمة في النقد والأدب والفن والمسرح والشعر مما يعود بالفائدة الكبرى على العربية وعلومها، وتحرص على الوحدة الثقافية في فلسطين، جاء في العدد السادس منها ما نصّه: "ونحن- الكتاب الفلسطينيين على أرض الوطن- شهودُ عيان على معاناة الجماهير الفلسطينية جراء ممارسات الاحتلال الإسرائيلي وعربدات المستوطنين المتواصلة على مدار الساعة كل يوم.

وإذ يحدونا التوجّه لتنمية الثقافة الوطنية الفلسطينية فإن واقع التجربة الحيّة يؤكد أن هذه المهمة الجليلة تُنجز في مجتمع معافى ومتحرر من الهيمنة الأجنبية، ومن الضغوطات المباشرة وغير المباشرة. إننا على ثقة بأن أي موقف ثقافي يغفل معاناة الجماهير الفلسطينية إنما يجرد الثقافة من مضمونها الاجتماعي التاريخي ويشكل خذلانًا صارخًا للقضية الفلسطينية. فمن هذا النداء الذي هو لسان حال مجلة الكلمة نخلص إلى أمرين: أحدهما: يشير إلى خلق جيل مثقف قادر على التفاعل مع القضية الفلسطينية،

وثانيهما: يجنح نحو فتح المجال أمام القلم الفلسطيني ليكتب دونما هيمنة من الآخـــرين. ولا نشك في أن هذين الأمرين يشكلان هدفًا نبيلاً يسعى إليه الشعب الفلسطيني بكل فئاته وطوائفه وصولاً إلى وحدة ثقافته الوطنية، ومن ثم تعنى لغته القوميـــة بالتوســـع والانتشار.

وأما مجلات الطابع الثقافي الديني فأهمها:

١- مجلة المنبر:

وهي مجلة ثقافية شاملة تصدرها وزارة الأوقاف الفلسطينية، وأغلب موضوعات هذه المجلة يتمحور حول قضايا إسلامية، وتهدف إلى توعيـــة الـــشباب دينيًّـــا ومـــن الموضوعات التي تنشرها التبرج وأضراره، ومن هدي النبوة، وكفالة اليتـــيم، وفتـــاوى دينية.

٢- مجلة هدي الإسلام:

صدر العدد الأول من هذه المجلة في أوائل الثمانينات، وهي شهرية علمية أدبية، لعبت دورًا مميزًا في تثقيف الناشئة من أبناء هذا القطر، وأغلب الموضوعات التي نشرتها تتسم بالثقافة العامة في المجالات الدينية والأدبية، علاوة على دعواتها المستمرةً للحفـــاظ على اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم.

٣- مجلة الإسراء:

وهي مجلة إسلامية شاملة تصدر عن دار الفتوى الإسلامية في بيت المقدس، وهي كذلك مجلة ثقافية دينية متنوعة الموضوعات، والقارئ لهذه المجلة يلاحـــظ أن الـــذين يكتبون فيها متعددو المواهب والثقافات، كما يلاحظ أنها تحرص على أصالة العربيـــة وتحصينها.

ثانيًا– الصحافة:

تُعد الصحافة من أكثر الوسائل الإعلامية اتصالاً بالجمهور، ولعلــها أخطرُهــا تفاعلاً مع الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، ومن المفروض أن تكــون الوسيلة الناجعة لمعالجة القضايا التي تهم العربية من أجل تنمية ألفاظها ومناحي القــول فيها، ومن أهم الصحف الفلسطينية الفاعلة ثلاث:

الأولى – صحيفة القدس:

صدرت هذه الصحيفة سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وألف، وهي من أكثــر الصحف المحلية والعربية انتشارًا وأوسعها اهتمامًا بالعربية وسلامتها، في جــو موبــوء بلغات عدة ومحيط إسرائيلي محتلّ يعمل على إحباط كل ما هو عربي؛ ولذلك وضعت نصب أعينها العربية الفصحى ودعت إلى انتشارها على ألسنة القراء والكتاب، وبما أن الصحافة هي ملاذ كثير من الأخطاء اللغوية إلا أن صحيفة القدس تنبــهت إلى هــذه الحقيقة وعينت طواقم متخصصة تعمل ليل نهار على تنقية ما يرد إليها مــن مقــالات اجتماعية وسياسية وأدبية وتمحيصها وتخليصها من المصطلحات الأجنبية، والأخطــاء اللغوية، وتحقيقًا لهذه الفكرة سعت الصحيفة إلى خدمة العربية على مختلف الأصــعدة "فبادرت إلى حضور الندوات حول تعليم اللغة العربية في الجامعات الفلسطينية، تلــك الندوات التي شارك فيها كثير من أساتذة الجامعات، وقد أفردت صفحات منها لاطلاع المثقفين وغيرهم على كل ما يجري من نظريات ومناقشات وإبداعات واقتراحات".

وقد ساهمت في التقديم لكثير من الكتب والــدواوين الــشعرية فعرَفــت بهــا وبأصحابها وخصصت صفحة كاملة للثقافة لتفتح ذلك الباب أمام الإبداعات الشعرية والمقالات الأدبية للكتاب بشتى ميولهم واتجاهاتهم، وهذا لا يعني أنهــا تنــشر القــول الركيك المبتذل بل تعرض تلك الإنتاجات على الطواقم العلمية واللغويــة المتخصــصة

فتنشر ما تجيزه هذه الطواقم شريطة أن تكون مفيدة للعربية. وبذا فإني أقول : إن إسهام صحيفة القدس في خدمة اللغة العربية وقرائها يُعدّ ميزة خاصة تمتاز بها هذه الصحيفة الوطنية. كما خصصت الصحيفة كل يوم جمعة صفحة كاملة للثقافة الدينية لتحتضن المقالات الدينية وبأقلام كبار الكتاب في الوطن تُؤدَى بلغة عربية غنية بالألفاظ الأصيلة. وإذا كان للمعاصرة نصيب في صحيفة القدس إلا أنها لم تغفل عن الثوابت اللغوية الأصيلة في اللفظ والأسلوب.

٢- صحيفة الأيام:

وتأتي في المرتبة الثانية بعد صحيفة القدس من حيث الانتشار على الرغم من أنها حديثة النشأة، إذ لا يتجاوز عمرها بضع سنوات، وقد أفادت من أختها القدس مِنهاجها، وتبويبها، وطريقتها في عرض الخبر والمقال والفكرة. وتصدر ثلاثاء كل أسبوع ملحقًا ثقافيًا شاملاً لمقالات متخصصة في اللغة العربية وعلومها وشخصياتها مما يعود في النهاية بالفائدة للعربية وطرائقها في القول.

٣- صحيفة الحياة:

تأسست هذه الصحيفة سنة ألف وتسعمائة وخمس وتسعين، وتصدر بصورة يومية، وهي وإن كانت تعنى أول ما تعنى بالحدث السياسي كشأن أي صحيفة أخرى إلا أنها لا تغفل عن نشر مقالات للكتاب والقراء في الثقافة والأدب وغيرها مما يغني العربية ويساعد على تنميتها وتطورها.

* * *

وسائل الإعلام والفصحى المعاصرة(*)

للدكتور عبد العزيز عبد الله بن تركي السبيعي
(عضو المجمع المراسل)

إذا كانت اللغة العربية هي اللغة التي شرفها الله بالتنزيل السماوي، فإن واجب أهلها نحوها ينبغي أن يختلف عن واجب أهل أي لغة أخرى نحو لغتهم، إذ نقلت لغة التنزيل العربية من كونها لغة أدب يبدو في الشعر العربي القديم إلى لغة علم دقيق، لها مصطلحها القرآني، وأصبحت للعربية قدسية تاريخية جديدة بانتسابها إلى النص القرآني.

وإذا كان للعربية هذه المكانة بين أهلها، وهذه القدسية في تاريخها، وهذا الشرف بين اللغات الأخرى، فماذا صنعت بها وسائل الإعلام المعاصرة؟

يؤكد المراقبون أن وسائل الإعلام المعاصرة قد أصبحت أكثر تأثيرًا في حياة الإنسان وفي تشكيله الثقافي عما كانت عليه من قبل، إذ تنوعت هذه الوسائل، فبعد أن كانت في منتصف القرن الماضي تكاد لا تتعدى الإذاعة المسموعة، صارت في نهايته أكثر من أن يتسع لها وقت الإنسان ليتابع وسائلها الجديدة، من إذاعة مرئية ووسائل اتصال مختلفة، وفضائيات لا يحدها أحد، إلى شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت" وكل ذلك ربما لم يكن في بال أحد ممن شهدوا الإذاعة المرئية التي شاعت لدى من عاشوا في منتصف القرن العشرين.

وقد ترتب على ذلك الشيوع والتنوع ارتباط شديد بين الإنسان المعاصر وهذه الوسائل الإعلامية المتنوعة، بل لعلي لا أضيف جديدًا إذا قلت: إن هذا الارتباط بين

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الثالثة من جلسات مؤتمر المجمع، في دورته الثامنة والستين، يوم الثلاثاء الموافق ٢٦ من مارس سنة ٢٠٠٢م، ونشر البحث بمجلة المجمع، بالجزء الخامس والتسعين، ص ٨٧.

الإنسان ووسائل الإعلام وصل إلى حد المتابعة اللصيقة وذلك عبر شاشات الهواتف الجوالة التي صارت مكونًا أساسيًّا في الارتباط بين الإنسان ووسائل الإعلام، إذ يمكن للإنسان المعاصر أن يتابع أحداث العالم عبر هاتفه الجوال من خلال طلبه لخدمة الإنترنت في أي مكان في العالم، مما زاد من درجة الارتباط بين الإنسان ووسائل الإعلام المعاصرة.

لكن السؤال الآن هو: أين موقع الفصحى من هذه الوسائل الإعلامية؟ بعض الحقائق يمكنها أن تقربنا من الإجابة على هذا السؤال، بث الإذاعات العربية الفصحى وصل إلى ما نسبته ٨٢,٦٪ في المتوسط، بينما في التلفزة قلت هذه النسبة ووصلت إلى حوالي ٧٦٪[(١)].

وسوف يقتضينا ذلك إلى محاولة العودة إلى جذور الفصحى في وسائل الإعلام ذلك أن الصحافة التي انتشرت في بدايات القرن الماضي ونهايات القرن الذي سبقه "أواخر التاسع عشر وأوائل العشرين" في الوطن العربي قد اتخذت طريق الفصحى للوصول إلى جموع الأمة العربية الواحدة، و لم تكن أي من الصحف تستخدم العامية إلا على سبيل المزاح، و لم تستطع صحيفة واحدة تستخدم العامية أن تملك الانتشار والاستئثار بالقارئ العربي فترة طويلة، وذلك أن العامية في مصر تختلف عن عامية المغرب عن الشام وهكذا، فإذا جاز لصحيفة أن تستخدم العامية المتداولة في منشئها الذي تصدر منه، فإن قدرتها على الوصول إلى أقطار أخرى تصبح ضعيفة، ومما لاشك فيه أن العربية قادرة على الوصول إلى قطاع كبير من شعوب الأمة، وذلك لامتلاكها القدرة على دقة التعبير وسهولة التعبير بواسطتها عن الفكر الإنساني نظرًا لارتباطها بالقرآن الكريم.

---

(١) انظر: ياسر المالح: الفصحى والعامية في الإذاعة والتلفزة في الوطن العربي ص ٩.

أما العامية فهي لغة فوضوية، إذ لا قاعدة لها، وليس من منطقها ولا من طبيعتها أن تكون لها قاعدة، كما أنها لغة خليط: فبعضها فصيح أصيل عربي النسب، ولكن تغيرت مخارج حروفه أو لعبت به ألسن العوام فحرفته عن أصله، وأخرجته عن صورته... وبعضها غريب دخيل مازال في العربية راسبًا من رواسب لغات امتزج أهلها بالعرب في فترة من فترات التاريخ... مما جعل الباحثين يعتبرون العامية ليست صفة من صفات العربية كاللهجة، ولكنها لغة ثانية تعيش على حساب الفصحى وتزاحمها واحتلت مكانها على ألسن الكثيرين ويراد لها أن تحتل مكانها على الأقلام[1].

ومما لاشك فيه أن استخدام العامية في وسائل الإعلام يضعف الامتداد القومي للغة، بينما ينمي استخدام الفصحى من الارتباط القومي بين أبناء الأمة العربية والإسلامية أيضًا، وليس أسهل من استخدام الفصحى الميسرة لتصل الأهداف والأفكار إلى كل الطبقات الاجتماعية للشعوب العربية.

فعلى مستوى الإذاعة ومنذ انتشارها في بدايات القرن الماضي رصد كثيرون الدور الإيجابي للإذاعة في نشر الفصحى، فإذا كان العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته المعروفة يقرر أن السمع أبو الملكات، فإن سماع الجماهير العربية للإذاعة كان ذا دور كبير في المحافظة على العربية الفصحى خاصة بما امتلكته من يسر في المفردات، وصيغ في النطق بعيدة عن التقعر والصعوبة.. يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور عن ظهور الإذاعة التونسية سنة ١٩١٨م: "ولما شاعت أحاديث المذياع في أوساط الأميين كثر ورود الألفاظ والتراكيب الفصحى على أسماعهم فألفوها، وبذلك بدأت المفردات العامية تتناقص، والمفردات الفصحى تكثر، وصيغ النطق تعتدل حتى تطورت

(١) انظر: د. مازن المبارك: نحو وعي لغوي. ص ٤١- مؤسسة الرسالة. بيروت.

اللهجة العامية تطـــورًا عظيمًا، وذلك من أمتن دعائم الوحدة العربية الكاملة[١]" هذا وقد رأى الأستاذ الدكتور شوقي ضيف- الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقـــاهرة أن لوسائل الإعلام دورًا كبيرًا في مطاردة العامية وغزوها في عقر دارها مما جعـــل التقـــاء العامية والفصحى أمرًا قائمًا[٢].. رغم أنه يمكننا القول بأن الإذاعة كانت أسبق وسائل الإعلام في نشر الفصحى نظرًا لانتشارها وتمكن الشعوب العربية من التقاطها عبر الأثير مختلفة عن الصحف التي تحتاج إلى تعلم القراءة؛ الأمر الذي يجعل منها أمرًا عسيرًا لدى الجماهير التي كانت الأمية تنتشر فيها إلى وقت قريب.

أما الصحافة فإن دورها في نشر الفصحـــى كان كبيـــرًا؛ إذ عمدت الصحافة العربية التي انتشرت في بدايات القرن العشرين إلى استخدام لغة قريبة من أفهام الناس، فرغم أنها ابتعدت عن الفصحى المنتشرة في هذا الوقت والتي امتلأت بالسجع والـــتقعير واختيار حوشي الألفاظ للدلالة على التمكن من اللغة، فإن الصحافة لم تلجأ إلى العامية مقابل تركها للفصحى المنتشرة في هذا الوقت، لكنها لجأت إلى لغة وسط بين الفصحى واللهجة العامية حتى صارت تمتلك لغة بذاتها عدها بعضهم لغة ثالثة هي لغة الصحافة، إذ يسرت للناس بطبقاتهم الاجتماعية والفكرية تناول الموضوعات المختلفـــة المعـــاني، فدخلت الأفهام وحفرت لنفسها طريقًا إلى عامة الناس وخاصتهم، رغم أن المـــشتغلين بالعمل الصحفي في بدايات القرن الماضي كانوا مغامرين في عملهم اجتماعيًّـــا، كمـــا كانوا روادًا في هذه المهنة الجديدة على العالم العربي ومغامرين أيضًا بنحت هذه اللغـــة الجديدة؛ إذ كانت صورة وسائل الإعلام حتى الآن إيجابية، فإن ذلك لا ينكر أو يخفي الدور السلبي الذي صارت تؤديه بعض وسائل الإعلام في حق الفصحى المعاصرة، ولعل بروز هذا الدور يأتي بصورة معروفة عبر الفضائيات العربية التي زادت وانتـــشرت في

---

(١) انظر: د. زكي الجابر: من قضايا اللغة العربية المعاصرة.

(٢) انظر: د. محمد داود التنير: ألفاظ عامية فصيحة- دار الشرق- القاهرة مقدمة د. شوقي ضيف.

الآونة الأخيرة، فإن التلفزة في أول عهدها لم تكن تميل أبدًا إلى استخدام العامية في بث برامجها أو مسلسلاتها الدرامية، بينما بدأ هذا التوجه يزداد مؤخرًا، فهناك ما يزيد على ٢٤٪ من بث التلفزة العربية يتم بالعامية،كما أن الإذاعات المسموعة أيضًا تبث ما يزيد على ١٧,٤٪ من برامجها بالعامية... وينظر أهل الفصحى إلى هذا البث بالعامية على أنه اقتطاع من جسم الفصحى وكسب مساحات للفوضى اللغوية، وليس أدل على ذلك من أن الفصحى تجمع أبناء الوطن الواحد وتيسر فهم مصادر الفعل الثقافي العام، ولعل مثال "برنامج: افتح يا سمسم" التلفزيوني المعروف الذي أنتجته مؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك لدول الخليج يقربنا من هذه الحقيقة؛ إذ ثبت أن ٨٠٪ من أطفال ما قبل المدرسة يفهمون الفصحى الميسرة طبقًا لدراسة أجريت في عدد من الدول العربية، إذ يسهل عن طريق برنامج مثل هذا البرنامج أن توظف المفاهيم المجردة في أداء تمثيلي يساعد على فهم الطفولة للأفكار والمضامين المطلوبة لنموهم الفكري واتساع مداركهم العقلية.

إن دور وسائل الإعلام في الفصحى المعاصرة دور كبير يجب أن تحشد له الجهود ليكون هذا الدور إيجابيًّا في دعم لغة القرآن الكريم، ويجب أن يعيي المسئولون عن تلك الوسائل خطورة الانزلاق إلى العامية التي تفرق ولا تجمع.. وأمتنا في حاجة إلى التوحد أكثر من أي وقت مضى خصوصًا في عصر العولمة وما تواجهه اللغات من خطر الإبادة، فمن المفترض بداهة أن البشر جميعًا كانوا يتكلمون لغة واحدة في فجر التاريخ، ثم تفرقت هذه اللغة إلى لهجات وألسنة مع الوقت تبعًا لتفرق البشر شعوبًا وقبائل. وفي عصر العولمة وما ألقته من حواجز هل من البداهة أيضًا أن يعود البشر جميعًا لاستعمال لغة واحدة فقط في زمن أصبحوا فيه أكثر من ستة مليارات نسمة؟ هذا السؤال يتم طرحه ومجابهة ما ينطوي عليه من تحديات ونحن في زمن العولمة التي تحمل من

المتناقضات والمفارقات أكثر مما تحمل من الإجابات والحلول الحاسمة لمشاكل التطـــور الاجتماعي والثقافي.

وعلى سبيل المثال ففي حين تعمل آليات العولمة وقوانينها على إحياء الأقليـــات والجماعات الصغيرة التي استوعبت وهضمت حقوقها الثقافية واللغوية، فـــإن العولمـــة نفسها بآلياتها وتقنيتها ونظمها الثقافية تؤدي عمليًّا إلى إبادة مئات اللغـــات الـــصغيرة والكبيرة على حد سواء،وتدفع التطور العالمي في اتجاه اللغة الواحدة والثقافة الواحـــدة واللسان الواحد.

وبعـــبارة أخـــرى بينمـــا كانت الأقليات والفئات الصغيرة تطمح في عـــصر حقوق الإنسان وانهيار الدول المركبة، وانحسار مفهوم السيادة القوميـــة المطلقـــة إلى تنشيط وتطوير ثقافتها وهوياتها الخاصة والمحلية، نلاحظ أن العولمة تؤدي من ناحية ثانية إلى طمس هذه الهويات والخصائص الثقافية، وعلى رأسها جميعًا اللغات، الـــتي تمثـــل بالطبع الوعاء الأول للثقافة والمخزون التاريخي للتقاليد والمزايا والفنـــون والإبـــداعات والعناصر المميزة لها.

والمذهل فيما نعيشه من تحد لغوي أنه لا يقتصر على لغات الأقليات كالأكراد في تركيا، أو الأمازيغ في شمال أفريقيا، أو الباسك في إســـبانيا، أو الكورســـيكيين في فرنسا، أو الأيرلنديين في بريطانيا أو الشيشان في روسيا، بل إن هذا التحـــدي يجابـــه اللغات الحية والكبرى في هذا العصر، كالفرنسية والإسبانية والروسية والصينية واليابانية والعربية.

إن تقنيات العولمة وبرمجـــياتها تفتك بلا رحمة ولا ديمقراطية بكل هذه اللغات. ومن يتأمل قلق الفرنسيين على مستقبل لغتهم التي كانت بالأمس القريب تعـــد لغـــة الأدب والثقافة والفنون الأولى في العالم، يدرك ما يتهدد بقية اللغات لا الفرنسية فقط، فالفرنسيون لأنهم متقدمون وواعون بالخطر الداهم، أظهروا ردود أفعالهم، أما الأمـــم

الأخرى التي لم تظهر ردود أفعال مماثلة، فإنها سادرة في غفلتها ولا تعلم ما يحدث على المستوى العالمي ولا نبالغ إذا قلنا: إن العرب هم من هذه الأمم السادرة، لا يدرك معظمهم حجم التحديات التي تحيق بلغتهم التي كانت في الأصل وقبل ثورة العولمة والمعلوماتية الأخيرة تتراجع وتتخلف في جميع البلدان العربية تقريبًا بطريقة تهددها بالانكماش والتقلص والتقعر، ثم جاءت الثورة المذكورة لتدمر المزيد من إمكاناتها الفنية، وطاقتها الاستيعابية لمعطيات الحضارة الحديثة ومسايرة التقدم الثقافي والعلمي واللساني.

وحسب الأرقام الدولية الرسمية فإن ٩٠٪ من العناصر التي تتحرك في شبكة الإنترنت هي بالإنجليزية وحدها، و٨٥٪ من الاتصالات الدولية عبر الهاتف تتم بالإنجليزية أيضًا، وأكثر من ٧٠٪ من الأفلام التليفزيونية والسينمائية بالإنجليزية، و٦٥ من برامج الإذاعات في كل العالم بالإنجليزية.

وأمام هذا الهجوم اللغوي الإنجليزي وما يتبعه من عناصر ثقافية وفكرية، فإن دولاً عملاقة كاليابان والصين توقفت عن استخدام لغاتها في صناعة البرمجيات؛ لأنها لا تستطيع المنافسة وتحولت إلى الإنجليزية، وكذلك فرنسا.

إن الهجوم اللغوي قد لا يختلف في نتائجه الثقافية عن هجوم نووي؛ لأنه سيبيد آلاف اللغات المحلية التي ازدهرت ونمت عبر آلاف السنين لتخلق حديقة عالمية متنوعة وغنية بالثقافة واللغات المتعددة، ويحول العالم المتزايد حجمًا واتساعًا إلى صحراء ثقافية قاحلة وطابور واحد.

هل يؤدي التقدم الفني والعلمي إلى تخلف ثقافي[١]؟ وهل تؤدي ثورات الديمقراطية والعولمة والتجارة الحرة والانفتاح إلى ديكتاتورية ثقافية أشد ضررًا وخطرًا من عصر العصف الثقافي إبان التوسع الاستعماري؟

---

(١) انظر: مقالة الأستاذ محمد خليفة في جريدة الراية القطرية، عددها رقم ٦٨٨٢ مارس ٢٠٠١م.

المواجهة بدأت لا محالة فأين عتادنا نحن العرب في هذه المواجهة غير المتكافئة؟

إن التنمية العلمية والتكنولوجية، تتأثر إلى حد بعيد بالنمو الكمي والنوعي في أدوات الاتصال والإعلام سواء أكان بالنسبة لطاقة البحث وتداول واستخدام المعلومات العلمية والتقنية الموجهة إلى الإخصائيين، والتي تنقل التراث والمعارف المكتسبة،أم بالنسبة لتوعية عامة الجماهير وازدهار الثقافة العلمية والتقنية.

فلتكن جولاتنا القادمة مركزة بشدة في دعم لغتنا وزيادة وعمق البحوث والدراسات التي تتناول قضايا الشبكات وبنوك المعلومات وخدمات الإنترنت ولغات التداول ووسائل الاتصال المختلفة.

ولتكن لقاءاتنا بزخم أشد كثافة ومؤتمراتنا حول تدارس هذه القضايا، فليس هناك أخطر على الأمة من أن تظل على هامش العالم ويظل سكانها محرومين من فرص الاتصال والتفاعل.

والمؤكد كذلك أن التعبير الثقافي الفردي والجماعي مرتبط ارتباطًا وثيقًا بتنمية الصناعات الثقافية، وهي الوسائل المفضلة لنشر الإنتاج الفكري والمصنفات، وهي تشكل في الوقت ذاته أدوات إبداع مما ييسر مع الازدهار سرعة التبادل وسهولته كما يتيح مضاعفة المبادلات الثقافية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

وسائل الإعلام بين العامية والعجمة(*)

للدكتور يوسف عز الدين
(عضو المجمع المراسل)

أولاً: الخطاب الإعلامي وأثره السلبي في التنمية اللغوية المعاصرة:

تتهم اللغة العربية بالجمود والعقم، وعدم استيعابها للعلوم الصرفة الحديثة والفلسفة الغربية ومصطلحات الاختراعات والاكتشافات المتطورة التي تغمر العالم.

اتهاماتهم يكذبها واقع العربية في ماضيها الطويل وحاضرها المتطور، فقد استوعبت ثقافات متعددة وحضارات متباينة وصهرتها في أساليبها المرنة وقابليتها الكبيرة، فقد احتوت حضارة اليونان والفرس والرومان والهند، وها هي اليوم لاتعجز عن احتواء العلوم الحديثة وفنونها ومصطلحاتها بكل يسر وسهولة، مع قصر عمر تطورها الحضاري؛ إذ إنها بدأت بصورة جادة في زمن محمد علي باشا، فقد ترجمت عددًا كبيرًا من كتب الغرب، ووضعت المصطلحات الكثيرة، فهو عمر قصير في هذا المضمار الحضاري، وقد وضع عدد من المعجمات في مختلف العلوم والفنون، وكانت مصر الرائدة، و لم تقف المجامع في الشام والعراق والأردن والمغرب وتونس عن هذا التطور اللغوي، والحس الحضاري، فقد طبع في القاهرة أول معجم للطلاب بعدة لغات باسم (كتاب أنيس المشرحين في علم الطب)[1] لتسهيل فهم اللغات الأجنبية على الطلاب، بل إن القائمين على التدريس استوردوا المعجم من الهند، قبل أن تعود البعوث من أوربا؛ إذ كانت فيها كلية طب تدرس باللغة العربية في مدينة كلكتة.

ولولا غزو نابليون ثم الاستعمار الإنجليزي، الذي فرض فيه كرومر اللغة الإنجليزية، لكانت مصر قد قطعت شوطًا كبيرًا في نموها وتطورها التقني والعلمي

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة السابعة من جلسات مؤتمر المجمع في دورته السبعين، يوم السبت الموافق ٢٧ من مارس سنة ٢٠٠٤م، ونشر بمجلة المجمع بالجزء الثاني بعد المئة، ص ١٣٥.

(١) موجود في دار الكتب المصرية(١٠)"طب"، ألقيت عنه بحثًا في الدورة التاسعة والستين ٢٤ مارس٢٠٠٣م

والحضاري، وقد ثبت أن مصر أول من اعتنت بالتنمية اللغوية وإثرائها وبخاصة بعد البعوث من أوربا[١] وكانت حركة الترجمة أهم ينابيع التنمية اللغوية، يساعدها على النشر مجلة (روضة المدارس) و(يعسوب الطب) التي كانت تختار أهم المقالات في الطب، وتترجمها إلى اللغة العربية بأسلوب سهل وعبارة عربية سليمة، ولأن المشرفين على هذه الحركة كانوا من علماء الأزهر.

وبالرغم من فرض الفرنسية والإنجليزية فقد نمت اللغة العربية وتطورت تطورًا كبيرًا في شعر الشعراء ونثر الكتاب، وابتعدت عن المحسنات اللفظية كالجناس والتورية والمجاز، ورد الصدر على العجز، والسجع الذي كان حلية الكتاب التي يفاخرون بها ويتألمون إذا لم يفهم هذا السجع، فقد قال أبو الثناء الألوسي عند سفره إلى "أستانبول" ومروره بديار بكر:

وإني مللت السجعَ من أجلِ أنه ... لمعظم أهل الروم قد كسد السجعُ
وكم فقرةٍ قد أحكَمَتْهَا قريحتي ... تلوت بأرجاها فما ساغها سمعُ

ولم نعد نرى كلمات ذات جرس أو وجود ألفاظ غير مأنوسة بل سخر الشعراء من هذه الكلمات، فقد قال صفي الدين الحلي:

إنَّمَا الحَيْزَبونُ والدَّرْدبيسُ ... والطَّخا والنّقَاخُ والعَطْلَبيسُ
لُغَةٌ تَنْفِرُ المَسَامِعُ مِنْها ... حينَ تُرْوَى وتَشْمَئِزُّ النّفوسُ[٢]

لأن أدباء هذا العصر طوروا اللغة باستعمال الكلمات المأنوسة، ويمكن البرهنة على ذلك بمقارنة أدب الأدباء، مثل محمد عثمان جلال، وعلي مبارك، وعبد الله أبي المسعود، مع شعر البارودي وشوقي وإسماعيل صبري، ثم بعدهم جيل طه حسين والزيات والمنفلوطي والرافعي في مصر، والرصافي والشبيبي والكاظمي في العراق،

---

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عهد محمد علي، لجمال الدين الشيال .

(٢) الحيزبون: العجوز ، الدردبيس: الداهي والشيخ ، الطخا: السحاب المرتفع، و النقاخ: الماء البارد.

ومقارنة نثر صحيفة الأهرام في القاهرة، ونثر صحيفة الزوراء في بغداد، وبعدها الهلال والمقتطف، نجد اليسر والسهولة في العبارة التي تعنى بالمعاني قبل العناية بالألفاظ أي العناية بالمضمون أكثر من العناية بالإطار اللغوي، وكانت المحاضرات تلقى في الأزهر ودار العلوم ثم الجامعة الأهلية والندوات العامة بالعربية الفصحى ولما جاءت المخترعات الحديثة كالقطار والحافلة (الترام) والساعة دخلت في شعرهم، وبعضهم استعمل الكلمات الأجنبية، إذ لم تكن قد عربت هذه المخترعات. فقد قال البارودي:

لقد نعَب (الوابور) بالبين بينهمْ   فساروا ولا زمُّوا جِمالاً ولا شَدُّوا

كما دخلت في الشعر كلمات أجنبية، مثل (أفندي) و(التنك) و(براندي)، وقد استعمل شوقي بعض هذه الكلمات، بمثل قوله:

بطل البداوة لم يكن يغزو على   (تنك) ولم يك يركب الأجواء

واستعمل في شعره (افرلند) و(البايب) والبرلمان وغيرها مما تحتاج إليه المناسبة وتفرضها الدقة.

وفي العراق استعمل معروف الرصافي كلمة (أوتوموبيل) قبل أن تعرب إلى سيارة، و(عربية) في القاهرة، فقال:

(بتوموبيل) جرى في الأرض منسرحًا   كما جرى الماءُ في سفحِ الأهاضيبِ

ينسابُ مثل انسيابِ الأيمِ تحملُهُ   عواملُ عجلات في دواليبِ

كأنها وهي بالمطاط منعلة   تسعى بأخفاف أنواق مطاليب

وله قصيدة في الساعة والقطار، وذكر الشعر (التلغراف) .ونظم الزهاوي في علم الفلك، إضافة إلى أحمد الكاشف، وحافظ إبراهيم، وتسربت الفلسفة الجديدة والآراء العلمية، مثل نظرية أنشتاين، وجميس جيز، وديكارت، وسمي العصر عصر البخار، عندما حرك القطار والمراكب البخارية، حتى قال الرصافي:

تعاليت يا عصر البخار مفضلاً   على كل عصر أهله قد قضى نحبا

واندهش إبراهيم الطبطبائي عندما رأى الحافلة (الترام) فقال:

كيف تنقاد قلعة من حديد   أو حديد ينساب فوق حديد؟!

لأن وسائل الإعلام كانت تنشر أخبار هذه المخترعات والاكتشافات، وتنشر الآراء العلمية والفلسفية الجديدة في الصحف والمجلات وتصفها.

وقد تعددت الآن وسائل الإعلام وتنوعت، وأخذت تدخل في كل زاوية من زوايا المجتمع بعد أن جاء الإنترنت وتطور التلفاز والمجلات والصحف، بعد أن كانت وسائل الإعلام محدودة المساحة الاجتماعية والفكرية، والآن لوسائل الإعلام دراسات جادة في علم النفس والهندسة وعلم الاجتماع والسياسة العامة والاقتصاد، وقد خصص لها كليات متعددة، ثم بنيت لها مدينة واسعة لتكون أكثر بعدًا وأعمق أثرًا في حياة المجتمع المعاصر وتوجهه، كما يريد القائمون عليها.

ثانيًا: تسرب العامية إلى وسائل الإعلام:

أما الخطر الثاني الذي يهدد اللغة الفصحى ويتحداها، فهو استعمال العامية بصورة ظاهرة ومستمرة ليلاً ونهارًا وفي جميع وسائل الإعلام العربية وأبرزها المسرحيات والمسلسلات، وزاد الطين بلة ما تنشره الصحف والمجلات من صفحات بالعامية، وقد تسربت هذه الظاهرة إلى مجلات الأطفال التي تصدرها وزارة الثقافة، وكان حريًّا بها - وهي في بلد يحرس العربية ويحافظ عليها - أن تصدر بالفصحى السليمة، ومما يؤسف له أن بعض وسائل الإعلام تصر على التحدث بها حتى في الأخبار وتعمد الإمالة وكسر اللفظ وتحريفه فيقول عن القدس (الأدس) وعن الأرقام (الأرآم)، وقلب التاء إلى سين وغير ذلك من الكلمات التي تسمعونها كل يوم، وكان العرب قبل ذلك يؤلمهم اللحن في الكلمة الواحدة. وقد عدّ الرسول الكريم اللحن ضلالاً، عندما سمع رجلاً يلحن،

فقال صلوات الله عليه: "أرشدوا أخاكم فقد ضل"، وحرصًا على الفصحى تتبع العلماء اللحن عند العامة وسجلوه، لكي يكون محدودًا ومعروفًا، مثل: علي بن حمزة الكسائي في كتابه (ما تلحن به العامة)، وألف الزبيدي في لحن العامة، وفي الأندلس ألف ابن هشام اللخمي عن لحن العامة، ولما انتشرت في العصر الحديث ظاهرة الابتعاد عن العربية، ألفَّ اليازجي وكمال إبراهيم عن الأغلاط، وألف مصطفى جواد كتابًا باسم (قل ولا تقل) وغيرهم من الكتاب الأفاضل.

إن الدعوة إلى العامية يراد بها صرف العرب عن لغتهم، وجعل الفصحى لغات متعددة، وقد وضعوا نصب أعينهم ما يقوله الأجانب عن اللغة اللاتينية وتفرعها إلى لغات متعددة، ولهذا عندما سيطر الغرب على مقدرات الوطن العربي أراد تطبيق ذلك ففي مصر فرض كرومر الإنجليزية، وماقام به وليم ولكوكس مثله؛ فقد وادعى أن الفصحى هي السبب المؤثر في تأخر المصريين، وكان يغري الناس بالكتابة بالعامية فقد نشر في مجلة الأزهر إعلانًا قال فيه: "من قدّم لنا هذه الخطبة باللغة المصرية الدارجة، وكانت موافقة جدًّا يكافأ بأربعة جنيهات إفرنكية" ويدلل على ترجيح العامية بما حدث في بلاده، وقال إن اللغة الإنجليزية أجهزت على اللاتينية، فيجب أن تقضي العامية المصرية على الفصحى حتى يقدر المصريون على الاختراع، وادعى أن "الهكسوس" هم الذين جاؤوا بالعربية لأن العربية لاتعرف النفي المزدوج مثل ما عملتش.

ولقطع الصلة بين تراث الأمة وحاضرها ألف "وليم سبيتا" الألماني كتابًا سماه (اللهجة العامية الحديثة في مصر)، وكان يكتب رسائله بها ولا لوم عليهم؛ لأن العربية تجمع العرب وتهدد خططهم الاستعمارية؛ ولكن الغريب مساندتها من كتاب في العالم العربي، مثل: سلامة موسى، ويعقوب صروف صاحب المقتطف، وأحمد لطفي السيد، الذي زعم أن الفصحى فقيرة في المعارف والمصطلحات، وأن استعمال العامية سيخرج

الفصحى من الضعف، ونسي أن العامية أصلها الفصحى، وقد برهن الزميل الفاضل الدكتور أمين السيد في بحوثه المستمرة التي يقدمها كل سنة - في اجتماع المجمع السنوي - على ذلك عندما أحصى الكلمات العامية الموجودة في المعجم الوسيط وكانت من الكثرة التي دعت أستاذنا محمد عبد السلام هارون إلى التخلص من جزء منها، كما قال لي — رحمه الله - وبالفعل وجدت هناك كلمات عامية مصرية لا تستعمل عندنا مثل: كتكوت، نسميه في العراق (فرخ)، وتقاوي، ونسميها (البذور)، وقلاوز، وتسمى بالعامية العراقية (برغي)، والقماش ونسميه في العراق (البزاز)، وغيرها من الكلمات وهي كثيرة، وفات هؤلاء الكتاب العرب أن العامية سوف تقسم العرب إلى لغات، وسوف يخسر هؤلاء الكثير عندما يكتبون بها، وسوف تكون كتبهم محدودة بمصر، إضافة إلى ضياع تراث عمره أربعة عشر قرنًا، وهل سوف يؤلفون كتبًا بلهجة الصعيد، وأخرى بلهجة أهل القاهرة؟ ورحم الله حافظ إبراهيم فقد شعر بذلك الخطر، فقال - عن قابلية اللغة العربية واستيعابها الحضارة القديمة، ومسايرتها للاختراعات الجديدة:

وَسِعْتُ كتابَ الله لفظًا غاية ... وما ضِقْتُ عن آيٍ بهِ وَعِظات
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ ... وتنسيق أسماءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ
سَرَتْ لَوْثَةُ الإفِرنجِ فيها كما سَرَتْ ... لُعَابُ الأفاعي في مَسيلِ فُرَاتِ

وفات هؤلاء في مقارنتهم اللاتينية باللغة العربية أن هناك هوة بين هاتين اللغتين، واتسعت هذه الهوة حتى بين اللغة التي وضعها "جوسر" واللغة الإنجليزية اليوم بل الهوة موجودة بين لغة شكسبير وحاضر الإنجليزية، وليست هذه المسافة كبيرة بين لغة العرب قبل الإسلام ولغتنا الحاضرة، برغم مرور أربعة عشر قرنًا على العربية، وقيل ذلك في اللغات الأوربية في لغة جوته، وراسين، وبودلير، ولغاتهم المعاصرة.

إن الجهود التي يبذلها المجمع والأزهر والجامعات في سبيل الفصحى مهددة اليوم بحرص أولياء الطلاب العرب على دفع أولادهم إلى اللغات الأجنبية، وهو عمل يضيع الهوية العربية الإسلامية.

إن استعمال العامية يراد به تحول العقلية العربية المشتركة إلى عقلية قطرية وقتل الوعي الإسلامي، لأن تهميش الفصحى سوف يبعد العرب عن تراثهم الأصيل وحضارتهم العريقة .

ليست العربية الفصحى لغة حديث وكتابة فقط، وإنما هي لغة حضارة وأدب وماضٍ تقف عليها كل الشعوب العربية، وتوثق الشعوب الإسلامية برباط قوي من التراث والحضارة، وهم يريدون التفرقة لخلق شعوب وأمم متعددة لا أمة واحدة تزحم حضارتهم وتفوقهم.

ثالثا– تسرب اللغة الأجنبية إلى وسائل الإعلام:

إن تنافذ الحضارة ضرورة حتمية، ومعنى التنافذ كما قال الفيروز آبادي: النفاذ: جواز الشيء والخلوص منه، ونفذ القوم: صار منهم، والوسيط يقول: أَنْفَذَ القَومَ: خرقهم ومشى وسطهم. لهذا فاللغات والثقافات والحضارات المختلفة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعالم وما فيه من تطور وتجديد. بيد أن الأمم العريقة في حضارتها الواعية بالثوابت الفكرية والجذور الأصلية هي التي تحتوي الجديد وتحافظ على أصالتها ومتانة جذورها، فقد استعمرت الدول الأوربية الوطن العربي ونشرت لغاتها ورعت المتكلمين بها بعناية كبيرة، لكن اللغة العربية بقيت حية و لم تندثر كما اندثرت لغات كثيرة.

ثم جاء العصر الحديث ومعه الاستثمار والاقتصاد وبراعة الآلات وقوة الشركات التي وفدت إلى بلادنا، واحتاجت إلى أيدٍ عاملة وإدارة فاعلة لهذه الشركات، وكان شبابنا بحاجة إلى العمل فيها، فسارعوا إلى تعلم اللغة الأجنبية للاستفادة من فرص العمل المتاحة التي تفرضها متطلبات العمل فيها بعد أن سيطرت الرأسمالية بقوة على السوق،

ولست ضد تعلم اللغات الأجنبية، وقد درسناها وعايشناها واحتويناها دون أن نبـــهر بتطورها وحياتها المادية؛ لأننا تعلمناها بعد أن استوت لغتنا على سوقها وقويت الثوابت بجذورها في عقولنا.

إن بعض الدول تحافظ على لغتها وتسن القوانين لمنع استعمال غير لغتها، ومنها فرنسا التي تمارس التطهير العرقي بصراحة. فإن وزير الثقافة الفرنـــسي جـــاك توبـــون والدولة الفرنسية، حذرت وسائل الإعلام من استعمال غير الفرنسية، ووضعت غرامات لمن لا يتقيد بهذا الأمر، والعرب عاكفون على ترجيح اللغة الأجنبية. فالمرأة لاترضى أن تقول إنها ذهبت إلى الحلاق أو المزين، وتقول إنها ذهبت إلى الكـــوافير، إنـــه شـــعور بالنقص واستعلاء على اللغة.

إن الأمة الحية المعتزة بنفسها تستعمل لغتها، فقد قيض لي أن أجلس مع "شـــون لاى" رئيس وزراء الصين في بكين، وكان يتحدث معي باللغة الصينية: فقلت لـــه يـــا سيادة الرئيس أنت تعرف الفرنسية والإنجليزية فلماذا لا تتحدث بها؟ فضحك واستمر يحدثني باللغة الصينية، إنه إنسان يحس بمكانة لغته ويعتز بها ويثق بنفسه، وها نحن اليوم لم نكتف باستعمال اللغات الأجنبية في القضايا التي تفرض علينا الحـــديث بهـــا، إنمـــا للشعور بالنقص صرنا نستعملها في أمور تافهة، ومن الطريف أن أحد العراقيين أراد أن يشعر الجالسين بعلو مكانته، فقال: لقد كنا في لندن نـــشرب الـــشاي مـــع الملـــك (MILK).

لا ضير أن تتحدث باللغة الأجنبية إذا كان الحضور أجانب، ولكن الخطـــر أن تستعمل هذه اللغة في وسائل الإعلام، وبخاصة إذا أهملت الكلمات العربية التي تعطـــي المعنى نفسه، فقد أرى وأسمع في وسائل الإعلام (مِرْسِي، وطابور، وباي باي، وأوكي، والمارثون) وهل هناك أجمل من (شكرًا، وصف، ومع الـــسلامة، وحـــسنًا، وســـباق الضاحية)، وأشد من هذا مرارة انتشار الإنجليزية في لعبة كرة القدم، فالزاوية كـــورنر،

والهدف جول، والمبارة ماتش وغيرها مما نعرف، ولعل الغريب أننا نستعمل كلمة (كَبْل) للسلك، وهي كلمة عربية أصلها "الحبل"، وقد أراد أهل العراق تعريبها "فقالوا" (قابلو) وجمعها (قابلوات) مع أن كلمة الأسلاك أجمل وأخف ولعل من المؤسف أن تنتشر اللغات الأجنبية في كل مكان، مثل: التليفون للهاتف، واليوبيل للعيد، والبوسطة للبريد، والراديو للمذياع، والجورنال للجريدة، والأرشيف للسجلات أو الوثائق، ولوكندة للفندق، والكوبري للجسر.

وقد بذل المجمع جهدًا كبيرًا وعرب مثل هذه الألفاظ، كما استوعبت الفصحى بعض الكلمات الأجنبية، مثل: القرصان، والطماطم، والأوطة، وقفطان وغيرها، وقد أحصاها الزميل الفاضل الدكتور أمين السيد في البحوث التي يقدمها كل سنة في المؤتمرات عندما درس العامية الموجودة في الوسيط. لكن الظاهرة المؤسفة والمؤلمة كتابة الأسماء الأجنبية والعناوين الغربية بالحروف العربية، فقد سألني سائل قائلاً: ما معنى (استرن بك ليمتد بصره) ولما سألته أين وجد هذه العبارة؟ فقال على المصرف. فقد وضع اسمه بالإنجليزية ورسمه بالحرف العربي، فقلت له إنه (استرن بنك ليمتد – بصرة) Eastern Bank Limited – Basra.

وقد انتشرت هذه الأيام في جميع أنحاء الوطن العربي، فهو يضع المضاف إليه قبل المضاف في أسماء الفنادق الغربية وهو يكتبها باللغة العربية.

أخيرًا إن الجهود التي تبذلها المجامع العربية وما يبذله مجمع اللغة العربية في القاهرة بكل إخلاص برئاسته ولجانه وموظفيه تهدر؛ لأنها لا تعمم على الناس ولا تخرج إلى حيز التنفيذ لقلة الموارد المالية، فمن الضروري أن ترسل هذه الأبحاث والتوصيات إلى جميع أنحاء الوطن العربي، ليطَّلع عليها آلاف الناس، ولكن القدرة المالية المحدودة لا تقدر على إرسالها حتى للأعضاء، وتلك عوائق ليست سهلة، يعاني منها كل المجامع في الوطن العربي ولهذا تحفظ في الأدراج ولعدد محدود؛ بذلك تكون فائدتها محدودة الأثر.

بعض المصادر والمراجع والكتب

- البارودي رائد الشعر الحديث: شوقي ضيف.

- تاريخ الترجمة والحركة الفكرية في عهد محمد علي: جمال الدين الشيال.

- الحركة الفكرية في العراق: يوسف عز الدين.

- ديوان حافظ إبراهيم.

- ديوان الحلي: صفي الدين.

- ديوان الرصافي: معروف عبد الغني.

- ديوان الطباطبائي: إبراهيم.

- ديوان شوقي (الشوقيات): أحمد شوقي.

- غرائب الاغتراب: أبو الثناء الألوسي.

- فصول في الأدب العربي الحديث والنقد : يوسف عز الدين.

- الفصحى في مواجهة التحديات: نذير محمود كتبي.

- معجم (أنيس المشرحين): خليفة عبد اللطيف.

الدوريات:

- جريدة الأهرام.

- روضة المدارس.

- جريدة الزوراء.

- يعسوب الطب.

البحوث:

- العامي والفصيح في المعجم الوسيط: أ.د أمين علي السيد – الدورة ٦٩ من دورات المجمع.

تعريب العامية في وسائل الإعلام وتحريفات العامية للفحصى

للدكتور يوسف عز الدين
(عضو المجمع)

قد يكون هذا القول غريبا أن يقدم في مجمع اللغة العربية الذي يبذل جهدا كبيرا في اجتماعاته في سبيل دعم اللغة الفصحى ونشرها في وسائل الأعلام ومحاولاتــه الجــادة في ضوابط التصويب اللغوي باقتراحاته المخلصة لعلاج الأخطاء والانحراف اللغوي في هــذه الوسائل.

وقد سبقنا السلف الصالح في تأليف الكتب المتعددة، للتخلص من اللحن، والحفاظ على سلامة الفصحى وأصالتها، بعد أن شابت لغة البدوي العربي الشوائب عندما احتــكَّ بالحضارات المتعددة، وسكن المدن وتمرس بالكلمات الجديدة، عندما أســلمت مختلــف الشعوب، واحتاجت إلى دراسة القران الكريم، لفهم الدين.. لأن الفصحى كانــت لغــة العلوم والآداب والفنون، وأنها لغة العرب، حملة العقيدة الجديدة، ومن الضروري صــيانتها من اللحن والخطأ، فقد قال أستاذنا شوقي ضيف: أخذ لحن العوام في النطــق بكلمــات العربية يتكاثر منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة.

مما دفع الكسائي أن يؤلف كتابه "ما تلحن فيه العوام" لكي يصلحوا ما حــدث في ألسنتهم من تحريف الكلام الفصيح، وقد توالت كتب إصلاح لغة العامة، مثل "إصــلاح المنطق" لابن السكيت، وكتاب "الفصيح" لثعلب و"لحن العوام بالأندلس" للزبيدي وآخرها كتاب أستاذنا الدكتور شوقي ضيف "تحريفات العامية للفــصحى في القواعــد والبنيــان والحروف والحركات" المطبوع في دار المعارف في القاهرة دون تاريخ، وقد كتب بأسلوب عملي تطبيقي، وبدراسة واسعة وجوانب متعددة، مثل: إهمال الإعراب وتحريف الأفعــال والمشتقات والأسس المبنية والضمائر وهيئة الكلمات وإبدال الحروف والكلمات، وبــذلك

سهل على طالب العلم والباحث الاستفادة من الموضوع ووضع قائمة الألفـــاظ العاميـــة المحرفة في مصر مع أصلها في الفصحى، فدعاني ذلك إلى كتابه هذا المقال، آملا أن أجـــد باحثا صبورا كصبر أستاذنا لجمع الكلمات الأجنبية في عامية الأقطار العربيـــة الأخـــرى، لتضاف إلى هذا الجهد الممتاز الذي قام به أستاذنا، بعد أن أخذت العامية المتفرنجة في جميع وسائل الأعلام المعاصر تؤثر بوضوح في الناس، لأنها تكرر كل يوم ليسمعها الطفل واليافع والمفكر، في المدرسة والمعهد والجامعة والشارع.

ودخلت العامية في تدريس النحو والصرف وشرح القواعد اللغوية، وأصبح تدريس العلوم الصرفة بالعامية والأجنبية عادة المدارس، لأن العامية تمكنت من العـــربي ودخلـــت اللاشعور (Subconscious) كما يقول علماء النفس، ومتى ثبتت الكلمة في اللاوعي فليس من السهولة التخلص منها إلا بعد توعية مستمرة وتكرار دائـــم، لأن التكـــرار والتوعيـــة سبيلان مضمونان في التصويب والابتعاد عن الخطأ، فقد كنت اسمع وأنـــا طفـــل كلمـــة "طرابيل" وهي تحريف الكلمة الإنكليزية (Automobile) والريل (Rail) ولكـــن الجيـــل الجديد غيّرَ هذه الكلمات بالتوعية، إلى السيارة والقطار، ونسيت الكلمات الأجنبية. ولكن ما تزال الكلمات الأجنبية تستعمل على لسان العامة في العراق، مثـــل: للخـــادم (Boy) وكلاس (Glass) وريسس (Race) لسباق الخيل، حتى حسب العامة أن كلمـــة "ريـــس" عربية، ومن الظريف أن أحد الأساتذة من مصر قال للسائق خذني إلى السبق فلم يفهـــم السائق الكلمة، ولما شرح المقصود، قال له تكلم العربية وقل "ريس" يا أخي.

الفصحى لغة ثانية:

إن تطهير العامية وإعادتها إلى أصلها خطوة ضرورة تساعد على صفاء اللغة وإعادتها إلى أصولها الفصيحة إضافة إلى أن الفصحى غدت معضلة عند المتعلمين، فدراسة العاميـــة وتنقيتها من الشوائب الأجنبية خطوة كبيرة، يجب أن تسير مع إصلاح اللّحن لتقربها مـــن

الفصحى، بعد أن أصبحت الفصحى لغة ثانية، لأن اللغة من صنع الإنسان وابتكاره كما يقول علماء النفس، وهي التي تميزه عن الحيوان وهو القادر على الاستفادة منها وتطويعها في التعبير عن حاجاته اليومية أو العلمية والثقافية والفنية فيجب العناية بها.

تحريفات العامية

أحسن الدكتور شوقي ضيف عندما ضبط تحريفات العامية المصرية ووضع الأسس القويمة التي تعيدها إلى الفصحى، ونريد باحثا يعرّب العامية لإكمال الجهد الكبير الذي قام به أستاذنا بعد انتشرت هذه العامية المشابة بالأجنبية في وسائل الإعلام. ونحن اليوم نجد تراكمات كبيرة أدمت اللغة وكادت لا تفهم اليوم في القطر الذي فيه، بل هناك فرق بين أهل الشمال والجنوب في بعض الأقطار العربية.

ولا أوافق الذين يقولون إن استعمال الفصحى سيكون بعيدا عن فهم العامة، لأنهم يحفظون القرآن الكريم، ويرتلونه، وبعضهم لا يعرف القراءة والكتابة، ويفهمون المسرحيات بالغة الفصحى بسهولة ويسر. .. ومن الضروري الإسراع في تعريب الآلات الجديدة، كالإنترنت والحاسب الآلي ومصطلحات العلوم والمخترعات الحديثة، حتى تدخل في حديث الناس سليمة، فقد نجح العراق في تعريب أدوات السيارات، وأخذ الجنود في استعمالها بسهولة تثير الإعجاب، واستعمل العربي المصطلحات الأجنبية منها، واشتق الفعل منها، فيقول (كوندشن وكندش الدار، وما كندشت البيت، مع أن كلمة التكييف أسهل وأرق ولو أن وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والصحف والمجلات استعملت الكلمات العربية لتغيرت وتطورت اللغة العامية وتقدمت نحو الفصحى بيسر، لأن انتشار الثقافة العربية أهم أسباب هذا التطور. فإذا قرأنا "جريدة الأهرام" و"جريدة الزوراء" في بغداد" في الأعداد الأولى لوجدنا التطور الواضح في الأسلوب، وفي استعمال الكلمات السليمة والألفاظ الفصيحة، ومع تقدم العربية نجد كلمات في اللغة، مثل (كوبري، وطابور، وترابيزة، وأتيليه، والكنترول، وكادر، واستمارة، وفشنك، وكرافات، وكوافير، وأبله،

وترزي). إذ أصبحت جزءا من الحياة العامية، واكتسبت الترفع والطبقية فلا ترضى السيدة أن تقول ذهبت إلى الحلاق، لأن الكلمة مرتبطة بالبلدي، وتقول ذهبت للكوافير. وفيه الإذاعة المرئية للأطفال، كلمة (باي باي) للأطفال مع إن (مع السلامة) أجمل وأرق، واستعمال (هبي برث دي)، وتتردد كل يوم كلمات (مرسي وأفندم) بل دخلت الأسماء الأجنبية في أسماء المواقع التي لا يمكن التخلص منها، مثل (الزمالك وبولاق والموسكي وكاردن سيتي).

أما في العراق فقد خلف **العصر العثماني** عددا من الكلمات ثم جاء **الاحتلال الإنكليزى**، وترك كلماته في العامية العراقية مع **العثمانية والفارسية**، مثل (جول) للبرد، (الشماغ) لغطاء الرأس، و(تيغة) للجدار غير السميك، و(قربولة) للسرير، ومثلة (جرباية) و(اسكملي) للكرسي، و(جطل) للشوكة، و(ميز) للمنضدة، و(خاشوكة) للملعقة، و(قشلة) للقلعة، و(چرچف) للغطاء، ومن الإنكليزية (Wagon) عربة، وطاولة (Table) و(دريور) Driver للسائق و(كار) Car للسيارة و(التاير) Tyre لإطار السيارة وغيرها. وفي المملكة السعودية (وايت) للسيارة التي تحمل الماء، و(كوت) للسترة، و (بوك) للكتاب، وشارع (الكباري)، وكثر استعمال (أوكي) بصورة كبيرة، وظهر الاختلاف بين العامية في الأقطار العربية، ومن الأمثلة على هذا الاختلاف:

في ليبيا	في العراق	في مصر	في الملكة السعودية
كاشيك	خاشوكة	معلقة	ملعقة
كوشة	تنور	فرن	مخبز
زرعية	حب	لب	فصفص
كاكاوية	فستق العبيد	فول سوداني	لوز
حكية	قوطية	علبة	علبة
كشفيته	بلايز	مفك	بنسة
شماعي	بلكات	بوجيهات	بواجي

وبدأت العامية عندما تحول البدوي إلى المدينة، هذا التحول اللغوي جاء من التعقيد الحضاري الأجنبي فقد كانت الصحراء تفرض على البدوي لغته من تحركه وراء الكلأ والماء، لكنه وجد في المدينة حاجات لم يجدها في الصحراء، فبعد الحركة المستمرة وجد السكن المستقر، فأخذ من كل الحضارات والأمم التي احتك بها ما يحتاج إليه، فأخذ:

من الفارسية: الإستبرق، والبستان، ومفاتيح

ومن الرومية: صرهن، والبستان، والقسطاس

ومن الهندية: طوبى، والسندس

ومن الحبشية: الجبت، وطه، ومعناها، يا رجل

ومن السريانية: الطور، ولات حين مناص

ومن القبطية: الأترجّ، ومزجاة

كما دخلت كلمات من **البربرية**، مثل: المهل، وعين آنية (جارية)

ومن الزنجية: حصب جهنم: حطبها، والمنسأة: العصا الغليضة. وقد ذكر جلال السُّيوطي عددا من الكلمات التي دخلت إلى العربية في كتابه "المتوكلى".

إن حاجة العربي إلى إدخال كلمات جديدة كانت ضرورة حضارية، لم يجد في لغته ما يكفي لاحتواء الحضارات المتعددة، ولكن بعد أن اتسعت اللغة العربية وحوت المصطلحات الكثيرة في العلوم والفنون والآداب أصبح من السهولة وضع كلمات عربية لهذه الكلمات، وقد وجدت في يعسوب الطب وروضة المدارس الكثير من تعريب الكلمات الغربية، فمن الضروري تعريب الكلمات الآن. وقد وضع الدكتور "شوقي ضيف" الأسس والقواعد والعلل التي شابت العامية، وقد حان الوقت لتعريب الكلمات الأجنبية في وسائل الإعلام، بعد أن وضع أستاذنا الأسس العلمية لتحريف العامية في مصر.

الحل

١- حصر الكلمات الأجنبية في العامية في كل قطر من الأقطار العربية، ووضع الكلمات العربية مقابلها.

٢- طبع هذه الكلمات في كتب توزع على وسائل الإعلام.

٣- التأكيد الرسمي على المدارس والجامعات بضرورة استعمال العربية، وتجنب الكلمات الأجنبية في وسائل الأعلام والمؤسسات التعليمية اقتداء بما يعمله المجمع في أسلوبه في المصطلحات وتعميم استعمالها في جميع وسائل التعليم.

٤- عقد مؤتمر لمثل هذا العمل والتخطيط الجاد في نشر هذا المشروع ومتابعته.

٥- توزيع كتب الكلمات الأجنبية في كل قطر بثمن بخسٍ؛ ليقدر على الشراء كل الناس.

* * *

اللغة الفصحى والإعلام(*)

للدكتور يوسف القرضاوي

عضو المجمع المراسل

تقديم:

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، الذي علم الإنسان ما لم يعلم. وأكرم أمتنا باللسان العربي المبين، الذي أنـزل به آخر كتبه، وبعث به خاتم رسله.

والصلاة والسلام على أبلغ من تكلم بالعربية، وأنـزل عليه الكتاب المبين، وآتاه جوامع الكلم، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

ورضي الله عن آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنـزل معه، أولئك هم المفلحون. وعمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد

فهذه كلمات أردت بها أن أسهم بها في خدمة لغة القرآن، التي شرفنا الله بأن نكون من أهلها، وأسعدنا بحفظ كتابها الأكبر، الذي ضمن خلودها وبقاءها، ما دام هو باقيًا محفوظًا بحفظ من نـزله وكفالته ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩).

كما أكرمنا الله – تعالى – بدراسة علوم هذه اللغة التي اعتبرها علماؤنا السابقون من جملة العلوم الشرعية، وسموها (العلوم الآلية) يعنون: أنها آلة لفهم كتاب الله وسنة رسوله، وهما مصدرا الإسلام عقيدة وشريعة. فهي علوم وسائل، لا علوم مقاصد.

أعرض هذه الكلمات على إخواني أعضاء المجمع اللغوي الموقر (مجمع الخالدين) في أول لقاء لي بهم، عسى أن يسددوني إذا أخطأت، وينبهوني إذا غفلت، وليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم.

(*) ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة السابعة عشرة من جلسات مؤتمر المجمع، في دورته السبعين يوم الأربعاء الموافق ٣١ من مارس سنة ٢٠٠٤م، (**وهي تعالج بعض الظواهر. والأغلاط اللغوية الشائعة في الإعلام**)، ونشرت بمجلة المجمع، بالجزء الثالث بعد المئة، ص ٦٩.

ولا أقول إلا ما قال نبي الله شعيب:﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ (هود: ٨٨).

اللغة هي الأداة التي تعبر عن مكنون الإنسان، وتعلن عن شخصيته وثقافته، وتبين عن اتجاهاته وأهدافه، ولهذا امْتنَّ الله على الإنسان بما علمه من البيان، وجعل ذلك من آثار رحمانيته، كما قال تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ (الرحمن:١-٤).

كما امتن بما وهبه من أدوات النطق والإبانة عما في النفس، كما قال تعالى: ﴿ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين﴾ (البلد: ٩،٨). وكذلك امتن على الإنسان بأداة البيان الخطِّي، وهو: القلم، حين قال تعالى: ﴿اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق: ٣-٥). كما أقسم الله به تنويهًا بشأنه في قوله: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ (القلم: ١).

والقلم في عصرنا يتمثل في: المطبعة، والكمبيوتر، والإنترنت. ولذا مدح الله تعالى رسله بأنهم مبينون عن أنفسهم ورسالتهم، وأنزل عليهم كتبًا مبينة، فقال تعالى: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ (النحل: ٣٥)، وقال تعالى لرسوله:﴿وقل إني أنا النذير﴾ (الحجر: ٨٩)، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين﴾ (إبراهيم: ٤).

وذم الله الكافرين بقوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ (الأنفال: ٢٢) وقال عن المنافقين: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ (البقرة: ١٨). وقارن بين نوعين من الناس محمود ومذموم، فقال: ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ (النحل: ٧٦).

ولا عجب أن عظَّم العرب شأن اللسان، وقالوا: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه. أي قيمة الإنسان في هذين العضوين الصغيرين: العضو الباطن، وهو: القلب أو الفؤاد أو العقل. الذي به يميز ويعقل ويفكر. والعضو الظاهر، وهو: اللسان الذي به يعبر ويتكلم.ولا يعرف الإنسان الذكي من الغبي، ولا المتعلم من الجاهل، ولا الحكيم من الأحمق، إلا بالكلام، ولهذا قال بعضهم لجليسه: تكلم حتى أراك!

وهذا ما عبر عنه قديمًا شاعر الجاهلية الحكيم: "زهير بن أبي سُلمى" في معلقته حين قال:

وكائنْ ترى مِنْ صامتٍ، لَكَ مُعجِب زيادته أو نقصه في التكلمِ!

لسانُ الفتى نصفٌ ، ونصفٌ فؤادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إلا صورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ!

وقد هدى الله كل أمة إلى لغة أو لسان يتخاطبون به، ويعبرون عن أغراضهم في الحياة، ويتفاهم به بعضهم مع بعض، واعتبر القرآن اختلاف الألسنة آية من آيات الله تعالى في هذا الكون، كما قال سبحانه: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (الروم: ٢٢).

كما بعث الله تعالى كل رسول من رسله بلغة قومه، حتى يفهموا عنه، كما يفهم عنهم، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ (إبراهيم: ٤).

وقد بعث الله عز وجل خاتم رسله — محمد بن عبد الله العربي القرشي — بلسان قومه العرب، كما أنزل به آخر كتبه المقدسة (القرآن)، الذي يتضمن آخر (كلمات الله) الهادية والمعلِّمة والمشرعة للبشر.

وبهذا كانت اللغة العربية مرتبطة بالإسلام ارتباطًا عضويًا، فبها نزل الكتاب الخالد، أفضل كتب السماء وأعظمها، وهو الكتاب المبين، والقرآن الحكيم، :﴿نزل به

الروح الآمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء: ١٩٣ — ١٩٥) ﴿كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيا لقوم يعلمون﴾ (فصلت: ٣).

وبهذه اللغة نطق نبيُّ الإسلام، وأعظم رسل الله، محمد عليه الصلاة والسلام، وبهذه اللغة رويت أحاديثه وسنته وهديه، التي ضمتها الدواوين.

وبهذه اللغة كتبت العلوم الإسلامية: من التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والعقائد وأصول الدين، والفقه وأصوله، والتصوف والأخلاق، والسيرة والتاريخ، وما يخدم هذه العلوم الإسلامية من علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة، مما سماه علماؤنا: العلوم الآلية، أي التي هي آلة الفهم للقرآن والسنة وعلوم الإسلام.

وبهذه اللغة يتعبد المسلمون لربهم كل يوم في صلواتهم الخمس، تالين فاتحة الكتاب وما تيسر من القرآن، وبها يؤذنون، ويقيمون للصلاة، وبها يقرؤون في الصلاة، ويدعون ربهم ويستغفرونه، ويذكرونه ويسبحونه بكرة وأصيلا، ويصلون على نبيه، كما أمرهم الله.

وبهذه اللغة يحدون جميعًا بهذا الحداء الرباني في الحج: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).

لهذا رأى الإمام الشافعي: أن تعلم اللغة العربية — ولو في حدها الأدنى — فرض على كل مسلم[*].

(*) قال الشافعي في (الرسالة): "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جَهده، حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض الله عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك. وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه: كان خيرًا له الرسالة، بتحقيق: أحمد محمد شاكر. الفقرة: ١٦٧، ١٦٨.

وقد علق العلامة شاكر على هذا الموضع بقوله: في هذا معنى سياسي، وقومي جليل، لأن الأمة التي نزل بلسانها الكتاب الكريم: يجب أن تعمل على نشر دينها، ونشر لسانها، ونشر عاداتها وآدابها، بين الأمم الأخرى... لتجعل من هذه الأمم الإسلامية أمة واحدة، دينها واحد، وقبلتها واحدة، ولغتها واحدة، ومقومات شخصيتها واحدة... إلخ. انظر: حاشية ص ٤٩ من الرسالة. طبعة مصطفى الحلبي الأولى.

وهذا ما يجعل العربية أحرى أن تكون لسان التفاهم المشترك بين المسلمين حيثما كانوا، لو بذلت بعض الجهود المنظمة، وهيئت دراسات علمية، تبحث في هذا الأمر من كل وجوهه، وتيسر السبل إليه.

وهذا ما يجعل كل مسلم — أيًّا كان جنسه، وأيًّا كان وطنه، وأيًّا كان لسانه — يحب العرب، ويحب لغتهم، ويزهى بتعلمها.

قال الإمام الثعالبي:

"من يحب الرسول الكريم، يحب العرب، ومن يحب العرب، يحب لغتهم، لغة أفضل الكتب المنزلة. فكل إنسان شرح الله صدره للإسلام، يعتقد أن محمدًا هو أفضل الأنبياء، وأن العرب أفضل الناس، وأن اللغة العربية أفضل اللغات".

وإذا كانت هذه أهمية اللغة العربية، بالنظر إلى كل مسلم، وإن كان أعجميًّا، فكيف تكون أهميتها بالنسبة للعرب، الذين هي لغتهم؟ ولسانهم الذي به يتفاهمون، وبتراثه يتفاخرون، وبكتابها الأكبر (القرآن) يُزهون ويباهون؟ وقد قال تعالى:﴿لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ (الأنبياء: ١٠) وقال لرسوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون﴾ (الزخرف: ٤٤).

إن دعاة (القومية العربية) وفلاسفتها اعتبروا اللغة والتاريخ، المقومين الأساسيين، اللذين لا خلاف عليهما.

ولهذا كان إغفال أمر اللغة يعني إغفال أمر الوجود العربي كله؛ إذ لا عروبة بلا عربية.

واللغة العربية التي هي المقوم الأول للقومية، والتي هي السند الأول للدين، هي: اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن والسنة والتراث والعبادة. وهي التي تجمع الأمة، وتقرب بينها، وتعمل على إزالة ما بينها من فوارق وفجوات.

لهذا كان الحديث عن (الإعلام) - مقروءًا ومسموعًا ومرئيًّا - ودوره في تنمية اللغة وتصويب مسيرتها، يحتل مكانة كبيرة في دنيانا اليوم.

فما يشيعه الإعلام من مفردات، سرعان ما تنتشر بين الناس، ويرددها الخاص والعام. فإن كانت هذه المفردات صوابًا شاع الصواب، وإن كانت خطأ شاع الخطأ وذاع حتى يملأ الآفاق.

وليس هذا خاصًّا بالمفردات، بل في التراكيب والأساليب، فالتركيب الذي يتبناه الإعلام منها، ويكرره، يتلقاه الناس بالقبول، ويجري منهم مجرى الدم في العروق، ويصعب بعد ذلك أن تفارقه، وربما استعصى على التقويم والتصويب.

أضرب لذلك مثلاً ببعض العبارات والتراكيب التي شاعت في السنين الأخيرة، من مثل: لعب دور كذا، فنجد من يقول: إن الإسلام قد لعب دورًا في إقرار عقيدة التوحيد، أو: إن محمدًا رسول الله قد لعب دورًا في إخراج العرب من الجاهلية.

وهذا مأخوذ من لعب الممثلين في المسرح، أو اللاعبين في (السيرك) ونحوها، مما لا يليق أن ينسب إلى الرسل والأديان.

وهذا مثال آخر يتجلى في العبارات التي تتصل بمائدة القمار، ولعب القمار، فيقولون: لا تخلط الأوراق، أو اختلطت الأوراق، أو هذه الورقة الأخيرة، أو انكشفت أوراقه، أو هي ورقة محترقة، أو اللعب من تحت المائدة (الطاولة) أو قلب الطاولة عليهم. إلى آخر هذه الألفاظ، وكلها حول اللعب بالقمار وأوراقه ومائدته وأهله. وكثيرًا ما تستعمل هذه العبارات في مقام لا يلائمها قط، ولا يليق ذكرها فيه، ولكنها راجت إعلاميًّا، فراجت شعبيًّا، وغفل الناس عن أصلها.

والآفة هنا من الترجمة، فهذه الجمل والعبارات: منقولة من اللغات الأجنبية الغربية، وكان ينبغي علينا ألا ننقلها كما هي، ونتصرف فيها، ونبحث عن بديل عربي يغني عنها، ولا تحمل إلينا إيحاءاتها.

ترى كيف يترجم الغربيون أمثالنا وكتاباتنا وتشبيهاتنا المعبرة عن بيئتنا مثل:"عاد بِخُفَّيْ حُنين". "على نفسها جنت براقش". "أعقد من ذنب الضب"؟

خطر الإعلام على اللغة من جهتين:

إن أهم ما يهدد اللغة الفصحى من جهة الإعلام أمران رئيسان:

أولهما– استخدام العامية، خصوصًا في الحوارات والأعمال الدرامية.

وثانيهما– شيوع اللحن، وكثرة الأخطاء في النحو والصرف والمفردات والأساليب.

الإعلام والفصحى:

لا يشك دارس في أن الإعلام إذا تبنى الفصحى، فإنه يخدمها خدمة لا يستطيع جهاز آخر أو مؤسسة أخرى أن تنافسه فيها، لقوة تأثير الإعلام في الجمهور، وسعة دائرته. فإذا كانت المدرسة لها تأثيرها الكبير على التلاميذ، فإن الإعلام هو مدرسة الجماهير، ومعلِّم الكبار.

والإعلام المكتوب هو أقل أنواع الإعلام الثلاثة: استعمالاً للهجة العامية، فالمجلات العلمية والأدبية والثقافية لا تستخدم إلا الفصحى. والصحف اليومية لغتها الأساسية هي الفصحى، سواء فيما يتصل بالأخبار، أو بالآراء والتعليقات من أصحاب الأعمدة اليومية، والمقالات الأسبوعية، وغيرهم، ولا تكاد تستخدم العامية إلا في بعض الحوارات والاستطلاعات ونحوها.

ولكن الاستخدام الأوسع للعامية إنما هو في الإعلام المسموع (الإذاعة) أو الإعلام المرئي (التلفاز).

فنجد الأعمال الدرامية معظمها مكتوب ومنطوق بالعامية، إلا في بعض المسلسلات التاريخية مثل: عمر ابن عبد العزيز، والليث بن سعد، وأبو حنيفة، وجمال الدين الأفغاني، وابن رشد، والمتنبي، وغيرهم.

أما الأعمال الدرامية الاجتماعية والواقعية، فأكثرها بالعامية، وقد رأيت بعض المؤلفين والمخرجين في الأردن وسورية ولبنان قدموا مسلسلات بالفصحى، لقيت استحسانًا وقبولاً من جمهور الناس، وتابعوها بشغف. المهم أن يعد (النص) إعدادًا جيدًا، وأن يهيأ الحوار (السيناريو) تهيئة جيدة، وأن يخرج إخراجًا جيدًا، وينفذ تنفيذًا جيدًا.

وقد عقد مجلس التربية الخليجي منذ عدة سنين ندوة مهمة، كان عنوانها: ماذا يريد التربويون من الإعلاميين؟ قُدِّمَتْ فيها بحوث عدة، ونوقش الموضوع مناقشة مستفيضة، وصدرت عنه قرارات وتوصيات جديرة بالمراجعة.

ونحن هنا نحتاج إلى ندوة مماثلة، عنوانها: ماذا يريد اللغويون من الإعلاميين؟ نناقش فيها الأهداف التي نريد أن يحققها الإعلام في مجال اللغة، والوسائل والآليات التي ينبغي أن تتخذ لتحقيق هذه الأهداف، والعقبات التي تقف في الطريق، وكيف يمكن التغلب عليها.

ومما لا خلاف عليه هو: التأثير الهائل للإعلام على اللغة إيجابًا وسلبًا. ولا سيما بعد عصر التلفاز الذي دخل كل بيت، وعَمَّ المدن والقرى، وأمسى يؤثر بالصوت والصورة، ورأينا تأثيره على الصغير قبل الكبير، وعلى الأمي قبل المتعلم، وعلى القروي قبل ابن المدينة.

ولا زلت أذكر برنامجًا خليجيًّا أُنْشِئَ من أجل الأطفال، مكتوبًا باللغة العربية الفصحى السلسة، عنوانه: (افتح يا سمسم!) وقد خُدم هذا البرنامج خدمة قيّمة، وأُعِدَّ إعدادًا جيدًا، ساهم فيه لغويون وتربويون وعلماء، فظهر عملاً فنيًّا على كثير من الجودة والإتقان، يجمع بين النفع والإمتاع، ويشد الأطفال إليه شدًّا، وكان تأثيره فيهم عظيمًا.

كل ما كان يعيبه: أنه عمل بالتعاون مع مؤسسة في نيويورك، فلم تنتفِ منه رائحة الاقتباس والتقليد تمامًا، ويبدو أن هذا ما دعا إلى إيقافه في النهاية!

وهذا يبطل الزعم القائل بأن اللغة العربية صعبة، أو عصية على الفهم، فالحق أن اللغة ثرية وسخية، وقادرة على أن تعطي كل إنسان ما يبتغيه منها، فمن ابتغى السهل والمأنوس وجده فيها، ومن ابتغى الإغراب والتقعر وجده فيها.

ومن أوضح الأدلة على ذلك في مجال الإعلام: النشرات الإخبارية التي تقدم في الإذاعات العربية، والتليفزيونات العربية، بلغة فصحى مأنوسة ومنضبطة بقواعد النحو والصرف، يقدمها مذيعون مدرَّبون، يحسنون النطق بالعربية، وهذه النشرات مفهومة لدى الجمهور العربي من الخليج إلى المحيط، لم نسمع أحدًا شكا من غرابة ألفاظها، أو وعورة أساليبها.

وقد اعتادت إدارات الإذاعة والتلفاز: أن تعيِّن مراجعين لغويين مأمونين، يضبطون هذه النشرات بالشَّكل، حتى يقرأها المذيع دون احتمال للوقوع في الخطأ.

كل ما يُشتكَى منه هنا، هو: عيب النطق المحلي ببعض اللهجات العربية، مثل النطق بالجيم غير معطّشة عند كثير من المصريين، والنطق بها أقرب إلى الغين عند السودانيين والخليجيين، وعدم إخراج اللسان في "الثاء" و"الذال" و"الظاء" عند المصريين، وصعوبة النطق بالقاف عند اليمنيين.

شيوع اللحن وكثرة الأخطاء:

والأمر الآخر: الذي يشين الإعلام من ناحية اللغة، هو: شيوع اللحن، وكثرة الأخطاء اللغوية والنحوية التي تنتشر بين كثير من رجال الإعلام، وإن كان بعضهم يتحرى الصواب فيما يكتب، وهو ما ينبغي أن نسدده وننبه عليه باستمرار، حتى يتلافاه الكاتبون والمتحدثون في أجهزة الإعلام المؤثرة أشد التأثير في ثقافة الجماهير العلمية والدينية والأدبية واللغوية.

وبحثي هنا يتركز حول (الأخطاء الشائعة) التي تنتشر في أدوات الإعلام المختلفة، من الصحف المقروءة، والإذاعات المسموعة، والتلفازات المشاهدة، والتي يظنها كاتبوها أو الناطقون بها صوابًا، وهي خطأ بلا شك، عند أهل العلم باللغة وعلومها :﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾(فاطر:١٤).

وسنقتصر في بحثنا هذا على الأخطاء التي شاعت حديثًا، غير ما ذكره النقاد اللغويون من القدماء والمحدثين، ابتداء من ابن قتيبة، والزبيدي، وابن السكيت، وابن الجوزي، والصقلي، والجواليقي، والحريري، وغيرهم، إلى المعاصرين: الشيخ النجار، والدكتور الحوفي وغيرهما.

أغلاط لغوية شائعة:

المعنيون بالصواب اللغوي فيما يشيع على الألسنة والأقلام في حياتنا اليومية، ولا سيما فيما يكتب في الصحافة، ويذاع في التلفاز والمذياع: تهولهم كثرة الأخطاء الشائعة والمتداولة بين الناس، والتي يحسب الكثيرون أنها صواب محض لا شك فيه، وهذا هو الذي يقلقهم حقًّا.

لا أتحدث هنا عن الأخطاء النحوية المتعلقة بأواخر الكلم وضبطها، فهذه للأسف كثيرة جدًّا. ولكن الناس يقعون فيها عادة وهم معترفون بجهلهم، ولا يدعون أنها صواب، وهذا ليس محل بحثنا.

الخطأ في اسم (كان) أو (إن) إذا كان الخبر ظرفًا:

ولكني أتحدث – في الأغلاط النحوية الخاصة بأواخر الكلمِ – عن موضوع واحد يشيع الغلط النحوي فيه بصورة لا يكاد يسلم منها إلا القليل، وهو ما إذا كان اسم (كان) أو إحدى أخواتها متأخرًا، وكان الخبر شبه جملة، وخصوصًا إذا كان ظرفًا، فنجد الكثيرين للأسف يقولون: كان هناك (رجلاً) يفعل كذا وكذا. والصواب: كان

هناك (رجل)؛ لأن كلمة (رجل) في هذه الجملة اسم كان، وهو مرفوع، أما كلمة (هناك) فهي ظرف مكان، وهي في موضع خبر مقدم.

وهذا الخطأ شائع جدًّا، وتمتلئ به الكتب والمجلات والصحف! كأنهم يحسبون أن (هناك) اسم كان وما بعدها هو الخبر.

ومثلها أن تقول: كان عند القوم (بيتًا) من طابقين. والصواب: (بيتٌ). أو تقول: كان بينهم (شابًّا) صالحًا، والصواب: (شابٌّ) صالح.

ومثل (كان) أمسى وأصبح وظل وبات وليس... وغيرها من أخوات (كان) التي ترفع الاسم وتنصب الخبر،

ونظير ذلك:

اسم (إنَّ) وأخواتها، إذا جاء مؤخرًا، وكان الخبر شبه جملة (وخصوصًا إذا كان ظرفًا). كقولهم: إن في دين الإسلام أركان خمسة. والصواب: أركانًا. وكقولهم: إن لدينا نحن – المسلمين – رجال مخلصون. والصواب: رجالاً مخلصين. وكقولهم: إن هناك في كل بلد شباب مثقفون واعون. والصواب شبابًا مثقفين واعين. لأن هذه كلها أسماء مؤخرة لـ (إنَّ). أما خبرها فهو مقدم في الجار والمجرور (في دين الإسلام) أو في الظرف (لدينا) ومثله (هناك) فكلها تُعْرَبُ خبرًا لـ (إنّ) مقدمًا.

أو بعبارة النحويين: سد مسد الخبر.

تصويب الأخطاء اللغوية:

على أن الذي يعنيني هنا، هو (الأخطاء اللغوية) التي تتعلق بالمفردات وبنيتها وصياغتها. مما يتعلق بعلم الصرف، وعلم مفردات اللغة، وأحيانًا نجد الخطأ في الأسلوب؛ لأن الأغلاط النحوية كثيرة جدًّا.

أخطاء في اسم المفعول من الثلاثي الأجوف:

فمن الأخطاء الشائعة المتصلة بعلم الصرف: ما يتعلق باسم المفعول، المصوغ من الفعل الثلاثي المعتل العين، الذي يسميه "علماء الصرف": (الأجوف) مثـــل: عـــاش، وباع، وهاب، وصاغ، وناط، ودان.

فاسم المفعول يجب أن يرد إلى أصله اليائي أو الواوي في الفعل الثلاثي.

فيصاغ اسم المفعول في (عاش) على وزن معيش، نقول: لا بد للفقيه أن ينظر إلى الواقع (المعيش) للمجتمع. لأنه مشتق من (عاش يعيش عيشًا).

قولهم: مُعاش ومُباع ومُهاب ومُصان ومُناط ومُدان ومُعاق:

ولكن جرى على الألسنة والأقلام قولهم: الواقع (المُعاش). ولو كانت مشتقة من (أعاش) لكانت مقبولة، ولكن الواضح أنها مشتقة من (عاش).

ومثل ذلك قولهم: البضاعة (المباعة) لا ترد. والصواب: البضاعة (المبيعة)، لأنـــه من (باع يبيع بيعًا) و(مباعة). إنما تصلح لو كان اشتقاقها من (أباع) وهو لا يوجد في اللغة.

ونحو قولهم: فلان رجل (مُهاب) حتى شاع بين الناس التسمية بـــ (مُهـــاب). والصواب: (مَهيب) لأنه من (هاب) (يهاب) (هيبة).

ومن ذلك قولهم: هذه الفقرة في القانون (مُصَاغة) صياغة غامضة. والصواب أن تقول: (مَصُوغة) صياغة غامضة. لأن صاغ واوية العين، لأنها مشتقة من (صاغ يصوغ صوغًا وصياغة).

ومن ذلك قولهم: مالٌ (مُصان) وعِرضٌ مُصان. والصواب:(مَصون). لأنه مشتق من الفعل الثلاثي (صان) وهو واوي الأصل، من الصون، ولهذا كان مضارعه (يصون).

ومنها قولهم: فلان (مُناط) به رعاية المؤسسة الفلانية. والـــصواب أن نقـــول: (مَنوط) به رعاية المؤسسة. وهي واوية العين أيضًا، لأنها مشتقة من (ناط ينوط نوطًا).

على أن من الأغلاط الشائعة في الفعل أيضًا قولهم: أناط بفلان فعل كذا، والصواب: ناط به.

ومنه قولهم: فلان (مُدان). والصواب: (مَدين) لأنه مشتق من الفعل الثلاثي (دان) يدين. كما في الأثر: "كما تدين تدان".

على أن من الأغلاط الشائعة في الفعل هنا، قولهم: أدنت المتهم، أو: أدانته المحكمة، والصواب: دنْتُهُ، ودَانَتَهُ.

وفي الحديث: "الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت"[1] أي من حاسب نفسه وحاكمها، أو قهرها.

وقال خويلد بن نوفل الكلابي:

يا حارِ، أيقن أن ملكك زائل   واعلم بأن كما تدين تدان

أي كما تجازي غيرك بفعله، يجازيك غيرك بفعلك.

وفي القرآن الكريم: ﴿أإذا متنا وكنا ترابًا أإنا لمدينون﴾ (الصافات: ٥٣)، أي مجزيون بأعمالنا.

وقال شاعر الحماسة:

ولما صرّح الشر   وأمسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا   ن دناها كما دانوا

ومنه: ﴿مالك يوم الدين﴾ الفاتحة: ٤ أي يوم الجزاء. قال في (تاج العروس): ومنه الحديث: ﴿اللهم دنهم كما يدينونا﴾ أي اجْزهم بما يعملون به[2].

---

(١) رواه الترمذي عن شداد بن أوس، وقال: حديث حسن (٢٤٩٥) كما رواه أحمد في مسنده (١٧١٢٣). وابن ماجة (٤٢٥٠). والطبراني في الكبير. ورواه الحاكم (٥٧/١) وصححه على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي. والبيهقي في السنن (٣٦٩/٣). وفي شعب الإيمان (١٠٤٦).

(٢) تاج العروس (٢٠٨/٩).

وأما أدان فلها معنى آخر، يتصل بالجانب المالي، يقال: أدان: (لازمًا): أي اقترض فصار مَدينا، أو أقرض فصار دائنًا، ويقال: أدان فلانًا (متعديًا): أي أقرضه، أو اقترض منه.

ومن ذلك قولهم: هذا الطفل (معاق) وجمعيات (المعاقين) ومدارس (المعـــاقين). وهو خطأ، والصواب: مَعُوق، ومَعُوقون؛ لأنه مشتق من (عاق يعوق عوقًا). ولا يوجد في اللغة: أعاق يُعيق، فهو معيق، واسم المفعول منه: معاق. وإنما يوجد (عوّق) مضعفًا، فاسم المفعول منه: معوَّق، واسم الفاعل مُعَوِّق، قال تعالى:﴿قـــد يعلـــم الله المعـــوقين منكم﴾ (الأحزاب:١٨).

استعمال اسم المفعول في موضع الفاعل:

ومن الأخطاء الشائعة: استعمال صيغة اسم (المفعول) في موضع اسم الفاعـــل. مثل قولهم: شيء مَهُول، والصواب: هائل، لأن المهول هو الإنسان الذي يهوله الأمر.

وهذا قد نص عليه القدماء، مثل العلامة الزبيدي في (لحن العوام) قال:

يقولون: يوم (مهول). قال: والصواب: يوم (هائل) وأمر (هائل). يقال: هـــالني الشيء، يهولني هولاً، فهو هائل[١].

ومثله قولهم: هذا أمر مَشين. والصواب: شائن، أي يشين صاحبه ويعيبه، أمـــا (المشين) فهو الإنسان، وليس هذا الأمر، وإن كان الكثيرون ينطقون هذا اللفظ بـــضم الميم، يقولون: (مُشين) على وزن اسم الفاعل من الرباعي (أشان) وهو لا يوجـــد في اللغة.

أخطاء في صيغة مَفاعِل (منتهى الجموع) إذا كانت العين ياء:

ومن الأخطاء اللغوية الشائعة: ما يتعلق بـــــ (صيغة منتهى الجموع) إذا كانت مثل (معايش) أي أن الياء فيها أصلية، وليست زائدة، فالياء في كلمة (معيـــشة) يـــاء

---

(١) لحن العوام بتحقيق د. رمضان عبد التواب (١٦٩).

أصلية؛ لأنها من (العيش) وهي على وزن (مَفعِلة) لا على وزن (فعِيلة) وليست مثل الياء في كلمة (فضيلة) أو (قصيدة) فالياء فيها زائدة وليست أصلية، ولذا تجمع على (فضائل) و(قصائد).

همز معايش، ومكايد، ومصايد، ومشايخ، ومصاير، ومضايق، ومسايل:

والخطأ هنا في نطق (معائش) بالهمزة، والصواب: معايش.

وفي القرآن نقرأ قوله تعالى: ﴿ولقد مكّناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾ (الأعراف: ١٠).

﴿وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين﴾(الحجر: ٢٠).

ومثل (معايش) كثير من الكلمات التي تكون الياء فيها أصلية، فيغفل الناس عنها، ويعاملونها كأنها زائدة، كقولهم: (مكائد) جمع (مكيدة) والصواب (مكايد)؛ لأنها من (الكيد) و (مكيدة) على وزن (مَفْعِلة)، وليست على وزن (فَعيلة)، كما قد يتوهم. و(العين) في مفعلة (ياء) أصلية بلا ريب.

ومثل ذلك قولهم: (مصائد) الأسماك، وهو غلط، والصواب: مصايد، لأن الياء أصلية، مشتقة من (الصيد).

ومن ذلك قول بعضهم: (مشائخ) كما يشيع لدى إخواننا من علماء الهند، حتى نجد ذلك في كتبهم المصنفة، يقولون: قال (المشائخ) كذا وكذا. صديقنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة – عالم سوريّة – رحمه الله يقول لهم مورِّيا: يا إخواننا، لا (تهمِزوا) المشايخ!

ومن ذلك قولهم: هذه مصائر الظالمين ونهايتهم، والصواب: مصايرهم لأنها من الصيرورة.

ومن ذلك قولهم: (مضائق) جمع (مضيق) مثل (مضائق) تيران ونحوها. وصوابها: (مضايق) من: ضاق يضيق، فالياء فيها أصلية.

ومنه قولهم: مسائل الماء، جمع (مَسيلة) وهو خطأ. والصواب: مسايل، لأن الياء أصلية، مشتقة من (سال الماء يسيل سيلاً).

أغلاط في الأفعال: استعمال (أَثْرَى) متعديًا وهو لازم:

ومن الأغلاط الشائعة في استعمال الأفعال: استعمال الفعل اللازم على أنه متعدٍّ بنفسه، كقولهم: فلان أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته. والواقع أن (أثرى) فعل لازم، لأن معناه: صار ذا ثراء. فالصواب أن نقول: أثرت المكتبة الإسلامية بكتبه. أي أضحت ذات ثراء بذلك.

تعدية الفعل بالحرف وهو متعدٍّ بنفسه:

ومن الأغلاط الشائعة: تعدية الفعل الذي يتعدى بنفسه بواسطة حرف الجر، مثل قولهم: قبلت بالأمر الفلاني، والصواب: قبلت الأمر، دون التعدية بالباء.

ولهذا نقول: فلان نجح بدرجة (مقبول)ولا نقول: مقبول به. ومن درجات التعديل والتوثيق في علم الحديث: درجة (مقبول) و لم يقولوا: مقبول به. ونحن ندعو الله أن يجعلنا من الذين يُخلصون فيُقبَلون، ولا نقول: ممن يقبل بهم. وهذا الغلط قد شاع في المدة الأخيرة شيوعًا فاحشًا.

ولا أرى ضرورة لتبرير هذا لغويًّا، باللجوء إلى (التضمين) بأن تضمن (قبل) معنى (رضي) لأن التضمين له هدف بلاغي غير متحقق هنا.

ومن الأخطاء في كلمة القبول: أن تنطق بضم القاف، فيقال (القُبول) والصواب: (القَبول) بفتح القاف. وفي القرآن العزيز:﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ (آل عمران: ٣٧). وهو غلط شاع عند إخواننا من أهل الشام أولاً، ثم قلدهم المصريون وغيرهم[١].

---

(١) مما لا يخفى: أن نطق كلمة (قَبول) بضم القاف، غير ما جاء به القرآن؛ وهو مصدر سماعي، قال أبو حيان في (البحر): والقياس فيه الضم، كالدخول والخروج، ولكنه جاء بالفتح، وأجاز الفرَّاء والزجَّاج ضم القاف، ونقلها ابن الأعرابي فقال: قبلتها، قبلته، قَبولاً، وقُبولاً. اهـ . (انظر: البحر المحيط لأبي حيان٢/٤٤١). وإن كنت لا أعدل بلغة القرآن شيئًا.

أشغله، وأبهره، وأعاقه، وأدانه:

ومن الأغلاط الشائعة: إدخال الهمزة على الفعل الثلاثي لتعديته، وهو فعل متعدٍّ بنفسه، مثل قولهم: (أشغلته) بالأمر الفلاني، والصواب: شغلته، ويقول بعضهم: سبحان من أودع في كل قلب ما (أشغله). والصواب: ما شغله. ولذلك نجد اسم المفعول من ذلك: بصيغة (مشغول) وليس بصيغة (مُشغَل).

ومثل: قولهم: أبهر، ويُبهر، ومُبهر، وهذا ضوؤه مُبهر. والصواب: بَهَر، كقولهم: بهر القمر، أي غلب ضوؤه الكواكب، ويقال: بهره، فانبهر، وبُهِر، فهو منبهر ومبهور، كما في القاموس. ولكنه ذكر من معاني (أبهر): جاء بالعجب.

ومثله: قولهم: أعاقه المرض، وأعاقته الآفة، وتعيقه، فهو معاق، والصواب: عاقه يعوقه، فهو مَعُوق. كما نبهنا عليه قريبًا.

ومن ذلك قولهم: أدنت المتهم، أو أدانته المحكمة. أو أدانت الأمم المتحدة عدوان إسرائيل على لبنان.

والصواب: دنت المتهم، ودانته المحكمة، ودانت الأمم المتحدة، لأنه من دان يدين، الفعل المجرد، لا من المزيد بالهمزة. وفي الأثر: "كما تدين تدان".

بناء الفعل للمجهول وهو مبني للمعلوم، وعكسه:

ومن هذه الأغلاط: بناء الفعل للمجهول، وهو مبني للمعلوم، مثل قولهم: ذُهِلت عن قضيتي الخاصة بقضية الأمة، فأنا (مذهول). والصواب: ذَهَلت عنها فأنا ذاهل، والمضارع منها: يَذهَل، وفي القرآن الكريم: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع﴾ (الحج:٢).

ومنها: عكس ذلك. وهو بناء الفعل للمعلوم، وهو مبني للمجهول، مثل قولهم: عَمَّر فلان تسعين سنة، بفتح عين (عَمّر) وقولهم: السلع (المعَمِّرة) أي التي تعيش فترة

طويلة نسبيًّا. والصواب: السلع المعمَّرة، لأنها مشتقة من (عُمِّر) بضم العين، والمضارع منها (يُعمَّر) واسم المفعول منه: (معمَّر). وفي القرآن الكريم:﴿يود أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ البقرة: ٩٦. ويقول أبو العتاهية:

نُحْ على نَفْسِكَ يا مِسْـــ ... كِينُ إنْ كُنْتَ تَنُوح
لَتَمُــــوتَنَّ وَإِنْ عُمْـــ ... مِرتَ ما عُمِّر نُوح!

ومن هنا سُمِّي بعض الناس (مُعَمَّرا) تفاؤُلا بأن يعيش عمرًا طويلاً.

أما (المعَمِّر) فهو الله تبارك وتعالى، بمعنى أنه الذي يمنح (العُمُر) قال تعالى:﴿ومن نعمّره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾(يس: ٦٨) وقال: ﴿أو لم نعمّركم ما يتذكر فيــه من تذكر﴾ (فاطر: ٣٧).

استعمال الفعل اللازم متعديًا:

ونحو ذلك: استعمال الفعل اللازم متعديًا بنفسه، كقولهم: شَلّ المرض يد فلان، فهو مشلول، ويده مشلولة. ويقولون: شُلَّت يده، أو شُلَّت يمينه، والصواب: شَــلَّت، فهو أَشَلّ، وهي شلاء. ومن الشواهد المحفوظة: "والشمس كالمرآة في كف الأَشلّ".

الخطأ في النطق ببعض المفردات:

ومن الأغلاط الشائعة: النطق ببعض المفردات على غير صوابها، مثل قولهم: لا بد من سدّ هذه (الثَّغْرة). والصواب: (الثُّغْرة) على وزن (فُرجة).

ومنها قولهم في الأوصاف: رجل (صَلْب) الإرادة، بفــتح الــصاد. والــصواب (صُلْب) الإرادة بضم الصاد، وكأنهم حسبوا أن (الصُّلب) بالضم وصف للحديد فقط.

ومن ذلك: قولهم: يجب على الأمة الحفاظ على (هَويتها) بفتح الهاء، والصواب: (هُوِيتها) — بضم الهاء - لأنها نسبة إلى (هُو) ضمير الفصل للغائب. وقد استعمل علماء الكلام كلمة (الهُويَّة) في مصطلحاتهم، مثل كلمة (الماهية).

ومن هذا النوع قول كثير من الناس: (صَمّام) الأمان كذا. وهي غلطة مشهورة عند إخواننا من أهل الشام الكبرى[١]. والصواب: (صِمَام) الأمان. أي بكسر الصاد وبدون تشديد الميم، على وزن "مِلاك" الأمر و"قِوامه" و"سِياجه"، ونحوها.

ومثلها قولهم: كمّامة. وهذه يقولونها في الطائرات، عند شرح إجراءات السلامة للركاب، يقولون: ضع الكَمّامة على فمك، وتنفس تنفسًا طبيعيًّا، وهي خطأ، والصواب: كِمَامة، بكسر الكاف، وعدم تشديد الميم.

ومن هذا النوع قولهم في الإذاعات والتلفازات: نقدم لكم هذه (الحَلَقة) بفتح اللام، والصواب المشهور[٢]: الحَلْقة، بسكون اللام. ولعل الذي دفعهم إلى هذا الغلط: أنها تجمع على (حَلَقات) بفتح اللام في جمع المؤنث السالم، فظنوا أن مفرد (الحَلَقات) لا بد أن يكون (حَلَقة) وهو خطأ. فإن القاعدة: أن الاسم الثلاثي الساكن (العين) إذا كان على وزن (فَعْلَة) وكانت فاؤه مفتوحة، وعينه غير معتلة، ولم يكن وصفًا[٣]، فإنه يجمع على (فَعَلات). تقول: رَكْعة رَكَعات، وسَجْدة وسَجَدات، وطَلْحة وطَلَحات، ونَهْضة ونَهَضات، بخلاف ما إذا كان معتل العين مثل: بيضة وثورة وشوكة، فإنها تجمع على بيْضات وثوْرات وشوْكات، بتسكين عين الكلمة المعتلة في الجميع.

ومن المفردات التي يخطئ الكثيرون في ضبطها: كلمة (عِيان) بكسر العين، فينطقونها (عَيان) يقولون: هذا شاهد عَيان، ويقولون: ليس الخبر كالعَيان. والصواب: هو كسر العين، فتقول: شاهد عِيان، وليس الخبر كالعِيان؛ ذلك لأن الكلمة مصدر

---

(١) يقصد بالشام الكبرى: ما يشمل سورية ولبنان والأردن وفلسطين بما فيها الأرض المغتصبة. ويسميه أهل مصر: بَرّ الشام.

(٢) وإنما قلنا: المشهور؛ لأن بعض اللغويين نقل فيها لغة بالفتح.

(٣) أما إذا كان وصفًا مثل ضخمة، أو كانت عينه معتلة مثل ثورة وبيضة، فتبقى عينه ساكنة في جمع المؤنث السالم، تقول: ضخْمات، وبيْضات، وثوْرات.

(عايَن) يعاين عِيانًا ومعاينة. فهذا قياس مصدر (فاعَل): أن يكون على وزن (فِعال) أو (مفاعلة). تقول: قاتل قِتالاً ومُقاتلة، وسَابق سِباقًا ومُسابقة، وجَاهد جِهادًا ومُجاهدة، كما قال ابن مالك: (لفاعَلَ: الفِعال و المُفاعلة).

أخطاء الفعل المعتل المسند إلى واو الجماعة:

ومن الأغلاط الشائعة: ما يتعلق بإسناد الفعل الماضي أو المضارع أو الأمر المعتل الآخر إلى الضمائر، وخصوصًا إلى واو الجماعة، فنجد في نشرات الأخبار يقولون عن ضحايا الطائرات: منهم عشرون نَجُوا، وثلاثون لقَوْا حتفهم. والصواب عكس ما قال القائل، تقول: عشرون نَجَوْا، وثلاثون لقُوا حتفهم، وفي القرآن الكريم نجد عكس ما قالوا: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلو إلى شياطينهم﴾(البقرة:١٤) ومثل ذلك: ﴿واذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ (الحج:٥١) (رضي الله عنهم ورضُوا عنه) البينة:﴿نسوا الله فنسيهم﴾(التوبة: ٦٧).

وفي نشرات الأخبار يقولون: فاصل قصير تتخلَّله نشرة، فابقُوا معنا، والصواب: فابقَوْا معنا. على وزن(اخشَوْا ربكم).

ومثله قولهم: لا تنسُوا ما فعله اليهود في دير ياسين، والصواب: لا تَنْسَوْا، وفي القرآن الكريم:﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ البقرة: ٢٣٧.

استخدام كلمة (سوى) في غير موضعها:

ومن الأغلاط الشائعة: استخدام كلمة(سوى) — وهي من أدوات الاستثناء — كأنها حرف مثل (إلا) والواقع أنها اسم مثل (غير) فيقول بعضهم: لا تؤخذ الزكاة سوى من الأغنياء من الناس. والصواب أن يقدم حرف (من) على (سوى) فيقال: لا تؤخذ الزكاة من سوى الأغنياء، لأن الاسم لا يضاف إلى الحرف، أو يستبدل (إلا) بـ (سوى) فيقال: لا تؤخذ الزكاة إلا من الأغنياء.

إطلاق المسمى على الاسم:

ومن الأخطاء الشائعة في الإعلام: إطلاق كلمة (مسمَّى) ويراد به (الاسم).

يقال: سنحارب الإرهاب تحت أي (مسمّى)، والمقصود تحت أي (اسم).

ويقال: تمسك بالحق، ولا يضرك اختلاف (المسميات). والمراد: اختلاف الأسماء.

فالمسمّى هو (المضمون) والاسم هو اللفظ الدال عليه، وهو العنوان. ونحن في الفقه نقول: لا يهمنا اختلاف الأسماء والعناوين، إذا اتضحت المسميات والمضامين.

ولما طلب بنو تغلب من سيدنا عمر: أن يأخذ منهم ما يريد أن يأخذه باسم الصدقة، لا باسم الجزية، فهم عرب يأنفون منها، قَبِلَ منهم ذلك، وقال: هؤلاء القوم حمقى، رضوا المعنى (أي المضمون) وأبَوْا الاسم!

صيد سمين، لا ثمين:

ومن الأوصاف التي توضع في غير محلها: قولهم: لقد ظفرت الشرطة بصيد ثمين، فقبضت على المجرم الخطير... والصواب: صيد سمين. فالمناسب لأهمية الصيد هو السمن لا الثمانة. والصيد الذي يهنأ به الصياد، هو السمين لا الهزيل، الذي لا لحم فيه.

جمع مدير على (مدراء):

ومن جموع التكسير التي تجمع خطأ: ما شاع عند إخواننا من أهل الشام، من جمع مدير على (مدراء) يقولون: اجتمع مدراء المراكز، أو مدراء المدارس، أو مدراء الأمن، أو غيرهم.

وكأنهم قاسوا كلمة (مدير) على كلمة وزير، أو سفير، أو عميد، وأمثالها مما هو على وزن (فَعيل)، وهي عادة تجمع على وزراء، وسفراء، وعمداء.

وهذا القياس غير صحيح بلا شك، لأن هذه الكلمات (وزير، وسفير، وعميد) على وزن (فَعيل)، بخلاف (مدير) فهي على وزن (مُفعِل) لأنها اسم فاعل، من الفعل الرباعي (أدار).

والصواب: أن تجمع كلمة (مدير) جمع مذكر سالمًا، فتقول: (مديرون) في حالة الرفع، و(مديرين) في حالتي النصب والجر.

أخطاء في الأسلوب (لا يجب أن نفعل):

ومن الأغلاط الشائعة قولهم: لا يجب أن يفرط المرء في كرامته... أو لا يجب أن يتنازل الفلسطينيون عن القدس. وهو تعبير خاطئ. والصواب: أن تقول: لا يجوز – بدل (لايجب) – أن يفرط المرء في كرامته... أو لا يجوز أن يتنازل أحد عن القدس. إذ نفي الوجوب – بقولنا: لا يجب – لا ينفي الجواز، فقولنا: لا يجب التنازل عن القدس، لا ينفي أن يجوز لنا أن نتنازل عنها، وهذا ليس مقصود المتكلم.

والبديل الصواب لذلك: إما نفي الجواز بقولنا: لا يجوز أن نتنازل، أو وجوب النفي، فيقال: يجب ألا نتنازل. أما نفي الوجوب فهو خطأ.

الرد على الاستفهام المنفي بـ(نعم):

ومن الخطأ في الأساليب: الرد على الاستفهام المنفي بـ(نعم). وهذا غلط يقع فيه الكثيرون. كما يقال: ألسنا عربًا؟ أو ألسنا مسلمين؟ ويكون الجواب: نعم، ثم نعم.

والصواب: أن يكون الجواب: (بلى) لا (نعم)، لأن (بلى) حرف يجاب به النفي خاصة، ويفيد إبطاله، سواء أكان هذا المعنى مع استفهام أم بدونه. مثل قوله تعالى:﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ (التغابن: ٧) وقوله:﴿ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾ (الملك: ٨،٩) وقوله:﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾(الأعراف: ١٧٢)، قال ابن عباس: لو قيل هنا: نعم، لكان كفرًا.

فالجواب عن قولنا: ألسنا عربًا؟ ألسنا مسلمين؟ بكلمة (نعم): يفيد أننا لسنا عربًا ولسنا مسلمين، وهو عكس المقصود.

ومن العجيب: أني وجدت في قطر وبلاد الخليج عامة الناس ينطقون بالصواب دائما في هذا الاستفهام المنتفي، متعلّمهم وأميّهم، رجالهم ونساؤهم، كبارهم وصبيانهم، لا يخطئون فيها، وأرى كثيرًا من العلماء في بلادنا هنا يخطئون الصواب فيها.

إقحام واو العطف في غير مكانها:

ومن الخطأ في الأساليب قولهم: سبق وأن اتفقنا على كذا وكذا. فهذه الواو مقحمة لا معنى لها، وقد وضعت بين الفعل وفاعله. فإن (سبق) فعل ماض، وفاعله (أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر، فالصواب أن يقال: سبق أن اتفقنا... إلخ.

ومن ذلك قولهم: خصوصًا وأن هذا الأمر له أهميته، أو خاصة وأن هذا الأمر ...إلخ. فهذه الواو هنا أيضًا مقحمة ولا ضرورة لها، ولا معنى لها، وقد وضعت في غير موضعها. والصواب أن تحذف هذه الواو، فيقال: خصوصًا أن هذا الأمر ... إلخ. أو وخاصة أن هذا الأمر. والأولى: أن تؤخر خاصة في آخر الجملة، كما جاء في القرآن الكريم:﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ الأنفال: ٢٥. أو تجر بالباء، فيقال: وبخاصة أن الأمر له أهميته ... إلخ.

ومن ذلك: قولهم: كما وأنَّ الإنسان مسؤول عن نفسه أولاً. وهو خطأ، والصواب أن يقال: كما أنَّ الإنسان مسؤول عن نفسه أولاً.

الأخطاء في اجتماع القَسَم والشرط:

ومن الأغلاط الشائعة، قولهم: لئن فعلت كذا وكذا من الموبقات فسيعاقبك الله. والصواب: ليعاقبنَّك الله. لأنه قد اجتمع في هذه الجملة قَسَمٌ وشرط، فالقسم تنبئ عنه (اللام) الموطئة للقسم (لَئِنْ) والشرط يتمثل في (إنْ) الموصولة باللام، والشائع أن يذكر الكثيرون جواب الشرط، وهو يقترن بالفاء في حالات معينة، مثل حالة اقتران الجملة بالسين أو بسوف.

ولكن القاعدة المعروفة هنا: أن القسم والشرط إذا اجتمعا فإن الجواب يكـــون للمقدم منهما، وهنا القسم هو المقدم، فيكون الجواب له. ولهذاقلنا: ليعاقبنك الله. وفي هذا يقول ابن مالك في (ألفيته):

واحْذِفْ لَدَى اجتِمَاعِ شَرْطٍ وقَسمْ   جوابَ ماَ أخّرتَ فهو ملتزم

وهذا ما جرى عليه القرآن الكريم: في آيات كثيرة، مثل قولـــه تعـــالى:﴿ لـــئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولُّن الأدبـــار ثم لا ينصرون﴾(الحشر: ١٢) ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية﴾ (العلـــق: ١٥):﴿ ولـــئن قتلتم في سبيل الله أو مُتُّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ (آل عمران:١٥٧).

*   *   *

لغة الإعلام وآثارها الإيجابية(*)
في تحقيق مزيد من التنمية اللغوية

للدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
(عضو المجمع المراسل)

يجمع علماء اللغة وفقهاؤها على حقيقة لا شك فيها قط، وهي أن اللغة، من حيث هي لغة، كائن حي، يخضع لقانون النمو ولسنة التطور.

إنّ التطوّر أصلٌ أصيلٌ في حياة اللغة بما هي كائن اجتماعي، وأساس التطور هو الوجود البسيط أولاً، ثم النماء المترقي ثانيًا، وخلال هذا الانتقال يتكون الكائن مترقيًا، ويتغير تغيرات مدرجة[1].

ولكننا لا نذهب إلى أبعد مدى في التسليم بهذه المقولة، أو لنقل بعبارة أدق، إننا لا نفهم التطور بمعنى القطيعة مع التراث، والاقتلاع من الجذور، وتجاوز الأصول والثوابت. ولذلك فإن الرأي الذي نعتمده في هذه القضية، هو تطور اللغة في إطار خصائصها وضوابطها،وبمنهجية يضعها اللغويون.

وليس في حرصنا على الالتزام بهذه المنهجية حجرٌ على الفكر اللغوي، أو ضربٌ من التزمت والانغلاق والانكفاء على الذات، وإنما هو الانضباط الذي يقتضيه تعاملنا مع هذه القضية، والاحتياط الذي يستوجبه قيامنا بواجبنا تجاه لغتنا.

وإلى ذلك، فإن للتطور اللغوي مستويات: المستوى الأول، تطوير اللغة من الداخل، ونقصد به مسايرة نمو المجتمع ومواكبة تطوره، من خلال الاشتقاق والنحت والتجوز والتوليد والتعريب، وهذا الضرب من التطوّر بطيء بطبيعته، قد لا يشعر به أهل اللغة في جيل أو عدة أجيال، لأنهم يعيشونه ويندمجون فيه، وإنما تشعر به وتلمسه

(*) قدم إلى مؤتمر المجمع، في الدورة السبعين ، مارس ٢٠٠٤م ونشر بمجلة المجمع بالجزء الرابع بعد المئة، وصاحب البحث: المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة.

(١) أمين الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية، ص : ٤٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ ، القاهرة.

الأجيال اللاحقة. أما المستوى الثاني، فهو تطوير اللغة من الخارج، ونقصد به التأثيرات الضاغطة التي تفرض التصرّف في اللغة قلبًا وتحويرًا، وحذفًا وإضافة، وإفسادًا وتشويهًا، وخروجًا على القواعد المتبعة والأصول المعتمدة، وهذا الضرب من التطور قسْريٌّ، لأنه مفروض بقوة الواقع، أو تحت تأثير غزو فكري يستصحب عزوًا لغويًا.
كذلك هو النموّ الذي قد تعرفه لغة من اللغات، فهو لا يكون نموًّا سليمًا بصورة مطردة، وإنما قد يكون نموًّا عشوائيًّا يفسد اللغة ويدمّر أركانها.

ولم تعرف اللغة العربية عبر تاريخها الطويل ما تعرفه اليوم من سرعة في النموّ، واندفاع في التطوّر ومسايرة المتغيرات، بحكم عوامل كثيرة ونتيجة لأسباب متعددة لعلّ أقواها تأثيرًا، النفوذ الواسع الذي تمتلكه وتمارسه وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، والذي يبلغ الدرجة العليا من التأثير على المجتمع، في قيمه ومبادئه، وفي نظمه وسلوكياته، وفي ثقافته ولغته، وعلى النحو الذي يفقد بعض المجتمعات هويتها الحضارية، وينال من خصوصياتها الثقافية، وفي المقدمة منها الخصوصية اللغوية.

- ٢ -

إن العلاقة بين اللغة والإعلام لا تسير دائمًا في خطوط متوازية؛ فالطرفان لا يتبادلان التأثير، نظرًا إلى انعدام التكافؤ بينهما، لأن الإعلام هو الطرف الأقوى، ولذلك يكون تأثيره في اللغة بالغًا الدرجة التي تضعف الخصائص المميزة للغة، وتلحق بها أضرارًا تصل أحيانًا إلى تشوّهات تفسد جمالها.

وإذا كان لكلّ علم وفن وكلّ فرع من فروع النشاط الإنساني لغة خاصة به، بمعنى من المعاني، فإن اللغة في الإعلام تختلف، من وجوه كثيرة، عنها في تلك الحقول من التخصصات جميعًا، فهي في موقف ضعف أما قوة الإعلام وجبروته، فقلما تفرض اللغة نفسها على الإعلام، وإنما الإعلام هو الذي يهيمن على اللغة، ويقتحم حرمها، وينال من مكوناتها ومقوماتها، فتصبح أمام عنفوانه وطغيانه طيبة لينة، تسير في ركابه، وتخضع لإرادته، وتخدم أهدافه، ولا تملك إزاءه سلطة ولا نفوذًا.

ولما كانت قوة اللغة تستمدها من قوة أهلها، لأن اللغة تقوى وتزدهر وتنتشر، بقدر ما تتقوى الأمة التي تنتسب إليها وتترقي في مدارج التقدم الثقافي والأدبي والعلمي والازدهار الاجتماعي والسياسي والحضاري، فإن الوضع الذي تعيشه الأمة العربية الإسلامية في هذه المرحلة من التاريخ. لا يوفر للغة العربية حظوظًا أكبر للبروز وامتلاك شروط القوة، مما يترتب عليه ضعف اللغة، وعدم قدرتها على فرض الوجود، والتحكم في توجّهات الإعلام، والخروج من دائرة سيطرة نفوذه، والفكاك من هيمنة وسائله، بحيث تصير اللغة تابعة للإعلام، متجاوزة بذلك الفواصل بين الإصلاح والإفساد.

لقد كان الغيورون على لغة الضاد عند ظهور الصحافة في البلاد العربية في القرن التاسع عشر، يحذرون من انحدار اللغة إلى مستويات متدنية. فتعالت صيحات الكتاب والأدباء في غير قطر عربي، داعية إلى الحرص على صحة اللغة وسلامتها، وظهرت عدة كتب تعنى بما اصطلح عليه بلغة الجرائد؛ تصحح الخطأ، وتقوّم المعوج من أساليب الكتابة، وتردّ الاعتبار إلى اللغة العربية.

وقد أفلحت الجهود التي بذلها أساطين اللغة والرواد الأُول الحريصون على سلامة اللغة السائدة في الصحافة، أو (اللغة السيَّارة) ، قياسًا على قولنا (الصحف السيَّارة).

ولكن مع الانتشار الواسع للصحافة الذي تزمن مع الازدياد في عدد المتعلمين من خريجي الجامعات والمعاهد والمدارس، وما استصحب ذلك كله من هبوط في المستوى الدراسي بصورة عامة، نتيجة لأسباب وعوامل كثيرة، اقتصادية وسياسية وثقافية، انتهى الأمر إلى ضعف اللغة العربية وهيمنة اللهجات العامية المحلية عليها، وسريان ذلك إلى وسائل الإعلام، على نحو يكاد يكون مطردًا، بعد أن لم تعد تجدي صيحات التحذير التي يطلقها علماء اللغة والغيورون عليها، و لم تعد تنفع القرارات والتوصيات التي تصدر عن المجامع اللغوية، أو تلك التي تصدر عن الندوات والمؤتمرات المختصة.

وقد ترتب على هذا الوضع الذي وصلت إليه اللغة العربية، أن دخلت عصر الإعلام الواسع الانتشار، وهي تعاني من ضعف المناعة، مما أدى إلى هجوم مكتسح وغزو جارف لما يطلق عليه (لغة الإعلام) ، على اللغة الفصحى، فوقع تداخل بين اللغتين الفصيحة والعامية، تولدت عنه لغة ثالثة هجينة ما لبثت أن انتشرت على نطاق واسع دخل الأقطار العربية وخارجها، حيث يوجد من يعرف اللغة العربية من الجاليات العربية وممن تعلّم العربية وهي ليست لغته الأم.

واللغة الثالثة هذه، والتي صارت لغة الإعلام المعتمدة، هي منزلة بين المنزلتين، كما كان يقول أهل العدل والتوحيد في تاريخنا، فلا هي اللغة الفصيحة في قواعدها ومقاييسها وأبنيتها وأصولها، ولا هي لغة عامية لا تلتزم قيودًا ولا تخضع لقياس ولا تسري عليها أحكام. ولكن ميزة هذه اللغة أنها واسعة الانتشار انتقل بها الحرف العربي إلى آفاق بعيدة، ولكن الخطورة هنا، تكمن في أنها تحل محل الفصحى، وتنتشر بما هي عليه من ضعف وفساد باعتبارها اللغة العربية التي ترقى فوق الشك والريبة. وبذلك تكتسب هذه اللغة الجديدة (مشروعية الاعتماد)، ويخلو لها المجال، فتصير هي لغة الفكر والأدب والإعلام والإدارة والديبلوماسية، أي لغة الحياة التي لا تزاحمها لغة أخرى، من جنسها أو من غير جنسها.

وبحكم التوسّع في وسائل الإعلام وتعدُّد قنواته ومنابره ووسائطه، ونظرًا إلى التأثير العميق والبالغ الذي يمارسه الإعلام في اللغة، وفي الحياة والمجتمع بصورة عامة، فإن العلاقة بين اللغة العربية والإعلام أضحت تشكل ظاهرة لغوية جديرة بالتأمل، وهي ذات مظهرين اثنين:

- **أولهما**: أن اللغة العربية انتشرت، وتوسع نطاق امتدادها وإشعاعها إلى أبعد المدى، بحيث يمكن القول إن العربية لم تعرف هذا الانتشار والذيوع في أي مرحلة من التاريخ، وهذا مظهر إيجابي، باعتبار أن مكانة اللغة العربية قد تعززت كما لم يسبق من قبل، وإن الإقبال عليها زاد بدرجات فائقة، وأنها أصبحت لغة عالمية بالمعنى الواسع للكلمة.

- **ثانيهما**: ويتمثل في شيوع الخطأ في اللغة، وفشوّ اللحن على ألسنة الناطقين بها، والتداول الواسع للأقيسة والتراكيب والصيغ والأساليب التي لا تمت بصلة إلى الفصحى، والتي تفرض نفسها على الحياة الثقافية والأدبية والإعلامية، فيقتدي بها وينسج على منوالها، على حساب الفصحى التي تتوارى وتنعزل إلا في حالات استثنائية، وبذلك تصبح اللغة الهجينة هي القاعدة، واللغة الفصيحة هي الاستثناء. وهذا مظهر سلبي للظاهرة.

وإذا قمنا بالتكيف اللغوي - على غرار التكيف القانوني - لهذه الظاهرة، لا نعدو الحق إذا قلنا إن اللغة العربية تعاني في هذه المرحلة من (التلوث) الذي يُلحق أفدح الأضرار بالبيئة اللغوية، ويفسد الفكر، ويشيع ضروبًا من الاضطراب والإرباك والقلق في العقول، علاوة على ما يسببه هذا الوضع اللغوي غير المستقر، من فساد في الحياة العقلية للأمة، تنتقل عدواه إلى فساد في معظم المجالات، فتختلط المعاني والدلالات والمفاهيم والرموز في لغة الحوار بين الطبقات المثقفة، وبين قيادات المجتمع، فيؤدي ذلك إلى الغموض والالتباس والتداخل في مدلولات الكلمات، مما ينشأ عنه حالة من الفوضى اللغوية) التي إن عمّت وانتشرت، أفضت إلى فوضى عارمة في الحياة الفكرية والثقافية، وإلى ما هو أعظم خطرًا من ذلك كله.

- ٣ -

إن هذا التشخيص للعلاقة بين اللغة والإعلام يمكننا من أن نقف على حقيقة الوضع اللغوي للضاد[١]، وفي هذه المرحلة الحافلة بالمتغيرات الإقليمية والدولية الحاسمة، وليس من المبالغة في شيء، في ضوء ذلك، قولنا إن هذا الوضع خطير بالمقاييس جميعًا، وبالمعاني كلها، ومن عدة وجوه، ولكن هذه الخطورة لا تمنع من معالجة الخلل وتطهير البيئة اللغوية من التلوث وإفساح المجال أمام تنمية لغوية يعاد فيها الاعتبار إلى الفصحى، وتستقيم فيها حال اللغة، بحيث تقوم العلاقة بينها وبين الإعلام على أساس سليم،

---

(١) لا نقصد هنا الوضع في اللغة، وإنما نقصد إلى الحالة الراهنة للغة، وشتان بين المعنيين.

فيتبادلان التأثير في اعتدال وفي حدود معقولة، فلا يطغى طرف على آخر، بحيث تبقى اللغة محتفظة بشخصيتها ويظل الإعلام يؤدي وظيفته في التنوير والتثقيف والترفيه النظيف، فيتكامل الطرفان وينسجما، فتصبح اللغة في خدمة الإعلام، ويصبح الإعلام داعمًا لمركز اللغة.

ولكننا لا نيأس من إصلاح اللغة العربية في المدى القريب، فلقد تحقق اليوم ما يعبر عنه (بالتضخم اللغوي) ،أو (التوسّع اللغوي)[1]، وذلك نتيجة لاتساع رقعة الإعلام وتأثيره في المجتمعات، ولانتشار اللغة العربية بوضعها الحالي، على نطاق واسع، وهو الأمر الذي يخدم أحد أغراض التنمية اللغوية بالمعنى الشامل للتنمية المعتمد في الخطاب المعاصر. وليس في التضخم اللغوي خطر على اللغة، كما هو الشأن في الاقتصاد، لأن التضخم هنا توسيع لنطاق استخدام اللغة، وإغناء لمضامينها ومعانيها، وتلك غاية سامية من الغايات التي تهدف إليها التنمية اللغوية.

وكما أن للتنمية من حيث هي، سواء أكانت اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية، قواعد وضوابط ومعايير وأهداف مرسومة، فكذلك هي التنمية اللغوية التي لن يتحقق الغرض منها ما لم تتوافر لها الشروط الموضوعية.

ويأتي في مقدمة هذه الشروط التي إن انتفى شرط واحد منها، فقدت التنمية اللغوية الهدف المتوخي منها ثلاثة شروط هي:

أولاً: أن تلتزم اللغة القواعد والأبنية والتراكيب والمقاييس المعتمدة التي بها تكتسب الصحة والسلامة، في غير تزمت، أو تقعر، أو انغلاق، مع مراعاة المرونة

---

(١) يُعطي د. حسن ظاظا في كتابه "كلام العرب، من قضايا اللغة العربية"، ص: ٨٥، مكتبة الدراسات اللغوية، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٠ ، معنى أكاديميًّا لمصطلح (التضخم اللغوي)، وذلك انطلاقًا من أن الأصل في وضع الألفاظ في اللغات المختلفة، أن يكون لكل معنى يجول بالخاطر لفظ يعبر عنه، أي أن يكون للفكرة الواحدة لفظة واحدة، وللكلمة الواحدة معنى واحد أيضًا، ويبدأ الخلط والاضطراب بمجرد أن يوجد لفظان فأكثر لمعنى واحد، أو معنيان فأكثر للفظ واحد، وإن كانت اللغات جميعًا لا تنجو من هذه الإصابة بقدر ما، أقل أو كثر. ونحن وإن كنا لا نجادل في صواب هذا التعريف الفني للمصطلح، إلا أننا نميل إلى المعنى المباشر الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة، أي المعنى التلقائي الذي يفيد الوفرة والكثرة.

والتكيف مع المستجدّات التعبيرية، فلا تسف، ولكنها تحافظ على طبيعتها وأصالتها ونضارتها.

ثانيًا: أن تفي اللغة بحاجات المجتمع، وأن ترتقي إلى المستويات الرفيعة لشتى ألوان التعبير، بحيث تكون لغة متطورة، مسايرة لعصرها، مندمجة في محيطها، معبرة عن ثقافة المجتمع ونهضته وتطوره، مواكبة لأحواله، مترجمة لأشواقه وآماله.

ثالثًا: أن يُحتفظ بمساحات معقولة بين لغة الخطاب اليومي عبر وسائل الإعلام جميعًا، وبين الفكر والأدب والإبداع في مجالاتهما، بحيث يكون هناك دائمًا المثل الأعلى في استعمال اللغة، يتطلع إليه المتحدثون والكتاب على اختلاف طبقاتهم، ويسعون إلى الاقتداء به ويجتهدون للارتفاع إليه، فإذا عدم هذا المثل الراقي حلَّ محله مثل أدنى قيمة وأحط درجة، لا يربي ملكة ولا يصقل موهبة ولا يحافظ على اللغة إن لم يسيء إليها ويفسدها.

والشرط الثالث هو من الأهمية بمكان، لأن انتفاء المثل الأعلى في اللغة يؤدي إلى هبوط حاد في مستوى التعبير الشفاهي والكتابي على السواء، ويتسبَّب في شيوع اللهجات العامية التي تنازع الفصحى السيادة على الفكر واللسان، لدرجة أنها تصبح مثلاً يحتذى به. وتلك هي الخطورة التي تهدد شخصية اللغة العربية في الصميم. وهذه هي النتيجة التي يخشى اللغويون العرب من الوصول إليها لأنها تمثل خطرًا حقيقيًّا على الفصحى وعلى ما تمثله من قيم ثقافية رفيعة، هي من الخصوصيات الحضارية للأمة العربية الإسلامية.

وهذه الشروط الثلاثة تتمثل اليوم في (الفصحى المعاصرة) التي تجري على سنن اللغات، فتراكيبها وصيغها جميعًا لا تستعصي على التطور، ولا هي أشياء ثابتة راسخة كالصخر الأصم، بل هي كائنات حية مثل أصحابها، فهم في تطور وتغيّر مستمرين من يوم هبوطهم في مهودهم إلى يوم استقرارهم في لحودهم، وكذلك التراكيب والصيغ في

اللغة، فهي ما تني تتحرك وتتطور وتتغير، وهو جانب واسع جدًّا في الأسلوب المبسط الجديد لفصحانا المعاصرة[١].

والفصحى المعاصرة هي خلاصة التطور الذي عرفته اللغة العربية في هذا العصر، وهي اللغة (الوسطى) التي هي أعلى مستوى وارفع مقامًا من (اللغة السيَّارة) ، فهي لغة عربية تحافظ على خصائصها ومميزاتها وتراكيبها وصيغها، ولكنها لغة عربية معاصرة، بكل ما في المعاصرة من دلالات ولذلك كانت الفصحى المعاصرة تعيش مرحلة خصبة من جميع الوجوه، إذا وسعت مضامين شتى من العلوم والآداب، ونفذت إلى أسلوب ميسر مبسط، من شأنه أن يساعدها على انتشارها في جميع الألسنة، وقد ظفرت بفنون كانت خاصة بالعامية. ولكنا نعرف أن الفصحى المعاصرة استولت منذ القرن الماضي على أكبر ساحة لغوية شعبية في هذا العصر[٢].

والفصحى المعاصرة من هذا المنظور، هي الأمل في تطور اللغة العربية تطورًا سليمًا، في هذه المرحلة التي تُهاجم فيها الهوية الثقافية والخصوصية الحضارية للأمم والشعوب، فهي لغة الإعلام والفكر والثقافة والإدارة والديبلوماسية، وهي لغة لا تنفصل عن الماضي، ولا تتنكر للتراث اللغوي، ولكنها لا تجمد عند مرحلة تاريخية من تطور اللغة، وإنما تساير المستجدات في غير اندفاع أو غلوّ أو تطرف، لأن التطرف في اللغة هو الانفلات من القواعد، والانقلاب على التراكيب والصيغ البيانية المقطوع بصحتها وسلامتها.

واستنادًا إلى هذه المرتكزات، فنحن نرى أن الفصحى المعاصرة هي لغة الحاضر والمستقبل، وهي الرد الموضوعي على الأخطار التي تتهدّد اللغة العربية، وهي إلى ذلك، التطور الطبيعيُّ للفصحى الأصيلة التي ضعف استعمالها في المجتمع نتيجة للأسباب والعوامل التي ذكرناها آنفًا.

---

(١) د. شوقي ضيف، في التراث والشعر واللغة، ص : ٢٤٢، (سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية ١٠٠)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٢.

وليس في هذا التركيب: (الفصحى المعاصرة)، المعنى المجرد الواحد فقط الـــذي يتبادر إلى الأذهان للوهلة الأولى، وإنما فيه معانٍ كثيرة، منها ربط الفصحى بالمعاصرة، بما يستلزمه ذلك من الانخراط في العصر، والاندماج في تحولاته، والاستغراق في تياراته، وهو الأمر الذي يعني في المقام الأول الأخذ بالنتائج التي انتهى إليها علم اللغة الحديثة، والاستفادة من ابتكارات العلوم المرتبطة بفقه اللغة وعلم الأصوات. وبذلك يكون أحد المعاني التي يوحي بها مصطلح (الفصحى المعاصرة) ، أنها لغة تلتزم قواعد العلم الحديث.

- ٤ -

إن تزايد نفوذ الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، يشكل عاملاً مساعدًا لذيوع اللغة العربية وسعة انتشارها ووصولها إلى آفاق بعيدة، تتخطى رقعة الوطن العـــربي إلى العالم الإسلامي، وإلى مناطق شتى من العالم، خصوصًا وأن الإعلام المرئي يلعـــب دورًا بالغ التأثير في تبليغ الرسالة الإعلامية إلى العالم أجمع. وبذلك اتسعت الـــساحة أمـــام الضاد على نحو لا عهد لها به من قبل. وفي هذا الامتداد للغة العربية تجديد لها، على نحو من الأنحاء، وتبديد للوهم الذي ساد في فترات سابقة، بأن الضاد لم يعد لها مكـــان في هذا العصر.

ولئن كان هذا الاتساع المطرد والانتشار المستمر للغة العربية يعبر عـــن حالـــة صحية تبعث على الارتياح، فإن التأمل المتأني في الوجه الثاني لهذه الظاهرة، ينتهي بنـــا إلى الوقوف على الحجم الحقيقي للمشكلة التي تعاني منها اللغة العربية في هذا العـــصر، والتي ستتفاقم في المستقبل، ما لم نبادر إلى البحث عن الحلول المناسبة. وبيان ذلـــك أن ثمة نوعًا من الخداع في الظاهرة موضع البحث، لأن لها مـــستويين؛ أولهمـــا إيجـــابي، وثانيهما سلبي، فالإيجابي يتمثل في انتشار اللغة العربية على أوسع نطاق في هذا العصر، والسلبي يكمن في أن الرضا بمستوى اللغة والركون إلى وضعها الحالي، يورثان حالة من الاطمئنان والقبول والتسليم بالأمر الواقع، مما يتسبَّب في العزوف عـــن تـــراث اللغـــة

والزهد في رصيدها على النحو الذي قد يؤدي، إذا ما استمرت الحال على ما هو عليه اليوم، إلى ما يشبه القطيعة مع الثقافة العربية الإسلامية في مصادرها وأصولها.

ولتلافي هذه الازدواجية، ولتجاوز هذه السلبية، فإنه لا مناص لنا من اعتماد المنهج التكاملي في تعاملنا مع اللغة، وقوامُه أن تواكب الجهود التي نبذلها على مستوى مجامع اللغة العربية في الوطن العربي وعلى مستويات أخرى في أقسام اللغة العربية بالجامعات العربية، التطور الذي تعرفه اللغة بحكم تأثير وسائل الإعلام فيها، وأن يساير هذا العمل الأكاديمي والفني، الوضع الحاليّ للغة العربية، فلا يرتفع عنه، ولا يستهان به، وإنما يتفهمه، ويستوعبه، بحيث لا يتم خارج نطاق الواقع، وإنما يكون جزءًا من هذا الواقع، يتفاعل معه تفاعلاً إيجابيًّا ينتج عنه ازدهار اللغة العربية وانتشارها، والحفاظ عليها وحمايتهما، وتطورها وتجديدها.

ولهذا المنهج أربع قواعد نوجزها فيما يلي:

أولاها: التعامل مع اللغة على أساس أنها كائن حي قابل للتطور وفق ما يقرره أبناء اللغة، أي أن تطوير اللغة يأتي من إرادة الناطقين بها، ويصدر عنهم، فهم أصحاب المصلحة في هذا التطور.

ثانيتها: إحكام العلاقة بين عملية تطوير اللغة وإصلاحها وتحسينها وتجديدها، وبين المتغيرات التي تعيشها المجتمعات العربية، بحيث تكون عملية التطوير استجابة لتطور المجتمع ونابعة عن واقعه المعيشي.

ثالثتها: الانفتاح على المستجدات في العالم، خاصة في مجالات العلوم والثقافة والمعلومات وعلم اللغة الحديث بكل تفريعاته والحقول البحثية المرتبطة به، والسعي إلى الاقتباس والنقل والاستفادة الواسعة من نتائج هذه العلوم جميعًا في إغناء اللغة العربية وربطها بحركة الفكر الإنساني.

رابعتها: الاهتمام بالجانب القانوني والتشريعي في عملية التطوير، حرصًا على ضبط مساره والتحكم في نتائجه، من خلال وضع قوانين تصادق عليها الجهات

المختصة في الدولة، لفرض هيبة اللغة وإلزام أفراد المجتمع والهيئات والجماعات باحترامها طبقًا للقانون، أسوة بما هو عليه الأمر في بعض الدول الغربية.

إن هذا المنهج الذي ندعو إليه، يلائم عصر العولمة الذي نعيشه، وينسجم مع طبيعة التحديات التي تواجه الضاد، ويتناسب والواقع الثقافي في العالم العربي.

إن لغة الإعلام في عصر العولمة لا تستقر على حال، فهي في تطور مطرد، لا يكون دائمًا في خدمة اللغة. ولكنا لا نملك أن نعزل أنفسنا عن تيار العولمة، أو ننأى بلغتنا عن (الإعلام العولمي) .

ومهما كان حكمنا على العولمة، ومهما يكن رأينا فيها[١] فإنها تتيح فرصًا كثيرة لكل من يرغب في تطوير لغته، حيث تقدم الصحون اللاقطة والأنترنيت والبريد الإلكتروني والحاسوب، كل ما يستلزم من عمليات الإحصاء والترتيب والتخزين والاسترجاع والتصحيح، والمستقبل مفتوح لما لا يخطر على البال.

ويستلزم الأمر في هذا المجال القيام بالخطوات التالية:

أولاً: تفعيل المنظمة التربوية تفعيلاً معاصرًا، وذلك بتطوير الخطاب اللغوي، حتى يلبي كل أنماط الخطاب البسيط العلمي، ويغطي كل أساليب التعبير، ويصاحب هذا بالتجديد في متن اللغة استجابة لملاحقة العصر.

ثانيًا: بناء الذخيرة اللغوية، وبنوك المعطيات.

ثالثًا: علاج اللغة علاجًا آليًا، من خلال اعتماد نظم الترجمة الآلية منها وإليها.

رابعًا: إدخال التراث اللغوي العربي في أقراص ممغنطة (C.D)[٢].

ونحن نعدُّ العمل الذي قام به الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في مجال تيسير اللغة مثالاً يحتذى، فمن جملة الكتب التي أصدرها، والتي تعدّ قدوة وأسوة حسنة، كتابه

---

(١) يراجع كتابنا (تأملات في قضايا معاصرة)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠ ، فقد بحثنا فيه قضية العولمة من جوانبها المختلفة وأبعادها المتعددة. ولنا كتاب عن (العالم الإسلامي في عصر العولمة) تحت الطبع في دار الشروق أيضًا.

(٢) د. صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللغة العربية ص: ٣٠١ مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة، ١٩٩٩م.

(تيسيرات لغوية) الذي جاء فيه بتيسيرات في جوانب من استعمالات اللغة وقواعد العربية، رأى عرضها على الكتاب والقراء، حتى ينحي عن طريقهم ما قد يظنونه إزاء بعض الصيغ انحرافًا عن جادة العربية وقواعدها السديدة [(١)].

إن قسمًا كبيرًا من مشاكل اللغة العربية يعود إلى أسباب ذاتية، ونقصد بها ضعف همة أبناء الضاد وقصورهم في القيام بواجبهم تجاه لغتهم التي هي لسان دينهم وعنوان هويتهم الثقافية ورمز سيادتهم الحضارية، وتفريطهم في مسؤوليتهم التاريخية في الحفاظ على تراثهم وحماية وجودهم المعنوي.

إن محنة العربية لا تتمثل في حشود الألفاظ والمصطلحات الوافدة من عالم الحضارة المعاصرة، إلى عالمها الذي يبدو مختلفًا، ليس ذلك فحسب، بل إن محنتها الحقيقة هي في انهزام أبنائها نفسيًّا أمام الزحف اللغوي الداهم، واستسلامهم في مجال العلوم للغات الأجنبية، بحيث قد تكونت في العالم العربي جبهة عنيدة تجاهد للإبقاء على العربية بمعزل عن مجال العلوم والتكنولوجيا، فما دامت صفوة المشتغلين بالعلوم تعرف الإنجليزية أو الفرنسية مثلاً، فلا بأس من عزل العربية، بل وقتلها. هذا مع أن هناك شبه إجماع على ثلاثة أمور تشكل اقتناعًا مشتركًا بين جميع من يعُنى بحاضر اللغة العربية ومستقبلها، ويهتم بمعالجة مشكلاتها، وهي:

- **الأول**: أن العربية قادرة على استيعاب العلوم، ولا يمكن لأي مجتمع أن ينهض ويتحضر إلا من خلال لغته، ومن ثم لن ينهض العرب إلا بواسطة العربية.
- **الثاني**: أن معرفة أكثر المشتغلين بالعلوم للغة الإنجليزية لا ترقى إلى مستوى معرفة أهلها أنفسهم، فهم يستخدمون لغة لا يتقنونها إتقانًا كاملاً، ويهملون

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من (تيسيرات لغوية) عن دار المعارف بالقاهرة، في ١٩٩٠م. وللمؤلف كتاب ثانٍ حول هذا الموضوع صدر له عن دار المعارف بالقاهرة في ١٩٩٤م بعنوان (تحريفات العامية للفصحى في القواعد والبنيات والحروف والحركات). وفي الكتابين فوائد جمة، وقد نحا فيهما المؤلف منحى اجتهاديًّا في اللغة جديرًا بأن يقتدي به.

لغتهم التي يمكن أن يحققوا بها مستوى أداء أفضل، فيزدادون ضعفًا على ضعف.

- **الثالث**: أن مستوى الطلاب في الكليات العلمية لما يتلقونه بالإنجليزية أو الفرنسية ضعيف، وهو أضعف قطعًا مما لو تلقوا موادهم بالعربية على أيدي أساتذة يحسنونها[1].

ويمكن لنا أن نقول، في ضوء هذا كله، إن العيب في أبناء اللغة وليس في اللغة، وإن التنمية مرهونة بالجهد الذي نبذله نحن في الواقع وبين الناس، لا في القراطيس، وإن الآثار الإيجابية للعلاقة بين اللغة والإعلام، لا يكون لها نفع أو جدوى أو فائدة، ما لم نقم، كل في موقعه ومجال تخصصه، بما يجب أن نقوم به، من العمل المدروس والممنهج للحفاظ على صحة اللغة وسلامتها، ولتحقيق المزيد من التنمية اللغوية مستغلين الإمكانات الفنية والتقانية الهائلة التي تتاح لنا اليوم، لتعزيز مكانة لغتنا بالعلم والعمل وتضافر الجهود، ووضع الضوابط والتشريعات التي تحول دون انفلات اللغة وتراجعها عن أداء دورها في البناء الحضاري والنماء الاجتماعي.

* * *

(١) د. عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية؛ ص:٣٦٦، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

لغة الصحافة(*)

للأستاذ محمد زكي عبد القادر
(عضو المجمع)

في الأربعينيَّات من هذا القرن اعترض رئيس إحدى الحكومـات - وكانـت الرقابة مفروضة على الصحف - على مقال نشر في إحدى الـصحف، ولمـا ناقـشه كاتب المقال فيما يعترض به عليه، ولم يكن في المعنى الظاهر لما كتب باب للاعتراض، ولكن رئيس الحكومة ألغى من وجهة نظره أبوابا عديدة للاعتراض، رد عليها الكاتب ردودا مقنعة، أوقعت رئيس الحكومة في حيرة من أمره، ولكنه زم شفتيه وعقد ما بين حاجبيه، وقال متوعدا أو شبه متوعد: وما بين السطور، وماذا تقصد بما بين السطور؟ وماذا تقول فيه؟

أجاب الكاتب أنه مسئول فقط عن المعنى الظاهر، أمـا مـا بـين الـسطور، إذا كان هناك ما يمكن أن يمسى بين السطور، فإنه غير مـسئول عنـه، لأنـه نيـة مضمرة لا دليل عليها. والإنسان لا يؤخذ إلا بالبين من قوله، وليس بالمستور من نيته.

قال رئيس الحكومة: أنا عارف بنيتك. قال الكاتب: ليس لدي ما أعترض بـه عليك، وأنت تعرف أنه ليس لدي أية انتماءات حزبية.

قال رئيس الحكومة: لعله ليس حبا لعلي ولكن كراهة لمعاوية.

قال الكاتب: ولماذا أكرهك، وأنا لم ألقك في حياتي سوى مرة أو مـرتين، ولم تقع بيننا مشادة أو خلاف في الرأي؟

وعاد رئيس الحكومة إلى "ما بين السطور"، وقال: ولكن ما بين السطور، ماذا تقصد به؟

- هل تسألني عن قصد لما أنكر وجوده أصلا؟

(*) ألقي البحث في الجلسة العاشرة من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والأربعين (السبت الموافق ٧ من مارس ١٩٨١، ونشر بمجلة المجمع، بالجزء السابع والأربعين، ص ١٥٣.

- أنت تتلاعب باللفظ والكلمة، أنا كاتب وأنا أعرف الأساليب الملتوية.

ولمح رئيس الحكومة من طرف خفيّ أن الأحكام العرفية لا تزال قائمة.

وفهم الكاتب، أو لم يفهم، المقصود من هذا التلميح، ولكن هكذا كان الجو الذي ساد الصحافة المصرية في فترات عديدة، من الفترات التي قيدت فيها حريتها، مما جعل لغتها متهمة، وكأنها تسير على الصراط، تقول ما تكتب، وتعني غير ما تقول وتكتب.

وقد أثر هذا وذاك على لغتها حتى بعد أن رفعت الرقابة عنها، في الفترات القليلة التي كانت ترفع فيها الرقابة... والإنسان إذا اعتاد الرقابة اعتاد الاستخفاء، وأصبح الناس يقرأون الصحف ويسألون كما سأل رئيس الحكومة عما بين السطور.

وأصبح البحث عما بين السطور هو هدف القارئ، كما كان هدف الذين يراقبون الصحف ويتعقبونها، وترتب على هذا وذاك أن اهتزت ثقة القارىء في الصحف، وفقدت عنصرا أساسيا من عناصرها الأساسية، وهي الإبانة والوضوح... وانسحب عدم الثقة من عالم السياسة إلى غيرها من العوالم؛ فأصبح من الذائع بين الناس أن يصفوا ما تكتبه الصحف وتذيعه بأنه كلام جرايد، تمييزًا له عما عداه من الصدق في القول والرأي وهو أصلا جوهر الكتابة وواجب الكاتب.

ووقع في فترة أخرى حوار بين رئيس الحكومة وبين الكاتب نفسه. وطال الحوار والجدل بينهما، ثم انتهى بأن قال رئيس الحكومة للكاتب: "أنا عرفت دلوقت قصدكم. أنتم عايزين الإنجليز يجيبوا النّحاس على الدبابات".

وقال الكاتب إن ما جرى بيننا من حوار لا يؤدي إلى هذا المعنى. وكان فعلا لا يؤدي إليه، ولكنه كان دليلاً على أن اللغة التي يتكلم بها الحاكمون تختلف عن اللغة التي يتكلم بها الصحفيون والكتاب وأصحاب الرأي.

هل يمكن القول إذن بأن الرقابة على الصحف كان لها تأثير خاص على لغتها؟

بالقطع كان لها تأثير هو الاستخفاء والغموض وتحميل الكلمات والعبارات أكثر مما تحتمل أو أقل مما تحتمل طبقا للغرض الخفي، وهو الهروب من القيد أو التحايل عليه.

على أنه يمكن القول إنه أثر وقتي يزول بزوال الرقابة، ولكن الصحيح أيضا أن الاعتياد على القيد والخوف منه يظل قائما فترة تالية من الوقت، ويطبع اللغة بطابع خاص، وهو ما حدث ولعله لا يزال.

ولكن لغة الصحافة لها تاريخ طويل قديم. فإن لغة الصحافة هي تاريخ الصحافة. وتاريخ الصحافة هو تاريخ الشعب الذي ننتمي إليه ونكتب باسمه. وفي هذا المجال تحضرني كلمة نسبت إلى "توماس جفرسون" أحد البناة الأوائل للولايات المتحدة الأمريكية، هي قوله:"لئن خيِّرت بين صحافة من غير حكومة أو حكومة من غير صحافة لآثرت الأولى على الثانية".

وقول الصحفي الإنجليزي "شويدان" :"خير أن تكون بغير برلمان من أن تكون بغير صحافة حرة. وإنه من الأفضل أن نحرم من المسئولية الوزارية ومن الحرية الشخصية ومن حق التصويت على الضرائب، ولا نحرم من حرية الصحف، فنحن بها نستطيع - إن عاجلاً أو آجلاً - أن: نستعيد جميع لحريات الأخرى".

والصحافة المقصودة هنا هي الصحافة التي تصدق في التعبير عن الشعب، إرادته وميوله واتجاهاته وتطوره في آفاق المستقبل المنظور وغير المنظور، ولا يمكن أن يوجد في الصحافة تعبير صادق بغير حرية حقيقية كاملة، وكذلك لا يمكن أن يوجد أسلوب مشرق صريح ذو دلالة وفيه تحفز وانطلاق إلا في جو من الحرية، هي قرينة الصحافة وجوهر وجودها وكيانها.

وكما أن الصحافة تلخص تاريخ الأمة، فإن لغتها تمثل تطور هذه اللغة ارتفاعا وهبوطا، نصاعة وغموضا، جرأة ومخاطرة، انطلاقا وانكماشا.

وقد اصطدمت الصحافة منذ وجودها بالسلطة الآمرة في الدولة، فإن الصحافة بطبيعتها تنشد الحرية في التعبير، في النقد والتوجيه، في القدرة على الإبانة عن إرادة الأمة ومتطلباتها، بينما السلطة الآمرة بطبيعتها تجنح إلى التدخل تخفيفا لتعبير جارح أو حذفا له أو نقدا فيه إيحاء بالتغير، رغبة في إبقاء الحال على ما هو عليه.

فالصحافة تريد أن تكون دائما عينا مفتوحة ترى كل شيء، والسلطة تريد ألا تكون هذه العين مفتوحة ترى وكأنها لا ترى، تحس وتكتم إحساسها فلا تعبر عنه.

ومن هنا نشأ ما عرف بقوانين الصحافة والنشر في البلاد شرقا وغربا، وهي قوانين خاصة بحرفة الصحافة وحدها، فلا مثيل لها فيما يتعلق بسائر الحرف والصناعات، وذلك لأنها وثيقة الاتصال بالشعب والرأي العام، وهي في الحياة الديمقراطية في هذا العصر صاحبة السلطة والقدرة على إقامة الحكم وتثبيته أو هزه وإضعافه.

وكلما زاد نفوذ الشعب والرأي العام ازداد نفوذ الصحافة وعلت كلمتها، وكلما قل هذا النفوذ قل نفوذ الصحافة وضمر أو انمحى تماما.

والسلطة قسمة بين هذين المحورين: الحكومة والصحافة، ما ينقص في جانب يضاف إلى الجانب الآخر.. والصحافة تستمد سلطتها من الشعب ولذلك خافها المستبدون من الحكام، وآخاها الديمقراطيون منهم.

قال "تولستوي": إن الصحف نفير السلام وصوت الأمة وسيف الحق القاطع ومجيرة المظلومين، فهي تهز عروش القياصرة، وتدك معالم الظالمين.

وقال فولتير: الصحافة آلة يستحيل كسرها وستعمل على هدم العالم القديم حتى يتسنى لها أن تنشىء عالما جديدا.

وقال "القيصر نقولا الثاني": جميل أنت أيها القلم، ولكنك أقبح من الشيطان في مملكتي.

وقال "دياز" رئيس جمهورية المكسيك: وددت لو كنت أملك معامل الـــورق والحبر، إذن لأحرقتها جميعا.

وقال "السلطان عبد الحميد" بعد خلعه: لو عدت إلى يلدز لوضـــعت محـــرري الجرائد كلهم في أتون من الكبريت.

وقال "أمير الشعراء شوقي":

لكلّ زمان مضى آية   وآية هذا الزمان الصحف

وقال "بول فاليرى" الأديب الفرنسي: إن الإنسانية في مجموعها لا تقرأ اليـــوم غير الصحف، وإن تحليل جريدة وغربلتها غربلة جيدة تعد في ذاتها رياضة على جانب كبير من الفائدة والقيمة، وإن الغذاء العقلي للجنس البـــشري بعـــد الآن في مطـــابع الصحف.

وليست قيمة الصحف أنها أداة سياسية فحسب، فإنها أيضا من أقوى وســـائل التثقيف والتربية للشعب.

وقال "أوسكار زانشتيي"، وكان يدرس الصحافة في جامعة زيورخ: إن أغلـــب المثقفين لا يقرأون سوى الصحف.

وسئل رجل عن صنعته، فقال: أستاذ مؤدِّب، فقيل له: كيف تقول ذلك، وأنت تصدر صحيفة؟

فأجاب: إنني رأيت الناس لا يرسلون أولادهم إلى المدرسة، فأرسلت المدرسة إلى أولادهم.

على أن الصحافة لم تبلغ ما بلغت من مقام في هذا العصر إلا بعـــد تطـــورات عديدة مرت بها. فكانت في أول نشأتها صحافة أخبار قبل كل شيء. ثم أخذ اهتمامها يزداد فيكاد يشمل كل شيء، فأصبحت صحافة إعلام وتثقيف وسياسة واقتصاد ولهو وتسلية وتوجيه وإرشاد.

ووقع مثل هذا التطور في مصر خاصة، وفي البلاد العربية عامة.

وانقسمت الصحافة إلى صحف خبر، وصحف رأي. ومع تعدد الأغراض وتطور المجتمع، أصبحت الصحافة تعرض لكثير من الشئون والاهتمامات.

وإذا قلنا إن للصحافة لغة خاصة بها، فإنها وقد تعددت أغراضها واهتماماتها أصبحت لها لغات متعددة، ولكنها جميعا تصدر عن اللغة الأم، وترتد إليها، وتأخذ المعين منها. هناك لغة للصحافة السياسة اليومية، ولغة للصحافة الأسبوعية، ولغة لصحافة الاقتصاد والعلوم والتسلية والفكاهة والزجل والشعر والأدب.

إلا أن الفروق بين هذه اللغات المتعددة فروق طفيفة ترجع إلى اختلاف الاهتمامات واختلاف التعبير.

وقد لا يوافق البعض على هذه التفريعات، ويقولون إنها لغة واحدة هي اللغة العربية، وهو اعتراض له ما يبرره ويؤكده، ولكن له أيضا ما يعترض به عليه. فليس معنى تعدد اللغات أنها تبتعد عن اللغة الأم، ولكن معناه أن وسائل التعبير تأخذ خصوصيتها من طبيعة الاهتمام بكل نوع من هذه الصحف، فهي أشبه بالأبناء الذين انحدروا من صلب واحد وتربوا في رحم واحدة، فلما خرجوا إلى الحياة تعددت اهتماماتهم ومسالكهم. إلا أن هذا التعدد والانقسام لا ينفي ولا يضعف ولا يقلل من أنهم اشتركوا جميعا في نشأة واحدة، وانتموا إلى أصل واحد.

والصحف بطبيعتها ترمي إلى الاستكثار من القراء، لكنها هي وسيلة التخاطب بين صناعها وبين القراء، وفرق بين لغة تخاطب الكافة وتريد أن تصل إلى أكبر عدد منهم، وتعالج سائر شئونهم وشكاواهم ومطالبهم وأسباب لهوهم والتسرية عنهم، وبين لغة الأدب مثلا التي تعالج فنونه وتخاطب عددا من الناس ذوي ميول معينة.

ويمكن تحديد الفروق بين لغة الأدب ولغة الصحافة في أن الصحفي هـو عـين القارئ على العالم، والأديب هو عين نفسه. الصحفي متعجـل تـسوقه الحـوادث، والأديب متأنٍّ يتأمل الحوادث، والأديب يفشل إذا لم يحسن الانفعال بالحوادث.

غاية النجاح للصحفي أن يسبق الحوادث، وغاية النجاح للأديـب ألا تفوتـه دلالتها.

والصحفي مصور بآلة فوتوغرافية سريعة اللقطات، والأديب رسام بالزيت والماء يسجل الملامح والقسمات.

الزمن والصحفي كلاهما يطارد صاحبه، وهو للأديب متئد، ينضج عمله ويعمق فهمه ويهديه الصواب.

وعمل الصحفي يتمزق كل يوم، وعمل الأديب يخلد على الأيام.

عين الصحفي في المقدمة، وقلبه ووجدانه في خلف الصورة.

أما عين الأديب فترى بالقلب والوجدان. إذا قلت الحوادث أو انعدمت نضب المعين الذي يأخذ منه الصحفي.

ولكن قلة الحوادث أو انعدامها بالنسبة للأديب ترده إلى نفسه ووجدانه، وهمـا عالم بغير حدود.

الصحفي مرِّدد، مقلّد، ناقل. والأديب متأمـل، خـالق، صـانع. الـصحفي تحيط به الأضواء البـاهرة، ولكنـها سـرعان مـا تنطفـئ، إذا انتـهت حياتـه أو نشاطه. والأديب تحف به شعلة خافتة، تمتد عبر القرون، في وهج أخّاذ تزداد أصالته بمضي الزمن، وكأن صاحبها لم يمت. والأديب يعيب على الصحفي تعجله وسـرعته وخطفه للأمور خطفا. والصحفي يعيب على الأديب تمهله وحبوه.الصحفي أرنـب، والأديب سلحفاة.

الأول يقفـز لأنـه والـزمن في سـباق. والثـاني يحفـر الأرض بأظفـاره لعل السر في باطن غير منظور، ولعل الشعلة تكمـن فيـه. الأول يحتـرق بالـسرعة

والثاني يخلد بالبطء. ولكنهما وجهان عن حياة متعددة الوجـــوه، لا غـــنى لأحـــدهما عن الآخر.

يمنح الصحفي الأديب بعض الخامة التي يصوغ منها الجمال والدر.

والأديب يمنح الصحفي كما يمنح الناس كافة متعة النظر المتأني والبصيرة النافذة والوجدان الهابط إلى الأعماق. المرتفع إلى عنان السماء، يحيط بالكون ويـــصدر عـــن ظواهره، وخوافيه.

الصحفي يعطيه خامة فجة خشنة فيردها إليه الأديب متوهجة متلألئة كالذهب يعطي إلى الصانع الماهر فيبدع منه الأشكال والرسوم.

كيف، وهذا هو الفرق بين الأديب والصحفي، ألا تكون لكـــل منـــهما لغـــة خاصة؟

وكيف لا تكون ومن هـــدف الـــصحفي أن يبلـــغ بلغتـــه كـــل العقـــول والأفهام وكل الطبقات والمستويات، ومن هدف الأديب أن يبلـــغ بلغتـــه الـــضمير والوجدان؟

إذا قلنا إنها لغة واحدة كنا على حق؛ فهذا هو الواقع وهذا هو الصحيح.

وإذا قلنا أن لكل منهما لغة خاصة به، كنا على حق؛ فهذا هو الواقع، وهذا هو الصحيح.

ولكنها آخر الأمر لغة واحدة ترتد إلى أصول واحدة.

وقد ولدت الصحافة في رحم اللغة حينما كان البيان والإفصاح والزهو باللغـــة ومعرفة أسرارها غاية النجاح للصحفي، كما أنها غاية النجاح للأديب.

بدأت الصحافة في أول نشأتها في مصر وكأنها المحظيـــة الأولى للغـــة والأدب.. حينئذ كانت الصحف تنشر في أبرز مكان فيها، وفي أهم صفحاتها، في الصفحة الأولى قصائد شوقي وحافظ، وكانت تنشر المساجلات والبحوث الأدبية الخالصة أيـــضا في أعز مكان فيها، أعز من الأخبار ذاتها.

ثم أخذت الصحافة تفترق عن الأدب شيئا فشيئا، أخذت تبتعد عن الأدب شيئا فشيئا، أخذت صناعة لها خصائص معينة وأهداف معينة.

وشيئا فشيئا أخذت لغة الصحافة المتميزة تقفز إلى الصف الأول، وأخذت لغة الأدب تتراجع شيئا فشيئا إلى الصف الثاني.

وأصبح لدينا سواء أردنا أو لم نرد لغة للصحافة ولغة للأدب، وما يقال في هذا المجال يقال عن صحافة الفن والترفيه والصحافة العلمية والاقتصادية... إلخ.

ولا قيمة للصحافة - كما سبق أن قلنا - من غير قراء، فهدفها أن تستكثر منهم، فإن قيمتها فيهم وسلطانها مستمد منهم وأداء مهمتها متوقف عليهم. وكي تبلغ من القراء ما تريد وتستطيع لابد أن تكون لغتها وأساليبها في متناول الكافة والأوساط من الناس، مما يفرض عليها في بعض الأحيان الخروج على مقتضيات اللغة، يجعلها تلقى إليها البال الذي ينبغي أن تلقيه إليها.

وللغة الصحافة مقياس تعتمد عليه وتجعل له التقديم على غيره، فلابد أن تكون لغتها مفهومة عند أكبر عدد من أفراد الشعب، شرط ألا تنحط إلى مستواهم، فلابد أن تكون مرتفعة قليلا عن هذا المستوى، لأن القراء يريدون أن يقرأوا في الصحيفة ما هو أعلى من مستواهم. وذلك لابد من مراعاة هذه النسبة مراعاة دقيقة، فإن هذا الارتفاع محكوم بألا يجاوز الحد الذي يجعلها مفهومة، فإذا جاوزه تعرضت لخسارتهم وانفصالهم عنها.

ومن هنا يتبين أن ارتفاع مستوى اللغة في الصحافة محكوم بما عليه القراء من ثقافة وتعليم، فكلما زادت ثقافتهم وزادت درجة تعليمهم ارتفع مستوى اللغة في الصحف بالنسبة نفسها، واقتربت لغة الصحافة من اللغة الصحيحة، وربما جاوزته فاقتربت من لغة الأدب.

إلا أنها حتى ولو بلغت هذه المرحلة، فلابد أن تبقى للأدب خصائصه وللغة الصحافة خصائصها.

ولا يدعو ارتفاع مستوى الثقافة والتعلم لدى القراء إلى تحسين لغة الصحافة وارتفاع مستواها فحسب، ولكنه يؤدي أيضا إلى ارتفاع مستوى المعلومات والتعليقات التي تنشرها الصحف، بل وأن يرتفع أيضا مستوى الصدق في التحليل والتعليق.

وهكذا نجد أن العلاقة بين لغة الصحافة وبين القراء علاقة وثيقة مؤكدة، تأخذ منهم وتعطي، وتثرى لغتها، ومن ثم تثري اللغة العربية ذاتها.

وقد لعبت الصحافة دورا خطير في تطوير اللغة وأساليبها، وفي خدمة الأدب والأدباء وخدمة الاقتصاد والاقتصاديين والقانون ورجال القانون، وإذا شئنا الاستطراد قلنا إنها لعبت مثل هذا الدور في سائر المعارف والعلوم، فقد كانت أشبه بالرائدة في حقول مجهولة، فمهدت الطريق لكثير من الألفاظ والمصطلحات حتى ذاعت على كل لسان.

وهي أجدر وأقدر أن تقوم بهذه المهمة بطبيعة ظهورها المتكرر في مواعيد معروفة وطبيعة اهتمامها بالأخبار والتعليقات والحوادث وطبيعة امتزاجها بالأفراد وتأثرها بهم وتأثرهم بها.

وقد حفلت السنوات الأخيرة بتطورات كبيرة وعميقة في العلاقات الدولية والصراع الحزبي والوطني، وكانت سببا في نشوء تغييرات جديدة صقلها الاستعمال، فأصبحت ذائعة ومقبولة ومعروفة وذات دلالة متعارف عليها ولا ترفضها اللغة الفصحى.

وكانت الصحافة المصرية الحديثة منذ انتظامها وقيامها كمؤسسة ذات تأثير وخطر في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن، تعتمد في تحريرها على العارفين باللغة العربية المتمرسين بأساليبها وأسرارها من خريجي الأزهر وسائر المعاهد ذات الطابع الديني اللغوي. وكانت لغتها متأثرة بصورة واضحة بالأسلوب الأدبي المشرب بالروح الدينية. فكانت المقالات والشذرات والتعليقات لا تخلو من الاستشهاد بأبيات من

الشعر أو أبيات من القرآن والأحاديث النبوية، حافلة بالسجع والإفاضة والتكرار والمحسنات اللفظية دون احتفال كبير بالمعاني، وكانت في هذا العصر ضحلة، ليست بالعمق الذي أصبحت عليه فيما بعد.

وكانت مصر حينئذ تكافح المحتل وتحاول إجلاءه عن أرضها، فاتفق الغرض مع أسلوب التحرير، فكانت الحماسة والاندفاع والفدائية والتضحية هي المسيطرة على الأفكار والتحركات والنزعة الوطنية.

وفيما عدا الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد، ومصطفى كامل صاحب اللواء، ولطفي السيد محرر الجريدة كان أكثر المشتغلين بالصحافة من هذا الطراز الذي أشرنا إليه.

والصحافة حينئذ لم تكن حرفة مربحة ولا مريحة، وإنما جذبت من جذبت إليها من كبار الرجال ممن ذكرنا لأسباب سياسية ووطنية دون اعتماد للصحافة من حيث هي حرفة تتطلب معرفة معينة واستعدادًا معينا.

وكانت هذه هي المرحلة الأولى التي مرت بها الصحافة المصرية، وهي مرحلة اختلطت فيها الصحافة بالوطنية، واختلطت لغتها بالأدب والدين والمثل الخلقية والدينية. ولم تظهر الصحافة كحركة مستقلة لها خصائصها ومقوماتها في بلد محتل جل همه أن يتخلص من المحتل وأن يصبح ذا كيان مستقل.

وكانت الأحزاب حينئذ هي: حزب الإصلاح، والمتحدث باسمه هو الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد.

والحزب الوطني، والمتحدث باسمه مصطفى كامل وجريدة اللواء.

وحزب الأمة، والمتحدث باسمه لطفي السيد في الجريدة.

وكان الافتراق بين هذه الأحزاب يمثل التيارات السياسية حينئذ.

ومن حيث لغة هذه الصحف الثلاث يمكن القول إن الجريدة لسان حال حزب الأمة كانت أكثرها تجديدا ومسايرة للعصر، وأقربها إلى لغة الصحافة بحسبانها لغة تفترق إلى حد ما عن لغة الأدب.

على أن هذا الافتراق لم يكن واضحًا تمامًا، ولكنه إرهاصًا لما حدث بعد ذلك.

ثم قامت ثورة سنة ١٩١٩، وأقام الوفد حزبًا شعبيًا واسع التأثير في الجماهير، ومع صدور دستور ١٩٢٣ بدا أن لغة الصحافة تدخل مرحلة جديدة، وأخذت تتميز في أسلوبها عن الأسلوب القديم، بقيام الصحف الحزبية والصراع الحزبي والحوار الحزبي بما ساده من تحمس وانتماء شديد كل إلى الحزب الذي يناصره... وكان الوفد هو الحزب الذي يستولى على مشاعر الجماهير. فوقعت بينه وبين الأحزاب الأخرى صراعات عديدة، واتهامات عديدة.

واتسمت لغة الصحافة في هذه المرحلة بالشدة والعنف وإيثار اللغة الحادة وانحطاط مستوى الحوار الحزبي في بعض الأحيان على درجة لا يمكن قبلوها ولا التسامح فيها، ولكنها من جانب آخر أدخلت في اللغة بعض المصطلحات والعبارات والألفاظ، كانت جديدة، لا على اللغة فحسب، ولكنها كانت جديدة أيضًا على لغة الصحافة.

وتأكد وجود الصحافة الحزبية؛ فإلى جانب الأحزاب التي عرفتها مصر في أوائل هذا القرن كانت ثورة ١٩١٩ بالتطورات التي مرت بها، حتى صدر الدستور وجرت الانتخابات وانعقد مجلس النواب ومجلس الشيوخ، فصدرت: البلاغ، وكوكب الشرق، والجهاد وغيرها من الصحف والمجلات مؤيدة للوفد، وجريدة السياسة معبرة عن رأي حزب الأحرار الدستوريين، وكانت امتدادًا لحزب الأمة، أو على الأقل كان مؤلفًا في أكثر زعمائه من زعماء حزب الأمة القدامى، وصدرت فيما بعد جريدة الاتحاد معبرة عن حزب عرف بأنه حزب الملك.

ثم أبرمت معاهدة سنة ١٩٣٦، فانتقلت مصر إلى مرحلة جديدة، وكذلك انتقلت صحافتها إلى مثل هذه المرحلة الجديدة. إذا بدا أن العلاقات بيننا وبين الدولة

المحتلة بلغت نقطة توقف أو نقطة استرخاء، ثم بدت بوادر الحرب العالمية الثانية، فامتزج إبرام المعاهدة بهذا الحادث الخطير، وهو قيام الحرب العالمية.

وكان صدور دستور ١٩٢٣، والأعمال التحضيرية الـتي سـبقت صـدوره والتمهيد لإجراء الانتخابات لأول مجلس نيابي في مصر، فرصة حفلت فيها الـصحافة بأبحاث ومقالات وانتصارات ومساجلات حول حرية الصحافة وسلطة الأمة وسـلطة الملك.

وكانت ديباجة الدستور أولى هذه المناسبات التي أثـارت مـا أثـارت مـن مساجلات واعتراضات، فقد جاء فيها ما يشعر بأن الدستور يجئ منحة مـن الملـك، وجاء فيه أيضًا أن الأمة مصدر السلطات، فكيف يستقيم هذا النص مع القـول بـأن الدستور منحة من الملك.

ومن مفاخر الصحافة المصرية هذه المـساجلات الـتي بلغـت مـن الدقـة والعمق ما بلغت، وبلغت من الاعتـزاز بالحريـة والانحيـاز إلى سـلطة الـشعب ما بلغت؛ وبذلك ابتعدت الصحافة خطوة أخرى عن الأساليب الأدبية اللغويـة، إلى الأبحاث القانونية والدستورية، وجال فيها رجـال القـانون والاقتـصاد والـسياسة والدستور.

وبدا أن الصحافة أصبحت حرفة لها مقوماتها وخصائصها ورجالها، وما ينبغـي أن يكون لهم من علم ومعرفة بسائر العلوم والفنون وليس مجرد الإلمام باللغة والتفـوق فيها.

وزاد توزيعها وزاد اهتمام الناس بها، وتنوعت موادها وقفزت إلى الصف الأول، مهنة متميزة، وجنحت لغتها إلى الإيجاز والاقتصاد في الإطناب والأوصاف، والابتعاد عن التطويل.. وبعد أن كانت المقالات الافتتاحية تميل إلى الطول، بحيث كانت المقالة تجاوز العمودين، فيها الكثير من التكرار والإعادة والتأكيد، أصبحت تميل إلى القـصر والإيجاز.

وبعد أن كانت الصحف تكثر من المقالات، أصبحت تميل إلى الإكثار من الأخبار والعناية بها، وتنوعت الموضوعات التي تعالجها، فأصبح الاقتصاد له مكان في صفحاتها، والعلاقات الدولية والسياسة العالمية لها مكان أيضًا، ثم تدرجت فجعلت للمسرح والسينما، ثم لما ظهرت الإذاعة وتلاها التليفزيون أصبح لكل منهما باب أو زاوية أخذت تتدرج في الزيادة والأهمية بتدرج أهمية كل منها وإقبال الناس عليها، كما أصبح للرياضة اهتمام خاص.. أخذ هو الآخر يزيد شيئًا فشيئًا حتى أصبح مادة أساسية من مواد الصحافة.

وكان لكل هذا أثره في تضييق المجال أمام المقالات، وعدلت الصحف عن المقالات الطويلة والعناية بالأدب، فحصرته في مجال معين يظهر كل أسبوع.

وكان الظن بعد إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ أن يهدأ الصراع الحزبي خاصة وأن المعاهدة وقع عليها ممثلون لكل الأحزاب الكبيرة، ولكن تطور الحوادث بعث في الحياة الحزبية الدفعة من جديد، وبعد أن كان هذا الصراع قائمًا على العلاقة بيننا وبين الإنجليز أصبح قائمًا علي تطبيق شروط المعاهدة، واقتراب خطر الحرب العالمية الثانية، بما ينطوي عليه هذا وذاك من التزامات مصر طبقًا للمعاهدة، وتحديد موقفها من الحرب، وهل تنحاز إلى صف الحلفاء أو تقف على الحياد.. ومن خلال هذا وذاك تركزت المعركة على الدستور وحرية الصحافة وسلطة الملك والشعب.

*   *   *

اللهجات العربية الجزء الثانى

رقم الإيداع	٢٠٠٦/٩٤٣٧

طبع بمطابع

روزاليوسف